هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى

للإمام أبي عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر
المعروف بابن قيم الجوزية
(المتوفى سنة ٧٥١ هـ)

تحقيق ودراسة
الدكتور محمد أحمد الحاج

دار القلم
دمشق

هداية الحيارى
في أجوبة اليهود والنصارى

للإمام أبي عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر
المعروف بابن قيم الجوزية
(المتوفى سنة ٧٥١ هـ)

تحقيق ودراسة
الدكتور محمد أحمد الحاج

وقد نال هذا العمل درجة دكتوراه
من جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض

دار القلم
دمشق

الدار الشامية
بيروت

هداية الحيارى

في أجوبة اليهود والنصارى

الطبعة الأولى

١٤١٦هـ - ١٩٩٦م

دار القلم
للطباعة والنشر والتوزيع
دمشق - حلبوني - ص.ب: ٤٥٢٣ - هاتف: ٢٢٢٩١٧٧

الدار الشامية
للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - ص.ب: ١١٣/٦٥٠١ - هاتف: ٣١٦٠٩٢

تطلب جميع منشوراتنا في المملكة العربية السعودية
من دار البشير بجدة
جدة: ٢١٤٦٣ - ص.ب: ٢٨٩٥ - هاتف: ٦٦٠٨٩٠٤ - ٦٦٥٧٦٢١

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المحقق

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه، ونتوب إليه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله خاتم النبيين، بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة وتركها على المحجّة البيضاء، ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك.

أرسله الله تعالى بالدين الذي أكمله ورضيه للبشريّة ﴿اليومَ أكملْتُ لكم دينَكمْ وأتمَمْتُ عليكم نِعْمتي ورَضِيتُ لكمُ الإسلامَ ديناً﴾(١) فكان الإسلام دين الله الذي لا يقبل غيره ﴿ومَنْ يبتغِ غيرَ الإسلامَ ديناً فلن يُقبلَ منه وهو في الآخرة من الخاسرين﴾(٢).

فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد:

فإن الله تعالى الذي تكفل بحفظ هذا الدين، يهيّىء له في كل عصر حراساً يذودون عنه، يحمون عقيدته من الانحراف ويقفون في وجه أعدائه، مبيّنين للأمة وسائل الأعداء ومخططاتهم، رادّين كيدهم إلى نحورهم، ولقد شهدت هذه الأمة ولا زالت تشهد تحدّيات مختلفة واجهها بها أمم الكفر الكثيرة التي تشكل ملة واحدة هي ملة الكفر

---

(١) سورة المائدة: الآية ٣.

(٢) سورة آل عمران: الآية ٨٥.

المجمعة على حب الشر للمسلمين ﴿ما يَوَدُّ الذينَ كفروا من أَهلِ الكتابِ ولا المُشْركينَ أن يُنَزَّلَ عليكم من خيرٍ من رَبِّكم﴾(١).

ولقد كان اليهود والنصارى يحملون لواء العداء للأمة المسلمة على مرّ العصور، فلا يقف كيدهم عند حد، ولا يقتصر على وسيلة، بل يقاتلون المسلمين بكل الوسائل المتاحة لهم، تارة يواجهونهم بالقوة والقتال إذا وجدوا إلى ذلك سبيلاً، وتارة يلجأون إلى الكيد والمؤامرات، وتارة يقومون بقذف الشبهات محاولين تشكيك المسلمين بعقيدتهم.

وكان من حراس العقيدة هؤلاء الإمام العلامة، الذي نقوم اليوم بتحقيق كتابه، شمس الدين ابن قيم الجوزية المتوفى سنة ٧٥١هـ، الذي عاش فترة كانت الأمة قد انتصرت فيها على الصليبيين عسكرياً، ولكن أفكارهم وتشكيكاتهم كانت لا تزال تدور على ألسنة الناس، فقام إمامنا رحمه الله يرد على هذه الشبهات التي يثيرها اليهود والنصارى، ووضع كتابه هذا ليقوم بواجب الحراسة الملقى على عاتقه، وقد بين ذلك في مقدمة كتابه حيث قال: «ومن بعض حقوق الله على عبده ردُّ الطاعنين على كتابه ورسوله ودينه ومجاهدتهم بالحجّة والبيان، والسيف والسنان، والقلب والجنان، وليس وراء ذلك حبّة خردل من الإيمان».

فكان كتابه أجوبة لمسائلهم التشكيكية وتفنيداً لمزاعمهم، ولقد لفت هذا الكتاب ـ الصغير في حجمه القويّ في عباراته وأدائه ـ لفت نظري وأنا أقوم بتحضير رسالة الماجستير حيث كانت بعنوان «النصرانية من التوحيد إلى التثليث»، فرجعت إلى هذا الكتاب وإذا به كتاب جليل عظيم في أسلوبه وقوّة حجته، إلا أنه ينقصه جهد باحث يسهل الاطلاع عليه، يبرز عناوين لموضوعاته، ويزيل اللبس الذي لحق بعض العبارات من سقط بعض الكلمات، فقررت في نفسي أن أعمل مع هذا السفر الجليل وأقوم بتحقيقه.

وعندما عزمت على تسجيل رسالة الدكتوراة كان هذا الموضوع في ذهني إلّا أنني كنت أفضل أن يكون عملاً خاصاً، واستشرت أحد أساتذتي من الذين ناقشوني في رسالة الماجستير، ليرشدني إلى موضوع أقدّمه للدكتوراة، فاختار لي أن أقوم بتحقيق هذا

(١) سورة البقرة: الآية ١٠٥.

الكتـاب، فوافق قـوله مـا في نفسي فقبلت مباشـرة قولـه، وكنت من قبل قـد تعـرفت على أمـاكن وجود مخـطوطات الكتـاب، فعملت خطة وكـان أول عمل عليّ هـو الحصول على مخطوطات أربع تعرّفت على أمكنة وجودها، من خلال الفهارس المختصّة. فـأرسلت في طلبهـا فكانت أول نسخـة وصلت هي النسخة الأمـريكية في جـامعة بـرنستـون، ثم تلتهـا النسخة المصرية، وبعد حوالي سنتين استطعت الحصول على النسختين التركيتين.

كما حصلت أثناء هذه المدة على النسخة المطبوعة بتحقيق الدكتور أحمـد حجازي السقّـا، ولكن اطلاعي عليهـا لم يثن من عـزيمتي على مـواصلة السيـر لتحقيق الكتـاب، والسبب واضح فيما سجلته على هذا التحقيق من ملاحظات.

وقد اشتمل بحثي على ما يلي:

١ ـ مقدمة: بيّنت فيها سبب اختياري الموضوع وخطة عملي فيه.

٢ ـ صلب الموضوع: واشتمل على قسمين:

الأول: قسم الدراسة.

الثاني: قسم التحقيق.

٣ ـ خاتمة موجزة بينت فيها النتائج التي توصلت إليها من خلال البحث.

٤ ـ فهارس عامة.

* * *

هذا وقد اشتمل قسم الدراسة على أربعة أبواب:

* **الباب الأول: (ترجمة ابن القيم):**

واشتمل على خمسة فصول:

كـان **الفصـل الأول** منـه عن عصـر ابن القيم حيث تحـدثت بـإيجـاز عن الحـالات السياسية والاجتماعية والعلمية لذلك العصر.

وفي **الفصـل الثاني** تحـدثت عن اسمه ونسبـه ولقبه وكنيتـه ومولـده وأسرتـه ونشأتـه ورحلاته العلمية وتأثره بشيخه ابن تيميـة، كما تحـدثت بإيجـاز عن أخلاقـه وعبادتـه وثناء العلماء عليه.

وفي **الفصل الثالث** تحـدثت عن شيوخـه وتلاميـذه، وقد ذكـرت له اثنين وعشـرين

شيخاً، ذكر تلميذه الصفدي ثمانية عشر منها، والأربعة الباقون ذكرهم غير الصفدي، بل منهم من صرح ابن القيم بذكر أسمائهم في بعض كتبه. وقد اكتفى الصفدي وغيره بذكر أسمائهم مع الإشارة عند قليل منهم لما أخذه ابن القيم عنهم، فرجعت إلى كتب التراجم وقمت بضبط أسمائهم، وذكر تاريخ الوفاة لكل واحد، وما أخذه ابن القيم عن كل منهم.

أما عن تلاميذه فقد ذكرت له أحد عشر تلميذاً، استطعت أن أتيقن بتلمذتهم على يديه، مع أن الذين أخذوا العلم عنه خلق كثير، كما أشار تلميذه ابن رجب.

ومما يلفت الانتباه أن تلاميذ ابن القيم كانوا من نوعيّة خاصّة ممتازة أنتجوا أمهات المراجع الإسلامية.

وفي **الفصل الرابع** من هذا الباب تعرّضت لمؤلفاته، وقبل أن أقوم بسردها تحدثت عن منهجه في التأليف وخصائصه في ذلك. وقمت بتصنيفها حسب موضوعاتها. فكانت شاملة لمختلف موضوعات الإسلام، وأشرت في نهاية هذا الفصل إلى الكتب التي لم تثبت نسبتها إلى ابن القيم.

أما **الفصل الخامس** فقد خصصته للحديث عن ثقافة ابن القيم وشخصيته العلميّة بينت فيه العوامل المؤثرة في تكوين شخصيته العلمية ومدى تأثير هذه العوامل، وتحدثت فيه عن معالم ثقافته من خلال الحديث عن دوره في التفسير والحديث والفقه واللغة والعقيدة، ثم حاولت أن أبين منهجه العلمي المتميز في البحث والتأليف.

* **الباب الثاني (كتاب هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى):**

واشتمل هذا الباب على خمسة فصول:

كان **الفصل الأول** في إثبات نسبة هذا الكتاب إلى ابن القيم، وقمت بإثبات ذلك من إشارات ابن القيم لهذا الكتاب في مؤلفاته، ومما ذكره المترجمون لحياته.

وتحدثت في **الفصل الثاني** عن موضوع الكتاب وأسلوبه وسبب تأليفه له كما ذكر في مقدمته.

وخصصت **الفصل الثالث** للحديث عن المصادر التي اعتمد عليها ابن القيم في كتابه هذا، مما أشار إليه في الكتاب بنفسه أو مما عرفته من خلال النصوص التي نقلها ابن القيم عنها.

أمـا **الفصل الـرابع** فكـان في وصف مخطوطـات الكتاب، وعـدد صفحـاتهـا ونـوع خطها، وأمـاكن وجودهـا، وتاريـخ كتابتهـا، وقد أتبعت هـذا الفصل حـديثاً مختصـراً عما سجلته من ملاحـظات على النسخة المحققـة التي قام بتحقيقهـا الدكتـور السقا بينت فيـه مخـالفة المحقق لقـواعد التحقيق واقتصـاره في التحقيق على تخريـج الآيات الكـريمـة، ونصوص العهدين القديم والجديـد، وبعض التعليقات منهـا الصحيح ومنهـا الخطأ، كمـا أشرت إلى الأخطاء الكثيرة التي وقع فيها من حذف وتصحيف وزيادة.

ومـا كان هـدفي من ذلك الـطعن ـ ويعلم الله ـ ولكنني أردت أن أثبت أن الكتـاب بعد تحقيق الدكتور السقا بقي بحاجة إلى تحقيق ودراسة.

وفي **الفصل الأخير**، من هذا الباب بينت أهمية هذا الكتاب من نواح مختلفة.

من حيث أسلوبه المتميز في الرد والنقاش.

ومن حيث سعة موضوعاته وشمولها.

كمـا قمت بمقارنتـه مـع بعض الكتب المتخصصـة في مـوضـوعـه ومنهـا الجـواب الصحيح لابن تيمية، والـرد الجميل للغـزالي، وشفاء الغليـل للجويني، وتبين من خـلال هذه المقارنة أن هداية الحيارى: يبقى كتاباً متميزاً له منهجـه وموضـوعاتـه التي لا يستغني عن قـراءتها البـاحث في هذا المـوضوع، وقـد بينت خلال البحث مـا أخذه ابن القيم عن الجواب الصحيح وما تميّز بـه كل كتـاب عن الآخر، راداً بـذلك على الشبهـة التي يثيرهـا البعض ممن لم يطلعوا إلا على عنوان الكتابين، وهي أن كتـاب هدايـة الحيارى مـا هو إلاّ ملخص لكتاب الجواب الصحيح محاولين بذلك التقليل من شأن الكتاب.

والخلاصة التي خرجت بها أن الكتابين متممان لبعضهما لا يغني أحدهما عن الآخر لأن كل كتاب بحث الموضوع من زاوية معينة.

* * *

*** الباب الثالث (أصول العقيدة عند اليهود والنصارى):**

وقد اشتمل هذا الباب على فصلين:

الأول: أصـول عقيدة النصـارى، وفيـه تحـدثت عن أبـرز أصـول المعتقـدات التي

اتفقت عليها طوائف النصارى، وقد بحثت مسألة التثليث بشيء من التفصيل بينما كان حديثي عن الأصول الأخرى مختصراً جداً.

الثاني: أصول عقيدة اليهود، وقد قصرت الحديث عن موضوعين من موضوعات عقيدتهم هما: النسخ والبداء، وعقيدتهم في الإله. وقد تطرقت في الموضوع الثاني إلى مسألة العزير وبنوته لله وأبرزت ما قاله ابن القيم في المسألة مرجحاً ما ذهب إليه من أن عزيراً الذي ادعى اليهود أنه ابن الله هو نفسه عزرا الورّاق الذي وضع لهم التوراة.

* * *

أما في قسم التحقيق فقد اشتمل عملي فيه على ما يلي:

١ ـ المقابلة بين نسخ المخطوط حيث قابلت بين أربع نسخ، نسخة دار الكتب المصرية، ورمزت لها بـ (الأصل)، ونسخة مكتبة برنستون ورمزت لها بالحرف (ب)، ونسخة مكتبة بني جامع بتركيا ورمزت لها بالحرف (ج)، ونسخة مكتبة أيا صوفيا ورمزت لها بالحرف (ص).

٢ ـ وضع العناوين المناسبة للموضوعات الرئيسية والفرعية في الكتاب، وقد وضعتها بين حاصرتين بهذا الشكل [ ] تسهيلاً للقارىء وخدمة للكتاب.

٣ ـ تخريج الآيات القرآنية الواردة في الكتاب.

٤ ـ تخريج الأحاديث النبوية والآثار الواردة.

٥ ـ تخريج نصوص العهدين القديم والجديد الواردة في الكتاب.

٦ ـ ترجمة للأعلام الذين ورد ذكرهم، علماً بأنني لم أترجم للأنبياء عليهم السلام، ولا للمشهورين جداً من الصحابة، كالخلفاء الراشدين، ولا للأسماء الغريبة من غير المسلمين من الرومان أو اليهود الذين لم يتم إسلامهم، ولا لكثير ممن وردوا في أسانيد الأحاديث.

٧ ـ ترجمة للبلدان والأماكن الواردة.

٨ ـ توضيح معاني الكلمات الغريبة الواردة بالرجوع إلى معاجم اللغة العربية.

٩ ـ التعليق على بعض المسائل التي تحتاج إلى توضيح.

١٠ ــ الرجوع بالأقوال التي استشهد بها الكتاب إلى أصحابها وإلى مظانّها الأصلية.

* * *

أما القسم الثالث من عملي وهو الفهارس العامة فقد قمت بعمل فهارس شاملة للآيات القرآنية والأحاديث النبوية ونصوص الكتاب المقدس، والأعلام، والأماكن والبلدان، والأمم والقبائل والفرق، كما أثبت قائمة بالمراجع وفهرساً للموضوعات.

هذا هو جهدي الذي قدمته لهذا الكتاب الجليل، أسأل الله تبارك وتعالى أن أكون قد وفقت في خدمته، وأن يكتب لي على عملي الأجر والثواب، ويغفر لي ما جانبت فيه الصواب. وأردد ما قاله ابن القيم رحمه الله «والمنصف يهب خطأ المخطىء لإصابته وسيئاته لحسناته، فهذه سنّة الله في عباده جزاء وثواباً، ومن ذا الذي يكون قوله كله سديداً وعمله كله صواباً، وهل ذلك إلّا المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى ونطقه يوحى...»[1].

أسأل الله تعالى أن يوفقنا لخدمة هذا الدين، وأن يرزقنا الإخلاص في العمل إنه سميع مجيب.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

د. محمد أحمد الحاج

(١) انظر: روضة المحبين، ابن القيم: ص ١٥.

القسمُ الأوّل

دِراسةٌ حولَ الكِتاب

الباب الأوّل
تـرجـمـة ابـن القـيِّـم
عصره وحياته ومؤلفاته وشخصيته العلمية

الفصل الأول (عصر ابن القيّم):

(١) الحالة السياسية

(٢) الحالة الاجتماعية

(٣) الحالة العلمية

الفصل الثاني (حياة ابن القيّم):

(١) اسمه ونسبه ولقبه وكنيته

(٢) مولده وأسرته

(٣) نشأته ورحلته

(٤) تأثره بابن تيمية

(٥) أخلاقه وعبادته

(٦) ثناء العلماء عليه

(٧) محنته

(٨) وفاته

الفصل الثالث (شيوخه وتلاميذه):

(١) شيوخه

(٢) تلاميذه

الفصل الرابع (مؤلفاته):

(١) في علوم القرآن

(٢) في السنة الشريفة

(٣) في العقيدة

(٤) في الفقه وأصوله

(٥) في النحو واللغة

(٦) في التصوّف

(٧) في موضوعات متفرقة

(٨) كتب لم تثبت نسبتها إليه

(٩) كتب تمنى المؤلف إخراجها

الفصل الخامس (ثقافته وشخصيته العلميّة):

(١) العوامل المؤثرة في تكوين شخصيته

(٢) معالم ثقافته

(٣) ميزات منهجه العلمي

الفصل الأوّل
عصر ابن القيِّم

توطئة:

وُلد شمس الدين ابن قيم الجوزية سنة ٦٩١هـ وعاش النصف الأول من القرن الثامن الهجري، وكانت إقامته في دمشق.

وكانت الأمة الإسلامية في تلك الفترة قد خرجت من محنتين عظيمتين، كل واحدة منهما كفيلة بالقضاء على الأمة الإسلامية حضارة ووجوداً لولا عناية الله تعالى.

المحنة الأولى محنة الحملات الصليبية الأوروبية على العالم الإسلامي، والمحنة الثانية هي الهجمات المغوليّة.

لكن ابن القيم رحمه الله شهد الأمة وقد أعادت اعتبارها لنفسها، وخرجت من الضيم الذي نالها، وأثبتت قدرتها على تجاوز المحن، فقد كسرت شوكة الصليبيين في معركة حطين، وتم استرداد بيت المقدس من أيديهم سنة ٥٨٣هـ. وكسرت شوكة المغول في عين جالوت سنة ٦٥٨هـ.

ولا شك أن هذه الأحداث السياسية، وما خلفت وراءها، شكّلت بيئة معيّنة لها أثرها على مختلف نواحي الحياة.

وفيما يلي عرض موجز للحالات السياسية والاجتماعية والعلميّة في بلاد الشام لذلك العصر.

***

(١)
الحالة السياسية

الوضع السياسي في أي بلد له أثر كبير على الحالتين الاجتماعية والعلمية، ونحن لا نريد الخوض مفصلاً في الأحوال السياسيّة في هذا العصر، بل سنتحدث عن أهم الأحداث، وأجدني مضطراً للحديث عن أشياء ثلاثة هي:

الأول ــ الحروب الصليبية:

الحروب الصليبية هي تلك الحملات المسلحة التي شنتها أوروبا ضد الإسلام في بلاد الشام والأناضول ومصر وتونس انتقاماً وثأراً من المسلمين بهدف القضاء عليهم واسترجاع بيت المقدس وقبر المسيح ــ بزعمهم ــ، وذلك خلال الفترة بين عامي ١٠٩٦ و ١٢٩١م.

ففي منتصف القرن الخامس الهجري، بينما كانت الأمة الإسلامية تعيش أقصى حالات التفرقة والتخلف، بدأت أوروبا النصرانية تفكر باستغلال هذه الأوضاع وغزو العالم الإسلامي. ذلك لأن النصارى لم ينسوا طيلة هذه القرون الخمسة ما لحقهم من هزيمة على أيدي المسلمين أدت إلى انتهاء مملكتهم في الشام.

والدارس لحالة المجتمع الإسلامي قبل إعلان هذه الحرب التي انطلقت باسم الصليب، يدرك الظروف التي اختارتها الأمم النصرانية في أوروبا للقيام بهجماتها الشرسة.

فكانت ـ مصر ـ مثلاً تعيش مأساة الحكم الفاطمي بانحرافاته وتناقضاته وكثرة الفتن الداخلية في أثناء حكمه. حتى إن بعض المؤرخين المسلمين يذكرون أن الفاطميين راسلوا الإفرنج وشجعوهم على مهاجمة السلجوقيين، الذين تغلبوا على الفاطميين،

وأخذوا الشام من تحت أيديهم. بالإضافة إلى الخلافات المذهبية بين الفاطميين الشيعة والسلاجقة السُنّيّين(١).

فالهوّة كانت سحيقة بين الشام ومصر، أما في بغداد فكانت الخلافة العباسية في وضع هزيل، فقد كثر المناوئون والخارجون على سلطان الدولة، وكثرت الثورات والفتن الداخلية والمذهبية، وبرزت دويلات شكلت كيانات مستقلة عن الخلافة في بغداد، كالبويهية والسلجوقية.

هذا بالإضافة إلى الفرق الباطنية التي برزت كالإسماعيلية والقرامطة الذين كانوا من أهم أسباب التفرقة، كما أن إحدى فرق الإسماعيلية وهي الحشاشية تعاونت مع الصليبيّين، وفتكت بالكثير من قادة المسلمين(٢).

لقد كانت هذه الأوضاع السيئة طُعماً مغرياً للعالم النصراني، شجعه للقيام بتلك المغامرات العسكرية، كما أن تلك الأوضاع أتاحت له أن ينفرد بكل جزء على حدة من أجزاء العالم الإسلامي.

ويعترف بذلك المستشرق (سميل) فيقول: كشفت الأحداث التالية بشكل كبير انقسام المسلمين، الذي كان إلى حدّ بعيد سبب نجاحات الإفرنج العسكرية خلال الجيل الأول للاحتلال اللاتيني، إذْ رأى حكام سورية الإسلامية في هذه الحملات المنبعثة من بلاد ما بين النهرين ليس فقط هجوماً على الإفرنج، بل محاولة من السلطان لإعادة توطيد سيطرته المباشرة عليهم أنفسهم(٣)، ونلاحظ مما قاله (سميل) انعدام الثقة فيما بين المسلمين فهم يسيئون الظن حتى بحملات النجدة التي كانت تأتيهم، بل يذكر (سميل) أنهم في سنة ١١١٥م تحالفوا مع الإفرنج ضد جيش (برسق) الذي جاء إلى سورية من بلاد ما بين النهرين لقتال الفرنجة(٤).

---

(١) انظر: تاريخ الخلفاء للسيوطي: ص ١٤٧.
(٢) انظر: الحروب الصليبية في المشرق والمغرب، محمد العمروسي: ص ٢٢.
(٣) الحروب الصليبية، ر.س. سميل، ترجمة سامي هاشم: ص ١٤٧.
(٤) المرجع السابق: ص ١٤٩.

دوافع الحروب الصليبية:

تتعـدد الآراء في الـدوافـع التي دفعت الأوروبيين للقيـام بهجمـاتهم ضـد الأمـة الإسلامية، وتذكر دوافع كثيرة، لكن الدافع الأسـاسي هو التعصب والحقـد الدفين الـذي بقي ينمو ويترعرع في نفوس النصـارى، وتناقلتـه الأجيال طيلة خمسـة قرون، والـذي بدأ منذ معركـة اليرمـوك سنة ١٣هـ حيث سقـطت يومهـا مملكتهم، ووقف هرقـل على إحدى تلال سورية قائلاً: «سلام عليك يا سورية، سلام لا لقاء بعده»[١].

أما العوامل الأخرى فتبقى ثانوية لا يمكن اعتبارها دوافع حقيقية لتلك الحروب ومن هذه الدوافع التي ذكرها المؤرخون:

١ ــ **محاولة التـوسع والاستعمـار**: فهناك من يقـول: إن الحروب الصليبيـة نفسها ما هي إلّا امتداد طبيعي لحروب التوسع الإقطاعي التي كـان يقوم بهـا كبار رجـال الإقطاع في الغـرب الأوروبـي قبيـل الحـروب الصليبيـة، وممن ذهب إلى هــذا التفسيـر المؤرخ الفرنسي رينيه جروسيه الذي قال: إن الحـروب الصليبية أدت إلى أول تـوسع استعمـاري للغرب المسيحي في الشرق العربـي، وزميله الإنجليزي جورج تريفيليـان الذي قـال «إن الحـركة الصليبيـة هي حركـة اتساع خـارجي قامت بـه أوروبا المسيحيـة الإقـطاعيـة ضـد العرب»[٢].

٢ ــ **الباعث الشخصي**: وقد ظهرت كثير من النظريات التي تسند قيام الحـركة إلى شخص واحد أمثال بـطرس الناسـك أو الأمبراطـور البيزنـطي الكسيس كومنين، أو أنشـودة رولان أو البابا أريان الثاني[٣].

٣ ــ **العامل الاقتصادي**: الذي فسر الحملات الصليبيـة تفسيراً اقتصـادياً وهـو رغبة أوروبا في استغلال موارد الشرق والاستفادة من منتوجاته[٤].

---

(١) الحروب الصليبية، ر.س. سميل: ص ١٤٧.

(٢) الوحدة وحركات اليقظة العربية إبّان الحروب الصليبية، جوزيف نسيم: ص ٩.

(٣) العرب والروم واللاتين في الحرب الصليبية الأولى، د. جوزيف نسيم: ص ٥١ ــ ٥٦.

(٤) انظر: العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العرب والإفرنج خـلال الحروب الصليبيـة، د. زكي النقاش: ص ١٣.

٤ ـ **العامل التاريخي الديني**: وهو العامل الحقيقي الذي أشرت إليه في البداية، فهي حروب دينية كما يبدو من تسميتها وشعارها، قامت للثأر من المسلمين.

ويستدل الدكتور جوزيف نسيم على أهمية هذا العامل وأولويته في تفسير الحروب الصليبية بما يلي[(١)]:

(أ) أن المؤرخين الغربيين أنفسهم من القدامى والمحدثين نظروا إليها هذه النظرة.

(ب) أنها قامت لإنقاذ قبر المسيح والأراضي المقدسة من قبضة المسلمين.

(ج) كل الحملات الصليبية نظمت تحت إشراف الكنيسة الرومانية والبابوية نفسها.

(د) ليس أدل على ذلك مما قاله مؤرخ صليبي عاصر أحداثها هو روبرت الراهب من أنها كانت من عمل الله وليست من عمل الإنسان.

ولا شك أن كثيراً من المستشرقين غير المنصفين يحاولون تجاهل هذا العامل العَقَدي الديني، وإبراز العوامل الاقتصادية أو الشخصية بقصد التمويه لحقيقة الصراع، ومثل ذلك تماماً من يفسرون الصراع القائم بين المسلمين ويهود اليوم صراعاً اقتصادياً أو صراعاً سياسياً أو توسعياً استيطانياً، متجاهلين حقيقة الصراع العقائدية التاريخية بين المسلمين واليهود.

ومما يعترف به الجميع أن هذا العامل قد وضع هدفاً أساسياً شجع الشعب في أوروبا للاشتراك في هذه الحروب، وكانت الحملات الدعائية المركزة التي قام بها الراهب الفرنسي بطرس الناسك تصرح بهذا الهدف، حيث كان يطوف على حماره، يحمل صليباً كبيراً كشعار لتلك الحروب، في البلدان الأوروبية يستحثهم على محاربة المسلمين، ويشعل نفوسهم حمية عليهم، ونادى بضرورة حماية المقدسات المسيحيّة، مدعياً أن زوار بيت المقدس من النصارى يواجهون مضايقات من المسلمين، مع أن ذلك لم يكن، ويكفي أن نذكر ما قاله المؤرخ (رنسيمان) حيث يصرّح أن المسيحيين كانوا أسعد حظاً في

(١) العرب والروم واللاتين في الحرب الصليبية الأولى: ص٥١ ـ ٦٧.

الغـالب تحت حكم جماعـات المسلمين منهم تحت حكم ملوك الـرومـان، حيث تمتعـوا بحريّة التجارة والعيش في ظلال الأمن(١).

بدء الحملات الصليبية:

قبل أن تتحرك الجيوش المنظمـة التي قادهـا الأمراء ورجـال الدين، تكـونت كتائب صليبية شعبية على غاية من الفوضى والاضطراب بقيادة الراهب بـطرس الناسـك، فسارت مختـرقة أوروبـا الوسـطى تسلب وتنهب، وقد اشتبكت مـع أهالي المـدن التي مـرت بهـا وبخاصة في بلاد المجر، ومات منها الكثير، ثم وصلت بقايا هذه الحملة إلى القسطنطينية سنة ٤٨٩هـ، فنقلهم الأمبراطور البيزنطي فيها على المراكب إلى الضفة الشرقية للبسفور، وما أن علم السلطان السلجوقي بنـزول هؤلاء الصليبيين بآسيـا الصغرى حتى هبّ لقتـالهم قرب مدينة نيقية عاصمته، وهزمهم هزيمة منكرة(٢).

ثم بدأت الحملات الصليبية تجتمع في القسطنطينيـة، وكانت الحمـلات الأولى من فرنسا، وإيـطاليا، ثم انـطلقوا جميعـاً، ودخلوا نيقية بعـد حصار دام خمسين يـوماً وتـابعوا طريقهم إلى إنطاكية(٣).

قال ابن كثير: «ثم دخلت سنـة إحدى وتسعين وأربعمـائة وفيهـا دخل ملك الإفـرنج مدينة إنطاكية بعد حصار شـديد، بمـواطأة بعض المستحفـظين على بعض الأبراج(٤)، ثم صار الإفرنج إلى معرّة النعمان وأخذوها بعد حصار»(٥).

لقد تصدت للصليبيين قوات مختلفة من المسلمين، ولكنها بتفرقها وتعدد اتجاهاتهـا لم تكن قادرة على إيقاف زحف الحملات الصليبية أو ردّهـا، واختلافـات المسلمين كانت تحول دون ذلك، ويكفي في ذلك أن نعلم أن الفاطميين في مصـر انتهزوا فـرصة انشغـال

---

(١) الحروب الصليبية، رنسيمان: ص ١.

(٢) الحروب الصليبية، محمد العمروسي: ص ٤٧ ــ ٤٨.

(٣) المرجع السابق: ص ٤٨.

(٤) حارس البرج الخائن هو فيروز الأرمني، وقد تفاوض سراً مع أحد قادة الروم وسلمـه البرج، وكـانت هذه الخيانة السبب في نجاح الصليبيين. انظر: الحروب الصليبيـة، العمروسي: ص ٥٢.

(٥) البداية والنهاية، ابن كثير: ١٢/١١٥.

السلاجقة في مقاومة الصليبيين في إنطاكية، لافتكاك بيت المقدس من أيدي السلاجقة، وبعث الخليفة الفاطمي ـ المستعلي بالله ـ وفداً إلى الصليبيين يعرض عليهم الصلح والمسالمة، وتأمين أماكنهم المقدسة، ولكن الصليبيين لم يجيبوه إلى ذلك[١].

سقوط بيت المقدس سنة ٤٩٢هـ:

توالت انتصارات الصليبيين بعد إنطاكية وهم في طريقهم إلى بيت المقدس. قال ابن كثير: ثم دخلت سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة وفيها أخذت الفرنج بيت المقدس، وقتلوا في وسطه أزيد من ستين ألف قتيل من المسلمين وأخذوا الكثير من الذهب والفضة[٢].

وكانت قمة انتصارات الصليبيّين استيلاءهم على بيت المقدس، حيث كوّنوا مملكة بيت المقدس ومنطقتها من شمال بيروت إلى جنوب عسقلان، وتشمل كل فلسطين وشرقي الأردن إلى خليج العقبة، وتتبعها إمارة الكرك، ومن حصونها الكرك والشوبك، وبالإضافة إلى مملكة بيت المقدس كانت لهم إمارات مثل الرها وإنطاكية وطرابلس[٣].

جرائم الصليبيّين في بيت المقدس:

لقد دخل الصليبيّون بيت المقدس والحقد يملأ قلوبهم، وقد ارتكبوا من الجرائم ما يعجز اللسان عن وصفه، وندع الحديث لأحد مؤرخي الفرنجة وهو غوستاف لوبون حيث ينقل لنا قول كاهن مدينة لوبوي ـ أحد المشاركين في الهجوم على بيت المقدس ـ فيقول: (حدث ما هو عجيب بين العرب عندما استولى قومنا على أسوار القدس وبروجها، فقطعت رؤوس بعضهم فكان هذا أقل ما أصابهم، وبقرت بطون بعضهم، فكانوا يضطرون إلى القذف بأنفسهم من أعلى الأسوار، وحرق بعضهم في النار فكان ذلك بعد عذاب طويل، وكان لا يرى في شوارع القدس وميادينها سوى أكداس من رؤوس العرب

(١) انظر: الحروب الصليبية، العمروسي: ص ٥٢ ـ ٥٤.
(٢) البداية والنهاية، ابن كثير: ١٢/١٥٦.
(٣) راجع: كتاب الحروب الصليبية، العمروسي: ص ٥٦ ـ ٥٨.

وأيـديهم وأرجلهم، فلا يمـر المرء إلا على جثث قتـلاهم، ولكن كل هـذا لم يكن سـوى بعض ما نالوه. . .)[1].

الحرب الصليبية الثانية:

كانت الانتصارات الصليبية المتواصلة في البلاد الشامية أشبه ما تكون بجـرس إنذار دقّ على أسماع المسلمين، وما لبث الأمر طويلاً حتى استجابت الأمة لنداء الـوحدة الـذي أطلقه عماد الدين زنكي، حيث استطاع هذا القائد الملهم أن يكوّن مملكة إسلاميـة قويـة في شمال سورية، بدأت تُغير على الإمارات الصليبية واستطاعت أن تستـرد مدينـة الرهـا، وتابع نور الدين زنكي خطى والده، وبـدأ يشكّل مصـدر قلق واضح لـلإمارات الصليبيـة، مما جعل أوروبا تفكر بحرب صليبية، حيث خاف الأوروبيون من لملمة العالم الإسلامي، وهبوا لنجدة إخوانهم من الصليبيين الذين استقروا في البلاد الإسلامية. والبابويـة في هذه المرة أيضاً هي التي تبنت إعداد الحملة.

فقد عقد مجمع كنسي في فرنسا سنة ٥٤٠هـ دعا إلى تشكيل حملة صليبية جديدة، فاستجاب لذلك ملك فرنسا (لويس السابع) وامبراطـور ألمانيـا (كونـراد الثالث) وسـار كل واحـد بـطريق والتقيـا في بيت المقـدس، لكن الحملة فشلت في تحقيق أي هـدف، مما قوّى معنويات المسلمين وجعل نور الدين زنكي يتابـع انتصاراتـه، واستطاع أن يمتلك دمشق وكانت موالية للصليبيين متعاونة معهم[2].

سلطنة صلاح الدين الأيوبـي:

لمـا علم نور الـدين زنكي بأن مـطامع الصليبيين بـدأت نحو مصـر مستغلين ضعف الفاطميين، والاضطرابات الداخلية فيها، بعث إليها جيشاً بقيادة أسد الدين شيركوه، ومعه ابن أخيه صلاح الدين الأيوبـي، وكان ذلك أكثر من مرة، وتـرك الصليبيون مصـر، ودخل شيركوه القاهرة دخول القائد المنقذ، وصار وزيراً للخليفة الفاطمي العاضد[3].

---

(١) حضارة العرب، غوستاف لوبون: ص ٤٠٢، ترجمة عادل زعيتر، ط ٢، سنة ١٩٤٨م.

(٢) انظر: العمروسي: ص ٦٩ ــ ٧٠.

(٣) المرجع السابق: ص ٧٢ ــ ٧٦.

وبعد وفاة أسد الدين شيركوه صار صلاح الدين وزيراً للعاضد، وبموت العاضد أصبح صلاح الدين هو المتصرف في مصر وسيدها، وتوسع في دولته وبقي تابعاً بالاسم لنور الدين في الشام، ولما توفي نور الدين توجه صلاح الدين إلى الديار الشامية وضمّها إلى دولته، ذلك لأن الملك الصالح ابن نور الدين تولى وهو قاصر، فهاجم الصليبيون قلعة بانياس، وقد صالحهم الملك الصالح فغضب صلاح الدين لهذا الصلح، وأرسل إلى عدد من الملتفين حول الملك الصالح كتب توبيخ[1].

لقد أدرك القائد صلاح الدين سر هزيمة المسلمين، وعرف أن فرقتهم هي السبب الرئيسي لذلك، فقرر العمل على توحيد الأمة المسلمة قبل مواجهة الصليبيين، وفعلاً تمّ له ذلك بعد أن قضى على كل مناوئيه من الداخل، وما حلّت سنة ٥٨٢هـ حتى أصبحت مملكته تشمل شمال العراق وكردستان والشام ومصر واليمن وبرقة[2].

وخلال هذه المدة كانت تحصل مصادمات بين صلاح الدين وبين الفرنجة، لكنه لم يكن حريصاً على ذلك من البداية حتى إنه كان يهادن بعضهم ويصالحهم حتى بنى جبهته الداخلية.

ويذكر ابن كثير أن صلاح الدين في سنة ٥٨٢هـ هادن قومس طرابلس وصالحه وصافاه حتى كان يقاتل ملوك الفرنج[3].

بعد انتصار الوحدة الذي أحرزه السلطان صلاح الدين في البلاد الإسلامية، بدأ يجهز لدخول بيت المقدس أكبر معاقل الصليبيين ورمز وجودهم، وصار يهاجمهم هنا وهناك بجيش قوي معبأ معنوياً حتى كانت وقعة حطين سنة ٥٨٣هـ التي هزم فيها الصليبيون هزيمة نكراء قتل منهم فيها عشرة آلاف وأسر ملك بيت المقدس ثم حاصرها مباشرة بعد أن أخذ من الصليبيين مدناً ساحلية ودخلها في رجب من نفس العام سنة ٥٨٣هـ[4].

---

(١) وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي، د. محمد حمادة: ص ١١٦ ــ ١١٧.
(٢) الحروب الصليبية، العمروسي: ص ٨٣.
(٣) البداية والنهاية، ابن كثير: ١٢/٣١٩.
(٤) الحروب الصليبية، العمروسي: ص ٨٦؛ والبداية والنهاية: ١٢/٣٢.

وكان دخول بيت المقدس نصراً عظيماً للمسلمين، وقد بذل صلاح الدين جهوداً طويلة، ولاقى من الفرنجة شراسة في الحرب، نجد ذلك في رسالة أرسلها صلاح الدين إلى الديوان العزيز يصف حالة الجيش الإسلامي المتعبة، والجراح التي أصابت الجند وفناء الخيل والعدد والسلاح[1].

وفرح المسلمون كثيراً لعودة أرض الإسراء ونظمت قصائد كثيرة في مدح السلطان صلاح الدين.

ولما تسلم السلطان القدس أمر بإظهار المحراب، وكان الصليبيون قد بنوا في وجهه جداراً وتركوه للغلة هرياً (أي مخازن حبوب) وقيل: كانوا اتخذوه مستراحاً بغياً وعدواناً، وكانوا قد بنوا من غربي القبلة داراً وسيعة وكنيسة رفيعة، فأوعز برفع ذلك الحجاب، وكشف النقاب عن عروس المحراب، وهدم ما قدامه من الأبنية[2].

وبفتح بيت المقدس كسرت شوكة الصليبيين، ولم يعد لهم وجود قوي، وإن بقوا في بعض المدن، وتوالت لهم حملات متعددة لنصرتهم، يقودها بعض الأمراء والملوك الحاقدين من أوروبا، وبقيت عكا مركز تجمعهم ودخلوا مصر وبقوا هناك حتى ٦٥٢هـ[3].

* * *

الثاني ــ الغزو المغولي:

يعتبر المغول من العنصر الأصفر، ومكانهم الأصلي منغوليا (في الصين)، وهم قبائل بدوية متخلفة.

وعندما فكر جنكيز خان بتوسيع إمبراطوريته تطلع إلى العالم الإسلامي ورأى فيه هدفاً مناسباً له بما فيه من ثروات وخيرات وحضارة، إلى جانب الضعف السياسي الذي لحقه من جراء الفرقة التي يعيشها والدويلات الكثيرة التي برزت فيه.

---

(١) انظر: الفتح القسي في الفتح القدسي، للعماد الكاتب الأصفهاني المتوفى سنة ٥٩٧هـ، تحقيق محمد محمود صبح: ص ٥٥٣ ــ ٥٥٤.

(٢) الفتح القسي: ص ١٣٧.

(٣) الحروب الصليبية، العمروسي: ص ١٢٢.

وكـان استيلاء المغـول على البلاد الإسـلامية قـد تم على مـرحلتين: الأولى كـانت بقيادة جنكيز خان مؤسس الدولة المغولية الذي تمكن من تحطيم الدولـة الخوارزميـة التي كانت تحكم ما وراء النهر وخوارزم وأجزاء من خراسان وغرب إيـران، وقد بـدأت حملات جنكيز خان على الدولة الخوارزمية سنـة ٦١٦هـ، وانتهت بزوال الـدولة الخـوارزمية سنـة ٦٢٨هـ[١].

أما المرحلة الثانية فتمت على يـد هولاكـو حفيد جنكيـز خان الـذي هاجم بجيـوشه الهمجية بغداد عاصمة الخلافة الإسلامية، ومركز الحضارة الإنسانية آنذاك، وسقطت أمام هجماته سنة ٦٥٦هـ، لقد سقطت بغداد بعد حصار وبعد مفاوضات ومراسـلات كثيرة بين هولاكو والخليفة المستعصم[٢].

وكان للوزير الرافضي ابن العلقمي دور في تسهيل دخول المغول إلى بغـداد، وكان قد كاتب التتار، وحرّضهم على قصد بغداد لأجل ما جرى على إخوانه الرافضـة من النهب والخزي (في الكرخ وبغداد)، فأرسل أخاه ومملوكه إلى هولاكو، وسهل عليه فتح بغـداد، وطلب أن يكون نائباً لهم عليها[٣].

وقـد أجمعت المصادر الإسـلامية على ذلـك، فهذا ابن كثيـر يذكـر في السنـة التي استـوزر المستعصم بهـا ابن العلقمي وهي سنـة ٦٤٢ فيقـول عنـه: «المشؤوم على نفسـه وعلى أهل بغداد، فـإنه لم يكن وزيـر صدق، فـإنه الـذي أعان على المسلمين في قضيـة هولاكو وجنوده قبّحه الله وإيّاهم»[٤].

ويصوّر لنا ابن كثير حالة الترف واللهو التي كانت تعيشها الخلافة في بغداد، بقصـة يذكر فيها أن التتار ــ وهم حول بغداد قبل دخولها ــ كانوا يرشقون النبال، فأصيبت جاريـة كانت تلعب بين يدي الخليفة وتضحكه. . . جاءها سهم من بعض الشبابيك فقتلها، وهي

---

(١) تاريخ الدولة المغولية في إيران، د. عبد السلام عبد العزيز فهمي: ص ٥٧ ــ ٩١،
(٢) يمكن الاطـلاع على هذه المـراسلات في كتـاب وثائق الحـروب الصليبية والغـزو المغولي للدكتـور محمد حمادة: ص ٣٤٥ ــ ٣٥١.
(٣) انظر: العبر، للذهبي: ٥/٢٢٥.
(٤) البداية والنهاية: ١٣/١٦٤.

ترقص بين يدي الخليفة فانزعج الخليفة من ذلك[1].

واضطر الخليفة العباسي إلى الخروج من بغداد، وتسليم نفسه وعاصمته للمغول دون قيد أو شرط، ودخل المغول بغداد، وأعملوا السيف في أهلها أربعين يوماً، وقتل الخليفة وولده الأكبر والأوسط وأسر الأصغر.

قال ابن كثير: «وقد اختلف الناس في كمية من قتل ببغداد من المسلمين في هذه الموقعة، فقيل ثمانمائة ألف، وقيل ألف ألف وثمانمائة ألف، وقيل بلغت القتلى ألفي ألف نفس... وقتل أكابر الدولة واحداً واحداً، وقتل الخطباء والأئمة وحملة القرآن»[2].

كان سقوط بغداد صاعقة حلّت على العالم الإسلامي كله، ورغم الخلافات السياسية والأحقاد الشخصية التي كانت سائدة في العالم الإسلامي في ذلك الوقت وكثرة الحروب بين الدويلات الإسلامية والفتن الداخلية، فإن سقوط بغداد وما أصابها من دمار، أصاب المسلمين بحسرة، إلاّ أن تفككهم حال دون تقديم أي عون لبغداد، فملأ الرعب قلوبهم، وهرع أمراء الدويلات الإسلامية إلى هولاكو يقدمون له فروض الطاعة والولاء اتقاء لشرّه[3].

ومن أبرز النتائج السيئة على هجوم التتار على بغداد القضاء على حضارتها وحركتها العلمية، فقد أحرقت المكتبات وخربت المدارس والمعاهد العلمية وقتل العلماء، وضاع الكثير من التراث الإسلامي، لا سيما وأن المغول عمدوا بالكتب لافتقارهم إلى الحضارة والثقافة وعدم معرفتهم قيمتها، وقيل إنهم بنوا بالكتب العربية الاصطبلات للخيول والمعالف[4].

وقيل إنهم بنوا بالكتب جسراً مع الطين والماء بدل الآجر[5].

---

(١) البداية والنهاية: ١٣/ ٢٠٠.
(٢) المرجع السابق: ١٣/ ٢٠٣.
(٣) تاريخ الدولة المغولية: ص ١٢٧.
(٤) المرجع السابق: ص ١٣٦.
(٥) النجوم الزاهرة: ٧/ ٥١.

حملة هولاكو على الشام:

لم يكن حال المسلمين في الشام بأحسن من حالهم في بغداد فالأمراء الأيوبيون بعد صلاح الدين كانوا في نزاع دائم وخلافات مستمرة وتطاحن على السلطة. أضف إلى ذلك أن جراحات الحروب الصليبية لم تلتئم بعد، ولا زال للصليبيين وجود في الساحل السوري، كل ذلك ساعد المغول في اجتياحهم للشام حيث دخلوا حلب بعد قتال شديد، ثم توجهوا نحو دمشق فسقطت على أيديهم سنة ٦٥٨هـ ونهبوا جميع دورها ومتاجرها وأشعلوا فيها النيران(١).

تعاون النصارى مع المغول:

ولقد استغل النصارى الذين كانوا يعيشون أهل ذمة في ديار الإسلام بالشام، استغلوا هذه الأحداث الطامة، وأظهروا شماتة واضحة بالمسلمين، وبدأوا يتصلون بالمغول.

قال ابن تغري بردي: وذهب بعضهم إلى هولاكو، وجاءوا من عنده بفرمان يتضمن الوصيّة بهم والاعتناء بأمرهم، ودخلوا بالفرمان من باب توما (بدمشق)، وصلبانهم مرتفعة وهم ينادون بارتفاع دينهم وإيقاع دين المسلمين، ويرشون الخمر على الناس وعلى أبواب المساجد... وقام بعضهم وخطب وفضل دين النصارى(٢).

هزيمة المغول:

لم يستقر الأمر طويلاً للمغول في بلاد الشام، فقبل أن يتحركوا إلى مصر وكان ذلك من مخططهم لأنهم بعثوا رسالة تهديدية للسلطان قطز، إلا أن السلطان قطز قرر مواجهة المغول وقتالهم، وجهّز جيشين لذلك: جيشاً بقيادة قائده الظاهر بيبرس، وجيشاً قاده بنفسه، والتقى الجيشان مع المغول في عين جالوت قرب الناصرة بفلسطين وذلك سنة ٦٥٨هـ بمعركة تعتبر من أعنف المعارك الفاصلة في التاريخ. وأنزل الجيش المملوكي

(١) تاريخ الدولة المغولية: ص ١٤٢.
(٢) انظر: النجوم الزاهرة: ٧/ ٨٠ ــ ٨١.

بهم هزيمة منكرة، ووقع القائد المغولي بالأسر، وأمر السلطان قطز بقطع رأسه، وذبح كل مغولي كان بأرض المعركة، ولحقت الفارين فرقة من الفرسان بقيادة الظاهر بيبرس فتابع فلولهم حتى تطهرت منهم كل أراضي الشام[1].

إسلام المغول:

المغول طوائف بداثية وثنية لم يكونوا أهل حضارة أو تراث أو دين، لذلك سرعان ما تأثر كثير منهم بالإسلام، ومنهم من تأثر بالمسيحية، لكن الغالبية من المغول أعلنوا إسلامهم وبخاصة بعد هزيمتهم في الشام وموت هولاكو، ومن الذين أعلنوا إسلامهم السلطان أحمد تكودار الذي أسلم، وكان على مذهب أهل السنة والجماعة، وحكم من سنة ٦٨١هـ حتى سنة ٦٨٣هـ، وبذل قصارى جهده في حمل المغول على الدخول في الإسلام، وأسلم على يديه كثير منهم. وكان لإسلامه رنة فرح بين المسلمين، واستهل عهده بإظهار إخلاصه وتمسكه بالدين الإسلامي وأرسل كتباً إلى فقهاء بغداد وإلى السلطان قلاوون، سلطان المماليك بمصر أعلن فيها رغبته في حماية الإسلام... وانشغل بنشر الإسلام وإعادة الطمأنينة للمسلمين وإصلاح ما خربه المغول. إلا أن المغول قاموا عليه بسبب إسلامه وتآمروا عليه، ونصبوا خلافه ثم قتل رحمه الله[2].

* * *

الثالث ـ المماليك:

بعد مقتل توزان شاه سنة ٦٤٨ حكمت شجرة الدر ثمانية أشهر، ثم ملك بعدها الملك الأشرف وخلع نفسه، فكان آخر ملوك الأيوبيين في مصر، فورث المماليك سلطان الأيوبيين على مصر والشام عندما تولى الملك المعز أيبك التركماني كرسي السلطنة في مصر[3].

---

(١) تاريخ الدولة المغولية: ص ١٤٩ ــ ١٥٠.

(٢) المرجع السابق: ص ١٦٧ ــ ١٧١؛ راجع البداية والنهاية: ١٣/ ٢٩٩.

(٣) انظر: صبح الأعشى، القلقشندي: ٤/١٤٨ ــ ١٤٩.

وهم قسمان:

١ ــ **المماليك البحرية**: وهم عبيد من الأتراك اشتراهم الملك الصالح نجم الدين أيوب، وشكل منهم جيشاً، وجعل أمراءه منهم، وأسكنهم قلعة الروضة الواقعة في النيل، ومن هنا كانت تسميتهم بالبحرية، وقد حكموا من سنة ٦٤٨هـ إلى سنة ٧٨٤هـ[١].

٢ ــ **المماليك البرجيّة**: وهم من الجراكسة الذين احتل المغول بلادهم، وقد جلبهم السلطان قلاوون، وكوّن منهم فرقة أطلق عليها اسم البرجية، نسبة إلى أبراج القلعة التي أنزلهم بها. وقد حكموا من سنة ٧٨٤هـ إلى سنة ٩٢٣هـ[٢]. وقد حقق المماليك انتصارين عظيمين سجلهما لهم التاريخ:

الأول: هزيمة المغول وصدّ هجماتهم الهمجيّة عن الشام ومصر على يد كل من السلطان قطز والسلطان الظاهر بيبرس.

والثاني: القضاء على بقايا الصليبيين في مصر والساحل السوري، فطهروا البلاد الشامية من آخر قلاع الصليبيين.

ومن أشهر ملوك المماليك الذين قدموا للأمة الإسلامية خدمات جليلة:

١ ــ الملك المظفر قطز:

وهو الذي كسر شوكة التتار في عين جالوت سنة ٦٥٨هـ واقتلع الشام منهم، وبقي حتى قتل في منصرفه بطريق الشام، وهو عائد منه في السنة المذكورة[٣].

٢ ــ الملك الظاهر بيبرس البندقداري:

وأخذ في جهاد الفرنج واستعادة ما ارتجعوه من فتوح صلاح الدين الأيوبي، ففتح حصوناً وقلاعاً كثيرة، ودخل بلاد الروم، وجلس على كرسي بني سلجوق بقيسارية الروم، ورجع إلى دمشق في آخر سنة ٦٧٥، وتوفي فيها سنة ٦٧٦هـ وبنى مدرسته الظاهرية بين القصرين[٤].

---

(١) انظر: النجوم الزاهرة: ٦/٣١٩؛ ٨/٣؛ وحسن المحاضرة، للسيوطي: ٢/٢٨٣.

(٢) انظر: النجوم الزاهرة: ٧/٣٣٠؛ وانظر: السلوك لمعرفة الملوك، المقريزي، تحقيق د. محمد مصطفى زيادة: ١/٧٥٦.

(٣) من كتاب صبح الأعشى، القلقشندي، اختيار وتعليق عبد القادر زكار: ٤/١٥٠.

(٤) المصدر السابق: ٤/١٥٠.

٣ ـ الملك المنصور قلاوون الصالحي:

وقد فتح حصن المرقب بالشام سنة ٦٨٤هـ وفتح طرابلس سنة ٦٨٨هـ، وبنى المدرسة المنصورية وتوفي بالقاهرة وهو قاصد الغزو سنة ٦٨٩هـ(١).

٤ ـ الملك الأشرف خليل بن قلاوون:

وهو الذي فتح عكا، وأكمل فتح الساحل كله سنة ٦٩٠هـ وعمر المدرسة الأشرفية وقتل سنة ٦٩٣هـ(٢).

اضطراب حكم المماليك:

رغم الانتصارات العسكرية التي حققها المماليك وما قدموه من خدمات عسكرية وعلمية للمسلمين في مصر والشام إلّا أن حكمهم سرعان ما اضطرب، حتى إن عصرهم اتسم بعدم الاستقرار وكثرة الفتن وكثرة التنافس على الحكم، وكثرة الصراع بين الأمراء وسالت في سبيل ذلك دماء كثيرة.

ومما يمتاز به عصر المماليك أن الأحداث والمناصب السياسية حكر على عنصر المماليك، لا يشاركهم فيها أحد من عامة الناس، وإنما دور بقية الناس يقف عند مراقبة الأحداث، فإذا تغلب مملوك على آخر فعلى العامة أن تقيم الزينات وتعلن الابتهاج، وكل ما يحدث في القاهرة مركز الدولة تتأثر به دمشق وسائر النيابات، ونواب دمشق وغيرها كسادتهم في القاهرة بين جديد تقام له الزينات، وطريد غير مأسوف عليه، وهكذا دواليك(٣).

***

(١) من كتاب صبح الأعشى، القلقشندي: ٤/١٥١.

(٢) المصدر السابق: ٤/١٥٢.

(٣) خطط الشام، المقريزي: ٢/١٥٣ ـ ١٥٤.

(٢)
الحالة الاجتماعية

يمكننا أن نتعرف على الحالة الاجتماعية لذلك العصر باطلاعنا على موضوعين هما:

الأول: طبقات الناس في ذلك العصر.

الثاني: أخلاقهم وعاداتهم.

طبقات ذلك المجتمع:

لدى قراءتنا عن أحوال ذلك العصر وجدنا أنفسنا أمام طبقات متعددة كل طبقة لها حالتها الاجتماعيّة الخاصّة، وهذه الطبقات هي:

الأولى ـ الحكام من السلاطين ونوابهم:

وهم أصحاب السلطان والجاه في الدولة، وقد شهد الإمام ابن القيم رحمه الله حكم المماليك الذين حكموا مصر والشام، والمماليك، وإن كانوا في الأصل عبيداً أحضرهم سلاطين الدولة الأيوبية للاستعانة بهم على قتال المناوئين لسلطانهم، إلّا أنهم بعد أن قفزوا إلى الحكم صاروا ملوكاً وسلاطين، ونظراً للانتصارات العسكرية الفائقة التي حققوها ضد المغول والصليبيين، فقد وجدوا بذلك أسباباً تبيح لهم ما يستولون عليه من أموال الدولة[١].

وكان لهم اهتمام كبير في الترف والزينة والمراسم، وقد ذكر القلقشندي تفصيلات عن مواكبهم وأعلامهم وأسلحتهم وهيئاتهم[٢].

---

(١) ابن قيم الجوزية، عبد العظيم شرف الدين: ص ٥٤.

(٢) راجع كتاب: صبح الأعشى، اختيار عبد القادر زكار: ٤/٣٣٢ ـ ٣٧٣.

الثانية ـ العلماء:

وقد لقي العلماء تكريماً في ذلك العصر، وكان لهم كلمتهم وسلطانهم عند العامة، وقد شاركوا الأمة في أحداثها السياسية، فشيخ الإسلام ابن تيمية مثلاً يشارك بنفسه في قتال المغول، وفي قتال الفرق الباطنية.

كما برز في ذلك العصر عدد من العلماء العاملين، الذين كانوا يواجهون السلاطين بكلمة الحق من أمثال الإمام العز بن عبد السلام المتوفى سنة ٦٦٠هـ، ومواقفه كثيرة مع الملك الصالح إسماعيل في الشام، وقد اعترض عليه عندما هادن الصليبيين، وسمح لهم بدخول دمشق، ومكنهم من الاستيلاء على صفد والشقيف، فنال منه على المنبر[1].

كما أن مواقفه في مصر مع سلاطين المماليك معروفة، ومن أبرزها قصته مع أمراء المماليك، وقد ذكر القصة معظم الذين ترجموا لحياته وعلى رأسهم السبكي في طبقاته[2]، حيث رأى أن هؤلاء ليسوا أحراراً، وحكم الرق مستصحب عليهم لبيت مال المسلمين، وبهذا يجب أن يحظر عليهم تصرفات الأحرار التي لا يجوز أن يزاولها الأرقّاء، وأصدر فتواه بعدم جواز إجراء عقودهم.

بالإضافة إلى مواقفه مع نجم الدين أيوب والملك قطز[3]. وقد تابعه على نفس المنهج تلميذه ابن دقيق العيد المتوفى سنة ٧٠٢هـ، الذي وقف أمام السلطان محمد بن قلاوون نفس موقف شيخه مع السلطان قطز بعدم جواز جمع الأموال من الناس للحرب، إلا إذا أنفقت كل الحلي والأسلحة الذهبية التي يملكها الأمراء وأجنادهم[4].

ومن هؤلاء العلماء الشيخ محيي الدين النووي المتوفى سنة ٦٧٦هـ الذي قال عنه ابن كثير: «وكان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر للملوك وغيرهم»[5].

---

(١) طبقات الشافعية، السبكي: ٨/ ٢١٠.

(٢) المرجع السابق: ٨/ ٢١٦ ـ ٢١٧.

(٣) المرجع السابق: ٨/ ٢١١.

(٤) المرجع السابق.

(٥) انظر: البداية والنهاية: ١٣/ ٢٧٩.

وقد قال للظاهر بيبرس ـ عندما أفتاه مجموعة من العلماء بما يهواه ـ «أفتوك بالباطل»[١].

ومن هؤلاء العلماء أيضاً شيخ الإسلام ابن تيمية المتوفى سنة ٧٢٨هـ وقصته مع التتري قازان معروفة، وله مواقف متعددة مع سلاطين المسلمين، ومنها قصته مع الملك الناصر محمد بن قلاوون، حيث استدعاه الناصر وقال له: سمعت بأن الناس أطاعوك وأنت تفكر في الحصول على الملك، فردّ عليه الشيخ بصوت عال سمعه الحاضرون كلهم: أنا أفعل ذلك؟ والله إن ملكك وملك المغول لا يساوي عندي فلساً[٢].

لقد كان السلاطين يهابون العلماء ويجلونهم لما لهم من مكانة عند عامة الناس، وعندما خرج العز بن عبد السلام من مصر إثر قصته السابقة مع أمراء المماليك خرج من خلفه أهل القاهرة، وقيل للسلطان: أدرك نفسك فقد يذهب ملكك بذهاب العز، واضطر إلى استرجاعه واسترضائه وإجراء حكمه[٣].

وهذا الملك محمد بن قلاوون رغم عدم مهادنة ابن تيمية له، يذكر لنا ابن كثير أنه عند دخول السلطان إلى مصر يوم عيد الفطر لم يكن له دأب إلا طلب الشيخ تقي الدين بن تيمية من الإسكندرية معززاً مبجلاً، وعندما وصله نهض السلطان قائماً للشيخ ومشى له إلى طرف الإيوان[٤].

الثالثة ـ التجّار:

وكان التجار يتمتعون بمكانة مرموقة، وقد نشّط السلاطين الحركة التجارية في بلادهم، وأعطوا التجار الأجانب امتيازات وتسهيلات تجارية، وقد شعر السلاطين بأن التجار هم المصدر الأول الذي يعتمدون عليه في سد حاجاتهم في الأوقات العصيبة، وكانت مصر والشام في ذلك الوقت من أنشط المراكز التجارية العالميّة[٥].

---

(١) انظر: حسن المحاضرة: ٢/٧٤.

(٢) ابن القيم، أحمد ماهر البقري: ص ٣١.

(٣) راجع: طبقات الشافعية للسبكي: ٨/٢١٧.

(٤) راجع: البداية والنهاية، ابن كثير: ١٤/٥٣.

(٥) العصر المماليكي في مصر والشام، سعيد عاشور: ص ٢١٢.

الرابعة ــ العربان والبدو الرحّل:

وهؤلاء كانوا المنافس الوحيد لفئة المماليك، ومن الصعب أن يخضعوا لسلطان الدولة، وكانوا يمتنعون عن دفع الضرائب والخراج أحياناً[1].

وكانوا يشورون أحياناً، ومن أشهر ثوراتهم ثورة بدر بن سلام سنة ٧٧٩هـ الذي هاجم دمنهور وفتك بأهلها، ولم تتمكن الدولة من إخماد هذه الثورة إلاّ بعد ثلاث سنين[2].

كما ثاروا مرة أخرى وحاولوا قتل السلطان برقوق وتنصيب الخليفة المتوكل سلطاناً، لكن محاولتهم لم تفلح[3].

الخامسة ــ عامة الناس:

وتشمل الفلاحين والعمال والصنّاع، وكانوا على درجة كبيرة من الفقر والمجاعة والأوبئة، جرّتها الحروب الطويلة التي خاضتها الأمة، ويصف ابن كثير الحالة في دمشق عند سماعهم بتحرك المغول إليهم «. . . وقد غَلَت الأسعار بدمشق جداً، واشتد الحال»[4]. ولحالة الفقر واحتكار التجار ألّف ابن تيمية رحمه الله رسالة حرم فيها احتكار أقوات المسلمين[5].

كما ذكر لنا ابن كثير عن الأوبئة كالطاعون الذي حلّ سنة ٧٤٩ وزاد عدد الأموات في كل يوم عن المائة، ثم زاد على المائتين وتعطلت مصالح الناس[6].

من أخلاق ذلك المجتمع وعاداته:

شاعت في ذلك المجتمع أخلاق مخالفة للإسلام، نجد الحديث عنها في بعض

---

(١) العبر وديوان المبتدأ والخبر، ابن خلدون: ٥/٤٧٠.

(٢) بدائع الزهور في وقائع الدهور، ابن إياس: ١/٢٤٩.

(٣) إنباء الغمر بأبناء العمر، ابن حجر، تحقيق الدكتور حسن حبشي: ص ٢٠٠.

(٤) البداية والنهاية: ١٤/١٦.

(٥) ابن قيم الجوزية، عبد العظيم شرف الدين: ص ٥٥.

(٦) البداية والنهاية: ١٤/٢٢٥ ــ ٢٢٦.

كتب ابن القيم رحمه الله، وقام بذكر بعضها أحمد البقري في رسالته عن ابن القيم ومن ذلك[1]:

١ ــ **المحلل والمحلل له**: وهـذه عـادة بقيت إلى زمن قـريب في بعض منـاطق العالم الإسلامي، وهي أن المرأة إذا طلقت ثلاث مـرات وحرمت على زوجهـا إلاّ بعد أن تتزوج زوجاً آخر، كانوا يلجأون إلى التحايل في ذلك فيتفقون مع رجل آخر يعقد عليهـا، يـدخل بهـا، ثم تعود إلى زوجهـا الأول، ويذكـر ابن القيم في إغاثـة اللهفان وجـود هذه الحالة في زمنه[2].

كما أشار للمسـألة في كتـابه الفـروسية عنـد حديثـه عن المحلل في السباق، حيث جعل دخول المحلل في عقد السباق كدخول **المحلل** في النكاح للمطلق ثـلاثاً، فكـلاهما مستعار في العقد. وقد ثبت عن محلل النكاح أنه تيس مستعار[3].

ولابن تيمية كتاب في المسألة اسمه: «إقامة الدليل في إبطال التحليل».

٢ ــ **ملابس غير ساترة للنساء**: ولعل ذلك أتى من الفرنجـة حيث شاع بين النسـاء طراز من القمصان خرجت في كبر أكمامها عن الحد. وفي سنة ٧٥١هـ أشهـر المناداة في القاهرة بإبطال ذلك حسب أوامر السلطان فرجعت النساء عن ذلك[4].

٣ ــ **الأغاني والطرب**: فنـرى تعرض ابن القيم في إغـاثة اللهفـان لهذه المسـألة، وذكر أن من مكائد الشيطان انتشار سماع المكـاء والتصديـة، والغناء بـالآلات المحرمـة، وتحـدث عما كـان عليه بعض المتصـوفة في زمنـه ممن كـانـوا يعقـدون حلقـات الـرقص يتمايلون مع أنغام الآلات، وبيِّن حرمة الغناء المصاحب لهذه الآلات[5].

٤ ــ **المخدرات**: وقد ظهر الحشيش في القرن السادس الهجري، وكـان ابن تيمية

---

(١) ابن القيم، أحمد البقري: ص ٣٦ ــ ٤٠.

(٢) راجع: إغاثة اللهفان، ١/٢٦٨ ــ ٢٨٣.

(٣) انظر: الفروسية: ص ٢٢.

(٤) بدائع الزهور: ١/١٦٥.

(٥) إغاثة اللهفان: ١/٢٢٤ ــ ٢٦٨. وانظر كذلك: مدارج السالكين: ١/١١٧.

من أكبر المشنعين عليها، وحكم بنجاستها وبتحريمها وسماها لقمة الزقوم[1].

٥ ـ **البغاء**: فقد نقل الأستاذ البقري عن تاريخ المذاهب الإسلامية أنه عرف في ذلك العصر ضمان الغواني، وهو مال تدفعه البغايا، وتنزل البغيّ اسمها عند امرأة تسمى الضامنة، فلا يقدر أحد أن يمنعها من البغاء، وعمل الفاحشة، وبقي هذا إلى أن أبطله الناصر محمد بن قلاوون[2].

***

(١) انظر: ابن القيم، البقري: ص ٣٨.
(٢) المرجع السابق: ص ٣٩.

(٣)
الحالة العلمية

شهد العصر المملوكي بشكل عام والقرن الثامن ــ الذي عاش في منتصفه الأول شيخنا ابن القيم رحمه الله ــ بشكل خاص، نشاطاً ملموساً في الحركة العلمية.

ويبدو أن السبب الرئيسي في هذا النشاط هو التحدي الحضاري الذي أوجبته الهجمات الصليبية والمغولية، التي استهدفت اجتثاث حضارة الأمة المسلمة وكيانها.

فأخذت الأمة ــ وقد بدأت تستعيد كيانها السياسي في أواخر القرن السابع ــ تلقي بكل ثقلها لتثبت ذاتها.

وقد أدرك سلاطين الدولتين الأيوبية والمملوكية ذلك وتسابقوا في بناء المدارس وإعمار المساجد وتشجيع العلماء، ونستطيع أن نتعرف على الحالة العلمية في ذلك العصر من خلال اطلاعنا على أوضاع المساجد والمدارس، ومن خلال تعرفنا على الشخصيات العلمية البارزة في ذلك العصر، وبعض إنتاجهم العلمي من المؤلفات القيمة التي لا يستغني عنها الدارسون حتى يومنا هذا.

أما عن أوضاع المساجد، فقد قام بعض السلاطين بعمارة بعض المساجد وإعادة كيانها، وظهرت بعض المساجد التي اعتبرت دوراً للعلم يؤمها الطلبة من كل مكان كالجامع الأزهر وجامع عمرو بن العاص وجامع ابن طولون وجامع الحاكم، وكلها في مصر، والجامع الأموي في الشام.

فجامع عمرو بن العاص مثلاً أعيد بناؤه وإعماره في عهد الناصر محمد بن قلاوون، وذكر المقريزي أن شمس الدين محمد بن عبد الرحمن بن الصائغ الحنفي أدرك بجامع

عمرو بن العاص بمصر بضعاً وأربعين حلقة لإقراء العلم[1].

وكان الجامع الأزهر داراً للتعليم زمن الفاطميين والأيّوبيين والمماليك[2].

أما عن المدارس فقد أسس كثير من المدارس زمن نور الدين وصلاح الدين اللذين وجدا في المدرسة حصناً يحفظ للأمّة شخصيتها في وجه كل التحديات.

ويكفي لمعرفة مدى انتشار المدارس في دمشق، وما وصلت إليه من تقدّم أن نطلع على كتاب «الدارس في تاريخ المدارس» لمؤلفه محيي الدين أبي المفاخر عبد القادر بن محمد النعيمي المتوفى سنة ٩٢٧هـ، وقد دوّن هذا الكتاب لكل المدارس التي عرفتها دمشق من القرن الخامس إلى القرن العاشر الهجري، وجمع فيه المؤلف تاريخ دور القرآن والحديث والمدارس والخوانق والتكايا والربط والزوايا والترب، كما ذكر تراجم أصحابها، وسير من درّسوا فيها[3]، وقد بلغ عدد دور العلم هذه في كتاب النعيمي (٣١٠) مدرسة هذا فيما عدا الجوامع المعروفة، التي بلغت في دمشق وحدها دون ضواحيها (٢٧٤) حسب إحصائية النعيمي، وكان في أكثرها حلقات علمية، ولدى اطلاعي على هذه المدارس في كتابه تبيّن لي من خلال تاريخها ومشيختها أن غالبية هذه المدارس كانت موجودة في القرن الثامن الهجري الذي عاش فيه الإمام ابن القيم رحمه الله.

إن انتشار هذه المدارس واحتواءها على الآلاف من الطلبة والأساتذة لخير دليل على أن دمشق في تلك الفترة كانت تعيش ثورة علمية عارمة.

ولقد كانت المدارس العلميّة التي أنشئت في ذلك العصر على درجة عالية من التنظيم والإدارة وذات أهداف ومناهج محددة، وكان لكل مدرسة شيخ، وفي بعضها العدد الكبير من المدرسين والعاملين.

وكانت هذه المدارس تختلف في درجاتها من قبل من يتولون مشيختها، والتدريس

---

(١) خطط المقريزي: ٤/٢١.

(٢) ابن قيم الجوزية، عبد العظيم شرف الدين: ص ٣٧.

(٣) انظر: تمهيد المحقق (جعفر الحسني) لكتاب الدارس في تاريخ المدارس: ١/ب.

فيها من الأعلام المشهورين أو من دونهم بالإضافة إلى مقدار ما رصد لها من أوقاف وأرزاق تنفق على القائمين بالتدريس والمعيدين والطلبة المنقطعين للدرس.

والدراسة بهذه المدارس كانت أشبه ما تكون بالدراسة الجامعية النظرية من حيث طريقة التدريس ومستوى الدراسة[1].

فقد عرفت هذه المدارس ـ في مصر والشام ـ نظام المحاضرات، وقد عرفت المحاضرات باسم المجالس، وهي طريقة قديمة في التعليم يقوم فيها المدرس بإملاء مجالسه على طلبته[2].

وأشهر هذه المدارس:

١ ـ **المدرسة الناصريّة بالقاهرة**: وقد أسسها السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٧٢هـ، وقد توالى عليها عدد من مشاهير العلماء في ذلك العصر[3].

وقد أمر السلطان ببنائها مدرسة للشافعية على قبر الشافعي رحمه الله[4].

ثم تطورت هذه المدرسة وصارت ذات إمكانات كبيرة، فقد ذكر ابن كثير أن السلطان الناصر ـ محمد بن قلاوون ـ زاد عدد الفقهاء فيها سنة ٧٢٤هـ، فكان فيها من كل مذهب ثلاثون ثلاثون، فزادهم إلى أربعة وخمسين من كل مذهب[5].

٢ ـ **المدرسة الكامليّة بالقاهرة**: وتنسب إلى الملك الكامل، وقد وقفها على المشتغلين بالحديث النبوي، ومن بعدهم على الفقهاء الشافعية، وممن وليها ابن دقيق العيد والبدر ابن جماعة[6].

٣ ـ **المدرسة الظاهريّة بدمشق**: وتنسب إلى الظاهر بيبرس، وقد بناها بين القصرين، وفرغ من عمارتها سنة ٦٦٢هـ. وقد أنشأ فيها خزانة تشتمل على أمّهات الكتب

---

(١) انظر: ابن قيم الجوزية: جهوده في الدرس اللغوي، د. طاهر حموة: ص ٢٠.
(٢) المرجع السابق: ص ٢١.
(٣) حسن المحاضرة، للسيوطي: ٢/١٤١.
(٤) انظر: البداية والنهاية: ١٢/٢٩٧.
(٥) انظر: المرجع السابق: ١٤/١١٣.
(٦) انظر: ابن قيم الجوزية، عبد العظيم شرف الدين: ص ٤٠.

في سائر العلوم، وبنى بجانبها مكتباً لتعليم أيتام المسلمين كتاب الله تعالى[1]، وقد عيّن فيها شيخاً للحنفية وشيخاً للشافعية وشيخاً للحديث[2]. وقد عدّها النعيمي ضمن المدارس الشافعية في دمشق، وذكر أن الظاهر بيبرس بناها مدرسة ودار حديث وتربة[3]، وقد ذكر النعيمي إحدى عشرة مدرسة حنبليّة.

بالإضافة إلى دور الحديث التي كان يشرف عليها في الغالب علماء الحنابلة. ومن أشهر هذه المدارس:

١ ـ **دار الحديث السكريّة**: وموقع هذه المدرسة بالقصاعين داخل باب الجابية، وولي مشيختها الشيخ شهاب الدين عبد الحليم ابن تيمية المتوفى سنة ٦٨٢هـ (والد شيخ الإسلام) كما درّس فيها شيخ الإسلام ابن تيمية، والحافظ شمس الدين الذهبي المتوفى سنة ٧٤٨هـ[4].

وقد ذكر ابن كثير في معرض ذكره لحوادث سنة ٧٣٩هـ أن مما حدث في هذه السنة إكمال دار الحديث السكريّة، وقد باشر مشيخة الحديث فيها الشيخ الإمام الحافظ مؤرخ الإسلام شمس الدين الذهبي[5].

ويبدو من كلام النعيمي أن هذه الدار قد تأسست قبل التاريخ الذي ذكره ابن كثير، وبوشر بالتدريس فيها قبل أن تكتمل، ودرّس فيها كل من شيخ الإسلام ووالده من قبله.

ثم جاءت سنة ٧٣٩هـ لتكتمل هذه الدار ويباشر مشيختها بعد هذه التوسعة الحافظ الذهبي.

ثم تحدث ابن كثير عن هذه الدار ونظامها، وما وصلت إليه من توسع فقال: «وقُرّر فيها ثلاثون محدثاً لكل منهم جراية، كل شهر سبعة دراهم ونصف رطل خبز، وقُرّر فيها ثلاثون نفراً يقرأون القرآن؛ لكل عشرة شيخ، ولكل واحد من القراء نظير ما للمحدثين.

---

(١) انظر: ابن قيم الجوزية، عبد العظيم شرف الدين: ص ٤١.

(٢) انظر: البداية والنهاية: ١٣/ ٢٤٢.

(٣) انظر: الدارس في تاريخ المدارس، النعيمي: ١/ ٣٤٩.

(٤) انظر: الدارس في تاريخ المدارس، النعيمي: ١/ ٧٤، ٧٥، ٧٨.

(٥) انظر: البداية والنهاية: ١٤/ ١٨٤.

ورتب لها إمام وقارىء حديث ونواب، ولقارىء الحديث عشرون درهماً وثمان أواق خبز، وجاءت في غاية الحسن في شكلها وبنائها (ووقف عليها عدة أماكن)[1].

٢ ـ **مدرسة الجوزيّة**: وهي من أشهر مدارس الحنابلة في دمشق، وقد وصفها النعيمي بقوله: بل إن قضاة الحنابلة اشتهروا بها، وهي من أحسن المدارس وأوجهها[2]، وقد أوقفها أستاذ دار الخلافة العباسية محيي الدين بن الشيخ جمال الدين أبي الفرج بن الجوزي، الذي قتل مع الخليفة المستعصم عند سقوط بغداد سنة ٦٥٦هـ وهي من أحسن المدارس[3].

وتقع هذه المدرسة في آخر سوق البزوريّة، جوار قصر العظم وغربيّه، حرقت ودرست وجدّد مكانها مخازن ومصلى بسيط وكان على عتبة بابها الكتابة الآتية:

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

هذا ما وقف الصاحب محيي الدين بن الجوزي، على مذهب الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه، وقف عليها قرية (غزارا) بالشّعراء ومن قرية (فادا) باليرموك الربع والثمن، ومثله من دير ابن عصرون في الغوطة، ومن مزرعتين بأرض (المليحة) وقرية (رنكوس) تقبل الله منه، فرغ من عمل هذه المدرسة في سنة ٦٥٢هـ[4].

يقول الأستاذ الغنيمي: «وقد افتتحتها جمعية الإسعاف الخيريّة، وجعلتها مدرسة لتعليم الأطفال الأيتام، ثم إنها احترقت سنة ١٩٢٥م أثناء الثورة السوريّة على الفرنسيين، ثم أعيد بناؤها الآن»[5].

وهذه هي المدرسة التي يعرف بها إمامنا ابن قيم الجوزية كما أسلفنا.

٣ ـ **المدرسة الصدرية**: واقفها صدر الدين أسعد بن عثمان بن منجا القنوجي الحنبلي المتوفى سنة ٦٥٧هـ أحد المعدلين ذوي الأموال والمروءات والصدقات الدارّة

---

(١) انظر: البداية والنهاية: ١٤/١٨٤.

(٢) انظر: الدارس في تاريخ المدارس، النعيمي: ١/٣١.

(٣) البداية والنهاية: ١٣/٢١١.

(٤) انظر: كلام المحقق (جعفر الحسني) هامش صفحة ٢٨، الدارس، للنعيمي.

(٥) انظر: ابن قيم الجوزية، محمد مسلم الغنيمي: ص ١٠٠.

البارّة، وأول من درّس فيها وجيه الدين محمد بن عز الدين عثمان بن منجا، ومن شيوخها فيما بعد، شمس الدين ابن عبد الهادي المتوفى سنة ٧٤٤هـ.

وقد درّس فيها شيخنا ابن قيم الجوزية وأخوه زين الدين عبد الرحمن وولد أخيه عماد الدين إسماعيل.

كما درّس فيها أولاده برهان الدين إبراهيم وجمال الدين عبد الله(١).

٤ ــ **المدرسة الضيائية المحمّديّة**: وموقعها بسفح قاسيون شرقي الجامع المظفر، وبانيها: الفقيه ضياء الدين محمد بن عبد الواحد المقدسي الحنبلي المتوفى سنة ٦٤٣هـ. وقد وقف كتباً كثيرة بخطه بخزانتها، ووقفها على أهل الحديث والفقهاء من أصحابهم(٢).

وكان لهذه المدرسة قيّم اشتهر بلقب قيّم الضيائية واشتهر ابنه بابن القيم أو ابن قيم الضيائية، ــ كشأن شيخنا ابن قيم الجوزية ــ.

وابن قيم الضيائية هو عبد الله بن محمد بن إبراهيم الدمشقي الحنبلي المتوفى سنة ٧٦١هـ(٣).

هذه بعض المدارس المشتهرة في دمشق، ذكرتها كنموذج فقط ولا شك أن هذه المدارس وأمثالها كان لها دور كبير في إحياء الحركة العلمية في دمشق.

الميزات العلمية لهذا العصر:

لقد تميّز القرن الثامن الهجري بميزات فريدة في المجال العلمي يمكن أن نذكر منها ما يلي:

١ ــ كثرة المدارس ودور العلم كما أسلفنا.

٢ ــ كثرة المؤلفات الموسوعيّة:

فقد ألفت في هذا العصر كتب تعدّ الآن أمهات ومصادر رئيسة لشتى أنواع العلوم،

---

(١) انظر: الدارس في تاريخ المدارس، النعيمي: ١/٨٦ ــ ٩٠؛ والبداية والنهاية: ١٣/٢١٦.
(٢) انظر: الدارس: ١/٩١. وانظر: البداية والنهاية: ١٣/١٧٠.
(٣) انظر: شذرات الذهب: ٦/١٩١، وانظر: البداية والنهاية: ١٣/١٧٠.

وضعت فيه أشهر كتب اللغة والمعاجم ومنها ألفية ابن مالك، وشذور الذهب وقطر الندى لابن هشام المصري المتوفى سنة ٧٦١هـ.

وظهر من المعاجم لسان العرب لابن منظور المتوفى سنة ٧١١هـ والمصباح المنير للفيومي المتوفى سنة ٧٧٠هـ.

ومن كتب التراجم ظهرت كتب الحافظ الذهبي في التاريخ والترجمة وسير الرجال، وظهرت البداية والنهاية لابن كثير، والوافي بالوفيات للصفدي، كما ظهر كتاب وفيات الأعيان لابن خلكان المتوفى سنة ٦٨١هـ، وفوات الوفيات للكتبي المتوفى سنة ٧٦٤هـ وغير ذلك.

وقدّم هذا العصر موسوعات علمية في كل المجالات التاريخية والفقهية والحديثية والأدبية والجغرافية، ومن يستعرض بعض هذه الموسوعات يعرف أنها عنوان تحدّ كبير من هذه الأمة لأعدائها، ورد فعل للمحاولات التي بذلها الصليبيون والمغول لطمس الحضارة الإسلامية.

٣ ـ **إنجاب كبار الشخصيات العلمية**: معجزة هذا العصر أنه أنجب كبار العلماء الذين خلفوا أمهات المؤلفات الإسلامية في شتى المعارف والعلوم، ومن أشهر هؤلاء بالإضافة إلى من ذكرنا من أصحاب الموسوعات شيخ الإسلام ابن تيمية المتوفى سنة ٧٢٨هـ، وتلميذه الإمام ابن قيم الجوزية، وتصانيفهما كثيرة معروفة.

ومنهم مؤرخ الشام الشافعي الحافظ القاسم بن محمد البرزالي المتوفى سنة ٧٣٩هـ(١)، وسنذكر عدداً من هؤلاء الأئمة الأعلام عند حديثنا عن شيوخ ابن القيم وتلاميذه.

٤ ـ **ظهور النساء العالمات**: فقد تجاوزت الحركة العلمية رجال هذا العصر إلى نسائه لنجد العالمات والمسندات والفقيهات، وقد تتلمذ على كثير منهن بعض مشايخ ذلك العصر ومن هؤلاء النساء: المسندة ست العرب بنت محمد بن الفخر بن علي البخاري، المتوفاة سنة ٧٦٧هـ، التي سمع منها الحافظان العراقي والهيثمي، كما سمع

---

(١) البداية والنهاية: ١٤/١٨٥.

منها ابن رجب. وقد طال عمرها وانتفع بها خلق كثير[1].

ومنهن زينب بنت إسماعيل بن الخبّاز وقد تتلمذ عليها العراقي وابن رجب وكثير من علماء العصر[2].

ومنهن: الشيخة الصالحة العابدة الناسكة أم زينب فاطمة بنت عباس بن أبي الفتح البغدادية، المتوفاة سنة ٧١٤هـ وكانت من العالمات الفاضلات، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر... وقد كانت تحضر مجلس الشيخ تقي الدين ابن تيمية... وهي التي ختمت نساء كثيراً القرآن[3].

ومنهن المسندة المحدثة فاطمة بنت جوهر البطائحي المتوفاة سنة ٧١١هـ والتي سترد مع شيوخ ابن القيم.

٥ ــ **اشتمال التأليف لذلك العصر على جميع الأشكال الممكنة**: ما بين متن نثري وشرح له، وحاشية على الشرح ومنظومة شعرية، وشرح لها وموشح، بالإضافة إلى الكتب التي توضع مبسوطة لا تحتاج إلى شروح[4].

٦ ــ **ظهور طابع الزخرفة والتنسيق**، الذي ظهر في فنون العصر، وغلب عليها. وقد ظهر أثر هذا الطابع في المؤلفات العلمية وفي طريقة وضعها وتصنيفها، بحيث نجد اهتمام المؤلف بالتنظيم والتبويب في مصنّفه[5].

وهذه المزايا بلا شك قل أن تجدها في عصر غير هذا العصر الذي عاش فيه ابن القيم رحمه الله، واستقى من معينه واقتنى من كتبه وموسوعاته مما ظهرت آثاره في كثرة مؤلفاته واحتوائها على غزير العلم ومفيده.

***

(١) شذرات الذهب: ٢٠٨/٦. وانظر: منتخبات التواريخ لدمشق: ٥٤٧/٢.
(٢) انظر: شذرات الذهب.
(٣) انظر: البداية والنهاية: ٧٢/١٤.
(٤) انظر: ابن قيم الجوزية، د. طاهر حمودة: ص١٣.
(٥) المرجع السابق نفسه.

الفصل الثاني

حيـاة ابـن القـيّـم

(١)

اسمه ونسبه ولقبه وكنيته

اسمه: محمد بإجماع الذين ترجموا له.

واسم والده: أبو بكر، والتسمية بالكنية لا زالت معروفة في بعض البلدان الإسلامية.

واسم جده: أيوب.

وبعض المترجمين اكتفوا في نسبته باسم جده أيوب[١].

وابن كثير ممن اكتفوا بذلك إلا أنه ذكر اسم جده سعد عند ترجمته لوالده فقال: أبو بكر بن أيوب بن سعد الزرعي[٢].

وبقية المترجمين أكملوا نسبه إلى (حريز) فقالوا: أيوب بن سعد بن حريز[٣].

وقد اختلف ضبطهم لبعض الأسماء فعند السيوطي: (سعيد) بدل (سعد)، وعند

---

(١) انظر: النجوم الزاهرة: ١٠/٢٤٩؛ والتاج المكلل: ص ٤١٦؛ والبداية والنهاية: ١٤/٢٣٤.

(٢) انظر: البداية والنهاية: ١٤/١١٠.

(٣) انظر: شذرات الذهب: ٦/١٦٨؛ وطبقات المفسرين: ٢/٩٠؛ ومعجم المؤلفين: ٩/١٠٦؛ وبغية الوعاة: ١/٦٢؛ والوافي بالوفيات: ٢/٢٧٠؛ وذيل طبقات الحنابلة: ٢/٤٤٧؛ والدرر الكامنة: ٤/٢١؛ وهدية العارفين: ٢/١٥٨.

الألوسي في جلاء العينين (أسعد) وقد اكتفى بنسبه لذلك[1]. وفي هدية العارفين والبدر الطالع (جرير) بالجيم والراء المهملة بدل (حريز) وعند ابن رجب (جريز) ولعل هذا من تصحيف النساخ أو أخطاء المطابع.

أما الشيخ بكر أبو زيد فقد وصل نسبته إلى جدّه (مكي) والد حريز، وذكر أنه تحصل له ذلك من ترجمة أخيه عبد الرحمن في كتاب الدرر الكامنة لابن حجر[2] كما ذكر النعيمي هذه النسبة لأخيه عبد الرحمن ووصلها إلى مكي عند حديثه عن شيوخ المدرسة الصدرية[3].

كنيته:

يكنى بأبي عبد الله، ولم يرد خلاف ذلك[4].

لقبه:

ولقبه العلمي: شمس الدين، وقد اتفق كل الذين ترجموا له على هذا اللقب.

واختصره السيوطي في بغية الوعاة فقال: الشمس[5] لكنه اشتهر بابن القيم أو ابن قيم الجوزية.

وقيم الجوزية هو والده الشيخ العابد أبو بكر بن أيوب بن سعد الزرعي الحنبلي.

قال ابن كثير عند ترجمته له: كان رجلاً صالحاً متعبداً قليل التكلف وكان فاضلاً، وقد سمع شيئاً من دلائل النبوة عن الرشيد العامري، توفي فجأة ليلة الأحد تاسع عشر ذي الحجة سنة ٧٢٣هـ بالمدرسة الجوزية، وكانت جنازته حافلة، وأثنى عليه الناس خيراً

---

(١) جلاء العينين، للألوسي: ص ٣٠.
(٢) ابن قيم الجوزية، بكر أبو زيد: ص ٨.
(٣) انظر: الدارس في تاريخ المدارس، النعيمي، تحقيق جعفر الحسني: ٢/ ٩٠، مطبعة الترقي، سنة ١٣٧٠هـ.
(٤) ذكرت كنيته في شذرات الذهب؛ وطبقات المفسرين؛ ومعجم المؤلفين؛ وهدية العارفين؛ وذيل طبقات الحنابلة (بنفس الصفحات السابقة).
(٥) بغية الوعاة، السيوطي: ١/ ٦٢.

رحمه الله، وهو والد العلامة شمس الدين بن قيم الجوزية صاحب المصنفات الكثيرة النافعة الكافية[1].

واشتهر والده بهذا اللقب لأنه كان قيماً أي (ناظراً ومشرفاً) عَلى المدرسة الجوزية بدمشق، التي عرّفنا بها عند حديثنا عن الحالة العلمية لعصر ابن القيّم.

***

(١) البداية والنهاية: ١٤/١١٠.

(٢)
مـولـده وأُسـرتـه

وُلـد ابن القيم في السابـع من صفـر سنـة إحـدى وتسعين وستمـائـة[١] «٦٩١هـ»، ويعـرف ابن القيم بالـزرعي، حيث ينسب إلى (زرع) قـريـة من عمـل حـوران[٢]، وهـذه القرية تسمى اليوم (إزرع) ويرى المسافر من عمان إلى دمشق لائحة تشيـر إليها عن يمينـه بين درعا والشيخ مسكين.

ولا يحــدد المتــرجمــون مكــان ولادتــه أهي في إزرع؟ أم هي في دمشق؟ لكن المعروف أن بلده الأصلي إزرع وقد يكون والده ارتحل به إلى دمشق ليتخذها مـوطناً لـه، أو أن أسرته من قبل ارتحلوا إلى دمشق.

أما أسرته: فيظهر أنه ينتمي إلى أسرة متدينـة، مهتمة بـالعلم، وقد قـدّمنا عن حيـاة والده، وما قاله فيه ابن كثير عن عبادته وعلمه وقيامه على أمر مـدرسة الجـوزية. وقـد أخذ عنه ابن القيـم علم الفرائض، وكان له فيها يد[٣].

وأخوه زين الدين أبـو الفرج عبـد الرحمن بن أبـي بكـر، ولد سنـة ٦٩٣هـ. وشارك أخاه في أكثر شيوخه ومن تلامذته الحافظ ابن رجب توفي سنة ٧٦٩هـ[٤].

فقد ذكره ابن رجب في مشيخته، وقال: سمعت عليه كتاب التوكل لابن أبـي الدنيا

---

(١) اتفق كل المترجمين لحياته على سنة ٦٩١هـ تاريخاً لمولده، وحدد اليوم والشهر كل من الداودي في طبقات المفسرين: ٢/٩٠؛ والسيوطي في بغية الـوعاة؛ ١/٩٢؛ والصفـدي في الوافي بـالوفيـات: ٢/٢٧٠.

(٢) الضوء اللامع، السخاوي: ١١/٢٠٤.

(٣) الوافي بالوفيات: ٢/٢٧١.

(٤) انظر: الدرر الكامنة: ٢/٤٣٤.

بسماعه على الشهاب العابر وتفرد بالرواية عنه(١).

وابن أخيه هذا عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عبد الرحمن كان من الأفاضل، وقد اقتنى أكثر مكتبة عمّه شمس الدين، توفي سنة ٧٩٩هـ(٢).

قال الشيخ شهاب الدين بن حجي عنه: كان رجلاً حسناً اقتنى كتباً نفيسة، وهي كتب عمّه شمس الدين محمد، وكان لا يبخل بعاريتها، وكان خطيب جامع خليخان، توفي يوم السبت؛ خامس عشر من رجب؛ سنة ٧٩٩هـ(٣).

ومن أبناء ابن القيم الذين اشتهروا بعلمهم: ولده الأكبر عبد الله شرف الدين، وجمال الدين المتوفى سنة ٧٥٦هـ قال عنه ابن كثير: الشيخ الشاب الفاضل المحصل جمال الدين عبد الله بن العلامة شمس الدين بن قيم الجوزية الحنبلي، كانت لديه علوم جيدة، وذهنه حاضر خارق، أفتى ودرّس وأعاد وناظر وحج مرات عديدة(٤).

وابنه إبراهيم العلامة النحوي الفقيه المتقن برهان الدين إبراهيم بن شمس الدين، وكانت ولادته سنة ٧١٩هـ، وتوفي سنة ٧٦٧هـ، درّس بالصدريّة، وله في النحو اليد الطولى إذ شرح ألفية ابن مالك في كتاب سماه: إرشاد السالك إلى حل ألفية ابن مالك، وله تصدير بالجامع الأموي، وخطابة جامع خليخان بالقراونة... ودفن عند أبيه بباب الصغير، وحضر جنازته القضاة والأعيان(٥).

ولا شك أن واقع هذه الأسرة يدل على صلتها الوثيقة بالعلم والعلماء وكل ذلك كان له أثره على ابن القيم رحمه الله.

***

---

(١) انظر: النعيمي: ٩١/٢.
(٢) انظر: شذرات الذهب: ٣٥٨/٦.
(٣) انظر: النعيمي: ٩١/٢.
(٤) انظر: البداية والنهاية: ٢٥٣/١٤.
(٥) الدارس في تاريخ المدارس، النعيمي: ٨٩/٢.

(٣)
نشـأتـه ورحـلـتـه

نشأ ابن القيم في بيئة علم وصلاح، وقد رأينا أن أباه كـان صالحـاً عابـداً بالإضـافة إلى كونه عالماً قيماً على مدرسة الجوزيـة. وكانت دمشق التي نشـأ بها ابن القيم حاضرة العلماء آنذاك. هذا بالإضافة إلى ذكائه واستعداده الفطري الموهوب.

كـل هذه العـوامل وجّهت ابن القيم في مـرحلة مبكرة من عمـره نحـو طلب العلم، فكان يحضر مجالس العلماء قبـل السادسـة من عمره، ويعـد المترجمـون لابن القيم من جملة شيوخه، الشهاب النابلسي العابر المتوفى سنة ٦٩٧هـ أي تـوفي بعد ولادة ابن القيم بست سنوات فقط، وابن القيم يشير إلى ذلك في كتابه زاد المعاد: شيخنـا، ورسوخـه في علم التعبيـر، وسمعت عليه عـدة أجزاء، ولم يتفق لي قـراءة هذا العلم على يـديه لصغر السن واخترام المنيّة له رحمه الله تعالى[١].

فنشأ محباً للعلم ومجـالس العلماء، وشغف بـاقتناء الكتب واقتنى من الكتب مـا لم يحصل لغيره[٢].

رحلته في طلب العلم:

لا يشير المترجمون له إلى رحـلات علمية لـه إلّا ما ذكـروه عن حجاتـه الكثيرة التي كان يطيل فيها المكث بمكة مجاوراً بالمسجد الحرام[٣].

ويبدو أنه كان يقيم في بعض البلدان في طريقه إلى الحجاز، ونعرف ذلك من كتابه المسمى (الرسالة التبوكية) نسبة إلى مدينة تبوك، وقد سيّر كتابه هذا من تبوك ثامن المحرم

---

(١) انظر: زاد المعاد: ٣/٦١٦.

(٢) ذيل طبقات الحنابلة، ابن رجب: ٢/٤٤٩.

(٣) انظر: شذرات الذهب: ٦/١٦٨.

سنة ثلاث وثلاثين وسبعمئة[1].

وقد زار ابن القيّم بيت المقدس في فلسطين، ويبدو أنه أعطى فيها دروساً، وقد أشار إلى ذلك في كتابه «بدائع الفوائد» عند ذكره لبيت من الشعر يمكن أن ينظم من نفس كلماته أربعون ألفاً وثلاثمائة وعشرون بيتاً ثم قال: «ومثله لي قلته في القدس ثم ذكر البيت:

محب صبور غريب فقير وحيد ضعيف كتوم خمول[2]

وقد عرف أن ابن القيم قام برحلات علميّة إلى مصر، ولم يشر لذلك إلاّ المقريزي في سلوكه حيث قال: (وقدم القاهرة غير مرة)[3].

كما صرّح ابن القيم في كتابه الذي بين أيدينا (هداية الحيارى) برحلته إلى القاهرة فقال: (وقد جرت لي مناظرة بمصر مع أكبر من يشير إليه اليهود بالعلم والرئاسة)[4].

فعند حديثه عن علم الصحابة والتابعين، ذكر كثرة مؤلفات أئمة الفقه الأربعة، ثم قال عن شيخه: «وهذا علامتهم المتأخر شيخ الإسلام ابن تيمية جمع بعض أصحابه فتاواه في ثلاثين مجلداً ورأيتها في الديار المصرية»[5].

ويتضح من عبارته هذه أنه قام برحلته إلى القاهرة بعد سنة ٧٢٨هـ أي بعد وفاة شيخه ابن تيمية.

كما ذكر عن رحلته إلى مصر في كتابه إغاثة اللهفان فقال: «وذاكرت مرة بعض رؤساء الطب بمصر»[6].

ولئن قلّت رحلات ابن القيم فإن ذلك عائد إلى إقامته بدمشق، مما هيأ له أن يلتقي بكبار العلماء فيها، فلم تكن هنالك ضرورة لخروجه من دمشق طلباً للعلم.

***

(١) الرسالة التبوكية، نشر قصي محب الدين الخطيب، الطبعة الثانية: ص ٣.

(٢) انظر: بدائع الفوائد: ٣/٢٤٥.

(٣) السلوك: ٢/٨٣٤، الطبعة الأولى.

(٤) انظر: ص ٣٨٤ من الرسالة.

(٥) انظر: ص ٤٥٦ من الرسالة.

(٦) انظر: إغاثة اللهفان: ١/١٧، الطبعة الأولى.

(٤)
تأثُّره بشيخه ابن تيمية

عاد ابن تيمية من مصر ليتخذ من دمشق مقراً له سنة ٧١٢هـ[١] وصاحبه ابن القيم الذي كان آنذاك في ريعان شبابه وعمره إحدى وعشرون سنة، وبقي في صحبته إلى أن توفي ابن تيمية رحمه الله سنة ٧٢٨هـ.

وقد أعجب ابن القيم بشيخه إعجاباً شديداً، وتأثر به كثيراً فلازمه باستمرار حتى صار ألمع تلاميذه وأشهرهم واقترن اسمه باسمه، فحيثما يذكر ابن تيمية يذكر بجانبه تلميذه النجيب ابن القيم، حتى عدّه بعض العلماء دليلاً علمياً على سعة علم ابن تيمية، ومن هؤلاء العلماء الشيخ التفهني عبد الرحمن بن علي الحنفي المتوفى سنة ٨٣٥هـ الذي قال في معرض مدحه لابن تيمية: (ولو لم يكن من آثاره إلّا ما اتصف به تلميذه ابن قيم الجوزية من العلم لكفى ذلك دليلاً على ما قلناه)[٢].

ومثل هذا ما قاله الإمام ابن حجر العسقلاني المتوفى سنة ٨٥٢هـ عند ثنائه على ابن تيمية، حيث يقول: (ولو لم يكن للشيخ تقي الدين إلّا تلميذه الشيخ شمس الدين صاحب التصانيف النافعة السائرة التي انتفع بها الموافق والمخالف لكان غاية في الدلالة على عظم منزلته)[٣].

كما عدّه السخاوي حسنة رئيس أصحاب ابن تيمية، وحسنة من حسناته[٤]، وقد برزت بصمات الشيخ جلية على مواقف تلميذه ومؤلفاته، فقد التزم خط شيخه السلفي في

---

(١) انظر: البداية والنهاية: ١٤/٦٧.
(٢) انظر: الشهادة الزكية، الكرمي: ص ٨٢.
(٣) انظر: المرجع السابق: ص ٧٤.
(٤) انظر: الضوء اللامع: ١١/٢٠٤.

مسألة الأسماء والصفات، وردّ كما رد شيخه على المؤوّلة والنفاة، واعترف في بعض كتبه بفضل شيخه عليه في تلك الاعتقادات، ومن ذلك ما قاله في قصيدته (النونية) بعد حديثه عن آراء الفلاسفة والمتكلمين[1]:

جرّبْتُ هذا كلَّه ووقعتُ في ... تلكِ الشِّباكِ وكنتُ ذا طَيَرانِ
حتى أتاحَ لي الإلهُ بفضلِهِ ... مَنْ ليسَ تجزيهِ يدي ولساني
فتى أتى من أرضِ حرّانٍ فيا ... أهلاً بِمَنْ قد جاءَ من حرّانِ
أخذتْ يداه يدي وسارَ فلمْ يَرِمْ ... حتى أراني مَطْلِعَ الإيمانِ

ونراه في موضع آخر يمتدح شيخه ويسرد مؤلفاته مادحاً فيقول[2]:

فاقرأْ تصانيفَ الإمامِ حقيقةً ... شيخِ الوجودِ العالمِ الرَّبَّاني
أَعْني أبا العباسِ أحمَدَ ذلكَ ... البحرُ المحيطُ بسائرِ الخلجان
واقرأْ كتابَ العقلِ والنقلِ الذي ... ما في الوجودِ لهُ نظيرٌ ثاني

ويأخذ بسرد كتبه مع مدحها إلى أن يقول:

وقرأتُ أكثَرَها عليه فزادني ... ـ واللَّهِ ـ في علمٍ وفي إيمانِ

إن اتفاق ابن القيم مع شيخه على الأصول المنهجيّة، جعلتهما يلتقيان في غالب المسائل الفرعيّة، فهما متفقان على ضرورة أخذ الدليل من الكتاب والسنة ووجوب الاستنباط منهما، وترك التعصب المذهبي الذي كاد أن يستولي على كثير من علماء عصرهما. لذا فلا عجب إذا رأينا ابن القيم يدافع عن بعض الآراء الفقهية التي قال بها ابن تيمية مخالفاً أقرانه من العلماء، وبخاصة مسألة طلاق الثلاث التي أوذي بسببها ابن تيمية وسجن، وسُجن معه ابن القيم لنفس السبب.

هذه المحبة الملازمة، وهذه الموافقة من ابن القيم لشيخه، جعلت بعض المترجمين لحياة ابن القيم يظنون أن ابن القيم صورة مكررة لشيخه، حتى أدى الأمر ببعضهم كالكوثري إلى اعتبار ذلك منقصة لابن القيم، إذ يقول: «ويجد القارىء في كتابنا هذا الرد على ابن تيمية كما يجد فيه الرد على ابن القيم باعتبار أن الثاني إنما يردد صدى

---

(١) القصيدة النونية (الكافية الشافية)، ابن القيم: ص ١٠٦ ـ ١٠٧.
(٢) المرجع السابق: ص ١٦٤.

الأول في أبحاثه كلها دون أن تكون له شخصية خاصة، بل هو ظل الأول في كل آرائه وجمع أهوائه»[1].

كما قال عنه: «يقلده في كل شيء وليس له رأي خاص قطعاً على سعته في العلم»[2]، وهذا بلا شك مرفوض من الكوثري جملة وتفصيلاً.

أما ما قاله ابن حجر في الدرر الكامنة حول تعلق ابن القيم بشيخه إذ يقول عنه: «وكان جريء الجنان، واسع العلم، عارفاً بالخلاف ومذاهب السلف وغلب عليه حب ابن تيمية حتى كان لا يخرج عن شيء من أقواله، بل ينتصر له في جميع ذلك، وهو الذي هذب كتبه ونشر علمه»[3].

فإن هذا القول جاء في معرض المدح لا الذم، فقد أثنى على سعة علمه أولاً، ثم بين حبه لشيخه وانتصاره لآرائه وتهذيب كتبه ونشر علمه، وكل ذلك لا غبار عليه بل هو مفخرة لابن القيّم.

والعبارة التي لا بد من الوقوف عندها هي قوله: حتى كان لا يخرج عن شيء من أقواله بل ينتصر له في جميع ذلك.

وقد نقل الشوكاني عبارة ابن حجر هذه في البدر الطالع إلا أنه أعقبها بقوله: قلت: بل كان متقيداً بالأدلة الصحيحة معجباً بالعمل بها غير معوّل على الرأي صادعاً بالحق لا يحابي فيه أحداً، ونعمت الجرأة[4].

فقول ابن حجر: «حتى كان لا يخرج عن شيء من أقواله» فيه نظر، وقد ثبت اختلاف ابن القيم مع شيخه في بعض المسائل[5]، بل كل ما وافقه عليه لم يكن من باب التقليد الأعمى أبداً، وإنما كان من باب الاتفاق بينهما على المناهج الأصولية كما أسلفنا، وكما أوضح الشوكاني في تعليقه.

***

(١) انظر: ابن قيم الجوزية، زيد أبو بكر: ص ٨٥، نقلاً عن السيف الصقيل: ص ١٩٢.

(٢) نفس المرجع والصفحة، نقلاً عن صفعات البرهان: ص ٣٢.

(٣) الدُّرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ابن حجر: ٢١/١٤.

(٤) البدر الطالع بمحاسن ما بعد القرن السابع، الشوكاني: ١٤٣/٢.

(٥) استقصى الشيخ بكر أبو زيد هذه الخلافات من كتب ابن القيم ولم أرَ ضرورة لذكرها. انظر: كتابه « ابن قيم الجوزية »: ص ٩٢ ــ ٩٧.

(٥)
أخـلاقـه وعـبـادتـه

عرف ابن القيم رحمه الله بأخلاقه الفاضلة، وزهده وكثرة عبادته.

فقد تحدث الذين ترجموا لحياتـه عن لطف معـاشرتـه، وهدوئـه حتى في الرد على خصومه، وقد امتاز بهذا عن شيخه ابن تيمية الذي عرف بحدته في معارضة مخالفيه[١].

وتحدثوا عن طول صلاتـه وكثرة قـراءته للقـرآن وكثرة حجـاته وطـوافه، وعن حلمـه وتواضعه.

وحسبك ما قاله تلميـذه ابن كثير ـ الـذي كان من أصحب النـاس له وأحب النـاس إليـه[٢] ـ يصف أخلاقـه وعبـادتـه فيقـول: «وكـان حسن القـراءة والخلق، كثيـر التـودد، لا يحسد أحداً ولا يؤذيه ولا يستعيبه، ولا يحقـد على أحد. . . ولا أعـرف في هذا العـالم في زمـاننا أكثـر عبادة منـه، وكانت لـه طريقـة في الصلاة يـطيلهـا جـداً، ويمـد ركـوعهـا وسجـودها، ويلومـه كثير من أصحـابه في بعض الأحيـان، فلا يـرجـع ولا ينـزع عن ذلـك رحمه الله»[٣].

ثم يقول عنه: «وبالجملة كان قليل النظير في مجموعه وأموره وأحواله والغالب عليه الخير والأخلاق الصالحة»[٤].

وهذه شهادة بهذه الأخلاق الطيبة الفاضلة من رجل موثوق عاصره وتتلمذ على يديـه ورأى هذه الأخلاق منه بأمّ عينه.

---

(١) انظر: ابن قيم الجوزية، عبد العظيم شرف الدين.
(٢) البداية والنهاية، ابن كثير: ١٤/ ٢٣٤.
(٣) المرجع السابق: ١٤/ ٢٣٤ ــ ٢٣٥.
(٤) المرجع السابق: ١٤/ ٢٣٥.

أمـا تلميذه ابن رجب فيقـول: «وكان رحمـه الله ذا عبادة وتهجـد وطـول صـلاة إلى الغاية القصوى، وتألّه ولهج بالذكر وشغف بالمحبة والإنابـة والاستغفار والافتقـار إلى الله، والانكسار له والاطراح بين يديه على عتبة عبوديته، لم أشاهد مثله في ذلك»[1].

ثم يقول: «وكان في مدة حبسه مشتغلاً بتلاوة القرآن بالتدبر والتفكـر ففتح عليـه من ذلك خير كثير، وحصل له جانب عظيم من الأذواق والمواجيد الصحيحة»[2].

وعن حجـاته ومجـاوراته وكثـرة طوافـه يقول ابن رجب عنـه: «وحج مـرات كثيـرة، وجاور بمكة، وكـان أهل مكـة يذكـرون عنه من شـدة العبادة وكثـرة الطواف أمـراً يتعجب منه»[3].

ويذكر ابن حجـر والشوكـاني عنه أنـه كان إذا صلى الصبـح جلس مكانـه يذكـر الله تعالى حتى يتعالى النهار، ويقول: هذه غدوتي لو لم أفعلها سقطت قواي[4].

وكـان رحمه الله يقـول: «بالصبـر والتيسيـر تنـال الإمـامـة في الـدين»[5]. وأرى من المناسب أن أذكر في تواضعه أبياتاً أنشدها ابن القيم بنفسه وسمعها منه تلميذه الصفدي[6] ومن هذه الأبيات:

بـنـيُّ أبي بـكـر كـثـيـر ذنـوبُـه	فـليس على مَـنْ نـالَ من عِـرْضِـهِ إثْـمُ
بـنـيُّ أبي بـكـر جهـولٌ بـنـفـسـه	جـهـولٌ بـأمـرِ اللَّهِ أنّـى لـه الـعِـلْمُ
بـنـيُّ أبي بـكـر غـدا مـتـصـدّراً	يـعـلّمُ عـلـمـاً وَهـو لـيس لـه عِـلمُ
بـنـيُّ أبي بـكـر غـدا مـتـمـنـيـاً	وِصـالَ الـمعـالي والـذنـوبُ لـه همُّ
بـنـيُّ أبي بـكـر يـروم تـرقّـيـاً	إلى جنّـةِ الـمـأوى وليس لـه عَـزْمُ

إلى آخر هذه الأبيـات الجميلة التي بلغت أحد عشـر بيتاً، بـان فيها تـواضعه وعـدم

---

(١) ذيل طبقات الحنابلة، ابن رجب: ٢/٤٤٨.
(٢) نفس المرجع والصفحة.
(٣) ذيل طبقات الحنابلة، ابن رجب: ٢/٤٤٨.
(٤) انظر: الدرر الكامنة: ٤/٢١؛ والبدر الطالع: ٢/١٤٣.
(٥) انظر: البدر الطالع: ٢/١٤٤.
(٦) انظر: الوافي بالوفيات، الصفدي: ٢/٢٧٢.

اغتراره بعلمه، واحتقاره لعمله، ورجاؤه غفران ربه، وهذه سمة أهل العلم العاملين بعلمهم.

والقارىء في كتب ابن القيم يجد التواضع بارزاً فيها، حيث يعترف بتقصيره، وأنه إنسان يصيب ويخطىء، ونجد من ذلك ما قاله في مقدمة كتابه «روضة المحبين»: (والمرغوب إلى من يقف على هذا الكتاب أن يعذر صاحبه فإنه علقه في حال بعده عن وطنه، وغيبته عن كتبه، فما عسى أن يبلغ خاطره المكدود، وسعيه المجهود مع البضاعة المزجاة التي حقيق بحاملها أن يقال فيه: «تسمعَ بالمُعَيْدِيِّ خيرٌ من أن تراه»)[1].

ويقول كذلك في كتابه أعلام الموقعين بعد توضيح المثل الذي ضربه الله تعالى بقوله: ﴿ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمةً طيبةً﴾ فهذه بعض ما تضمّنه هذا المثل العظيم الجليل من الأسرار والحكم ولعلها قطرة من بحر بحسب أذهاننا الواقفة، وقلوبنا المخطئة وعلومنا القاصرة، وأعمالنا التي توجب التوبة والاستغفار. . .[2].

***

(١) انظر: روضة المحبين: ص ١٤، طبعة دار الكتب العلمية، سنة ١٣٩٧هـ.

(٢) انظر: أعلام الموقعين: ١/ ١٧٥.

(٦)
ثناء العلماء عليه

لقد استحق ابن القيم ثناء العلماء وتقديرهم بما كان له من الفضل والعلم، وما رأيت أحداً ترجم له إلاّ وأثنى عليه، حتى إن مخالفيه لم يسعهم إلا الاعتراف بسعة علمه وفضله.

وقد ذكرنا أقوال تلاميذه الثلاثة: ابن كثير وابن رجب والصفدي، وإعجابهم بزهده وعبادته وأخلاقه الفاضلة.

وعند بداية ترجمته يذكر العلماء له ألقاباً علمية تدل على مكانته العلمية وإعجابهم به.

فنجد ابن كثير مثلاً يصفه بالإمام العلامة، ويقول عنه بعد ذلك: «سمع الحديث واشتغل بالعلم وبرع في علوم متعددة لا سيما التفسير والحديث والأصلين»[(١)].

ويصفه الصفدي بنفس الوصف ويعدد شيوخه، وما أخذ عنهم ثم يقول: «واشتغل كثيراً وناظر واجتهد وأكبّ على الطلب وصنّف وصار من الأئمة الكبار»[(٢)].

وقدم له ابن رجب بقوله: «الفقيه الأصولي المفسّر النحوي العارف، شمس الدين أبو عبد الله بن قيم الجوزية، شيخنا»[(٣)].

ثم قال عنه: «وتفقه في المذهب، وبرع وأفتى، ولازم الشيخ تقي الدين وأخذ عنه، وتفنن في علوم الإسلام، وكان عارفاً بالتفسير لا يجارى فيه، وبأصول الدين وإليه فيهما

---

(١) البداية والنهاية: ١٤/٢٣٤.

(٢) الوافي بالوفيات: ٢/٢٧٠ ــ ٢٧١.

(٣) ذيل طبقات الحنابلة: ٢/٤٤٧.

المنتهى، والحديث ومعانيه وفقهه، ودقائق الاستنباط منه، لا يلحق في ذلك، وبالفقه وأصوله والعربية وله فيها اليد الطولى، وتعلم الكلام والنحو وغير ذلك. وكان عالماً بعلم السلوك وكلام أهل التصوّف وإشاراتهم ودقائقهم، له في كل فن من هذه الفنون اليد الطولى»[1].

ثم ذكر قول القاضي برهان الدين الزرعي عنه: (ما تحت أديم السماء أوسع علماً منه)[2].

ولقد دلت مؤلفات ابن القيم وتنوعها وشمولها مختلف فروع الشريعة، على هذه الشهادة وعلى هذا الثناء من ابن رجب رحمه الله.

وقال فيه ابن العماد: «... الفقيه الحنبلي بل المجتهد المطلق! المفسر النحوي الأصولي المتكلم»[3].

ويقول فيه الشوكاني: «... العلامة الكبير المجتهد المطلق المصنف المشهور... برع في جميع العلوم وفاق الأقران واشتهر في الآفاق، وتبحر في معرفة مذاهب السلف»[4].

ثم يثني عليه فيقول: «وكل تصانيفه مرغوب فيها بين الطوائف وله من حسن التصرف مع العذوبة الزائدة وحسن السياق ما لا يقدر عليه غالب المصنفين، بحيث تعشق الأفهام كلامه وتميل إليه الأذهان، وتحبه القلوب»[5].

ويقول فيه ابن حجر: (... وكان جريء الجنان، واسع العلم، عارفاً بالخلاف ومذاهب السلف)[6].

وقال فيه السخاوي: «... العلامة الحجّة المتقدم في سعة العلم ومعرفة الخلاف

---

(١) ذيل طبقات الحنابلة: ٢/٤٤٨.
(٢) المرجع السابق: ٢/٤٤٩.
(٣) شذرات الذهب: ٦/١٦٨.
(٤) البدر الطالع: ٢/١٤٣.
(٥) المرجع السابق بنفس الصفحة.
(٦) الدرر الكامنة: ٤/٢١.

وقوة الجنان، ورئيس أصحاب ابن تيمية الإمام، بل هو حسنة من حسناته، والمجمع عليه بين المخالف والموافق، وصاحب التصانيف السائرة والمحاسن الجمّة، انتفع به الأئمة»[1].

ويثني عليه الشيخ مرعي بن يوسف الكرمي المتوفى سنة ١٠٣٣هـ فيقول: «هو العلامة شمس الدين الحنبلي، أحد المحققين، علم المصنفين، نادرة المفسرين، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد بن حريز الزرعي ثم الدمشقي، ابن قيم الجوزية وتلميذ ابن تيمية، له التصانيف الأنيقة، . . . فكان ذا فنون في العلوم، صاحب إدراك لسرائر المنطوق والمفهوم، وبرع في علم الحديث بحيث انتهت إليه فيه الرئاسة»[2].

ويقول فيه الأستاذ الشيخ محمد الزفزاف وكيل كلية دار العلوم بجامعة القاهرة (سابقاً): « . . . فإنّ ابن قيم الجوزية من الشخصيات الإسلامية التي امتازت بنفاذ الذهن وبعد الغور، ووفرة المحفوظ والتحرر من ربقة التقليد الأعمى»[3].

***

(١) الضوء اللامع: ١١/٢٠٤.

(٢) انظر: الشهادة الزكية في ثناء الأئمة على ابن تيمية، مرعي بن يوسف الكرمي، تحقيق نجم عبد الرحمن خلف، دار الفرقان ـ عمان، الطبعة الأولى، سنة ١٤٠٤هـ.

(٣) كلمة الشيخ الزفزاف وردت في تقديمه لكتاب: ابن قيم الجوزية، لعبد العظيم شرف الدين.

(٧)

محنته

المحنة طريق لا بد لكل الدعاة أن يمروا منها، وبخاصة أولئك الذين التزموا طريق الحق واتخذوه منهجاً لهم.

وابن القيم واحد من هؤلاء الذين عرفت عنهم الجرأة، كان صادعاً بالحق لا يحابي فيه أحداً ونعمت الجرأة![1].

ومن هنا فقد تعرض ابن القيم لما تعرض له هذا الصنف من العلماء العاملين.

قال ابن حجر: «وقد اعتقل مع ابن تيمية بالقلعة بعد أن أُهين، وطيف به على جمل مضروباً بالدرة، فلما مات (شيخه) أفرج عنه»[2].

وقد ذكر العلماء أسباباً للمحنة والإيذاء الذي تعرض له ابن القيم رحمه الله ومن هذه الأسباب:

١ ـ قوله بفتوى ابن تيمية في مسألة الطلاق الثلاث بلفظ واحد، وقد أفتى ابن تيمية بأنها تقع طلقة واحدة، وقد استنكر ذلك كل علماء عصره، وعلى رأسهم قاضي القضاة تقي الدين السبكي[3].

٢ ـ إنكاره شدّ الرحال لزيارة قبر الخليل إبراهيم عليه السلام في مدينة الخليل بفلسطين. وقد ذكر ابن رجب أنه حبس لذلك[4].

---

(١) انظر: البدر الطالع: ٢/١٤٣.

(٢) انظر: الدرر الكامنة: ٤/٢١.

(٣) انظر: البداية والنهاية: ١٤/٢٣٥.

(٤) ذيل طبقات الحنابلة: ٢/٢٨٤.

وكان قد اشتهر في زمنه زيارة قبر الخليل عليه السلام واعتبار ذلك قربة وعبادة تشد لها الرحال وتقصد من جميع البلدان.

ولا زال الظن قائماً عند بعض المسلمين بأن الارتحال لزيارة قبور الأنبياء والصالحين يعتبر قربة وعبادة، مع وضوح النصوص التي نهت عن ذلك، ومنها الحديث الذي يبين المساجد الثلاثة التي لا تشد الرحال إلا إليها.

فأنكر ابن القيم ذلك، ونعى على العلماء عدم الإنكار، وبين أن ذلك من البدع المخالفة للإسلام.

ويبدو أن إنكاره هذا أحدث صراعاً وخلافاً، بينه وبين بعض علماء عصره وبخاصة الرسميين منهم.

٣ ــ مسألة المسابقة بغير محلّل: احتلت هذه المسألة مساحة واسعة من كتاب الفروسيّة زادت على ثلث الكتاب(١)، فصّل فيها ابن القيم رحمه الله هذه المسألة التي خالف فيها الأئمة الثلاثة الشافعي وأحمد وأبو حنيفة، وأفتى فيها بخلاف رأي قاضي القضاة تقي الدين السبكي الشافعي، الذي استدعاه وأنكر عليه مخالفته للأئمة.

وملخص المسألة ــ كما بينها ابن القيم في الفروسية ــ هو أن الشافعي وأحمد وأبا حنيفة ذهبوا إلى أن الباذل للرهن يجوز أن يكون أحد المتعاقدين ويجوز أن يكون كليهما، وأن يكون أجنبياً ثالثاً إمّا الإمام وإمّا غيره، ولكن إذا كان الرهن منهما لم يحلّ إلّا بمحلل، وهو ثالث يدخلانه بينهما لا يخرج شيئاً، فإن سبقهما أخذ سبقهما، وإن سبقاه أحرزا سبقهما، ولم يغرّم المحلل شيئاً، وإن سبق المحلل مع أحدهما اشترك والسابق في سبقه، قالوا والعقد بدون المحلل إذا أخرجا معاً قمار(٢).

ثم بين ابن القيم مذهب الإمام مالك وفيه روايتان: رواية يتفق فيها مع الأئمة الثلاثة، ورواية يجوّز فيها أن يخرج السبق ثالث ليس من المتعاقدين(٣)، لكن ابن القيم خالف في المسألة جمهور الفقهاء في اشتراط المحلل، بل ذهب إلى كراهية وجوده وقال: «والقول بالمحلل مذهب تلقاه الناس عن سعيد بن المسيب، وأما الصحابة فلا يحفظ عن

---

(١) انظر: الفروسية، لابن القيم: ص ٢٠ ــ ٦٧.
(٢) المرجع السابق: ص ٢٠.
(٣) المرجع السابق نفسه.

أحد منهم قط أنه اشترط المحلل، ولا راهن به مع كثرة تناضلهم ورهانهم، بل المحفوظ عنهم خلافه»[1].

ثم عرض ابن القيم أدلة المجوّزين للتراهن من غير محلل، وأدلة المشترطين للمحلل، وردّ على أدلة المشترطين وبين ضعف الأحاديث التي استدلوا بها، والحديث الصحيح الذي استدلوا به لا دلالة فيه مطلقاً على المحلل.

والحقيقة أن ابن القيم في هذه المسألة أفتى بقول شيخه ابن تيمية وقد صرّح بذلك في قوله: «قال شيخ الإسلام: وما علمت بين الصحابة خلافاً في عدم اشتراط المحلل»[2].

وقد أشار إلى ذلك أيضاً فقال: «ووقع كلام وبحث في اشتراط المحلل في السابقة، وكان سببه أن الشيخ شمس الدين بن قيم الجوزية صنّف فيه مصنفاً من قبل ذلك[3]، ونصر فيه ما ذهب إليه الشيخ تقي الدين ابن تيمية، ثم صار يفتي به جماعة من الأتراك، ولا يعزوه إلى الشيخ تقي الدين، فاعتقد من اعتقد أنه قوله، وأنه مخالف للأئمة الأربعة، فحصل عليه إنكار في ذلك وطلبه القاضي الشافعي، وحصل كلام في ذلك وانفصل الحال على أن أظهر الشيخ شمس الدين ابن قيم الجوزية الموافقة للجمهور»[4].

وقد شبّه ابن القيم ــ رحمه الله ــ دخول المحلل في عقد السباق كدخول المحلل في عقد النكاح للمطلق ثلاثاً، وكدخول المحلل في عقد العينة ونحوها من العقود المشتملة على الحيل الربوية، فإن كل واحد منهم مستعار غير مقصود في العقد، وقد ثبت عن محلل النكاح أنه تيس مستعار[5].

أوذي ابن القيم من أجل الفتوى بهذه المسألة، وتعرض إلى إنكار شديد من قاضي القضاة السبكي الذي كان لا يتفق مع ابن القيم، ولا مع منهج المدرسة الحنبلية في دمشق.

---

(١) انظر: الفروسية: ص ٢٠.

(٢) المرجع السابق: ص ٢١.

(٣) هذا المصنَّف هو «بيان الاستدلال على بطلان اشتراط محلل السباق والنضال»، وقد أشار ابن القيم إلى هذا الكتاب في أعلام الموقعين: ٤/٢١، كما ذكره الصفدي في الوافي بالوفيات: ٢/٢٧١؛ وابن رجب في الذيل: ٢/٤٤٩.

(٤) انظر: البداية والنهاية: ١٤/٢١٦.

(٥) انظر: الفروسية: ص ٢٢.

ولكن، هل تراجع ابن القيم عن فتواه؟

لقد صرّح ابن حجر بذلك[1]، وأشار ابن كثير إليه كما ذكرنا، والذي تبين لي من خلال كلام ابن القيم في الفروسية، أنه لا صحة لما قاله ابن حجر من تراجع ابن القيم، ويدل على ذلك أسلوبه الحاد في الفروسية، وتأليفه كتاباً خاصاً في الموضوع، كما يظهر من خلال عرضه للمسألة رجحان رأيه لأنه لم يثبت دليل بخلافه بل الأدلة معه.

هذه هي المسائل التي ذكرها المترجمون لحياة ابن القيم، والتي امتحن وأوذي وحبس بسببها.

ولم يشر المترجمون إلى مواقف سياسية أو صدامات حصلت بين ابن القيم وبين السلاطين أو الأمراء، بل السبب الوحيد الذي ذكروه لمحنته هو الفتاوى الفقهية التي كان يجهر بها، وكان يصطدم في ذلك مع بعض العلماء والقضاة.

حتى إن الشيخ سعدي أبو جيب (الذي قدم لكتاب الغنيمي) يستغرب أن تكون الفتاوى الفقهية بالمسائل الفرعية غير السياسية، سبباً في السجن والإيذاء ويرى أنه قد يكون هنالك سبب سياسي لهذه المحنة لم يذكره المؤرخون[2].

والحقيقة أنه لو كان هنالك سبب لذكره تلاميذه الذين ترجموا له، ولكن السبب ـ في نظري ـ في عدم وجود المواجهات السياسية بين ابن القيم والسلاطين يعود إلى أمرين:

الأول: هدوء ابن القيم في طبعه، وقد أشرنا إلى أنه لم يكن ثائراً بطبعه كما كان ابن تيمية، ومن هنا فقد استطاع ابن القيم أن يحظى برضى بعض الأمراء، كما أشار إلى ذلك ابن حجر في قوله: «وكان له حظ عند الأمراء المصريين»[3].

والثاني: أن ابن القيم عاش فترة مستقرة نسبياً، فقد كانت مصر والشام دولة واحدة، وكانت دولة قوية انتصرت تماماً على المغول والصليبيين، وشجع سلاطينها العلم والعلماء، وبنوا المدارس والمساجد، وما كان هناك من داع للاصطدام معهم.

***

---

(١) انظر: الدرر الكامنة: ٤/ ٢١.

(٢) انظر: ابن قيم الجوزية، الغنيمي: ص ١٤.

(٣) الدرر الكامنة: ٤/ ٢١.

(٧)

وفــاتــه

اتفقت مصادر ترجمته على أن وفاته رحمه الله كـانت سنة ٧٥١هـ ويكـون بذلـك قد عاش ستين عاماً.

وقـد حددت لـوفاتـه ليلة الخميس الثالث عشـر من رجب[١] سنـة إحـدى وخمسين وسبعمائة.

قال ابن رجب: «توفي رحمـه الله وقت عشاء الآخـرة، ليلة الخميس ثالث عشـر من رجب، سنة إحدى وخمسين وسبعمائة، وصُلِّي عليه من الغد بـالجامـع عقيب الظهـر، ثم بجامع جراح، ودفن بمقبرة الباب الصغير، (سفح قاسيون)[٢] وشيعه خلق كثير، ورئيت له منـامات كثيـرة حسنة رضي الله عنـه، وكان قـد رأى قبـل مـوتـه بمـدة الشيـخ تقي الـدين رحمه الله في النوم وسأله عن منزلته، فأشار إلى علوها فوق بعض الأكـابر، ثم قـال له ابن تيمية: وأنت كدت تلحق بنا، ولكن أنت الآن في طبقة ابن خزيمة رحمه الله»[٣].

وقد كانت جنازته رحمه الله حافلة شهدها القضاة والأعيان والصـالحون من الخـاصة والعامة، **وتزاحم الناس على حمل نعشه**[٤].

رحم الله شيخنا ابن القيم رحمة واسعة، وأسكنه فسيح جناتـه على ما قـدم للمكتبة الإسلامية من مؤلفات جليلة قيّمة، فجزاه الله عنّا وعن المسلمين خير الجزاء.

***

(١) حـددت وفاتـه ــ رحمه الله ــ بـاليوم والسنـة عنـد ابن كثيـر وابن رجب. انـظر: البـدايـة والنهـايـة: ١٤/٢٣٤. وانظر: الذيل لابن رجب: ٢/٤٥٠.

(٢) انظر: معجم المؤلفين، كحالة: ١٠٦/٩.

(٣) ذيل طبقات الحنابلة: ٢/٤٥٠ ــ ٤٥١.

(٤) انظر: البداية والنهاية: ١٤/٢٣٥.

الفصل الثالث
شـيـوخـه وتـلامـيـذه

(١)
شـيـوخـه

عاش ابن القيم في دمشق في فترة مليئة حيوية ونشاطاً من الناحية العلمية، كثر فيها التأليف وتعددت فيها المدارس، وبرز فيها عدد من العلماء.

كل ذلك هيأ لابن القيم أن يلتقي بعدد وافر من العلماء يتتلمذ على أيديهم وينهل من علمهم.

وقد عدَّ له تلميذه الصفدي ثمانية عشر شيخاً، وأشار إلى أن هناك جماعة سواهم لم يذكر الصفدي أسماءهم[١].

وقد اكتفى الصفدي بذكر أسمائهم، وأشار عند قليل منهم لما أخذه عنه ابن القيم.

ورجعت إلى كتب التراجم وقمت بضبط أسمائهم وذكر تاريخ الوفاة لكل واحد منهم، وما أخذه ابن القيم عن كل منهم. وهم:

١ ــ أبو العباس أحمد بن عبد الرحمن بن عبد المنعم بن نعمة (النابلسي)[٢] الحنبلي المتوفى سنة ٦٩٧هـ. ويعرف بالشهاب العابر، لأنه كان يعبر الرؤيا[٣]، وقد

---

(١) انظر: الوافي بالوفيات: ٢/٢٧١.

(٢) في زاد المعاد وفي البداية والنهاية: المقدسي.

(٣) انظر: شذرات الذهب: ٥/٤٣٧؛ وانظر: البداية والنهاية: ١٣/٣٥٣.

سبقت الإشارة عند الحديث عن نشأة ابن القيم إلى أنه سمع منه بعض أحكام المرائي وهو صغير السن، حيث إن الشيخ العابر توفي وعمر ابن القيم ست سنوات فقط.

٢ ــ مسند الشام قاضي القضاة أبو الفضل سليمان بن حمزة بن قدامة المقدسي المتوفى سنة ٧٢٥هـ ابن الشيخ أبي عمر صاحب المدرسة الصالحية، سمع منه الحافظ الضياء حتى قال: سمعت منه ألف كتاب وجزء، ولم يزل يقرأ عليه الناس إلى قبل وفاته، وكان إماماً محدثاً[١] أخذ ابن القيم عنه الحديث[٢].

٣ ــ أبو بكر أحمد بن عبد الدائم بن نعمة، النابلسي الصالحي المتوفى سنة ٧١٨هـ وقد أخذ عنه الحديث[٣].

٤ ــ المطعم، عيسى بن عبد الرحمن بن معالي بن أحمد، أبو محمد المقدسي ثم الصالحي، مسند الوقت المتوفى سنة ٧١٩هـ. وقد أخذ عنه الحديث[٤].

٥ ــ أبو نصر محمد بن عماد الدين الشيرازي[٥]، وقال ابن العماد مسند الوقت شمس الدين أبو نصر محمد بن محمد الشيرازي الدمشقي المتوفى سنة ٧٢٣هـ[٦].

٦ ــ صدر الدين إسماعيل بن يوسف بن مكتوم بن أحمد بن محمد بن سليم السويدي الدمشقي الشافعي المتوفى سنة ٧١٦هـ[٧].

٧ ــ البهاء بن عساكر، وهو القسم بن المظفر المتوفى سنة ٧٢٣هـ، وإليه تنسب المدرسة البهائية التي بناها[٨]. قال عنه في الشذرات: مسند الشام بهاء الدين القسم بن المظفر ابن النجم محمود بن تاج الأمناء عساكر... أجاز له مشايخ البلاد، وبلغ معجمه

---

(١) منتخبات التواريخ لدمشق: ٢/٥٢٥.

(٢) الدرر الكامنة: ٢/١٤١.

(٣) انظر: العبر، للذهبي: ٥/٩٨؛ وشذرات الذهب: ٦/٤٨.

(٤) انظر: العبر: ٥/١٠٨؛ والدرر الكامنة: ٣/٢٨٢.

(٥) هكذا ذكره الصفدي: ٢/٢٧١، كما ذكره ضمن شيوخ ابن القيم، الداودي: ٢/٩٠؛ والسيوطي في البغية: ١/٦٢.

(٦) انظر: الشذرات: ٦/٦٢.

(٧) انظر: الدرر الكامنة: ١/٤١٠.

(٨) انظر: الدارس في تاريخ المدارس، النعيمي.

سبع مجلدات. . . وكان طبيباً مؤرخاً[1].

٨ ــ علاء الدين علي بن المظفر بن إبراهيم بن عمر بن زيد الكندي ويعرف بكاتب ابن وداعة، المقرىء المحدث المتوفى سنة ٧١٦ هـ[2].

٩ ــ أبو عبد الله شمس الدين، محمد بن أبي الفتح بن أبي الفضل ابن بركات البعلبكي أو البعلي، الحنبلي الفقيه المحدث المتقن المتوفى سنة ٧٠٩هـ، وقد أخذ عنه الفقه والعربية[3].

١٠ ــ أبو الفتح بن أبي الفضل البعلي (البعلبكي)، وقد ذكر الصفدي أن ابن القيم قرأ عليه العربية، فقد قرأ عليه الملخص لأبي البقاء ثم قرأ الجرجانية[4]، ثم قرأ ألفية ابن مالك وأكثر الكافية الشافية[5] وبعض التسهيل[6].

١١ ــ زين الدين أيوب بن نعمة بن أحمد بن جعفر النابلسي ثم الدمشقي الحكال المتوفى سنة ٧٣٠ هـ[7].

١٢ ــ بدر الدين، محمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة بن علي بن حازم ابن صخر الكناني الحموي البياني الشافعي الإمام المشهور المتوفى سنة ٧٣٣هـ[8].

١٣ ــ مجد الدين أبو بكر بن محمد بن قاسم التونسي الشافعي المتوفى سنة ٧١٨هـ قال في الشذرات: هو شيخ النحاة والبحاثين. . . وتخرج به الفضلاء، وكان ديّناً صيّناً ذكياً، توفي في ذي القعدة عن اثنين وثمانين سنة[9]، وذكر الصفدي[10] أن ابن

---

(١) انظر: الشذرات: ٦١/٦.

(٢) انظر: شذرات الذهب: ٣٩/٦.

(٣) انظر: ذيل طبقات الحنابلة: ٣٥٦/٢.

(٤) الجرجانية هي كتاب الجمل في النحو، لعبد القاهر الجرجاني.

(٥) الكافية الشافية، لابن مالك. وهذا الكتاب غير الألفية المشهورة، (انظر: البداية والنهاية: ٢٦٦/١٣).

(٦) التسهيل في النحو، لابن مالك أيضاً. (انظر: البداية والنهاية: ٢٦٦/١٣).

(٧) انظر: الدرر الكامنة: ٤٥٤/١.

(٨) انظر: المرجع السابق: ٣٦٧/١. وانظر: البداية والنهاية: ١٦٣/١٤.

(٩) انظر: الشذرات: ٤٧/٦.

(١٠) انظر: الوافي بالوفيات: ٢٧١/٢.

القيم قرأ عليه قطعة من المقرب[1] كما ذكر الداودي وابن حجر والسيوطي أن ابن القيم قرأ عليه العربية[2].

١٤ ـ إسماعيل بن محمد إسماعيل الحراني، ابن الغراء مجد الدين الحنبلي، شيخ الحنابلة في دمشق، المتوفى سنة ٧٢٩هـ. وقد أخذ عنه ابن القيم الفرائض والفقه والأصول[3].

١٥ ـ شيخ الإسلام، تقي الدين ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام النميري الحراني المتوفى سنة ٧٢٨هـ[4].

وهو أشهر شيوخ ابن القيم وأكثر من لازمه، وقد سبق الحديث عن تأثره به.

قال الصفدي: «قرأ عليه قطعة من المحرر تأليف جدّه[5]... وقرأ عليه قطعة من المحصول[6] ومن كتاب الإحكام لسيف الدين الآمدي، وقرأ عليه قطعة من الأربعين[7] والمحصل[8] وكثيراً من تصانيفه[9].

١٦ ـ شرف الدين أبو محمد عبد الله بن عبد الحليم بن تيمية، أخو شيخ الإسلام ابن تيمية، المتوفى سنة ٧٢٧هـ[10] أخذ عنه الفقه وذكره في أعلام الموقعين قائلاً عنه: شيخنا[11].

---

(١) المقرب في النحو لابن عصفور النحوي المتوفى سنة ٦٦٣هـ. انظر: أسماء الكتب، عبد اللطيف بن رياضي زاده: تحقيق د. محمد التونجي، ط ٢٠، مكتبة الخانجي، القاهرة، سنة ١٤٠٣هـ.
(٢) انظر: الدرر الكامنة: ٤/٢٢؛ والوافي بالوفيات: ٢/٩٠؛ وبغية الوعاة: ١/٦٢.
(٣) انظر: الدرر الكامنة: ١/٤٠٣.
(٤) انظر: البداية والنهاية: ١٤/١٣٥.
(٥) المحرر كتاب في الفقه الحنبلي، تأليف مجد الدين بن عبد السلام بن عبد الله، ابن تيمية، جدّ شيخ الإسلام ابن تيمية.
(٦) المحصول من أمهات كتب أصول الفقه، للرازي.
(٧) الأربعين في أصول الدين، للرازي.
(٨) المحصل، للرازي أيضاً.
(٩) انظر: الوافي بالوفيات: ٢/٢٧١.
(١٠) انظر: الدرر الكامنة: ٢/٢٧١.
(١١) انظر: أعلام الموقعين: ٤/١١٤.

١٧ ـ والده قيم الجوزية أبو بكر بن أيوب: وقد ذكر الصفدي أن ابن القيم أخذ عنه الفرائض وكان له فيها اليد الطولى.

١٨ ـ شيخ الشيوخ صفي الدين محمد بن عبد الرحيم بن محمد الأرموي ثم الهندي الفقيه الشافعي الأصولي المتوفى سنة ٧١٥هـ، نزيل دمشق. ولي مشيخة الشيوخ كان متضلعاً بالأصلين ومن مصنفاته النهاية في أصول الفقه[١]، أخذ عنه ابن القيم الأصلين: (أصول الفقه وأصول الدين)[٢].

هؤلاء الشيوخ الذين ذكرهم الصفدي لابن القيم.

* * *

وقد ذكر غير الصفدي له شيوخاً غير هؤلاء، بعضهم صرح ابن القيم في بعض كتبه بأخذه عنهم، ومن هؤلاء الشيوخ:

١ ـ الحافظ أبو الحجاج يوسف بن زكي الدين عبد الرحمن القضاعي ثم الكلبي الدمشقي الشافعي إمام المحدثين المتوفى سنة ٧٤٢هـ[٣]، كان عمدة الحفاظ بدمشق، سمع الكثير من الرجال ورحل، وبرع في علوم الحديث وقد جمع الكتب الستة في خمسة مجلدات[٤].

وقد ذكره ابن القيم في أكثر من موضع منها في كتابه (جلاء الأفهام) حيث قال: وتهذيب الكمال لشيخنا أبي الحجاج المزي[٥]. وفي موضع آخر من نفس الكتاب قال: وأجاب شيخنا أبو الحجاج المزي الحافظ[٦].

٢ ـ أبو المعالي كمال الدين محمد بن علي بن عبد الواحد بن عبد الكريم الأنصاري الشافعي الدمشقي، ابن الزملكاني، ولي قضاء حلب وتوفي سنة ٧٢٧هـ، كان

---

(١) انظر: منتخبات التواريخ لدمشق: ٢/٥٢٥.

(٢) انظر: الدرر الكامنة: ٤/١٣٢.

(٣) انظر: البداية والنهاية: ١٤/١٩١؛ وشذرات الذهب: ٦/١٣٦.

(٤) انظر: منتخبات التواريخ لدمشق: ٢/٥٣٦.

(٥) انظر: جلاء الأفهام في الصلاة والسلام على خير الأنام، ابن القيم: ص ١٢.

(٦) المرجع السابق: ص ١٤٧.

شيخ الشافعية بالشام، وانتهت إليه رئاسة المذهب[1]، ذكره في شيوخ ابن القيم الأستاذ عوض الله حجازي[2].

٣ ــ شمس الدين أبو عبد الله، محمد بن مفلح بن محمد بن مفرج المقدسي الحنبلي، المتوفى سنة ٧٦٣هـ[3].

ذكره في شيوخه الشيخ بكر أبو زيد، وقال: إن ابن القيم كان يراجعه في كثير من مسائله واختياراته[4].

٤ ــ بنت جوهر، فاطمة بنت إبراهيم بن محمود بن جوهر البطائحي المسندة المحدثة، توفيت سنة ٧١١هـ[5]، وقد ذكر ابن رجب أن ابن القيم سمع منها[6].

٥ ــ أبو العباس أحمد بن إبراهيم الواسطي. ذكره ابن القيم في شفاء العليل عند حديثه عن احتجاج آدم وموسى فقال: والذي يليق به ما ذكره شيخنا أبو العباس أحمد بن إبراهيم الواسطي في شرحه ص ١٦.

***

(١) انظر: الدرر الكامنة: ٤/١٩٣. وانظر: البداية والنهاية: ١٤/١٣١.
(٢) انظر: ابن القيم وموقفه من التفكير الإسلامي: ص ٤٣.
(٣) انظر: البداية والنهاية: ١٤/٢٩٤. وانظر: الدرر الكامنة: ٥/٣٠.
(٤) انظر: ابن قيم الجوزية، بكر أبو زيد: ص ١٠٦.
(٥) انظر: الدرر الكامنة: ٣/٣٠١.
(٦) انظر: ذيل طبقات الحنابلة: ٢/٤٤٨.

(٢)
تلاميذه

ليس باستطاعتنا معرفة كل الذين سمعوا من ابن القيم، وتتلمذوا على يديه، لأنه رحمه الله، انخرط في سلك العلم والعلماء منذ سن مبكرة، وعمل بالتدريس والإمامة، فكان يدرس في المدرسة الصدرية، ويؤم في الجوزية[١]، فتلاميذه كثر، قال ابن رجب: «وأخذ عنه العلم خلق كثير من حياة شيخه إلى أن مات، وانتفعوا به، وكان الفضلاء يعظمونه ويتتلمذون له، كابن عبد الهادي وغيره»[٢].

ومما يلفت الانتباه أن تلاميذ ابن القيم كانوا من نوعيّة خاصّة ممتازة، أنتجوا أمهات المراجع الإسلامية، وسيظهر ذلك من خلال ترجمتنا المختصرة لأشهر تلاميذه، وهم:

١ ــ الإمام الحافظ، أبو الفداء، عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الشافعي المتوفى سنة ٧٧٤هـ[٣] صاحب التفسير، والتاريخ: (البداية والنهاية)، والسيرة النبوية، وغير ذلك من الكتب النافعة المعتمدة عند طلبة العلم.

وقد صرح ابن كثير بتلمذته على ابن القيم وحبّه له، فبعد أن مدحه بعلمه وأخلاقه وعبادته قال: «وكنت من أصحب الناس له وأحب الناس إليه»[٤].

٢ ــ الإمام الحجّة زين الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسين بن محمد بن أبي البركات مسعود السلامي البغدادي ثم الدمشقي المشهور بابن

---

(١) انظر: البداية والنهاية: ١٤/٢٣٤ ــ ٢٣٥.

(٢) ذيل طبقات الحنابلة: ٢/٤٤٩.

(٣) انظر: شذرات الذهب: ٦/٢٠٨.

(٤) البداية والنهاية: ١٤/٢٣٤.

رجب الحنبلي، المتوفى سنة ٧٩٥هـ[١] صاحب المصنفات القيمة، وأشهرها ذيل طبقات الحنابلة، وشرح علل الترمذي، وجامع العلوم والحكم، وغير ذلك. وقد صرّح بملازمة ابن القيم أكثر من سنة وسماعه منه بعض تصانيفه[٢].

٣ ـ الإمام الحافظ، محمد بن أحمد بن عثمان، الذهبي التركماني الشافعي المتوفى سنة ٧٤٨هـ[٣] عالم التاريخ الموسوعي وعالم الحديث وصاحب كتاب تاريخ الإسلام، وميزان الاعتدال، وسير أعلام النبلاء وغير ذلك.

٤ ـ قاضي القضاة تقي الدين علي[٤] بن عبد الكافي بن علي السبكي الشافعي، والمتوفى سنة ٧٥٦هـ، ترجم له ابن حجر، وذكر ابن القيم من شيوخه[٥]، ولي الحكم بدمشق نحواً من سبع عشرة سنة، وله تصانيف منتشرة كثيرة الفائدة، وما زال وهو في القضاء يكتب ويصنف إلى حين وفاته[٦]، صنف نحو مائة وخمسين كتاباً مطولاً ومختصراً، منها تفسير القرآن وشرح المنهاج في الفقه[٧]، وهو والد العلامة تاج الدين السبكي صاحب طبقات الشافعية.

٥ ـ الإمام العلامة، الناقد شمس الدين محمد بن الشيخ عماد الدين أحمد بن عبد الهادي، المقدسي الحنبلي، وكان حافظاً جيداً لأسماء الرجال وطرق الحديث، توفي سنة ٧٤٤هـ[٨].

وقد أشار ابن رجب إلى مشيخة ابن القيم لابن عبد الهادي في قوله: وكان الفضلاء يعظمونه، ويتتلمذون له كابن عبد الهادي وغيره[٩].

---

(١) انظر: إنباء الغمر لابن حجر: ١/٤٦٠؛ والدرر الكامنة: ٢/٤٢٨.
(٢) ذيل طبقات الحنابلة: ٢/٤٤٨.
(٣) انظر: شذرات الذهب: ٦/١٥٣.
(٤) هكذا في الدرر الكامنة وغيرها، وفي البداية والنهاية: ابن علي. انظر: ١٤/٢٥٢.
(٥) انظر: الدرر الكامنة: ٢/١٣٤.
(٦) انظر: البداية والنهاية: ١٤/٢٥٢.
(٧) انظر: منتخبات التواريخ لدمشق: ٢/٥٤٠.
(٨) انظر: البداية والنهاية: ١٤/٢١٠.
(٩) ذيل طبقات الحنابلة: ٢/٤٤٩.

٦ ــ صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، المتوفى سنة ٧٦٤هـ(١) صاحب الوافي بالوفيات.

وقد ذكر في كتابه (الوافي) عند ترجمته لابن القيم جلوسه إليه واستماعه منه، ومما سمعه الأبيات التي ذكرناها في تواضع ابن القيم، حيث قال الصفدي: أنشدني من لفظه لنفسه(٢).

٧ ــ محمد بن محمد بن أحمد بن أبي بكر القرشي المقري التلمساني، المتوفى سنة ٧٥٩هـ(٣)، ارتحل إلى الشام ولقي ابن القيم وسمع منه(٤).

٨ ــ محمد بن محمد بن محمد بن الخضر الغزي الشافعي، المتوفى سنة ٨٠٨هـ(٥)، قال الشوكاني في ترجمته: دخل دمشق فأخذ بها عن ابن كثير والتقي السبكي وابن القيم وغيرهم(٦).

٩ ــ شمس الدين أبو عبد الله، محمد بن عبد القادر، النابلسي الحنبلي المعروف بالجنّة، المتوفى سنة ٧٩٧هـ(٧)، وله مختصر طبقات الحنابلة.

وقال في الشذرات عند ترجمته: «صحب ابن قيم الجوزية فقرأ عليه أكثر تصانيفه»(٨).

١٠ ــ ولده شرف الدين أو جمال الدين عبد الله بن شمس الدين محمد ابن قيم الجوزية المتوفى سنة ٧٥٦هـ، وكان مفرط الذكاء والحفظ(٩).

---

(١) الأعلام، الزركلي.
(٢) الوافي بالوفيات: ٢/٢٧٢.
(٣) انظر: نفح الطيب، لابن الخطيب: ٥/٢٥٤.
(٤) المرجع السابق نفسه.
(٥) انظر: شذرات الذهب: ٧/٧٩.
(٦) انظر: البدر الطالع: ٢/٢٥٤.
(٧) انظر: شذرات الذهب: ٦/٣٤٩.
(٨) المرجع السابق نفسه.
(٩) انظر: البداية والنهاية: ١٤/٢٥٣.

قال ابن حجر في ترجمته: «اشتغل على أبيه وغيره»[1].

١١ ــ ولده برهان الدين إبراهيم، العلامة النحوي الفقيه المتقن المتوفى سنة ٧٦٧هـ[2].

قال عنه في الشذرات: «تفقه بأبيه وشارك في العربية، وسمع وقرأ وتنبه وأسمعه أبوه بالحجاز»[3].

وقد قام بشرح ألفية ابن مالك في كتاب سمّاه: إرشاد السالك إلى حل ألفية ابن مالك[4]، وله رسالة مطبوعة باسم: (اختيارات شيخ الإسلام ابن تيمية)[5].

***

(١) الدرر الكامنة: ٢/٣٩٦.
(٢) انظر: شذرات الذهب: ٦/٢٠٨.
(٣) المرجع السابق نفسه.
(٤) انظر: منتخبات التواريخ لدمشق: ٢/٥٤٢.
(٥) انظر: ابن قيم الجوزية، بكر أبو زيد ص: ٢٧.

الفصل الرابع
مؤلفاته

عرف ابن القيم رحمه الله، بقلمه السيال، وبمؤلفاته الكثر، قال ابن كثير: «وله من التصانيف الكبار والصغار شيء كثير، وكتب بخطه الحسن شيئاً كثيراً»[١].

ولم يستطع من ترجموا له حتى معاصروه ضبط كتبه لكثرتها، فبينما يسرد له تلميذه ابن رجب أربعة وأربعين كتاباً[٢]، يذكر السخاوي أن له اثنين وخمسين كتاباً[٣].

وهي أيضاً أكثر من ذلك، فقد قاربت مؤلفاته المائة[٤]، والجميل أن هذه الكثرة لم تترك أثراً سلبياً على نوعية ما كتبه ابن القيم، فقد أقبل الناس وما زالوا يقبلون على اقتناء كتبه، والاستفادة منها، لما حَوته من شتى صنوف المعرفة بمختلف فنون الإسلام. كانت كل تصانيفه ــ كما قال ابن حجر ــ مرغوباً فيها بين الطوائف[٥].

واهتم كثير من المترجمين لابن القيم في سرد كتبه، وهم ما بين مقل ومكثر ولعل الشيخ بكر أبو زيد كان أكثر المهتمين بسردها مع بيان من ذكرها من المترجمين، ومكان إشارة ابن القيم لها في كتبه، مع أنه ذكر له كتباً يبدو أنها بقيت في نية ابن القيم، وقد سرد له ستة وتسعين كتاباً[٦].

ولدى استعراض عناوين هذه المؤلفات تلمس شمولها لمختلف التخصصات في

---

(١) البداية والنهاية: ١٤/ ٢٣٤.

(٢) انظر: ذيل طبقات الحنابلة: ٢/ ٤٤٩ ــ ٤٥٠.

(٣) انظر: التاج المكلل، صديق خان: ص ٤١٩.

(٤) وقد ذكر ذلك الشيخ عبد الفتاح أبو غدة في تحقيق المنار المنيف، لابن القيم: ص ١٠.

(٥) انظر: الدرر الكامنة: ٤/ ٢١.

(٦) انظر كتابه: التقريب لفقه ابن القيم: ١/ ١٦٩ ــ ٢٥٠.

الشريعة الإسلامية واللغة، مما يدل على سعة في الثقافة وعمق في التفكير.

وقد صنفت ما تعرفت عليه من كتبه حسب الموضوعات، مع أنني وجدت من الضروري أن أنبه إلى ما ذكره الدكتور صبحي الصالح في هذا المجال إذ يقول: «وقد يكون عسيراً على الباحث تسمية شيء من كتب ابن القيم باسم موضوعي خاص، فما كتبه في علم الكلام لا يخلو من المسائل الفقهية، ومن المواعظ المرقِّقة للقلوب، وما كتبه في الفقه وأصوله لا يبرأ من الأبحاث الكلامية ومن المواعظ أيضاً»[1].

ولست مع الدكتور الصالح في نظرته هذه فابن القيم كان دقيقاً في تصنيفاته، والعناوين التي يضعها لكتبه يلتزم بها، ولا يخرج عن موضوعها إلا في استطرادات لطيفة مناسبة، وكتبه التي حوت أكثر من موضوع، رتّب لها أن تكون كذلك، فكتابه زاد المعاد يشمل الفقه والحديث والسيرة، وتسميته تستلزم ذلك فاسمه «زاد المعاد في هدي خير العباد» وكذلك كتابه الفوائد، أو بدائع الفوائد فقد كان من الضروري أن يشتملا على مجموعة من الفوائد المختلفة الموضوعات.

وقد قسمت هذه المؤلفات حسب الموضوعات الآتية:

---

(١) انظر: أحكام أهل الذمة، لابن القيم، تحقيق الدكتور صبحي الصالح: ص ٧٠.

(١)
في علـوم القـرآن

١ ــ **التفسير**: وبين أيدينـا الآن ما يسمى بـالتفسير القيم لابن القيم والمعـروف أن ابن القيم لم يكتب تفسيراً متكاملاً، وإن كان قد تمنى ذلك[١]، وكتب ابن القيم حوت في ثناياها تفسيراً لآيات كثيرة من القرآن الكريم، بل طبعت له رسائل في تفسيـر بعض السور مثل: تفسير سورة الفاتحة وتفسير المعوذتين، وقصة يوسف عليه السّـلام. وقد قـام الشيخ محمـد أويس الندوي بجمـع هذه التفسيـرات في كتاب سمّـاه «التفسيـر القيم»[٢]، وذكـر محمد حامـد الفقي أنه قـام بتحقيقه، وكـان الكتاب بمجلد واحـد لم يشتمل على القـرآن الكريم كاملاً.

٢ ــ **أصول التفسير**: وأشار إليه ابن القيم في كتابه جلاء الأفهام[٣].

٣ ــ **أمثال القرآن**: وهو مجلد واحد طبع بتحقيق سعيد محمد نمر الخطيب.

٤ ــ **التبيان في أقسام القرآن**: ذكره ابن عماد في الشذرات[٤]، وهـو كتاب مـطبوع متداول، كانت الطبعة الأولى في مكة المكرمة سنة ١٣٢١هـ، وقد أشار إليه ابن القيم في كتابه «الجواب الكافي» في مـوضعين، وذكره في المـوضع الأول بـاسم أيمان القـرآن[٥].

---

(١) ذكر ابن القيم هذا التمني، في ختام تفسيره لسـورة «الكافـرون». انظر: التفسيـر القيم: ص ٥٣٥. وانظر: بدائع الفوائد: ١/١٤١.

(٢) انـظر: التفسير القيم لابن القيم، محمـد أُويس النـدوي، تحقيق محمـد حـامـد الفقي، دار الكتب العلمية ــ بيروت، سنة ١٣٩٨هـ.

(٣) انظر: جلاء الأفهام: ص ٨٣.

(٤) انظر: شذرات الذهب: ص ٦/١٧٠.

(٥) انظر: الجواب الكافي: ص ٣٣.

وفي الموضع الثاني باسم أقسام القرآن[1].

٥ ــ **رفع التنزيل**: ذكره البغدادي في هدية العارفين[2]، وحاجي خليفة في كشف الظنون[3].

٦ ــ **شرح أسماء الكتاب العزيز**: ذكر بهذا الاسم عند ابن رجب[4] والداودي[5] وابن العماد[6] وذكره الصفدي[7] باسم «تفسير أسماء القرآن الكريم» كما ذكره البغدادي[8] باسم «أسماء القرآن الكريم».

٧ ــ **الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان**: وهو كتاب موضوع عليه متداول، كانت الطبعة الأولى منه بمطبعة السعادة بمصر سنة ١٣٢٧ بتصحيح الأستاذ محمد بدر النعساني، ولم يذكره أحد ممن ترجموا لابن القيم. ويشك في نسبته له.

٨ ــ **المهذّب في القراءات**: ذكره البغدادي[9] وحاجي خليفة[10].

***

(١) انظر: الجواب الكافي: ص ١٤٣.

(٢) انظر: هدية العارفين: ٢/١٥٨.

(٣) انظر: كشف الظنون: ١/٨٩.

(٤) انظر: الذيل: ٢/٤٥٠.

(٥) انظر: طبقات المفسرين: ٢/٩٢.

(٦) انظر: الشذرات: ٦/١٧٠.

(٧) انظر: الوافي بالوفيات: ٢/٢٧٢.

(٨) انظر: هدية العارفين: ٢/١٥٨.

(٩) المرجع السابق نفسه.

(١٠) انظر: كشف الظنون: ٢/١٩١٤.

(٢)
في السنَّة الشريفة

١ ـ **تهذيب مختصر سنن أبي داود**: والمختصر للحافظ المنذري، وهذا الكتاب في تهذيب المختصر وإيضاح مشكلاته، والكلام على ما فيه من الأحاديث المعلولة، أشار إليه ابن القيم في زاد المعاد[١] وبدائع الفوائد[٢] وذكره ابن عماد[٣] وابن رجب[٤]. وهو مطبوع متداول مع معالم السنن للخطابي، ومختصر المنذري في ثمانية مجلدات. كما طبع مع عون المعبود شرح سنن أبي داود لأبي الطيب العظيم آبادي، وشرح ابن القيم مطبوع في هامش الكتاب، ونشر هذه الطبعة محمد عبد المحسن صاحب المكتبة السلفية بالمدينة المنورة.

٢ ـ **الجامع بين السنن والآثار**: وقد ذكره ابن القيم في بدائع الفوائد فقال: وقد ذكرت في الكتاب الكبير الجامع بين السنن والآثار من قال بذلك من السلف[٥].

٣ ـ **فوائد في الكلام على حديث الغمامة وحديث الغزالة والضب**: رسالة تقع في تسع عشرة ورقة من مخطوطات المكتبة الظاهرية بدمشق رقم عام ٥٤٨٥[٦].

٤ ـ **المنار المنيف في الصحيح والضعيف**: طبع أكثر من مرة وبأكثر من اسم، فقد طبع بمطبعة السنة المحمدية بمصر وبتحقيق محمد حامد الفقي، باسم «المنار».

---

(١) انظر: زاد المعاد: ١/١٥٤.
(٢) انظر: بدائع الفوائد: ٢/١٧٧.
(٣) انظر: شذرات الذهب: ٦/١٦٩.
(٤) انظر: الذيل: ٢/٤٤٩.
(٥) انظر: بدائع الفوائد: ٤/٦٨.
(٦) انظر: فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية، الألباني، ١٠٠ حديث.

كما طبع بمطبعة الحرية سنة ١٣٨٣هـ باسم نقد المنقول أو المنار المنيف، وقد ذكره ابن العماد باسم «نقد المنقول والمحك المميز بين المردود والمقبول» وذكر أنه بمجلد واحد[1] وقد قام الشيخ عبد الفتاح أبو غدة بتحقيقه بطبعة جيدة صدرت منها الطبعة الثانية سنة ١٤٠٢هـ، نشر مكتب المطبوعات الإسلامية ــ حلب.

٥ ــ **الوابل الصيب ورافع الكلم الطيب أو الكلم الطيب والعمل الصالح**: هو كتاب حوى مأثورات الأدعية والأذكار الواردة عن الرسول ﷺ، وقد طبع أكثر من مرة وحققه الشيخ إسماعيل الأنصاري، مطابع النصر الحديثة بالرياض.

***

(١) انظر: الشذرات: ١٦٩/٦.

(٣)
في العـقـيـدة

ويشمـل ما كتبـه الإمام ابن القيم في العقيـدة الإسلاميـة، وما كتبـه رداً على الفرق المخـالفـة لعقيـدة السلف، ومـا كتبـه أيضـاً في الـرد على اليهـود والنصـارى ومن هـذه المؤلفات:

١ ـ **اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية**: كتاب مطبوع، طبع في الهند سنة ١٣١٤هـ، ثم طبع أكثر من مرة، وقام بتصحيحه عبد الله آل الشيخ وإبراهيم الشورى.

٢ ـ **اقتضـاء الذكـر بحصول الخيـر ودفـع الشـر**: ذكـره الصفـدي[١] وابن تغـري بردي[٢].

٣ ـ **الأمالي المكية أو التحفة المكية في بيان الملة الإبراهيمية**: ذكره ابن القيم في بدائع الفوائد أكثر من مرة، وهو يذكـره أحيانـاً باسم الأمـالي المكية وأحيـاناً بـاسم التحفة المكية[٣]، وفي طريق الهجرتين[٤] وذكره ابن العماد[٥] باسم (التحفة المكية).

٤ ـ **جـلاء الأفهام في فضـل الصلاة على خيـر الأنام**[٦]: ويمكن تصنيفـه مع كتب

---

(١) انظر: الوافي بالوفيات: ٢/٢٧١.

(٢) انظر: المنهل الصافي: ٣/٦٢.

(٣) انظر: بدائع الفوائد: ٢/١٥، ٦٢، ٨٩، ٢١١.

(٤) انظر: طريق الهجرتين: ص ٣٧٨.

(٥) انظر: الشذرات: ٦/١٧٠.

(٦) ذكره ابن القيم في زاد المعاد بهذا الاسم، ومدحه كثيراً وأشار إلى موضوعاته فقال: وهـو كتاب فـرد في معناه لم يسبق إلى مثله في كثرة فوائده وغزارتها، بينـا فيه الأحـاديث الواردة في الصـلاة والسلام =

الحديث، وذكره الصفدي باسم «حلى الأفهام. . .»[1]. كتاب مطبوع، طبع في الهند، ثم حققه الشيخ طه يوسف شاهين من علماء الأزهر[2].

٥ ـ **جوابات عابدي الصلبان، وأن ما هم عليه دين الشيطان**: وهو نفس كتاب هداية الحيارى، وهذا الاسم (الجوابات) هو الذي ذكره الذين ترجموا لابن القيم[3] مع أن هداية الحيارى كتاب مشهور، والاسم من وضع المؤلف في مقدمة الكتاب وأشار إليه في زاد المعاد. ولم أجد من جمع بين الاسمين في ذكر مؤلفات ابن القيم سوى البغدادي في هدية العارفين[4] وهو كثير الوهم في مثل ذلك، وقد ذكر لابن القيم خمسة وستين كتاباً منها عشرة مكررة[5]، كما أن هداية الحيارى عبارة عن جوابات لسبع مسائل أوردها المؤلف على لسان أهل الكتاب.

٦ ـ **الجواب الشافي لمن سأل عن ثمرة الدعاء إذا كان ما قدّر واقع**: وقد ذكره الشوكاني في البدر الطالع[6] ولم يذكره غيره.

٧ ـ **الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، أو الداء والدواء**: وقد طبع بالاسمين أكثر من مرة.

٨ ـ **حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح، أو صفة الجنة**: وهو كتاب مطبوع مرغوب فيه عند الدارسين.

= عليه وصحيحها من حسنها ومعلولها، وبينا ما في معلولها من العلل بياناً شافياً، ثم أسرار هذا الدعاء وشرفه وما اشتمل عليه من الحكم والفوائد ثم مواطن الصلاة عليه ومحالها ثم الكلام في مقدار الواجب منها، واختلاف أهل العلم فيه، وترجيح الراجح وتزييف المزيف، ومخبر الكتاب فوق وصفه. (انظر: زاد المعاد، ابن القيم، تحقيق شعيب وعبد القادر الأرناؤوط: ١/٨٧).

(١) انظر: الوافي بالوفيات: ٢/٢٧٢.

(٢) الطبعة المحققة نشرتها دار الكتب العلمية ـ بيروت.

(٣) انظر: الشذرات: ٦/١٦٨؛ والذيل ٢/٤٥٠؛ وطبقات المفسرين: ٢/٩١.

(٤) انظر: هدية العارفين: ٢/١٥٨.

(٥) انظر: التقريب، بكر أبو زيد: ١/١٦٥.

(٦) انظر: البدر الطالع: ٢/١٤٤.

٩ ـ الرسالة الحلبية في الطريقة المحمدية: وهي منظومة ذكرها الداودي والصفدي[١].

١٠ ـ الروح: طبع هذا الكتاب أكثر من مرة، وذكره معظم المترجمين لابن القيم[٢]، وأشار إليه ابن القيم في كتابه جلاء الأفهام[٣].

وقد اختصره البقاعي رحمه الله في كتابه «سرّ الروح».

١١ ـ الروح والنفس: وهو غير كتاب الروح، بل أشار إليه ابن القيم في كتاب الروح نفسه[٤]، كما أشار إليه في مفتاح دار السعادة[٥]، وفي جلاء الأفهام[٦].

١٢ ـ السنة والبدعة: ذكره أحمد عبيد في مقدمة روضة المحبين[٧].

١٣ ـ شرح أسماء الله الحسنى: ذكره معظم الذين ترجموا له[٨].

١٤ ـ شفاء العليل في مسائل القضاء والقدرة والحكمة والتعليل: كتاب مطبوع مشهور ذكره معظم المترجمين، وذكره بعضهم باسم القضاء والقدر[٩].

١٥ ـ الصواعق المنزلة على الجهمية والمعطلة: ذكره معظم المترجمين، وأشار إليه ابن القيم في إغاثة اللهفان[١٠] ومدارج السالكين[١١].

وقد اختصره ابن الموصلي، وكتابه المختصر هو المطبوع المتداول.

---

(١) انظر: طبقات المفسرين: ٢/ ٩١. وانظر: الوافي بالوفيات: ٢/ ٢٧١.
(٢) انظر: الشذرات: ٦/ ١٦٨؛ والدرر الكامنة: ٤/ ٢٣؛ والبدر الطالع: ٢/ ١٤٤.
(٣) انظر: جلاء الأفهام: ص ١٨٩.
(٤) انظر: الروح: ص ٣٨.
(٥) انظر: مفتاح دار السعادة: ص ٤٩٦.
(٦) انظر: جلاء الأفهام: ص ١٨٩.
(٧) مقدمة روضة المحبين، تحقيق أحمد عبيد.
(٨) انظر: الذيل: ٢/ ٤٥٠؛ والشذرات: ٦/ ١٧٠، وطبقات المفسرين: ٢/ ٩٣.
(٩) انظر: الدرر الكامنة: ٤/ ٢٣ وانظر البدر الطالع ٢/ ١٤٤.
(١٠) انظر: إغاثة اللهفان: ١/ ٤٥.
(١١) انظر: مدارج السالكين: ٣/ ٣٥٣.

١٦ ــ طبقات المكلفين ومراتبهم في الدار الآخرة: كتاب مطبوع، نشرته مكتبة السلام العالمية بالقاهرة سنة ١٤٠١هـ ولم يذكره المترجمون، وهو مقتطع من كتاب طريق الهجرتين(١) والناشر لم يشر إلى ذلك، وهذا تزوير تعمد إليه بعض دور النشر لأغراض تجارية.

١٧ ــ طريقة البصائر إلى حديقة السرائر في نظم الكبائر: وقد ورد ذكره في فهارس أوقاف بغداد(٢)، ولعله نفس كتاب الكبائر الذي ذكره معظم المترجمين(٣).

١٨ ــ الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية: وهذا الكتاب هو المنظومة الشهيرة المسمّاة بالقصيدة النونية البالغة ستة آلاف بيت(٤) طبعت مراراً، وشرحها عدد من العلماء، وذكرها معظم المترجمين. ومن أشهر شروحها شرح الألوسي وشرح ابن سعدي والشرح المسمى بتوضيح المقاصد وتصحيح القواعد في شرح قصيدة الإمام ابن القيم، تأليف أحمد بن إبراهيم بن عيسى الشرقي، نشر المكتب الإسلامي سنة ١٣٨٢هـ والمنظومة كلها على البحر الكامل.

١٩ ــ مشروعية زيارة القبور: كتاب مطبوع نشره عزت العطار، مؤسسة الخانجي بمصر.

٢٠ ــ المهدي: ذكره صاحب كشف الظنون(٥).

٢١ ــ مولد النبي ﷺ: ذكره الشوكاني(٦) وصديق القنوجي(٧).

---

(١) انظر: طريق الهجرتين، بتحقيق الأنصاري: ص ٦١٢ ــ ٧٣٩.

(٢) انظر: الفهارس، للجبوري: ٢/٤٤٥.

(٣) انظر: الشذرات: ٦/١٦٨؛ والذيل: ٢/٤٥٠؛ وهدية العارفين: ٢/١٥٨؛ وطبقات المفسرين: ٢/٩٣.

(٤) هكذا ذكر ابن تغري بردي في المنهل الصافي: ٣/٦٧. وذكر الشيخ بكر أبو زيد أنه قام بعدها فبلغت أبياتها (٥٩٤٩) بيتاً. (انظر: التقريب: ١/٢٣٥).

(٥) انظر: كشف الظنون: ٢/١٤٦٥.

(٦) انظر: البدر الطالع: ٢/١٤٤.

(٧) انظر: التاج المكلل: ص ٤١٩.

٢٢ ــ مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة: كتاب مطبوع متداول، وذكره معظم المترجمين.

٢٣ ــ هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى: طُبع مراراً، وكانت الطبعة الأولى سنة ١٣٢٣ هـ، وهو الكتاب الذي بين أيدينا. وقد طبعته المكتبة القيمة سنة ١٣٩٨هـ بتحقيق الدكتور أحمد حجازي السقا، وكان التحقيق اسمياً.

***

(٤)
في الفقـه وأصـولـه

لم يكن ابن القيم متعصباً لمذهبه الحنبلي، ولكنه اتبع طريقة السلف التي ثبت دعائمها شيخه ابن تيمية، والتي تسير مع الدليل حيث سار، ولذلك فقد خاض ابن القيِّم غمار الفقه، فكتب فيه مؤلفات عدّة وكان مجتهداً، كما شهد له تلاميذه الذين ترجموا له، وخرج عن مذهبه في كثير من المسائل.

ومن كتبه في الفقه وأصوله:

١ ـ **أعلام الموقعين عن رب العالمين**: وهو من أعظم كتبه وأشهرها يقع في أربعة مجلدات، مطبوع متداول بين طلبة العلم، كانت الطبعة الأولى منه في الهند سنة ١٣١٣هـ ثم طبع في مصر سنة ١٣٢٥هـ[١] ثم تتابعت طبعاته.

٢ ـ **الأعلام باتساع طرق الأحكام**: أشار إليه ابن القيم في إغاثة اللهفان[٢] ولم يذكره مترجموه، وقد يكون نفس كتاب أعلام الموقعين.

٣ ـ **الاجتهاد والتقليد**: أشار إليه المؤلف في مفتاح دار السعادة[٣]، وفي تهذيب السنن[٤].

٤ ـ **أحكام أهل الذمّة**: طبع للمرة الأولى سنة ١٣٨١هـ بتحقيق الدكتور صبحي الصالح بتكليف من لجنة موسوعة الفقه الإسلامي في جامعة دمشق. ويقع في مجلدين كبيرين وطبع طبعة ثانية في بيروت سنة ١٤٠١هـ.

---

(١) انظر: ابن قيم الجوزية، الغنيمي: ص ١١٢.

(٢) انظر: إغاثة اللهفان: ٢/١١٩.

(٣) انظر: مفتاح دار السعادة: ص ٥٧.

(٤) انظر: مدارج السالكين: ٣/٣٠٨.

٥ ــ **إغاثة اللهفان في حكم طلاق الغضبان**: ويسمى الإغاثة الصغرى، أشار إليه ابن القيم في مدارج السالكين وهو مطبوع متداول، كانت الطبعة الأولى منه في مصر سنة ١٣٢٣[(١)]، ثم طبع بتحقيق محمد جمال الدين القاسمي.

٦ ــ **بيان الاستدلال على بطلان اشتراط محلل السباق والنضال**:[(٢)] ومسألة المحلل في السباق، هي إحدى الفتاوى التي أوذي ابن القيم بسببها كما بينا. وقد ذكر ابن القيم هذا الكتاب في أعلام الموقعين[(٣)]، وهو نفس الكتاب الذي ذكره ابن رجب واسمه «بيان الدليل على استغناء المسابقة عن التحليل». وقد وهم صاحب هدية العارفين عندما عدّهما كتابين وله من ذلك كثير[(٤)].

٧ ــ **تحفة المودود في أحكام المولود**: كتاب مطبوع متداول، كانت الطبعة الأولى منه في لاهور سنة ١٣٣٩هـ[(٥)]، ثم طبع محققاً لعبد الحكيم شرف الدين الهندي سنة ١٣٨٠هـ بالمطبعة الهندية بالهند أيضاً، وفي سنة ١٣٩١هـ طبع في دمشق بتحقيق عبد القادر الأرناؤوط[(٦)]، كما نشرته المكتبة القيمة بمصر سنة ١٣٩٧هـ بغير تحقيق.

وهو نفس كتاب أحكام المولود الذي ذكره البغدادي على أنه اسم كتاب آخر[(٧)].

٨ ــ **التحرير فيما يحل ويحرم من لبس الحرير**: ذكره أكثر المترجمين[(٨)] وأشار إليه ابن القيم في زاد المعاد باسم التخيير[(٩)] وباسم التحبير[(١٠)].

---

(١) انظر: ابن قيم الجوزية، الغنيمي: ص ١١٢.
(٢) انظر: كشف الظنون: ١/٢٣٥.
(٣) انظر: أعلام الموقعين: ٤/٢٢.
(٤) انظر: هدية العارفين: ٢/١٥٨. وانظر: التقريب، بكر أبو زيد: ص ١٨٧.
(٥) انظر: ابن قيم الجوزية، الغنيمي: ص ١١٢.
(٦) انظر: التقريب، بكر أبو زيد: ص ١٩٢.
(٧) انظر: هدية العارفين: ٢/١٥٨.
(٨) انظر: الذيل، لابن رجب: ٢/٤٥٠؛ والوافي بالوفيات: ٢/٢٧١؛ وطبقات المفسرين: ٢/٩٣.
(٩) زاد المعاد: ٣/٤٤٨.
(١٠) المرجع السابق: ٤/٧٨.

٩ ــ **التعليق على الأحكام**: أشار إليه المؤلف في جلاء الأفهام[(١)].

١٠ ــ **حرمة السماع**: ذكره البغدادي وحاجي خليفة[(٢)]، وذكر الصفدي كتاباً له في هذا الموضوع باسم «كشف الغطاء عن حكم سماع الغناء»[(٣)]، ولعله الكتاب نفسه.

كما أشار ابن القيم إلى هذا الكتاب في إغاثة اللهفان بعد حديثه: مكيدة الشيطان بتزيين السماع فقال: وقد ذكرنا شبه المغنين والمفتونين بالسماع الشيطاني، ونقضناها نقضاً وإبطالاً في كتابنا الكبير في السماع[(٤)].

١١ ــ **حكم إغمام هلال رمضان**: ذكره ابن رجب[(٥)] والداودي[(٦)] وابن عماد[(٧)].

١٢ ــ **حكم تارك الصلاة**: كتاب مطبوع، طبع أكثر من مرة، وكانت الطبعة الأولى منه، مع كتاب الصلاة وما يلزم فيها للإمام أحمد، باسم «الصلاة وأحكام تاركها» سنة ١٣٢٣هـ[(٨)]. ثم طبعه المكتب الإسلامي سنة ١٤٠١هـ بتحقيق تيسير زعيتر.

١٣ ــ **حكم تفضيل بعض الأولاد على بعض في العطية**: أشار إليه في تهذيب مختصر سنن أبي داود[(٩)].

١٤ ــ **الحامل هل تحيض أم لا**: أشار إليه ابن القيم في تهذيب السنن[(١٠)] وتحفة المودود[(١١)].

---

(١) انظر: جلاء الأفهام: ٨٥.
(٢) انظر: هدية العارفين: ٢/١٥٨؛ وكشف الظنون: ١/٦٥٠.
(٣) انظر: الوافي بالوفيات: ٢/٢٧١.
(٤) انظر: إغاثة اللهفان: ١/٢٦٧.
(٥) انظر: الذيل: ٢/٤٥٠.
(٦) انظر: طبقات المفسرين: ٢/٩٣.
(٧) انظر: الشذرات: ٦/١٦٩.
(٨) انظر: ابن قيم الجوزية، الغنيمي: ص ١١٣.
(٩) انظر: تهذيب السنن: ٥/١٩٣.
(١٠) المرجع السابق: ٣/١٠٩.
(١١) انظر: تحفة المودود: ص ٢٥٠.

١٥ ـ **رفع اليدين في الصلاة**: ذكره معظم المترجمين لابن القيم[١] وهو مخطوط توجد منه نسخة في المكتبة السعودية بالرياض نسخت سنة ١٣٣٨هـ رقمها ٨٢/٦٠٩ مخطوطات[٢].

١٦ ـ **الطرق الحكمية في السياسة الشرعية**: كتاب مطبوع متداول، الطبعة الأولى منه كانت سنة ١٣١٧ بمصر[٣]، ثم طبع سنة ١٣٨٠هـ، وقدّم له محمد محيي الدين عبد الحميد، وراجعه وصححه أحمد عبد الحليم العسكري، ونشرته المؤسسة العربية للطباعة والنشر بالقاهرة. كما قام بتحقيقه أيضاً محمد جميل أحمد وطبع في مطبعة المدني بالقاهرة سنة ١٣٨١هـ.

١٧ ـ **فتاوى رسول الله ﷺ**: ذكره الألوسي في جلاء العينين باسم الفتاوى[٤] وقد طبع بتحقيق مصطفى عاشور، نشر دار بوسلامة للطباعة والنشر والتوزيع، تونس الطبعة الأولى سنة ١٩٨٣. وقد أشار المحقق في مقدمته إلى أن هذا الكتاب جزء من كتاب أعلام الموقعين نظمه ابن القيم في باب خاص بعنوان فتاوى إمام المفتين ﷺ.

١٨ ـ **الفروسية الشرعية**: أشار إليه ابن القيم في أعلام الموقعين بهذا الاسم[٥] وذكره الصفدي باسم الفروسية المحمدية[٦] كما طبع باسم الفروسية بتحقيق السيد عزت العطار الحسيني، مكتب نشر الثقافة الإسلامية بمصر.

١٩ ـ **المسائل الطرابلسية أو الطرابلسيات**: ذكره ابن رجب[٧] والداودي[٨] وأشار ابن العماد إلى أنه ثلاث مجلدات[٩] وهو نفس كتاب الطرق الحكمية في السياسة

---

(١) انظر: الذيل: ٢/١٥٠؛ والوافي بالوفيات: ٢/٢٧٢؛ وطبقات المفسرين: ٢/٩٣.
(٢) انظر: التقريب، بكر أبو زيد: ١/٢٠٨.
(٣) انظر: التيمي: ص ١١٣.
(٤) انظر: جلاء العينين: ص ٣٢.
(٥) انظر: أعلام الموقعين: ٤/٢١.
(٦) انظر: الوافي بالوفيات: ٢/٢٧٢.
(٧) انظر: ذيل طبقات الحنابلة: ٢/٤٥٠.
(٨) انظر: طبقات المفسرين: ٢/٩٣.
(٩) انظر: شذرات الذهب: ٦/١٦٩.

الشرعية، وقد بين ذلك الأستاذ محمد جميـل أحمد محقق كتـاب الطرق الحكميـة، وبيّن أن المخطوطة التي عثـر عليها ـ وهي صـورة عن نسخة فـريدة مـوجودة في مكتبـة أوقاف بغداد ـ تنص على أن هذا السؤال ـ الـذي كان الكتـاب كله توضيحـاً له ـ ورد عليـه من طرابلس الشام مع أسئلة أخرى تسميها المخطوطة (الطرابلسيات)[1].

٢٠ ـ **نكاح المحرم**: ذكره معظم المترجمين له[2].

***

(١) انظر: الطرق الحكمية، تحقيق محمد جميل أحمد هامش: ص ٣ مع الصورة المرفقة للكتاب.

(٢) انظر: ذيل طبقات الحنابلة: ٢/٤٥٠؛ وانظر: شذرات الذهب: ٦/١٦٩؛ وانظر: طبقات المفسرين: ٦/١٦٩.

(٥)
في النحو واللّغة

كان لابن القيم باع طويل في النحو واللغة، ويبدو ذلك جلياً من خلال أسلوبه في مؤلفاته، واستطراده في بعض كتبه لقضايا لغوية تبرز من خلالها مقدرته الفائقة، واطلاعه الواسع في هذا المجال. ومع أنه لم يكتب كثيراً في النحو واللغة كتباً منفصلة متخصصة إلّا أن اللطائف البيانية واللغوية المنشورة في كتبه تدل على أن صاحبها عالم نحوي، وقد وصفه المترجمون له بهذا الوصف، فكتابه بدائع الفوائد، مليء بالفوائد النحوية واللغوية، وتفسيراته لبعض الآيات القرآنية، يظهر فيها اهتمامه باللفظة والأسلوب والنكات النحوية والبلاغية. وفي كتابه «جلاء الأفهام» تطرق إلى بحث لطيف في التناسب بين اللفظ والمعنى، ثم قال: «وهذا أكثر من أن يحاط به، وإن مد الله في العمر، وضعت فيه كتاباً مستقلاً إن شاء الله، ومثل هذه المعاني تستدعي لطافة ذهن ورقة طبع، ولا تأتي مع غلظ القلوب والرضى بأول المسائل في النحو والتصريف دون تأملها وتدّبرها»(١).

ومن كتب ابن القيم في هذا المجال:

١ ـ **بدائع الفوائد**: كتاب مطبوع في أربعة مجلدات، وهو كتاب بديع كما سمّاه صاحب كشف الظنون(٢) وهو كتاب جامع من الصعب تصنيفه في موضوع معيّن، فقد احتوى على فوائد في الفقه والتفسير والنحو وغيرها من موضوعات، لكن النكات البديعة في النحو واللغة احتلّت فيه مساحات واسعة. وقد ذكره السيوطي ضمن الكتب الجامعة التي عرضت للقرآن وعلومه(٣).

---

(١) انظر: جلاء الأفهام: ص ٧٦.

(٢) كشف الظنون: ١/ ٢٣٠.

(٣) انظر: الإتقان في علوم القرآن، السيوطي: ١/ ٣٥.

٢ ـ معاني الأدوات والحروف: ذكره معظم المترجمين له[١] وذكره الغنيمي في قائمة الكتب المخطوطة[٢].

***

(١) انظر: الوافي بالوفيات: ٢٧١/٢؛ وطبقات المفسرين: ٩٣/٢؛ وبغية الوعاة: ٦٣/١ وهدية العارفين: ١٥٨/٢.

(٢) انظر: ابن قيم الجوزية، الغنيمي: ص ١١٦.

(٦)
في التصوّف والرقائق

تزكية النفس وترقيق القلب سمة بارزة معالمها في كثير مما ألفه ابن القيم، ونجد ابن القيم وهو يرد على مبتدعة المتصوفة يضع البديل الإسلامي في تزكية النفس، وتطهير القلب. ومن مؤلفاته في ذلك:

١ ــ **إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان**: كتاب مطبوع متداول، يقع في مجلدين، ومع أن ابن القيم سمّاه بهذا الاسم[١]، وسمّاه كثير من المترجمين بمصائد الشيطان[٢] طبع سنة ١٣٢٠هـ باسم مصائد الشيطان، وفي المكتبة الظاهرية بدمشق نسخة بخط المؤلف[٣].

٢ ــ **تحفة النازلين بجوار ربّ العالمين**: أشار إليه ابن القيم في مدارج السالكين[٤]، وذكره البغدادي[٥] والقنوجي[٦].

٣ ــ **روضة المحبين ونزهة المشتاقين**: كتاب مطبوع، طبع في دمشق سنة ١٣٤٩هـ. وحققه الأستاذ أحمد عبيد، وهو كتاب أدبي لطيف، حوى العبارات اللطيفة وبعض أشعاره، وفيه تهذيب وتزكية للنفس.

٤ ــ **زاد المسافرين إلى منازل السعداء في هدى خير الأنبياء**: ذكره معظم

---

(١) انظر: مقدمة إغاثة اللهفان: ١/٦.
(٢) انظر الوافي بالوفيات: ٢/٢٧١؛ والبدر الطالع: ٢/١٤٤؛ والتاج المكلّل: ص ٤١٩.
(٣) انظر: ابن قيم الجوزية، الغنيمي: ص ١١٤.
(٤) انظر: مدارج السالكين: ١/٢٣٠.
(٥) انظر: هدية العارفين: ٢/١٥٨.
(٦) انظر: التاج المكلل: ص ٤١٩.

المترجمين[1]، وذكره الغنيمي في قائمة الكتب المخطوطة[2].

٥ ــ **الصبر والسكن**: ذكره البغدادي[3]، وصاحب كشف الظنون[4]، وذكره الغنيمي ضمن القائمة المخطوطة[5].

٦ ــ **طريق الهجرتين**: كتاب مطبوع متداول، أشار إليه ابن القيم في مدارج السالكين[6] باسم «سفر الهجرتين».

٧ ــ **عدّة الصابرين وذخيرة الشاكرين**: كتاب مطبوع متداول، طبع أكثر من مرة، والطبعة الرابعة منه من منشورات دار الآفاق الجديدة؛ بيروت سنة ١٤٠٠هـ كتب عليه أنه بتحقيق لجنة إحياء التراث العربي في دار الآفاق الجديدة، وتصفحت الكتاب فلم أجد أيّ عمل على الإطلاق لهذه اللجنة، اللهم إلاّ تفسير كلمة واحدة غامضة، ولم تضع اللجنة حتى ولا مقدمة للكتاب.

٨ ــ **الفتح المكي**: ذكره المؤلف في بدائع الفوائد[7].

٩ ــ **الفتوحات القدسية أو الفتح القدسي**: ذكره معظم المترجمين لابن القيم باسم الفتح القدسي[8]، كما أشار له المؤلف في بدائع الفوائد بهذا الاسم[9]، وذكره في مفتاح السعادة باسم **الفتوحات القدسية**. وقال إنه ذكر فيه مشاهد الخلق في مواقعة الذنب، وأنها تنتهي إلى ثمانية مشاهد، وذكرها جميعها[10].

---

(١) انظر: الذيل: ٥٤٠؛ وطبقات المفسرين: ٢/٩٣؛ والشذرات: ٦/١٦٩.
(٢) انظر: ابن قيم الجوزية، الغنيمي: ص ١١٥.
(٣) انظر: هدية العارفين: ٢/١٥٨.
(٤) انظر: كشف الظنون: ٢/١٤٣٢.
(٥) انظر: ابن قيم الجوزية، الغنيمي: ص ١١٦.
(٦) انظر: مدارج السالكين: ٢/٥٤.
(٧) انظر: بدائع الفوائد: ٢/١٨٦.
(٨) انظر: الذيل: ٢/٤٥٠؛ وشذرات الذهب: ٦/١٦٩؛ وطبقات المفسرين: ٢/٩٣.
(٩) انظر: مفتاح دار السعادة: ١/٢٨٥.
(١٠) انظر: بدائع الفوائد: ٢/٢٤٠ ــ ٢١١.

١٠ ــ الفرق بين الخلة والمحبة ومناظرة الخليل لقومه: ذكره ابن رجب[١] وابن عماد الحنبلي[٢].

١١ ــ قرة عيون المحبين وروضة العارفين: أشار إليه ابن القيم في مدارج السالكين[٣]، وذكره البغدادي في هدية العارفين[٤].

١٢ ــ مدارج السالكين بين منازل إيّاك نعبد وإيّاك نستعين: وقد طبع الكتاب بهذا الاسم أكثر من مرة، وكانت الطبعة الأولى في مصر سنة ١٣٢٣هـ[٥]، كما طبع بتحقيق محمد حامد الفقي؛ نشر دار الرشاد الحديثة ــ الدار البيضاء ــ المغرب.

ذكره ابن حجر والشوكاني باسم شرح منازل السائرين[٦]، ومنازل السائرين كتاب معروف للشيخ أبي إسماعيل عبد الله بن محمد بن علي الأنصاري الهروي الحنبلي المتوفى سنة ٤٨١هـ، وذكره ابن رجب والداودي وابن عماد باسم مراحل السائرين بين منازل إيّاك نعبد وإيّاك نستعين[٧]، وقد قام الأستاذ عبد المنعم صالح العلي بتهذيب مدارج السالكين، ونشرته وزارة العدل والشؤون الإسلامية بدولة الإمارات سنة ١٤٠٢هـ.

١٣ ــ الغربة والاغتراب: رسالة صغيرة، وهي قطعة من مدارج السالكين، فصلها وصححها وعلق عليها محمد منير الدمشقي، طبعت في إدارة الطباعة المنيرية بمصر سنة ١٣٥١هـ.

١٤ ــ مكائد الشياطين في الوسوسة وذم الموسوسين: وهو شرح لكتاب ذم الموسوسين والتحذير من الوسوسة لابن قدامة[٨]، والكتاب يقع في أربعة وتسعين صفحة،

---

(١) انظر: الذيل: ٢/٤٥٠.

(٢) انظر: الشذرات: ٦/١٦٨.

(٣) انظر: مدارج السالكين: ٣/١٠٩.

(٤) انظر: هدية العارفين: ٢/١٥٨.

(٥) انظر: ابن قيم الجوزية، الغنيمي: ١١٤.

(٦) انظر: الدرر الكامنة: ٤/٢٢؛ والبدر الطالع: ٢/١٤٤.

(٧) انظر: الذيل: ٢/٤٤٩؛ وطبقات المفسرين: ٢/٩٣؛ والشذرات: ٦/١٩٩.

(٨) وقد أشار ابن القيم إلى ذلك في نفس الكتاب حيث ذكر بعد مقدمة طويلة عن مكايد الشيطان للنفس الإنسانية: قال الشيخ أبو محمد المقدسي في ذم الوسواس، وبدأ بعد ذلك بشرح هذا الكتاب، انظر: ص ٢٤.

نشرته دار الكتب العلمية سنة ١٤٠٢هـ دون تحقيق، وهو جزء من إغاثة اللهفان.

١٥ ــ **المورد الصافي والظل الوافي**: أشار إليه ابن القيم في طريق الهجرتين، وقال: (وقد ذكرنا مجموع هذه الطرق في كتابنا الكبير في المحبة الذي سميناه: المورد الصافي والظل الوافي)[١] وقد ذكر البغدادي هذا الكتاب[٢].

١٦ ــ **نور المؤمن وحياته**: ذكره ابن رجب[٣] وابن العماد[٤] والبغدادي[٥] وذكره الغنيمي من ضمن الكتب المخطوطة[٦].

***

---

(١) انظر: طريق الهجرتين: ص١٠٣.
(٢) انظر: هدية العارفين: ٢/١٥٩.
(٣) انظر: ذيل طبقات الحنابلة: ٢/٤٥٠.
(٤) انظر: الشذرات: ٦/١٦٨.
(٥) انظر: هدية العارفين: ٢/١٥٩.
(٦) انظر: ابن قيم الجوزية، الغنيمي: ص ١١٧.

(٧)
في موضوعات متفرقة

١ ــ **أسماء مؤلفات ابن تيمية**: طبع هذا الكتاب سنة ١٣٧٢هـ وعدد ما ذكر فيه ٣٤١ كتاب وفي العقيدة ١٣ كتاباً، وقد طبعت هذه الرسالة أيضاً بتحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد؛ نشر دار الكتاب الجديد.

٢ ــ **بطلان الكيمياء من أربعين وجهاً**: ذكره معظم المترجمين لابن القيم[١]، وذكره الغنيمي ضمن الكتب المخطوطة[٢]، وكانت الكيمياء آنذاك نوعاً من الشعوذة لتحويل المعادن الرخيصة إلى ذهب.

٣ ــ **الطب النبوي**: وقد طبع مراراً، وقام الدكتور عبد الغني عبد الخالق بتحقيقه، وهو جزء من كتاب زاد المعاد.

٤ ــ **الطاعون**: ذكره ابن العماد وقال: إنه مجلد لطيف[٣]، ولعله نفس ما ذكر في زاد المعاد ضمن كتاب الطب النبوي.

٥ ــ **طب القلوب**: ذكره الزركلي في الأعلام ٦: ٢٨٠ وهو مخطوط في مكتبة الأوقاف ببغداد باسم دواء القلوب رقم (٤٧٣٢) الأخلاق والتصوف.

٦ ــ **تدبير الرئاسة في القواعد الحكمية بالذكاء والقريحة**: انفرد البغدادي في ذكره[٤]، ويترجح عندي أن الكتاب هو نفسه كتاب الطرق الحكمية، لأن هذا هو نفس موضوع كتاب الطرق الحكمية، كما أن البغدادي كثير الوهم في ذلك.

---

(١) انظر: الذيل: ٢/ ٤٥٠؛ وطبقات المفسرين: ٢/ ٩٣؛ والشذرات: ٦/ ١٦٩.

(٢) انظر: ابن قيم الجوزية، الغنيمي: ص ١١٥.

(٣) انظر: الشذرات: ٦/ ١٦٩.

(٤) ذكره البغدادي في إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون: ١/ ٢٧١.

٧ ــ **تفضيل مكة على المدينة**: ذكره معظم المترجمين لابن القيم[١] وذكره الغنيمي ضمن الكتب المخطوطة[٢].

٨ ــ **الحاوي**: ذكره أحمد عبيد في مقدمة روضة المحبين[٣].

٩ ــ **الرسالة التبوكية**: وهي عبارة عن كتاب سيّره ابن القيم من تبوك في الثامن من محرم سنة ٧٣٣ هـ[٤] طبعت أكثر من مرة وبأكثر من اسم، فقد طبعتها مطبعة المدني باسم «زاد المهاجر إلى ربه» وهذا جوهر موضوعها فعلاً.

١٠ ــ **رسالة ابن القيم إلى أحد إخوانه**: بضع صفحات صغيرة لا زالت مخطوطة في المكتبة المحمودية بالمدينة المنورة رقم ٨/٣٢١[٥].

١١ ــ **فضل العلم وأهله**: ذكره ابن العماد والداودي[٦]، وذكره ابن رجب باسم فضل العلماء[٧]، وذكره المؤلف في مفتاح دار السعادة[٨]، وفي طبقات المكلفين[٩].

١٢ ــ **الفوائد**: وهو كتاب ضم مجموعة من الفوائد عن العقيدة ومعظمها في الرقائق، وقد طبع مراراً، وقد نشرته دار النفائس ببيروت سنة ١٩٧٨م الطبعة الثالثة بتخريج وحواشي أحمد راتب عمروش.

***

---

(١) انظر: الذيل: ٢/٤٥٠؛ وطبقات المفسرين: ٢/٩٣؛ والشذرات: ٦/١٦٩.
(٢) انظر: ابن قيم الجوزية، الغنيمي: ص ١١٥.
(٣) انظر: مقدمة روضة المحبين، أحمد عبيد.
(٤) انظر: تعليق قصي محب الدين الخطيب في أول الرسالة.
(٥) انظر: التقريب، بكر أبو زيد: ١/٢٠٧.
(٦) انظر: الشذرات: ٦/١٦٩؛ وطبقات المفسرين: ٢/٩٣.
(٧) انظر: الذيل: ٢/٤٥٠.
(٨) انظر: مفتاح دار السعادة: ص ٣٠٧.
(٩) انظر: طبقات المكلفين: ص ٩.

(٨)

كتب منسوبة لابن القيّم

نسب إلى ابن القيم مجموعة من الكتب إما عن طريق الخطأ، وإما عن طريق التزوير الذي تلجأ إليه بعض دور النشر لمصلحة تجارية، ومن هذه الكتب:

١ ــ **أخبار النساء**: طبع مراراً منسوباً لابن القيم، كانت الطبعة الأولى سنة ١٣١٩هـ، وأغلب الظن أن الكتاب لابن الجوزي، كما ذهب كثير من الباحثين[١]، سيما وأنه لم ينسبه إلى أحد من المؤرخين لترجمة ابن القيم.

٢ ــ **المطالب السنية في قمع المراسم البدعية**: وهذه مخطوطة في المكتبة الظاهرية تنسب لابن القيم، مع أن مؤلفها ينقل عن جماعة من المتأخرين، ومنهم السيوطي المتوفى سنة ٩١١هـ، وقد ولد بعد وفاة ابن القيم بحوالي قرن من الزمان[٢].

٣ ــ **شرح الشروط العمرية**: وهذا ليس كتاباً لابن القيم، وإنما هو بحث تضمنه كتاب أحكام أهل الذمة، ولم يفرده في كتاب آخر، فقام الدكتور صبحي الصالح محقق أحكام أهل الذمة بإفراد هذا البحث بهذا الكتاب المستقل، كانت الطبعة الأولى منه في بيروت سنة ١٣٨١هـ، نشر دار العلم للملايين، ثم نشرت الطبعة الثانية سنة ١٤٠١هـ.

٤ ــ **الكافية الشافية في النحو**: نسبها البعض إلى ابن القيم، ومن هؤلاء الغنيمي الذي ذكرها ضمن الكتب المخطوطة[٣]، والسنباطي في كتابه منهج ابن القيم في التفسير[٤]، وقد ذكرها باسم شرح ألفية ابن مالك، وهي في الحقيقة لإبراهيم بن الشيخ

---

(١) من هؤلاء الباحثين الأستاذ عبد الغني عبد الخالق رحمه الله في مقدمته لكتاب الطب النبوي، ومحمد منير آغا في كتاب (نموذج من الأعمال الخيرية): ص ٧٨.

(٢) انظر: التقريب: ١/٢٤٢.

(٣) انظر: ابن قيم الجوزية، الغنيمي: ص ١١٦.

(٤) انظر: منهج ابن القيم في التفسير: ص ٢٢.

شمس الدين بن قيم الجوزية المتوفى سنة ٧٦٧هـ[1].

٥ ــ **القول القيم مما يرويه ابن تيمية وابن القيم**: وهو عبارة عن بحث يقع في ست وستين (٦٦) صفحة من القطع الصغير، نشرته دار مكتبة الحياة؛ بيروت سنة ١٩٧٥م، ويحتوي على أقوال ابن تيمية وابن القيم في فضائل أهل البيت النبوي. والكلام من جمع الناشر، وقد ذكر في مقدمته سبب جمعه لهذه الأقوال ومصدرها من كتب ابن تيمية وابن القيم.

٦ ــ **القياس في التشريع الإسلامي**: كتاب مطبوع باسم ابن القيم وشيخه ابن تيمية، ولم يذكره أحد من المترجمين له، وقد نشره محب الدين الخطيب سنة ١٣٤٦هـ، وبيَّن في مقدمته أن الكتاب يحتوي على رسالة القياس لابن تيمية، وعلى مقولة من كتاب أعلام الموقعين، وكانت الطبعة الثالثة من الكتاب سنة ١٣٩٨هـ من منشورات دار الآفاق الجديدة؛ بيروت.

٧ ــ **صفات المنافقين**: رسالة صغيرة مقتبسة من كلام ابن القيم في مدارج السالكين، وليس كتاباً له. طبعها المكتب الإسلامي في بيروت لأغراض تجارية.

***

(١) انظر: التقريب: ١/٣٧.

(٩)

كتب تمنّى ابن القيم تأليفها

ولم يذكرها أحد من المترجمين له، ولم تنشر حتى الآن. ومن هذه الكتب:

١ ـ **تفسير كامل للقرآن الكريم**: وقد ذكرنا أن ابن القيم تمنى ذلك في ختام تفسيره لسورة «الكافرون»[١].

٢ ـ **فضائل النبي ﷺ**: وقد وعد بتأليفه في كتابه «جلاء الأفهام»[٢].

٣ ـ **فضل الجهاد وأهله**: وقد وعد بتأليفه في كتابه «طريق الهجرتين»[٣].

٤ ـ **فضل العسل على السكر**: وعد بتأليفه في كتابه «مفتاح دار السعادة»[٤].

٥ ـ **محاسن الشريعة**: وقد تمنى تأليفه في كتابه «بدائع الفوائد»[٥].

***

---

(١) انظر: التفسير القيم: ص ٥٣٥؛ وانظر: بدائع الفوائد: ١/ ١٤١.

(٢) انظر: جلاء الأفهام: ص ١٦٠.

(٣) انظر: طريق الهجرتين: ص ٦٣٢.

(٤) انظر: مفتاح دار السعادة: ص ٢٦٩.

(٥) انظر: بدائع الفوائد: ٢/ ١٧٩.

الفصل الخامس
ثقافته وشخصيّته العلمية

١ ــ العوامل المؤثرة في تكوين شخصيّته العلمية.

٢ ــ معالم ثقافته.

(أ) في التفسير.

(ب) في الحديث.

(ج) في الفقه وأصوله.

(د) في اللغة.

(هـ) في العقيدة الإسلامية.

٣ ــ ميزات منهجه العلمي .

* * *

(١)
العوامل المؤثرة في تكوين شخصيته العلمية

من خلال ما ذكرناه عن حياة ابن القيم وشيوخه ومؤلفاته نجد أنفسنا أمام شخصية علمية لها معالمها البينة، كما أن لها استقلاليتها الواضحة، ولا شك أن هنالك عوامل كثيرة كان لها أثر في تكوين بنية هذه الشخصية. ومن هذه العوامل:

* بيئته الخاصة والعامة:

هذه البيئة أثر فيها عاملان رئيسان هما:

(أ) أسرته وقد تحدثنا عنها، وبيّنا أثر والده عليه حيث كان والده يعيش حياة علمية في ظل مدرسة عريقة من مدارس الحنابلة في دمشق، هي مدرسة الجوزية التي كان قيّماً عليها، مما كان له أثر في توجيه شيخنا ابن القيّم، وأخيه زين الدين إلى العلم وطلبه والاهتمام بشؤونه من الصغر.

(ب) بلده دمشق: وقد بيّنا عند الحديث عن الحالة العلمية لعصره أن دمشق شهدت في ذلك العصر ثورة علمية، ظهرت معالمها في مئات المدارس المعروفة آنذاك، والتي تردد عليها مئات المدرسين الذين أحيوا الحركة العلمية في المدينة من خلال دروسهم ومؤلفاتهم، وقد درس شيخنا ابن القيم على كثير منهم، واطلع على عدد كبير من مؤلفاتهم، ومؤلفات من قبلهم، وقد رأينا مدى اهتمامه بمجالسة هؤلاء العلماء والاستفادة منهم، بل أشار ابن القيم رحمه الله إلى مسألة مهمة جداً في طريقة تلقي العلم، تلك هي مسألة التلقي عن الشيوخ مشافهة بالإضافة إلى الاطلاع على الكتب.

يقول ابن القيم في كتابه (بدائع الفوائد) بعد حديثه عن بعض المسائل اللغوية:

«ولمثل هذه الفوائد التي لا تكاد توجد في الكتب يحتاج إلى مجالسة الشيوخ والعلماء»[1].

مع هذه المجالسة التي لا يخفى أثرها في توضيح المسائل والتعرّف على كثير من اللفتات البديعة، نجد ابن القيم شغوفاً في اقتناء الكتب وقراءتها، وقد تيسّر له من ذلك ما لم يتيسّر لغيره، ولا شك أيضاً أن للحركة العلمية في دمشق أثراً كبيراً في تمكنه رحمه الله من جمع هذه الكتب.

* المذهب الحنبلي:

كان ابن القيم فقيهاً حنبلياً، وقد أعجب بفقه الإمام أحمد، وقدّم للمذهب خدمات جيدة من خلال مؤلفاته الفقهية، وعلى رأسها كتابه القيم «أعلام الموقعين» الذي جدد فيه أصول مذهب الإمام أحمد.

وقد حقق فقهاء هذا المذهب نقلة نوعيّة رائعة وبخاصة في أواخر القرن السابع الهجري، حيث كان أتباع هذا المذهب يجدون عنتاً ومضايقة من المتعصبين للمذاهب الأخرى، ويسمونهم بالحشوية، حتى استطاع علماء هذا المذهب أن يحققوا له انتصاراً كبيراً في مجال انتشاره بين الناس، وإقبال العلماء عليه، وانتشرت مدارس الحنابلة في دمشق حتى عدّ لهم النعيمي إحدى عشرة مدرسة. من أبرزها الجوزية والصدرية والضيائية والعمرية والصاحبية[2].

هذا بالإضافة إلى دار الحديث السكرية التي كانت تعد بمثابة مدرسة حنبلية، لأن كل الشيوخ الذين تعاقبوا عليها من الحنابلة. يقول الأستاذ السنباطي: «وقد تشكلت من أفواج المتخرجين من مدارس الحنابلة ما يمكن أن يقال عنه عصبة لها شخصيتها المعنوية الخاصة، ولهذه الشخصية معالم وميزات طبعت بها آراء في الفقه والعقائد، واصطبغ بها تفسيرها لآيات القرآن الكريم، ومن أبرز هذه المعالم منهج الحنابلة الذي اشتهروا به، وهو تركيز اهتمامهم على استنباط الأحكام الفرعية من النصوص، ثم يطبقون هذه الطريقة

---

(١) انظر: بدائع الفوائد: ١/١٠١.

(٢) انظر: الدارس في تاريخ المدارس، النعيمي: ٢/٢٨ ـ ١١٥.

في دراستهم للعقائد، وعند تفسيرهم لآيات الكتاب الكريم أو السنة المطهرة»[1]. ثم إن المدرسة الحنبلية التزمت مذهب السلف في فهمها لقضايا العقيدة الإسلامية.

وكان على ابن القيم الذي انتمى إلى هذه المدرسة، وأدرك صحة منهجها أن يقوم بتوضيح عقيدة السلف، والرد على المخالفين لها، ونجد ذلك في كتبه واضحاً، ويحتل مساحات شاسعة من مؤلفاته سواء ما كان من ذلك في بيان عقيدة السلف، أو ما كان في الرد على الفرق المنحرفة كالجهمية وغيرهم.

*** شيخه ابن تيمية:**

وقد تحدثنا عن علاقته مع شيخه ابن تيمية، ولكن الذي يهمنا في هذا الموضوع هو أن هذه العلاقة كان لها أثر كبير في تكوين شخصية ابن القيم، وكان أثر ابن تيمية على ابن القيم يختلف عن أثر غيره من شيوخ ابن القيم.

ولا يشك أحد في بروز لمسات شيخ الإسلام على تلميذه ابن القيم، كيف لا وقد لازمه مدة لا تقل عن ستة عشر عاماً، وجد فيها ابن القيم نفسه أمام شخصية مليئة بالنشاط العلمي، ليس أدل من ذلك على مؤلفات ابن تيمية التي زادت على مائة وخمسين كتاباً، وهي مليئة بالمحن والمواقف القوية الصلبة التي تدل على عمق إيمان صاحبها.

كان لهذا أثره الكبير في شخصية ابن القيم العلمية، فقد حاول ابن القيم أن يتتبع خطى شيخه في كثرة التأليف وفي الرد على المنحرفين، من المبتدعين والزنادقة، كما أنه أثر عليه في انتهاج مذهبه السلفي، وهذا المذهب بلا شك نهج له أصوله الثابتة ومعالمه الواضحة.

***

(١) انظر: ابن القيم ومنهجه في التفسير، السنباطي: ص٣٩.

(٢)
معالم ثقافته

برزت ثقافة ابن القيم في شتى المجالات، ونجد المترجمين لحياته يصفونه بالمفسر، وبالمحدث، وبالفقيه الأصولي، وبالمتكلم، وباللغوي، وغير ذلك، ويعترفون بعلمه الغزير في كل هذه الموضوعات[١].

وبالفعل فقد ألف ابن القيم رحمه الله في كل هذه الموضوعات، وكانت مؤلفاته مراجع معتمدة في هذه العلوم، فقد تعمق فيها، وكانت له شخصيته الثقافية المستقلة ومنهجه الخاص في ذلك.

(أ) ابن القيم المفسر:

ففي مجال التفسير لم يكتف ابن القيم بتفسير الآيات التي وردت كشواهد في كتبه، والتي جُمع معظمها في «التفسير القيم»، وإنما ارتقى ابن القيم لأن يكون مفسراً حقاً، وإن لم يؤلف تفسيراً متكاملاً للقرآن الكريم[٢].

كان مفسراً لأنه كان صاحب منهج فريد في التفسير، وقد استطاع الأستاذ محمد أحمد السنباطي أن يوضح معالم هذا المنهج في كتابه المعروف: «منهج ابن القيم في التفسير» هذا المنهج الذي سلكه ابن القيم، اختطّه من بعده جهابذة وأعلام في المشرق

---

(١) انظر: ذيل طبقات الحنابلة، ابن رجب: ٢/٤٤٨.

(٢) سبقت الإشارة إلى أن ابن القيم تمنى أن يخرج تفسيراً متكاملاً، فقال عند ختام تفسيره لسورة الإخلاص: «وعسى الله المنان بفضله... أن يعين على تعليق تفسير على هذا النمط وهذا الأسلوب» ثم يقول: «وقد كتبت في مواضع متفرقة من القرآن بحسب ما يسمح من هذا النمط وقت مقامي بمكة وبالبيت المقدس والله المرجو إتمام نعمته» انظر: بدائع الفوائد: ١/١٤١.

والمغرب من عرب وعجم، وكان هذا المنهج متميزاً بطابع شخصيته العلمية مع احتفاظه ببعض حلقات الارتباط بمدرسته السلفية الحنبلية وبأستاذه الإمام ابن تيمية(١).

وقد تحدث الأستاذ السنباطي بالتفصيل عن هذا المنهج الذي سلكه ابن القيم، وذكر أسس هذا المنهج، ومنها:

١ ـ **إبراز الوحدة الموضوعية المتكاملة للسورة القرآنية**: ويعتبر ابن القيم في هذا المجال رائداً للمدرسة الحديثة التي تهتم بأن تقدّم أمام تفسير السورة الإطار العام للأهداف السامية التي جاءت السورة لتعالجها والربط بين أجزاء هذه السورة.

٢ ـ **تصدير النص القرآني كأصل للمعاني، وأولويّة تفسيره بالنص**: فابن القيم يحاول أن يعود باللفظ القرآني إلى معناه الأصلي في اللغة، ذلك المعنى الذي كان مستعملاً به في العصر الأوّل.

وبعد استقصاء هذه المعاني التي يمكن أن تراد من اللفظ، ينسق المعاني التي توصّل إليها من استقرائه، ويلائم بينها، وبين المعاني السابقة على اللفظ، والمعاني اللاحقة له في النص القرآني، ليتمكن من استخلاص المعنى الحقيقي الذي يقصد إليه السياق القرآني.

وابن القيم بهذه الطريقة يهدف إلى أن يكون النص أصلاً لجميع المعاني التي يمكن أن تستقى منه، كما يهدف إلى ضرورة أن تتكون المذاهب وتصطبغ الأفكار الإسلامية تبعاً للمعاني السليمة التي يمكن أن يدلي بها النص، لأنه ينبغي أن يكون هو المنطلق للمفاهيم الإسلامية.

٣ ـ **تفسير القرآن بالقرآن أو بالسنة**: فما أجمل في موضع قد يكون مفصلاً في موضع آخر، وما ذكر عاماً هنا قد يكون مخصصاً هناك، فإن لم يجد المعنى في القرآن لجأ إلى السنة فإنها في الغالب شارحة للقرآن.

٤ ـ **عنايته بدراسة الصياغة القرآنية**: وذلك بإبراز ما يتضمنه النظم القرآني من معان بلاغية ومفاهيم دقيقة، وبالغوص في أعماق التراكيب العربية لكشف خفايا هذا النص وأسراره التي جعلته موطن الإعجاز.

---

(١) انظر: مقدمة السنباطي لكتابه «منهج ابن القيم في التفسير»: ص ٩.

ويساعد ابن القيم على ذلك طول باعه وسعة اطلاعه في مجال اللغة.

٥ ــ **اهتمامه بذكر القراءات المختلفة**: التي يرتبط بها معنى الآية، والاهتمام بالجانب النحوي لاختيار الرأي الإعرابي الذي يناسب المعنى الذي رآه.

٦ ــ **في تفسير آيات الصفات والأفعال**: يعتمد أسس مذهب السلف في فهم هذه النصوص، ويقوم منهجه في ذلك على إثبات صفات الكمال لله تعالى حسبما وصف به نفسه، أو وصفه به نبيه ﷺ، ونفي ما نفى سبحانه عن نفسه أو نفاه عنه نبيه ﷺ.

٧ ــ **إعراضه الكامل عن الإسرائيليات**.

هذه هي الأسس التي يقوم عليها منهج ابن القيم رحمه الله في التفسير، وقد ذكرها الأستاذ السنباطي في كتابه، وقدّم الأمثلة من تفسير ابن القيم عند كل أساس من هذه الأسس، مما لا مجال لذكره هنا[١]، وهي بلا شك أسس قيمة تدل على مدى ما وصل إليه ابن القيم في هذا المجال، وتجعله صاحب مدرسة في التفسير، استفاد منها كثير من المفسرين من بعده.

(ب) ابن القيم المحدث:

اهتمام ابن القيم بالحديث لا يحتاج إلى دليل أو برهان، فالأدلة من الكتاب والسنة معتمده في كل آرائه وهي سمة بارزة له في كل مؤلفاته.

لذلك كان على ابن القيم أن يتضلع في علم الحديث، وكان فعلاً كذلك.

وهو يعتبره علماً ضرورياً لا فلاح لأحد إلاّ به، ويذكر ذلك في مقدمة كتابه «تهذيب مختصر سنن أبي داود» فيقول: (. . . فإن أولى ما صرفت إليه العناية، وجرى المتسابقون في ميدانه إلى أفضل غاية، وتنافس المتنافسون فيه، وشمّر إليه العاملون، العلم الموروث عن خاتم المرسلين، الذي لا نجاة لأحد إلاّ به، ولا فلاح له في داريه إلاّ بالتعلق بسببه. . . فالوصول إلى الله وإلى رضوانه بدونه محال، وطلب الهدى من غيره هو عين الضلال. . .)[٢].

---

(١) انظر: منهج ابن القيم في التفسير، محمد السنباطي: ص ٨١ ــ ١٥٩.

(٢) انظر: تهذيب مختصر سنن أبي داود: ١/١٩. المطبوع على هامش عون المعبود، شرح سنن أبي داود، لأبي الطيب العظيم آبادي، تحقيق عبد الرحمن محمد عثمان.

وكتاب ابن القيم هذا لم يقتصر على الاختصار والتلخيص لمختصر المنذري بل تعقب على أحاديثه، ولم يسلم بحكم أبي داود أو المنذري على سنده بل دقق وحقق وعقب.

وقد لخص ابن القيم عمله في كتابه بقوله: (... فهذبته على نحو ما هذّب هو (المنذري) به الأصل، وزدت عليه من الكلام على علل سكت عنها أو لم يكملها، والتعرض إلى تصحيح أحاديث لم يصحّحها، والكلام على ستين مشكلة لم يفتح مقفلها، وزيادة أحاديث صالحة في الباب لم يشر إليها، وبسطت الكلام على مواضيع جليلة، لعل الناظر لا يجدها في كتاب سواه، فهي جديرة بأن تثنى عليها الخناصر، ويعض عليها بالنواجذ)(1).

وبالجملة، فإن القارىء لكتاب ابن القيم هذا يجد اهتمامه بالمتن والسند معاً، فهو يورد في شرحه لفتات جميلة في المعنى ويتحدث عن سند الحديث مصححاً أو مضعّفاً بكلام طويل يدل على مدى اطلاعه الواسع على علم الحديث.

وإذا رجعنا مثلاً إلى زاد المعاد، وقد رتب فيه أبواب الفقه، وبين هدي رسول الله ﷺ فيها، وجدنا أنه عندما يتعرّض لآراء الأئمة والعلماء في المسألة الفقهيّة يستعرض أدلتهم التي استندوا إليها، ثم يستخدم علمه في الحديث عند معارضته لرأي ما.

فعند حديثه عن صلاة الضحى واستعراضه آراء العلماء المختلفة في حكمها، وذكر أدلتهم، يرجح رأي القائلين بأنّها سنّة يكره الدوام عليها. ويعتمد في حكمه على ما رجحه من الأحاديث الدالة على هذا القول، ويرد الأحاديث الأخرى، ويبيّن الضعيف منها والموضوع. فيقول: ومن تأمل الأحاديث المرفوعة وآثار الصحابة وجدها لا تدل إلّا على هذا القول.

أما الأحاديث الدالة على المداومة عليها فيقول عليها: وعامة أحاديث الباب في أسانيدها مقال، وبعضها منقطع وبعضها موضوع لا يحل الاحتجاج به، ويعقب على

---

(1) انظر: تهذيب مختصر سنن أبي داود: ١/٢٤ ــ ٢٥. المطبوع على هامش عون المعبود شرح سنن أبي داود، لأبي الطيب العظيم آبادي، تحقيق عبد الرحمن محمد عثمان.

حديث رواه الحاكم في مستدركه فيقول بعد بيان أنه موضوع: فيا عجباً للحاكم كيف يحتج بهذا وأمثاله[1].

وأخيراً لا بد من الإشارة إلى أن ابن القيم رحمه الله له كتاب خاصّ في هذا الباب وهو كتابه «المنار المنيف في الصحيح والضعيف» وهو في كل حديث ضعيف يبين سبب ضعفه من خلال سنده.

(ج) ابن القيم الفقيه الأصولي:

ابن القيم فقيه حنبلي، أعجب بمذهب الإمام أحمد، إلاّ أنه لم يتقيّد به تَقَيُّدَ المتعصبين للمذاهب، الذين أعرضوا عن الدليل واكتفوا بقول الأئمة، وتعصب بعضهم لقول إمامه حتى لو خالف الحديث الصحيح.

ولذلك فإن ابن القيم رغم إعجابه الشديد بمذهب الإمام أحمد إلاّ أنه خالفه في بعض المسائل، وعلى رأس هذه المسائل المسألة المشهورة (طلاق الثلاث).

لقد بلغ ابن القيم رحمه الله مرتبة الاجتهاد، وقد وصفه كثير من مترجميه بالمجتهد المطلق[2].

وهذا صحيح لا شك فيه، ولا يتناقض مع كونه فقيهاً حنبلياً، لأنه ما قبل مسألة من فقه الإمام أحمد إلاّ بعد دراستها ومعرفة موافقتها للدليل.

هذا بالإضافة إلى أنه كان له باع طويل في الفقه فقد أفتى ودرّس، وكتب مؤلفات كثيرة في الفقه ذكرناها عند الحديث عن مؤلفاته.

واتسمت هذه المؤلفات الفقهية باعتمادها على الأدلة من الكتاب والسنّة، كما برزت فيها مقدرة ابن القيم على فهم النصوص وحسن الاستنباط منها. أما في الأصول فيكفي دليلاً على تبحّره في هذا العلم كتابه (أعلام الموقعين).

---

(١) انظر: زاد المعاد: ١/٣٥٧ ـ ٣٥٨.

(٢) انظر: البدر الطالع، الشوكاني: ٢/١٤٣؛ وانظر: شذرات الذهب: ٦/١٦٨.

(د) ابن القيم اللغوي:

أتيح لابن القيم رحمه الله أن يتلقى علم العربية على يدي كبار علماء النحو واللغة في دمشق، وقد ذكرنا اثنين من أشهر شيوخه في هذا الموضوع، قرأ عليهما أشهر كتب النحو المعتمدة آنذاك، الأوّل: أبو الفتح بن أبي الفضل البعلي، وقد ذكر الصفدي[1] أن ابن القيم أخذ عنه العربية، فقد قرأ عليه كتاب الملخص لأبي البقاء، ثم قرأ الجرجانية (وهي كتاب الجمل في النحو لعبد القاهر الجرجاني)، كما قرأ عليه ألفيّة ابن مالك وأكثر الكافية الشافية وبعض كتاب التسهيل لابن مالك.

وابن مالك هو إمام النحاة في عصره، وقد توفي سنة ٦٧٢هـ في دمشق[2] وهو من العلماء الذين نالت كتبهم حظوة كبيرة عند الناس منذ عصره وحتى يومنا هذا.

أما الشيخ الثاني الذي أفاد منه ابن القيم في هذا الباب فهو مجد الدين التونسي المتوفى سنة ٧١٨هـ، وكان شيخ النحاة والبحاثين كما قال صاحب الشذرات[3].

وقد ذكر الصفدي أن ابن القيم قرأ قطعة من كتاب المقرّب؛ وهو كتاب في النحو لابن عصفور النحوي المتوفى سنة ٦٦٣هـ[4].

فاطلاع ابن القيم على هذه الكتب التي تعدّ أمهات المراجع في العربية، وتلمذته على هذين الشيخين العريقين في هذا العلم وعلى غيرهما من الشيوخ جعل عنده ثراء كبيراً في هذا الميدان.

وتظهر مقدرة ابن القيم اللغوية واضحة من خلال أسلوبه في مؤلفاته حيث تظهر عبارته القويّة وتركيباته الرائعة.

والقارىء لكتاب بدائع الفوائد يجد المعلومات اللغوية الهائلة التي تضمنها هذا الكتاب، والتي تدل على العلم الوافر لصاحبها.

وقد استطاع الدكتور أحمد ماهر البقري في كتابه «ابن القيم اللغوي» أن يطلعنا

---

(١) انظر: الوافي الوفيات، الصفدي: ٢/ ٢٧١.
(٢) انظر: البداية والنهاية: ١٣/ ٢٦٧.
(٣) انظر: شذرات الذهب: ٦/ ٤٧.
(٤) انظر: الوافي بالوفيات، الصفدي: ٢/ ٢٧١.

على مجالات الإبداع عند ابن القيم في هذا الموضوع، وأن يثبت لنا أن ابن القيم كان عالماً لغوياً، وإن لم تبرز شهرته وتكثر مؤلفاته في هذا المجال، كما عرفت مؤلفاته في مختلف موضوعات العلوم الإسلامية، ولعل السبب في ذلك هو أن ابن القيم كان يعتبر دراسة اللغة وسيلة لفهم نصوص الكتاب والسنّة، وخدمة للعلوم الإسلامية، وجعل مجالها التطبيقي، النصوص القرآنية والأحاديث النبوية[1]. وإذا كان الأصولي لا بد له من إلمامة باللغة، فإن ابن القيم كان إماماً مجلياً في كل من الأصول واللغة على السواء.

ولا يتسع بنا المقام هنا للحديث المطوّل عن لغوية ابن القيم، فقد تحدث الدكتور البقري عن هذا الموضوع مفصلاً، وبين أن لابن القيم لفتات لغوية وبلاغية شملت أصول النحو وفرعيّاته.

ونجد من المناسب أن نشير إلى منهج ابن القيم في اللغة، فقد ذكر الدكتور طاهر حمودة أن لابن القيم في درس اللغة منهجاً خاصاً متميزاً. ومن أشهر ميزات هذا المنهاج[2].

١ ــ حاول وصل اللغة بالحياة، بمعنى أن دراسة ابن القيم للغة استطاع استخدامها في العلوم المختلفة، تؤثر فيها، وتتأثر بها.

٢ ــ إدراكه وجوب الربط بين فروع الدرس اللغوي والاستعانة بكل منها على فهم الآخر، مع الاستعانة بها جميعها في سبيل الوصول إلى المعنى.

٣ ــ محاولة وصل أفكار علماء الأصول بأفكار اللغويين.

٤ ــ إدراكه الواعي لوظيفة النحو بخاصة واللغة بعامّة وأهميّتها في فهم النصوص، وذلك يتمثل في تسخيره المعنى، واستثماره في خدمة التحليل النحوي المسمى بالإعراب، لا سيما في كتابه (بدائع الفوائد).

هذه الخصائص تدلنا على المقدرة الفائقة التي وصل إليها ابن القيم في مضمار

---

(١) انظر: ابن القيم اللغوي، البقري: ص ٥٩.

(٢) انظر: ابن القيم وجهوده في الدرس اللغوي، د. طاهر حمودة: ص ٦٧ ــ ٧٢.

اللغة العربية، وهذا المنهج في الحقيقة هو الذي يهمنا في الدراسة الشرعية، بل هو الغاية الرئيسة في اهتمامنا بالدرس اللغوي.

(هـ) ابن القيم حارس عقيدة أهل السنّة:

مع أن بعض المترجمين لابن القيم يصفونه بالمتكلم[1] إلا أنني ما أحببت أن أعطيه هذا الوصف لأن موقف ابن القيم من علم الكلام معروف، فهو يريد للعقيدة الإسلامية أن تعود إلى فهم السلف الصالح، قبل أن تختلط بشوائب علم الكلام.

ومن الخطأ الشائع عند كثير من المصنفين إطلاق علم الكلام على كل ما يتعلق بالعقيدة الإسلامية، أو الرد على خصومها من أصحاب الأهواء والملل المختلفة.

أما هذه الموضوعات فقد كان ابن القيّم فارسها، فقد كتب في الأصلين، واهتم كثيراً في علم أصول الدين، وقد سار على نهج شيخه ابن تيمية في العقيدة، فكانت عقيدته وفق عقيدة السلف التي حاول جاهداً إبرازها والدفاع عنها في مؤلفاته التي ذكرناها.

لقد عرف ابن القيم بقوّة حجّته، وبترتيب أدلته التي يدليها أمام خصمه.

وقد فرض عليه العصر الذي عاشه أن يكتب في هذا الموضوع كثيراً.

لقد أدى دخول التتار البلاد الإسلامية إلى احتدام الصراع المذهبي بين الشيعة والسنة، وقد رأينا موقف الوزير ابن العلقمي في مؤامرة تسليم بغداد، كما رأينا استعانة الفاطميين بالفرنجة ضد السلاجقة، وهذه الأحداث من شأنها إظهار الخلافات، ولذلك رأينا اهتمام ابن القيم بالكتابة حول هذا الموضوع؛ فكان كتابه: الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة، وكتابه: اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية.

كما لاحظنا موقف النصارى الحاقد عند دخول المغول إلى العالم الإسلامي، وكيف أن النصارى تعاونوا مع هولاكو والذي أعطاهم وثيقة أطلق فيها الحريّة لهم، ودخلوا دمشق يرفعون الصليب ويخطبون ضد الإسلام.

---

(١) انظر: شذرات الذهب: ٦/١٦٨؛ ومعجم المؤلفين: ٩/١٠٦.

وهـذه الأجواء أيضـاً كان لهـا علاقـة وثيقة في اهتمـام ابن القيم لأن يكتب في الرد على اليهود والنصارى كتابه الذي بين أيدينا، وكتابه إغاثة اللهفان الذي احتل فيه الحديث عن اليهود والنصارى مساحة لا بأس بها.

لقد كان لابن القيم ولشيخه ابن تيمية من قبله أثر كبير وفضل لا شك فيه على إحياء عقيدة السلف، في عصر كثر فيه متعصبو المذاهب وكثـرت فيه الفـرق الضالـة، وبخاصـة الفرق الباطنية من الإسماعلية والقرامطة وغيرهـم ممن سمّاهـم ابن القيـم بالمعطلة، والنفاة، لأنّ مذهبهم كان يتضمن نفي صفات الله تعالىٰ.

***

(٣)
ميـزات منـهـجـه العـلـمي

كان ابن القيم رحمه الله صاحب أسلوب متميّز في منهجه العلمي، يظهر جليّاً في مؤلفاته المتنوعة، التي برزت من خلالها شخصيّته العلميّة القائمة على التحرُّر في التفكير وذم التقليد، وقد أتاحت له سعة اطلاعه على التعرّف على أقوال الأئمة والعلماء في كل مسألة كان يتعرّض لها، لكنه كان يناقش أقوال هؤلاء الأئمّة دون أن يتعصّب لمذهب معيّن، وإنما يسير تبعاً للأدلة. ولا شك أن للمدرسة السلفيّة التي كان ابن القيم أحد أعمدتها في ذلك العصر أثراً بارزاً في صياغة هذه الشخصية العلمية.

ونستطيع باطلاعنا على مؤلفات ابن القيم أن نتعرّف على ميزات منهجه في التأليف والبحث، ونتعرف كذلك على ميزات أسلوبه في عباراته وهو حقيقةً مبدعٌ من الوجهتين.

ميزات منهجه في التأليف والبحث:

١ ـ إبراز الأدلة من الكتاب والسنّة:

ويتضح أثر عناية ابن القيم بالنصوص الشرعية في طريقة عرضه للأبحاث الفقهية، حيث يعنى غاية العناية بحشد النصوص الشرعية المتصلة بالموضوع، ويتحرى صحة ما ورد فيها من السنّة، ويقوم بالترجيح بين هذه النصوص إذا كان ثمة تعارض(١).

وقد كان هذا المنهج الذي استقاه ابن القيم من شيخه ابن تيمية، وتعود جذوره إلى الأصول التي وضعتها المدرسة السلفية الحنبلية، كان هذا المنهج مخالفاً لكثير من فقهاء ذلك العصر الذين تعصبوا لمذاهبهم، واهتموا بالأدلة المنطقية والمناقشات الجدلية.

كان ابن القيم يتابع هذه الأدلة ويقوم باستقصائها دون تعصب لرأي سابق عليها،

(١) انظر: ابن قيم الجوزية، د. طاهر حموة: ص ٥٧.

لأن المنهج الخاطىء الذي مارسه كثير من المؤلفين يقوم على وضع الرأي قبل معرفة النصوص، وبعد أن يقرر رأيه يبحث بين النصوص عما يؤيد الرأي الذي قرّره.

٢ ــ التعمّق في البحث وطول النفس:

فلا يطرح فكرة إلّا ويشبعها بحثاً، ويقدّم لها من الأدلة النقلية والعقلية ما يتركها أمام القارىء حقيقة لا مراء فيها، وقد شهد له ابن حجر بذلك فقال: «وهو طويل النفس فيها يعاني الإفصاح جهده فيسهب جداً»[١].

ويدل هذا التعمق على السعة والشمول، وكثرة الاطلاع عند ابن القيم، وقد كان يفرد الكتاب الكامل للمسألة الواحدة، ويتضح هذا من عناوين كتبه.

٣ ــ الأمانة العلميّة والدقة في النقل:

قلّ من المؤلفين السابقين من اهتم بمسألة التوثيق وعزو كل قول إلى صاحبه، ذلك لأن المسألة لم تكن في نظر أولئك العلماء تعدو نشر العلم للناس ليستفيدوا منه بغضّ النظر عن قائله.

لكن مؤلفات ابن القيم تشهد على اهتمامه ــ في الغالب ــ بهذه المسألة.

فبالنسبة للأحاديث النبويّة قلّ ما يورد حديثاً بغير مخرجه.

وكذلك الأمر بالنسبة لأقوال العلماء التي ينقلها، يذكر اسم أصحابها أو أسماء الكتب التي تحويها، وسنبين عند الحديث عن مصادر كتاب هداية الحيارى أسماء الكتب التي ذكرها ابن القيم كمصادر نقل منها في كتابه، وهو إذا لم يذكر اسم الكتاب فإنّه على الأقل يذكر صاحب القول.

٤ ــ حسن الترتيب وجودة التأليف:

حتى إن البعض اعتبرها في هذه الميزة تفوق كتب شيخه ابن تيمية[٢].

٥ ــ الاستطراد التناسبي:

والاستطراد هو أن يمسك الباحث عن الاسترسال في صلب الموضوع الذي يتناوله

---

(١) انظر: الدرر الكامنة: ٤/٢١.

(٢) من هؤلاء الأستاذ الندوي في كتابه: رجال الفكر والدعوة في الإسلام: ص ٣١٨.

إلى موضوعات أخرى ثم يعود إلى موضوعه[1].

ولئن كان البعض يعتبرون الاستطراد عيباً من عيوب التأليف إلّا أنه في الحقيقة دليل على سعة العلم والاطلاع، وهو محاولة من المؤلف لتشويق القارىء، وإفادته، وبخاصة إذا كان الاستطراد متناسباً مع الموضوع.

وفي كتاب هداية الحيارى ـ الذي بين أيدينا ـ برزت هذه الخاصية لابن القيم، فعند الرد على شبهة أخذ العلم عن الصحابة ومعظمهم من العوام، أسهب في حديثه عن فضل الصحابة وعلمهم، وكتب ما يصلح أن يكون رسالة خاصة في هذا الموضوع، وعند حديثه عن بشارات الكتب السابقة بنبوّة محمد ﷺ يستطرد إلى تفصيل ما ذكرته كتب أعلام النبوّة من البشارات والنبوّات والروايات الواردة في ذلك.

والجدير بالذكر أن ابن القيم لم يفعل ذلك عن سهو أو غفلة بل يقصده، وينبّه إليه في بعض الأحيان، ففي كتابه «الروح» عند حديثه عن الفرق بين النفس الأمارة والنفس المطمئنة يستطرد في ذكر جملة من الفروق الشرعية، ثم يقول: وهذا باب من الفروق مطوّل، ولعله إن ساعد القدر أن نفرد فيه كتاباً كبيراً... ولا تستطل هذا الفصل فإنه من أنفع فصول الكتاب والحاجة إليه شديدة[2].

وتكثر مثل هذه الاستطرادات في كتابه «بدائع الفوائد» ومن ذلك ما حصل معه عند حديثه عن وجه تقديم بعض الكلام على بعض في الذكر الحكيم، فقد استطرد للحديث عن معنى السمع والبصر بعد الإسهاب في سبب تقديم السمع على البصر، ثم قال: «ولا تستطل هذا الفصل فإنّه أهم قصد بالكلام، فليعد إليه»[3].

٦ ـ الاقتباس:

والاقتباس هو أن يدخل المؤلف في كلامه بعض كلام غيره وأكثر ما يكون من كلام الله وكلام رسول الله ﷺ.

ويلاحظ هذا الأسلوب في كتابات ابن القيم، وبخاصة في مقدمات كتبه، ونلاحظ

(١) انظر: ابن القيم من آثاره العلمية، أحمد البقري: ص ٢١٩.

(٢) انظر: الروح، ابن القيم: ص ٢٦٠.

(٣) انظر: بدائع الفوائد: ١/٧٣.

الكثير منها في كتابه «هداية الحيارى»[1] فانظر إلى عبارته مثلاً: «وكيف لا يميّز من له أدنى عقل يرجع إليه بين دين قام أساسه وارتفع بناؤه على عبادة الرحمن. . . وبين دين أسس بنيانه على شفا جرف هار، فانهار بصاحبه في النار». وهذا اقتباس واضح من القرآن الكريم.

كما استعمل ابن القيم الاقتباس من السنة النبوية وفي نفس كتاب «هداية الحيارى»، وذلك عند حديثه عمّن رضي بالتثليث ديناً حيث يقول عنه: «وإذا سئل في قبره من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟ قال آه آه لا أدري، فيقال له: لا دريت ولا تليت. . .».

ثم يكمل مضمناً من القرآن الكريم: «فإذا بعثر ما في القبور وحصّل ما في الصدور وقام الناس لرب العالمين، ونادى المنادي: وامتازوا اليوم أيها المجرمون».

وتدل هذه الاقتباسات على محفوظات ابن القيم الكثيرة، فهو يقتبس من القرآن والسنة والشعر والأمثال والأقوال المأثورة[2].

٧ ـ الشواهد الشعريّة:

ابن القيم شاعر عريق وإن لم يكتب ديواناً خاصاً له، والسبب في ذلك هو أنه لم يتخذ الشعر صنعة له، بل استخدمه في تبسيط علمه وسرد أفكاره، ومن أكبر الأدلة على مقدرته الشعرية قصيدته النونية المعروفة التي بلغت أبياتها ما يقارب ستة آلاف بيت، هذا بالإضافة إلى أشعار كثيرة غيرها له.

ومن خلال مؤلفات ابن القيم يظهر أنه كان يحفظ كثيراً من الشعر، تجده في ثنايا كتبه يستخدمه كشواهد شعرية لتوضيح المعاني اللغوية في الغالب، أو يستعمله بديلاً عن المثل في حالات أخرى.

٨ ـ ضرب الأمثال:

ولابن القيم كتاب خاص في أمثال القرآن، وقد ظهر ذلك في أسلوبه بالكتابة أيضاً، فكثيراً ما يستعير الأمثلة لتوضيح كلامه.

---

(١) انظر: مقدمة المؤلف لكتاب هداية الحيارى.

(٢) انظر: ابن قيم الجوزية، د. طاهر حمودة: ص ٥٩.

ففي كتـابه روضـة المحبين يقول: «إن الحـديد إذا لم يستعمـل غشيه الصـدأ حتى يفسده، كذلـك القلب إذا عطل من حبّ الله والشـوق إليه وذكـره غلبه الجهـل حتى يميته ويهلكه»(١).

٩ ــ عذوبة اللفظ وقوة البيان:

وهذا ما شهد له به الشوكاني حيث يقول عنه: «وله من حسن التصـرف مع العـذوبة الزائدة وحسن السياق ما لا يقدر عليه غالب المصنفين بحيث تعشق الأفهام كـلامه ويمثـل إليه الأذهان وتحبه القلوب»(٢).

١٠ ــ براعته في الجدل وفنّ النقاش:

فهو يبسط آراء مخالفيه ويبدأ بالرد عليها رأياً رأياً يفندها بالأدلة والبراهين.

أما عبارة ابن القيم فأهم ما تتميّز بـه أنها تجمع بين الوضوح والقـوة، فأسلوبـه بعيد عن العبـارة الفاحصـة والكلمات الغـريبة، حتى أنني لاحـظت من خلال كتـابه الـذي بين أيـدينا، أن معـظم الكلمـات التي احتـاجت الـرجـوع إلى قـواميس اللغـة ــ وهي قليلة ــ معظمها مما نقله عن غيره.

ومـما لاحظتـه على عبارتـه أنه يستعمـل المحسنات اللفـظيـة كـالسجـع والجنـاس والطباق، وبخاصة في مقدمات كتبه، وقد ظهر ذلك كله في مقدمة هـداية الحيـارى، وفي معظم كتبه كذلك، لكنه قلما يستعمل هذه المحسنات في صلب موضوعه وفي معرض ردّه ونقاشه.

***

---

(١) انظر: روضة المحبين: ص ١٦٧.

(٢) انظر: البدر الطالع: ٢/١٤٣.

الباب الثاني
كتاب هداية الحيارى
في أجوبة اليهود والنصارى

الفصل الأول (إثبات نسبة هذا الكتاب إلى ابن القيم):

(١) من مؤلفات ابن القيم.

(٢) من كتب المترجمين لحياة ابن القيم.

الفصل الثاني (موضوع الكتاب وأسلوبه وسبب تأليفه).

الفصل الثالث (مصادر الكتاب).

الفصل الرابع (وصف مخطوطات الكتاب).

الفصل الخامس (أهمية الكتاب).

(١) جوانب أهميته.

(٢) مقارنة بين هداية الحيارى وبين بعض المؤلفات في نفس الموضوع.

الفصل الأول
إثبات نسبة هذا الكتاب إلى ابن القيم

(١)
مـن مؤلفات ابن القـيم

لقد أشار ابن القيم إلى كتابه هداية الحيارى في كتبه مصرحاً باسم هذا الكتاب.

ففي كتابه أحكام أهل الذمة، أشار ابن القيم إلى كتاب هداية الحيارى عند حديثه عن مسألة الطريفا من الذبائح، وهو ما لصقت رئته بالجنب هل يحرم علينا لكونهم لا يعتقدون حله أم لا؟.

ويؤيد ابن القيم قول الجمهور بعدم تحريمه، لأن تحريمه إنما علم من جهة اليهود، لا بنص التوراة، فلا يقبل قولهم فيه، بخلاف تحريم ذي الظفر والشحوم المحرمة.

ثم قال: وقد ذكرنا في كتاب (الهداية) سبب هذا التحريم، ومن أين نشأ، وأن التوراة لم تحرمه، وأنهم غلطوا على التوراة في تحريمه، وذكرنا نص التوراة وأنهم حملوه على غير محله[1].

وبالفعل فقد فصلت مسألة الطريفا في هداية الحيارى.

فقد بين ابن القيم في هداية الحيارى أن الطريفا المحرمة هي الفريسة حيث نص

(١) أحكام أهل الذمة: ١/٢٦٧ ـ ٢٦٩.

التوراة: «ولحم في الصحراء فريسة لا تـأكلوا! للكلاب تـطرحونـه»[1] وأن المفهوم الـذي اختلقوه للطريفا، وهو ما لصقت رئته بالجنب، لم يؤخذ من التوراة، وإنمـا أخذ من كتـاب اختلقوه وسموه: «هلكت شحيطا» وتفسيره «علم الذباحة»[2].

وقد ذكر ابن القيم مسألة الطريفا أيضاً في إغاثـة اللهفان[3]، ويـلاحظ التشابـه التام في النص، وأنه استعمل في الإغاثة نفس العبارات التي استعملها في الهـداية، ممـا يؤكد نسبـة الهدايـة إلى ابن القيم. فالمسـألة مجملة في أحكـام أهل الـذمـة مفصلة في إغـاثـة اللهفان، وفي هداية الحيارى.

***

(١) سفر الخروج/ ٢٢.

(٢) انظر: ص ٤٧٠ من هذا الكتاب.

(٣) انظر: إغاثة اللهفان: ٢/ ٣٣٠ ــ ٣٣٣، تحقيق محمد حامد الفقي.

(٢)

من كتب المترجمين لحياة ابن القيم

لم يشر من المؤرخين لترجمة ابن القيم إلى كتابه هداية الحيارى، سوى صاحب كشف الظنون[١]، والبغدادي[٢]، وأحمد عبيد[٣] وأشار بقية المترجمين إلى كتابه «جوابات عابدي الصلبان» كما أسلفنا.

ويقيننا أن كتاب الجوابات هو نفس كتاب الهداية للأدلة التالية:

١ ـ لم يشر المترجمون الذين ذكروا كتابه الجوابات إلى كتابه هداية الحيارى، ولم يجمع بينهما ويعتبرهما كتابين إلا البغدادي في هدية العارفين، وهو كثير الوهم في ذلك، وقد أسلفنا أنه ذكر لابن القيم خمسة وستين كتاباً منها عشرة مكررة.

٢ ـ أن فهارس المخطوطات التي تسنى لي أن أطلع عليها ذكرت هداية الحيارى ولم تذكر الجوابات.

٣ ـ أن كتاب هداية الحيارى هو عبارة عن جوابات لسبعة أسئلة ذكرها ابن القيم وأجاب عن كل مسألة منها.

٤ ـ أن تعدد العناوين للكتاب الواحد مألوف عند كثير من المترجمين.

***

(١) انظر: كشف الظنون: ٢/٢٠٣٠.

(٢) انظر: هدية العارفين: ٢/١٥٨.

(٣) انظر: مقدمة روضة المحبين: ت.

الفصل الثاني

موضوع الكتاب وأسلوبه وسبب تأليفه

موضوع الكتاب محدد في عنوانه «في أجوبة اليهود والنصارى»، وقد احتوى الكتاب على ما يلي:

١ ــ **خطبة الكتاب**: وقد ذكر فيها ابن القيم الأديان التي كانت معروفة في الأرض عند بعثة محمد ﷺ، وسبب تأليفه لكتابه هذا.

٢ ــ **أجوبة المسائل**: أجاب المؤلف على سبعة أسئلة أوردها بعض الكفار الملحدين على بعض المسلمين، وكانت بمثابة شبهة يثيرونها. وهذه الأسئلة هي:

الأول: قد اشتهر عندكم بأن أهل الكتاب ما منعهم من الدخول في الإسلام إلا الرئاسة والمأكلة لا غير.

الثاني: هب أنهم اختاروا الكفر لذلك، فهلاّ اتبع الحق من لا رئاسة له ولا مأكلة إما اختياراً وإما قهراً.

الثالث: مشهور عندكم، أن نبيكم كان مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل، لكنهم محوه لسبب الرئاسة والمأكلة، والعقل يستشكل ذلك، أفكلهم اتفقوا على محو اسمه من الكتب المنزلة من ربهم شرقاً وغرباً وجنوباً وشمالاً؟.

الرابع: إن قلتم: إن عبد الله بن سلام وكعب الأحبار، وغيرهما شهدوا لنا بذلك من كتبهم فهلاّ أتى ابن سلام وأصحابه الذين أسلموا بالنسخ التي لهم كي تكون شاهدة علينا؟.

الخامس: إنكم نسبتم الأمّتين العظيمتين المذكورتين إلى اختيار الكفر على الإيمان

للغرض المذكور، فابن سلام وأصحابه أولى بذلك الغرض لأنهم قليلون جداً، وأضداده كثيرون لا يحصيهم عدد.

السادس: إنكم قد بينتم أكثر أساس شرائعكم في الحلال والحرام والأمر والنهي على أحاديث عوام من الصحابة، ليس لهم بحث في علم ولا دراسة ولا كتابة قبل مبعث نبيكم، وابن سلام وأصحابه أولى أن يؤخذ بأحاديثهم ورواياتهم لأنهم كانوا أهل علم وبحث ودراسة وكتابة قبل مبعث نبيكم وبعده، ولا نراكم تروون عنهم من الحلال والحرام والأمر والنهي إلا شيئاً يسيراً، وهو ضعيف عندكم.

السابع: نرى في دينكم، أكثر الفواحش فيمن هو أعلم وأفقه في دينكم، كالزنا واللواط والخيانة والحسد والبخل والغدر والتجبر والتكبر والخيلاء وقلة الورع واليقين، وقلة الرحمة والمروءة والحمية، وكثرة الهلع والتكالب على الدنيا والكسل في الخيرات، وهذا الحال يكذب لسان المقال.

وقد أجاب ابن القيم رحمه الله على هذه المسائل ورد هذه الشبهة بأسلوب مقنع وبتوضيح مفصّل.

٣ ـ **اليهود**: فرقهم، وتحريفهم.

٤ ـ **النصارى**: أصول عقائدهم وكيف دخلها التحريف، فرقهم واختلافاتها حول طبيعة المسيح عليه السلام، مجامعهم، ودورها في إقرار التحريف.

٥ ـ **نبوة محمد ﷺ**، أدلة ثبوتها، وأحوال المنكرين لها.

أسلوب هذا الكتاب:

لقد ظهر في هذا الكتاب أسلوب ابن القيم المميز وقد برزت من خلال هذا الكتاب الميزات الآتية:

١ ـ **التنسيق والترتيب**: ونجد ذلك في تقسيمه الكتاب فقد بدأ بخطبة الكتاب التي تعدُّ مدخلاً مناسباً للموضوع، ثم وضع أسئلة سبعة أجاب عن كل سؤال على حدة، وقد قسم كل إجابة إلى فصول يشير بكلمة (فصل) عند بداية كل موضوع جديد.

٢ ـ **تقديم البرهان المقنع والتوضيح المفصل**: انظر مثلاً إلى جوابه على السؤال

الثالث الذي يورد تشكيكاً على إمكانية اتفاق أهل الكتاب جميعاً على تحريف كتبهم، وأن هـذا الإجماع أمـر يستشكله العقل. حيث شغلت الإجـابة حيـزاً كبيراً ضمّ أكثـر من مائـة صفحة، أعطى فيها الأدلة الواضحة على وجود ذكره ﷺ في الكتب المتقـدمة وأثبت ذلـك بالأخبار التي ذكرها من أسلم منهم وبوجوه عقليـة. ثم بيّن اختلافـات كتبهم وتناقضـاتها، ممـا يدل على التحـريف والتبديـل فيها، وذكـر الأدلـة التي قـدمهـا القـرآن الكـريم على تحريفهم لكتبهم.

وبعـد ذلك تحـدث بتوسـع عن بشارات الكتب المتقـدمـة، حيث أشـار إلى تسعـة وثلاثين وجهاً، ذكرت تلك النبوءات والبشارات لنبوة محمد ﷺ.

ثم ذكـر الأحاديث الـواردة عن صفات محمـد ﷺ في التوراة والإنجيـل، واستوعب الروايات الواردة في كتب دلائل النبوة، حول هذا الموضوع.

ونجـد أسلوب الإقناع والتـوضيح في رده على بعض الشبهـات، ونراه يـورد الشبهة ويرد عليها رداً شـافياً، ومن ذلـك الشبه التي ذكـرها ممـا يوردهـا القوم للدلالـة على إلهية المسيح عليه السلام.

٣ ـ **الإبـداع في استخدام الشـواهـد والنصـوص**: وهـو لا يكتفي بـالنصـوص من الكتاب والسنة، بل يعرض للقوم أدلة من كتبهم يرد من خلالها على إفكهم وافترائهم.

٤ ـ **السهولة وعدم التعقيد في الألفاظ**: فلم يكن ابن القيم في كتابه هذا يميل إلى السجع أو إلى اختيار الألفاظ الصعبة والجمل المعقدة، فكانت عباراته قوية غير معقدة.

٥ ـ **التضمين والاقتباس**: وهما أسلوبـان بلاغيـان معروفـان، استعملهما ابن القيم في كتابه هذا وبخاصة في المقدمة.

٦ ـ **استعمال الشواهد الشعرية**: فقد ورد في الكتاب بعض الشواهد الشعريـة وإن كانت قليلة لم تتجاوز عشرين بيتاً.

سبب تأليف الكتاب:

يشير ابن القيم في مقدمة كتابه إلى سبب تأليفه له فيقول: (وكان انتهى إلينا مسائـل أوردهـا بعض الكفـار الملحـدين على بعض المسلمين، فلم يصـادف عنـده مـا يشفيـه،

ولا وقع دواؤه على الداء الـذي فيه، وظن المسلم أنـه بضربـه يداويـه، فسطا بـه ضربـاً، وقال: هذا هو الجواب. فقال الكافر: صدق أصحابنا في قولهم: إن دين الإسلام إنما قام بـالسيف لا بالكتاب، فتفرقا وهـذا ضارب وهـذا مضروب، وضـاعت الحجة بين الـطالب والمطلوب.

فشمر المجيب (ويقصد نفسه لأنه أجاب على تساؤلاتهم وشبههم) عن ساعد العـزم ونهض على سـاق الجد، وقـام لله قيام مستعين بـه مفـوض إليـه يتكـل عليـه في مـوافقـة مرضاته، ولم يقل مقال العجزة الجهـال: إن الكفار إنمـا يعاملون بـالجلاد دون الجـدال، وهذا فرار من الزحف وإخلاد على العجز والضعف.

فمجادلة الكفار بعد دعوتهم إقامة للحجة وإزاحـة للعذر ﴿ليهلك من هلك عن بينـة ويحيـي من حيّ عن بينة﴾.

والسيف إنما جاء منفذاً للحجة مقـوماً للمعـاند وحـداً للجاحـد ﴿لقد أرسلنـا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط. . .﴾).

ثم يقول: (وسميته «هـداية الحيـارى في أجوبـة اليهود والنصـارى» وضمنته أجـوبة المسائل، وتقرير نبوة محمد ﷺ بجميع أنواع الدلائل).

ويظهر من كـلام ابن القيم هذا أن العصـر كان لـه أثر ملمـوس في سبب تأليف ابن القيم لكتابه هـذا، وأثر الصليبيين لا زال لـه دوره على العامـة في المجتمع الإسـلامي في نفوس أهلها.

وكان على العلماء والمصنفين أن يعملوا على ردّ هـذه المفتريـات وتوضيـح العقيدة الإسلامية السليمة من كل الشوائب التي يحاول أعداء الإسلام دسّهـا على العقيدة النقيّـة، معتبرين أن عملهم هذا إقامة للحجّة وإزاحة للعذر، وقيام بواجب الحراسة للعقيدة.

***

الفصل الثالث
مصادر الكتاب

لدى قراءة هذا الكتاب نجد أن ابن القيم قد اعتمد مجموعة من المصادر استقى منها المادة العلمية التي جاء بها كتابه، وأنه قد اطلع على ما كتبه الذين سبقوه من علماء المسلمين في هذا الموضوع، وأنه رجع إلى نصوص أهل الكتاب، وسمع من بعضهم في مناظراته لهم، والتي أشار إلى إحدى هذه المناظرات بينه وبين أكبر من يشير إليه اليهود بالرئاسة والعلم في مصر.

وبالإضافة إلى ذلك يظهر من خلال الكتاب: أن ابن القيم كان يعرف اللغة العبرية، فقد ذكر بعض الجمل باللغة العبرية مثل «هلكت شحيطا» ومعناه «علم الذباحة».

ورد على تسميتهم للذبيحة التي تلصق بعض أطراف رئتها، باسم طريفا أي نجس حرام، بأن طريفا في العبرية تعني المفترسة، وعند حديثه عن اسم رسول الله ﷺ في التوراة يذكر بشارة «وأكثره بمود مود» ويقول إن البعض يقول: إن طائفة قالت: إن هذا صريح اسمه ﷺ، ويدل عليه أن ألفاظ العبرية قريبة جداً من ألفاظ العربية، وهي أقرب اللغات للعربية، وأخذ ابن القيم يورد بعض الكلمات العبرية التي يتشابه معناها بالعربية مع لفظها مثل شماعيل لإسماعيل، وقدشتخا لقدسك، ويسرائيل لإسرائيل، ويأتي بثلاث جمل عبرية كاملة، ويذكر معناها بالعربية، وتتشابه فيهما الألفاظ[1].

ومن أهم مصادر هذا الكتاب:

١ ــ **القرآن الكريم**، حيث استشهد كثيراً بآيات من القرآن الكريم.

٢ ــ **الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح**، لشيخه ابن تيمية.

---

(١) انظر: بتوسع ص ٤٧٠ من هذا الكتاب.

وقد استفاد ابن القيم من هذا الكتاب، ونقل عنه فصولاً كثيرة حرفياً، وبخاصة بشارات الكتب السابقة بنبوة محمد ﷺ، وقد أشرنا إلى مواضع نقله على هامش الرسالة. كما سنقوم بتوضيح الفرق بين الكتابين فيما بعد.

وكان يشير إليه أحياناً عند بعض نقوله عنه فيقول: قال شيخ الإسلام، وتعقّب بعض النسخ على ذلك فتقول: يعني ابن تيمية، ولعل هذا التعقيب من وضع الناسخ لا من كلام ابن القيم، ونقل عنه كثيراً دون الإشارة إليه.

كما أنه لم يذكر اسم الكتاب (الجواب الصحيح) إطلاقاً.

٣ ــ **الكتاب المقدس**: فقد حوى هذا الكتاب نصوصاً كثيرة من الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد وقد قمت بتخريجها وتوضيح أماكنها في الهامش.

هذه المصادر الثلاثة استفاد منها ابن القيم في معظم موضوعات كتابه. أما بقية المصادر فكانت مختصة بموضوعاتها في الكتاب، ولذلك فنستطيع أن نقسمها حسب موضوعاتها:

أولاً ــ في التفسير:

والمصدر الوحيد الذي ذكره في التفسير وأشار إليه في مواطن متعددة عند تفسيره لبعض الآيات هو تفسير الإمام ابن جرير الطبري.

ثانياً ــ في الحديث:

وكتب الحديث التي ذكرها في كتابه هي:

١ ــ صحيح البخاري.

٢ ــ صحيح مسلم.

٣ ــ مسند الإمام أحمد. ومعظم الأحاديث التي ذكرها كانت منه.

٤ ــ جامع الترمذي.

٥ ــ سنن الدارمي.

٦ ــ المستدرك للحاكم النيسابوري.

وقد اقتصرت على ذكر هذه الكتب التي صرح باسمها في كتابه.

ثالثاً ـ في السيرة وأعلام النبوة:

وقد أشار في كتابه إلى الكتب الآتية:

١ ـ **سيرة ابن إسحق**: وقد كثرت استشهاداته بروايات ابن إسحق، ونص عليها، مع أنني وجدت موافقة الروايات التي نقلها لما عند ابن هشام إلا رواية واحدة ذكر أنها من قول ابن إسحق ولم أجدها عند ابن هشام.

٢ ـ **المغازي النبوية، لابن شهاب الزهري المتوفى سنة ١٢٤هـ**: وهو كتاب مطبوع بتحقيق الدكتور سهيل زكار.

٣ ـ **مغازي موسى بن عقبة المتوفى سنة ١٤١هـ**: وقد نص عليه وهو كتاب مخطوط(١).

٤ ـ **دلائل النبوة، لابن قتيبة عبد الله بن مسلم، المتوفى سنة ٢٧٦هـ**: وهو كتاب مخطوط(٢)، كما أن ابن القيم في غالب الظن لم يرجع إليه، لأن النقول التي ذكرها عنه موجودة في الجواب الصحيح، وبنفس النص الذي ذكره ابن القيّم.

٥ ـ **دلائل النبوة، لأبي بكر البيهقي، أحمد بن الحسين**، المتوفى سنة ٤٥٨هـ.

٦ ـ **دلائل النبوة، لأبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصفهاني**، المتوفى سنة ٤٣٠هـ.

٧ ـ **الطبقات الكبرى، أو الطبقات الكبير، لمحمد بن سعد كاتب الواقدي**، المتوفى سنة ٢٣٠هـ.

٨ ـ **الثقفيات، لابن سعد**: أشار إليه ابن القيم في موضع واحد، ولم أعثر على كتاب بهذا الاسم.

٩ ـ **الاستيعاب في معرفة الأصحاب، لابن عبد البر**، ولم ينص ابن القيم على اسمه، لكنه ذكر كثيراً من الروايات في فضل الصحابة منه.

---

(١) ذكره الدكتور المنجد في كتابه «معجم ما ألف عن رسول الله ﷺ» ص ١٣٦، وقال عنه: وكتابه أصح المغازي، وبين أنه مخطوط ورد ذكره في الرسالة المستطرفة: ص ١٠٩ ـ ١١٠؛ وفي عيون الأثر: ٢/٣٤٤.

(٢) ذكر المنجد أنه مخطوط في الظاهرية وهو نفس كتاب أعلام رسول الله المنزلة على رسله.

رابعاً ـ في التاريخ:

وقد أشار إلى الكتب الآتية:

١ ـ تاريخ ابن البطريق المسمى بـ: التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق، تأليف البطريرك افتيشيوس المكنى بسعيد بن البطريق، وقد طبع هذا الكتاب بمجلدين بمطبعة الآباء اليسوعيين في بيروت سنة ١٩٠٥، ومنه نسخة في مكتبة الجامعة الأردنية، وقد اشترك ابن القيم مع ابن تيمية في الجواب الصحيح بالنقل عن هذا الكتاب، حيث نقلا منه كل ما يتعلق بمجامع النصارى وظروف اضطهادهم على يد ملوك الروم. ويظهر لي أن ابن القيم اختصر ما نقله ابن تيمية عن ابن البطريق.

٢ ـ تاريخ البخاري: وقد أشار إليه في موضع واحد عند حديثه عن فضل الصحابة وعلمهم.

٣ ـ تاريخ الواقدي: وهو غير كتاب المغازي، وقد أشار إليه في هداية الحيارى في موضعين عند ذكره لكتب رسول الله ﷺ إلى الملوك والأمراء.

وقد رجعت إلى مغازي الواقدي فلم أجد فيه الحديث عن هذه الكتب.

خامساً ـ في الملل والنحل:

لم يشر ابن القيم في كتابه إلى أي من كتب الملل والنحل التي سبقته، ولكنّه أشار إلى كتابين في الموضوع هما:

١ ـ كتاب أبي عبيدة الخزرجي، المتوفى سنة ٥٨٢هـ «بين الإسلام والمسيحية»: فقد نقل عن هذا الكتاب دون أن يذكر اسمه أو اسم صاحبه، بل اكتفى بعد ذكره لمناظرة جرت بينه وبين أحد أحبار اليهود في مصر بقوله: «قريباً من هذه المناظرة ما جرى لبعض علماء المسلمين مع بعض اليهود ببلاد المغرب» ثم ساق جزءاً من تلك المناظرة.

وما ساقه موجود بنصه في رسالة أبي عبيدة الخزرجي التي كتبها إلى أحد القسيسين النصارى في الأندلس.

٢ ـ كتاب «بذل المجهود في إفحام اليهود» لمؤلفه سموئيل بن يهودا: فعند حديثه عن تبديل التوراة ذكر سبباً لذلك عزاه إلى بعض علمائهم الراسخين في العلم ممن

هداه الله للإسلام، ثم ساق ذلك السبب المنقول عنهم، وهذا النص الذي ساقه موجود في كتاب «بذل المجهود» ومؤلفه كان يهودياً.

وعند حديثه عن فرق النصارى وأقوالهم في طبيعة المسيح عليه السلام رأيت موافقة بعض ما كتبه لما أورده ابن حزم الظاهري المتوفى سنة ٤٥٦هـ في كتابه الفصل في الملل والأهواء والنحل، ولما كتبه أبو الفتح الشهرستاني المتوفى سنة ٥٤٨هـ في كتابه الملل والنحل.

سادساً ـ ما سمعه ابن القيم شخصياً من بعض أهل الكتاب الذين ناظرهم:

ومن ذلك المناظرة التي أشار إليها في مصر. أو ما سمعه ممن أسلم من أهل الكتاب ومن ذلك قوله: (وقد قال لي ولغيري بعض من أسلم من علمائهم. . .).

*
**

الفصل الرابع
وصف مخطوطات الكتاب

لقد حصلت على أربع نسخ مخطوطة قابلت بينها وهذه النسخ هي:

١ ـ **نسخة الأصل التي نسختها**: ورمزت لها بكلمة الأصل، وهي نسخة دار الكتب المصرية رقم (٢١٣٦٩ س)، عدد أوراقها (١٤٦) ورقة، كل ورقة من صفحتين، وتحتوي كل صفحة على ثلاثة وعشرين سطراً قياس ١٥ × ٢٠سم.

وعلى هذه النسخة هوامش بنفس خط الناسخ، وهي هوامش تفسيرية لبعض الكلمات الغامضة وتوضح بعض الأفكار المبهمة.

هذه النسخة كتبت بخط نسخ جيد، ولم يكتب عليها اسم الناسخ ولا تاريخ النسخ.

وفي آخر هذه النسخة وجدت ورقتين احتوتا على قائمة لبعض المراجع في موضوع النصرانية، خطهما يختلف عن خط الناسخ وإن حاول تقليده.

وقد ألحقتا بالنسخة حديثاً، لأن كاتبهما أشار لكتاب ريحانة النفوس في أصل الاعتقادات والطقوس، وذكر أنه طبع في بيروت سنة ١٨٥٤م، كما أشار إلى كتاب إظهار الحق لمؤلفه رحمة الله الهندي المتوفى سنة ١٣٠٨هـ الموافق ١٨٩١م وقد ألف كتابه إظهار الحق سنة ١٢٨٠هـ[1].

٢ ـ **نسخة مكتبة بني جامع**: وقد رمزت لها بحرف (ج) وهو الحرف الأول من كلمة (جامع)، وهذه النسخة موجودة في مكتبة بني جامع باستنابول ورقمها (٧٦١) وعدد أوراقها (١٩١) ورقة كل ورقة بصفحتين، ولا هوامش عليها إلا بعض العبارات أو الكلمات الساقطة سهواً من الأصل، وبنفس خط الناسخ وقد كتبت بخط نسخ جيد.

---

(١) انظر: مقدمة الأنصاري على الجزء الثاني من إظهار الحق: ٢/١٥ ـ ٢٢. تحقيق: عمر الدسوقي.

قام بنسخها قاسم بن محمد الرومي بلداً والمصري موطناً، وكان الفراغ من نسخها في التاسع والعشرين من شهر رمضان المعظم سنة ١٠٦٦هـ، وقد دوّن الناسخ ذلك في آخر النسخة.

٣ ـ **نسخة أيا صوفيا**: ورمزت لها بحرف (ص) وهي موجودة في مكتبة أيا صوفيا باستانبول في تركيا برقم (٢٢٤٣) وعدد أوراقها (١٥٤) ورقة، كل ورقة صفحتان والصفحة مكونة من (٢٥) سطراً. كتبت بخط فارسي، ولم يكتب عليها اسم الناسخ ولا تاريخ النسخ.

وأرفقت بورقة فهرست لفصول الكتاب التي بلغت في هذه النسخة واحداً وسبعين فصلاً، ويذكر كلمة (فصل) وأول كلمة فيه.

٤ ـ **نسخة برنستون**: ورمزت لها بحرف (ب) وهي موجودة في مكتبة جامعة برنستون بأمريكا رقم (١٥١٨) بمجموعة غاريت.

صفحاتها مرقمة وعددها (٤٠٥) صفحة، وهي منسوخة عن نسخة أيا صوفيا لأنها توافقها إلا في كلمات محدودة.

والخط الغالب في هذه النسخة هو خط الرقعة، لكنها اشتملت على كلمات كثيرة بخطوط مختلفة. ويظهر أن هذه النسخة نقلت عن نسخة كتبت في شهر ربيع الأول سنة ١٠٧٨هـ كما يظهر على صفحة ٤٠٤ من الكتاب.

ونجد على الصفحة الأخيرة اسم الكاتب مصطفى رشدي بن أحمد فليوزي، وتاريخ الكتابة ليلة الجمعة في ٢١ ربيع الأول؛ سنة ١٢٧٥هـ.

وبالإضافة إلى النسخ فقد قام الناسخ بوضع هوامش توضيحيّة بخط يده، فيها تخريج للآيات ولكثير من نصوص الكتاب المقدس، وإضافات توضيحية لبعض المسائل.

وقد أرفقت النسخة بفهرسة للكتاب ذكر فيها أهم الموضوعات مع أرقام صفحاتها.

وفيما يلي يجد القارىء نماذج لصحائف من المخطوطات التي رجعت إليها:

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين

الحمد لله الذى رضى لنا الاسلام دينا ، ونصب لنا الدلالة
على صحته برهانا مبينا ، واوضح السبيل الى معرفته
واعتقاده حقا يقينا ، ووعد من قام باحكامه وحفظ
حدوده اجرا جسيما ، وذخر لمن وافاه ثوابا جزيلا وفوزا
عظيما ، وفرض علينا الانقياد له ولاحكامه ، والتمسك
بدعائمه واركانه ، والاعتصام بعراه واسبابه ، فهو دينه
الذى ارتضاه لنفسه ، ولانبيائه ولرسله وملائكة قدسه
فبه اهتدى المهتدون ، واليه دعا الانبياء والمرسلون افغير
دين الله يبغون ، وله اسلم من فى السموات والارض طوعا
وكرها واليه يرجعون ، فلا يقبل من احد دينا سواه من الاولين
والاخرين ، ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى
الاخرة من الخاسرين ، شهد بانه دينه قبل شهادة الانام
واشاده ورفع ذكره وسمى به اهله وما اشتملت عليه الارحام
فقال تعالى شهد الله انه لا اله الا هو والملائكة واولوا العلم
قائما بالقسط لا اله الا هو العزيز الحكيم ، ان الدين عند الله الاسلام
وجعل اهله هم الشهداء على الناس يوم القيمة يوم يقوم الاشهاد
لما فضلهم به من الاصابة فى القول والعمل والهدي والنية
والاعتقاد ، اذ كانوا احق بذلك واهله فى سابق التقدير
فقال تعالى وجاهدوا فى الله حق جهاده هو اجتباكم وما
جعل عليكم فى الدين من حرج ملة ابيكم ابراهيم هو سماكم
المسلمين من قبل ، وفى هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم
وتكونوا شهداء على الناس فاقيموا الصلاة واتوا الزكاة واعتصموا

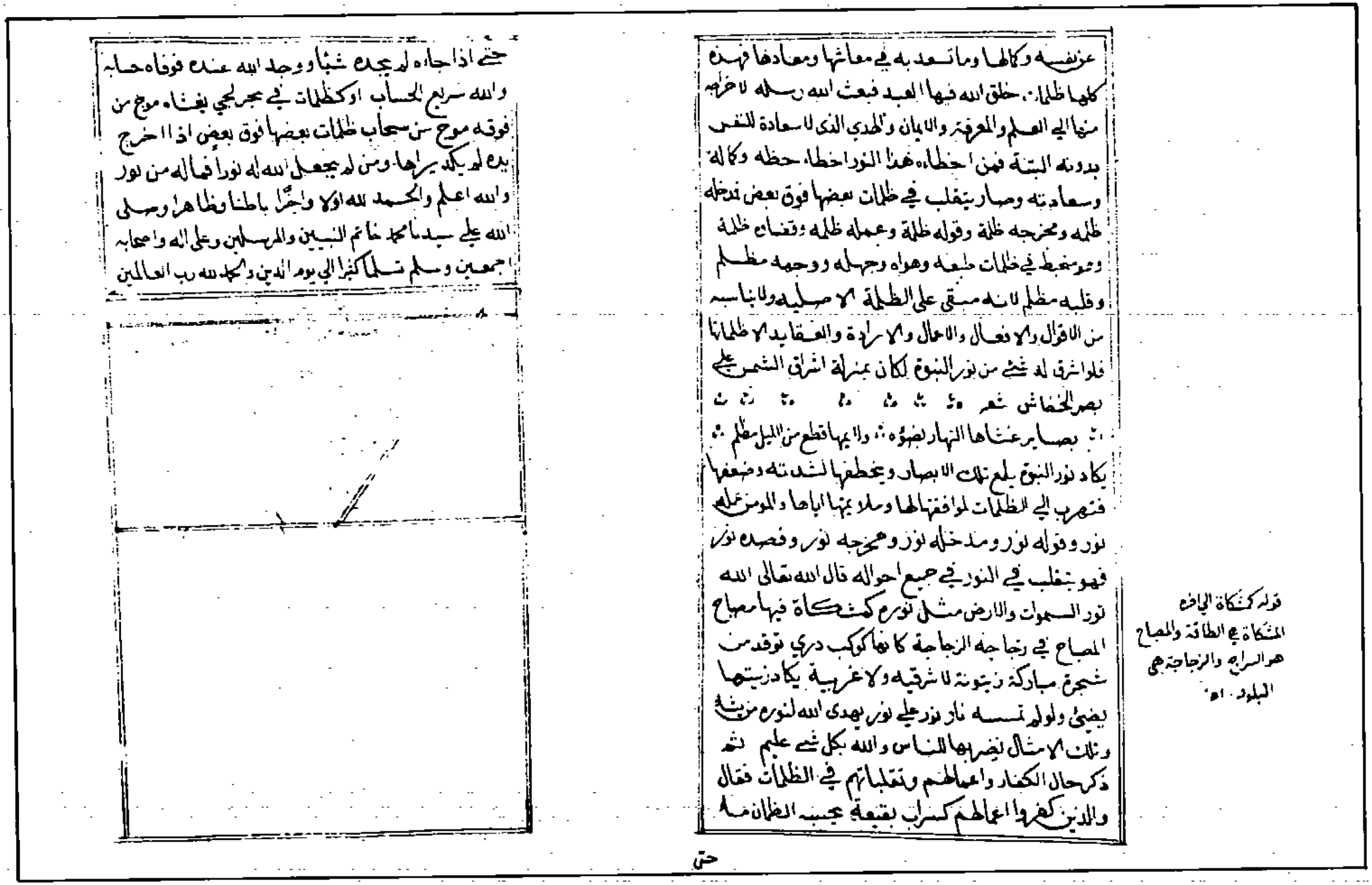
الدعائم عماد البيت اهـ

بالله هو موليكم فنعم المولى ونعم النصير ، وحكم سبحانه وتعالى
بانه احسن الاديان ، ولا احسن من حكمه ، ولا اصدق منه قيلا
فقال تعالى ومن احسن دينا ممن اسلم وجهه لله وهو محسن
واتبع ملة ابراهيم حنيفا واتخذ الله ابراهيم خليلا ، فكيف لا
يميز من له ادنى مسكة من عقل يرجع اليه بين دين قام اساسه وارتفع
بناؤه على عبادة الرحمن والعمل بما فيه رضاه مع الاخلاص فى السر
والاعلان ، ومعاملة خلقه بما امر به من العدل والاحسان
وايثار طاعته على طاعة الشيطان ، وبين دين اسس بنيانه على
شفا جرف هار فانهار بصاحبه فى النار ، اسس على عبادة النيران
وعقد الشركة بين الرحمن والشيطان ، او دين اسس بنيانه على عبادة
الصلبان والصور المدهونة فى السقوف والحيطان ، وان رب العالمين
نزل عن كرسى عظمته فالتحم ببطن انثى واقام هناك مدة من الزمان
بين دم الطمث فى ظلمات الاحشاء تحت ملتقى الاعكان ، ثم خرج
صبيا رضيعا يشب شيئا فشيئا ويبكى وياكل ويشرب ويبول
وينام ويتقلب مع الصبيان ، ثم اودع فى المكتب بين صبيان اليهود
يتعلم ما ينبغى للانسان ، هذا وقد قطعت منه القلفة حين
الختان ، ثم جعل اليهود يطردونه ويشردونه من مكان الى مكان
ثم قبضوا عليه واحلوه اصناف الذل والهوان ، فعقدوا على
راسه من الشوك تاجا اقبح التيجان ، واركبوه قصبة ليس لها لجام
ولا عنان ، ثم ساقوه الى خشبة الصلب مصفوعا مبصوقا فى
وجهه وهم خلفه وامامه وعن شمائله وعن الايمان ، ثم
اركبوه ذلك المركب الذى تقشعر منه القلوب مع الابدان ، ثم
شدت بالحبال يداه والرجلان ، ثم خالطها تلك المسامير التى

قوله على شفا جرف هار اي على حرف
على منهدم وقوله فانهار به اي انهدم
اهـ

قوله بين دم الطمث اي دم الحيض
والاعكان جمع عكنة وهو الطي الذي
في البطن اهـ

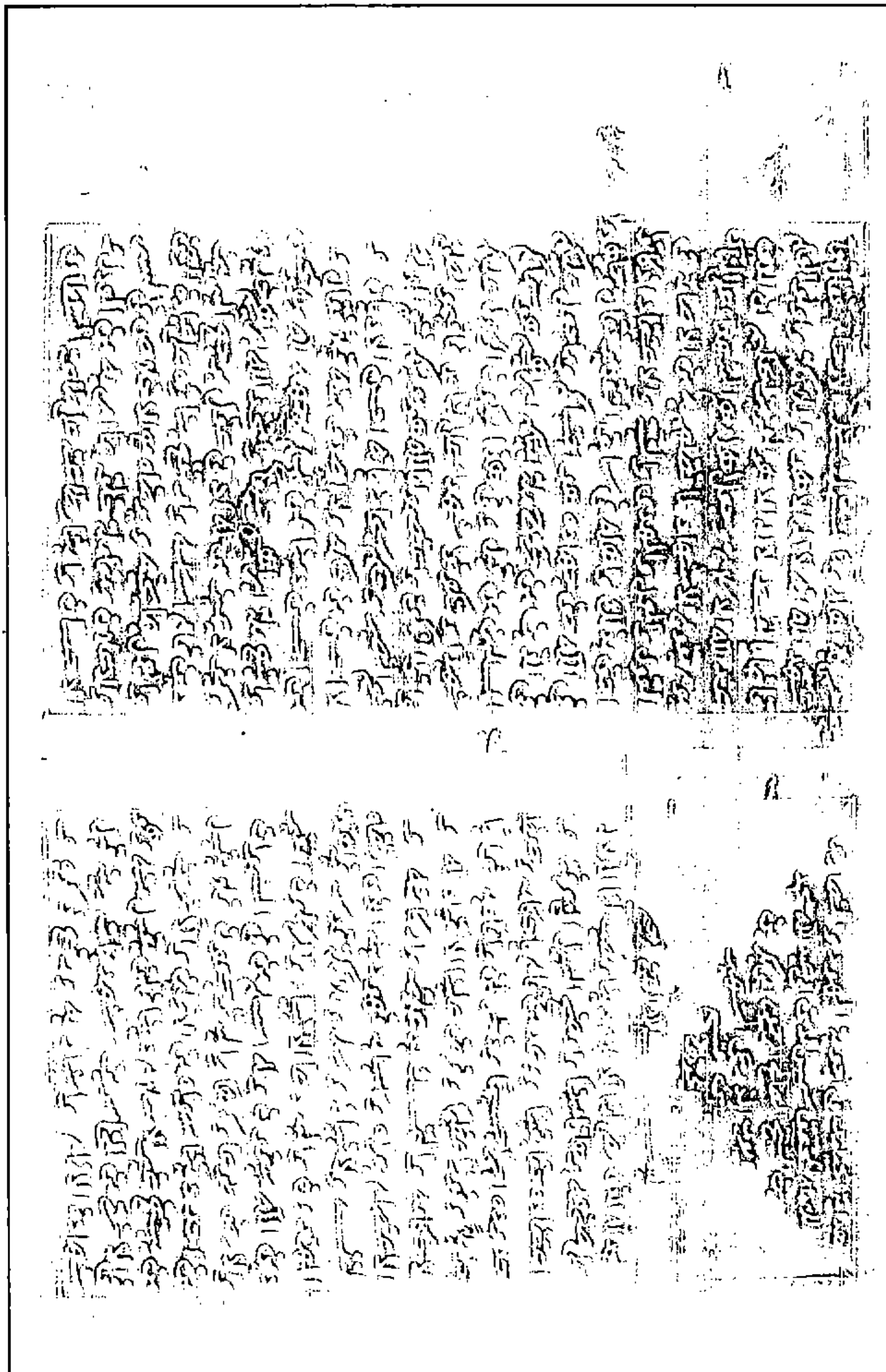
الورقة الأولى من نسخة المصرية (الأصل)


عن نفسه وكمالها وما تسعد به في معاشها ومعادها فهي
كلها ظلمات. خلق الله فيها العبد فبعث الله رسله لاخراجه
منها الى العلم والمعرفة والايمان والهدى الذى لا سعادة للنفس
بدونه البتة فمن اخطاه هذا النور اخطاه حظه وكماله
وسعادته وصار يتقلب في ظلمات بعضها فوق بعض فمدخله
ظلمة ومخرجه ظلمة وقوله ظلمة وعمله ظلمة وقصده ظلمة
وهو متخبط في ظلمات طبعه وهواه وجهله ووجهه مظلم
وقلبه مظلم لانه مبقى على الظلمة الاصلية ولا يناسبه
من الاقوال والافعال والاحوال والارادة والعقايد الا ظلماتها
فلو اشرق له شيء من نور النبوة لكان بمنزلة اشراق الشمس على
بصر الخفاش شعر ∴ ∴ ∴ ∴ ∴ ∴ ∴ ∴
∴ بصاير غشاها النهار بضوئه ∴ ولايمها قطع من الليل مظلم ∴
يكاد نور النبوة يلمع تلك الابصار ويخطفها لشدته وضعفها
فتهرب الى الظلمات لموافقتها لها وملايمتها اياها والمومن عمله
نور وقوله نور ومدخله نور ومخرجه نور وقصده نور
فهو يتقلب في النور في جميع احواله قال الله تعالى الله
نور السموات والارض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح
المصباح في زجاجة الزجاجة كانها كوكب دري يوقد من
شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها
يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء
وتلك الامثال نضربها للناس والله بكل شيء عليم ثم
ذكر حال الكفار واعمالهم وتقلباتهم في الظلمات فقال
والذين كفروا اعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمان ماء
حتى

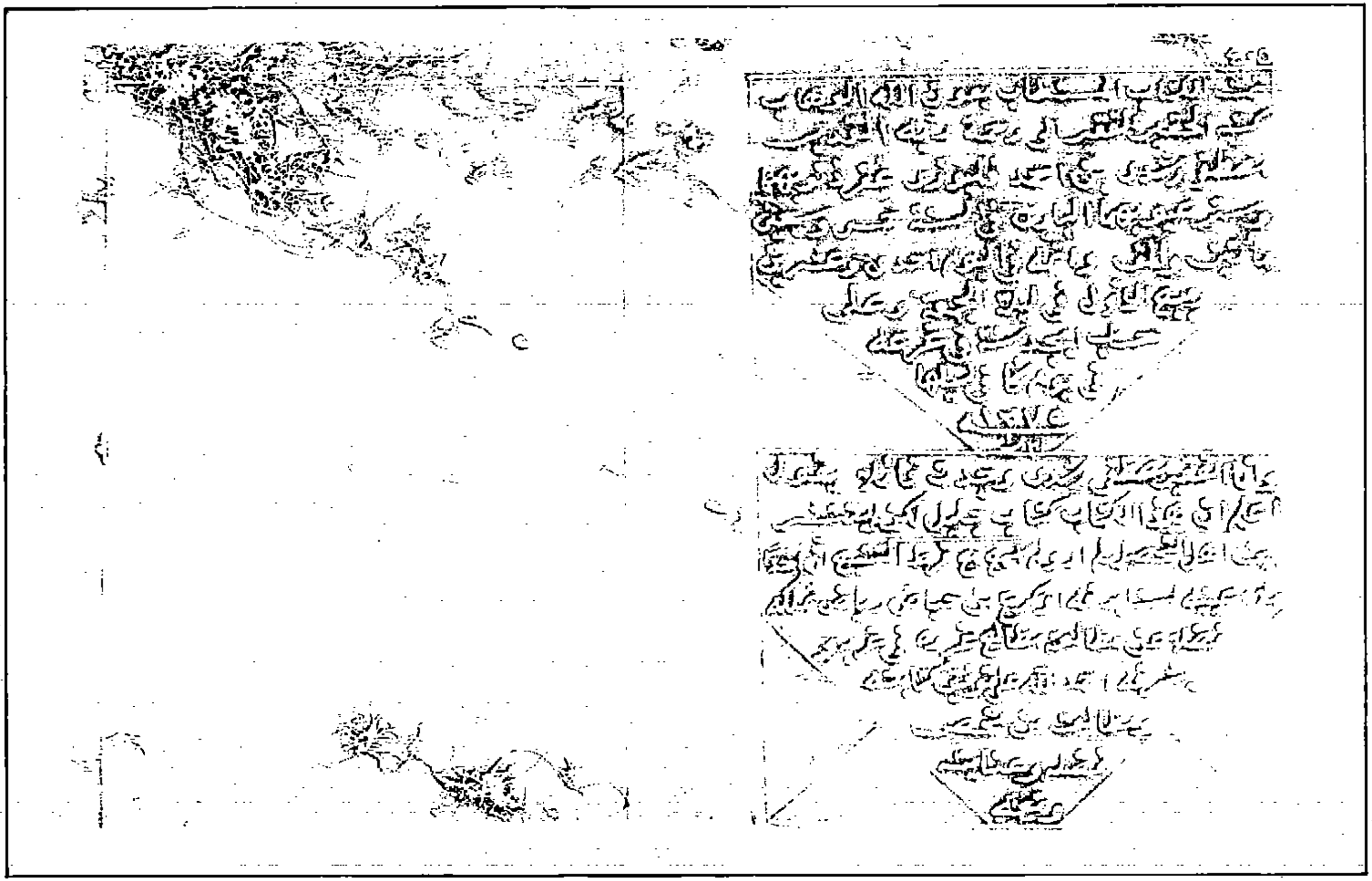
قوله كمشكاة اي الكوة
المشكاة هي الطاقة والمصباح
هو السراج والزجاجة هي
البلور. اهـ

حتى اذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه
والله سريع الحساب او كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من
فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض اذا اخرج
يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور
والله اعلم والحمد لله اولا واخرا باطنا وظاهرا وصلى
الله على سيدنا محمد خاتم النبيين والمرسلين وعلى اله واصحابه
اجمعين وسلم تسليما كثيرا الى يوم الدين والحمد لله رب العالمين

الورقة الأخيرة من نسخة المصرية (الأصل)



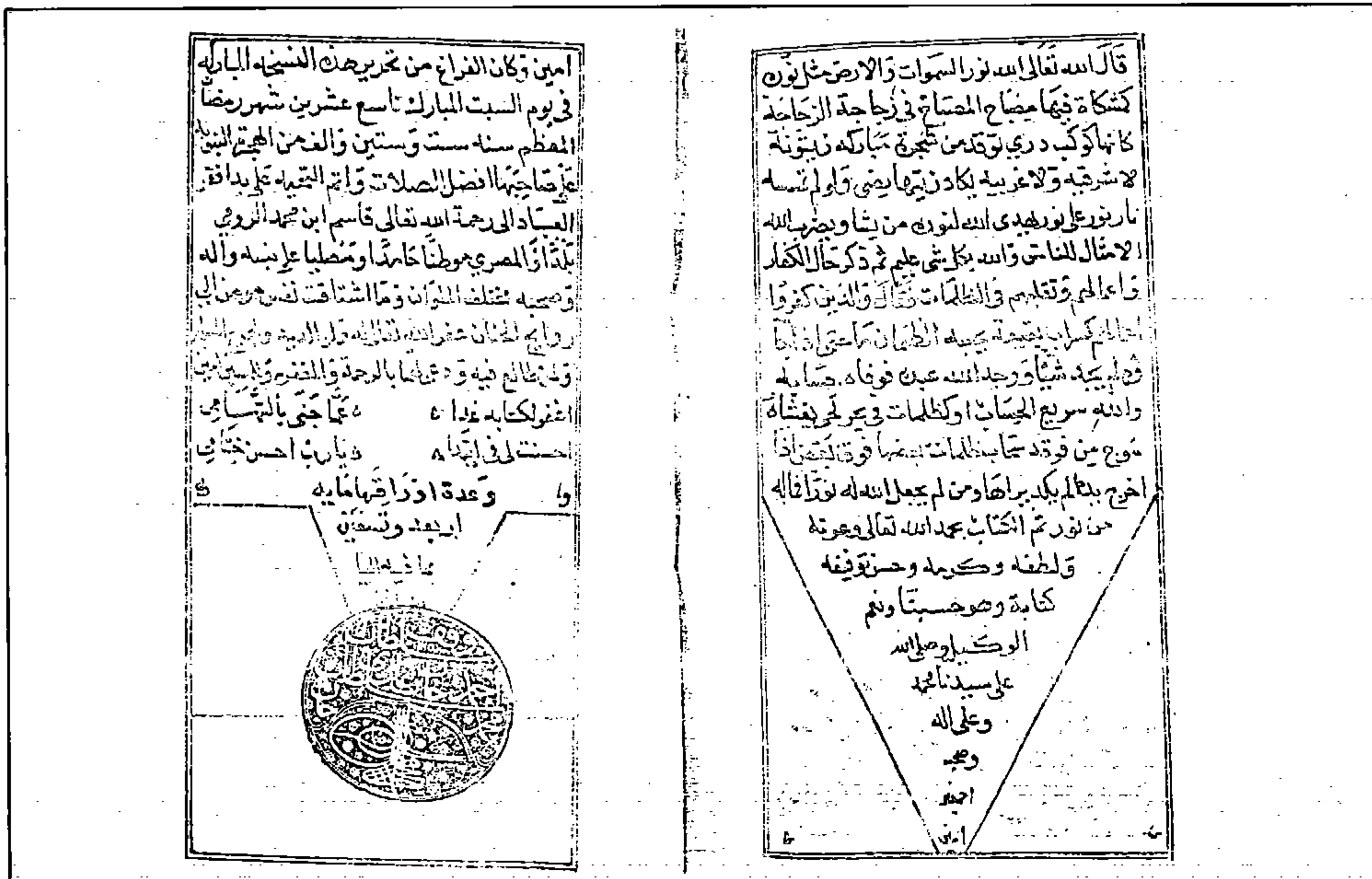
الورقة الأولى من نسخة برنستون (ب)



الورقة الأخيرة من نسخة برنستون (ب)

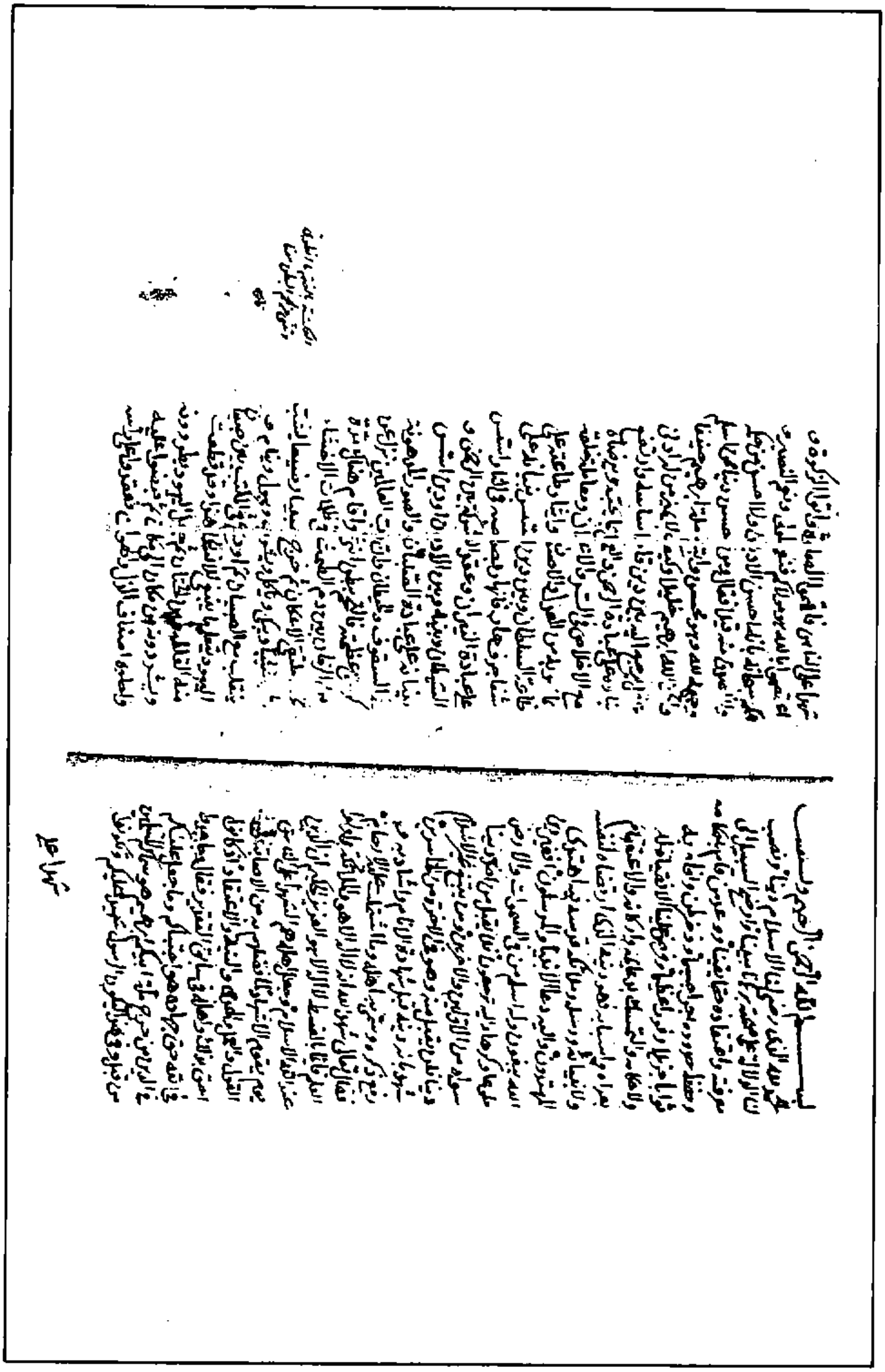


الورقة الأولى من نسخة بني جامع (ج)

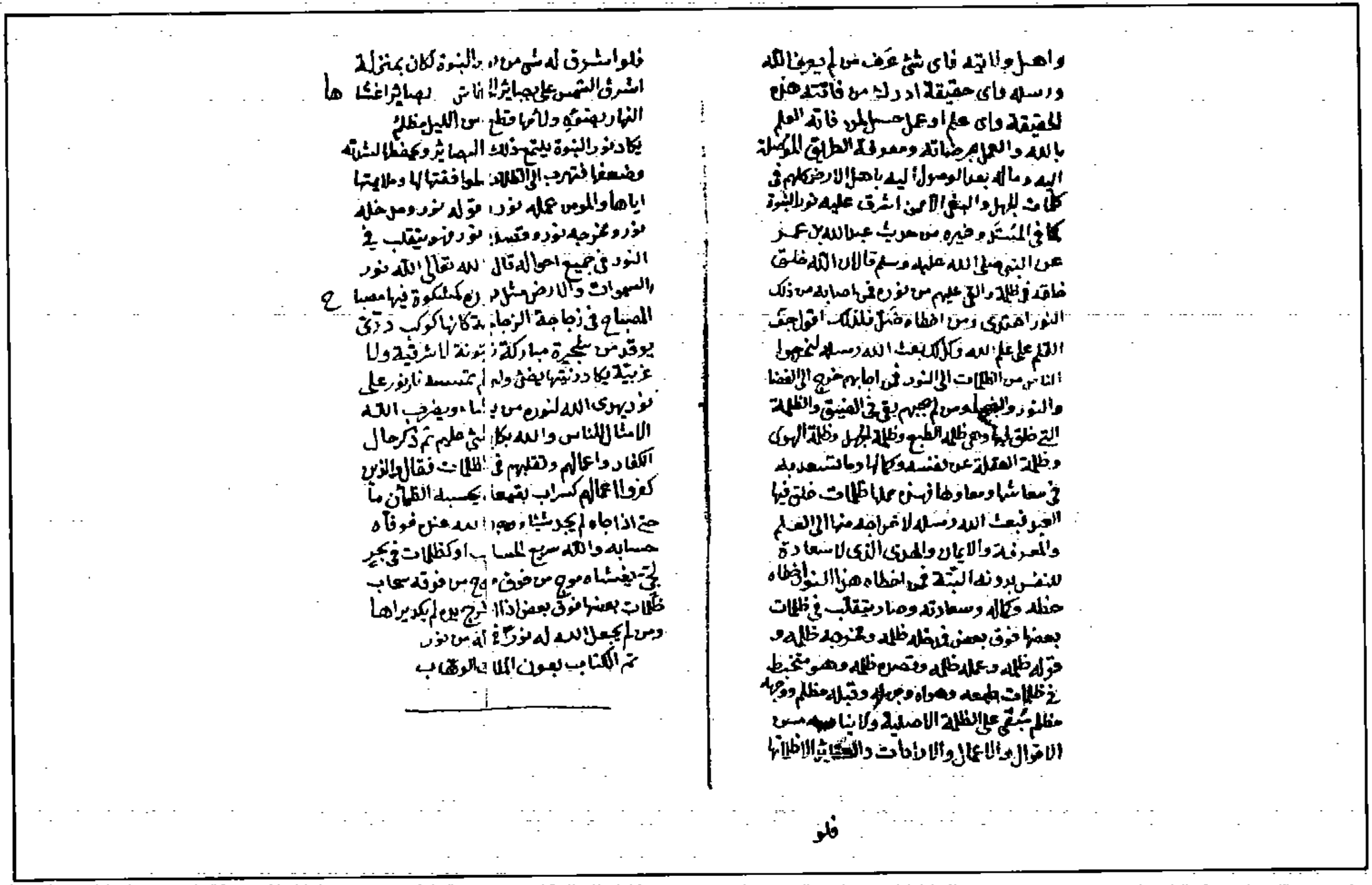

قال الله تعالى الله نور السموات والارض مثل نوره
كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة
كانها كوكب دري توقد من شجرة مباركة زيتونة
لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه
نار نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء ويضرب الله
الامثال للناس والله بكل شيء عليم ثم ذكر حال الكفار
واعمالهم وتقلبهم في الظلمات فقال والذين كفروا
اعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمان ماء حتى اذا جاءه
لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه
والله سريع الحساب او كظلمات في بحر لجي يغشاه
موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض اذا
اخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نورا فما له
من نور تم الكتاب بحمد الله تعالى وعونه
ولطفه وكرمه وحسن توفيقه
كتابة وهو حسبنا ونعم
الوكيل وصلى الله
على سيدنا محمد
وعلى اله
وصحبه
اجمعين
امين

امين وكان الفراغ من تحرير هذه النسخة المباركة
في يوم السبت المبارك تاسع عشرين شهر رمضان
المعظم سنة ست وستين والف من الهجرة النبوية
على صاحبها افضل الصلاة واتم التحية على يد افقر
العباد الى رحمة الله تعالى قاسم ابن محمد
بلدا المصري موطنا حامدا ومصليا على نبيه واله
وصحبه

الورقة الأخيرة من النسخة الموجودة في مكتبة يني جامع (ج)



الورقة الأولى من نسخة أيا صوفيا (ص)



واهل والاتيه فاى شئ عرف من لم يعرف الله
ورسله واى حقيقة ادرك من فاتته هذه
الحقيقة واى علم او عمل حصل لمن فاته العلم
بالله والعمل بمرضاته ومعرفة الطريق الموصلة
اليه وما له بعد الوصول اليه باهل الارض كلهم فى
ظلمات الجهل والغى الا من اشرق عليه نور النبوة
كما فى المسند وغيره من حديث عبد الله بن عمر
عن النبى صلى الله عليه وسلم قال ان الله خلق
خلقه فى ظلمة والقى عليهم من نوره فمن اصابه من ذلك
النور اهتدى ومن اخطاه ضل فلذلك اقول جف
القلم على علم الله فلذلك بعث الله رسله ليخرجوا
الناس من الظلمات الى النور فمن اجابهم خرج الى الفضا
والنور والضيا ومن لم يجبهم بقى فى الضيق والظلمة
التى خلق فيها وهى ظلمة الطبع وظلمة الجهل وظلمة الهوى
وظلمة الغفلة عن نفسه وكمالها وما تسعد به
فى معاشها ومعادها فهذه كلها ظلمات خلق فيها
العبد فبعث الله رسله لاخراجه منها الى العلم
والمعرفة والايمان والهدى الذى لا سعادة
للنفس بدونه البتة فمن اخطاه هذا النور اخطاه
حظه وكماله وسعادته وصار يتقلب فى ظلمات
بعضها فوق بعض فمدخله ظلمة ومخرجه ظلمة و
قوله ظلمة وعمله ظلمة وقصده ظلمة وهو متخبط
فى ظلمات طبعه وهواه وجهله ووجهه مظلم وقلبه
مظلم لبقائه على الظلمة الاصلية ولا يناسبه من
الاقوال والاعمال والارادات والعقائد الا ظلماتها

فلو

فلو اشرق له شئ من نور النبوة لكان بمنزلة
اشراق الشمس على بصائر الخفافيش بصائرها اغشاها
النهار بضوئه ولاءمها ظلام من الليل مظلم
يكاد نور النبوة يلمع ذلك البصائر ويخطفها لشدته
وضعفها فتهرب الى الظلمات لموافقتها لها وملايمتها
اياها والمؤمن عمله نور وقوله نور ومدخله
نور ومخرجه نور وقصده نور فهو يتقلب فى
النور فى جميع احواله قال الله تعالى الله نور
السموات والارض مثل نوره كمشكوة فيها مصباح
المصباح فى زجاجة الزجاجة كانها كوكب درى
يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا
غربية يكاد زيتها يضئ ولو لم تمسسه نار نور على
نور يهدى الله لنوره من يشاء ويضرب الله
الامثال للناس والله بكل شئ عليم ثم ذكر حال
الكفار واعمالهم وتقلبهم فى الظلمات فقال والذين
كفروا اعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء
حتى اذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه
حسابه والله سريع الحساب او كظلمات فى بحر
لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب
ظلمات بعضها فوق بعض اذا اخرج يده لم يكد يراها
ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور
تم الكتاب بعون الله الوهاب

الورقة الأخيرة من نسخة أيا صوفيا (ص)

نقـد تحقيق الدكتور أحمد حجازي السقا
لـكـتـاب
«هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى»

لقد اطلعت على كتاب (هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى للإمـام العلامـة شمس الدين بن قيم الجوزية المتوفى سنة ٧٥١هـ، نشر المكتبة القيمة، القاهرة، الـطبعة الثانية ١٣٩٩هـ بتحقيق الـدكتور أحمـد حجازي السقـا) وما كنت أحبّ أن أدوّن انتقـادي لهذا الكتاب ضمن رسالتي، وذلك لاعتبارات شتى:

منها أن الدكتور أحمد حجـازي السقا ممن لهم بـاع في موضـوع دراسات اليهـودية والنصرانية، وله فضل في إخراج مخطوطات كثيرة في هذا الموضوع إلى حيّز الوجود، فله بـالإضـافـة إلى هـدايـة الحيـارى، كتـاب: الإعـلام بمـا في دين النصـارى من الأوهـام للقرطبـي، وكتاب: شفاء الغليل للجـويني، كما قـام بتحقيق كتاب: إظهـار الحق للشيخ رحمة الله الهندي. وهو مختص في ذلك برسالته للماجستير والدكتوراه.

ومنها أن له وجهة نظره في إخـراج كتبه بهـذا الشكل، هي أن المقصود: هـو ظهور هذا الكتاب بالشكل المناسب ليقدمه إلى القراء دون تركيز الاهتمام على قواعد التحقيق.

ومنها أنه يكتفي بتعليقاته مما يحفظه من نصوص كتب اليهود والنصارى.

ومنها كذلك أن لكلّ طريقة، ولا داعي لأن أثبت أن عملي أفضل من عمل غيـري، إلّا أنني رأيت أخيراً أن أدون بعض ملاحـظاتي على تحقيق هـذا الكتـاب ليظهـر الفـرق وتتضح الصورة.

إن أهم ما يلاحظه المطلع على هـذا الكتاب أن تحقيقـه لم يتفق إطلاقـاً مع قـواعد التحقيق وضبط النصوص المعروفة، وأهم هذه المخالفات ما يلي:

١ ــ المحقق لم يقم بمقابلة النص الذي نقله عن نسخة واحدة هي نسخة مخطوط

دار الكتب المصرية رقم ٣٠١، على النسخ الأخرى المتوفرة في عدة مكتبات، ومع أنه أشار إلى أنّه قارن هذه النسخة مع نسخة خطية أخرى في دار الكتب المصرية رقمها (٢١٣٦٩ ب) إلاّ أن هذه المقارنة لم تظهر إطلاقاً في ثنايا التحقيق، وما يشير إليه في الهامش أحياناً بقوله: في الأصل: كذا وكذا فإنه إنما وضع عبارة من عنده مغايرة لعبارة المخطوطين لأنه استحسن هذه العبارة (انظر توضيحه لذلك ص ٦٠ ــ ٦١).

٢ ــ لم يخرّج المحقق حديثاً واحداً من الأحاديث الواردة في الكتاب، والتي زادت على ثلاثة وأربعين حديثاً.

٣ ــ لم يترجم إطلاقاً للأعلام ولا للأماكن والبلدان.

٤ ــ لم يقم بإرجاع الأقوال إلى أصحابها ومصادرها، وهي كثيرة في الكتاب.

٥ ــ لم يقم بعمل شيء من الفهارس سوى فهرس الموضوعات.

٦ ــ لم يقم بتفسير الكلمات الغامضة الواردة في الكتاب.

٧ ــ تغيير كثير من عبارات النص واستبدالها بعبارة من عنده ينص في الهامش على أنه استحسنها، وهذا كثير، نراه مثلاً في الصفحات ٣٨، ٣٩، ٤٢، ٥٢، ٦٠، ٦١، ٨٥، ٣٠٠، ٧٨، ١٠٧، ١٤٦.

٨ ــ لم يخرج بعض نصوص الكتاب المقدس انظر ص ١١٨ على سبيل المثال.

هذا بالإضافة إلى المؤاخذات التي استطعت أن أتعقبها عليه في عمله ومن ذلك ما يلي:

* **أولاً ــ إسقاط بعض العبارات أو الكلمات الغامضة في نظره، ومن أمثلة ذلك:**

١ ــ ما نجده في صفحة ٣٧ حيث أسقط عبارة طويلة للمؤلف وادعى في الهامش أنها مبهمة، مع أنها واضحة تماماً، بل إن إسقاطها أبهم السياق مما اضطره بعد ذلك أن يفسّر العبارة بالهامش تفسيراً لا يمت إلى المعنى الذي ذكره المؤلف بصلة.

٢ ــ في صفحة ١١١ أسقط كلمة (هو وكالب) لعدم وضوحها في نظره.

٣ ــ في صفحة ١٦٥ أسقط نصاً كاملاً نقله المؤلف عن مستر حبقوق.

٤ ــ في صفحة ١٦٨ أسقط عبارة طويلة.

٥ ـ في صفحة ٢٠١ ألغى المؤلف عبارة طويلة، لأن فيها شيئاً من الغموض يحتاج إلى توضيح.

٦ ـ في صفحة ٢٠٥ حيث ألغى عبارة (ويسمّونه بلغتهم السبقير).

٧ ـ قام بإلغاء كلمات في الصفحات: ٢٨٩، ٢٩١، ٢٩٢، ٣٠١، ٣١١.

* **ثانياً ـ استبدال بعض العبارات بعبارات من عنده**، ومن ذلك:

١ ـ في صفحة ٧٨ استبدل النص التالي: «وإن بشارة موسى براكب الحمار كبشارة عيسى براكب الجمل» استبدله بنص آخر هو: «وإن بشارة زكريا براكب الحمار كبشارة شعيا براكب الجمل» ثم بيّن في الهامش أن زكريا بشر براكب الحمار وهو عمر بن الخطاب فاتح القدس مع أن المعروف تاريخياً أن عمر كان يركب جملاً لا حماراً عند فتحه لبيت المقدس، والنص الأصلي هو الصحيح، فراكب الحمار هو عيسى عليه السلام وراكب الجمل هو محمد ﷺ.

٢ ـ في صفحة ١١٣ لبست عليه العبارة فخلط في ترتيبها، ثم أضاف إليها من عنده جملة (أم لم تقل) مع أنه لا داعي لها إطلاقاً، وكل ما في الأمر أن قوله: «قالت اليهود» جملة استئنافية.

٣ ـ في صفحة ١٥٠ بان بالحسن حجارتك والصحيح بان بالجصّ.

٤ ـ في صفحة ٨٢ عبارة الأصل يصير ديناً استبدلها بعبارة يصير تابعاً.

٥ ـ في صفحة ١٧٦ استعمل كلمة شأننا بدل كلمة شأونا الصحيحة.

٦ ـ في صفحة ٢٦٥ كتب: اسلكي هذه الدابّة النجمة بدل النجسة ثم قال في الهامش: في الأصل المجر الأنسيّة، وسبب ذلك أنه لم يرجع إلاّ إلى نسخة واحدة.

٧ ـ في صفحة ٣٢٤ العبارة عنده «ومكث بعد ذلك ثلاث سنين» والصواب: «وأمر بثلاث سنن» وهذا هو الوارد في جميع النسخ.

* **ثالثاً ـ الخطأ في بعض التعليقات**، ومن ذلك:

١ ـ في تعليقه صفحة ١٣١ يخالف المؤلف في فهمه ما ذهب إليه المؤلف من أن أركون العالم إشارة إلى النبي محمد ﷺ ويفسّر المحقق الأركون بأنه الشيطان، وأتى

بنصوص من التوراة ولكن هذه النصوص لم تذكر أن الشيطان أركون العالم، بل الأركون بمعنى العظيم أو الرئيس.

٢ ــ في هامش صفحة ٢٨٩ ذكر أن المؤلف أخطأ في فهم النص الوارد في الإصحاح الرابع والعشرين من إنجيل متى، حيث فهم المؤلف أن ابن الإنسان هو المسيح عليه السلام، أما المحقق فقد ذهب إلى أن ابن الإنسان هو محمد ﷺ. والصحيح ما فهمه المؤلف، بل إن التفسير الذي ذكره المحقق هنا لا يتفق مع النص الوارد في إنجيل متى: ١/٢٦ ونصه «وابن الإنسان يسلّم ليصلب».

٣ ــ تعليق رقم ٢٠ صفحة ٢٨ حيث يعلق على قول المؤلف «ضربت لنبوته البشائر من عهد آدم أبي البشر إلى عهد المسيح ابن البشر، كلما قام رسول أخذ عليه الميثاق»؛ فعلق على هذا في هامشه بقوله: «يقصد من عهد إبراهيم» ولا أدري سبب هذا التقييد.

*** رابعاً ــ نقص التوضيح لكثير من الأمور الغامضة:**

ونذكر مثالاً واحداً فقط، ورد في صفحة ٢١٧.

فقد ذكر صوم حصا، والصحيح أنه صوم الحصاد، وذكر المؤلف صوم كدليا، وبقية أنواع الصوم عند اليهود، ولم يوضح لنا المحقق شيئاً من ذلك.

*** خامساً ــ الخطأ في تخريج بعض نصوص العهد القديم:**

فهو يحيل أحياناً إلى أرقام، وعند الرجوع إليها لم أجدها ومن ذلك ما ورد في صفحة ١٦٤، ١٦٧.

وفي صفحة ١٤٥ يذكر أن النص في مزمور (٤) والصواب أنه في مزمور (٤٥).

وقد وجدت أخطاء كثيرة من هذا النوع ومن ذلك ما ورد في هوامش الصفحات التالية: ١٥١، هامش ٧٧، و١٤٧، هامش ٦٦ و٢٠٤، هامش ١٤٣ و١٦٥، هامش ١٥ و٣٠٦ هامش ٢٢.

*** سادساً ــ الأخطاء في تخريج بعض الآيات، ومن ذلك:**

١ ــ هامش ١٥ صفحة ٤٤ الآية ٣٦ من سورة الشورى، والصحيح أنها الآية ٥٩ من القصص.

٢ ــ صفحة ١١٠ البقرة ١٦٤، والصحيح آل عمران.

٣ ــ صفحة ٢٣٤ النحل ٥٩، والصحيح النحل.

٤ ــ صفحة ٣٣٨ الفرقان ٤٢، والصحيح ٤٤.

٥ ــ صفحة ٣٤١ الأنعام ٩٠، والصحيح ٩١.

* **سابعاً ــ ذكر بعض المراجع دون ذكر الصفحة والجزء**، كما في صفحة ١٠٧، ٢٠٨.

* **ثامناً ــ عشرات الأخطاء المطبعية والإملائية وحتى في بعض الآيات.**

***

الفصل الخامس
أهمية كتاب هداية الحيارى

(١)
جـوانـب أهـمـيـتـه

لقد تحدّث ابن القيم بنفسه عن أهميّة هـذا الكتاب في نهـاية مقـدمته فقـال: «وقد وضعت هـذا الكتاب وسميتـه: هدايـة الحيـارى في أجـوبـة اليهـود والنصـارى، وقسمتـه قسمين:

الأول: في أجـوبة المسـائل. **والثـاني**: في تقريـر نبوة محمـد ﷺ، بجميع أنـواع الدلائل، فجاء بحمد الله ومنّه، كتاباً ممتعاً معجبـاً، لا يسأم قـاريه، ولا يمـلّ الناظـر فيه، فهو كتاب يصلح للدنيا والآخرة، ولزيادة الإيمان ولذة الإنسان، يعطيك ما شئت من أعلام النبوّة وبراهين الـرسالـة وبشارات الأنبيـاء بخاتمهم، واستخـراج اسمه الصـريح من كتبهم وذكر لقبه وصفته وسيرته من كتبهم، والتمييز بين صحيح الأديان وفاسدها، وكيفيّة فسـادها بعد استقامتها، وجملة من فضائح أهل الكتابين وما هم عليه، وأنهم أعظم النّاس براءة من أنبيـائهم، وأن نصوص أنبيـائهم تشهد بكفـرهم وضـلالهم، وغيـر ذلـك من نكت بـديعـة لا توجد في سواه».

ومقالة ابن القيم هذه في كتابه تسلط الأضواء على الجوانب المهمة من كتابه، تلك الجوانب التي جعلته كتاباً ممتعاً معجباً لا يسأم قاريه ولا يملّ النـاظر فيـه. وهذه الجـوانب هي:

الجانب الأول: تقرير نبوّة محمد ﷺ:

والحقيقة تنطق بوضوح أن ابن القيم في كتابه هذا استطاع أن يبرهن على هذه المسألة بما لم يستطع أحد من قبله أن يجمع كل هذه البراهين والأدلة في كتاب واحد.

فقد تحدث بصفحات طويلة عن دلائل نبوّة محمد ﷺ، وأحاط بها من جوانبها المختلفة حتى يظن قارئوها أن الكتاب متخصص بأعلام النبوّة. تحدث في القسم الأول من كتابه عن انتشار دعوته ﷺ، وانتصاره الكبير في ذلك، فهو يذكر لنا أخبار الوفود التي وصلت إلى النبي ﷺ تمثل أقوامها، ويذكر لنا عن كتبه ﷺ التي بعثها مع رسله إلى الملوك، والرؤساء والأمراء من حوله، وأخبار من أسلم من هؤلاء، ومن غيرهم ممن لهم شأن عند أقوامهم. وتناول ابن القيم هذا الموضوع من ثلاث زوايا:

- **الزاوية الأولى**: من حيث الأخبار والبشارات.
- **والزاوية الثانية**: من حيث إثبات التحريف في كتبهم في هذه المسألة وغيرها.
- **والزاوية الثالثة**: من الناحية العقلية.

أما الزاوية الأولى: فقد ذكر أخبار الرهبان والأحبار الذين بشروا به وعرفوه فمنهم من عرفه من يوم مولده: كالتاجر اليهودي الذي كان بمكة. ومنهم من عرفه في صغره من أوصافه مثل بحيرا الراهب، ومنهم من آمن به بعد بعثته كعبد الله بن سلام، وأخبار من كانوا على دين الحنيفية وبشروا به مثل ورقة بن نوفل وأمية بن أبي الصلت.

أما عن بشارات الكتب السابقة بنبوته ﷺ فأكاد أقول إنه استقصاها ولم يدع منها شيئاً.

والمأخذ الذي تستطيع أن تأخذه هنا على ابن القيم، وعلى غيره من علماء المسلمين الذين كتبوا في هذا الموضوع، عدم ضبط النصوص من كتب اليهود والنصارى، وظاهر أنهم في الغالب ينقلون عن بعضهم وقد أشرت عند كثير من هذه النصوص أن ابن القيم كان ينقل عن الجواب الصحيح وغيره، بل كان ابن القيم يشير إلى ذلك في بعض الأحيان.

ولم يكتف ابن القيم رحمه الله بذكر هذه البشارات بل طابق بين بعضها وبين ما يؤيدها من نصوص الكتاب والسنّة.

أما الزاوية الثانية: فقد أثبت ابن القيم وقوع التحريف في الكتابين فبيَّن ما فيهما من افتراءات تشهد بالتحريف، وذكر من هذه الافتراءات التي تضمنتها التوراة ما نسبوه إلى أنبيائهم ـ زوراً وبهتاناً ـ من أفعال وأوصاف خسيسة، كذلك ما وصفوا به الله تعالى كالندم والتعب والبكاء، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

وذكر ما تضمنه الإنجيل من تناقضات، يستحيل أن تكون من عند العليم الخبير سبحانه.

وأراد ابن القيم أن يخلص من ذلك إلى أنه ما دام التحريف قد وقع فعلاً، فإن ذلك يعني أن القوم لا يستبعد عليهم أن يحرّفوا النصوص المبشرة بنبوة محمد ﷺ بغياً وحسداً من عند أنفسهم.

أما الزاوية الثالثة: وهي الناحية العقلية فقد أثبت ابن القيم أن الأدلة العقلية تشير إلى أن نبينا عليه السلام مذكور في الكتب السابقة، وأتى باثني عشر وجهاً كلها تؤكد أنه عليه السلام مذكور في تلك الكتب. وكلها أدلة تحمل حججاً واضحة مقنعة.

وفي القسم الثاني من كتابه أكد أن نبوّة محمد ﷺ ثابتة بطريق العقل السليم، وأن إنكار نبوته عليه السلام إنكار لنبوة جميع الأنبياء عليهم السلام، بل وإنكار لربوبيته تعالى، فالرسول ﷺ ـ كما يقول ابن القيم ـ إنما جاء بتعريف الرب تعالى بأسمائه وصفاته وأفعاله، والتعريف بحقوقه على عباده، فمن أنكر رسالته فقد أنكر الرب الذي دعا إليه وحقوقه التي أمر بها.

الجانب الثاني:

استعراضه للأديان التي كانت معروفة في الأرض عند بعثة محمد ﷺ، وبيانه للمتاهات والتحريفات التي مارستها هذه الأديان، ثم حديثه عن المذاهب الفلسفية التي أنكرت النبوات، وأنكرت المعاد وبيانه لضلالها.

الجانب الثالث:

النكت البديعة التي وردت في كتابه، ولا أودّ هنا أن أبحث عن النكت البديعة في اللغة والأسلوب، ولكنني أريد أن أقف عند بعض اللفتات البديعة التي أوردها ابن القيم في كتابه، واستنتجتها من بحثه، ومن هذه اللفتات:

١ ــ قوله: «ولم يبق بأيدي النصارى إلّا دين باطله أضعاف أضعاف حقّه، وحقّه منسوخ بما بعث الله به محمداً ﷺ».

وهذا استنتاج رائع، توصّل إليه ابن القيم، ومع أن معناه واضح، إلّا أنه لفتة تغيب عن الأذهان.

وهو بهذا يشير إلى التحريف الذي أصاب دين النصارى، حتى شمل هذا التحريف معظمه في شتى المجالات في العقيدة والشريعة.

والنزر القليل الذي سلم من التحريف والذي لا نستطيع الجزم بتحديده منسوخ، ولذلك فلا ضرورة لأن نجهد أنفسنا بعناء البحث عن هذه النصوص التي سلمت من التحريف، لأنه لم تعد لها قيمة بعد أن نسخت برسالة نبينا محمد ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين.

٢ ــ ضمن الأدلة العقلية التي قدّمها ابن القيم للاستدلال على ذكر نبينا محمد ﷺ في كتب اليهود والنصارى جاء بدليل يبدو بسيطاً لكنه عميق جداً ومقنع، حيث يقول: ومن الممتنع أن تخلو الكتب المتقدمة عن الأخبار بهذا الأمر العظيم، الذي لم يطرق العالم من حين خلق إلى قيام الساعة، أمر أعظم منه ولا شأن أكبر منه. فإن العلم به طبّق مشارق الأرض ومغاربها.

... ومثل هذا النبأ العظيم لا بد أن تطابق الرسل على الإخبار به، وإذا كان الدجال ــ رجل كاذب يخرج في آخر الزمان، وبقاؤه في الأرض أربعون يوماً ــ قد تطابقت الرسل على الإخبار به وأنذر به كل نبي قومه من نوح إلى خاتم الرسل صلى الله عليهم وسلم أجمعين، فكيف تتطابق الكتب الإلهية من أولها إلى آخرها على السكوت عن الإخبار بهذا النبأ العظيم، وبهذا الأمر العظيم الذي لم يطرق العالم أمر أعظم منه، فهذا مما لا يسوّغه عقل، وتأباه حكمة أحكم الحاكمين.

فهذا دليل واضح يعرضه ابن القيم حجّة في وجه أولئك المعاندين الذين أنكروا نبوة محمد ﷺ، وصدّقوا أن كتبهم خلت من ذكر هذا النبي الذي ملأ خبره طباق الأرض. وكأنه يقول لهم: إذا كان محمد ﷺ ليس نبياً، ولا أنزل الله عليه قرآناً، فلماذا لم تخبر كتبكم بظهور هذا المدّعي وتفصل أحواله وصفاته ليحذره الناس ولا ينخدعوا به؟!.

***

(٢)

مقارنة بين «هداية الحيارى» وبين بعض المؤلفات

واستكمالاً لمبحث أهمية هذا الكتاب رأيت أن أعقد مقارنة بينه وبين بعض الكتب التي ألفت في موضوعه، لأن مثل هذه المقارنة لها علاقة واضحة في بيان أهمية هذا الكتاب.

وقد عقدت مقارنة بينه وبين كتاب الجواب الصحيح لابن تيمية رحمه الله، كان المقصود منها ردّ الشبهة التي يرد فيها البعض من غير اطلاع، ومفادها أن الجواب الصحيح يغني عن هداية الحيارى، وليس كتاب الهداية إلاّ تكراراً لما جاء في الجواب الصحيح. كما اخترت كتابين سابقين لهداية الحيارى وللجواب الصحيح هما:

شفاء الغليل في بيان ما وقع في التوْراة والإنجيل من التبديل للإمام أبي المعالي الجويني إمام الحرمين المتوفىٰ سنة ٤٧٨ هـ.

والرد الجميل لإلهية عيسى بصريح الإنجيل، للإمام أبي حامد الغزالي المتوفى سنة ٥٠٥ هـ.

* * *

مـقـارنـة

«بين هداية الحيارى» و «شفاء الغليل»

وقد وقعت في يدي نسخة من الكتاب الأول (شفاء الغليل)[1] تحقيق الدكتور أحمد حجازي السقا، وقرأت نصّ الكتاب والدراسة التي كتبها المحقق حولها، ورأيت الفرق الكبير بين هذا الكتاب وكتاب هداية الحيارى.

فشفاء الغليل أولاً رسالة صغيرة مختصرة لا قياس لها مع هداية الحيارى.

كما أنها مقتصرة في موضوعها على إثبات التحريف في نصوص الكتابين، وبطريقة واحدة، هي الإتيان بالنصوص المتناقضة في هذين الكتابين.

وقد اقتصر الجويني رحمه الله على ذكر التناقضات بين التوراة التي بأيدي اليهود (العبرانية)، وبين التوراة التي بأيدي النصارى (السبعينية).

أما بالنسبة للأناجيل فقد أثبت التحريف فيها من خلال ذكره لبعض التناقضات بين الأناجيل الأربعة.

والحق أن ابن القيم في هداية الحيارى ذكر ذلك كله في ثنايا كتابه، ولم يقتصر على ذلك، بل أثبت وقوع التحريف في الكتابين بالأدلة العقلية والنقلية، وبين وسائل التحريف التي اتبعها أهل الكتاب مما ذكره القرآن الكريم عنهم.

وبيّن التناقض بين نصوص التوراة العبرانية نفسها، وذكر ما احتوته من مستحيلات وخرافات واتهامات باطلة رموا بها أنبياءهم عليهم السّلام.

وكذلك الأمر كان بالنسبة للأناجيل فقد بين متناقضاتها وخرافاتها وما ألصقته بالمسيح عليه السلام زوراً وبهتاناً.

وقد ذكر المحقق لشفاء الغليل معلومات استدل بها على أهمية الكتاب، وهذه المعلومات جاء بها ابن القيم في كتابه، وبتفصيل أفضل. ومن هذه المعلومات:

---

(١) انظر: شفاء الغليل، للجويني، تحقيق د. أحمد السقا، نشر الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء بالرياض سنة ١٤٠٣هـ.

١ ــ الإشارة إلى وجود ثلاث نسخ للتوراة هي: التوراة العبرانية والتوراة السامرية والتوراة السبعينية.

وقد ذكر ابن القيم ذلك ولم تغب عنه هذه الحقيقة.

٢ ــ مسألة عزرا، وأن التوراة التي بيد اليهود اليوم إنما هي من تأليفه بعد الرجوع من السبي البابلي.

وهذه أيضاً ذكرها ابن القيم في كتابه وبيّن أن عزرا لم يكن مُلْهماً كما ادعى اليهود.

وسنبين قول ابن القيم في المسألة عند حديثنا عن مسألة العزير في الباب الثالث من هذه الدراسة.

* * *

مقارنة

بين «هداية الحيارى» و «الجواب الصحيح»

يحاول البعض أن يقلل من أهمية كتاب هداية الحيارى بحجة أن لابن تيمية كتاباً أوسع منه في نفس الموضوع هو «الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح».

إزالة لهذه الشبهة، وتقديراً لجهد ابن القيم في كتابه، قرأت كتاب الجواب الصحيح، وعرفت المواضع التي أخذها ابن القيم منه، ثم تبين لي بعد هذه القراءة الفاحصة المقارنة من كتاب هداية الحيارى ما يلي:

١ ــ لكل من الكتابين سبب خاص لتأليفه، فكتاب الجواب الصحيح كان رداً على الرسالة القبرصية المنسوبة إلى بولس الراهب أسقف صيدا الأنطاكي، فقد ذكر ابن تيمية رحمه الله في مقدمة كتابه: أن كتاباً ورد من قبرص فيه الاحتجاج لدين النصارى بما يحتج به علماء دينهم، وفُضَلاءُ ملّتهم قديماً وحديثاً من الحجج السمعية والعقلية.

فكان كتاب الجواب الصحيح رداً على هذا الكتاب، حيث قال ابن تيمية: «فاقتضى أن نذكر من الجواب ما يحصل به فصل الخطاب وبيان الخطأ من الصواب»(١).

(١) انظر: الجواب الصحيح: ١٩/١.

وقد ذكرنا أن هداية الحيارى كان أيضاً جوابات لأسئلة سبعة وردت شبهاً من بعض أهل الكتاب ولاختلاف الأسئلة اختلفت موضوعات الكتابين.

٢ ـ تشابه المنهج لترتيب البحث في الكتابين، فالجواب الصحيح قسّم كتابه حسب الفصول الستة التي وردت في الرسالة القبرصية، وبدأ يرد على كل فصل على حدة. وكذلك كان منهج ابن القيم، فقد قسم كتابه حسب المسائل السبعة، ورد على كل سؤال على حدة.

٣ ـ لا شك أن ابن القيم قد اطلع على كتاب الجواب الصحيح قبل أن يشرع بتأليف كتابه، ويبدو ذلك من خلال ما نقله عنه، لكن ابن القيم طرق موضوعات لم يتطرق لها ابن تيمية، وترك كثيراً من الموضوعات التي بينها في الجواب الصحيح، ولم يشتركا إلا في موضوع نبوة محمد ﷺ، والبشارات الدالة عليها في الكتب المتقدمة، وبعض ما ذكره علماء المسلمين في ذلك، كما أشرنا في النقل عن تاريخ ابن البطريق لموضوع مجامع النصارى، وظروف الاضطهاد التي عاشها النصارى أيام الرومان، وأثر اعتناق الدولة الرومانية للنصرانية على انحرافها. وقد ذكرت أن ابن القيم لم يطلع على تاريخ ابن البطريق، وإنما اختصر ما نقله ابن تيمية.

وعلى سبيل المثال: ابن تيمية يتوسع في الرد على منكري رسالة محمد ﷺ، وعلى الذين يخصونها بالعرب وحدهم، في أكثر من فصل، بينما لم يشر ابن القيم إلى ذلك، واكتفى على إثبات ذلك بذكر الكتب التي بعثها رسول الله ﷺ إلى الملوك والأمراء، والحديث عن هذه الرسائل كان مختصراً في الجواب الصحيح، ومقتصراً على النجاشي وهرقل وكسرى، بينما كان مفصلاً شاملاً للجميع عند ابن القيم.

ويتوسع ابن تيمية كثيراً في موضوع اللاهوت والناسوت عند النصارى، ويعرج على القائلين بالحلول، وتعرض إلى موضوع التفريق بين توحيد الصفات والقول بالتجسيم، كما تعرض إلى بحث مطول حول الصفات، هل هي جواهر أم أعراض؟ وذكر أقوال الفلاسفة اليونان ومن تأثر بهم من فلاسفة الملل.

ولم يتعرض ابن القيم إلى هذا الموضوع إلا في إشارات مقتضبة متفرقة في ثنايا الكتاب.

وتعرض ابن تيمية للحديث عن معجزات رسولنا محمد ﷺ الحسية والقرآن

الكريم، وشغل هذا الموضوع حيزاً كبيراً، شمل الجزء الرابع كله تقريباً، ولم يتعرض ابن القيم لهذا الموضوع إطلاقاً.

وفي المقابل فإن موضوعات كثيرة ركز عليها ابن القيم، كانت ملائمة للأسئلة المطروحة عنده، ولا مكان لوجودها في الجواب الصحيح، وبخاصة السؤال الأول والثاني، وقصة عبد الله بن سلام في السؤالين الرابع والخامس، وكذلك الحديث المطول في المسألة السادسة عن فضل الصحابة وعلمهم، لم يذكر ابن تيمية منه شيئاً.

والخلاصة أن الكتابين متممان لبعضهما لا يغني أحدهما عن الآخر، لأن كل كتاب بحث الموضوع من زاوية معينة، وكل كتاب ركز على قضايا معينة.

* * *

مقارنة

بين «هداية الحيارى» و «الرد الجميل»

من علماء المسلمين الذين ألفوا في هذا الموضوع الإمام أبو حامد الغزالي، المتوفى سنة ٥٠٥ هـ، وكتابه (الرد الجميل لإلهية عيسى بصريح الإنجيل).

وقد اكتشف مخطوطته المستشرق الفرنسي ماسنيون المتوفى سنة ١٩٣٩م، وقام تلميذه الأب روبير شدياق اليسوعي بتحقيقها ونشرها سنة ١٩٦٢م.

كما قام الأستاذ عبد العزيز عبد الحق حلمي بتحقيق الكتاب، وترجمة تعليقات الأب شدياق، ونشرها مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر سنة ١٩٧٣م.

وعنوان الكتاب يدل على أن موضوعه مقتصر على الرد على القائلين بإلهيّة عيسى عليه السّلام.

يقول الغزالي: «وفي الإنجيل نصوص مصرّحة بإنسانيته عليه السّلام المحضة، ونصوص مصرحة بأن إطلاق الإلهية عليه على ما يدعونه محال، وهذه النصوص في أوضح الأناجيل عندهم.

وها أنا ذا أذكرها نصاً نصاً مبيناً فصولها المسطرة فيه حذراً من المناكرة، وقبل الشروع في ذكرها، فلا بدّ من تقديم أصلين متفق عليهما بين أهل العلم:

أحدهما: أن النصوص إذا وردت فإن وافقت المعقول تركت ظواهرها، وإن خالفت صريح المعقول وَجَبَ تأويلها، واعتقاد أن حقائقها ليست مرادة، فيجب ردّها إذ ذاك إلى المجاز.

الثاني: أن الدلائل إذا تعارضت فدلّ بعضها على إثبات حكم، وبعضها على نفيه، فلا نتركها متعارضة إلا وقد أحسسنا من أنفسنا العجز باستحالة إمكان الجمع بينها، وامتناع جمعها متضافرة على معنى واحد.

وإذا تقرر ذلك فلنشرع الآن في ذكر النصوص الدالة على التجوُّز في إطلاق ما يوهم الإلهية على نفسه.

ثم نتبع ذلك بذكر النصوص الدالة على إنسانيته المحضة، ونجمع بينها وبين النصوص المثيرة لهم شبهاً نكصت أفهامُهم لقصورها عن تأويلها، فعموا بها وضلوا»[1].

ثم ذكر ستة من هذه النصوص وردّ عليها، مستعملاً المجاز في الرد غالباً... وذكر الستة وردّ عليها أيضاً.

هذا هو موضوع الكتاب فهو رسالة تناولت هذا الجانب من انحراف النصرانية، وهو بلا شك أخطر جانب من جوانب الانحراف.

وابن القيم لم يتعرّض لهذه المسألة مفصلاً، كتفصيل الغزالي فيها، بل أشار إليها في مواطن متناثرة من كتابه.

ومع ذلك فهداية الحيارى يبقى متميزاً بسعته، وشموله، وتناوله لأبرز مسائل الانحراف عند النصارى، في عقيدتهم وحتى في شريعتهم في بعض الأحيان.

هذا من جهة الموضوع، أما من جهة الأسلوب فإن الأسلوب الفلسفي الكلامي غالب في الكتاب يظهر في كل صفحة من صفحاته.

وقد لفت هذا الأسلوب نظر محققه شدياق فنراه يقول: (وفي الحق أن مما يحيّر القارىء في قراءته الأولى للردّ الجميل، ما يجده فيها من عسر العبارة ودقة التأويل والأسلوب الذي يغلب عليه الغموض والالتواء، ومعاودات المؤلف الكثيرة، لكي يفصح

---

(١) انظر: الرد الجميل: ص ٢٤٢ ـ ٢٤٣.

عن فكرة ما، حتى يتسنى له الاهتداء إلى تعبير مناسب لها)[1].

والحقيقة أن الأسلوب الفلسفي ــ الذي اعتمده الغزالي في كثير من مؤلفاته ــ هو الذي أورد هذا الإشكال على محقق الرد الجميل، وعلى غيره من الذين يقرأون في كتب الغزالي الفلسفية، مثل تهافت الفلاسفة، والمنقذ من الضلال، وهذا الكتاب الذي اتخذ هذا المنحى في ردّه ونقاشه.

وأود أن أقدم نموذجاً من أسلوبه هذا، من مقدمة كتابه، لنعلم أن الأسلوب شمل حتى المقدمة.

يقول الغزالي: «... وهم في ذلك طائفتان: طائفة ــ وهم الأكثر ــ لم يمارسوا شيئاً من العلوم التي يقف بها الناظر على استحالة المستحيل فيجزم باستحالة وجوده، وإيجاب الواجب، فينفي عدم وقوعه وإمكان الممكن، فلا يعتقد محالاً لازماً لطرفي وجوده وعدمه.

وطائفة لهم أدنى معقول... يعوّلون تارة على تقليد الفيلسوف في مسألة الاتحاد لإعظامهم ما يؤدي إليه من هدم قواعد تضافرت على ثبوتها صرائح العقول، فارّين من هذه المعضلة إلى التقليد المحض...»[2].

ثم نراه يقول: «ثم إن مثل هذا القياس لا يسامح الفروعي نفسه في استعماله، بل هو من الأقيسة المهجورة المسمى بقياس التعقيد»[3].

هذا الأسلوب لم يتبعه ابن القيم في كتابه، ولا في أي من مؤلفاته، لذلك كان أسلوبه شيئاً ممتعاً، وردّه واضحاً، وعبارته سهلة، كما أوضحنا من قبل.

بعد هذه المقارنة السريعة بين هداية الحيارى وبين هذه الكتب الثلاثة، لا بد من الإشارة إلى أنه وإن ألفت كتب في موضوع الرد على اليهود والنصارى، فإن ذلك لا يعني التقليل من شأن هذا الكتاب، فلكل أسلوبه ومنهجه وظروفه التي دفعته للتأليف، وبالتالي

---

(١) انظر: الرد الجميل: ص ١٢٦.
(٢) المرجع السابق: ص ٢٣٦.
(٣) المرجع السابق: ص ٢٣٧.

فإن موضوعات الكتاب ستختلف عن غيره تبعاً لهذه الظروف التي عاشها المؤلف، وتبعاً للشبهات أو الاستفسارات التي واجهته.

وقد ألف علماء المسلمين قبل ابن القيم، وبعده مؤلفات مختلفة عالجت هذه القضية، منها ما ألف في حادثة معينة رداً على أحد القساوسة أو الأحبار، ومن ذلك كتاب ابن حزم: «الرد على ابن نغريلة اليهودي» وكتاب أبي عبيدة الخزرجي في الرد على أحد القساوسة الإسبان، وكتاب إظهار الحق للشيخ رحمه الله الهندي، الذي كان في أصله مناظرة عقدت بين الشيخ وبين أحد القساوسة الإنجليز في الهند.

ومن هذه الكتب ما ألف ليعالج القضايا المعاصرة لمؤلفها، مثل كتاب: الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم، والملل والنحل للشهرستاني، وكتاب: الإعلام بما في دين النصارى من أوهام للقرطبي، والأجوبة الفاخرة للقرافي، وكتاب: التخجيل لابن تيمية، وغير ذلك من المؤلفات القيّمة، جزى الله مؤلفيها خير الجزاء.

ومع كثرة هذه المؤلفات فيبقى لكتاب ابن القيم ميزاته الخاصة، وضرورته في عصره، وفي البيئة التي خرج فيها.

***

الباب الثالث
أصول العقيدة عند اليهود والنصارى

لقد حاول ابن القيم رحمه الله في كتابه، الردّ على أبرز أصول الاعتقاد المنحرفة عند اليهود والنصارى، ونظراً لكون رده جاء متفرقاً في ثنايا الكتاب، رأيت أن أفرد هذا الباب لأتحدث فيه عن أبرز أصول الاعتقاد عند اليهود والنصارى، مع تركيز الحديث عن عقيدة التثليث والأقانيم عند النصارى، وعقيدة التجسيم والتشبيه عند اليهود.

ومن هنا فقد اشتمل هذا الباب على فصلين:

الفصل الأول: أصول عقيدة النصارى.

الفصل الثاني: أصول عقيدة اليهود.

الفصل الأول
أصول عقيدة النصارى

تقوم عقيدة النصارى اليوم على أصول تتفق عليها كل الفرق والطوائف النصرانية المعاصرة ومن أبرز هذه الأصول:

١ ـ **التثليث**: وسنبين مفهوم النصارى اليوم لعقيدة التثليث بشيء من التفصيل.

٢ ـ **عقيدة الصلب والفداء**: وهذه العقيدة تابعة لفكرة الخطيئة الموروثة التي يعتقدها النصارى، وملخصها أن البشر يشاركون أباهم آدم في الخطيئة التي ارتكبها عندما أكل من الشجرة التي نهي عن الاقتراب منها، وشاء الله تعالى أن يغفر للبشر خطيئتهم هذه، فاقتضى عدله أن يرسل ابنه الوحيد ليعيش مع البشر، ثم يصلب تكفيراً عن خطيئة البشر[١].

وعقيدة الفداء هذه تتفق عليها كل طوائفهم، وقد ذكرت في الأناجيل الحالية المحرفة في أكثر من موضع، ومنها ما ورد في إنجيل مرقس حيث يقول المسيح عن نفسه: «لأن ابن الإنسان أيضاً لم يأت لِيُخدم بل ليخدم وليبذل نفسه فدية عن كثيرين»[٢].

كما صرّح بذلك إنجيل يوحنا: «لأنه هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد، لكي لا يهلك كل من يؤمن به، بل تكون له الحياة الأبدية، لأنه لم يرسل الله ابنه إلى العالم ليدين العالم، بل ليخلص العالم»[٣] ومن هنا فقد قدّس النصارى الصليب، ولا زالوا يعتبرونه شعارهم. وقد جاء في شرح بشارة لوقا للقس إبراهيم سعيد: «إنّه من

---

(١) انظر: الإنجيل والصليب، عبد الأحد داود: ص ١ ـ ٦.

(٢) مرقس: ١٠/٤٥.

(٣) يوحنا: ٣/١٦ ـ ١٧.

أوجب واجبات كل مسيحي أن يحمل صليبه مختاراً طائعاً، لأن التعبير بحمل صليبه مستعار من العادة التي قضت بها الأنظمة الرومانية على المحكوم عليه بالصلب أن يحمله كل يوم، ولا بد لحمل الصليب من خطوة تسبقه وخطوة تعقبه، أما الخطوة السابقة فهي إنكار النفس، وأما الخطوة اللاحقة فهي اقتفاء آثار المسيح، وليس حمل صليبنا غاية، لكنه وسيلة لهذه الغاية، وهي اتباع المسيح حيث يمضي»[1]. وعقيدة الصلب والفداء هذه باطلة من أصلها، وفكرة الخطيئة الموروثة لا تتفق مع العدل الإلهي مطلقاً، وآدم عليه السلام عصى ربه، ثم تاب، واستغفر فغفر الله له: ﴿فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم﴾[2].

ومن أبرز الشعائر والطقوس التي تعتبر أسراراً عند النصارى:

١ ــ **التعميد**: وهو من الشعائر التي تتفق عليها كل الطوائف المسيحية. ويكون **التعميد** برش الماء على الجبهة، أو غمس أي جزء من الجسم في الماء، والغالب تغطيس الجسم كله في الماء، ويقوم بذلك الكاهن، والكنيسة القبطية تشترط التغطيس، ولا تجيز الرش إلا لضرورة، كما تشترط أن يكون ثلاث مرات: الأولى باسم الأب، والثانية باسم الابن، والثالثة باسم الروح المقدس[3].

وكان نهر الأردن المكان الذي عمّد فيه المسيح عليه السلام على يدي يوحنا الذي سمي لذلك بالمعمدان.

وينقل الدكتور أحمد شلبي عن كتاب الأصول والفروع للقس بوطر قوله: «**التعميد** فريضة مقدسة يشار فيها بالغسل بالماء، باسم الأب، والابن، والروح القدس، إلى تطهير النفس من أدران الخطيئة بدم يسوع المسيح»[4].

كما نجد في رسالة بولس إلى غلاطية تفسيراً لهذا **التعميد** إذ يقول: «لأن كلكم

---

(١) انظر: محاضرات في النصرانية، محمد أبو زهرة، ص ١٢١ ــ ١٢٢. نقلاً عن شرح بشارة لوقا للقس إبراهيم سعيد.

(٢) سورة البقرة: الآية ٣٧.

(٣) انظر: تاريخ الأقباط، زكي شنودة: ١/ ٨.

(٤) انظر: المسيحية، أحمد شلبي: ص ١٦٩.

الـذين اعتمدتم بـالمسيح، قـد لبستم المسيح»[1] وهـذا يعني أن المسيحي بعـد التعميـد يتحد بالمسيح، وكما قال الأستاذ شارل جيني بير: «فبـالتعميد يـرتدي المسيحي المسيح كما يرتدي اللباس المقدس المنجي، وهو ينزل رمزياً إلى عالم الأموات بغطوسه في النهر أو في إناء التعميد، فإذا ما خرج بعد غطسات ثلاث ـ تماماً كما خـرج المسيح من القبـر بعد أيام ثلاثة ـ أيقن بأنّه سوف يمجد يوماً إن أراد الله له ذلك كما مجّد المسيح»[2].

وهذه طقوس وثنية جاء بها بولس إلى النصرانية، شبيهة بطقوس التضحية بالثور التي تجعل من المؤمن بها إلهـاً هو (آنيس)، ومفهـوم هذا التعميـد نابـع من نفس وجهة النـظر التي يفسر بها مفهوم التضحية بالثور[3].

٢ ـ **سر الاعتراف**: ويكون باعتراف المخطىء مرتكب المعصية أمام الكاهن بذنبه طالباً المغفرة، حيث يعتقدون أن التوبة تنتقل عبر الكاهن إلى الرب، وتعـود إلى صاحبهـا عبر الكاهن أيضاً، فيغفر له ذنبه.

وعن هـذا السر نشـأ ما سمي في العصـور الوسـطى بصكوك الغفـران. ولا يعتـرف البروتستانت بهذا السر.

٣ ـ **العشـاء الربـاني، أو العشاء الأخيـر**: وأصله مـا ورد في الإنجيـل عن العشـاء الأخير للمسيح مع تلاميذه، ففي إنجيل لوقا ما نصّه: «وأخذ خبزاً وشكـر وكسّر وأعـطاهم قائلاً هذا هو جسدي الذي يبذل عنكم، اصنعوا هذا لذكري، وكذلـك أخذ الكـأس أيضاً بعد العشاء قائلاً: هذه الكأس هي العهد الجديد بدمي الذي يسفك عنكم»[4].

فالخبز يرمز إلى جسد المسيح الذي كسر لنجاة البشرية، أما الخمـر فيرمـز إلى دمه الذي سفك لهذا الغرض، وهذا ما أوضحته رسالة بولس لأهل كورنثوس بما نصـه: «لأنني تسلمت من الرب ما سلمتكم أيضـاً، إن الرب يسـوع في الليلة التي أسلم فيها أخـذ خبزاً وشكر فكسر وقال: خذوا كلوا، هذا هو جسدي المكسور، لأجلكم، اصنعوا هذا لـذكري وكذلك أخذ الكأس أيضاً بعد العشاء قائلاً: هذه الكأس هي العهد الجديد بدمي، اصنعوا

---

(١) رسالة بولس إلى أهل غلاطية: ٣/٢٧.

(٢) انظر: المسيحية نشأتها وتطورها، شارل جيني بير: ص ١١٠.

(٣) المرجع السابق نفسه.

(٤) لوقا: ٢٢/١٩ ـ ٢١.

هذا كلما شربتم لذكري فإنكم كلما أكلتم هذا الخبز وشربتم هذا الكأس تخبرون بموت الرب إلى أن يجيء»[1].

وهذا ما تعبّر عنه الكنيسة الكاثوليكية الرومانية بالاستحالة، أي تحويل الخبز والخمر إلى جسد المسيح ودمه الجوهريين، عندما يلفظ الكاهن بكلمات التقديس الموهوم، مع أنّه قد يظهر لكل الحواس الخمسة أن الخبز والخمر باقيان على جوهرهما ولم يتغيّرا.

ويحاول عوض سمعان أن يبيّن العلاقة بين الخبز وجسد المسيح فيقول: «إن الخبز مثال للمسيح من ناحيتين رئيسيتين، فالخبز قوام الحياة الجسدية، والمسيح قوام الحياة الروحيّة، والخبز اجتاز في النار حتى أصبح طعامنا الجسدي، والمسيح احتمل نار دينونة الخطيئة عوضاً عنّا، لكي يكون طعامنا الروحي الذي يهبنا حياة إلى الأبد»[2].

ولا شك أن هذا التوفيق يبقى عاجزاً عن أي إقناع أو دليل معقول لقدمه والتكلف ظاهر فيه.

أما الخمر فعلاقته بدم المسيح ــ كما يقول عوض سمعان ــ: «أنه أقرب مثال للدم من ناحيتين، فكلاهما أحمر اللون وكلاهما حياة الجسم الذي يجري فيه، فالخمر هي حياة الكرمة والدم هو حياة الجسد»[3].

ويقول عوض سمعان عن هذه الخمر: «ولم تكن الخمر التي تستعمل في عيد الفصح من النوع الذي يسكر، لأنه لم يكن مسموحاً بوجود أي نوع من الخمير في هذا العيد، إذ إنها ــ كما يقول المؤرخون ــ كانت عصير العنب الطازج»[4].

ومع ذلك فإن النصارى اليوم خالفوا ذلك ويشربون الخمر المسكر بحجّة أن بولس أباح لهم أن يشربوا أيّ شيء، وكل ما يدخل الفم فليس بنجس ــ كما يقولون ــ.

ويستدل الشيخ رحمة الله الهندي على بطلان هذه الخرافة بوجوه كثيرة منها[5]:

---

(١) رسالة بولس الأولى ألى أهل كورنثوس: ١١/ ٢٣ ــ ٢٦.
(٢) انظر: العشاء الرباني، عوض سمعان: ص ١٨.
(٣) المرجع السابق: ص ٢١.
(٤) المرجع السابق: ص ١٠.
(٥) انظر: إظهار الحق، رحمة الله الهندي: ١/ ٥٦٤ ــ ٥٦٧. (تحقيق عمر الدسوقي).

(أ) أن الكنيسة الرومانية تزعم أن الخبز وحده يتحول إلى جسد المسيح ودمه ويصير مسيحاً كاملاً، وبذلك فلا بد أن تشاهد فيه عوارض الجسم، ويوجد فيه الجلد والعظام، والحقيقة أن الخبز يبقى خبزاً تشاهد فيه عوارض الخبز لا عوارض الجسم، بدليل أنه لو ذاقه أحد أو لمسه أو نظر إليه لا يحسّ فيه شيئاً غير الخبز، وإذا حفظه يطرأ عليه الفساد الذي يطرأ على الخبز.

(ب) إذا فرضنا أن ملايين الكهنة في العالم قدّسوا في آن واحد، واستحالت تقدمة كل إلى المسيح الذي تولد من العذراء، فلا يخلو إما أن يكون كل من هؤلاء المسيحيين الحادثين عين الآخر، أو غيره، والثاني باطل على زعمهم، والأول باطل في نفس الأمر، لأن مادة كل غير مادة الآخر.

(ج) إذا تحوّل هذا الخبز مسيحاً كاملاً تحت يد الكاهن فكسر هذا الكاهن هذا الخبز كسرات كثيرة، فلا يخلو إما أن يتقطع المسيح على عدد الكسرات أو تتحول كل كسرة مسيحاً كاملاً.

(د) لو صحَّ ما ادّعوه لزم أن يكونوا أخبث من اليهود، لأن اليهود ما آلموه إلا مرة واحدة، وتركوه، وما أكلوا لحمه، وهؤلاء يؤلمونه، ويذبحونه كل يوم في أمكنة غير محصورة. هذه الأوجه وغيرها تدل على أن مسألة الاستحالة هذه مسألة غير معقولة، ولا متصورة، ومن هنا فقد اختلفت طوائف النصارى في تفسيرها، وهل الاستحالة حقيقية أو غير حقيقية.

ولا بد لنا من الإشارة هنا إلى أن هذا المفهوم الجديد على النصرانية ـ والذي يعتبر من إضافات القديس بولس لها ـ إنما هو من المفهومات التي تعود في أصولها إلى جذور وثنية.

يقول الأستاذ جيني بير: «ولم يكن قد قدّر لأي طقس من طقوس الأسرار الوثنية أن يذخر بمعانٍ وفيرة، وبآمال جذابة مثل ما ذخرت به الطقوس الخاصة بالضربات لدى بولس، غير أنها كانت من قبيل عائلة الطقوس الوثنية، ولم تكن نابعة من روح الدين اليهودي، ولقد أُدخلت في كنيسة الحواريين قطعة من الوثنية، ولكن المسيحيين تقبلوها أيضاً بصدر رحب، لأنها أضافت إلى إيمانهم درجة أخرى من التسامي»[1].

---

(١) المسيحية: نشأتها وتطورها، شارل جيني بير: ص ١١٠.

٤ ــ **المسح بالميرون المقدس**: ويمسح به النصراني وفق تقليد معيّن بعد الخروج من المعمودية، والميرون مزيج من العقاقير عليه بقايا تحدرت من الدهن الذي صنعه الرسل ــ كما يدعي رجال الكهنوت ــ ويقوم الكهنة بهذه العملية.

٥ ــ وهنالك سرّ المسح على المريض ليشفى جسدياً وروحياً، وسر الزواج للربط بين الزوجين رباطاً مقدساً دائماً[(١)].

التثليث والأقانيم عند النصارى:

تعرض ابن القيم رحمه الله في كتابه إلى مسألة التثليث، وبيّن اختلاف النصارى أنفسهم في تحديد مفهومها.

ونقل ما قاله شيخه ابن تيمية في ذلك: «فلو سألت الرجل وامرأته وابنته وأباه وأمه عن دينهم لأجابك كل واحد منهم بغير جواب الآخر، ولو اجتمع عشرة منهم يتذكرون الدين لتفرقوا عن أحد عشر مذهباً»[(٢)].

ثم عرض ابن القيم لأقوالهم مبيناً أنها لا يمكن أن تنسجم أو تتلاءم مع بعضها، بأسلوب يظهر فيه التهكم من أقوالهم، ونرى ذلك جلياً في قوله بعد نقل مقولتهم: «وقالوا: والذي ولدته مريم وعاينه الناس وكان بينهم هو الله، وهو ابن الله، وهو كلمة الله».

بعد ذلك يقول ابن القيم مستهزئاً بمثل هذه المعتقدات: «القديم الأزلي خالق السموات والأرض، هو الذي حبلت به مريم وأقام تسعة أشهر، وهو الذي ولد ورضع، فطعم وأكل وشرب وتغوّط، وأخذ وصلب وشد بالحبال وسمّرت يداه».

واكتفى ابن القيم بعد ذلك لبيان بطلان هذا الاعتقاد بإيراد اختلاف فريتهم في تحديد المسألة، فاستعرض أشهر الفرق التي اختلفت في طبيعة المسيح عليه السلام، وهي اليعقوبية، والملكانية، والنسطورية.

---

(١) راجع المسيحية، أحمد شلبي: ص ٢٤١ ــ ٢٤٣.

(٢) انظر: الجواب الصحيح: ٣/١٥٥.

ثم قـال: «وكـل من تلك الفـرق الثـلاث، عـوامهم لا يفهم مقـالـة خـواصهم على حقيقتها».

وأود هنا أن أجلي الحديث عن هذه المسألة التي طال الخـوض فيها حتى بين فـرق النصارى أنفسهم، مبيناً منـاقضتها للعقـل وخلوّ الأناجيـل الأربعة منهـا، ومحاولـة بعضهم لتوضيحها.

مفهوم التثليث عند النصارى:

عقيدة التثليث أو الثالوث الأقدس ـ كمـا يسمّيه النصـارى ـ عقيدة تتفق عليهـا كل الطوائف المسيحية اليوم، وتعدّ أساساً للديانة النصرانية.

وكلمة الثالوث تطلق عند النصارى على وجود ثلاثة أقانيم معاً في اللاهـوت، تعرف بالأب والابن والروح القدس.

ويلخص قاموس الكتاب المقدس هذه العقيدة بالنقاط الست التالية[1]:

١ ـ الكتاب المقدس يقدّم لنا ثلاث شخصيات يعتبرهم شخص الله.

٢ ـ هؤلاء الثلاثة يضعهم الكتاب بطريقـة تجعلهم شخصيات متميـزة الواحـدة عن الأخرى.

٣ ـ هذا التثليث في طبيعة الله ليس مؤقتاً أو ظاهراً بل أبديّ وحقيقيّ.

٥ ـ هذه الشخصيات متساوية.

٦ ـ لا يـوجد تنـاقض في هذه العقيـدة بل تقـدم لنا المفتـاح لفهم بـاقي العقـائـد المسيحية.

والأقانيم كلمة سريانية مفردهـا أقنوم، وهـو الشخص أو الكائن المستقـل بذاتـه[2]، ويعتقـد النصارى أن الله مكـوّن من ثلاثـة أقـانيم هي الأب والابن والـروح القـدس، وإن اختلفوا في أقنوم الابن وطبيعته، هل هو طبيعة واحدة ومشيئة واحـدة؟ كما ذهبت الكنيسـة

---

(١) انظر: قاموس الكتاب المقدس: ١/٢٣٢.

(٢) انظر: الله واحد أم ثالوث، محمد مجدي مرجان: ص ٩.

الأرثوذكسية، أو أنها من طبيعتين ومشيئتين؟ كما ذهبت الكنيسة الكاثوليكية والبروتستانتية، ولا بد عند الحديث عن الثالوث والأقانيم من إبراز قضيتين هما:

الأولى: أن هـذه العقيدة لم يـأت بها الإنجيـل، ولم يكن الحـواريـون يعـرفـونهـا، وبولس هو الذي أدخلها إلى النصرانية.

الثانية: أن هذه العقيدة لا تتفق مع العقل السويّ، وفلاسفة النصارى ورجـال الدين عندهم يقرّون بذلك، ويعترفون أنها فوق مستوى العقل البشري، وأنه لا طاقة للعقل على استيعابها وفهمها، ولا بد من الإيمان بها دون إدراك لها.

التثليث في الكتاب المقدس:

أمـا القضية الأولى فيكفي لإثبـاتها أن نعلم أن الأنـاجيل الأربعـة الحـاليـة تخلو من كلمتي: أقانيم، وثالوث.

ومـع ورود الأقانيم الثـلاثة كـل على حدة في نصـوص الأناجيـل، فإننـا لا نجـدهـا مجموعة معاً لتشكل الأقانيم الثلاثة المزعـومة إلاّ في مـوضع واحـد، جاء في آخـر إنجيل متى: «امضوا وتلمذوا جميع الأمم باسم الأب والابن والروح القدس»(١).

والنص مشكوك فيه، ويعتقد أنه مضاف إلى إنجيل متى في فترة متأخرة بعد استقرار مفهوم التثليث الذي وضع مؤتمر نيقية سنة ٣٢٥م قواعده الأولى، وأكمـل بناؤه في مجمـع القسطنطينية سنة ٣٨١م.

والنصارى يقولون: إن تعليم الثالـوث وإن لم يأت بـه الإنجيل بنصّـه إلاّ أنّه مـطابق لمجموع نصوصه.

يقول بطرس البستاني في دائرة معارفه: «ومع أن لفظة «ثالوث» لا توجد في الكتـاب المقـدس ولا يمكن أن يؤتى بآيـة من العهد القـديم، تصرّح بتعليم الثـالوث، فقـد اقتبس المؤلفون المسيحيون القدماء آيات كثيرة تشير إلى وجود صور جمعية في اللاهوت»(٢).

كما جاء في دائرة المعارف الفرنسية أن عقيدة التثليث وإن لم تكن موجودة في كتب

---

(١) متى: ١٨/ ١٩.
(٢) دائرة المعارف، المعلم بطرس البستاني: ٦/ ٣٠٥.

العهـد الجديـد، ولا في أعمال الآبـاء الرسـوليين، ولا عنـد تـلاميـذهم الأقـربين، إلا أن الكنيسة الكاثوليكية والمذهب البروتستانتي التقليدي يدّعيان أن عقيدة التثليث كانت مقبولة عند المسيحيين في كل زمان، رغماً من أدلة التاريخ التي ترينا كيف ظهرت هـذه العقيدة، وكيف نمت، وكيف علقت بها الكنيسة بعد ذلك[١].

رغم هـذه الحقائق والأدلـة فإن النصـارى مصـرّون على أن هـذه العقيـدة جـاء بهـا الكتاب المقدس، وهم يحاولون بكل وسعهم جمع النصوص التي يجدون فيهـا إشارة إلى هذا الثالـوث الذي يعتقـدونه، ولـو بطرف خفي، ليتمسكـوا بأيـة حجة، ولـو كانت واهيـة لا تـدل على المعنى الـذي ينشـدونـه، وهم ينشـرون ذلـك في كتبهم ورسـائلهم، يقـول (رمسيس ونيس): «عقيـدة التثليث ليست جديـدة على الكتـاب المقـدس، بـل هي خيط قرمزي يبدأ من التكوين إلى الرؤيا[٢] وذلـك دليل واضـح على أن فكرة التثليث والتـوحيد ليست حادثاً من اختراع الكنيسة الأولى، بل هو فكر الله منذ الأزل»[٣].

التثليث في ميزان العقل:

وأما القضية الثانية التي أردنا إبرازها فهي مخالفة عقيدة الثالوث للعقل السليم.

والنصارى أنفسهم لا يدركون حقيقة هذا الاعتقاد، ومن هنـا جاء اختـلاف طوائفهم في فهم هذه العقيدة. وهم يؤمنون بها سماعاً وتقليداً لما ورثـوه من آبائهم، ولا يسمحـون لعقولهم أن تتعمق في البحث عن أسرارها.

واعترافات النصارى بعدم قبول العقل لعقيدة التثليث كثيرة، وينقل لنا صاحب كتاب «الله واحد أم ثالوث» لبعض هذه الاعتـرافات التي صـرّح بها بعض كتـاب المسيحيّة[٤]، ومن ذلك ما ينقله عن القس (توفيق جيد) في كتابه (سرّ الأزل) إذ يقول فيه: «إن الثالـوث سرّ يصعب فهمه وإدراكـه، وإن من يحاول إدراك سـرّ الثالـوث تمام الإدراك كمن يحـاول وضع مياه المحيط كلها في كفّه».

---

(١) انـظر: دائرة معـارف القرن العشـرين، محمـد فـريـد جبـري: ٢٠٢/١٠ نقـلاً عن دائـرة المعـارف الفرنـسية.

(٢) أي يشمل الكتاب المقدس كله بدءاً من سفر التكوين وانتهاءً برسالة رؤيا يوحنا الثانية.

(٣) هل الله موجود؟، رمسيس ونيس: ص ١٧ ــ ١٨.

(٤) انظر كتاب: الله واحد أم ثالوث، محمد مجدي مرجان: ص ٧٠ ــ ٧١.

ويقـول باسليـوس إسحق في كتابـه الحق: «أجل إن هـذا التعليم عن الثالـوث فوق إدراكنـا، ولكن عدم إدراكـه لا يبطله» أمـا الأستاذ (يس منصـور) فيقول في كتـابـه التثليث والتوحيد: «إن من الصعب أن نحاول فهم هذا الأمر بعقولنا القاصرة».

ثم يـأتي الأستاذ عـوض سمعان فيقـول أيضاً بصـراحة في كتـابـه: (الله ذاتـه ونـوع وحدانيته): «إننا لا ننكر أن التثليث يفوق العقل والإدراك، ولكنّه يتوافق مـع كمال الله كـل التوافق».

ويستطرد الأستاذ عوض سمعان قائلاً: «لقد حاول كثيرون من رجال الفلسفة توضيح إعلانات الكتاب المقدس عن ذات الله، أو بالأحرى عن ثـالوث وحـدانيته، فلم يستـطيعوا إلى ذلك سبيلاً، لأنهم انحرفوا عن أقواله واعتمدوا على عقولهم وحدها».

أمـا القس (بوطـر) صاحب رسـالة الأصـول والفروع فيقـول بعد استعـراضه عقيـدة التثليث وملاحظته غموضها: «قد فهمنا ذلك على قدر طاقة عقولنا، ونرجو أن نفهمه فهمـاً أكثـر جلاءً في المستقبـل، حين ينكشف لنا الحجـاب عن كل مـا في السموات والأرض، وأما في الوقت الحاضر ففي القدر الذي فهمناه الكفاية». ويعقب الأستاذ مرجان على هذه الاعترافات التي ساقها عن كُتّاب النصرانية بتساؤلات مناسبة فيقول: ترى إذا كان الفلاسفة والعلمـاء قد عجـزوا عن فهم هذا الثـالوث، فمن يـا ترى يستـطيع فهمـه؟ وما هـو موقف البسطاء والعامة إذا ما حاولوا الفهم؟ وإذا لم نستطع إدراك عقائدنا الدينية بعقـولنا، فبمـاذا يا ترى يمكننا إدراكها؟.

هل يطلب منّا دعاة التثليث أن نتخلى عن عقولنا ونسلم بـالثالـوث؟ وإذا كنا جميعـاً نحن وهم لا ندرك هذا الثالوث، فكيف يمكن لأي منا أن يتبعه أو يسير عليه[1]؟.

وتحت عنوان «خلاصة العقيدة القبطية» يتحدث الأب زكي شنودة في مـوسوعتـه عن مسألة الثالوث فيقول: «وهذه حقيقة تفوق الإدراك البشـري الذي لا يفهم، إلاّ أن الـطبيعة الـواحـدة إنّمـا تتضمن أقنـومـاً واحـداً، أي ذاتـاً واحـدة، وأن تعـدد الأقـانيم أو الـذوات إنمـا يستـوجب تعـدد الـطبـائـع، بيـد أنّ هـذا الحـال هـو بـالنسبـة للطبيعـة المخلوقـة لا الخالقة»[2].

---

(١) الله واحد، أم ثالوث: ص ٧١.
(٢) تاريخ الأقباط، زكي شنودة: ١/٢٤١.

هـذه الاعترافـات إنّما تـدل على أن القوم أنفسهم لم يستـطيعوا هضم هـذا الاعتقاد الفلسفي الدخيل على النصرانية، مما اضطرهم إلى أن يبدأوا بالبحث عن مخرج أو تبريـر يقدمونه لأتباعهم محاولة لإقناعهم وإزالة اللبس من أذهانهم.

محـاولات للتوضيـح:

رغم مخالفة التثليث لأبسط قواعد العقل، ولعدم استناده إلى أدلة نصيّـة واضحة من الكتاب المقدس، إلّا أن بعض كُتّاب النصرانية حاولـوا توضيـح مفهوم الأقـانيم، وتبسيطه قدر استطاعتهم، ومن ذلـك ما نجـده عند الأب زكي شنـودة في تاريـخ الأقباط إذ يقـول: «وقد فهمنا من كلام السيد المسيح أن الأقانيم الثـلاثة الـذين في الله، وإن اتحدوا جـوهراً وطبعاً وذاتاً وصـاروا واحداً، إلّا أنهم ثـلاثة لا واحـد من حيث الأقنومية، فالأب ليس هـو الابن والـروح القـدس ليس هـو الأب ولا الابن، غيـر أن لكـلٍّ مـا لـلآخـر من الألقــاب والصفات الإلهية... ذلك لأن الطبيعة واحدة ولأن الأقانيم الثلاثـة هم واحد، دون تعـدد أو تركيب أو تأليف وإلا كان في الذات العلية ثلاثة آلهة»[1].

كما حاول الأب شنودة أن يوضح لنا طبيعـة كل أقنـوم، والعلاقـة بينها فقـال: «وقد دعي الأقنـوم الأول أباً أو والـداً، والثاني ابنـاً أو مولـوداً، وليس المقصود خـروج كائن من كائن أو الانتقال من اللاوجود إلى الوجود، وإنما المقصود بهـا أن الأقنوم الأول هـو بمثابـة ينبـوع أعطى الأقنـوم الصادر عنـه طبيعته وجـوهره كله، فكـان الثاني صـورة كاملة لـلأول مساوياً له في الطبيعة والجوهر... وقد دعي الأقنوم الثالث الروح القدس، ليس لأن بينـه وبين الأقنـومين الآخرين تميـزاً في روحانيـة الجـوهـر، لأنهم متسـاوون في ذلـك، وإنمـا لأعمـاله الخـاصة بـه. والروح القـدس وإن كانت لـه طبيعة الأب وجـوهره كـالابن إلّا أنه لم يدع ابناً، بل يقال له (روح منبثق) أي صادر عن الأب، وهذا سر من أسـرار اللاهـوت الغامضة التي لا يمكن إدراك كنهها بالعقل البشري، وإنمـا ينبغي أن نؤمن بها كمـا وردت على لسان المسيح»[2].

ولقد حاول الأستاذ مرجان ـــ وقد كـان نصرانيـاً ـــ أن يعرف بـالعناصـر الثلاثـة التي

---

(١) تاريخ الأقباط، شنودة: ١/ ٢٤١.

(٢) المرجع السابق: ١/ ٢٤١ ـ ٢٤٢.

تكوّن الثالوث مستنداً في تعريفه ـ كما قال ـ إلى الكتاب المقدس. فأعطى فكرة عن حقيقة كل عنصر من هذه العناصر[1].

وتحت عنوان «حقيقة الأب» قال الأستاذ مرجان: «الله الأب هو الأقنوم الأول في الثالوث المسيحي، وقد سمي أباً لأن له في اعتقاد فلاسفة المسيحية ابناً، والابن هو المسيح، وبما أنه مولود من الله فهو إله مثل الله»[2]. ويبين الأستاذ مرجان أن اعتقاد البنوة هذا ليس واضحاً بمفهومه الحالي في الكتاب المقدس، وإذا كانت بعض النصوص تطلق على المسيح (ابن الله)، فإن نصوصاً غيرها تطلق عليه ابن الإنسان وابن داود، وقد ناقش هذا الاعتقاد جيداً، وبيّن أن لفظ البنوّة هذا لا يقصد به وجود علاقة نسب خاصة بين الله وبين المسيح، كما لم يقصد به ولادة السيد المسيح أو تناسله من الله أو انفراده وحده ببنوّة الله، وإنما قصد بها فقط إبراز قرب السيد المسيح عليه السلام من الله، ويشترك معه في هذا القرب كافة أنبياء الله وعباده الصالحين[3].

وسرد الأستاذ مرجان مجموعة من نصوص الكتاب المقدس أطلقت لفظ (ابن الله) على عدد من الأنبياء، مثل آدم ويعقوب وداود وسليمان[4] عليهم السلام.

كما استعملت التوراة هذا اللقب لأفراد الشعب: «أنتم أولاد الرب إلهكم»[5] وأطلقته على المؤمنين بالله من أتباع نوح عليه السلام[6].

كما صرّح العهد الجديد بذلك أيضاً في نصوص كثيرة: «طوبى لصانعي السلام لأنهم أبناء الله»[7]، «لتكونوا أبناء أبيكم الذي في السموات»[8]، «إني أصعد إلى أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم»[9] إلى غير ذلك من عشرات النصوص من مثل ذلك.

---

(١) الله واحد أم ثالوث، مجدي مرجان: ص ٩٤.
(٢) المرجع السابق نفسه.
(٣) المرجع السابق: ص ٩٤ ـ ٩٥.
(٤) انظر: لوقا: ٣٨/٣، صموئيل الثاني: ١٤/١٧، أخبار الأيام الأولى: ١٠/٢٢.
(٥) انظر: التكوين: ١/١٤.
(٦) انظر: التكوين: ١/٦ ـ ٣.
(٧) متى: ٩/٥.
(٨) متى: ٤٥/٥.
(٩) يوحنا: ١٧/٢٠.

حقيقة الابن:

يعتقد النصارى أن الله الابن هو كلمة الله، فهو الكلمة التي خرجت من الذات فصارت الكلمة ابناً للذات، وصارت الذات أباً للكلمة، وصارت كل من الذات والكلمة أقنوماً قائماً بذاته يدعى الأول (الله الأب)، ويدعى الثاني (الله الابن)، ويبتدىء يوحنا إنجيله بهذه المسألة فيقول: «في البدء كان الكلمة، والكلمة كان عند الله، وكان الكلمة الله... والكلمة صار جسداً وحلّ بيننا»(١).

وبهذا يقرر (يوحنا) أن الله الكلمة وهو الله الابن، وأن الله الكلمة تجسّد وحلّ بين البشر على الأرض، وأن الله الكلمة هو الابن الوحيد لله الأب، وهو المسيح عليه السلام.

فالمسيح ابن الله وهو في نفس الوقت الإله الكلمة، الذي اتخذ جسداً وحلّ بين البشر.

ولم يتضح هذا المفهوم في الكتاب المقدس إلّا في إنجيل يوحنا، وهو إنجيل مشكوك في نسبته إلى يوحنا الحواري، فقد أنكر علماء المسيحية في القرن الثاني نسبة هذا الإنجيل إلى يوحنا الحواري(٢).

ونقل الأستاذ متولي شلبي عن (ستادلن) قوله: «إن كافة إنجيل يوحنا تصنيف طالب من طلبة مدرسة الاسكندرية... وكانت فرقة ألوجين في القرن الثاني تنكر هذا الإنجيل وجميع ما استند إلى يوحنا»(٣).

كما نقل لنا الشيخ أبو زهرة عن دائرة المعارف البريطانية ما نصه: «أما إنجيل يوحنا فإنه لا فِرْية ولا شك كتاب مزوّر أراد صاحبه مضادة اثنين من الحواريين بعضهما لبعض، وهما القديسان يوحنا ومتى، وقد ادعى هذا الكاتب المزور في متن الكتاب أنه هو الحواري الذي يحبه المسيح، مع أن صاحبه غير يوحنا يقيناً... وإنا لنرأف على الذين يبذلون منتهى جهدهم ليربطوا ولو بأوهى رابطة ذلك الرجل الفلسفي الذي ألف هذا

---

(١) يوحنا: ١/١، ١٤.

(٢) انظر: أضواء على المسيحية، متولي شلبي: ص ٤٧.

(٣) المرجع السابق نفسه.

الكتاب في الجيل الثاني، بالحواري يوحنا الصيّاد الجليل، فإن أعمالهم تضيع عليهم سدى لخبطهم على غير هدى»[1].

وقد تعرَّض الأستاذ موريس بوكاي لإنجيل يوحنا، وبيّن أن الشك قائم حول الكاتب، ورجّح أن له أكثر من كاتب. وينقل (كولمان) ـ أحد النقاد من النصارى ـ أن هناك إضافات لاحقة جلية في هذا الإنجيل مثل الفصل الحادي والعشرين الذي قد يكون عمل تلميذ، أجرى بعض التنقيحات في جسم هذا الإنجيل، ثم يعقب الأستاذ بوكاي على ذلك فيقول: «هذا وإن الملاحظات الفريدة المعطاة من أكبر الكُتّاب المسيحيين المذكورة هنا في مسألة كاتب الإنجيل الرابع تؤكد كلها ـ دون عرض الافتراضات الصادرة عن الشراح ـ غموض الأمر حول هويته»[2].

والمسيح هو كلمة الله حقاً، وقد أطلق القرآن الكريم عليه هذا الوصف: ﴿يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم﴾[3].

إلّا أن المعنى الذي يعنيه القرآن الكريم: هو أن المسيح عليه السلام خلق بكلمة من الله، هي كلمة (كن) التي خلق بها الأشياء كلها ﴿إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون﴾[4] وأراد القرآن الكريم أن يقرّب صورة خلق عيسى عليه السلام من غير أب إلى الأذهان، فشبهه بآدم عليه السلام، الذي خلق من غير أب ولا أم، فقال: ﴿إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم، خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون﴾[5].

أما النصارى فإنهم ضلوا في فهم الكلمة، وصاغوا بها عقيدة جديدة، لم يسمع بها عيسى عليه السلام ولا حواريّوه، يقول القمص إبراهيم في كتابه رسالة التثليث: «إنّه لا فرق بين الله وكلمته، كما أنه لا فرق بين الإنسان وكلمته»[6].

وهذا يعني عند النصارى أن الكلمة هي ذات الله تعالى، مع أن لفظ كن الذي

---

(١) انظر: محاضرات في النصرانية، محمد أبو زهرة: ص ٥٤ نقلاً عن دائرة المعارف البريطانية.
(٢) انظر: التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، مورس بوكاي: ص ٧١ ـ ٧٢.
(٣) سورة آل عمران: الآية ٤٥.
(٤) سورة يس: الآية ٨٢.
(٥) سورة آل عمران: الآية ٥٩.
(٦) انظر: الله واحد أم ثالوث، مجدي مرجان: ص ١٠٥ نقلاً عن رسالة التثليث.

خلق الله به عيسى عليه السلام، خلق به آدم، وخلق بـه الكون، وكـل شيء في الوجـود، فهل هذه كلها ذوات الله تعالى؟

حقيقة الروح القدس:

يرى المثلثة من النصارى أن الروح القدس الذي يمثل عنصر الحياة في الثالوث الأقدس يعتبر أقنوماً قائماً بذاته وإلهاً مستقلاً بنفسه.

يقول الأستاذ يس منصور: «إن الروح القدس هو الله الأزلي فهو الكائن منذ البدء قبل الخليقة، وهو الخالق لكل شيء، والقادر على كل شيء، والحاضر في كل مكان وهو السرمدي غير المحدود»(١).

وقد أضيف هذا الأقنوم ليكمل الثالوث في قانون الإيمان المسيحي في مؤتمر القسطنطينية سنة ٣٨١م.

ولا خلاف بين النصارى اليوم في ألوهية الروح القدس، ولكن الخلاف في انبثاقه (فمجمع القسطنطينية حكم بأن الابن والروح القدس مساويان للأب في وحدة اللاهوت وأن الابن ولد منذ الأزل من الأب وأن الروح القدس منبثق من الابن أيضاً، وقد قبلت الكنيسة اللاتينية هذه الزيادة وتمسكت بها، أما الكنيسة اليونانية فمع أنها كانت في أول الأمر ساكتة لا تقاوم إلا أنها أقامت الحجّة فيما بعد على تغيير القانون حاسبة ذلك بدعة)(٢).

وعلى ذلك الكنيسة الأرثوذكسية ومنها القبطية حيث يقول صاحب تاريخ الأقباط: «والروح القدس منبثق من الأب وحده فالابن ليس له انبثاق»(٣).

والحقيقة أن لفظ روح القدس يرد في الكتب المنزلة ويقصد به عدة معان منها:

١ ــ **روح الله التي تحدث الحياة في الكائنات**: ومن هذه الروح خلق آدم خلق المسيح بل خلق البشر جميعاً ﴿فإذا سوّيته ونفخت فيه من روحي﴾(٤).

---

(١) انظر: الله واحد أم ثالوث: ص ١١٦.

(٢) انظر: دائرة المعارف، بطرس البستاني: ٦/٣٠٥.

(٣) انظر: تاريخ الأقباط، زكي شنودة: ١/٢٤٧.

(٤) سورة السجدة: آية ٩.

وبهـذا المعنى يورد حـزقيال النبـي قـول الله لآلاف الموتى الـذين أحياهم الله على يـديه، يقـول الله لهم «وأجعل روحي فيكم فتحيـون»[1] فالـروح هنا هي سرّ الحياة وهي نفخة من روح الله وقبس ضئيل من قوته.

٢ ـ **القوة التي يؤيد الله بها أنبياءه وأوليـاءه المؤمنين**: فالله سبحـانه يؤيـدهم بروح من عنـده، ومن ذلك قـوله تعـالى: ﴿وإذ قال الله يـا عيسى ابن مريم اذكـر نعمتي عليـك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس﴾[2].

ومنـه قـولـه ﷺ لحسـان: «إن روح القــدس لا يـزال يؤيــدك مـا نــافحت عن الله ورسوله»[3].

ومن هذا المعنى قول المسيح الذي يـورده لوقـا في إنجليه: «روح الـرب علي لأنّه مسحني لأبشر المساكين»[4].

٣ ـ قـد يأتي المعنى خـاصاً بـالروح الأمين جبـريل عليـه السلام ﴿قـل نزّلـه روح القدس من ربك بالحق﴾[5].

هذا هو معنى روح القدس، وليست هي الله، ولا أقنوماً أو جزءاً أو عنصـراً في الله، وإنما هي قوة من خلق الله، ونفحة من قواه، وقبس من نور ضياه، ينعم بهـا على المؤمنين والصالحين.

بطلان عقيدة التثليث:

لقد أوضحنا أن هذه العقيدة لا تملك سنداً لها من الكتاب المقدس، ولا من العقـل السليم، وهـذا يكفي لإثبات بـطلانها إذ لا يؤيـدها المنقـول، ولا المعقول، وتستـطيع أن تؤكد بطلان هذه العقيدة إذا أشرنا إلى أصلها الوثني، وأثر الفلسفة الوثنية عليها.

---

(١) حزقيال: ٣٧/ ٤٠.
(٢) سورة المائدة: الآية ١١٠.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، فضائل الصحابة: ص١٥٧.
(٤) لوقا: ٤/ ١٨.
(٥) سورة النحل: الآية ١٠٢.

التثليث عقيدة وثنية:

قبل أن نبدأ بإثبات وثنية التثليث، لا بد لنا من الإشارة إلى أنه ليس التثليث وحده من أصول النصرانية وثنياً، فأكثر تعاليمها الحالية مستعار من الوثنية.

والدارس للنصرانية اليوم إذا رجع إلى كتب الديانات الوثنية القديمة يدهشه ذلك التماثل الواضح بين الشعائر والطقوس والأركان النصرانية الوثنية.

حتى إنه يمكننا أن نردد مع الأستاذ العقاد أن كل شعيرة في المسيحية كانت معروفة في ديانات كثيرة سبقتها، حتى تاريخ الميلاد وتاريخ الآلام قبل الصلب، فيوم الخامس والعشرين من ديسمبر الذي يحتفل فيه بمولد المسيح، كان هو يوم الاحتفال بمولد الشمس في العبادة المثرية[1].

ويتابع الأستاذ العقاد قوله: «وقد اعترضت الكنيسة الشرقية على هذا اليوم لهذا السبب، وفضلت أن تختار لعيد الميلاد اليوم السادس عشر من شهر يناير الذي تعمد فيه المسيح، على أن هذا اليوم أيضاً كان عيد الإله (ديونسيين) عند اليونان، وكان قبل ذلك عيد (أوزيريس) عند المصريين، ولا يزالون يحتفلون به إلى عصرنا هذا باسم عيد الغطاس، وقد اتخذت المسيحية يوم الخامس والعشرين من شهر آذار تذكاراً لآلام المسيح قبل الصلب، وهذا هو الموعد نفسه الذي اتخذه الرومان قبل المسيح لتذكار آلام الإله (أتيس) إله الرعاة المولود من (نانا) العذراء بغير ملامسة بشرية... وتخصيص يوم الأحد بالعبادة لأنه كان يوم الشمس في ديانة عبّادها الأقدمين، واسم هذا اليوم بالإنجليزية (Sunday)، ومعناه الحرفي يوم الشمس، يدل على بقايا هذا الدين المهجور»[2].

كما أن الباحثين أثبتوا بعض المعتقدات النصرانية الطارئة عليها، والتي لم يكن الجيل الأول يعرفها.

يقول الدكتور أسد رستم: «... والمسيحيون في عصرهم الأول قدّسوا السبت لا الأحد، ولم يصبح الأحد يوم الرب قبل القرن الثاني الميلادي»[3].

---

(١) المثرية: نسبة إلى الإله (مثرا) أحد آلهة قدماء الفرس.

(٢) انظر: كتاب (الله)، للعقاد: ص ٥٣.

(٣) انظر: الروم، د. أسد رستم: ١/ ٣٨.

وقد كتب الأستاذ (محمد طاهر تنير) كتاباً سمّاه (العقائد الوثنية في الديانة النصرانية)، فصّل فيه علاقة النصرانية بالعقائد الوثنية السابقة وأوضح العلاقة الوطيدة بين كل شعيرة من شعائر النصرانية، وما يماثلها من عقائد الوثنيين.

والمطّلع على هذا الكتاب يعلم علم اليقين أن نصرانية بولس لا تزيد على كونها مزيجاً من فلسفات وعقائد وثنية.

وسنقتصر على توضيح علاقة عقيدة التثليث عند النصارى بما يماثلها عند الوثنيين.

التثليث عند الوثنيين:

فكرة تعدد الآلهة فكرة قديمة عند الإنسان، بدأت عند قوم نوح عليه السلام، وقد عبد الناس آلهة شتى، ولكن أبرز عقائد المعددين هي عقيدة التثليث، والمتتبع لتاريخ الأديان الوثنية يجد أن الثالوث المقدس يعتبر من أصول هذه العقائد الوثنية، وقد عرف هذا التثليث قدماء المصريين والهنود، وعرفه قدماء اليونان والرومان والفرس.

التثليث عند قدماء المصريين:

يقول الأستاذ (تنّير): «كان المصريون يعبدون إلهاً مثلث الأقانيم مصوراً في أقدم هياكلهم، ويظن أهل العلم أن الرمز الذي يصوّرونه، وهو جناح ووكر وأفعى، إن هو إلّا إشارة إلى ذلك الثالوث واختلاف صفاته»[1].

وقال العلامة (دوان) في كتابه (خرافات التوراة والإنجيل): (وكان قسيسو هيكل ممفيس بمصر يعبّرون عن الثالوث المقدس للمبتدئين بتعلم الدين بقولهم: «إن الأول خلق الثاني، والثاني مع الأول خلقا الثالث، وبذلك تم الثالوث المقدس)[2].

وسأل (توليسو) ملك مصر الكاهن (تنشوكي) ليخبره هل كان أحد قبله أعظم منه، أو هل يكون أحد بعده أعظم منه؟ فقال له الكاهن: نعم يوجد من هو أعظم، وهو أولاً الله، ثم الكلمة ومعهما روح القدس، ولهؤلاء الثلاثة طبيعة واحدة، وهم واحد بالذات وعنهم صدرت القوّة الأبديّة[3].

---

(١) انظر: العقائد الوثنية في النصرانية، تنير: ص ٢٤.

(٢) المرجع السابق: ص ٢٦.

(٣) المرجع السابق نفسه.

فهل نجد فرقاً جوهرياً بين هذا الثالوث والثالوث المسيحي؟ إنها نفس الأوصاف، بل نفس الكلمات.

وإنك لتحس التعمّد الواضح من واضع هذه الأقانيم في النصرانية للقضاء عليها، ولتذويبها في متاهات الوثنيات القديمة. وهذه المطابقة بين النصرانية والوثنية ليست تأثراً بسيطاً نشأت عن الجو الوثني السائد في ذلك الزمان فحسب، بل هي استعارة لأسس العقائد الوثنية ومرتكزاتها لتكون أسساً للنصرانية الجديدة.

وحتى يتضح لنا الأمر لا بد لنا أن نتعرف على الثالوث المصري وأقانيمه الثلاثة.

والأستاذ مجدي مرجان يذكر أن الثالوث الفرعوني يتكون من ثلاثة أقانيم إلهية هي:

الأقنوم الأول: الإله أوسيري (أوزيريس) ويسمى الأب أو الوالد والاعتقاد عنه أنه الإله الأعظم الأكبر علة ولادة الأقنوم الثاني (هورس) خالق المخلوقات ورب الأرباب.

الأقنوم الثاني: الإله (هورس) ويسمى الابن أو النطق أو الكلمة وهو ابن الإله (أوسيري) وهو النور والشمس المشرقة، وهو إله النطق والكلام، ولذا صوّروه رافعاً أصبعه إلى فمه، كما شبهوه أيضاً بعجل ممتاز عن بقيّة العجول[1]، ولد من نار اللاهوت من عجلة بكر لم تلد سواه، وهو يحمل ذنوب وخطايا العالم، وهو غير الأقنومين الآخرين تشبه وحده بإنسان ليكون قابلاً للموت.

الأقنوم الثالث: الإله (ايزيس) وتسمى الأم أو الوالدة. والاعتقاد عنها أنها ملكة السماء، وأنها أم الأقنوم الثاني، وقد رمزوا لها بصورة طائر جميل وعلى رأسه صولجان، رسموا بجانبه علامة الحياة، وهم يشيرون بذلك إلى أن الإلٰهة (ايزيس) باعثة الحياة للبشر، كما صوّروه امرأة جالسة على عرشها ترضع ابنها (الأقنوم الثاني) وعلى رأسها تاج الملك وقرص الشمس[2].

هذا هو الثالوث المصري بأقانيمه الثلاثة لا يكاد يختلف عن الثالوث النصراني شيئاً، ونجد المطابقة الكاملة بين هذا الاعتقاد وبين ما جاء في قانون الإيمان النيقاوي، حتى في التسميات والتصاوير.

---

(١) وصف المسيح عليه السلام في الإنجيل برنابا بالعجل الأحمر، انظر: برنابا: ٧/٤.

(٢) انظر: الله واحد أم ثالوث، مرجان: ص ٧٩ ــ ٨٠.

الثالوث عند الهنود:

عرف الهنود بكثرة دياناتهم وتعدد آلهتهم، وقد عرف عندهم أكثر من ثالوث.

وينقل الأستاذ (مالنير) عن الكتب الهندية القديمة التي ترجمت إلى الإنجليزية شارحة عقيدة الهنود القدماء ما نصه: «نؤمن بسافتري أي الشمس إله واحد ضابط الكل خالق السموات والأرض وبابنه الوحيد (آني) أي النار، نور من نور، مولود غير مخلوق، تجسد من (فايو) أي الروح في بطن (مايا) العذراء، ونؤمن بـ (فايو) الروح المحيي المنبثق من الأب والابن، الذي هو مع الأب والابن يسجد له ويحمده»[1].

وقارىء هذا النص يحس أنه يقرأ وثيقة الإيمان التي وضعها مجمع نيقية وتؤمن بها الكنائس على اختلافها.

أما البراهمة فقد اعتقدوا بثالوث إلهي مكون من ثلاثة أقانيم هي: الإله (براهما) في صورة الخالق، والإله (فشنو) في صورة الحافظ، والإله (سيفا) في صورة الهادم.

فقد جاء في كتب البرهميين المقدسة المعتبرة لديهم أن هذا الثالوث غير منقسم في الجوهر، ويوضحونه بقولهم: (برهمة) الممثل لمبادىء التكوين والخلق وهو الأب، (فشنو) يمثل مبدأ الحماية وهو الابن المنقلب عن الحال اللاهوتية، و(سيفا) المبتدىء المهلك والمعيد وهو (روح القدس)، ويدعونه (كرشنا) الرب المخلص والروح العظيم، حافظ العالم المنبثق (أي المتولد منه) (فشنو) الإله الذي ظهر بالناسوت على الأرض، ليخلص العالم، فهو أحد الأقانيم الثلاثة التي هي الإله الواحد[2].

وشخصية (كرشنة) في البرهمية تقابلها شخصية المسيح في النصرانية، وقد نقل لنا الأستاذ محمد طاهر تنير مقابلة رائعة بين ما يقوله البراهمة في كرشنة، وبين ما يقوله النصارى في المسيح، وقد أورد ستة وأربعين نصاً وردت في عقيدة البراهمة عن كرشنة، تقابلها بنفس المعنى، وأحياناً بنفس اللفظ نصوص وردت في كتب النصارى عن المسيح[3].

---

(١) انظر: الله واحد أم ثالوث، مرجان: ص ٨١.

(٢) انظر: العقائد الوثنية في النصرانية، محمد ظاهر تنير: ص ٢٠.

(٣) المرجع السابق: ص ١٤٦.

وكذلك الأمر كان في البوذية، ثلاثة أقانيم، وشخصية بوذا تقابل شخصية المسيح، والشبه بيِّن في المعتقدات بينهم وبين النصارى.

التثليث عند الأمم الأخرى:

عرف التثليث عند أمم وثنية كثيرة كاليونان والرومان والفرس والهندوس في المكسيك وكندا، وعرفته الفلسفة الصينية.

أما اليونان القدماء فقد عرفوا التثليث، وظهر في شعرهم؛ قال (دوان) نقلاً عن (أورفيوس) ـ وهو أحد كُتَّاب اليونان وشعرائهم الذين كانوا قبل المسيح بعدة قرون ما نصه ـ: (كل الأشياء عملها الإله الواحد مثلث الأسماء والأقانيم)[1]، وقدماء الرومان عرفوا التثليث، قال العلامة (فسك) في كتابه (الخرافات ومخترعوها): «وكان الرومانيون الوثنيون القدماء يعتقدون بالتثليث وهو أولاً الله ثم الكلمة ثم الروح»[2].

وكذلك الفرس، فإنهم عبدوا الثالوث أيضاً، ويتكون من: (أورمزد، ومتراث، واهرماث)[3] وقد عبد الإله ذو الأقانيم الثلاثة عند الهندوس في المكسيك وكندا، يقول اللورد (كنسبرو) في كتابه (آثار المكسيك القديمة: ٥/١٦٤): والمكسيكيون يعبدون إلهاً مثلث الأقانيم ثم يستشهد على ذلك بقصة قال فيها: (لما عين (بوتورلوميو) مطراناً سنة ١٤٤٥م أرسل أحد القساوسة إلى المكسيك، ليبشر بين الهندوس بالمسيحية، وكان هذا القس عارفاً بلغة الهندوس، وبعد مضي عام على ذهابه أرسل مكتوباً إلى المطران المذكور يقول فيه: إن الهندوس يؤمنون بإله كائن في السماء مثلث الأقانيم، وهو: الإله الأب والإله الابن والإله روح القدس، وهؤلاء الثلاثة إله واحد، واسم الأب (بزونا) واسم الابن (باكاب) مولود من عذراء، واسم روح القدس (ايكيهيّا) ويعبدون صنماً اسمه (تنكا) يقولون عنه إنه واحد في ثلاثة أقانيم وإنه ثلاثة أقانيم في إله واحد)[4].

وكان هذا القسيس يبعث إلى سيده المطران أنه لا داعي للتبشير بالنصرانية بين هؤلاء الوثنيين، فإن اعتقاداتهم لا تختلف عن اعتقاداتنا.

---

(١) العقائد الوثنية في النصرانية: ص ٢٩.
(٢) المرجع السابق نفسه.
(٣) المرجع السابق: ص ٣٠.
(٤) انظر: العقائد الوثنية في النصرانية: ص ٣١.

التثليث والفلسفة:

عندما ابتدأت فكرة عالمية النصرانية على يد القديس (بولس) ودخلت النصرانية إلى العالم الوثني، وخاضت معركة مع الوثنية من جهة، ومع الفلسفة من جهة أخرى، بدأت أفكار تلك الأمم تتسرب إليها (وكان ممن دخل المسيحية في أوائل عهدها رجال مثقفون بالثقافة اليونانية المنتشرة حينذاك في حوض البحر المتوسط)[1].

وقد وقعت النصرانية تحت تأثير الفلاسفة الذين راحوا يطبقون أساليب التفكير التي علموها في المدارس على مبادىء الإيمان، وعلى النظريات التي أوصت بها العاطفة الدينية للسذّج البسطاء، ونشأت عقائد معقدة مثل التثليث، وأخرى تريد أن تكون ذكية مثل تحوّل الخبز والخمر بطقوس القربان إلى لحم ودم المسيح[2].

وأكثر فلسفة اتضحت فيها فكرة التثليث هي الأفلاطونية الحديثة في الاسكندرية وسنقتصر عليها:

فقد اتضحت فكرة التثليث بارزة عند الفلاسفة في مدرسة الاسكندرية، أو ما يسمى بالأفلاطونية الحديثة، فإن التثليث فيها بأقانيمه الثلاثة لا يكاد يختلف شيئاً عن التثليث في النصرانية.

وكان شيخ مدرسة الإسكندرية (أمنيوس) المتوفى سنة ٢٤٢ م اعتنق في صدر حياته المسيحية، ثم ارتد عنها إلى وثنية اليونان الأقدمين، وجاء من بعده تلميذه (أفلوطين) المتوفى سنة ٢٧٠، وقد تعلم في مدرسة الإسكندرية أولاً، ثم رحل إلى فارس والهند، وهناك استقى ينابيع الصوفية الهندية، واطلع على تعاليم بوذا، وديانة برهمة، ثم عاد بعد ذلك إلى الإسكندرية، وأخذ يلقي بآرائه على تلاميذه[3].

وأفلوطين هو الذي برزت في ذهنه قضيّة التثليث، وهي قد تسربت إلى ذهنه وتعلمها من الديانات الهندية، وقد تحدثنا عن التثليث عند الوثنيين الهنود، ولاحظنا تثليث

---

(١) انظر: دروس تاريخ الفلسفة، إبراهيم مدكور ويوسف كرم: ص ٩٤.

(٢) انظر: المسيحية، شارل جيني بير: ص ١٥٤ ــ ١٥٥.

(٣) محاضرات في النصرانية، أبو زهرة: ص ٤٠ (الهامش) عن كتاب مقدمة أو المدخل لدراسة الفلسفة الإسلامية، للمستشرق ليون جوتيه، طبع باريس سنة ١٩٢٣م.

البراهمة وتثليث البوذيين، فعاد أفلوطين من هناك وهو يحمل في جعبته هذه الأفكار.

وتلخيص اعتقاده في منشىء الكون في ثلاثة أمور:

أولها: أن الكون قد صدر عن منشىء أزلي دائم لا تدركه الأبصار.

ثانيها: أن جميع الأرواح شعب لروح واحد، وتتصل بالمنشىء الأول بواسطة.

ثالثها: أن العالم في تدبيره وتكوينه خاضع لهذه الثلاثة، فالله منشىء الأشياء وهو مصدر كل شيء... وأول ما صدر عنه هو العقل، صدر عنه كأنه يتولد منه ولهذا العقل قوة الإنتاج، لكن ليس كمن تولد عنه، ومن العقل تنبثق الروح التي هي وحدة الأرواح وعن هذا الثالوث يصدر كل شيء ومنه يتولد كل شيء[1].

فهل هناك فرق بين هذا الاعتقاد الفلسفي وبين عقيدة الثالوث النصرانية التي أقرتها مجامع النصارى، فالكون عند أفلوطين صدر عن منشىء أزلي دائم، وهو ما يطلق عليه النصارى اسم (الآب)، والعقل هو الواسطة وهو صادر عن المنشىء الأول وهو ما يطلق عليه عند النصارى اسم (الابن)، وعن هذا العقل تنبثق الروح وهي ما يسميه النصارى (روح القدس)، ويقول أفلوطين: وعن هذا الثالوث يصدر كل شيء، ومنه يتولد كل شيء، وهذا هو نفس اعتقاد النصارى في الثالوث الذي يعتبر منشىء الكون وخالقه، يتولد منه كل شيء في الحياة....

ونحن أمام ذلك نجزم بأن المسيحية قد أخذت فكرة التثليث إما عن الفلسفة مباشرة، وذلك لأن أفكار أفلوطين المتوفى سنة ٢٧٠م كانت سابقة على الفترة التي أقرّ فيها التثليث في مجمع نيقية سنة ٣٢٥م، وإما أن تكون المسيحية قد أخذت فكرة التثليث عن الوثنية، وهي نفس المعين الذي استقت منه مدرسة الإسكندرية أفكارها ومعتقداتها... المهم أن عقيدة التثليث دخيلة على النصرانية... ما كانت إلّا انعكاساً للدراسات الأفلاطونية الحديثة والأوهام السائدة في المجتمع الروماني اليوناني.

واللاهوتيون المسيحيون يتجاهلون الترتيب الزمني ويحاولون أن يعززوا القول بأن التفسيرات التالية في الحدوث حسب الترتيب الزمني هي أصل المسيحية أو جوهرها الذي

(١) محاضرات في النصرانية، أبو زهرة: ص ٤٠ (الهامش) عن كتاب مقدمة أو المدخل لدراسة الفلسفة الإسلامية، للمستشرق ليون جوتيه، طبع باريس سنة ١٩٢٣م.

لم يكشف عنه الغطاء، إلاّ بعد تطور معين، ويذكر الباحث اللاهوتي (لين) في كتابه (حقيقة يسوع) الذي ظهر مؤخراً سنة ١٩٧٥، تاريخ تدمير معبد اليهود في أورشيلم على أيدي الرومان سنة ٧٠م كحد فاصل في تاريخ الكتابات الإنجيلية، إذ بدأ بعد هذا التاريخ إضفاء الألوهية على المسيح بوضوح، وهو لا يرى ذلك مجرد مصادفة، بل يرى أن تدمير الهيكل قد استلزم أن تكسر المسيحية تماماً عنها طوق اليهودية بتوحيدها المتشدد)[١].

وهكذا فإن العقيدة المسيحية لم تبق على حالها، وبدأ تطور هذه العقيدة كما أوضح الأستاذ شارل جيني بير كالتالي:

١ ـ لم يكن الإيمان من حيث المبدأ يقبل أي جدل في عقيدته الأساسية الخاصة بالتوحيد.

٢ ـ كانت النهاية لكل الإضافات الإيمانية الخاصة بدور المسيح وشخصيته تقريبية من الله إلى درجة الوحدة.

٣ ـ كانت هناك نزعة عكسيّة تسعى إلى إبراز الألفاظ من رمز الأب والابن وروح القدس في شخصيّات ثلاث تتحدد معالمها، أن تتميز يوماً بعد يوم[٢]. وبذلك تكون المسيحية قد وقعت أمام هذا المأزق (ولم يكن لها إن أرادت الخروج سوى حلين، إما التخلي صراحة عن التوحيد والتسليم بالتثليث، وإما التخلي عن التمييز بين الشخصيات الثلاث في الله، والقول بأن كلاً من هذه الشخصيات ليس سوى جانب جوهري من جوانب الذات الإلهية الواحدة، ولكن غالبية المسيحيين أرادت أن تبقى على وحدة الله التي لا تتجزأ)[٣].

وهكذا تناولت الفلسفة ولادة المسيح دون أب، وألفاظ (ابن الإنسان) (معلم) (سيد) (كلمة) وروح المسيح أو قيامه عند المسيحية، وبدأت تفسر وتحلل هذه العبارات كما شاءت. وبذلك تكون الفلسفة قد دخلت إلى أعماق عقيدة النصارى، تشوهها بأفكارها الوثنية في أصلها، وتفرض عليها ثقافة البيئة الرومانية اليونانية. . . تلك الثقافة

(١) من مقال الدكتور فتحي عثمان في مجلة (هذه سبيلي): ص ٣٥٨.
(٢) المسيحية، جيني بير: ص ١٥٧.
(٣) المرجع السابق نفسه.

التي تعتبر خليطاً من أوهام وتصورات شتى، جمعتها من الأفكار الوثنية واليهودية، والأوضاع السياسية في الدولة الرومانية التي كانت تحكمها. إن كل هذه العوامل كان لها أثر كبير على الفلسفة وعلى مجالات بحوثها... وتنعكس هذه كلها في النهاية على الديانة النصرانية، ونقول أخيراً مع العلامة ول ديورانت في «قصة الحضارة»: (إنا لنحس في هذه الفلسفة بما نحس به في المسيحية المعاصرة من جوّ روحاني، نحس بابتعاد العقول الغضة عن مطالب الحياة الدنيويّة... وليس عجيباً أن يكون أفلوطينس وأرجن تلميذين وصديقين... وأفلوطينس هو آخر الفلاسفة الوثنيين العظام، وهو مسيحي بلا مسيح... ولقد قبلت المسيحية كل سطر من أسطره تقريباً، وما أكثر صحائف أغسطين التي تردد نشوة هذا الصوفي الجليل...)[1].

***

(١) قصة الحضارة، ول ديورانت: مجلد ١١/ ص ٣٠٤.

الفصل الثاني

أصـول عقيـدة اليهـود

لقد وصف الله تعالى التوراة بقوله: ﴿إنا أنـزلنا التـوراة فيها هـدى ونور﴾[1] وبقـوله سبحانه: ﴿وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلاً لكل شيء﴾[2].

لكن اليهود رفضوا البقاء على الهدى والنور، وأبوا إلّا أن يحـرّفوا ويبـدلوا ويبتـدعوا في دينهم.

فقد حرّفوا التوراة أولاً، ولم يكتفوا بذلك، بل أضافوا لأنفسهم كتبـاً مقدسـة غيرهـا مثل التلمود.

لذلك فقد رأينا عقائدهم تتطور وتتبدل من عصر لآخر، ورأينـا العائـدين من السبـي عـادوا يحملون معتقدات الـوثنية البـابلية بمعهم، لتبقى رواسب هـذه الـوثنيـة متـأصلة في معتقدات اليهود.

بل نستطيع القول: «إن فكـرة الإيمان بـالله الواحـد رباً أو سيـداً لكلٍّ مـا في الكون تقبلتها وتعلقت بها شعوب كثيرة إلا جمـاعات إسـرائيل، فقـد كانـوا بدعـاً دون غيرهم من الأمم، فقـد ظلوا وثنيين قبل مـوسى، وظلوا على وثنيتهم بعده، ولم تـرتق عقـائـدهم إلى الإيمان بالله الواحد أبداً»[3] فرغم دعوات الأنبياء المتواصلة لهم إلّا أن الوثنية كانت تعيش في قلوبهم لا يكـادون يغـادرونهـا، وهـذا واضـح فيمـا قصـه القـرآن الكـريم عنهم عنـد خـروجهم من مصر التي كـانوا مستعبـدين فيها، وقبـل أن تجف أقدامهم من البحـر الذي أنجاهم الله تعالى منه طلبوا من موسى أن يجعل لهم وثناً يعبدونه: ﴿وجاوزنا ببني إسرائيل

---

(١) سورة المائدة: الآية ٤٤.

(٢) سورة الأعراف: الآية ١٤٥.

(٣) التاريخ اليهودي العام، د. صابر طعيمة: ٢/١٠٦.

البحر، فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم قالوا يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة، قال: إنكم قوم تجهلون﴾[1].

ومع أننا نجد في التوراة الحالية نصوصاً تصرّح بالتوحيد، وتنهى عن اتخاذ الأصنام، إلّا أن تصورها لهذا الإله الواحد تشوبه الوثنية.

فالإله في العقيدة اليهودية يقوم بأعمال الإنسان وحركاته، بل إنه يأكل ويشرب ويصارع التنين[2]! كما تصوره التوراة في مواضع أخرى بالندم والبكاء والضعف وغير ذلك.

بل يصوّره أحد أسفار التوراة وهو يتحسّر ألماً على شعبه، ويقول: أحشائي أحشائي، توجعني جدران قلبي، يئنّ في قلبي لا أستطيع السكوت لأنه قد خربت كل الأرض... لأن شعبي أحمق إيّاي لم يعرفوا، هم بنون جاهلون، وهم غير فاهمين[3].

وتنسب له التوراة الألم مرة أخرى في سفر أشعيا حيث يقول: (لذلك امتلأت حقواي[4] وجعاً وأخذني مخاض كمخاض الوالدة تلويت حتى لا أسمع، اندهشت حتى لا أنظر، تاه قلبي، بعثني رعب)[5] وهذه صفات ما أظن أن أحداً حتى من الوثنيين قالها في معبوده وخالقه.

وقد عرّض ابن القيم رحمه الله إلى هذه المسألة، فتحدث عن افتراءات اليهود الواردة في كتبهم، وما رموا به رب العالم من العظائم، وذكر منها ما ورد في توراتهم: «إن الله استراح في اليوم السابع من خلق السموات والأرض»[6] وذكر قول الله تعالى فيهم: ﴿إن الله فقير ونحن أغنياء﴾[7] وقوله سبحانه: ﴿وقالت اليهودُ يدُ اللهِ مغلولةٌ، غُلَّتْ

---

(١) سورة الأعراف: الآية ١٣٨.
(٢) التاريخ اليهودي العام، د. صابر طعيمة: ٢/١٠١.
(٣) انظر: أرميا: ٤/١٩ ــ ٢٢.
(٤) الحقوان: مثنى الحقو وهو الخصر ومشد الإزار من الجنب (انظر: مختار الصحاح).
(٥) انظر: أشعيا: ٢١/٣ ــ ٤.
(٦) انظر: التكوين: ص ١ ــ ٢.
(٧) سورة آل عمران: الآية ١٨١.

أيديهم ولُعِنُوا بِما قالُوا﴾[1]، وذكر مناجاتهم له سبحانه بقولهم له: انتبه كم تنام يا رب، استيقظ من رقدتك[2].

كما ذكر ما ورد في توراتهم: «إن موسى صعد الجبل مع مشايخ أمته فأبصروا الله جهرة، وتحت رجليه كرسي منظره كمنظر البلور»[3].

وكان ردّ ابن القيم على كل هذه الافتراءات والترّهات أن التوراة التي حوت مثل ذلك إنما هي توراة محرّفة وضعها لهم عزرا الورّاق.

وهو بذلك يبطل الدليل الذي يعتمدون عليه من أساسه، ونودّ هنا أن نلقي ضوءاً على أبرز معتقدات اليهود ومسائلهم:

واخترت من هذه المعتقدات الحديث عن المسألتين التاليتين:

١ ــ النسخ والبداء.

٢ ــ عقيدتهم في الإله.

***

(١) سورة المائدة: الآية ٦٤.

(٢) انظر: مزامير: ٢٣/٣٥.

(٣) انظر: الخروج: ١٠/٩.

(١)
النسخ والبداء

قال الشهرستاني: «واليهود تدعي أن الشريعة لا تكون إلّا واحدة، وهي ابتدأت بموسى، وتمت به، فلم يكن قبله شريعة إلّا حدود عقلية وأحكام مصلحية، ولم يجيزوا النسخ أصلاً. قالوا: فلا يكون بعده شريعة أخرى، لأن النسخ في الأوامر «بداء» ولا يجوز البداء على الله»[١].

والنسخ في اللغة يأتي بمعنى الإزالة[٢]، ومنه قوله تعالى: ﴿فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته﴾[٣].

ويأتي بمعنى التبديل، ومنه قوله تعالى: ﴿وإذا بدلنا آية مكان آية﴾[٤].

قال الزركشي[٥]: لا خلاف في جواز نسخ الكتاب بالكتاب لقوله تعالى: ﴿ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها﴾[٦].

وقد استبعد اليهود وقوع النسخ في الشريعة، فمنهم من أبطله ولم يجعله ممكناً، ومنهم من أجازه إلّا أنه لا يمكن وقوعه. قال ابن حزم: وعمدة حجة من أبطل النسخ أن قالوا: إن الله عز وجل يستحيل منه أن يأمر بالأمر ثم ينهى عنه، لو كان كذلك لعاد الحق باطلاً والطاعة معصية[٧].

---

(١) الملل والنحل، الشهرستاني: ٢/ ٥٠.
(٢) انظر: البرهان في علوم القرآن، الزركشي: ٢/ ٢٩.
(٣) سورة الحج: الآية ٥٢.
(٤) سورة النحل: الآية ١٠١.
(٥) انظر: البرهان، الزركشي: ٢/ ٣٢.
(٦) سورة البقرة: الآية ١٠٦.
(٧) الفصل في الملل والأهواء والنحل، ابن حزم: ١/ ١٠٠.

وقد رد ابن حزم على هذه الحجة، واعتبرها حجة واهية لا تقوم على ساق فقال: «من تدبر أفعال الله كلها وجميع أحكامه وآثاره تعالى في هذا العالم، تيقّن بطلان قولهم هذا، لأن الله تعالى يحيي، ثم يميت ثم يحيي، وينقل الدولة من قوم أعزة، فيذلهم إلى قوم أذلة فيعزهم»(١).

وليس معنى النسخ أن الله عندما أمر أو نهى ما كان يعلم العاقبة، ثم بدا له رأي آخر أصوب فأتى به ناسخاً للحكم الأول، بل معناه أن الله عز وجل يأمر بعمل ما مدّة يعلمها، ثم ينهى عنه بعد انقضاء المدة، فالحكم الناسخ جاء في وقته.

ويحاول الشيخ رحمة الله الهندي تبسيط المسألة بضرب بعض الأمثلة فيقول: «ونظيره بلا تشبيه، أن تأمر خادمك الذي تعلم حاله، لخدمة من الخدمات ويكون في نيتك أن يكون على هذه الخدمة إلى سنة مثلاً، وبعد السنة يكون على خدمة أخرى، لكن ما أظهرت عزمك ونيتك عليه، فإذا مضت السنة وعيّنته على خدمة أخرى، فهذا بحسب الظاهر عند الخادم وعند غيره الذي ما أخبرته عن نيتك تغيير، وأمّا في الحقيقة وعندك فلا تغيير»(٢).

ثم يورد الشيخ رحمة الله الهندي نصوصاً من الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد، استدل بها على وقوع النسخ فيه، واستخرج من هذه الأمثلة أموراً منها(٣):

الأول: أن النسخ ليس بمختص بشريعتنا بل وجد في الشرائع السابقة.

الثاني: أن الأحكام العملية للتوراة نسخت بالشريعة العيسوية.

الثالث: أن لفظ النسخ موجود في كلامهم المقدس بالنسبة إلى التوراة وأحكامها.

وجملة القول: أن اليهود أنكروا إمكانية وقوع النسخ حتى لا يقع البداء الذي لا يجوز على الله تعالى، إلاّ أن توراتهم مليئة بالبداء، وذلك أن فيها أن الله تعالى قال لموسى: «رأيت هذا الشعب وإذا هو شعب صلب الرقبة، فالآن اتركني أفنيهم فأصيّرك

---

(١) الفصل، ابن حزم: ١/١٠٠.
(٢) إظهار الحق، رحمة الله الهندي: ١/٥١٠.
(٣) المرجع السابق: ١/٥٢٩.

شعباً عظيماً، فتضرع موسى أمام الرب إلهه»[1]، «وما زال يتضرع إلى ربّـه في أن لا يفعل ذلك، حتى أجابه وأمسك عنهم، وندم الرب على الشر الذي قال إنّه يفعله بشعبه»[2].

قال ابن حزم: «وهـذا هو البـداء بعينه والكـذب، المنفيان عن الله تعـالى لأنه ذكـر أن الله أخبر أنه سيهلكهم ويقدمه على غيره ثم لم يفعل»[3].

وفي سفر أشعيا أن الله سبحانه سيرتب في آخر الزمان من الفرس خداماً لبيته[4].

قـال ابن حزم: «وهـذا هو النسـخ بعينه لأن التـوراة مـوجبـة أن لا يخـدم في البيت المقدس أحد غير بني لاوي بن يعقوب على حسب مـراتبهم في الخدمـة، فعلى أي وجه أنزلوا هذا القول من أشعيا، فهو نسخ لما في التوراة على كل حـال، وأما في الحقيقـة فهو إنذار بالملة الإسلامية التي صار فيها الفـرس والعرب وسـائر الأجنـاس في المساجـد ببيت المقدس وغيره»[5].

هذه بالإضافة إلى عشرات النصوص المبثوثة في أسفـار العهد القـديم، والتي يفهم منها البداء.

***

(١) الخروج: ٣٢/٩ ــ ١١.
(٢) الخروج: ١٤٠/٣٢.
(٣) الفصل، ابن حزم: ١٠١/١.
(٤) أشعيا: ١٠/٦٠ بلفظ الغريب بدل الفرس.
(٥) الفصل، ابن حزم: ١٠١/١ ــ ١٠٢.

(٢)
عقيدة اليهود في الإلٰه

لا شك أن العقيدة الأصلية لبني إسرائيل كانت الإيمان بالله الواحد، وهذه هي العقيدة التي جاء بها رسلهم الكرام عليهم السلام، وتعاقبوا فيهم لتثبيتها: ﴿إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده، وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان﴾[١].

لكن اليهود لم يستقروا على عبادة الإله الواحد الذي دعا له الأنبياء، بل كانوا يتجهون دائماً إلى الوثنية والبدائية الدينية وتقليد الأمم الوثنية المجاورة في العبادة.

يقول الدكتور أحمد شلبي نقلاً عن (ويلز): «إن اليهود كانوا في مطلع ظهورهم على مسرح التاريخ بدواً رحلاً، تسيطر عليهم الأفكار البدائية كالخوف من الشياطين، والاعتقاد في الأرواح، وكانوا يعبدون الحجارة والأغنام والأشجار»[٢].

ويصوّر لنا القرآن الكريم محاولات موسى عليه السلام لتثبيت أركان التوحيد عند بني إسرائيل، وخروجهم على هذه العقيدة أكثر من مرة في حياته.

ويبدو حتى من خلال نصوص العهد القديم أن موسى ـ عليه السلام ـ كان أكثر أنبيائهم جهداً لتثبيت عقيدة التوحيد في نفوسهم.

والغريب أن بعض كتاب المسلمين ذهبوا مع المؤرخين الغربيين الذين اعتقدوا أن موسى قد استعار القول بالوحدانية من أخناتون، وأول من نادى بهذه الفكرة من الغربيين الفيلسوف اليهودي فرويد، ويعتمد فرويد وغيره من الباحثين في ذلك على التشابه بين

---

(١) سورة النساء: الآية ١٦٣.

(٢) اليهودية، أحمد شلبي: ص ١٨٠ ـ ١٨١.

كلمة (أتون) وكلمة (آدون)، أو (أدوناي) بالعبرية التي تعني الرب أو السيد. كما أن تشابه الاسمين ليس الشيء الوحيد الذي يعتمد عليه هؤلاء الباحثون لتحديد الصلة الوثيقة بين الديانتين اليهودية والمصرية القديمة، فإن سفر الخروج في تعاليمه ووصاياه المدققة يكاد يتبع نموذج التعاليم والوصايا الدينية المصرية (كما جرى اكتشافها في القرن الماضي) وليس فقط تعاليم أخناتون التوحيدية، ومعظم هذه التعاليم والوصايا نقل إلى العبرية في العهد القديم كما هو تقريباً، والوصايا الشهيرة ليست النموذج الوحيد من ذلك(١).

ومن الذين ذكروا هذه النظرية، الدكتور أحمد سوسة في كتابه القيّم (العرب واليهود والتاريخ)، وقد قام بجمع الوقائع التاريخية التي يستند إليها الباحثون في اعتبار النبي موسى مصرياً، وأن ديانته التوحيدية إنما هي ديانة أخناتون بعينها، حيث بلغت هذه الوقائع اثنتي عشرة واقعة(٢). لكننا رغم كل هذا التشابه نعتقد أن عقيدة التوحيد التي جاء بها موسى عليه السلام كان مصدرها الوحيد: هو الوحي، وهي عقيدة لم ينفرد بها موسى وحده دون غيره من الأنبياء والمرسلين.

إن التشابه قد يكون ناتجاً عن تسرب بعض المعتقدات، أو حتى الألفاظ والمصطلحات الأخناتونيّة لأسفار التوراة بعد موسى عليه السلام، كالذي نشاهده في ذلك الشبه الواضح بين ترتيلة أخناتون إلى قرص الشمس (أتون)، والمزمور الرابع بعد المائة من سفر المزامير من العهد القديم، بحيث يكاد يكون المزمور المذكور نسخة طبق الأصل لترتيلة أخناتون. وكما قال الأستاذ سهيل ديب بعد ذكره للنصين المتماثلين: (والظاهر هو أن شخصاً ما حفظ النشيد الأخناتوني لفترة من الزمن، ثم حاول إعادة كتابته لإعجابه به بلغة جديدة، وبشروط دينية جديدة لها طقوسها واستعمالاتها الخاصة، فلم تسعفه شاعريته كثيراً)(٣).

اسم إله اليهود:

يبدو من خلال النصوص المقدسة عند اليهود أن الإجماع غير حاصل على تحديد اسم الإله الذي يعبده اليهود.

---

(١) انظر: التوراة بين الوثنية والتوحيد، سهيل ديب: ص ٤٦.

(٢) انظر: العرب واليهود والتاريخ، أحمد سوسة: ص ٤٧٠ ــ ٤٧٣.

(٣) انظر: التوراة بين الوثنية والتوحيد، سهيل ديب: ص ٥٩.

ويعلل الأستاذ سهيل ديب لذلك بسببين هما[1]:

الأول: الزمن الطويل جداً بين تأليف التوراة وتحريرها بشكلها النهائي.

الثاني: أن فترة المخاض الطويلة جداً بين التعددية والتوحيد، وقد دامت ما لا يقل عن أربعمائة سنة، جعلت اسم الإله مسألة ثانوية، ريثما يتم الإجماع على التوحيد.

وهذا هو السبب الذي يرجحه الأستاذ سهيل ديب، وقد رأى أن الصعوبة قد وقعت في تحديد الاسم عند الذين تعودوا على التعدد، وعبدوا آلهة شتى قبل أن يصلوا إلى التوحيد، فكانت المسألة لا تتعدى في نظرهم انتصار أحد الآلهة على الآخرين[2].

وقد ذكر الأستاذ ديب بعض هذه الأسماء، ومنها[3]:

١ ـ **إيل**: ومعناه بالعبرية (الله)، وهو التسمية التي استخدمها الموحدون الحقيقيون، وهم أقلية بين واضعي الشريعة بنصها الذي نعرفه اليوم.

٢ ـ **إيلوهيم**: أي الآلهة بصيغة الجمع، ولعلها التسمية التي أطلقها التعدديون الذين اعتبروا أن التوحيد إنما هو انصهار جميع الآلهة مع بعضها لتشكل إلهاً واحداً. وهذا هو الاسم الدارج عند اليهود اليوم.

٣ ـ **آدوناي**: أي سيدي باللغات السامية، وهو اللقب الذي كان الكنعانيون يطلقونه على الإله (تموز)، والذي أصبح (أدونيس) عندما انتقل إلى اليونانيين، ولعله الإله الذي اعتبره القادمون من شمالي سورية أنّه هو الذي انتصر.

٤ ـ **يهوه**: وهو اسم الإله القبلي لليهود، إذ يعتقد اليهود أن هذا الإله ربهم وحدهم، وليس للأمم (الجوييم) الحق بتسميته إلهاً لها، إنه رب إسرائيل وحدها، وقدوس إسرائيل الأوحد[4]، ولذلك يرد في سفر التثنية (لأنك شعب مقدس للرب إلهك وإياك اصطفى الرب إلهك أن تكون له أمة خاصة من جميع الأمم التي على الأرض)[5].

---

(١) انظر: التوراة بين الوثنية والتوحيد: ص ١٥.

(٢) المرجع السابق: ص ١٦.

(٣) المرجع السابق نفسه.

(٤) انظر: التوراة تاريخها وغاياتها، ترجمة وتعليق سهيل ديب: ص ٩٤.

(٥) التثنية: ٧/٦.

وكذلك ما ورد في سفر الخروج (أنا الرب إلهكم الذي فرزكم من بين الأمم)(١).

ومن هنا فقد صوّر (يهوه) بأنه مقاتل باطش ينادي بالسحق والتشريد، ولا يؤمن بترك أي من الأعداء حيّاً. ولذلك خاطب العابرين نهر الأردن قائلاً لهم (إنكم عابرون الأردن إلى أرض كنعان، فتطردون كل سكان الأرض من أمامكم، تملكون الأرض، وتسكنون فيها لأني قد أعطيتكم الأرض لكي تملكوها. . . وإن لم تطردوا سكان الأرض من أمامكم يكون الذين تستبقون منهم أشواكاً في أعينكم، ومناخس في جوانبكم، ويضايقونكم على الأرض التي أنتم ساكنون فيها)(٢).

كما يصوّر بالرب الحاقد الغاضب، فتقرأ في سفر أشعيا: (هوذا الرب يأتي من بعيد غضبه مشتعل، والحريق عظيم، شفتاه ممتلئتان سخطاً، ولسانه كنار آكلة، ونفخته كنهر غامر يبلغ إلى الرقبة، لغربلة الأمم بغربال السوء)(٣).

والقارىء لهذه النصوص وأمثالها ــ وهي كثيرة في العهد القديم ــ يعلم أن اليهود صاغوا إلههم بأيديهم، وحددوا له صفات موافقة لصفاتهم واتجاهاتهم.

وفي ذلك يقول ول ديورانت: (يبدو أن الفاتحين اليهود عمدوا إلى أحد آلهة كنعان، فصاغوه في الصورة التي كانوا هم عليها، وجعلوا منه إلهاً، ويؤيد ذلك أن من بين الآثار التي وجدت في كنعان سنة ١٩٣١م قطعاً من الخزف من بقايا عصر البرونز (٣٠٠ق.م) عليها اسم إله كنعان يسمى: ياه أوياهو)(٤).

آلهة أخرى لليهود:

لقد عبد اليهود خلال تاريخهم الطويل آلهة متعددة بالإضافة إلى الإله الواحد الذي لم يتفقوا على اسمه، وتعارضت نصوصهم في تحديد صفته.

وقد تأثروا في ذلك بالشعوب التي كانت من حولهم، حيث عبدوا آلهتها، ومن هذه

(١) الخروج: ٢٠/٢٤.
(٢) العدد: ٥١/٣٣ ــ ٥٦.
(٣) أشعيا: ٢٧/٣٠ ــ ٢٨.
(٤) قصة الحضارة، ول ديورانت: ٢/٣٤٠.

الآلهة المستعارة التي عبدها اليهود، والتي ذكرها الدكتور اليهودي رافائيل باتاي في كتابه «آلهة اليهود» ما يلي[1]:

١ ــ **الإلٰهة عشيرة**: وقد عبدها العبرانيون اعتباراً من احتلال أرض كنعان، وحتى النفي إلى بابل سنة ٥٧٦ ق.م.، واسمها الآخر هو اللاة أو اللاتو.

وكانت الإلٰهة الرئيسية لدى كنعانيي أوغاريت في رأس شمرا.

٢ ــ **الإلٰهة عشتروت**: أناة أو مناة، وهي ابنة الإلٰهة عشيرة، وكان الكنعانيون يعبدونها إلى جانب (اشتار) نجمة الصبح أو العزى.

وقد أتى ذكر هذه الإلٰهة في التوراة مرات متعددة، كإلٰهة عبدها العبرانيون حتى عام ٦٢١ق.م.

وهذه الأسماء (اللات والعزى ومناة) تذكرنا دون ريب بالآية الكريمة: ﴿أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى﴾[2].

فهل هي الإلٰهات الوثنيات التي استمر العرب على عبادتها حتى ظهور الإسلام[3]؟.

٣ ــ **الكروبيم**: وهي صور أو منحوتات ذات أشكال بشرية مجنّحة تشكل جزءاً من الهيكل قبل تحريم عبادتها. ورغم تحريمها فقد بقيت هذه الصور آلهة لها عبّادها ممن سموا «بالقبليّين»، ومن الذين ساعدوا على بقاء هذه العبادة الفيلسوف الأندلسي اليهودي موسى بن ميمون في القرن الثاني عشر للميلاد.

٤ ــ **الشخينة**: من (شخن) بمعنى سكن، أي مسكن الله. وقد جعل منها التلموديون ومن بعدهم القبليّون، إلٰهة أنثى.

٥ ــ **ماترونيث**: وهي مشتقة من (ماترون) أي السيدة أو الشفيعة، وهي الابنة أي الإلٰهة الرابعة لدى القبليّين، وهي تمثل الطهارة والاختلاط الجنسي والأمومة والحرب.

---

(١) انظر: التوراة بين الوثنية والتوحيد، سهيل ديب: ص ٤٧ ــ ٥١.

(٢) سورة النجم: الآيتان ١٩ ــ ٢٠.

(٣) انظر هامش كتاب التوراة بين الوثنية والتوحيد، سهيل ديب: ص ٤٩.

٦ ـ ليليت: وهي مأخوذة من مجمع آلهة السومريين، وهي تمثل الشر، وقد دامت عبادتها، أو الاعتقاد بها لدى (القبليين) واليهود (الحسيديم)، أي المتزمتين حتى قرننا هذا. والاعتقاد بها اليوم هو نفسه تماماً، كما كان لدى السومريين في العام ٢٥٠٠ ق.م دون اختلاف يذكر، كما يقول الدكتور (باتاي).

٧ ـ السبت أو السابات: أي نهار الراحة الأسبوعي، وقد جعل بعض فئات اليهود منه إلهة تمثل الجنس والعلاقات الجنسية.

فالمعاشرة الجنسية تكتسب قيمة دينية خاصة، إن تمّت بعد دخول يوم السبت، فتقام وليمة مساء يوم الجمعة تتخللها ألوان مختلفة من الطعام والمشروبات وصلوات وأناشيد موجهة إلى الإلهة (سابات) التي تتمثل العروس بها، وتنتهي هذه الوليمة عند منتصف الليل، وهو الوقت المحدد تلمودياً للمعاشرة.

ويذكر الدكتور (باتاي) أن بعض كتب التعاليم الدينية المعاصرة تحوي نماذج عن هذه الصلوات، والأناشيد الموجهة إلى الإلهة (سبات). ويذكر أن هناك فئات من اليهود ما زالت تعتقد بهذه الإلهة، وتقيم الشعائر عبادة لها، ومن هذه الفئات التلموديون والقبليّون والفلاشة، والفلاشة هي فئة اليهود الأحباش ذوي البشرة السوداء[١].

مسألة العزير:

لقد أشار القرآن الكريم في موضع واحد إلى أن اليهود قد ضلوا، كما ضل النصارى عندما اعتبروا أن لله ابناً.

وإذا كان النصارى يزعمون أن المسيح ابن الله، فإن اليهود كذلك يزعمون أن عزيراً ابن الله ﴿وقالت اليهود عزيرٌ ابن الله، وقالت النصارى المسيح ابن الله﴾[٢].

ومما يستوقف الباحث هنا أن مسألة بنوة المسيح لله معروفة، ما تزال طوائف النصارى تعتقدها حتى اليوم منذ أن ضلّت على يدي بولس.

---

(١) انظر: التوراة بين الوثنية والتوحيد، سهيل ديب: ص ٥١. نقلاً عن كتاب آلهة اليهود للدكتور باتاي: ص ٢٤٠ ـ ٢٦٤.

(٢) سورة التوبة: الآية ٣٠.

وأما قول اليهود «عزير ابن الله» فليس شائعاً، ولا معروفاً اليوم عند طوائف اليهود، ولا هو مدوّن في كتبهم الحاضرة، بل إن العهد القديم الموجود حالياً لا يشير إطلاقاً إلى مسألة البنوّة.

ولكن حكاية هذا القول عن اليهود في القرآن دليل قاطع على أن بعضهم على الأقل اعتقد ذلك، وأن يهود المدينة بصفة خاصة كان عندهم علم بذلك، وإلا فإن القرآن الكريم لا يمكن أن يواجههم بما ليس فيهم[1]. ويؤكد الشيخ رشيد رضا رحمه الله أن بعض يهود المدينة هم الذين كانوا يقولون ذلك، ويؤيد ذلك بما رواه ابن إسحق وغيره عن ابن عباس قال: أتى رسول الله ﷺ سلام بن مشكم، ونعمان بن أوفى، وأبو أنس، وشاس بن قيس، ومالك بن الصيف، فقالوا: كيف نتبعك، وقد تركت قبلتنا، وأنت لا تزعم أن عزيراً ابن الله؟[2].

وقد عدّ الشيخ الزرقاني رحمه الله هذه الإشارة القرآنية معجزة تاريخية من معجزات القرآن التي يكشف عنها التاريخ الحديث.

وقد نقل عن صاحب مجلة الفتح الغراء بعد أن ساق هذه الآية الكريمة قوله: «فصدر هذه الآية وهو جملة: ﴿وقالت اليهود عزير ابن الله﴾ يتضمن من وقائع التاريخ وحقائق العلم أمراً لم يكن أحد يعرفه على وجه الأرض في عصر نزول القرآن».

ثم بين أن الاعتقاد بأن العزير ابن الله إنما هو اعتقاد وثني مأخوذ من الوثنية المصرية القديمة، واسم (عزير) هو (أزيرس) كما ينطق به الإفرنج أو (عوزر) كما ينطق به قدماء المصريّين.

وقد كان قدماء المصريّين يعتقدون أن (أوزيرس) هو الله، وبعد عبادتهم للشمس صاروا يعتقدون أنه ابن الله، وفي هذا الطور أخذ اليهود هذا الاسم. وقد عرف اليهود ذلك واعتقدوه بعد دخولهم مصر واختلاطهم بأهلها واتصالهم بعقائدها ووثنيتها.

ففي دور من أدوار حلول اليهود في مصر القديمة استحسنوا عقيدة أن (أوزيرس) ابن الله، وصار اسم أوزيرس أو عوزر (عزير) من الأسماء المقدسة التي طرأت عليهم من

---

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب: ١٠/١٦٥٠.

(٢) انظر: تفسير المنار: ١٠/٣٢٧.

ديانة قدماء المصريين، وصاروا يسمون أولادهم بهذا الاسم الذي قدسوه كفراً وضلالاً، فعاب الله عليهم في القرآن الحكيم، ودلّهم على هذه الوقائع من تاريخهم الذي نسيه البشر جميعاً[1].

من هو عزير؟

ولا يرد اسم (عزير) بهذا اللفظ في العهد القديم، بل يرد اسم (عزرا) حيث يفرد لهذا المذكور سفر خاص باسمه ضمن أسفار العهد القديم.

ويذكر هذا السفر أن عزرا هذا كان في زمن (أرتحشستا) ملك فارس، وبعد ذكر سلسلة نسبه، يبين لنا هذا السفر أن عزرا هذا صعد من بابل، وهو كاتب ماهر في شريعة موسى التي أعطاها الرب إله إسرائيل، وأعطاه الملك حسب يد الرب إلهه عليه كل سؤله. كما يسرد هذا السفر قصة خروجه من بابل ومعه اليهود الذين كانوا في السبي، بعد أن هيأ قلب الملك (أرتحشستا) لطلب شريعة الرب والعمل بها، وليعلم إسرائيل فريضة وقضاء.

ورضي الملك بذلك وأعطاه رسالة يمكنه فيها من السفر إلى القدس ليعيد اليهود من السبي، ويسمح لهم بممارسة شعائر عبادتهم، كما شاؤوا. وتبرع له الملك بذهب وفضة ليشتري بها ذبائح يقربها على المذبح هناك. كما مكنه من الحكم وتعيين القضاة والحكام لجميع الشعب الذي عبر النهر[2].

كما يوصف عزرا في الإصحاحين التاسع والعاشر من هذا السفر بالناسك المصلي المتبتل الباكي على ذنوب قومه أمام الرب[3].

وقد ترجم قاموس الكتاب المقدس لعزرا ترجمة وافية، فقال: عزرا: اسم عبري معناه (عون)[4]، وهو كاهن عاد من بابل إلى القدس معاصر لنحميا، لقب بالكاتب، كان موظفاً في بلاط امبراطور الفرس (أرتحشستا)، ومستشاراً له في شؤون الطائفة اليهودية

---

(١) انظر: مناهل العرفان، الزرقاني: ٢/ ٢٧٩.

(٢) انظر: عزرا: ١/٧ ـ ٢٦.

(٣) انظر: عزرا: ٣/٩ ـ ١٥ و١٠/٥٢١، ١٠ ـ ١٢.

(٤) ويستعمل اليهود اليوم كلمة عزير بمعنى المساعد.

التي كانت تقيم في بلاد ما بين النهرين منذ أيام السبي، وقد تمكن (عزرا) من أن ينال عفو الإمبراطور عن اليهود، وسماحه لهم بالعودة إلى القدس، وإقامة حكم ذاتي لهم في فلسطين[1].

ويؤرخ قاموس الكتاب المقدس لعزرا ويبين أنه عاصر (نحميا) في القدس، فتكون عودته إلى القدس في سنة ٤٥٨ أو ٤٥٧ق.م أي في حكم (أرتحشستا الأول) أو في سنة ٣٩٨ق.م أي في حكم أرتحشستا الثاني[2].

وقد احتل (عزرا) مرتبة دينية مرموقة عند اليهود في القدس بالإضافة إلى مرتبته في الحكم والإدارة، وحاز على ثقة الشعب وإعجابه به لإخلاصه ونشاطه. ويدل على هذه الثقة أنهم قبلوا أن يكتب لهم الشريعة، ويجمع لهم الأسفار المقدسة وينظمها. وهذا ما جعل اليهود المتأخرين عنه عدة أعصر يعتبرونه زعيماً لهم بعد موسى الذي أخرجهم من مصر، ويعتبرونه أيضاً مؤسس نظم اليهود المتأخرة، ولقبوه بالكاهن وبالكاتب لأنه كان دارساً مجتهداً، ومفسراً عميقاً لوصايا الله وعهده لبني إسرائيل[3].

وقد أشار ابن القيم رحمه الله إلى حكاية عزرا، والمنزلة التي احتلها عند اليهود، وأنه قد وضع لهم التوراة من محفوظاته، ومما وجده من فصول عند بعض الكهنة، وكان ذلك عندما قتل حفظة التوراة من الهارونيين على يد بختنصر.

وقد ذكر ابن القيم أن اليهود بالغوا في تعظيم عزرا غاية المبالغة، وقالوا فيه ما حكاه الله عنهم في كتابه، مشيراً إلى قوله تعالى: ﴿وقالت اليهود عزير ابن الله﴾.

كما يستبعد ابن القيم أن يكون عزرا الوراق واضع التوراة، هو الذي مرّ على قرية وهي خاوية على عروشها أو أنه نبي، ويقول: إنه لا دليل على هاتين المقدمتين، ويجب التثبت في ذلك نفياً وإثباتاً، فإن كان نبياً واسمه عزير فقد وافق صاحب التوراة في الاسم لا في النبوة[4].

---

(١) قاموس الكتاب المقدس: ٢/ ٦٢١.
(٢) المرجع السابق نفسه.
(٣) المرجع السابق نفسه.
(٤) انظر: ص ٤٢٢ من هذا الكتاب.

كما أشار ابن القيم إلى هذه المسألة في كتابه إغاثة اللهفان[1].

وكثير من علماء المسلمين الذين ألفوا في الموضوع أشاروا إلى مسألة عزرا، ووضعه للتوراة، ومنهم ابن حزم في (الفصل). حيث يقول: إن عزرا الوراق كتب التوراة بعد رجوع اليهود إلى بيت المقدس، ويذكر أن هذا مما يتفق عليه علماؤهم، وتجمع عليه كتبهم دون خلاف[2].

ومنهم الإمام الجويني في شفاء الغليل كما أسلفنا.

هذه هي المكانة التي يحتلها (عزرا) عند اليهود، وفي أسفارهم، وهي بلا شك مكانة مرموقة، جعلته مساوياً لموسى عليه السلام، ولم يصل أحد إلى هذه المرتبة، وهذا يرجح عندنا أن يكون عزرا هذا هو (عزير) الذي أشار إليه القرآن الكريم.

يقول الشيخ رشيد رضا رحمه الله عند تفسيره للآية الكريمة: ﴿وقالت اليهود عزير ابن الله﴾: عزير هذا هو الذي يسميه أهل الكتاب (عزرا)، والظاهر أن يهود العرب هم الذين صغّروه بالصيغة العربية للتحبيب وصرفوه، وعنهم أخذ المسلمون. والتصرف في أسماء الأعلام المنقولة من لغة إلى أخرى معروف عند جميع الأمم، حتى إن اسم يسوع قلبته العرب فقالت: عيسى[3].

ويشير الشيخ رشيد رضا إلى هذه المكانة التي تبوأها عزرا عند اليهود، ويقف وقفة طويلة عند مسألة كتابته للشريعة وإحيائها مبيناً أن ما يقوله أهل الكتاب بأن التوراة التي كتبها موسى قد فقدت، وأن عزرا كتبها كما كانت بوحي أو بإلهام من الله، أمر لا يسلمه لهم غيرهم، وعليه اعتراضات كثيرة تدل على إثبات التحريف لهذه الأسفار. ويبين الشيخ أن بعض كتب النصارى أنفسهم لها اعتراضات كثيرة على ذلك، وأشار إلى كتاب ذخيرة الألباب للكاثوليك وأصله فرنسي.

كما أشار الشيخ إلى ما كتبه الشيخ رحمة الله الهندي حول هذا الموضوع، حيث

---

(١) انظر: إغاثة اللهفان: ٢/ ٣٥٩.

(٢) انظر: الفصل في الملل والأهواء والنحل، ابن حزم: ١/ ٨٧.

(٣) تفسير المنار، رشيد رضا: ١٠/ ٣٢٢.

نقل أقوال المؤرخين الذين قالوا: إن الكتب السماوية قد ضاعت فألهم عزرا أن يكتبها مرة أخرى، ومنها قول تهيوفلكت: إن الكتب الإلهية انعدمت رأساً فأوجدها عزرا مرة أخرى بإلهام[1].

وبعد هذه النقولات يقول الشيخ رشيد رضا: «نكتفي بهذا البيان هنا ولنا فيه فرضان: أحدهما: أن جميع أهل الكتاب مدينون لعزير هذا في مستند دينهم وأصل كتبهم المقدسة عندهم.

وثانيهما: أن المستند واهي البيان متداعي الأركان، وهذا هو الذي حققه علماء أوروبة الأحرار، ومن ذلك ما جاء في دائرة المعارف البريطانية، حيث اعتبرت مسألة كتابة عزرا للشريعة أسطورة، كتبها من كتبها من المؤرخين بأقلام من تلقاء أنفسهم، ولم يستندوا في شيء منها إلى كتاب آخر.

فكُتَّاب هذا العصر يرون أن أسطورة عزرا قد اختلقها أولئك الرواة اختلاقاً»[2].

وجملة القول أن اليهود كانوا وما زالوا يقدسون عزيراً حتى إن بعضهم أطلق عليه لقب ابن الله، ولا ندري أكان إطلاقه عليه بمعنى التكريم الذي أطلق على إسرائيل وداود وغيرهما، أم بالمعنى الفلسفي الذي ذهبت إليه النصرانية المفلسفة[3].

وعلى أية حال فسواء أكان (عزير) هو أوزيرس أو عوزر، كما رأينا عند الزرقاني، أو أنه عزرا المعروف عند اليهود بالكاهن، وبالكاتب الملهم مرمم الأسفار، ومحيي الشريعة ومنقذها بعد الضياع، كما بين لنا صاحب المنار: فإن مما لا شك فيه أن اليهود قد اتخذوا عزيراً ابناً لله.

وللتوفيق بين ما ذهب إليه الزرقاني، وما ذهب إليه الشيخ رشيد رضا، يبدو لي أن عزيرا هو عزرا، وقد بلغ من المكانة الدينية عند اليهود حد التقديس كما أشرنا، ولما رأى بعض اليهود ما عليه المصريون من تقديس أوزيرس أو عوزر وعبادته، واتخاذه إلهاً ثم ابناً لله، أعجبهم هذا الاعتقاد، ورأوا أن ينسبوه إلى عزرا كاتب الأسفار ومرممها،

(١) تفسير المنار: ١٠/٣٢٤.

(٢) المرجع السابق: ١٠/٢٢٦.

(٣) المرجع السابق نفسه.

ومخلصهم من الأسر البالي. فاعتقد هؤلاء فيه ما اعتقده الوثنيون المصريون في أوزيرس، سيّما وأن اليهود قد تأثروا أكثر من مرة بعقائد الوثنيين من البابليين والكنعانيين وغيرهم، مما أشرنا إليه عند حديثنا عن عقيدة اليهود في الإله.

***

القسم الثاني

تحقيق الكتاب

مقدمة المؤلِّف(*)

بسم الله الرحمن الرحيم (وبه نستعين)(١)

الحمد لله الذي رضي لنا الإسلام ديناً، ونصب لنا الدلالة (على) صحته برهاناً مبيناً، وأوضح السبيل (إلى)(٢) معرفته واعتقاده حقاً يقيناً، ووعد من قام بأحكامه وحفظ حدوده أجراً جسيماً، وذخر لمن وافاه به ثواباً جزيلاً وفوزاً عظيماً، وفرض علينا الانقياد له ولأحكامه، والتمسك بدعائمه وأركانه، والاعتصام بعراه وأسبابه، فهو دينه الذي ارتضاه لنفسه ولأنبيائه ورسله وملائكة قدسه، فيه (اهتدى)(٣) المهتدون وإليه دعا الأنبياء والمرسلون ﴿أفغير دين الله يبغون، وله أسلم من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً وإليه يرجعون﴾(٤) فلا يقبل من أحد ديناً سواه من الأولين والآخرين، ﴿ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين﴾(٥).

شهد بأنه دينه قبل شهادة الأنام، (وأشاد به)(٦) ورفع ذكره، وسمى به أهله وما اشتملت عليه الأرحام، فقال تعالى: ﴿شهد الله أنه لا إله إلاّ هو والملائكة وأولو العلم

(*) تسهيلاً على القارىء وخدمة للكتاب وضعت له عناوين مناسبة لفصوله وموضوعاته، ووضعتها بين حاصرتين بهذا الشكل [ ].

(١) سقطت من ص، ب.

(٢) في ص: على إلى.

(٣) في ص: أهدىٰ.

(٤) سورة آل عمران: الآية ٨٣ وفي ص،ج: ترجعون (بالتاء).

(٥) سورة آل عمران: الآية ٨٥.

(٦) سقطت من ص.

قائماً بالقسط لا إله إلّا هو العزيز الحكيم، إنّ الدين عند الله الإسلام﴾[١] وجعل أهله هم الشهداء على (النّاس)[٢] يوم يقوم الأشهاد، لما فضّلهم به من الإصابة في القول والعمل والهدى والنّية والاعتقاد، إذ كانوا أحقّ بذلك وأهله في سابق التقدير، فقال: ﴿وجاهدوا في الله حقّ جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج، ملة أبيكم إبراهيم هو سمّاكم المسلمين من قبل، وفي هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم، فنعم المولى ونعم النصير﴾[٣].

وحكم سبحانه بأنّه أحسن الأديان، ولا أحسن من حكمه ولا (أصدق)[٤] منه قيلاً فقال: ﴿ومن أحسن ديناً ممّن أسلم وجهه لله وهو محسن، واتّبع مِلّةَ إبراهيم حنيفاً، واتخذ اللهُ إبراهيمَ خليلاً﴾[٥].

وكيف لا يميز من له أدنى عقل يرجع إليه بين دين قام أساسه وارتفع بناؤه على عبادة الرحمن، والعمل بما يحبّه ويرضاه مع الإخلاص في السرّ والإعلان، ومعاملة خلقه بما أمر به من العدل والإحسان، (مع إيثار)[٦] طاعته على طاعة الشيطان، وبيْن دين أسّس بنيانه على شفا جُرفٍ هار فانهار (بصحابه)[٧] في النار، أسّس على عبادة النيران، وعقد الشركة بين الرحمن والشيطان، وبينه وبين الأوثان[٨]، أو دين أسس بنيانه على عبادة الصلبان، والصور المدهونة في السقوف والحيطان[٩]، وأنّ (ربّ العالمين)[١٠] نزل عن كرسيّ عظمته فالتحم ببطن أنثى، وأقام هناك مدّة من الزمان بين دم الطمث في ظلمات

---

(١) سورة آل عمران: الآيتان ١٨، ١٩.
(٢) سقطت من ص ب.
(٣) سورة الحج: الآية ٧٨.
(٤) في ص، ب: ولا أحد أصدق.
(٥) سورة النساء: الآية ١٢٥.
(٦) في ج، ص: وإثار.
(٧) في ص، ب: بأصحابه.
(٨) إشارة إلى المجوسية.
(٩) إشارة إلى النصرانية.
(١٠) في ص: وإن رب العالمين جل جلاله وتنزهت صفاته عما قيل وما يقال من جميع الشهادات.

الأحشاء تحت ملتقى الأعكان[1]، ثم خرج صبياً رضيعاً شبّ شيئاً فشيئاً، ويبكي ويأكل ويشرب ويبول وينام ويتقلب مع الصبيان[2]، ثم أودع في المكتب بين صبيان اليهود يتعلم ما ينبغي للإنسان[3]، هذا وقد قطعت منه القلفة[4] حين الختان[5].

ثم جعل اليهود يطردونه ويشردونه من مكان إلى مكان، ثم قبضوا عليه وأحلوه أصناف الذل والهوان، فعقدوا على رأسه من الشوك تاجاً أقبح التيجان، وأركبوه قصبة ليس لها لجام ولا عنان[6]، ثم ساقوه إلى خشبة الصلب مصفوعاً مبصوقاً في وجهه، وهم خلفه وأمامه وعن شمائله وعن الأيمان، ثم أركبوه ذلك المركب الذي تقشعر منه القلوب مع الأبدان، ثم شدت بالحبال يداه «والرجلان»[7] ثم خالطها تلك المسامير التي تكسر العظام وتمزّق اللحمان[8] وهو يستغيث: يا قوم ارحموني! فلا يرحمه منهم إنسان[9].

هذا وهو (مدبر)[10] العالم العلوي والسفلي الذي ﴿يسأله من في السموات والأرض كل يوم هو في شأن﴾[11].

---

(١) الأعكان: جمع عكنة، وهي الطيّ الذي في البطن من السّمن. (مختار الصحاح).

(٢) هذا كله على رأي القائلين بأن المسيح هو الله، وهم القائلون بالطبيعة الواحدة من اليعاقبة ومن وافقهم من الأرثوذكس اليوم.

(٣) اقرأ في إنجيل لوقا ما نصه: «وبعد ثلاثة أيام وجداه في الهيكل جالساً في وسط المعلمين يسمعهم ويسألهم» لوقا: ٢/٤٦.

(٤) القلفة: بضم القاف وفتحها، جلدة الذكر التي ألبستها الحشفة، وهي التي تقطع من ذكر الصبي. (لسان العرب).

(٥) مع أن الختان ملغى عند النصارى اليوم، إلاّ أن الأناجيل تذكر أن المسيح قد اختتن. (انظر: لوقا: ٢/٢١).

(٦) العنان: سير اللجام. (لسان العرب: ١٣/٢٩٤).

(٧) في ب، ج، ص: مع الرجلان.

(٨) اللحمان: بضم اللام، جمع اللحم بالتشديد والفتح. (مختار الصحاح: ص ٥٩٤).

(٩) هذه الأوصاف التي ذكرها المؤلف رحمه الله للمسيح عليه السّلام وهو يساق إلى خشبة الصليب ويصلب كما يزعم النصارى كلها مثبتة في الأناجيل الحاضرة. (انظر: متى: ٢٦/٦٧، ٢٧/٢٨ ــ ٣٠؛ مرقس: ١٥/١٧ ــ ٢٠؛ لوقا: ٢٢/٦٣ ــ ٦٤؛ يوحنا: ١٩/١٧، ١٨/٤ ــ ١٠).

(١٠) في ص: يدير.

(١١) سورة الرحمن: الآية ٢٨.

ثمّ مات ودفن في التراب تحت صمّ الجنادل[1] والصوّان[2]، ثم قام من القبر وصعد إلى عرشه (وملكه)[3] بعد أن كان ما كان[4].

فما ظنك بفروع هذا أصلها الذي قام عليه البنيان، أو دين أسس بنيانه على عبادة الإله المنحوت بالأيدي[5] بعد نحت الأفكار من سائر الأجناس على (إختلاف)[6] الأنواع والأصناف والألوان، والخضوع له والتذلل والخرور سجوداً على الأذقان، لا يؤمن من يدين به بالله (ولا)[7] ملائكته ولا كتبه ولا رسله ولا لقائه يوم يجزي المسيء بإساءته والمحسن (بالإحسان)[8]. أو دين الأمة الغضبيّة[9] الذين انسلخوا من رضوان الله كانسلاخ الحيّة من قشرها، وباؤوا بالغضب والخزي والهوان، وفارقوا أحكام التوراة ونبذوها وراء ظهورهم، واشتروا بها القليل من الإيمان، فترحّل عنهم التوفيق (وقارنهم)[10] الخذلان، واستبدلوا بولاية الله وملائكته ورسله وأوليائه ولاية الشيطان. أو دين أسس بنيانه على أنّ رب العالمين وجود مطلق في الأذهان[11]، لا حقيقة له في الأعيان، ليس بداخل في العالم ولا خارج عنه، ولا متصل به ولا منفصل عنه، ولا محايث ولا مباين له، لا يسمع ولا يرى، ولا يعلم شيئاً من الموجودات، ولا يفعل ما يشاء، لا حياة له ولا قدرة، ولا إرادة

---

(١) الجنادل: جمع جندل وهو المكان الغليظ فيه حجارة وقيل: هو الحجر كله والواحدة جندلة. (لسان العرب).

(٢) الصوّان: بفتح الصاد مشدداً ضرب من الحجارة، الواحدة: صوّانة. (مختار الصحاح).

(٣) سقطت من ص.

(٤) ذكرت الأناجيل دفنه في القبر. (انظر: متى: ٢٧/٦٠ ـ ٦١، مرقس: ١٥/٤٦، لوقا: ٢٣/٥٣، يوحنا: ١٩/٤١).

كما ذكرت الأناجيل مسألة قيامه من قبره وصعوده إلى عرشه أيضاً، (انظر: متى: ٢٨/١ ـ ١٠، مرقس: ١٩/٦، لوقا: ٢٤ ـ ١ ـ ١٢ يوحنا: ٢٠/١ ـ ١٨).

(٥) إشارة إلى الوثنيين.

(٦) سقطت من الأصل.

(٧) سقطت من ج، ص.

(٨) في ص: بإحسانه.

(٩) إشارة إلى اليهود.

(١٠) في ج، ص: وقاربهم.

(١١) إشارة إلى المذاهب الفلسفية عامة؛ ومذهب الجهمية بشكل خاص.

ولا اختيار، ولم يخلق السموات والأرض في ستة أيام، بل لم تزل السموات والأرض معه، وجودها مقارن لوجوده، لم يحدثها بعد عدمها، ولا له قدرة على إفنائها بعد وجودها، ما أنزل على بشر كتاباً، ولا أرسل إلى الناس رسولاً، فلا شرع يتبع ولا رسول يطاع، ولا دار بعد هذه الدار، ولا مبدأ للعالم ولا معاد، ولا بعث ولا نشور ولا جنة ولا نار، إن هي إلاّ تسعة أفلاك[1] وعشرة عقول[2] وأربعة أركان[3] وأفلاك تدور، ونجوم تسير وأرحام تدفع وأرض تبلع، و ﴿وما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلاّ الدهر، وما لهم بذلك من علم إن هم إلاّ يظنون﴾[4] وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له، ولا ضدّ له ولا ندّ له ولا صاحبة له ولا ولد له، ولا كفؤ له، تعالى عن إفك المبطلين (وخرص)[5] الكاذبين، وتقدس عن شرك المشركين وأباطيل الملحدين، كذب العادلون به سواه وضلوا ضلالاً بعيداً، وخسروا خسراناً مبيناً: ﴿ما اتخذ الله من ولد وما كان معه مِن إله، إذاً لَذهبَ كلّ إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض، سبحان الله

---

(١) الأفلاك التسعة هي: كرة السماء الأولى أو الفلك المحيط، فكرة الكواكب الثابتة، فكرة زحل، فالمشتري، فالمريخ، فالشمس، فالزهرة، فعطارد، فالقمر. وكان أرسطو أول من رتبها هذا الترتيب، ثم جاء الفارابي وأنشأ عنها نظرية الفيض الإلهي، حيث ربط هذه الأفلاك بالعقول، وقال بأن لكل فلك نفساً تحركه فيدور، وهو مركز العقل مفارق تستمد منه نفس الفلك قوتها، والعقول المفارقة التسعة التالية لواجب الوجود مع هذه الأجرام السماوية التسعة تؤلف درجة الوجود الثانية.
(انظر: دراسات في تاريخ الفلسفة العربية الإسلامية وآثار رجالها، عبده الشمالي: ص ٢٧٨).

(٢) العقول العشرة هي: العقل الأول واجب الوجود كمال مطلق يعقل نفسه ويعشقها، ويكتفي بها فيفيض عنه عقل ثان هو جوهر غير متجسم ممكن الوجود بنفسه؛ واجبه بالعقل الأول، يعقل نفسه فيفيض عنه فلك، ويحن إلى مصدره الكامل فيعقله فيفيض عن عقله الأول عقل ثالث، ويتوالى ذلك في العقول التي تليه حتى العقل الفعال الحادي عشر الذي يسميه الفارابي بالنفوس الإنسانية التي تعني بما دون فلك القمر بعالم الكون والفساد. فهي عشرة عقول مفارقة لواجب الوجود، وتفيض منها تباعاً تسعة أفلاك آخرها فلك القمر. (انظر: دراسات في تاريخ الفلسفة العربية، عبده شمالي: ص: ٢٧٦ ــ ٢٧٧).
(وانظر: السلسلة الرمزية التي توضح مسلسلة الفيض عند الفارابي في الكتاب).

(٣) الأركان الأربعة: هي ما يسميها أفلاطون بالعناصر الأربعة وهي: الماء، والهواء، والتراب، والنار.
(انظر: قصة الفلسفة اليونانية، أحمد أمين: ص ١٧٤).

(٤) سورة الجاثية: الآية ٢٤.

(٥) في ب، ج، ص: وخوض.

عمّا يصفون! عالم الغيب والشهادة فتعالى عمّا يشركون﴾[1].

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله وصفوته من خلقه وخيرته من بريّته، وأمينه على وحيه، وسفيره بينه وبين عباده، (ابتعثه بخير)[2] ملة وأحسن شرعة، وأظهر دلالة وأوضح حجة، وأبين برهان إلى جميع العالمين إنسهم وجنّهم، عربهم وعجمهم، حاضرهم وباديهم، الذي بشرت به الكتب السالفة، وأخبرت به الرسل الماضية، وجرى ذكره في الأعصار في (القرى والأمصار)[3] والأمم الخالية، ضربت لنبوته البشائر من عهد آدم أبي البشر إلى عهد المسيح ابن البشر، كلما قام رسول أخذ عليه الميثاق بالإيمان به والبشارة بنبوته[4] حتى انتهت النبوة إلى كليم الرحمن موسى بن عمران، فأذّن بنبوّته على رؤوس الأشهاد بين بني إسرائيل معلناً بالأذان: «جاء الله من طور سيناء، وأشرق من ساعير، واستعلن من جبال فاران»[5].

إلى أن ظهر المسيح ابن مريم عبد الله ورسوله وروحه وكلمته (التي)[6] ألقاها إلى مريم، فأذن بنبوته أذاناً لم يؤذنه أحد مثله قبله، فقام في بني إسرائيل مقام الصادق الناصح، وكانوا لا يحبّون الناصحين، فقال: ﴿إني رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يديّ من التوراة، ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد، فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين﴾[7] تالله لقد أذن المسيح أذاناً (أسمع)[8] البادي والحاضر، فأجابه المؤمن المصدق، وقامت حجة الله على الجاحد والكافر. (الله أكبر)[9] عما يقول فيه المبطلون، ويصفه الكاذبون، وينسبه إليه المفترون والجاحدون، ثم قال: أشهد أن لا إله إلاّ الله

(١) سورة المؤمنون: الآيتان ٩١، ٩٢.
(٢) في ص: أبعثه خير.
(٣) سقطت من ص.
(٤) قال تعالى: ﴿وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه. . .﴾ سورة آل عمران: الآية ٨١.
(٥) التثنية: ٣٣/٢.
(٦) سقطت من ب، ج.
(٧) سورة الصف: الآية ٦.
(٨) في ج: سمعه.
(٩) في ص: الله أكبر الله أكبر.

وحده لا شريك له، ولا نِدّ له، ولا كفؤ لـه، ولا صاحبـة ولا ولد لـه، ولا والد لـه بل هـو الأحد الصمد الذي: ﴿لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفـواً أحد﴾ ثم رفـع صوتـه بالشهـادة لأخيـه[١] وأولى الناس بـه بأنـه عبد الله ورسـوله، وأنـه أركون العـالم[٢]، وأنه روح الحق الذي لا يتكلم من قبل نفسه، إنما يقول ما يقال له، وأنه يخبر الناس بكل ما أعدّ الله لهم، ويسـوسهم بالحق، ويخبرهم بالغيـوب، (ويحييهم)[٣] بـالتـأويـل، ويـوبـخ العـالـم على الخطيئة، ويخلصهم من يد الشيطان، وتستمر شريعته وسلطانه إلى آخـر الدهـر[٤] وصرح في أذانه باسمه ونعته، وصفته وسيرته، حتى كأنهم ينظرون إليه عياناً، ثم قـال: حيّ على الصلاة خلف إمام المرسلين، وسيد ولد آدم أجمعين، حيّ على الفلاح باتباع مَنِ السعادة في اتباعه، والفلاح في الدخول في (جملة)[٥] أشياعـه. فأذن وأقـام وتولى وقـال: «لست أدعكم كالأيتام، وسأعود وأصلي وراء هذا الإمام، هذا عهدي إليكم إن حفظتموه دام لكم الملك إلى آخر الأيام»[٦] فصلى الله عليه من ناصح بشّر برسالة أخيه عليهما أفضل الصلاة والسـلام، (وصدّقـه)[٧] أخوه ونـزهه عمـا قال فيـه وفي أُمّه أعـداؤه المغضـوب عليهم من الإفك والباطل وزور الكلام. كما نزه ربه وخالقه ومرسله عمّا قال فيه المثلثة عبّاد الصليب (ونسبوه)[٨] إليه من النقص والعيب والذم.

أمـا بـعـد:

فـإن الله عز وجـل، جلّ ثنـاؤه وتقدست أسمـاؤه وتبارك اسمـه وتعالى جـده ولا إلـه غيره، جعل الإسلام عصمة لمن لجأ إليه، وجنّة لمن استمسك به، وعضّ بالنواجذ عليه، فهو حرمه الذي من دخله كان من الآمنين، وحصنه الذي من لجأ إليـه كان من الفـائزين،

---

(١) يقصد محمداً ﷺ.

(٢) أركون: بمعنى عظيم، وعبر عنه إنجيل يوحنا بلفظ «رئيس العالم». (انظر: يوحنا: ١٤/ ٣٠).

(٣) في الأصل: ويحثهم.

(٤) ورد هـذا النص بمجمله في أكثر من موضع يكمـل بعضها بعضاً. (انظر: يـوحنـا: ١٦/ ٧ ـ ١٤، يوحنا: ١٥/ ٢٦).

(٥) في ب، ج، ص: زمره.

(٦) النص بمعناه في يوحنا: ١٤/ ١٨ ـ ١٩، دون الإشارة إلى الصلاة وراء هذا الإمام.

(٧) في ج، ص: وصدق به.

(٨) في ص، ب: وسمّوه.

ومن انقطع دونه كان من الهالكين، وأبى أن يقبل من أحد ديناً سواه ولو بذل في المسير إليه جهده واستفرغ قواه، وأظهره على الدين كله حتى طبق مشارق الأرض ومغاربها، وسار مسير الشمس في الأقطار وبلغ إلى حيث انتهى الليل والنهار[١]. وعلت الدعوة الإسلامية وارتفعت غاية الارتفاع والاعتلاء، بحيث صار أصلها ثابتاً وفرعها في السماء، فتضاءلت لها جميع الأديان، وخرّت تحتها الأمم (منقادة)[٢] بالخضوع والذل والإذعان، ونادى المنادي بشعارها في جو السماء بين الخافقين، أشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صارخاً بالشهادتين حتى بطلت دعوى الشياطين، وتلاشت عبادة الأوثان، واضمحلت عبادة النيران، وذلت المثلثة عباد الصلبان، وتقطعت الأمة الغضبية في الأرض كتقطع السراب في القيعان[٣]، وصارت كلمة الإسلام هي العليا، وصار (لها)[٤] في قلوب الخلائق المثل الأعلى، وقامت براهينه وحججه على سائر الأمم في الآخرة والأولى، وبلغت منزلته في العلو والرفعة الغاية القصوى، وأقام له وليّه ومصطفاه أعواناً وأنصاراً نشروا ألويته وأعلامه، وحفظوا من التغيير والتبديل حدوده وأحكامه وبلّغوا إلى (نظرائهم)[٥] كما بلّغ إليهم من قبلهم حلاله وحرامه فعظّموا شعائره، وعلموا شرائعه وجاهدوا أعداءه بالحجّة والبرهان[٦]، حتى استغلظ واستوى على سوقه يعجب الزراع ويغيظ الكفار، وعلا بنيانه المؤسس على تقوى من الله ورضوان (إذ كان بناء غيره مؤسساً على شفا جرف هار)[٧] فتبارك الذي رفع منزلته وأعلى كلمته وفخم شأنه وأشاد بنيانه، وأذل مخالفيه ومعانديه وكبت من يبغضه ويعاديه، ووسمهم بأنهم شر الدواب، وأعد لهم إذا قدموا عليه أليم العذاب والعقاب، وحكم لهم بأنهم أضل سبيلاً من الأنعام، إذ استبدلوا الشرك بالتوحيد والضلال بالهدى والكفر بالإسلام، وحكم سبحانه لعلماء الكفر وعباده حكماً يشهد ذوو العقول بصحته ويرونه شيئاً حسناً فقال تعالى: ﴿قل

---

(١) وهذا إشارة إلى ما ورد في الحديث «ليدخلن هذا الدين على ما دخل عليه الليل». رواه ابن حبان في صحيحه.

(٢) سقطت من ص.

(٣) القيعان: جمع قيعة، وهي المستوي من الأرض. (مختار الصحاح).

(٤) في ج، ص: له.

(٥) في الأصل: نظر أبيهم.

(٦) في ج، ص: والبيان.

(٧) سقطت من الأصل.

هـل ننبئكم بالأخسـرين أعمالاً، الـذين ضل سعيهم في الحيـاة الدنيـا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً، أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يـوم القيامة وزناً، ذلك جزاؤهم جهنم بما كفروا واتخذوا آياتي ورسلي هزواً﴾[1].

(فصل): فأين يذهب من تولى عن توحيد ربه وطاعته، ولم يرفع رأساً بأمره ونهيـه، وكـذّب رسولـه، وأعرض عن متـابعته، وحـاد عن شريعتـه، ورغب عن ملته، واتّبـع غيـر سنتـه، ولم (يتمسـك)[2] بعهـده، ومكّن الجهـل من نفسـه، والهـوى والعنـاد من قلبـه، والجحـود والكفر من صـدره، والعصيان والمخـالفـة من جـوارحـه، فقـد قـابـل خبـر الله بالتكذيب، وأمـره بالعصيـان، ونهيه بـالارتكاب، يغضب الـرب وهو راض، ويـرضى وهو غضبان، يحب ما يبغض ويبغض ما يحب، ويوالي من يعـاديه ويعـادي من يواليـه، يدعـو إلى خـلاف ما يـرضى، وينهى عبداً إذا صلى، فقـد اتخذ إلهـه هواه وأضله الله على علم فـأصمّه وأبكمـه وأعماه، فهـو ميت الدارين، فـاقد السعـادتين، قد رضي بخـزي الدنيـا، وعذاب الآخرة، وباع التجارة الرابحة بالصفقة الخـاسرة، فقلبـه عن ربّه مصـدود، وسبيل الوصول إلى جنته ورضاه وقـربه عنـه مسدود، فهـو ولي الشيطان وعـدو الرحمن، وحليف الكفر والفسوق والعصيان، قد رضي المسلمـون بالله ربـاً، وبالإسـلام ديناً، وبمحمـد ﷺ رسولاً، ورضي المخذول بالصليب والوثن إلهـاً، وبالتثليث والكفـر ديناً، وبسبيـل الضلال والغضب سبيـلاً، أعصى النـاس للخـالق الـذي لا سعـادة لـه إلاّ في طـاعتـه، وأطـوعهم للمخلوق الذي ذهاب دنياه وأخراه في طـاعته، وإذا سئل في قبره من ربـك؟ وما دينـك؟ ومن نبيـك؟ قـال: آه آه لا أدري، فيقـال لـه: لا دريت ولا تليت[3]، وعلى ذلـك حييت وعليـه مت، وعليه تبعث إن شـاء الله، ثم يضرم عليـه قبره نـاراً، ويضيق عليه كـالزج في الرمح[4] إلى قيـام السـاعـة[5]، فإذا ﴿بُعْثِـرَ ما في القبـور وحُصِّلَ مـا في الصدور﴾، وقـام

(١) سورة الكهف: الآيات: ١٠٣ ــ ١٠٦.

(٢) في ب، حـ: يستمسك.

(٣) لا دريت ولا تليت: قـال ثعلب: قولـه «تليت» أصلهـا تلوت، أي لا فهمت ولا قـرأت والمعنى: لا دريت ولا اتبعت من يدري. (انظر: فتح الباري: ٣/٢٣٩).

(٤) الزج في الرمح: الزج بالضم الحديدة التي في أسفل الرمح. (مختار الصحاح).

(٥) هـذا الحديث مـروي في أكثر كتب السنة، لكنني لم أعثر على نفس اللفظ والتـرتيب الذي جـاء به المؤلف، ويتضح من السياق أن المؤلف قد أورد هذا من مجموعة الأحاديث، ولم يرد التقيد بحديث =

الناس لرب العالمين، ونادى المنادي ﴿وامتازوا اليوم أيها المجرمون﴾[1] ثم رفع لكل عابد (معبوده الذي كان)[2] يعبده ويهواه، وقال الرب تعالى وقد أنصت له الخلائق: ليس عدلاً مني أن أولي كل إنسان منكم ما كان في الدنيا يتولاه، فهناك يعلم المشرك حقيقة ما كان عليه، (وبين)[3] له سوء منقلبه وما صار إليه، ويعلم الكفّار أنهم لم يكونوا أولياءه ﴿إن أولياؤه إلّا المتقون﴾[4] ﴿وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون، وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعلمون﴾[5].

***

= معيّن. فقد رواه البخاري ونصه: «ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول: لا أدري، فيقال: لا دريت ولا تليت، ويضرب بمطارق من حديد» ورواه أبو داود وذكر فيه: «فيقول: هاه هاه لا أدري» ورواه الإمام أحمد في مسنده في أكثر من رواية وذكر في إحداها: «يضيق عليه قبره» وفي رواية أخرى ذكر أنه يقال له: «وعليه مت وعليه تبعث إن شاء الله» وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد وذكر فيه: «على هذا حييت وعليه مت وعليه تبعث إن شاء الله ويضيق عليه قبره» وقال الهيثمي: «رواه الطبراني في الأوسط وإسناده حسن». (انظر: فتح الباري: ٢/٢٢٣؛ سنن أبي داود مع حاشية عون المعبود ٤/٣٨٥، الفتح الرباني ٧/١١٣، مجمع الزوائد للهيثمي ٣/٥٢).

(١) سورة يس: الآية ٥٩.
(٢) في ج: ما كان.
(٣) في ج، ص: ويبين.
(٤) سورة الأنفال: الآية ٣٤.
(٥) سورة التوبة: الآية ١٠٥.

[الحالة الدينية للمجتمع البشري عند بعثة محمد ﷺ]

(فصل) ولمَّا بعث الله محمداً ﷺ كان أهل الأرض (صنفين)[1]: أهل كتاب وزنادقة لا كتاب لهم، وكان أهل الكتاب أفضل (الصنفين)[2]، وهم نوعان: مغضوب عليهم وضالون.

[اليهود]: فالأمة الغضبية هم اليهود أهل الكذب والبهت والغدر والمكر والحيل، قتلة الأنبياء وأكلة السحت والربا والرشا، أخبث الأمم طويّة، وأرداهم سجية، وأبعدهم من الرحمة، وأقربهم من النقمة، عادتهم البغضاء، (ودينهم)[3] العداوة والشحناء، بيت السحر والكذب والحيل، لا يرون لمن خالفهم في كفرهم وتكذيبهم (ولو نبياً)[4] حرمة، ولا يرقبون في مؤمن إلاًّ ولا ذمة، ولا لمن وافقهم عندهم حق ولا شفقة، ولا لمن شاركهم عندهم عدل ولا نصفة، ولا لمن خالطهم طمأنينة ولا أمنة، ولا لمن استعملهم عنده نصيحة، بل أخبثهم أعقلهم وأصدقهم أغشهم، وسليم الناحية ــ وحاشا أن يوجد فيهم وبينهم ــ ليس بيهودي على الحقيقة، أضيق الخلق صدوراً، وأظلمهم بيوتاً، وأنتنهم أفنية[5]، وأوحشهم سحنة[6]، تحيتهم لعنة ولقاؤهم طيرة، شعارهم الغضب ودثارهم المقت[7].

---

(١) في ص: نصفين.

(٢) في ص: النصفين.

(٣) في ص: ودأبهم.

(٤) في ج، ص: الأنبياء.

(٥) إشارة لقوله عليه السلام: (نظفوا أفنيتكم ولا تَشَبَّهُوا باليهود).
أخرجه الترمذي في كتاب الأدب: ص ٤١. انظر: عارضة الأحوذي: ١٠/٢٤٠.

(٦) السحنة: الهيئة (مختار الصحاح): ص ٢٨٩.

(٧) الشعار هو الثوب الذي يلي اللحم، والدثار كل ما كان من الثياب فوق الشعار (مختار الصحاح): ص ١٩٨. ومعنى هذا الوصف، أنهم يُحيطهم ويعمهم الغضب والمقت من الله تعالى.

[**النصارى**]: (والنوع)[1] الثاني: المثلثة (أمة الضلال) (أو عبّاد الصليب)[2] الذين (سبّوا الله الخالق مسبّة ما سبّه)[3] إياها أحد من البشر، ولم يقروا بأنه الواحد الأحد الفرد الصمد الذي ﴿لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد﴾، ولم يجعلوه أكبر من كل شيء بل قالوا ما: ﴿تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخرّ الجبال هدا﴾[4] فقل ما شئت في طائفة أصل عقيدتها أن الله ثالث ثلاثة، وأن مريم صاحبته، وأن المسيح ابنه، وأنه نزل عن كرسيّ عظمته، والتحم ببطن الصاحبة، وجرى له ما جرى إلى أن قتل ومات ودفن، ودينها عبادة الصلبان، ودعاء الصور المنقوشة بالأحمر والأصفر في الحيطان، يقولون في دعائهم: «يا والدة الإله ارزقينا واغفري لنا وارحمينا»[5].

فدينهم شرب الخمور وأكل الخنزير، وترك الختان، والتعبد بالنجاسات، واستباحة كل خبيث من الفيل إلى البعوضة، (ورفض نصوص الكتب الإلهية والعمل بقول جاهل من رهابنتهم، واتباع أمره وأن الحق معه)[6] والحلال ما أحله، والحرام ما حرّمه، والدين ما شرعه وهو الذي يغفر لهم الذنوب وينجيهم من عذاب السعير.

[**الوثنيون والملاحدة**]: فهذا حال من له كتاب، وأما من لا كتاب له، فهم عابد أوثان وعابد (صوان)[7]، وعابد شيطان وصابىء حيران، يجمعهم الشرك وتكذيب الرسل

---

(١) في ص: والنصف.
(٢) سقطت من الأصل.
(٣) في الأصل: نسبوا الله الخالق نسبة ما نسبه.
(٤) سورة مريم: الآية ٩٠.
(٥) يشير إلى الذين يؤلهون مريم ويتقربون إليها بالعبادة، ويسمون بالمريميين، وقد ذكر القمص زكريا بطرس أن هذه الفرقة ظهرت في القرن الخامس الميلادي، وكان أصحاب هذه البدعة من الوثنيين الذين اعتنقوا المسيحية، وكانوا في وثنيتهم يعبدون الزهرة ويقولون عنها ملكة السماء، وعندما اعتنقوا المسيحية حاولوا التقريب بين ما كانوا يعبدون وبين العقيدة المسيحية فاعتبروا مريم ملكة السماء أو إلهة السماء بدلاً من الزهرة.
(انظر كتاب: الله واحد في الثالوث القدوس، القمص زكريا إبراهيم: ص ٤١، الطبعة الرابعة، مركز الشبيبة، السويس).
(٦) سقطت من ج، ص.
(٧) في ب، ج، ص: نيران.

وتعطيل الشرائع، وإنكار المعاد وحشر الأجساد، لا يدينون (للحق)[1] بدين ولا يعبدونه مع العابدين، ولا يوحدونه مع الموحدين.

[**المجوس**]: وأمة المجوس منهم تستفرش الأمهات والبنات والأخوات مع العمات والخالات، دينهم (الزمزمة)[2] وطعامهم الميتة وشرابهم الخمر ومعبودهم النار، ووليهم الشيطان، فهم أخبث بني آدم نحلة (وأرذلهم)[3] مذهباً، وأَسْوَؤُهُمُ اعتقاداً.

[**الصابئة والفلاسفة**]: وأما زنادقة الصابئة وملاحدة الفلاسفة، فلا يؤمنون بالله ولا ملائكته ولا كتبه ولا رسله ولا لقائه، ولا يؤمنون بمبدأ ولا معاد، وليس للعالم عندهم ربّ فعّال بالاختيار لما يريد، قادر على كل شيء، عالم بكل شيء، آمِرٌ ناهٍ مرسل الرسل، ومنزل الكتب، ومثيب المحسن، ومعاقب المسيء، وليس عند نظائرهم إلّا تسعة أفلاك، وعشرة عقول، وأربعة أركان، وسلسلة ترتبت فيها الموجودات هي بسلسة المجانين أشبه منها بمجوزات العقول.

[**دين الحنيفية**]: وبالجملة فدين الحنيفية الذي لا دين لله غيره بين أهل هذه الأديان الباطلة ــ التي لا دين في الأرض غيرها ـ أخفى من السها[4] تحت السحاب، وقد نظر الله تعالى إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلّا بقايا من أهل الكتاب[5]، فأطلع الله تعالى شمس الرسالة في حنادس[6] تلك الظلم سراجاً منيراً، وأنعم (الله)[7] بها على أهل الأرض نعمة لا يستطيعون لها شكراً، ﴿وأشرقت الأرض بنور ربها﴾[8]، أكمل إشراق،

---

(١) في ب، ج، ص: للخالق.

(٢) في ج، ص: الزمر، والزمزمة: صوت الرعد، قال الجوهري: الزمزمة كلام المجوس عند أكلهم، وفي حديث عمر رضي الله عنه، كتب إلى أحد عماله في أمر المجوس: «وانههم عن الزمزمة» (انظر لسان العرب).

(٣) في ج، ص: وأرداهم.

(٤) السها: كوكب خفي يمتحن الناس به أبصارهم (مختار الصحاح: ص ٣١٩).

(٥) هذا الحديث جزء من خطبة لرسول الله ﷺ، أخرجها الإمام مسلم في صحيحه بسنده عن عياض بن حمار (صحيح مسلم: كتاب الجنّة وصفة نعيمها حديث رقم ٢٨٦٥).

(٦) حنادس: جمع حندس بكسر الحاء والدال: الليل الشديد الظلمة (مختار الصحاح).

(٧) سقطت من ب، ج، ص.

(٨) سورة الزمر: الآية ٦٩.

وفاض ذلك حتى عمَّ النواحي والآفاق ﴿وانشق القمر أتم الانشقاق﴾[1]، وقام دين الله الحنيف على ساق، فلله الحمد الذي أنقذنا بمحمد ﷺ من تلك الظلمات، وفتح لنا به (باب)[2] الهدى فلا يغلق إلى يوم الميقات، وأرانا في نوره أهل الضلال وهم في ضلالهم يتخبطون، وفي سكرتهم يعمهون، وفي جهالتهم يتقلبون، وفي ريبهم يترددون، يؤمنون[3] ويعدلون ولكن بربهم يعدلون، ويعلمون ولكن ﴿ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة غافلون﴾، ويسجدون ولكن للصليب، والوثن والشمس يسجدون، ويمكرون وما يمكرون إلّا بأنفسهم وما يشعرون، ﴿لقد منّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾[4] ﴿كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون، فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون﴾[5].

والحمد لله الذي أغنانا بشريعته التي تدعو إلى الحكمة والموعظة الحسنة، وتتضمن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والأمر بالعدل والإحسان، والنهي عن الفحشاء والمنكر والبغي، فله المنّة والفضل على ما أنعم به علينا، وآثرنا به على سائر الأمم، وإليه الرغبة أن يوزعنا شكر هذه النعمة، وأن يفتح لنا أبواب التوبة والمغفرة والرحمة، فأحب الوسائل إلى المحسن التوسل إليه بإحسانه، والاعتراف له بأن الأمر كله محض فضله وامتنانه، فله علينا النعمة السابغة، كما له علينا الحجة البالغة، نبوء له بنعمه علينا، ونبوء بذنوبنا وخطايانا، وجهلنا وظلمنا، وإسرافنا في أمرنا، فهذه بضاعتنا التي لدينا، لم تبق لنا، ونعمه وحقوقها وذنوبنا حسنة (نرجو بها)[6] الفوز بالثواب والتخلص من أليم العقاب. بل بعض ذلك (ينفذ)[7] جميع حسناتنا، ويستوعب كل (طاعتنا)[8]، هذا لو خلصت من

(١) في ج، ص: واتسق قمر الهدى أتم الاتساق.
(٢) سقطت من الأصل.
(٣) زاد في ص: ولكن بالجبت والطاغوت.
(٤) سورة آل عمران: الآية ١٦٤.
(٥) سورة البقرة: الآيتان ١٥١ ـ ١٥٢.
(٦) سقطت من ص، وفي ج: يزكو لها.
(٧) في ج، ص: يستنفذ.
(٨) في ج: طاعاتنا.

الشوائب، وكانت خالصة لوجهه (واقعة)[1] على وَفْقِ أمره، وما هو والله إلاّ التعلق بأذيال عفوه، وحسن الظن به (واللجاية)[2] إليه (والاستعانة)[3] به منه، والاستكانة والتذلل بين يديه، ومدّ يد الفاقة والمسكنة إليه بالسؤال، والافتقار إليه في جميع الأحوال، فمن أصابته نفحة من نفحات رحمته، (وأوقعت)[4] عليه (قطرة من قطرات)[5] رأفته انتعش (بين)[6] الأموات، وأناخت بفنائه وفود الخيرات، وترحلت عنه جيوش الهموم والغموم والحسرات.

(شعر):

وإذا نظرت إلي نظرة راحم ... في الدهر يوماً إنني لسعيد

***

---

(١) في ب، ج، ص: واقفة.

(٢) في ج، ص: واللجأ منه.

(٣) في ب والأصل: والاستعاذ.

(٤) في ب، ج، ص: أو وقعت.

(٥) في ب، ج، ص: نظرة من نظرات.

(٦) في ب، ج، ص: من بين.

[سبب تأليف الكتاب]

(فصل) ومن بعض حقوق الله على عبده رد الطاعنين على كتابه ورسوله ودينه، ومجاهدتهم بالحجة والبيان، والسيف والسنان، والقلب والجنان، وليس وراء ذلك حبة خردل (من الإيمان)[1].

وكان انتهى إلينا مسائل أوردها بعض الكفار الملحدين على بعض المسلمين، فلم يصادف عنده ما يشفيه، ولا وقع دواؤه (على الداء)[2] الذي فيه، وظن المسلم أنه بضربه يداويه فسطا به ضرباً، وقال هذا هو الجواب، فقال الكافر: صدق أصحابنا في قولهم: إن دين الإسلام إنما قام بالسيف لا بالكتاب، فتفرقا وهذا ضارب وهذا مضروب، وضاعت الحجة بين الطالب والمطلوب، فشمّر المجيب ساعد العزم، ونهض على ساق الجد، وقام لله قيام مستعين (به)[3]، مفوض إليه متوكل في موافقة مرضاته عليه، ولم يقل (مقال العجزة)[4] الجهال إن (الكفار)[5] إنما يعاملون بالجلاد دون الجدال، وهذا فرار من الزحف، وإخلاد إلى العجز والضعف. (فمجادلة)[6] الكفار بعد دعوتهم إقامة للحجة (وإزالة)[7] للعذر ﴿ليهلك من هلك عن بينة، ويحيى من حيّ عن بينة﴾[8]، والسيف إنما جاء منفذاً للحجة، مقوماً للمعاند، وحداً للجاحد.

---

(١) سقطت من ج، ص.
(٢) سقطت من ص.
(٣) سقطت من الأصل.
(٤) في ج، ص: مقالة الفجرة.
(٥) زاد في ج: دائماً.
(٦) في ج: وقد أمر الله بمجادلة.
(٧) في ج، ص: وإزاحة.
(٨) سورة الأنفال: الآية ٤٢.

قال تعالى: ﴿لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط، وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوي عزيز﴾[1].

فدين الإسلام قام بالكتاب الهادي، ونفذه السيف الناصر.

(شعر):

فما هو إلّا الوحي أوحد مرهف　　يقيم ضياه أخدعي كل مائل

فهذا شفاء الداء من كل عاقل　　وهذا دواء الداء من كل جاهل

وإلى الله الرغبة في التوفيق، فإنه الفاتح من الخير أبوابه، والميسر له أسبابه.

***

(١) سورة الحديد: الآية ٢٥.

[خـطـة الكـتـاب]

(وقـد وضعت هـذا الكتـاب)[1] وسميتـه: «هـدايـة الحيـارى في أجـوبـة اليهـود والنصارى».

وقسمته قسمين:

القسم الأول: في أجوبة المسائل.

القسم الثاني: في تقريـر نبوّة (سيـدنا ومـولانا)[2] محمـد ﷺ (ابن عبد الله)[3] (بن عبد المطلب بن هاشم)[4] بجميع أنواع الدلائل، فجاء بحمد الله ومنّته وتوفيقه كتاباً ممتعاً معجباً، لا يسأم قـاريه ولا يمـلّ الناظـر فيه، فهـو كتاب يصلح للدنيـا والآخرة، ولـزيـادة الإيمان ولذّة الإنسـان، يعطيـك ما شئت من أعـلام النبوة، وبـراهين الرسـالة، وبشـارات الأنبيـاء بخاتمهم، واستخـراج اسمه الصـريح من كتبهم، وذكـر نعته وصفتـه وسيـرتـه من كتبهم، والتميز بين صحيح الأديان وفاسـدها، وكيفيـة فسادهـا بعد استقـامتها، وجملة من فضائح أهل الكتابين، وما هم عليه، وأنهم أعظم الناس بـراءة من أنبيائهم، وأن نصـوص أنبيـائهم تشهد بكفـرهم وضلالهم وغيـر ذلك من نكت بـديعة، لا تـوجد في سـواه، والله المستعان وعليه التكلان، فهو حسبنا ونعم الوكيل.

***

(١) سقطت من ج، ص.
(٢) سقطت من ج، ص.
(٣) سقطت من ج.
(٤) سقطت من ج، ص.

[القسم الأول: في أجوبة المسائل]

[المسألة الأولى]

فنقول أما المسألة الأولى، وهي قول السائل: (قد اشتهر عندكم أن أهل (الكتابين)[1] ما منعهم من الدخول في الإسلام إلّا الرئاسة والمأكلة لا غير) فكلام جاهل بما عند المسلمين (وبما عند الكفار)[2]، أما المسلمون فلم يقولوا: إنه لم يمنع أهل الكتاب (من الدخول)[3] في الإسلام إلّا الرئاسة والمأكلة لا غير، وإن قال هذا بعض (عوامّهم)[4] فلا يلزم (جماعتهم)[5]، والممتنعون من الدخول في الإسلام من أهل (الكتابين)[6] وغيرهم جزء يسير جداً بالإضافة إلى الداخلين فيه (منهم)[7]، بل أكثر الأمم دخلوا في الإسلام طوعاً ورغبة واختياراً لا كرهاً واضطراراً.

[التوزيع الجغرافي لأصحاب الديانات]

وإن الله سبحانه وتعالى بعث محمداً ﷺ رسولاً إلى أهل الأرض، وهم خمسة أصناف، قد طبقوا الأرض: يهود، ونصارى، ومجوس، (وصابئون)[8]، ومشركون.

وهذه الأصناف هي التي كانت قد استولت على الدنيا من مشارقها إلى مغاربها.

---

(١) في الأصل: الكتاب.
(٢) في ج: والكفار.
(٣) سقطت من الأصل.
(٤) في الأصل: أعوامهم.
(٥) في الأصل: جملتهم.
(٦) في الأصل: الكتاب.
(٧) سقطت من الأصل.
(٨) في ب، ج، ص: وصابئة.

فأما اليهود فأكثر ما كانوا في اليمن وخيبر والمدينة وما حولها، وكانوا بأطراف الشام مستذلين مع النصارى، (وكان منهم بأرض فارس مستذلة مع المجوس)[1]، وكان منهم بأرض (المغرب)[2] فرقة، وأعز ما كانوا بالمدينة وخيبر (وما حولها)[3]. وكان الله سبحانه وتعالى قد قطعهم في الأرض أمماً، وسلبهم الملك والعز.

وأما النصارى فكانوا طبق الأرض، فكانت الشام (كلها)[4] نصارى، وأرض المغرب كان الغالب عليهم النصارى، وكذلك (أرض)[5] مصر والحبشة والنوبة[6] والجزيرة[7] والموصل وأرض نجران وغيرها من البلاد.

وأما المجوس فهم أهل مملكة فارس وما اتصل بها.

وأما الصابئة[8] فأهل حرّان[9] وكثير من بلاد الروم.

---

(١) موجودة في ج، وعلى هامش ب.
(٢) في الأصل: العرب.
(٣) زيادة في الأصل فقط.
(٤) في الأصل: كلها.
(٥) سقطت من الأصل.
(٦) النوبة: بضم أوله وسكون ثانيه، بلاد واسعة عريضة في جنوبي مصر، وهم نصارى، أهل شدة في العيش أول بلادهم بعد أسوان، وكان عثمان بن عفان صالح النوبة على أربعمائة رأس في السنة (معجم البلدان).
(٧) الجزيرة: لعله يقصد منطقة الجزيرة في سوريا، والتي تقع ما بين دجلة والفرات، تشتمل على ديار مضر وديار بكر وهي صحيحة الهواء جيدة الريع والنماء، ومن أمهات مدنها حران والرها والرقة ونصيبين، افتتحها عياض بن غنم سنة ١٧هـ (معجم البلدان).
(٨) الصابئة: أطلق هذا الاسم على فرقتين متميزتين تماماً وهما: المنديا أو الصبوة وهي فرقة يهودية نصرانية تمارس شعيرة التعميد في العراق، وصابئة حران وهي فرقة وثنية بقيت أمداً طويلاً في ظل الإسلام... ومن الواضح أن الصابئة الذين ذكرهم القرآن في ثلاثة مواضع هم اليهود والنصارى من أهل الكتاب، ولا شك أن اسم الصابئة مشتق من الأصل العبري (صبع) أي غطس ثم أسقطت العين، وهو يدل بلا ريب على المعمدانيين الذين يمارسون شعيرة التعميد أو الغطاس (دائرة المعارف الإسلامية: ١٤/٨٩).
(٩) حرّان: مدينة عظيمة مشهورة على طريق الموصل والشام، وكانت منازل الصابئة وهم الحرانيون، وفتحت في أيام عمر بن الخطاب على يد عياض بن غنم صلحاً (معجم البلدان: ٢/٢٣٥).

وأما المشركون فجزيرة العرب جميعها وبلاد الهند وبلاد الترك وما جاورها. . . .

وأديان أهل الأرض لا تخرج عن هذه الأديان الخمسة، ودين الحنفاء لا يعرف فيهم البتة، وهذه الأديان (الخمسة)[١] كلها للشيطان كما قال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره: «الأديان ستة: واحد للرحمن وخمسة للشيطان»[٢] وهذه الأديان الستة مذكورة في آية الفصل[٣] في قوله تعالى: ﴿إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا، إن الله يفصل بينهم يوم القيامة إن الله على كل شيء شهيد﴾[٤] فلما بعث الله رسوله ﷺ، استجاب له ولخلفائه بعده أكثر الأديان طوعاً واختياراً، ولم يكره أحداً قط على الدين، وإنما كان يقاتل من يحاربه، وأما من سالمه وهادنه فلم يقاتله، ولم يكرهه على الدخول في دينه امتثالاً لأمر ربه سبحانه وتعالى حيث يقول: ﴿لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغيّ﴾[٥].

وهذا نفي في معنىٰ النهي، أي: لا تكرهوا أحداً على الدين، نزلت هذه الآية في رجال من الصحابة كان لهم أولاد، قد تهودوا وتنصروا قبل الإسلام، فلما جاء الإسلام أسلم الآباء، وأرادوا إكراه الأولاد على الدين، فنهاهم الله سبحانه وتعالى عن ذلك حتى يكونوا هم الذين يختارون الدخول في الإسلام[٦].

والصحيح: الآية على عمومها في حق كل كافر، وهذا ظاهر على (قول من)[٧] يجوّز أخذ الجزية من جميع الكفار، فلا يكرهون على الدخول في الدين، بل إمّا أن يدخلوا في الدين، وإمّا أن يعطوا الجزية كما تقوله أهل العراق، وأهل المدينة، وإن استثنى هؤلاء بعض عبدة الأوثان.

---

(١) سقطت من الأصل.

(٢) هذا النص ذكره الطبري بنصّه دون أن ينسبه لأحد (٢٧/١٧) وذكره النيسابوري عن مقاتل بنص «الأديان ستة واحد لله تعالى وهو الإسلام، وخمسة للشيطان» (تفسير غرائب القرآن، مطبوع بهامش الطبري: ٧٤/١٧).

(٣) سماها آية الفصل لأن في آخرها (إن الله يفصل بينهم يوم القيامة).

(٤) سورة الحج: الآية ١٧.

(٥) سورة البقرة: الآية ٢٥٦.

(٦) انظر: تفسير القرآن العظيم: ٣١٠/١.

(٧) سقطت من الأصل.

ومن تأمل سيرة النبي ﷺ تبيّن أنه لم يكره أحداً على دينه قط، وأنه إنما قاتل من قاتله، وأما من هادنه فلم يقاتله ما دام مقيماً على هدنته، لم ينقض عهده، بل أمره الله تعالى أن يفي لهم بعهدهم ما استقاموا له، كما قال تعالى: ﴿فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم﴾(١).

فلما قدم المدينة صالح اليهود وأقرهم على دينهم، فلما حاربوه ونقضوا عهده وبدأوه بالقتال قاتلهم، فمنّ على بعضهم، وأجلى بعضهم، وقاتل بعضهم، وكذلك لما هادن قريشاً عشر سنين(٢)، لم يبدأهم بقتال حتى (بدأوا هم بقتاله)(٣) ونقض عهده، فحينئذٍ غزاهم في ديارهم، وكانوا يغزونه قبل ذلك، كما قصدوه يوم الخندق، ويوم بدر أيضاً هم جاؤوا لقتاله، ولو انصرفوا عنه لم يقاتلهم.

والمقصود أنه ﷺ لم يكره أحداً على الدخول في دينه البتة، وإنما دخل الناس في دينه اختياراً وطوعاً، فأكثر أهل الأرض (دخلوا في دعوته لما تبيّن لهم الهدى، وأنه رسول الله حقاً، فهؤلاء أهل اليمن)(٤) كانوا على دين اليهودية، وأكثرهم كما قال النبي ﷺ لمعاذ لما بعثه إلى اليمن «إنك ستأتي قوماً أهل كتاب فليكن أول ما (تدعوهم)(٥) إليه شهادة أن لا إله إلاّ الله . . .» وذكر الحديث(٦). ثم دخلوا الإسلام من غير رغبة ولا رهبة، وكذلك من أسلم من يهود المدينة، وهم جماعة كثيرون غير عبد الله(٧)، مذكورون في كتب السير والمغازي، لم يسلموا رغبة في الدنيا ولا رهبة من السيف، بل أسلموا في حال حاجة المسلمين وكثرة أعدائهم، ومحاربة أهل الأرض لهم

---

(١) سورة التوبة: الآية ٧.

(٢) وذلك في صلح الحديبية سنة ٦هـ.

(٣) في الأصل: بدأوه بقتالهم.

(٤) هذه الجملة سقطت من الأصل.

(٥) في الأصل: تدعوه.

(٦) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه في كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين: ١/٧ ــ ٢٩).

(٧) عبد الله: هو عبد الله بن سلام بن الحارث الإسرائيلي، أبو يوسف حليف بني عوف بن الخزرج أسلم عند قدوم النبي ﷺ المدينة، قيل: كان اسمه الحصين، وسماه النبي ﷺ عبد الله، وشهد له بالجنة، أقام بالمدينة إلى أن مات، (الأعلام، الزركلي: ٤/٢٢٣).

من غير سوط ولا نوط[1]، بل تحملوا معاداة أقربائهم وحرمانهم نَفْعَهُمْ بالمال والبدن مع (ضعف)[2] شوكة المسلمين وقلة ذات أيديهم، فكان أحدهم يعادي أباه وأمه وأهل بيته وعشيرته، ويخرج من الدنيا رغبة في الإسلام، لا لرئاسة ولا مال بل ينخلع من الرئاسة والمال، ويتحمل أذى الكفار من ضربهم وشتمهم وصنوف أذاهم ولا يصرفه عن دينه.

فإن كان كثير من الأحبار والرهبان والقسيسين ومن ذكره هذا السائل قد اختار الكفر، فقد أسلم جمهور أهل الأرض من (فرق)[3] الكفار، ولم يبق إلّا الأقل بالنسبة إلى من أسلم، فهؤلاء نصارى الشام كانوا (ملء)[4] الشام، ثم صاروا مسلمين إلّا النادر، فصاروا في المسلمين كالشعرة السوداء في الثور الأبيض.

وكذلك المجوس كانت أمة لا يحصي عددهم إلّا الله تعالى، فأطبقوا على الإسلام، ولم يتخلف منهم إلّا النادر، وصارت بلاد إسلام، وصار من لم يسلم منهم تحت الجزية (والذلة)[5]، وكذلك اليهود أسلم أكثرهم ولم يبق منهم إلا شرذمة قليلة مقطعة في البلاد.

فقول هذا الجاهل إن (هاتين)[6] الأمتين (اللتين)[7] لا يحصي عددهم إلّا الله تعالى، كفروا بمحمد ﷺ، كذب ظاهر وبهت مبين، حتى لو كانوا كلهم قد (أطبقوا على اختيار)[8] الكفر لكانوا في ذلك أسوة قوم نوح، وقد أقام فيهم نوح ﷺ ألف سنة إلّا خمسين عاماً يدعوهم إلى الله تعالى، ويريهم من الآيات ما يقيم حجة الله عليهم، وقد أطبقوا على الكفر إلّا قليلاً منهم، كما قال تعالى: ﴿وما آمن معه إلّا قليل﴾[9].

---

(١) النوط: من ناط الشيء ينوطه نوطاً: علقه، والنوط ما علق سمي بالمصدر، وكل ما علق من شيء فهو نوط، والأنواط: المعاليق، وفي المثل: عاط بغير أنواط: أي يتناول وليس هناك شيء معلق، وفي حديث عمر رضي الله عنه أنه أتي بمال كثير، فقال: إني لأحسبكم قد أهلكتم الناس فقالوا: والله ما أخذناه إلا عفواً بلا سوط ولا نوط أي بلا ضرب ولا تعليق. (لسان العرب: ٧/٤١٨).

(٢) في ج: قلة.

(٣) سقطت من ج.

(٤) في ب، ج: أهل.

(٥) سقطت من ج.

(٦) في الأصل: هذين.

(٧) في جميع النسخ: التي.

(٨) في ص: أجمعوا على.

(٩) سورة هود: الآية ٤٠.

وهم كانوا أضعاف أضعاف هاتين الأمتين الكافرتين، أهل الغضب وأهل الضلال، (وقوم عاد)[١] أطبقوا على الكفر، وهم أمة عظيمة عقلاء حتى استؤصلوا بالعذاب، (وقوم ثمود)[٢] أطبقوا جميعهم على الكفر بعد رؤية الآية العظيمة التي يؤمن على مثلها البشر، ومع هذا فاختاروا الكفر على الإيمان كما قال تعالى: ﴿وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى﴾[٣]، وقال تعالى: ﴿وعاداً وثمود وقد تبين لكم من مساكنهم وزيّن لهم الشيطان أعمالهم فصدّهم عن السبيل وكانوا مستبصرين﴾[٤].

فهاتان أمتان عظيمتان من أكبر الأمم قد أطبقا على الكفر مع البصيرة، (فأمتا)[٥] الغضب والضلال إذا أطبقتا على الكفر فليس ذلك ببدع، وهؤلاء قوم فرعون مع كثرتهم قد أطبقوا على جحد نبوة موسى عليه الصلاة والسلام مع تظاهر الآيات الباهرة آية بعد آية، فلم يؤمن منهم إلا رجل واحد كان يكتم إيمانه[٦].

وأيضاً فيقال للنصارى: هؤلاء اليهود مع كثرتهم في زمن المسيح عليه الصلاة والسلام حتى كانوا قد ملأوا بلاد الشام كما قال تعالى: ﴿وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها﴾[٧] وكانوا قد أطبقوا على تكذيب المسيح وجحد نبوته، وفيهم الأحبار (والرهبان)[٨]، والعبّاد والعلماء، حتى آمن به

---

(١) في ص: وعاد.

(٢) في ص: وثمود.

(٣) سورة فصلت: الآية ١٧.

(٤) سورة العنكبوت: الآية ٣٨.

(٥) في جميع النسخ: فأمّة.

(٦) هو مؤمن آل فرعون الذي ذكرته سورة غافر التي سميت باسمه (المؤمن) بقوله تعالى: ﴿وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله...﴾ [غافر: ٢٨].
والحقيقة أنه آمن مع موسى عليه السلام غير هذا الرجل كما قال تعالى: ﴿فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملئهم أن يفتنهم﴾ [يونس: ٨٣].
ولعل المؤلف رحمه الله ذهب إلى ما نقل عن مجاهد، واختاره ابن جرير الطبري في الذرية أنها من بني إسرائيل لا من قوم فرعون لعود الضمير على أقرب المذكورين.
(تفسير ابن كثير: ١/٤٢٧ ــ ٤٢٨).

(٧) سورة الأعراف: الآية ١٣٧.

(٨) سقطت من ب، ج، ص.

الحواريون، فإذا جاز على اليهود ـ وفيهم الأحبار والعباد والزهاد وغيرهم ـ الإطباق على جحد نبوة المسيح، والكفر به مع ظهور آيات صدقه كالشمس، جاز عليهم إنكار نبوة محمد ﷺ، ومعلوم أن جواز ذلك على أمة الضلال الذين هم أضل من الأنعام، وهم النصارى أولى وأحرى.

فهذا السؤال الذي أورده هذا السائل وارد بعينه في حق كل نبي كذبته أمة من الأمم، فإن صوّب هذا السائل رأي تلك (الأمم)[1] كلها، فقد كفر بجميع الرسل، وإن قال إن الأنبياء كانوا على الحق، وكانت تلك الأمم مع كثرتها ووفور عقلها على الباطل، فلأن يكون المكذبون بمحمد ﷺ ـ وهم الأقلون (الأرذلون)[2] من هذه الطوائف ـ على الباطل أولى وأحرى. وأيّ أمة من الأمم اعتَبَرْتَها وَجَدْتَ المصدقين بنبوة محمد ﷺ جمهورها، وأقلها وأرذلها هم الجاحدون لنبوته، فرقعة الإسلام اتسعت في مشارق الأرض ومغاربها غاية الاتساع بدخول هذه (الأمم)[3] في دينه، وتصديقهم برسالته، وبقي من لم يدخل منهم في دينه، وهم من كل أمة أقلها.

وأين يقع النصارى المكذبون برسالته اليوم من أمة النصرانية الذين كانوا قبله، وكذلك اليهود والمجوس (والصابئون)[4]؟ لا نسبة للمكذبين برسالته بعد بعثه إلى جملة تلك الأمم قبل بعثه.

وقد أخبر تعالى عن الأمم التي أطبقت على تكذيب الرسل ودمرها الله تعالى، فقال سبحانه وتعالى: ﴿ثم أرسلنا رسلنا تترى كلما جاء أمة رسولها كذبوه فأتبعنا بعضهم بعضاً وجعلناهم أحاديث فبُعداً لقوم لا يؤمنون﴾[5].

فأخبر عن هؤلاء الأمم أنهم تطابقوا على تكذيب رسلهم، وأنه عمّهم بالإهلاك وقال تعالى: ﴿كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلّا قالوا ساحر أو مجنون، أتواصَوا به، بل هم قوم طاغون﴾[6].

---

(١) في ب، ص والأصل: الأمة.
(٢) في ب، ص: الأدلون الأرذلون.
(٣) في الأصل: الأمة.
(٤) في ب، ج، ص: والصابئة.
(٥) سورة المؤمنون: الآية ٤٤.
(٦) سورة الذاريات: الآيتان ٥٢ ـ ٥٣.

ومعلوم قطعاً أن الله تعالى لم يهلك هذه (الأمم) الكثيرة إلا بعد ما تبين لهم الهدى، فاختاروا عليه الكفر، ولو لم يتبين لهم الهدى واختاروا خلافه (لم يهلكوا)[1] كما قال تعالى: ﴿وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون﴾[2] وقال تعالى: ﴿فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلّا قوم يونس، لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين﴾[3] أي: فلم تكن قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس. (أو: فهلا قرية آمنت فنفعها إيمانها، لكن قوم يونس لما آمنوا... الآية)[4].

ومعلوم قطعاً أنه لم يُصدَّق نبي من الأنبياء من أولهم إلى آخرهم ولم يتبعه من الأمم، ما صُدق محمد بن عبد الله ﷺ.

والذين اتبعوه من الأمم أضعاف أضعاف هاتين الأمتين المكذبتين بما لا يحصيهم (إلا الله)[5]، ولا يستريب من له مسكة من عقل أن الضلال والجهل والغي وفساد العقل إلى من خالفه وجحد نبوته أقرب منه إلى أتباعه ومن أقرّ بنبوته.

وحينئذٍ فيقال: كيف جاز على هؤلاء الأمم ـ (الذين)[6] لا يحصيهم إلّا الله، الذين قد بلغوا مشارق الأرض ومغاربها على اختلاف طبائعهم وأغراضهم وتباين مقاصدهم ـ الإطباقُ على اتباع من يكذب على الله (وعلى العقل)[7] ويحلّ ما حرّم الله (ورسله ويحرم ما أحل، ومعلوم أن الكذاب على الله تعالى)[8] في دعوى (الرسالة هو)[9] شرّ خلق الله (وأفجرهم)[10] وأظلمهم وأكذبهم؟ ولا يشك من له أدنى عقل أن إطباق أكثر الأمم على

---

(١) في ب، ج، ص: لم يهلكهم.
(٢) سورة القصص: الآية ٥٩.
(٣) سورة يونس: الآية ٩٨.
(٤) زيادة في الأصل.
(٥) سقطت من ج.
(٦) في جميع النسخ: التي.
(٧) في ب، ص: بلا وقوف على العقل، وفي ج: ورسله وعلى العقل.
(٨) سقطت من ص والأصل.
(٩) سقطت من ص، وفي الأصل: الباطل.
(١٠) سقطت من الأصل، وفي ص: وفاجرهم.

متابعة هذا (النبي ﷺ)[1] وخروجهم عن ديارهم وأموالهم، ومعاداتهم آباءهم وأبناءهم وعشائرهم في (متابعته)[2]، وبذلهم نفوسهم بين يديه من أمحل المُحال.

فتجويز اختيار الكفر بعد تبين الهدى على شرذمة قليلة حقيرة لها أغراض عديدة من هاتين الأمتين أولى من تجويز ذلك على المسلمين الذين طبقوا مشارق الأرض ومغاربها، وهم أعقل الأمم (وأكملها)[3] في جميع خصال الفضل. وأين عقول عُبّاد العجل والصليب الذين أضحكوا سائر العقلاء على عقولهم، ودلوهم على مبلغها بما قالوه في معبودهم، من عقول المسلمين؟.

وإذا جاز اتفاق أمة ــ فيها من قد ذكره هذا السائل ــ على أن رب العالمين خالق السموات والأرضين، نزل عن (عرش عظمته وكرسي رفعته)[4] ودخل في بطن امرأة في محل الحيض والطمث عدة شهور، ثم خرج من فرجها طفلاً يمصّ الشدي، ويبكي ويكبر شيئاً فشيئاً، ويأكل ويشرب، ويبول ويصح ويمرض، ويفرح ويحزن ويلد ويألم، ثم دبّر حيلة على عدوه إبليس بأن مكّن أعداءه اليهود من نفسه، فأمسكوه وساقوه إلى خشبتين يصلبونه عليهما، وهم يجرونه إلى الصليب، والأوباش[5] والأراذل قدامه وخلفه وعن يمينه وعن شماله، وهو يستغيث ويبكي، (فقربوه)[6] من الخشبتين ثم توجوه بتاج من الشوك (وصفعوه)[7] صفعاً (شديداً)[8] ثم حملوه على الصليب، وسمّروا يديه ورجليه وجعلوه بين لصين[9]، وهو الذي اختار هذا كله لتتم له الحيلة على إبليس، ليخلص آدم وسائر الأنبياء من سجنه، ففداهم بنفسه حتى خلصوا من سجن إبليس.

---

(١) سقطت من ج والأصل.
(٢) في الأصل: مبايعته.
(٣) في ص: واعقلها.
(٤) في ب، ج، ص: عرشه وكرسي عظمته.
(٥) الأوباش من الناس الأخلاط (مختار الصحاح: ص ٧٠٧).
(٦) في الأصل: فضربوه، وفي ص، ب: فقدّم.
(٧) في ب، ص: وأوجعوه.
(٨) سقطت من ب، ج، ص.
(٩) ذكر ذلك كله في العهد الجديد عند الحديث عن الصلب، وقد أشرنا إلى مواضعها في أناجيلهم الأربعة ص ١٧١.

فإذا جاز اتفاق هذه الأمة ــ وفيهم الأحبار والرهبان والقسيسون والزهاد والعباد والفقهاء ومن ذكرتهم ـ على هذا القول في معبودهم وإلههم، حتى قال قائل منهم وهو من أكابرهم عندهم: (اليد التي خلقت آدم هي التي باشرت المسامير ونالت الصلب)[1] فكيف يجوز عليهم الاتفاق على تكذيب من جاء بتكفيرهم وتضليلهم، ونادى سراً وجهراً بكذبهم على الله تعالى، وشتمهم له أقبح شتم، وكذبهم على المسيح وتبديلهم دينه، وعاداهم (وقاتلهم)[2] وبرأهم من المسيح، وبرأه منهم، وأخبر أنهم وقود النار وحصب جهنم؟ فهذا أحد الأسباب التي اختاروا لأجلها الكفر على الإيمان وهو من أعظم الأسباب.

فقولكم: إن المسلمين يقولون إنهم لم يمنعهم من الدخول في الإسلام إلّا الرئاسة والمأكلة لا غير، كذب على المسلمين، بل الرئاسة والمأكلة من جملة الأسباب المانعة لهم من الدخول في الدين، وقد ناظرنا نحن وغيرنا جماعة منهم، فلما تبيّن لبعضهم فساد ما هم عليه قالوا: لو دخلنا في الإسلام لكنا من أقل المسلمين، لا يؤبه لنا، ونحن متحكمون في أهل ملتنا في أموالهم ومناصبهم، ولنا بينهم أعظم الجاه، وهل منع فرعون وقومه من اتباع موسى إلّا ذلك؟

[الأسباب المانعة من قبول الحق]

والأسباب المانعة من قبول الحق كثيرة جداً:

فمنها: الجهل به، وهذا السبب هو الغالب على أكثر النفوس، فإنّ من جهل شيئاً عاداه وعادى أهله. فإن انضاف إلى هذا السبب بغضُ من أمره بالحق، ومعاداته له، وحسده، فكان المانع من القبول أقوى، فإن انضاف إلى ذلك إلفُه وعادته ومرباه على ما كان عليه آباؤه، ومن يحبه ويعظمه قوي المانع. فإن انضاف إلى ذلك توهمُه أن الحق (الذي)[3] دعي إليه يحول بينه وبين جاهه وعزه وشهواته وأغراضه قوي المانع من القبول جداً.

---

(١) هذا الكلام يقوله اليعاقبة ومن تابعهم من الأرثوذكس الذين يقولون بالطبيعة الواحدة وأن الله هو المسيح.

(٢) في الأصل، ص: وقبائلهم.

(٣) سقطت من الأصل.

فإن انضاف إلى ذلك (خوفه)[1] من أصحابه وعشيرته وقومه على نفسه وماله وجاهه، كما وقع لهرقل ملك النصارى بالشام على عهد رسول الله ﷺ، ازداد المانع من قبول الحق قوة، فإن هرقل[2] عرف الحق وهَمَّ بالدخول في الإسلام فلم يطاوعه قومه وخافهم على نفسه، واختار الكفر على الإسلام بعدما تبين له الهدى، كما سيأتي في ذكر قصته إن شاء الله تعالى.

ومن أعظم هذه الأسباب «الحسد»، فإنه داء كامن في النفس، ويرى الحاسد المحسود قد فضل عليه، وأوتي ما لم يؤت نظيره، فلا يدعه الحسد أن ينقاد له، ويكون من أتباعه، وهل منع إبليس من السجود لآدم إلاّ الحسد، فإنه لما رآه قد فضّل عليه ورفع فوقه، غص بريقه واختار الكفر على الإيمان بعد أن كان بين الملائكة.

وهذا الداء هو الذي منع اليهود من الإيمان بعيسى ابن مريم، وقد علموا علماً لا شك فيه أنه رسول الله جاء بالهدى والبينات، فحملهم الحسد على أن اختاروا الكفر على الإيمان، وأطبقوا عليه، وهم أمة فيهم الأحبار والعلماء والزهاد والقضاة والملوك والأمراء.

هذا وقد جاء المسيح (بحكم التوراة)[3]، ولم يأت بشريعة تخالفها، ولم يقاتلهم، وإنما أتى بتحليل ما (حرّم)[4] عليهم تخفيفاً ورحمة وإحساناً، وجاء مكملاً لشريعة التوراة، ومع هذا فاختاروا الكفر كلهم على الإيمان. فكيف يكون حالهم مع نبي جاء بشريعة مستقلة ناسخة لجميع الشرائع، مبكتاً لهم بقبائحهم ومنادياً على فضائحهم، ومخرجاً لهم من ديارهم، وقد قاتلوه وحاربوه وهو في ذلك كله ينصر عليهم ويظفر بهم، ويعلو هو وأصحابه، وهم معه دائماً في (سفال)[5]؟ فكيف لا يملك الحسد والبغي قلوبهم؟ وأين يقع حالهم معه من حالهم مع المسيح، وقد أطبقوا على الكفر به من

---

(١) سقطت من الأصل.

(٢) هرقل عظيم الروم.

(٣) في الأصل: بالتوراة.

(٤) في ج: حرم الله تعالى.

(٥) في الأصل: سفاك والصحيح سفال وهو من السفول عكس العلو ويقال: أمرهم في سفال (لسان العرب).

بعد ما تبين (لهم)[1] الهدى؟ وهذا السبب وحده كاف في رد الحق، فكيف إذا انضاف إليه زوال الرئاسات والمأكل كما تقدم؟

وقد قال المسور بن مخرمة[2] ـ وهو ابن أخت أبي جهل: يا خال: هل كنتم تتهمون محمداً قبل أن يقول ما قال؟ فقال: يا ابن (أختي)[3] والله لقد كان محمد فينا صادقاً وهو شاب، يدعى الأمين، فما جربنا عليه كذباً قط، قال: يا خال: فما لكم لا تتبعونه؟ قال: يا ابن (أختي)[4]، تنازعنا نحن وبنو هاشم الشرف، فأطعموا وأطعمنا، وسقوا وسقينا، وأجاروا وأجرنا، حتى إذا تجاثينا على الركب وكنا كفرسي رهان، قالوا: منا نبي، فمتى ندرك مثل هذه[5]؟.

وقال الأخنس بن شريق[6] يوم بدر لأبي جهل: يا أبا الحكم، أخبرني عن محمد، أصادق هو أم كاذب؟ فإنه ليس هاهنا من قريش أحد غيري وغيرك يسمع كلامنا، فقال أبو جهل: ويحك والله إن محمداً لصادق، وما كذب محمد قط، ولكن إذا ذهبت بنو قصي باللواء والحجابة والسقاية والنبوة فماذا يكون لسائر قريش[7]؟.

وأما اليهود فقد كان علماؤهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم. قال ابن إسحق: حدثني عاصم بن عمر عن قتادة عن شيخ من بني قريظة قال: هل تدري ما كان إسلام أسد وثعلبة ابني (سعية)[8] وأسد بن عبيد[9]، لم يكونوا من بني قريظة ولا النضير، كانوا فوق ذلك،

---

(١) في الأصل: له.

(٢) المسور بن مخرمة بن نوفل بن أهيب القرشي الزهري أبو عبد الرحمن من فضلاء الصحابة وفقهائهم، أدرك النبي ﷺ وهو صغير وسمع منه، روى عن الخلفاء الأربعة وغيرهم من أكابر الصحابة، كان مع ابن الزبير فأصابه حجر من حجارة المنجنيق في الحصار بمكة فقتل. (الأعلام، للزركلي: ٧/٢٢٥).

(٣) و (٤) في الأصل: أخي.

(٥) الأخنس بن شريق: حليف بني زهرة، له صحبة، واسمه أبي، قديم الوفاة (التجريد: ١/١١).

(٦) هذا جزء من قصة حوار كان بين أبي جهل وأبي سفيان والأخنس بن شريق، ذكرها البيهقي في دلائل النبوة: ١/٤٥٣. وذكرها السيوطي في الخصائص الكبرى: ١/٢٨٥.

(٧) أسد بن سعية في ب، ص: شعبة وفي ج: سعيد وفي سيرة ابن هشام أسيد، هو أسد بن سعية القرظي، أسلم، ذكره ابن منده وأبو نعيم (التجريد: ١/١٤) وثعلبة بن سعية، وقيل ابن يامين، أسلم فيما قيل مع ابن سلام (التجريد: ١/٦٧).

(٨) أسد بن عبيد: القرظي، ذكره ابن حبّان في الصحابة، أسلم مع ابن سلام (الإصابة: ١/٥٢).

فقلت: لا، قال: فإنه قدم علينا رجل من الشام من يهود، يقال له ابن الهيِّبان، فأقام عندنا، والله ما رأينا رجلاً قط (لا)[1] يصلي الخمس[2] خيراً منه، فقدم علينا قبل مبعث رسول الله ﷺ بسنتين، فكنا إذا قحطنا وقلّ عنا المطر نقول: يا ابن الهيبان، اخرج فاستق لنا، فيقول: لا والله حتى تقدموا أمام مخرجكم صدقة، فنقول: كم؟ فيقول: صاع من (تمر)[3] أو مدّين من الشعير، فنخرجه ثم يخرج إلى ظاهر حرّتنا ونحن معه نستقي، فوالله ما يقوم من مجلسه حتى نمطر ونمر بالشعاب. قد فعل ذلك غير مرة ولا مرتين ولا ثلاثة، فحضرته الوفاة واجتمعنا إليه فقال: يا معشر يهود، ما ترون أخرجني من أرض الخمر والخمير إلى أرض البؤس والجوع؟ قالوا: أنت أعلم، قال: إنما خرجت أتوقع خروج نبي قد أظل زمانه، هذه البلاد مهاجره، فاتبعوه (ولا تُسبقُن إليه)[4]، إذا خرج يا معشر يهود فإنه يبعث بسفك الدماء، وسبي الذراري والنساء ممن يخالفه، فلا يمنعكم ذلك منه، ثم مات. فلما كانت الليلة التي فتحت فيها قريظة قال أولئك الثلاثة الفتية ـ وكانوا شباباً أحداثاً ـ: يا معشر يهود إنه الذي ذكره لكم ابن الهيبان فقالوا: ما هو به، قالوا: بلى والله إنه لصفته، ثم نزلوا وأسلموا، وخلوا أموالهم وأهليهم[5].

قال ابن إسحاق: وكانت أموالهم في الحصن مع المشركين، فلما فتح ردّت عليهم[6].

وقال ابن إسحق: حدثني صالح بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف[7] عن

---

(١) سقطت من النسخ، وهي هكذا في السيرة وبها يستقيم المعنى.
(٢) يصلي الخمس: يعني مسلماً.
(٣) في الأصل: بر.
(٤) في ص: ولا يسبقن إليه غيركم.
(٥) سيرة النبي ﷺ، ابن هشام: ١/٢٣٢ ــ ٢٣٣.
(٦) هذا لم أجده في سيرة ابن هشام.
(٧) صالح بن إبراهيم: هو أبو عبد الرحمن المدني، صالح بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف روى عن أبيه وأخيه سعد وأنس بن مالك، وروى عنه الزهري وابن إسحق وابن الماجشون، قال ابن سعد: كان قليل الحديث ومات بالمدينة وذكره ابن حبان في الثقات، أخرج له الشيخان حديثاً واحداً، وقال العجلي: مدني تابعي ثقة (تهذيب التهذيب: ٤/٣٧٩).

محمود بن لبيد[1] قال[2]: كان بين أبنائنا يهودي[3]، فخرج على نادي قومه بني عبد الأشهل[4] ذات غداة، فذكر البعث والقيامة والجنة والنار والحساب والميزان، فقال ذلك لأصحاب الوثن الذين لا يرون بعثاً كائناً بعد الموت قبل مبعث النبي ﷺ، فقالوا: ويحك يا فلان، وهذا كائن أن الناس يبعثون بعد موتهم إلى داركم فيها جنة ونار، ويجزون من أعمالهم؟ فقال نعم، والذي يحلف به لوددت أنّ حظي من تلك النار أن توقدوا إليّ أعظم تنور عندكم في داركم تحمونه ثم تقذفوني فيه، وتطبقونه علي، وأن أنجو من النار غداً، فقيل: يا فلان ما علامة ذلك؟ قال: نبي يبعث من ناحية هذه البلاد وأشار بيده نحو مكة واليمن، قالوا: فمتى نراه؟ فرمق بطرفه فرآني، وأنا مضطجع بفناء باب أهلي، وأنا أحدث القوم، فقال: إن يستنفذ هذا الغلام عمره يدركه فما ذهب الليل والنهار، حتى بعث الله رسوله ﷺ، وأنه لحيّ بين أظهرنا، فآمنا به وصدقناه، وكفر به بغياً وحسداً، فقلنا: يا فلان ألست قلت ما قلت، وأخبرتنا به، قال: ليس به[5].

قال ابن إسحق: وحدثني عاصم بن عمر عن قتادة قال: حدثني أشياخ منا قالوا: لم يكن أحد من العرب أعلم بشأن رسول الله ﷺ (منّا)[6] كان معنا يهود، وكانوا أهل كتاب، وكنا أصحاب وثن، وكنا إذا بلغنا منهم ما يكرهون، قالوا: إن نبياً مبعوثاً الآن قد أظل زمانه، نتبعه فنقتلكم قتل عاد وإرم، فلما بعث الله عز وجل رسوله ﷺ اتبعناه وكفروا به، ففينا وفيهم أنزل الله عز وجل ﴿وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فَلَعْنَةُ الله على الكافرين﴾[7][8].

وذكر الحاكم وغيره عن ابن أبي نجيح عن علي الأزدي قال: كانت اليهود تقول:

---

(١) محمود بن لبيد بن رافع بن امرىء القيس بن زيد بن عبد الأشهل الأنصاري الأوسي الأشهلي. قال البخاري: له صحبة (الإصابة في تمييز الصحابة: ٣/٣٨٧).

(٢) في سيرة ابن هشام: محمود بن لبيد عن سلمة بن سلامة (وكان من أصحاب بدر).

(٣) في سيرة ابن هشام: كان لنا جار من يهود في بني عبد الأشهل.

(٤) بني عبد الأشهل: قبيلة من قبائل الأوس.

(٥) سيرة النبي ﷺ، ابن هشام: ١/٢٣١ ـ ٢٣٢. وانظر: عيون الأثر: ١/٧١.

(٦) سقطت من الأصل.

(٧) سورة البقرة: الآية ٨٩.

(٨) سيرة النبي ﷺ، ابن هشام: ١/٢٣١. كما ذكر الرواية ابن سيد الناس في عيون الأثر: ١/٧٢.

اللهم ابعث لنا هذا النبي يحكم بيننا وبين الناس[1].

وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس: كانت يهود خيبر تقاتل غطفان[2]، وكلما التقوا هزمت يهود خيبر، فدعت بهذا الدعاء: اللهم إنا نسألك بحق محمد النبي الأمي الذي وعدتنا أن تخرجه لنا في آخر الزمان إلاّ نصرتنا عليهم، قال: فكانوا إذا التقوا دعوا بهذا الدعاء فهزموا غطفان، فلما بعث النبي ﷺ كفروا به، فأنزل الله تعالى: ﴿وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا﴾ (يعني بك يا محمد، فلعنة الله على الكافرين)[3] يستفتحون أي يستنصرون[4].

وذكر الحاكم وغيره أن بني النضير لما أجلوا من المدينة أقبل (عمرو بن سعدى[5] فأطاف بمنازلهم)[6] فرأى خرابها، ففكر ثم رجع إلى بني قريظة فوجدهم في الكنيسة، فنفخ في بوقهم فاجتمعوا، فقال الزبير بن باطا[7]: يا أبا سعيد أين كنت منذ اليوم فلم نرك؟ وكان لا يفارق الكنيسة وكان (يتألّه)[8] في اليهودية، قال: رأيت اليوم عبراً اعتبرنا بها، رأيت إخواننا قد جلوا بعد ذلك العزّ والخلد والشرف الفاضل والعقل البارع، قد تركوا أموالهم وملكها غيرهم، وخرجوا خروج ذل، فلا والتوراة ما سلط هذا على قوم

---

(١) هذه الرواية لم أجدها في مستدرك الحاكم.

(٢) غطفان بفتح الغين المعجمة والطاء المهملة، قبيلة من قيس بن عيلان، نزلت الكوفة (انظر: الأنساب للسمعاني: ٩/١٦١).

(٣) سقطت من الأصل.

(٤) هذه الرواية أوردها القرطبي في تفسيره: ٢/٢٧، وأخرجها الحاكم في مستدركه: ٢/٢٦٣.

(٥) عمرو بن سعدى: هو عمرو بن سعدى القرظي، الذي ذكرت كتب السيرة أنه رفض أن يدخل مع بني قريظة في غدرهم برسول الله ﷺ وقال: لا أغدر بمحمد أبداً، فخلى المسلمون سبيله في حصارهم لبني قريظة فخرج على وجهه ثم ذهب فلم يدر أين توجه إلى الأرض من يومه هذا فذكر لرسول الله ﷺ شأنه فقال: ذاك رجل نجاه الله بوفائه. (انظر: سيرة النبي ﷺ، ابن هشام: ٣/٢٥٧).

(٦) في ج: سعد بن باطا بالطائف.

(٧) الزبير بن باطا: من اليهود الذين لم يسلموا.

(٨) في ص: نباله، وفي الأصل تياله.

قط لله فيهم حاجة، وقد أوقع قبل ذلك بابن الأشرف[1] (في عزة بنيانه)[2] في بيته آمناً. وأوقع بابن (شيبة)[3] سيدهم، وأوقع ببني قينقاع فأجلاهم وهم حُبَّرُ يهود، وكانوا أهل عدة وسلاح ونجدة، فحصرهم فلم يخرج إنسان منهم رأسه حتى سباهم، فكلم فيهم فتركهم على أن أجلاهم من يثرب. يا قوم: قد رأيتم ما رأيتم فأطيعوني وتعالوا نتبع محمداً، فوالله إنكم لتعلمون أنه نبيّ، وقد بشرنا به وبأمره ابن الهيبان أبو عمير وابن حواس[4]، وهما أعلم يهود، جاءا من بيت المقدس يتوكفان[5] قدومه، وأمرانا باتباعه، وأمرانا أن نقرئه منهما السلام، ثم ماتا على دينهما، ودفناهما بحرتنا. فأسكت القوم ولم يتكلم منهم متكلم، فأعاد هذا الكلام ونحوه، وخوفهم بالحرب والسِّباءِ والجلاء، فقال الزبير بن باطا: قد ــ والتوراة ــ قرأت صفته التي أنزلت على موسى، ليس في المثاني[6] التي أحدثنا، فقال له كعب بن أسيد[7]: ما يمنعك يا أبا عبد الله من اتباعه؟ قال: أنت، قال: ولم؟ فالتوراة ما حلت بينك وبينه قط. قال الزبير: أنت صاحب عهدنا وعقدنا، فإن اتبعته اتبعناه، وإن أبيت أبيناه، فأقبل عمرو بن سعد عليّ فذكر ما تقاولا به في ذلك إلى أن قال كعب: ما عندي في ذلك إلاّ ما قلت، ما تطيب نفسي أن أصير تابعاً[8].

وهذا المانع هو الذي منع فرعون من اتباع موسى عليه الصلاة والسلام، فإنه لما تبين له الهدى عزم اتّباع (موسى)[9]، فقال وزيره هامان: بينا أنت إله تعبد تصبح رباً تعبد غيرك؟ قال: صدقت.

---

(١) كعب بن الأشرف من زعماء اليهود، وقد قتله محمد بن مسلمة رضي الله عنه بإذن من الرسول ﷺ، وقصّة قتله رواها الشيخان ومعظم كتب السيرة. انظر: صحيح مسلم: ٣٢/١١٩.

(٢) في ب، ج، ص: في غيره ببنانه.

(٣) في ب، ج: سبيبة، وفي ص: سنينة.

(٤) ابن حواس: أو ابن هواس كما في الأصل.

(٥) يتوكفان: التوكف التوقع والانتظار، وتوكف الأثر: تتبعه وتقول: ما زلت أتوكفه حتى لقيته (لسان العرب).

(٦) المثاني: يقصد به التلمود، ومنه المشناة.

(٧) كعب بن أسيد من اليهود الذين لم يسلموا.

(٨) انظر: البداية والنهاية: ٤/٨٠.

(٩) في الأصل: وزيره.

وذكر ابن إسحق عن عبد الله بن أبي بكر قال: حدثت عن صفية بنت (حيي)[1] بن أخطب أنها قالت: كنت أحبَّ ولد أبي إليه وإلى عمي أبي ياسر، فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة غدوا عليه، ثم جاءا من العشي فسمعت عمي يقول لأبي: أهو هو؟ قال: نعم (قال: أتعرفه وتثبته؟ قال: نعم)[2] قال: فما في نفسك منه؟ قال: عداوته والله ما بقيت[3]. فهذه الأمة الغضبية معروفة بعداوة الأنبياء قديماً، وأسلافهم وأحبارهم قد أخبر الله سبحانه وتعالى عن أذاهم لموسى، ونهانا عن التشبُّه بهم في ذلك فقال: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا، وكان عند الله وجيهاً﴾[4].

وأما خلفهم فهم قتلة الأنبياء، فقتلوا زكريا، وابنه يحيى، وخلقاً كثيراً من الأنبياء حتى قتلوا (في يوم)[5] سبعين نبياً، وأقاموا السوق في آخر النهار كأنهم لم يصنعوا شيئاً. واجتمعوا على قتل المسيح وصلبه فصانه الله تعالى وأكرمه أن يهينه على أيديهم، وألقى شبهه على غيره فقتلوه وصلبوه، وراموا قتل خاتم النبيين مراراً عديدة والله يعصمه منهم[6].

ومن كان هذا شأنهم، لا يكثر عليهم اختيار الكفر على الإيمان لسبب من الأسباب التي ذكرنا بعضها، أو سببين أو أكثر، وقد ذكرنا اتفاق أمة الضلال وعُبّاد الصليب على مسبة رب العالمين أقبح مسبة، وعلى ما يُعلمُ بطلانه من أول وهلة، لم يكثر على (تلك)[7] العقول السخيفة أن تسب بشراً أرسله الله تعالى، وتجحد نبوته، وتكابر ما دلّ عليه صريح العقل من صدقه وصحة رسالته. فلو قالوا فيه ما قالوا لم يبلغ بعض قولهم في رب الأرض والسموات الذي صاروا فيه ضحكة بين جميع (بني آدم)[8].

---

(١) في الأصل: حيين، وفي ج، ص: حي، وصفية بنت حيي بن أخطب من بني النضير، كانت تحت سلام بن مشكم ثم خلف عليها كنانة بن أبي الحقيق، فقتل كنانة يوم خيبر، فصارت صفية مع السبي فأخذها دحية ثم استعادها النبي ﷺ فأعتقها وتزوجها (الإصابة: ٧/٧٣٨).

(٢) سقطت من الأصل.

(٣) السيرة النبوية، ابن هشام: ٢/١٤٠

(٤) سورة الأحزاب: الآية ٦٩.

(٥) سقطت من الأصل.

(٦) ومن ذلك قصة محاولة بني قريظة قتله ﷺ.

(٧) في الأصل ذلك.

(٨) في ب، ج، ص: أصناف بني آدم.

فأمة أطبقت على أن (الإله)[1] الحق ــ سبحانه وتعالى عما يقولون ــ صلب وصفع وسمّر ووضع الشوك على رأسه، ودفن في التراب، ثم قام في اليوم الثالث، وصعد وجلس على (كرسيّه)[2] يدبّر أمر السموات والأرض، لا يكثر عليها أن تطبق على جحد نبوّة من جاء بسبّها ولعنها ومحاربتها، وإبداء معايبها والنداء على كفرها بالله ورسوله والشهادة على براءة المسيح منها، ومعاداته لها، ثم قاتلها وأذلها وأخرجها من ديارها وضرب عليها الجزية وأخبر أنها من أهل الجحيم خالدة مخلدة لا يغفر الله لها، وأنها شر من الحمير، بل هي شر الدواب عند الله.

وكيف ينكر على أمة أطبقت على صلب معبودها وإلهها ثم عمدت إلى الصليب فعبدته وعظّمته، وكان ينبغي لها أن تحرق كل صليب تقدر على إحراقه وأن تهينه غاية الإهانة إذ صلبت عليه إلهها[3]. الذي يقولون (تارة[4] إنه الله، وتارة يقولون إنه ابنه، وتارة يقولون إنه ثالث ثلاثة[5] فجحدَتْ حق خالقها وكفرت به أعظم كفر، وسبته أقبح مسبة أن تجحد حق عبده ورسوله وتكفر به.

وكيف يكثر على أمة قالت في رب الأرض والسموات، إنه نزل من السماء ليكلم الخلق بذاته ليكون لهم حجة عليه، فأراد أن يقطع حجتهم بتكلمه لهم بذاته (لترتفع المعاذير)[6] عمن ضيّع عهده بعد ما كلّمه بذاته، فهبط بذاته من السماء، والتحم في بطن مريم فأخذت منه حجاباً. وهو مخلوق من طريق الجسم، وخالق من طريق النفس. وهو الذي خلق جسمه وخلق أمه، وأمه كانت من قبله بالناسوت، وهو كان من قبلها باللاهوت. وهو الإله التام والإنسان التام. ومن تمام رحمته تبارك وتعالى على عباده أنه رضي بإراقة دمه عنهم على خشبة الصليب، فمكّن أعداءه اليهود من نفسه، ليتم سخطه

---

(١) سقطت من الأصل.

(٢) في ب، ج، ص: عرشه.

(٣) هذه الجملة كلها سقطت من الأصل.

(٤) سقطت من الأصل.

(٥) بذلك أشار إلى الطوائف المسيحية الثلاث، فقوله: إنه الله إشارة إلى الأرثوذكس الذين يقبولون بالطبيعة الواحدة. (وأنه ابنه) إشارة إلى جميع النصارى (وأنه ثالث ثلاثة) إشارة إلى الكاثوليك والبروتستانت.

(٦) في ج: ليرجع المعاد.

عليهم، فأخذوه وصلبوه وصفعوه وبصقوا في وجهه وتوّجوه بتاج من الشوك على رأسه. (وغار)[1] دمه في إصبعه لأنّه لو وقع منه شيء إلى الأرض ليبس كل ما في وجهها، فنبت في موضع صلبه النّوار[2][3].

ولما لم يكن في الحكمة (الإلهية)[4] الأزلية أن ينتقم الله من عبده العاصي الذي ظلمه، واستهان بقدره، لاعتلاء منزلة الرب، وسقوط منزلة العبد، أراد سبحانه أن ينتصف من الإنسان الذي هو إله مثله، فانتصف من خطيئة آدم بصلب عيسى المسيح، الذي هو إله مساوٍ له في الإلهية، فصلب ابن الله الذي هو الله في الساعة التاسعة من يوم الجمعة[5]، هذه ألفاظهم في كتبهم.

فأمة أطبقت على هذا في معبودها، كيف يكثر عليها أن تقول في عبده ورسوله أنه ساحر كاذب وملك مسلط ونحو هذا؟

ولهذا قال بعض ملوك الهند: «أما النصارى فإن كان أعداؤهم من أهل (الملل)[6] يجاهدونهم بالشرع (فأنا أرى)[7] جهادهم بالعقل، وإن كنا لا نرى قتال أحد، لكن استثني هؤلاء القوم من جميع العالم، لأنهم قصدوا مضادة العقل وناصبوه (العداوة وشذوا عن جميع مصالح العالم الشرعية والعقلية الواضحة)[8]، واعتقدوا كل مستحيل ممكناً، وبَنَوا من ذلك شرعاً لا يؤدي إلى صلاح نوع من أنواع العالم، ولكنه يصيّر العاقل إذا شرع به

---

(١) في ص: وفار.

(٢) في ص والأصل: النور.

(٣) يرد هذا الكلام من كتاب قسيس إسباني إلى أبي عبيدة الأنصاري الخزرجي المتوفى سنة ٥٨٢هـ. انظر: بين الإسلام والمسيحية، كتاب أبي عبيدة الخزرجي، تحقيق د. محمد شامة: ص ٢٠٩ وهو يتعارض مع ما ورد في إنجيل يوحنا: «لكن وحداً من العسكر طعن جنبه بحربة وللوقت خرج دم وماء» (انظر: يوحنا: ١٩/٣٤).

(٤) سقطت من ب، ج، ص.

(٥) متى: ٢٧/٤٦؛ مرقس: ١٥/٣٣.

(٦) في ص: الملك.

(٧) في ج: فأنّا نرى.

(٨) سقطت من الأصل.

أخرق[1]، والرشيد سفيهاً، والحسن قبيحاً، والقبيح حسناً. لأن من كان في أصل عقيدته التي جرى نشؤه عليها الإساءة إلى الخلّاق، والنيل منه وسبّه أقبح مسبَّة، ووصفه بما يغيّر صفاته الحسنى، وأخلق به أن يستسهل الإساءة إلى مخلوق وأن يصفه بما يغير صفاته الجميلة.

ولو لم تجب مجاهدة هؤلاء القوم إلّا لعموم أضرارهم الذي لا تحصى وجوهه، كما يجب قتل الحيوان المؤذي بطبعه، لكانوا أهلاً لذلك»[2].

والمقصود أن الذين اختاروا هذه المقالة في رب العالمين، على تعظيمه وتنزيهه وإجلاله ووصفه بما يليق به، (الذين)[3] اختاروا الكفر بعبده ورسوله (وجحدوا)[4] نبوته، (والذين)[5] اختاروا عبادة صور خطوها بأيديهم في الحيطان مزوقة بالأحمر والأصفر والأزرق، لو دنت منها الكلاب لبالت عليها، فأعطوها غاية الخضوع والذل والخشوع والبكاء، وسألوها المغفرة والرحمة والرزق والنصر «هم الذين اختاروا التكذيب بخاتم الرسل على الإيمان به وتصديقه واتباعه»[6] والذين نزهوا (مطارنتهم وبتاركتهم)[7] عن الصاحبة والولد، ونحوهما للفرد الصمد، هم الذين أنكروا نبوّة عبده وخاتم رسله، والذين اختاروا صلاة يقوم أعبدهم وأزهدهم إليها والبول على ساقه وأفخاذه، فيستقبل الشرق ثم يصلب على وجهه، ويعبد الإله المصلوب ويستفتح الصلاة بقوله: «يا أبانا أنت (الذي)[8]

---

(١) أخرق: من الخرق وهو نقيض الرفق، وخرق بالشيء يخرق: جهله ولم يحسن عمله... وفي الحديث: «تعين صانعاً أو تصنع لأخرق» أي لجاهل (لسان العرب).

(٢) هذا القول لأحد ملوك الهند أورده أبو عبيدة الخزرجي في رسالته إلى القسيس. (انظر: كتاب أبي عبيدة الخزرجي ـ بين الإسلام والمسيحية، تحقيق الدكتور محمد شامة، ص ١٥٠).

(٣) في ج: هم الذي.

(٤) في ص: وجحد.

(٥) في ج: والذي.

(٦) سقطت من الأصل.

(٧) في الأصل، ب، ص: بطارقتهم وبتاركتهم والمطارنة جمع مطران، والبتاركة هي نفس البطارقة وهي جمع بطريك.

(٨) سقطت من ب، ج، ص.

في السموات تقدس اسمك (وليأت)[١] ملكك ولتكن إرادتك في السماء مثلها في الأرض، أعطنا خبزنا الملائم لنا»[٢].

ثم يحدث إلى من هو إلى جانبه، وربما سأله عن سعر الخمر والخنزير، وعما كسب في القمار، وعما طبخ في بيته، وربما أحدث وهو في صلاته، وهو لو أراد لَبالَ في موضعه (إن أمكنه)[٣]، ثم يدعو تلك الصورة التي هي صنعة يد الإنسان، (فالذين)[٤] اختاروا هذه الصلاة على صلاة من إذا قام إلى صلاته طهّر أطرافه وثيابه وبدنه من النجاسة، واستقبل بيت الله الحرام، وكبّر الله وحمده وسبحه، وأثنى عليه بما هو أهله، ثم ناجاه بكلامه المتضمن لأفضل الثناء عليه، وتحميده وتمجيده وتوحيده وإفراده بالعبادة والاستعانة، وسؤاله أجل مسؤول، وهو الهداية إلى طريق رضاه، التي خص بها من أنعم عليه، دون طريق الأمّتَين المغضوب عليهم وهم اليهود، والضالين وهم النصارى، ثم أعطى كل جارحة من الجوارح حظّها من الخشوع والخضوع والعبودية مع غاية (التحميد والثناء)[٥] لله رب العالمين. لا يلتفت عن معبوده بوجهه، ولا قلبه، ولا يكلم أحداً كلمة، بل قد فرغ قلبه لمعبوده، وأقبل عليه بقلبه ووجهه، لا يحدث في صلاته، ولا يجعل بين عينيه صورة مصنوعة يدعوها ويتضرّع إليها. فالذين اختاروا تلك الصورة التي هي في الحقيقة استهزاء بالمعبود، لا يرضاها المخلوق لنفسه، فضلاً أن يرضى بها الخالق على هذه الصلاة، التي لو عرضت على من له أدنى مسكة من عقل لظهر له التفاوت بينهما، وهم الذين اختاروا (التكذيب بخاتم الرسل محمد رسوله)[٦] وعبده على الإيمان به وتصديقه (واتباعه)[٧].

والعاقل إذا وازن بين ما اختاروه ورغبوا فيه، وبين ما رغبوا عنه، تبين له أن القوم

---

(١) في ج: وآيات.
(٢) متى: ٦/١١.
(٣) سقطت من الأصل.
(٤) سقطت من الأصل.
(٥) في ب، ج، ص: الثناء والتمجيد.
(٦) في ب، ج، ص: تكذيب رسوله.
(٧) سقطت من ب، ج، ص.

اختاروا الضلالة على الهدى، والغي على الرشاد، والقبيح على الحسن، والباطل على الحق، وأنهم اختاروا من العقائد أبطلها، ومن الأعمال أقبحها، وأطبق على ذلك أساقفتهم وبتاركتهم ورهبانهم، فضلاً عن عوامهم وسقطهم.

(فصل) ولم يقل أحد من المسلمين إن من ذكرتم من صغير وكبير وذكر وأنثى وحر وعبد وراهب وقسيس، كلّهم تبين لهم الهدى، بل أكثرهم جهال بمنزلة الدواب السائمة، معرضون عن طلب الهدى، فضلاً عن تبيينه لهم، وهم مقلدون لرؤسائهم وكبرائهم وعلمائهم وهم أقل القليل، وهم الذين اختاروا الكفر على الإيمان بعد تبين الهدى.

وأي (إشكال)[١] يقع للعقل في ذلك فلم يزل في الناس من يختاره (حسداً مع علمه ببطلانه كبراً)[٢]، والباطل منهم يختاره جهلاً وتقليداً لمن يحسن الظن به، ومنهم من يختاره حسداً وبغياً (ومنهم من يختاره طمعاً ورغبة، في مأكل أو جاه ورئاسة)[٣]، ومنهم من يختاره محبة في صورة وعشقاً، ومنهم من يختاره خشية، (ومنهم من يختاره علواً)[٤]، ومنهم من يختاره راحة ودعة، فلم تحصر أسباب اختيار الكفر في حب الرئاسة والمأكلة.

(فصل وأما) (المسألة الثانية)[٥]

وهي قولكم: هب أنهم اختاروا الكفر لذلك، فهلّا اتبع الحق من لا رئاسة له ولا مأكلة، إما اختياراً وإما قهراً؟

فجوابه من وجوه:

(أحدها)[٦] أنّا قد بيّنا أن أكثر (من ذكرتم)[٧] (قد آمن بالرسول وصدقه اختياراً

---

(١) في الأصل: شكل.
(٢) سقطت من ص والأصل.
(٣) سقطت من ص والأصل.
(٤) سقطت من ص والأصل.
(٥) هكذا في ب، ج، ص وفي الأصل: فصل: قولكم.
(٦) في الأصل: أولها.
(٧) في ب، ج: ما قد ذكرتم.

لا اضطراراً، وأكثرهم أولو العقول والأحلام والعلوم)[1] ممن لا يحصيهم إلا الله.

فرقعة الإسلام إنما انتشرت في الشرق والغرب بإسلام أكثر الطوائف، فدخلوا في دين الله تعالى أفواجاً، حتى صار (الكفر)[2] معهم تحت الذلة والصغار، وقد بيّنا أن الذين أسلموا من اليهود والنصارى والمجوس والصابئين أكثر من الذين لم يسلموا، وأنه إنما بقي منهم أقل القليل، وقد دخل في الإسلام من ملوك الطوائف ورؤسائهم في حياة رسول الله ﷺ خلق كثير.

وهذا ملك النصارى على إقليم الحبشة[3] في زمن النبي ﷺ لما تبين له أنه رسول الله آمن به، ودخل في دينه، وآوى أصحابه، ومنعهم من أعدائهم، وقصته أشهر من أن تذكر. ولما مات أعلم رسول الله ﷺ أصحابه بالساعة التي (مات)[4] فيها، وبينهما مسيرة شهر، ثم خرج بهم إلى المصلى وصلّى عليه[5].

[الهجرة إلى الحبشة]

فروى الزهري عن أبي بر ابن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومي عن أم سلمة زوج النبي ﷺ قالت: لما نزلنا أرض الحبشة، جاورنا بها خير جار، النجاشي، أَمِنًّا على ديننا، وعبدنا الله، لا نؤذى، ولا نسمع شيئاً نكرهه، فلما بلغ ذلك قريشاً، ائتمروا على أن يبعثوا إلى النجاشي هدايا مما (يستظرف)[6]، ومن متاع مكة، وكان من أعجب (ما يأتيه)[7] منها (الأدم)[8] فجمعوا له أدماً كثيراً، ولم يتركوا من بطارقته بطريقاً إلا أهدَوا

---

(١) سقطت من الأصل.

(٢) في ب، ج: الكفار، وفي ص: الكفار.

(٣) النجاشي أصحمة كما تشير كتب السيرة.

(٤) في ب، ص، ج: توفي.

(٥) ثبت في صحيح مسلم أن النجاشي لما مات نعاه النبي ﷺ إلى أصحابه وقال: «إن أخاً لكم بالحبشة قد مات، فقوموا فصلوا عليه، قال جابر فقمنا صفين» وفي رواية أخرى «مات اليوم عبد الله صالح، أصحمة، فقام فأمّنا وصلى عليه» (انظر: صحيح مسلم: ١١/٦٥ ــ ٦٦).

(٦) في ج، مما استظرفوا.

(٧) في ج: ما رأيته.

(٨) في ج: الأديم، وهو خطأ والأدم: جمع أديمة وهو باطن الجلد الذي يلي اللحم والبشرة ظاهرها، وقيل ظاهره الذي عليه الشعر، وباطنه البشرة (لسان العرب).

لـه، ثم بعثوا بـذلك مـع عبد الله بن أبـي ربيعـة المخـزومي[1]، وعمـرو بن العـاص[2]، وأمّروهما أمرهم وقالوا لهما: ادفعا إلى كل بطريق هديته، قبل أن تكلموا النجاشي فيهم، ثم قـدّمـوا إلى النجـاشي هـدايـاه، ثم سلوه أن يسلمهم إليكم قبـل أن يكلمهم. قـالت: فخـرجا، فقـدما على النجـاشي ونحن عنده بخيـر دار وعنـد خيـر (جـار)[3]، فلم يبق من بطارقته بطريق، إلّا (دفعا)[4] إليه هديته، قبل أن يكلما النجاشي، ثم قالا إلى كل بـطريق إنه قد صبـأ إلى بلد الملك مِنّا سفهـاء فارقـوا دين قومهم ولم يـدخلوا في دينكم، وجاؤوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنتم، وقد بعثنا إليـك[5] أشراف قـومهم (لتردهم إليهم)[6]، فإذا كلمنا المليـك فيهم فأشيـروا عليه بـأن يسلمهم إلينا، ولا يكلمهم، فـإن قومهم أعلى بهم عيناً، وأعلم بما عابوا عليهم، فقالوا: نعم، ثم إنهمـا قرّبـا هدايـاهم إلى النجاشي، فقبلها منهم ثم كلماه، (فقالوا له)[7]: أيها (الملك)[8]، إنه قد صبـأ إلى بلدك منّا غلمـان سفهـاء، فارقـوا دين قومهم، ولم يـدخلوا في دينك، وجـاؤوا بدين مبتـدع لا نعرفـه نحن ولا أنت، وقـد بعثنا إليـك فيهم أشراف قـومهم من آبائهم وأعمـامهم وعشـائـرهم لتـردهم إليهم، فهم أعلى بهم عيناً، وأعلم بما عابوا عليهم وعاينوهم فيـه، قالت: ولم يكن شيء أبغض إلى عبـد الله بن أبـي ربيعة وعمـرو بن العـاص من أن يسمـع النجـاشي كـلامهم، فقالت بطارقتـه حولـه: صدقـوا أيها الملك، قـومهم (أعلى)[9] بهم عيناً وأعلم بمـا عابـوا

---

(١) عبد الله بن أبـي ربيعة المخزومي: واسمه عمـرو وقيل حـذيفة، ويلقب ذا الـرمحين ابن المغيرة ابن عبد الله بن عمر بن مخزوم، وهو والد عمر بن أبـي ربيعة الشاعر المعروف. قال البخاري: وعبد الله هو الذي بعثته قريش مع عمرو بن العاص إلى الحبشة (الإصابة: ٣/٣٠٥).

(٢) عمرو بن العاص: هو أبو عبد الله أو أبو محمد عمرو بن العاص بن وائل بن هـاشم بن كعب بن لؤي القرشي السهمي أمير مصر، أسلم قبل الفتح في صفر سنة ثمان، كان إسلامه على يد النجـاشي في الحبشة ــ في إحدى الروايات ــ كان أحد دهاة العرب، مات سنة ٤٣هـ (الإصابة: ٣/٢).

(٣) في ص: جوار.

(٤) في ج: ودفعنا.

(٥) في ب، ج، ص: إليك فيهم.

(٦) سقطت من الأصل.

(٧) في ب، ج، ص: فقالا له.

(٨) سقطت من ب.

(٩) في ج: أعلم.

عليهم، فأسلمهم إليهما، ليردوهم إلى بلادهم وقومهم. قالت: فغضب النجاشي، ثم قال: لا والله إذن لا أسلمهم إليهما، ولا أكاد (أن أسلم أقواماً)[1] جاوروني، ونزلوا بلادي، واختاروني على من سواي، حتى أدعوهم فأسألهم ما يقول هذان في أمرهم، فإن كانا كما يقولان أسلمتهم إليهما ورددتهم إلى قومهم، وإن كانوا على غير ذلك منعتهم منهما، وأحسنت جوارهم ما جاوروني. قالت: ثم أرسل إلى أصحاب رسول الله ﷺ، فدعاهم فلما جاءهم رسوله اجتمعوا، ثم (قال بعضهم لبعض)[2]: ما تقولون للرجل إذا جئتموه؟ قالوا: نقول، والله، ما علمنا وما أمرنا به نبينا ﷺ كائناً في ذلك بما هو كائن، فلما جاؤوه وقد دعا النجاشي أساقفته، فنشروا مصاحفهم حوله، سألهم فقال: ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا في ديني، ولا دين أحد من هذه الأمم؟

[جعفر يلخص للنجاشي دعوة الإسلام]

قالت: وكان الذي كلمه جعفر بن أبي طالب، فقال له: أيها الملك كنّا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، يأكل القويّ منّا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله عز وجل (إلينا)[3] نبياً ورسولاً منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته (وعفافه)[4]، فدعانا إلى الله عز وجل لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد (نحن)[5] وآباؤنا من دونه (من)[6] الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم، والدماء، ونهانا عن الفواحش وقول الزور، وأكل مال اليتيم وقذف المحصنة. وأمرنا أن نعبد الله لا نشرك به شيئاً، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام (والحج من استطاع إليه سبيلاً)[7] ــ قالت: فعدّد عليه أمور الإسلام ــ فصدقناه، وآمنا به واتبعناه على ما جاء به، فعبدنا الله وحده،

(١) في ب، ج، ص: أقوام.
(٢) في ج: قالوا لبعضهم بعض.
(٣) سقطت من الأصل.
(٤) في ب، ج: وعفته.
(٥) سقطت من الأصل، ج.
(٦) سقطت من ص، ب.
(٧) سقطت من الأصل، ص.

ولم نشرك به شيئاً، وحرمنا ما حرم علينا، وأحللنا ما أحل لنا، فعدا علينا قومنا، فعذبونا وفتنونا عن ديننا، ليردونا إلى عبادة الأوثان عن عبادة الله عز وجل، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا وشقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلدك، واخترناك على من سواك، ورغبنا في جوارك، ورجونا أن لا نظلم عندك أيها الملك.

قالت: فقال له النجاشي: هل معك مما جاء به عن الله من شيء؟ قالت: فقال له جعفر: نعم، فقال له النجاشي: (فاقرأ)[1] عليّ، فقرأ عليه صدراً من كهيعص[2] قالت: فبكى والله النجاشي حتى (اخضلت)[3] لحيته، وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم (حين)[4] سمعوا ما تلي عليهم، ثم قال النجاشي: إن هذا والذي جاء به (عيسى)[5] ليخرج من مشكاة واحدة، انطلقوا فوالله لا أسلمهم إليكم أبداً ولا أكاد.

قالت أم سلمة[6]: فلما خرجنا من عنده، قال عمرو بن العاص: والله لآتينه غداً (فأعيبهم) عنده بما أستأصل به خضراءهم[7]، قالت: فقال له عبد الله بن أبي ربيعة، وكان (أتقى)[8] الرجلين فينا: لا تفعل، فإن لهم أرحاماً، وإن كانوا قد خالفونا، قال: والله لأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى ابن مريم عبد، قالت: ثم غدا عليه من الغد، فقال له: أيها الملك، إنهم يقولون في عيسى ابن مريم قولاً عظيماً، فأرسل إليهم فاسألهم عما

---

(١) في ب، ج، ص: فاقرأه.

(٢) سورة مريم.

(٣) في ب، ج، ص: أخضل، أخضلت: من أخضلت الشيء فهو مخضل إذا بللته، وأخضلوا لحاهم أي بلوها بالدموع (لسان العرب).

(٤) في ص، ب: حتى.

(٥) وفي ب، ج، ص: موسى.

(٦) أم سلمة: بنت أبي أمية بن المغيرة القرشية المخزومية أم المؤمنين، اسمها هند، وكانت زوج ابن عمها أبي سلمة بن عبد الأسد بن المغيرة، فمات عنها فتزوجها النبي ﷺ، وكانت ممن أسلم قديماً هي وزوجها وهاجرا إلى الحبشة، فولدت له سلمة، ثم هاجرا إلى المدينة فولدت له عمر وذرة وزينب (الإصابة: ٨/٢٣٢).

(٧) خضراءهم: أي جماعتهم ومعظمهم.

(٨) في الأصل: أبقى.

يقولون فيه، قالت: فأرسل إليهم ليسألهم عنه، قالت: ولم ينزل بنا (مثله)[١]، فاجتمع القوم، فقال بعضهم لبعض: ما تقولون في عيسى إذا سألكم عنه؟ قالوا: (نقول فيه)[٢] ما قال الله عز وجل، وما جاء به نبينا، كائن في ذلك ما هو كائن، فلما دخلوا عليه قال لهم: ما تقولون في عيسى ابن مريم؟

فقال له جعفر: نقول فيه الذي جاء به نبينا، هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته (التي)[٣] ألقاها إلى مريم العذراء البتول[٤]، فضرب النجاشي يده إلى الأرض، فأخذ عوداً ثم قال: ما عدا عيسى ابن مريم ما قلت هذه العود[٥]، (فتناخرت)[٦] البطارقة حوله حين قال ما قال، فقال: وإن نخرتم وإن نخرتم والله، اذهبوا فأنتم سيوم بأرضي ــ والسيوم: الآمنون ــ (من سبكم غرم ومن سبكم غرم)[٧]، ما أحب أن لي (دير)[٨] ذهب وأني آذيت رجلاً منكم ــ والدير بلسان الحبشة: الجبل.

ردوا عليهما هداياهما ولا حاجة لي بهما، فوالله ما أخذ الله مني الرشوة حين ردّ عليّ ملكي، فآخذ الرشوة فيه، وما أطاع الناس فيّ فأطيعهم فيه، قالت: فخرجا من عنده مقبوحين، مردوداً عليهما ما جاءا به، وأقمنا عنده بخير دار مع خير جار.

[رجل من الحبشة ينازع النجاشي الملك فينصره عليه]

قالت: (فخرج عدو له عليه وحاربه)[٩]، قالت: فوالله ما علمنا حزناً قط (كان)[١٠] أشد من حزن حزناه عند ذلك، خوفاً أن يظهر على النجاشي، فيأتي رجل لا يعرف من

---

(١) في ب، ج، ص: مثلها.
(٢) في ب، ج، ص: نقول فيه والله.
(٣) سقطت من الأصل.
(٤) زاد في ب، ص: وروح منه.
(٥) معنى العبارة: أن ما قاله جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه، في عيسى ابن مريم، موافق تماماً لحقيقة عيسى عليه السلام.
(٦) في الأصل: فتأخرت.
(٧) في ب: من سبكم غرم من سبكم غرم، وفي ص: سقطت: من سبكم غنم.
(٨) في سيرة ابن هشام: دبر بالباء وكذلك في: ص.
(٩) في ب، ج، ص: فوالله إنا على ذلك إذ نزل به رجل من الحبشة ينازعه في ملكه.
(١٠) سقطت من الأصل.

حقنا ما كان النجاشي يعرف منه، قالت: فسار النجاشي، وبينهما عرض النيل، فقال أصحاب رسول الله ﷺ: من رجل يخرج حتى يحضر وقعة القوم ثم يأتينا بالخبر؟ (قالت)[1]: فقال الزبير: (أنا)[2] ـ وكان من أحدث القوم سناً ـ قالت: (فنفخوا)[3] له قربة فجعلها في صدره، ثم سبح عليها حتى خرج إلى ناحية النيل التي بها ملتقى القوم. ثم انطلق حتى حضرهم، قالت: ودعونا الله للنجاشي بالظهور على عدوّه، والتمكين له في بلاده، فاستوثق له أمر الحبشة، فكنّا عنده في خير منزل حتى قدمنا رسول الله ﷺ[4].

[إسلام النجاشي]

فلما كان شهر ربيع الأول سنة سبع من الهجرة كتب رسول الله ﷺ إلى النجاشي كتاباً يدعوه فيه إلى الإسلام، وبعث به مع عمرو بن أمية الضمري[5]، فلما قرىء عليه الكتاب أسلم، وقال: لو قدرت لأتيته، وكتب إليه رسول الله ﷺ أن يزوجه أم حبيبة[6] بنت أبي سفيان ففعل، وأصدق عنه أربعمائة دينار[7]، وكان الذي تولى التزويج خالد بن

---

(١) في الأصل: قال.

(٢) سقطت من الأصل.

(٣) في الأصل: فنفجوا.

(٤) زاد ابن هشام: بمكة، ورواية أم سلمة هذه بكاملها أوردها ابن هشام في السيرة النبوية: ١/٣٥٧ ـ ٣٦٤.

(٥) عمرو بن أمية الضمري: هو عمرو بن أمية بن خويلد بن عبد الله بن آياس بن ضمرة الضمري، صحابي مشهور، له أحاديث، أسلم حين انصرف المسلمون من أحد، وكان شجاعاً، عاش إلى خلافة معاوية فمات بالمدينة (الإصابة: ٤/٦٠٢).

(٦) أم حبيبة: هي رملة بنت أبي سفيان صخر بن حرب، الأموية زوج النبي ﷺ، ولدت قبل البعثة بسبعة عشر عاماً، تزوجها حليفهم عبيد الله بن جحش من بني أسد بن خزيمة فأسلما، ثم هاجرا إلى الحبشة، ولما تنصر زوجها وارتد عن الإسلام فارقها، فكتب رسول الله ﷺ إلى النجاشي ليزوجه إياها، فأصدقها النجاشي عنه وبعثها إلى رسول الله ﷺ (الإصابة: ٧/٦٥٢).

(٧) قصة طلب الرسول ﷺ من النجاشي أن يزوجه أم حبيبة ودفع النجاشي لصداقها ذكرها ابن هشام عن ابن إسحق انظر: السيرة النبوية: ١/٢٤٣. وفي عيون الأثر لابن سيد الناس: وأصدق عنها تسعمائة دينار: ١/١٤٩.

سعيد بن العاص بن أمية[1]، وكتب إليه رسول الله ﷺ يبعث إليه من بقي عنده من أصحابه ويحملهم، ففعل.

فقدموا المدينة فوجدوا رسول الله ﷺ بخيبر، فشخصوا إليه فوجدوه قد فتح خيبر، فكلم رسول الله ﷺ (المسلمين)[2] أن يدخلوهم في سهامهم ففعلوا[3].

فهذا ملك (النصرانية)[4] قد صدق رسول الله ﷺ، وآمن به واتبعه، وكم مثله ومن هو دونه ممن هداه الله تعالى من النصارى، فدخل في الدين، وهم أكثر بأضعاف مضاعفة ممن أقام على النصرانية.

[وفد من النصارى]

قال ابن إسحاق: وقدم على رسول الله ﷺ وهو بمكة عشرون رجلاً أو قريباً من ذلك من النصارى، حين بلغهم خبره من الحبشة. فوجدوه في المسجد، فجلسوا إليه وكلموه وقبالته رجال من قريش في أنديتهم حول الكعبة، فلما فرغوا من مسألة رسول الله ﷺ (عما أرادوا دعاهم رسول الله ﷺ إلى الله)[5] وتلا عليهم القرآن، فلما سمعوه فاضت أعينهم من الدمع، ثم استجابوا له وآمنوا، وصدقوه وعرفوا منه ما كان يوصف لهم في (كتابهم)[6] من أمره، فلما قاموا عنه اعترضهم أبو جهل ـ لعنه الله ـ ابن هشام في نفر من قريش، فقالوا لهم: خيّبكم الله من ركْب بعثكم مَنْ وراءكم من أهل دينكم ترتادون إليهم (لتأتوهم)[7] بخبر الرجل، فلم (تطمئن)[8] مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم، وصدقتموه بما قال، ما نعلم ركباً أحمق منكم، أو كما قالوا، فقالوا: سلام

---

(١) خالد بن سعيد بن عمرو بن سعيد بن العاص الأموي، روى عن أبيه، ثقة صدوق، وقال الدارقطني: ليس به بأس (تهذيب التهذيب: ٣/ ٩٤).

(٢) سقطت من الأصل.

(٣) انظر: البداية والنهاية، ابن كثير: ٤/ ٢٠٦. وانظر: عيون الأثر: ١/ ١٤٩.

(٤) في ب، ج، ص: النصارى.

(٥) سقطت من الأصل.

(٦) في الأصل: كتبهم.

(٧) في الأصل: لتأتونهم.

(٨) في ص: تظهر.

عليكم لا نجادلكم، لنا ما نحن عليه ولكم ما أنتم عليه، لم نأل من أنفسنا خيراً[(١)].

ويقال إن النفر من النصارى من أهل نجران، ويقال: فيهم نـزلت: ﴿الذين آتينـاهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون، وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا. . .﴾ إلى قوله: ﴿سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين﴾[(٢)].

وقال الزهري: ما زلت أسمع من علمائنا أنهن نزلت في النجاشي وأصحابه[(٣)].

[وفـد نجـران]

قال ابن إسحق: ووفد على رسـول الله ﷺ وفد نصـارى نجران بـالمدينـة، فحدثني محمد بن جعفر بن الزبير[(٤)] قـال: لما قـدم وفد نجـران على رسول الله ﷺ، دخلوا عليـه مسجده بعد العصر فحانت صـلاتهم، فقامـوا يصلون في مسجده، فـأراد الناس منعهم[(٥)] فقال رسول الله ﷺ: دعوهم، فاستقبلوا المشرق فصلوا صلاتهم، وكانوا ستين راكبـاً منهم أربعة وعشرون رجلاً من أشرافهم، منهم ثلاثة نفـر (إليهم)[(٦)] يؤول أمرهـم: «العاقب» أمير القوم وذو رأيهم وصاحب مشـورتهم، والذي لا يصـدرون إلاّ عن رأيه (وأَمْـره)[(٧)]، واسمه «عبد المسيح»، و«السيِّد» ثمالهم[(٨)] وصاحب رحلهم ومجمعهم. و«أبو حارثة بن علقمة» أسقفهم وحبـرهم وإمامهم وصـاحب مدارسهم، وكـان أبو حـارثـة قـد شَـرُف فيهم ودرس كتبهم، وكانت ملوك الروم من أهل النصرانيـة قد شـرّفوه (ومـوّلوه)[(٩)]، وأخـدموه وبنـوا له

---

(١) سيرة ابن هشام: ٢٨/٢.

(٢) سورة القصص: الآيتان ٥٢ ــ ٥٥.

(٣) سيرة ابن هشام: ٢٦/٢ (دار الجيل).

(٤) محمد بن جعفر بن الزبير بن العـوام الأسدي المـدني، روى عن عمه عبـد الله ولم يسمع منـه، قال ابن سعـد: كان عـالماً ولـه أحاديث، وقـال البخاري: كـان من فقهاء أهـل المدينـة وقرائهم، وقـال الدارقطني: مدني ثقة (تهذيب التهذيب: ٦٣/٩).

(٥) في ب، ص: أن تمنعهم.

(٦) سقطت من الأصل وج.

(٧) سقطت من الأصل.

(٨) ثمالهم: الثمال بالكسر الغياث، وفلان ثمال بني فلان أي عمـادهم وغياث لهم يقـوم بأمـرهم (لسان العرب).

(٩) في ص: فتولوه.

الكنائس، وبسطوا عليه الكرامات، لما بلغهم عنه من علمه واجتهاده في دينهم، فلما وجهوا إلى رسول الله ﷺ من نجران، جلس أبو حارثة على بغلة له موجهاً إلى رسول الله ﷺ، وإلى جنبه أخ (يقال له)(١) كرز بن علقمة(٢) يسايره، إذ عثرت بغلة أبي حارثة فقال له كرز: تعس الأبعد، يريد رسول الله ﷺ، فقال له أبو حارثة: بل أنت تعست، فقال: ولم يا أخي؟ فقال: والله إنه للنبي الذي كنا ننتظره، فقال له كرز: فما يمنعك من اتباعه وأنت تعلم هذا؟ فقال: ما صنع بنا هؤلاء القوم، شرفونا (وموّلونا)(٣) وأكرمونا وقد أبوا إلاّ خلافه، ولو فعلت نزعوا منّا (ذلك)(٤)، فأصرّ عليه أخوه كرز بن علقمة حتى أسلم بعد ذلك(٥).

فهذا وأمثاله من الذين منعتهم الرئاسة والمأكلة من اختيار الهدى وآثروا دين قومهم، وإذا كان هذا حال الرؤساء المتبوعين الذين هم علماؤهم وأحبارهم كان بقيتهم تبعاً لهم.

(وليس بمستنكر)(٦) أن تمنع الرئاسة والمناصب والمآكل للرؤساء، ويمنع الأتباع تقليدهم، بل هذا هو الواقع، والعقل لا يستشكله.

[قصة إسلام عدي بن حاتم]

(**فصل**): وكان من رؤساء (النصارى)(٧) الذين دخلوا في الإسلام، لما تبيّن لهم أنه الحق، الرئيس المطاع في قومه (عديّ بن حاتم)(٨).

---

(١) سقطت من الأصل.

(٢) في السيرة النبوية: يقال له كور بن علقمة، ويقال: كوز: ٢٠٤/٢. قال في الإصابة: كرز بن علقمة ويقال كوز بن علقمة البكري النجراني، وكان في وفد نجران (الإصابة: ٥٨٤/٥ ــ ٥٨٥).

(٣) في ب، ج، ص: وتولّونا.

(٤) في ب، ج، : كل ذلك وفي ص: كل كرامة.

(٥) انظر: الطبقات الكبرى، ابن سعد: ٣٥٧/١ ــ ٣٥٨. والسيرة النبوية لابن هشام: ٢٠٤/٢ ــ ٢٠٥.

(٦) في ج: ولن يستنكر.

(٧) سقطت من الأصل.

(٨) عدي بن حاتم بن عبد الله بن سعد بن الحشرج بن امرىء القيس بن عدي الطائي، ولد الجواد المشهور، أسلم في سنة تسع، وكان نصرانياً قبل ذلك، وشهد فتح العراق ثم سكن الكوفة، ومات =

ونحن نـذكر قصتـه (التي)[1] رواها الإمام أحمـد والترمذي والحاكم وغيرهم، قـال عـدي بن حاتم: أتيت النبـي ﷺ وهـو جالس في المسجـد. فقال القـوم: هـذا عـدي بن حاتم ـ وجئت بغير أمان ولا كتاب ـ فلما دفعت إليه، أخذ بيدي وقد كان (قبـل)[2] ذلك قال: إني لأرجو أن يجعـل الله يده في يـدي، قال: (فقـام)[3] فلقيته امـرأة وصبـي معها، فقالا: إن لنا إليك حاجة، فقام معهمـا حتى قضى حاجتهـا، ثمّ أخذ بيـدي حتى أتى بـي داره، فألقت له الوليدة وسـادة، فجلس عليها وجلست بين يـديه، فحمـد الله وأثنى عليه، ثم قال: ما يضرّك أن تقول لا إله إلاّ الله، فهل تعلم من إلـه سوى الله؟ قـال: قلت لا، ثم تكلم ساعة ثم قال: (ما تضرّ)[4] أن يقال: الله أكبر، (وهل تعلم)[5] أن شيئاً أكبر من الله؟ قـال: قلت لا، قال: فـإن اليهود مغضـوب عليهم وإن النصارى ضـلال، قال: فقلت إني حنيف مسلم، قـال: فرأيت وجهـه ينبسط فرحـاً، ثم (أمر بي)[6]، فـأنزلت عنـد رجل من الأنصار، وجعلت أغشاه ـ أي آتيه ـ طرفي النهار، قال: فبينا أنا (عنده)[7] عشيّة إذ جاءه قوم في ثياب من الصوف من هذه النمـار[8]، قال: فصلى ثم قـام فحث عليهم، ثم قال: ولو (بصاع)[9] ولو بنصف صاع، ولو بقبضة ولو (بنصف)[10] قبضة يقي أحـدكم وجهه حـرّ جهنم أو النـار، ولو بتمـرة ولو بشق تمـرة؛ فإن أحـدكم لاقي الله وقائـل له مـا أقول لكم:

= بعد الستين وقد أسن، قال خليفة: بلغ عشرين ومائة سنة (الإصابة: ٤/٤٦٩ ـ ٤٧٠)؛ (التجـريد: ١/٣٧٦).

(١) سقطت من جميع النسخ.
(٢) في ج: بعد.
(٣) في ب، ج، ص: فقام لي.
(٤) في ب، ص: أما تقرّ، في ج: إنّما نقرّ.
(٥) في ب، ج، ص: وتعلم.
(٦) في ب، ج: أمرني.
(٧) سقطت من ب.
(٨) في الأصل، ص: الثمار، والصحيح النمار بـالنون المكسـورة جمع نمـرة بالفتـح؛ وهي كل شملة مخططة من مآزر الأعراب كأنها أخذت من لـون النمر لمـا فيها من السـواد والبياض. (انـظر: تحفة الأحوذي: ٤/٦٧).
(٩) في ب، ج، ص: صاع.
(١٠) في ص، ج: ببعض.

ألم أجعل لك سمعاً وبصراً؟ فيقول: بلى (يا رب)[1] فيقول: ألم أجعل لك مالاً وولداً؟ فيقول: بلى، فيقول: أين ما قدمت لنفسك؟ فينظر قُدّامه (وبعده)[2] وعن يمينه وعن شماله، ثم لا يجد شيئاً يقي وجهه، ليق أحدكم وجهه (النار)[3] ولو بشقّ تمرة، فإن لم يجد فبكلمة طيبة، فإني لا أخاف عليكم الفاقة، فإن الله ناصركم ومعطيكم حتى (تسير)[4] الظعينة[5] فيما بين يثرب والحيرة[6] أكثر ما يخاف على مطيتها السرق ــ قال: فجعلت أقول في نفسي، فأين لصوص طي؟[7] ــ وكان عديّ مُطاعاً في قومه بحيث يأخذ المرباع[8] من غنائمهم ــ.

وقال حماد بن زيد عن أيوب عن محمد بن سيرين قال: قال أبو عبيدة بن حذيفة[9] قال عديّ بن حاتم: بعث الله محمداً ﷺ فكرهته أشد ما كرهت شيئاً قط، فخرجت حتى أتيت أقصى أرض العرب مما يلي الروم، ثم كرهت مكاني أشد مما كرهت[10] مكاني الأول، فقلت: لو أتيت فسمعت منه، فأتيت المدينة فانتشر في الناس وقالوا: جاء

---

(١) سقطت من ب، ج، ص.

(٢) في ج: وخلفه.

(٣) في ب، ج، ص: حر جهنم.

(٤) سقطت من الأصل.

(٥) الظعينة: الهودج كانت فيه امرأة أو لم تكن والمرأة ما دامت في الهودج فهي ظعينة (مختار الصحاح).

(٦) الحيرة بالكسر ثم السكون وراء مدينة كانت على ثلاثة أميال من الكوفة على موضع يقال له النجف، زعموا أن بحر فارس كان يتصل به.
وقيل: سميت الحيرة لأن تُبّعاً الأكبر لما قصد خراسان خلف ضعفة جنده بذلك الموضع وقال لهم حيروا به أي أقيموا به.
انظر: معجم البلدان: ٢/٣٢٨.

(٧) هذا النص بلفظه في جامع الترمذي، كتاب التفسير (التحفة: ٤/٦٢). والقصة مع اختلاف في بعض الألفاظ أخرجها الإمام أحمد في مسنده: ٤/٣٧٨ ــ ٣٧٩.

(٨) المرباع: ما يأخذه الرئيس وهو ربع الغنيمة، وكانوا في الجاهلية إذا غزا بعضهم بعضاً وغنموا أخذ الرئيس ربع الغنيمة خالصاً دون أصحابه. (لسان العرب).

(٩) أبو عبيدة بن حذيفة بن اليمان العبسي الكوفي، روى عن أبيه وعدي بن حاتم وأبي موسى الأشعري، قال أبو حاتم: لا يسمى، وذكره أبو حاتم في الثقات (تهذيب التهذيب: ١٢/١٥٩).

(١٠) سقطت من الأصل.

عدي بن حاتم الطائي، فقال: (يا عدي)[1] أسلم تسلم، فقلت إني على دين، قال: أنا أعلم بدينك منك، قلت: أنت أعلم بديني مني؟ قال: نعم، قال هذا ثلاثاً، قال: ألست ركوسياً[2]؟ قلت: بلى. قال: ألست ترأس قومك؟ قلت: بلى، قال: ألست تأخذ المرباع؟ قلت: بلى، قال: فإن ذلك لا يحل لك في دينك، قال فوجدت بها عليّ غضاضة، ثم قال: لعله أن يمنعك أن تسلم أن ترى عندنا خصاصة، وترى الناس علينا ألباً واحداً[3]، هل رأيت الحيرة؟ قلت: لم أرها، وقد علمت مكانها، قال: فإنّ الظعينة سترحل من الحيرة تطوف بالبيت بغير جوار، (ولتفتحن)[4] علينا كنوز كسرى بن هرمز، قلت كنوز كسرى بن هرمز؟ قال: كنوز كسرى بن هرمز، وليفيضنّ المال حتى يهم الرجل من يقبل منه صدقته، قال: (فرأيت)[5] الظعينة ترحل من الحيرة بغير جوار[6]، وكنت في أول خيل أغارت على (المدائن)[7]، ووالله لتكونن الثالثة، أنه حديث رسول الله ﷺ[8].

[قصة إسلام سلمان الفارسي]

وقد كان سلمان الفارسي[9] من أعلم النصارى بدينهم وكان قد تيقن خروج

---

(١) في ب، ج، ص: يا عدي بن حاتم.

(٢) الركوسي: من الركوسيّة، قال ابن منظور: قوم لهم دين بين النصارى والصابئين، وروى عن ابن الأعرابي أنه قال: هذا من نعت النصارى لا يعرّب (لسان العرب).

(٣) ألبا: الألب بالفتح والكسر: القوم يجتمعون على عداوة إنسان، وتألبوا تجمعوا (لسان العرب).

(٤) في ب، ص: وليفتحن الله.

(٥) في ب، ج، ص: فقد رأيت.

(٦) في مسند الإمام أحمد: (فتطوف بالبيت في غير جوار، وفي رواية: بغير جوار حتى تطوف بالكعبة).

(٧) في مسند الإمام أحمد: وكنت في الخيل التي أغارت على المدائن وفي رواية: وكنت فيمن فتح كنوز كسرى بن هرمز.

(٨) هذا الحديث أخرجه الإمام أحمد في مسنده من عدة طرق وفي أكثر من موضع، وهذا النص في مسند الإمام أحمد من طريق أبي عدي عن ابن عون عن ابن سيرين عن ابن حذيفة عن عدي (انظر المسند: ٣٧٨/٤)، أما الطرق الأخرى ففي: (٢٥٧/٤ ـ ٢٥٨) كما أخرج الشطر الأخير منه الإمام البخاري في صحيحه في كتاب المناقب: ٣٥٩٥/٦١.

(٩) سلمان الفارسي: هو أبو عبد الله سلمان الفارسي، ويقال له سلمان ابن الإسلام وسلمان الخير، قيل اسمه مهابه بن بود، وقيل اسمه بهبود، أصله من رامهرمز، وقيل من أصبهان، وكان قد سمع بأن النبي ﷺ سيبعث، فخرج في طلب ذلك فأسر وبيع بالمدينة، كان أول مشاهده الخندق، وقيل شهد =

النبـي ﷺ، فقدم المدينة قبل مبعثه، فلما رآه عرفه أنه هو النبـي الذي بشر به المسيح، فآمن به واتبعه، ونحن نسوق قصته.

قـال ابن إسحق: (حـدثني عـاصم عـن محمـود، عن ابـن عبـاس رضـي الله عنهما قال)[١]: حدثني سلمان من فيه قال: كنت رجلاً فارسياً من أهل أصبهـان من قريـة يقـال لها (حي)[٢] ـ (وكـان أبـي دهقان قـريته) ـ[٣] وكنت أحب خلق الله إليـه، لم يزل حبّه إيّاي حتى حبسني في بيت كما يحبس الجارية، فاجتهـدت في المجوسيـة حتى كنت قطن النار التي توقدها لا (نتركها)[٤] ساعـة تخبو، وكـانت لأبـي ضيعة عـظيمة فشغـل في بنيـان له يـوماً، فقـال: يا بني اذهب فـإني قد شُغِلْتُ في بنيـاني هـذا اليـوم عن ضيعتي، فـاذهب إليها فـاطلعها، وأمـرني فيها ببعض مـا يريـد، ثم قـال لي: ولا (تحتبس)[٥] عني فإنك إن احتسبت عني كنت أهم من ضيعتي (وشغلتني عن كل شيء من أمري، فخرجت أريـد ضيعتَـهُ)[٦] (التي بعثني إليهـا)[٧]، فمـررت بكنيسـة من كنـائس النصـارى فسمعت أصـواتهم فيهـا وهم يصلون، وكنت لا أدري مـا أمـر النـاس لحبس أبـي إيـاي في بيتـه، (فلما سمعت أصواتهم دخلت عليهم أنظر ما يصنعون)[٨]، فلما رأيتهم أعجبتني صلاتهم، ورغبت في أمـرهم، فقلت: هذا والله خيـر من الـذي نحن عليـه، فـوالله مـا بـرحت حتى غربت الشمس، وتركت ضيعة أبـي فلم آتها، ثم قلت لهم: أين أصل هذا الدين؟ قالوا:

= بدراً، وشهد بقية المشاهد وفتوح العـراق، وولي المدائن. مـات سنة ست وثـلاثين أو سبع وثـلاثين (الإصابة: ٣/١٤١ ـ ١٤٢).

(١) سقطت من الأصل.
(٢) حي: وفي السيرة (جي) بالجيم المعجمة: ١/٢٣٥. وهي قرية في أصبهان.
(٣) دهقان: الدهقان بضم الدال وفتحها التاجر، فارسي معرب والجمع دهـاقنة ودهـاقين (لسان العـرب) والدهقان رئيس القرية ورئيس الإقليم ومن له مال. وعقار (المعجم الوسيط).
(٤) في الأصل: يتركوها.
(٥) في ب، ج، ص: تحبس.
(٦) سقطت من الأصل.
(٧) في الأصل: بعثتك.
(٨) سقطت من الأصل.

بالشام، فرجعت إلى أبي وقد (بعث)[1] في طلبي (وشغله)[2] عن عمله كله، فلما جئت قال: يا بني أين كنت؟ ألم أكن عهدت إليك ما عهدت، قلت: يا أبت مررت بأناس يصلون في كنيسة لهم فأعجبني ما رأيت من دينهم، فوالله ما زلت عندهم حتى غربت الشمس (فقال: أي بني ليس في ذلك الدين خير)[3]، دينك ودين آبائك خير منه، فقلت له: كلا والله إنه لخير من ديننا، قال: فخافني، فجعل في رجلي قيداً، ثم حبسني في بيته، (وبعثت إلى)[4] النصارى فقلت لهم: إذا قدم عليكم ركب من الشام فأخبروني بهم، فقدم عليهم تجار من النصارى فأخبروني، فقلت لهم: إذا قضوا حوائجهم وأرادوا الرجعة (إلى بلادهم)[5] فآذنوني بهم، قال: فلما أرادوا الرجعة أخبروني بهم، فألقيت الحديد من رجلي ثم خرجت معهم حتى قدمت الشام.

[سلمان يصل الشام]

فلما قدمتها قلت: من أفضل (أهل)[6] هذا الدين علماً؟ قالوا: (أسقف الكنيسة)[7]، فجئته فقلت له: إني قد رغبت في هذا الدين، وأحببت أن أكون معك فأخدمك في كنيستك، وأتعلم منك وأصلي معك، قال: ادخل، فدخلت (معه)[8] فكان رجل سوء يأمرهم بالصدقة ويرغبهم فيها، فإذا جمعوا له شيئاً منها اكتنزه لنفسه، ولم يعط المساكين، حتى جمع (سبع)[9] قلال[10] من ذهب وورق[11]، فأبغضته بغضاً شديداً

---

(١) في ب، ص: أرسل.
(٢) في ب، ص، ج: وشغلته.
(٣) سقطت من الأصل.
(٤) في الأصل: وبعث إليّ النصارى.
(٥) سقطت من ب.
(٦) سقطت من ب، ص.
(٧) في ج: الأسقف في الكنيسة.
(٨) سقطت من ج.
(٩) سقطت من ج.
(١٠) قلال: جمع قلة (بضم القاف) وهي إناء للعرب كالجرة الكبيرة (لسان العرب).
(١١) الورق: بكسر الراء الفضة.

لما رأيته يصنع، ثم مات (واجتمعت النصارى)[1] ليدفنوه، فقلت لهم: إن هذا كان رجل سوء يأمركم بالصدقة ويرغبكم فيها، فإذا جئتموه بها اكتنزها لنفسه ولم يعط المساكين منها شيئاً، فقالوا لي: وما علمك بذلك؟ قلت: أنا أدلكم على كنزه فأريتهم موضعه، فاستخرجوا سبع قلال مملوءة ذهباً وورقاً، فلما رأوها قالوا: والله لا ندفنه أبداً، فصلبوه ورموه بالحجارة، وجاؤوا برجل آخر فجعلوه مكانه، فما رأيت رجلاً لا يصلي الخمس أرى أنه أفضل منه ولا أزهد في الدنيا ولا أرغب في الآخرة ولا أدأب ليلاً ونهاراً منه، فأحببته (حباً شديداً)[2] لم أحبه شيئاً قبله، فأقمت معه زماناً، ثم حضرته الوفاة، فقلت له: يا فلان إني قد كنت معك فأحببتك حباً (شديداً)[3] لم أحبه شيئاً قبلك، وقد حضرك من أمر الله ما ترى فإلى من توصي بي، وبمن تأمرني؟ فقال: أي بني، والله ما أعلم أحداً على ما كنت عليه، ولقد هلك الناس وبدّلوا وتركوا أكثر ما كانوا عليه؛ إلاّ (رجلاً)[4] بالموصل[5] وهو فلان وهو على ما كنت عليه.

[سلمان يلحق بقس الموصل]

فلما مات وغيب لحقت صاحب الموصل فقلت له: يا فلان إن فلاناً أوصاني عند موته أن ألحق بك، وأخبرني أنك على أمره، فقال: أقم عندي، فأقمت عنده (فرأيته)[6] خير رجل على أمر صاحبه، فلما حضرته الوفاة قلت له: يا فلان إن فلاناً أوصى بي إليك وأمرني باللحوق بك، وقد حضرك من أمر الله ما ترى، فإلى من توصي بي وبم تأمرني؟ قال: يا بني والله ما أعلم أن أحداً على مثل ما كنا عليه إلاّ رجلاً (بنصيبين)[7] وهو فلان فالحق به.

---

(١) في ج: واجتمع الناس من النصارى.

(٢) سقطت من ج، وفي ص: حبا.

(٣) سقطت من ب، ج، ص.

(٤) في ج رجال (بالضم) وهو مستثنى يجوز فيه النصب والضم هنا.

(٥) الموصل: بالفتح وكسر الصاد، المدينة المشهورة في شمال العراق وسميت بذلك لأنها وصلت بين الجزيرة والعراق وقيل بين دجلة والفرات، وهي مدينة قديمة على طرف دجلة ومقابلها من الجانب الشرقي نينوى (معجم البلدان: ٥/٢٢٣).

(٦) في ب، ج، ص: فوجدته.

(٧) في الأصل بنصفين، ونصيبين: بالفتح ثم الكسر مدينة عامرة من بلاد الجزيرة على جادة القوافل من =

[سلمان يلحق بقس نصيبين]

فلما مات وغيب لحقت بصاحب نصيبين، فأخبرته خبري وما أمرني به صاحبي، قال: أقم عندي فأقمت عنده فوجدته على أمر صاحبه، فأقمت مع خير رجل، فوالله ما لبث أن نزل به الموت، فلما أحضر قلت له: يا فلان، إن فلاناً أوصى بي إلى فلان ثم فلان أوصى بي إليك، فإلى من توصي بي؟ فقال لي: يا بني ما أعلم بقي أحد على أمرنا آمرك أن تأتيه إلا رجل بعمورية[1] من (أرض)[2] الروم فإنه على مثل ما نحن فيه فإن أحببت فأته.

[سلمان يلحق بقس عمورية]

فلما مات وغيب لحقت بصاحب عمورية فأخبرته خبري فقال: أقم عندي فأقمت عند خير رجل على هدى أصحابه وأمرهم، فاكتسبت حتى كان لي (بقرات وأعنز)[3]، ثم نزل به أمر الله، فلما أحضر قلت له يا فلان إني كنت مع فلان فأوصى بي إلى فلان ثم أوصى بي فلان إلى فلان ثم أوصى بي فلان إليك فإلى من توصي بي وبم تأمرني؟ قال: يا بني والله ما أعلم أصبح أحد على مثل ما كنا عليه من أمرك أن تأتيه، ولكنه قد ظل زمان نبي مبعوث بدين إبراهيم (يخرج)[4] بأرض العرب، مهاجَرُهُ إلى أرض بين حرتين[5] بينهما نخل[6] به علامات لا تخفى؛ يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة، بين كتفيه خاتم النبوّة، فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد فافعل.

= الموصل إلى الشام، بينها وبين الموصل ستة أيام وقد فتحها عياض بن غنم صلحاً (معجم البلدان: ٥/٢٨٨).

(١) عمورية: بلد من بلاد الروم غزاها المعتصم حين سمع صرخة العلوية وفتحها سنة ٢٢٣هـ (انظر: معجم البلدان: ٤/١٥٨).

(٢) في ج: أهل أرض.

(٣) في ب، ج، ص: بقيرات وغنيمة.

(٤) في الأصل: خرج.

(٥) الحرتين: مثنى حرّة وهي كل أرض ذات حجارة سود.

(٦) وصف لدار الهجرة؛ المدينة المنورة.

[سلمان يرتحل إلى بلاد العرب]

ثم مات وغيب فمكثت بعمورية ما شاء الله أن أمكث، ثم مرّ بي نفر من «كلب»[1] تجار، فقلت لهم: احملوني إلى أرض العرب وأعطيكم بقراتي هذه وغنيمتي هذه، فقالوا: نعم فأعطيتموها. فحملوني معهم حتى إذا بلغوا وادي القرى[2] ظلموني، وباعوني من رجل يهودي، فكنت (عنده)[3]، فرأيت النخل فرجوت أن يكون البلد الذي وصف لي صاحبي، ولم يحق في نفسي[4]، فبينا أنا عنده إذ قدم عليه ابن له من بني قريظة من المدينة فابتاعني منه فحملني إلى المدينة، فوالله ما هو إلّا أن رأيتها عرفتها بصفة صاحبي، فأقمت بها، وبعث رسول الله ﷺ وأقام بمكة ما أقام، لا أسمع له بذكر مع ما أنا فيه من شغل الرق.

ثم هاجر إلى المدينة فوالله إني لفي رأس عذق[5] لسيدي أعمل فيه بعض العمل، وسيدي جالس تحتي إذ أقبل ابن عم له حتى وقف عليه، فقال له: يا فلان قاتل الله بني قيلة[6]، والله إنهم الآن مجتمعون على رجل قدم عليهم من مكة اليوم يزعمون أنه نبي.

فلما سمعتهما أخذتني عرواء[7] حتى ظننت أني ساقط على سيدي، فنزلت عن النخلة فجعلت أقول لابن عمه ذلك: ما تقول؟ فغضب سيدي فلكمني لكمة شديدة، ثم قال: مالك ولهذا؟ أقبل على عملك. فقلت: لا شيء إنما أردت أن أستثبته عما قال، وقد كان عندي شيء جمعته، فلما أمسيت أخذته، ثم ذهبت به إلى رسول الله ﷺ وهو (بقباء)[8] فدخلت عليه، فقلت: إنه قد بلغني أنك رجل صالح ومعك أصحاب لك غرباء

---

(١) قبيلة كلب: حي من قضاعة (انظر: لسان العرب).

(٢) وادي القرى: هو واد بين المدينة والشام، من أعمال المدينة كثير القرى، فتحها النبي ﷺ سنة سبع عنوة ثم صولحوا على الجزية (معجم البلدان: ٥/٣٤٥).

(٣) سقطت من ج.

(٤) لم يحق في نفسي، حق الأمر يحق حقاً، صار حقاً وثبت (لسان العرب).

(٥) العذق: كل غصن له شعب، والعذق النخلة بحملها (لسان العرب).

(٦) بنو قيلة: قال ابن هشام، قيلة بنت كاهل بن عذرة بن سعد بن زيد بن ليث بن قضاعة، أم الأوس والخزرج (سيرة ابن هشام: ١/٢٣٨).

(٧) العرواء: قال ابن هشام: العرواء (بضم العين وفتح الراء) الرعدة من البرد والانتفاض (السيرة: ١/٢٣٨).

(٨) في الأصل: بفناء.

ذووا حاجة، وهذا شيء كان عندي للصدقة، فرأيتكم أحق به من غيركم فقربته إليه، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: كلوا، وأمسك هو فلم يأكل، فقلت في نفسي: هذه واحدة. ثم انصرفت عنه فجمعت شيئاً، وتحول رسول الله ﷺ إلى المدينة، ثم جئته به، فقلت: إني قد رأيتك لا تأكل الصدقة وهذه هدية أكرمتك بها، فأكل رسول الله ﷺ وأمر أصحابه فأكلوا (معه)[1] فقلت في نفسي: هاتان ثنتان، ثم جئت رسول الله ﷺ وهو ببقيع الغرقد، قد تبع جنازة رجل من أصحابه، وعليّ شملتان[2] لي، وهو جالس في أصحابه، فسلمت عليه ثم استدرت (أنظر)[3] إلى ظهره، هل أرى الخاتم الذي وصف لي صاحبي، فلما رآني رسول الله ﷺ استدبرته عرف أني أستثبت في شيء وصف لي، فألقى الرداء عن ظهره، فنظرت إلى الخاتم فعرفته، فأكببت عليه أقبله وأبكي، فقال لي رسول الله ﷺ تحول، فتحولت وجلست بين يديه، فقصصت عليه حديثي كما حدثتك يا ابن عباس، فأعجب رسول الله ﷺ أن يسمع ذلك أصحابه.

ثم شغل سلمان الرق حتى فاته مع رسول الله ﷺ بدر وأحد، قال سلمان: ثم قال لي رسول الله ﷺ: كاتب يا سلمان فكاتبت صاحبي على ثلاثمائة نخلة أحييها له بالفقير[4] وأربعين أوقية، فقال رسول الله ﷺ: «أعينوا أخاكم» فأعانوني بالنخل: الرجل بثلاثين وديّة[5]، والرجل بعشرين ودية، والرجل بخمسة عشر والرجل بعشر، يعينني الرجل بقدر ما عنده حتى اجتمعت لي ثلاثمائة وَدِيَّة، فقال لي رسول الله ﷺ: يا سلمان فافقر لها، فإذا فرغت فائتني أكن أضعها بيدي، ففقرت فأعانني أصحابي، حتى إذا فرغت جئته فأخبرته، فخرج معي إليها (فجعلت أقرب)[6] إليه الوديّ ويضعه رسول الله ﷺ بيده حتى فرغت، فوالذي نفس سلمان بيده ما مات منها ودية واحدة، فأدّيت النخل وبقي عليّ المال. فأتى رسول الله ﷺ بمثل بيضة الدجاج من ذهب من

---

(١) سقطت من ج.
(٢) شملتان: الشملة، كساء يتغطى به ويتلفف به (لسان العرب).
(٣) سقطت من الأصل.
(٤) الفقير: من فقر الأرض إذا حفرها، والفقرة: الحفرة والفقير: حفير حول الفسيلة إذا غرست، وفقير النخلة حفيرة تحفر للفسيلة إذا حوّلت لتغرس فيها (لسان العرب).
(٥) وديّة: بكسر الدال وتشديد الياء مفرد الوديّ وهي: صغار الفسيل (مختار الصحاح).
(٦) في ب، ج، ص: فجعلنا نقرب.

بعض المعادن، فقال: ما فعل الفارسي المكاتب؟ فدعيت له، فقال: خذ هذه فأدها مما عليك يا سلمان، فقلت: وأين تقع هذه مما عليّ يا رسول الله؟ قال: (خذها)[1] فإن الله سيؤدي بها ما عليك، فأخذتها فوزنت منها لهم ـ فوالله الذي نفسي بيده ـ أربعين أوقية وأوفيتهم حقهم، فشهدت مع رسول الله ﷺ الخندق ثم لم يفتني معه مشهد[2].

[موقف هرقل من كتاب رسول الله ﷺ]

(وكان) ملك الشام وأحد أكابر علمائهم بالنصرانية (هرقل)[3] قد عرف أنه رسول الله حقاً، وعزم على الإسلام، فأبى عليه عبّاد الصليب، فخافهم على نفسه، وضنّ بملكه مع علمه بأنه سيُنقل عنه إلى رسول الله ﷺ وأمته، ونحن نسوق قصته.

ففي الصحيحين من حديث عبد الله بن عباس أن أبا سفيان أخبره من فيه قال: انطلقت في المدة التي كانت بيني وبين رسول الله ﷺ إلى الشام، فبينا أنا في الشام إذ جيء بكتاب رسول الله ﷺ إلى هرقل، وقد كان دحية بن خليفة جاء به[4] فدفعه إلى عظيم بصرى[5] فدفعه عظيم بصرى إلى هرقل فقال هرقل: هاهنا أحد من قوم هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟ قالوا: نعم، قال: فدعيت في نفر من قريش، فدخلنا على هرقل، فأجلسنا بين يديه، وأجلسوا أصحابي خلفي. فدعا بترجمانه فقال: قل لهم إني سائل هذا عن الرجل الذي يزعم أنه نبي، فإن كذبني فكذبوه فقال أبو سفيان: وأيم الله لولا مخافة أن يؤثر عليّ الكذب لكذبت[6]، ثم قال لترجمانه: سله، كيف حسبه فيكم؟ قال:

---

(١) سقطت من الأصل.

(٢) قصة سلمان الفارسي ذكرت بهذا التفصيل في أكثر من كتاب من كتب السيرة، انظر: السيرة النبوية لابن هشام: ١/٢٣٤ ـ ٢٤١، وانظر: عيون الأثر، ابن سيد الناس: ١/٧٦ ـ ٨٢.

(٣) هرقل: عظيم الروم في الشام.

(٤) دحية بن خليفة بن فروة بن فضالة بن زيد بن امرىء القيس بن عامر الأكبر بن عوف الكلبي، صحابي مشهور، أول مشاهده الخندق وقيل أحد، وكان يضرب به المثل في حسن الصورة وكان جبرائل ينزل على صورته، وقد شهد اليرموك ونزل دمشق وسكن المزة، وعاش إلى خلافة معاوية (الإصابة: ٢/٣٨٦).

(٥) بصرى: مدينة بالشام من أعمال دمشق، وهي قصبة كورة حوران (معجم البلدان: ١/٤٤١).

(٦) وهذا يدل على أن الكذب قبيح في الجاهلية كما هو قبيح في الإسلام.

قلت: (ذو حسب)[1] قال: فهل كان من آبائه من ملك؟ قلت: لا، قال: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قلت: لا، قال: فمن اتبعه: أشراف الناس أم ضعفاؤهم؟ قلت: بل ضعفاؤهم، قال: أيزيدون أم ينقصون؟ قلت: لا بل يزيدون، قال: فهل يرتد أحد منهم عن دينه بعد أن يدخل فيه سخطة له؟ قلت: لا، قال: فهل قاتلتموه؟ قلت: نعم، قال: فكيف قتالكم إياه؟ قال: قلت يكون الحرب بيننا وبينه سجالاً[2]، يصيب منّا ونصيب منه، قال: فهل يغدر؟ قلت: لا، ونحن منه في مدة لا ندري ما هو صانع فيها.

قال: فوالله ما أمكنني من كلمة أدخل فيها (شيئاً)[3] غير هذه، قال: فهل قال هذا القول أحد قبله؟ قلت: لا، قال لترجمانه: قل له: إني سألتك عن حسبه فزعمت أنه فيكم ذو حسب، وكذلك الرسل تبعث في أحساب قومها. وسألتك هل كان في آبائه ملك؟ فزعمت أنه لا، فقلت: لو كان في آبائه ملك لقلت: رجل يطلب ملك آبائه، وسألتك عن أتباعه أضعفاؤهم أم أشرافهم؟ فقلت: بل ضعفاؤهم، وهم أتباع الرسل، فسألتك هل كنتم متهمونه بالكذب قبل أن يقول ما يقول؟ فزعمت أن لا، فقد عرفت أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس ثم يذهب ويكذب على الله، وسألتك، هل يرتد أحد منهم عن دينه بعد أن دخله سخطة له؟ فزعمت أن لا، وكذلك الإيمان إذا خالطت بشاشته القلوب، وسألتك هل يزيدون أو ينقصون، فزعمت أنهم يزيدون وكذلك الإيمان حتى يتم، وسألتك، هل قاتلتموه؟ فزعمت أنكم قاتلتموه، فيكون الحرب بينكم وبينه سجالاً؛ ينال منكم وتنالون منه، وكذلك الرسل تبتلى، ثم تكون لها العاقبة، وسألتك هل يغدر؟ فزعمت أنه لا يغدر، وكذلك الرسل لا تغدر، وسألتك هل قال هذا القول أحد قبله؟ فزعمت أن لا، فقلت: لو قال هذا القول أحد قبله، قلت: رجل ائتم بقول قيل قبله، ثم قال: فيم يأمركم؟ قلت: يأمرنا بالصلاة والزكاة والصلة والعفاف، قال: إن يكن ما تقوله حقاً إنه نبي، وقد كنت (أعلم)[4] أنه خارج، ولكن لم أظنه منكم، لو أعلم أني أخلص

---

(١) في ب، ج، ص: هو فينا ذو حسب.

(٢) سجالاً: أي نوباً، نوبة لنا ونوبة له، قالوا: وأصله أن المستقين بالسجل وهي الدلو الملأى، يكون لكل واحد منهما سجل (انظر: لسان العرب).

(٣) سقطت من ج.

(٤) في ب، ص: أظن.

إليه لأحببت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه، وليبلغن ملكه ما تحت قدمي، ثم دعا بكتاب رسول الله ﷺ [1] (فإذا فيه)[2] «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد (بن عبد الله)[3] إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم (وأسلم)[4] يؤتك الله أجرك مرتين، وإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين[5]، و ﴿يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبدَ إلاّ الله، ولا نشركَ به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون﴾[6] [7].

---

(١) ذكر ابن سعد في الطبقات أن رسول الله ﷺ لما رجع من الحديبية في ذي الحجة سنة ست أرسل الرسل إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام وكتب إليهم كتباً، فقيل: يا رسول الله إن الملوك لا يقرأون كتاباً إلا مختوماً، فاتخذ رسول الله ﷺ خاتماً من فضة فصّه منه، نقشه بثلاثة أسطر محمد رسول الله، وختم به الكتب، فخرج ستة نفر منهم في يوم واحد وذلك في المحرم سنة سبع (الطبقات الكبير، ابن سعد: ١/١٥).

(٢) في ب، ج، ص: فقرأه فإذا فيه.

(٣) في ب، ص: رسول الله، وفي ج: عبد الله ورسوله.

(٤) سقطت من الأصل.

(٥) الأريسيين: وعند البخاري اليريسيين، والصحيح أنها بالهمزة كما ذكر ابن حجر في الفتح: (١/٣٩). وقد اختلف في معناها؛ قال ابن حجر: الأريسيين جمع أريسي وهو الأكار أي الفلاح، قال الجوهري: هي لغة شامية وأنكرابن فارس أن تكون عربية، واستدل ابن حجر برواية مرسلة (فإن عليك إثم الفلاحين) (الفتح: ١/٣٩) وأورد ابن الأثير في النهاية معانيَ كثيرة للأريسيين ومن جملة ما قاله: «إن في رهط هرقل فرقة تعرف بالأروسية فجاء على النسب إليهم» (النهاية في غريب الحديث والأثر: ١/٣٨) ومن خلال الأقوال الواردة في معنى هذه اللفظة نستطيع أن نرجح أن الكلمة إنما هي نسبة إلى الأريوسيين الذين كانوا يؤمنون ببشرية المسيح وينكرون إلهيته، وقد فرّوا بدينهم من اضطهاد الكنيسة والدولة الرومانية، ولا مانع أن يكونوا قد فرّوا إلى القرى والأرياف وعملوا بالزراعة.

(٦) سورة آل عمران: الآية ٦٤.

(٧) نص الكتاب ورد في الصحيحين وفي معظم كتب السيرة ودلائل النبوة، كما أن نفس الكتاب موجود في مكتبة القصر الملكي بعمّان وذكره الأستاذ حميد الله في الوثائق السياسية وفيه رسم الأصل الفوتغرافي للكتاب (الوثائق السياسية: ص ١٠٨).

فلما فرغ من قراءة الكتاب ارتفعت الأصوات عنده وكثر اللغط وأمر بنا فخرجنا[1].

ثم أذن هرقل لعظماء الروم في دسكرة[2] له بحمص[3]، ثم أمر بأبوابها فغلقت ثم طلع فقال: يا معشر الروم هل لكم في الفلاح والرشد وأن يثبت ملككم فتبايعوا هذا النبي؟ فحاصوا حيصة[4] حمر الوحش إلى الأبواب فوجدوها قد غلّقت، فلما رأى هرقل نفرتهم وأيس من الإيمان، قال: ردّوهم عليّ، فقال: إني قلت مقالتي آنفاً أختبر بها شدتكم على دينكم، فقد رأيت، فسجدوا له ورضوا عنه[5].

فهذا ملك الروم ـ وكان من علمائهم أيضاً ـ عرف وأقرّ أنّه نبي، وأنه سيملك ما تحت قدميه، وأحب الدخول في الإسلام، فدعا قومه إليه فولوا عنه معرضين ﴿كأنهم حمر مستنفرة. فرت من قسورة﴾[6] فمنعه من الإسلام الخوف على ملكه ورئاسته، ومنع أشباه الحمير مما منع الأمم قبلهم.

[موقف النجاشي من كتاب رسول الله ﷺ]

ولما عرف النجاشي ملك الحبشة أن عباد الصليب لا يخرجون عن عبادة الصليب إلى عبادة الله وحده، أسلم وحده سراً، وكان يكتم إسلامه بينهم هو وأهل بيته ولا يمكنه مجاهرتهم.

ذكر ابن إسحق أنّ رسول الله ﷺ أرسل إليه عمرو بن أميّة (الضمري)[7] بكتابه

---

(١) الحديث ورد في الصحيحين، واللفظ إلى هنا لمسلم مع الاختلاف في ألفاظ بعض الكلمات، انظر: صحيح مسلم ك ٣٢ ح ١٧٧٣، وبقية الحديث وردت في اختلاف في بعض الألفاظ في صحيح البخاري: ١/٧.

(٢) الدسكرة: بسكون السين المهملة: القصر الذي حوله البيوت وكأنه دخل القصر ثم أغلقه، وفتح أبواب البيوت التي حوله، وأذن للروم في دخولها، ثم أغلقها ثم اطلع عليهم فخاطبهم، وإنما فعل ذلك خشية منهم (انظر: فتح الباري: ١/٤٣).

(٣) حمص: وكان فتحها على يد أبي عبيدة بن الجراح سنة ١٦هـ بعد هذه الحادثة بست سنين (فتح الباري: ١/٤٣).

(٤) الحيصة: حاص عنه عدل وحاد، يقال: ما عنه محيص أي محيد ومهرب (مختار بالصحاح).

(٥) زاد البخاري: فكان ذلك آخر شأن هرقل (صحيح البخاري: ١/٧).

(٦) سورة المدثر: الآيتان ٥٠، ٥١.

(٧) سقطت من ص.

يدعوه إلى الإسلام[1]، فقال له عمرو: يا أصحمة[2]!! أنا عليّ القول وعليك الاستماع، إنك كأنك في الرقّة علينا منّا، وكأنّا في الثقة بك منك، لأنا لم نظن بك خيراً (قط)[3] إلا نلناه، ولم نخفك على شيء إلا أمنّاه، وقد أخذنا الحجة عليك من فيك، الإنجيل بيننا وبينك شاهد لا يرد وقاض لا يجور، وفي ذلك موقع حسن وإصابة الفصل، وإلاّ فأنت في هذا النبي الأمي كاليهود في عيسى ابن مريم، وقد فرّق النبي ﷺ إلى الناس فرجاك بما لم يرجهم، وأمنك على من خافهم عليك لخير سالف (وأجر)[4] منتظر.

فقال النجاشي: أشهد بالله إنه للنبي الأمي الذي ينتظره أهل الكتاب. (وإن)[5] بشارة موسى براكب الحمار[6] كبشارة عيسى (براكب الجمل)[7] (وإن العيان ليس بأشفى من الخبر)[8].

قال الواقدي: وكتب إليه: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى النجاشي ملك الحبشة، (سلم)[9] أنت، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن، وأشهد أن (عيسى)[10] روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة، حملت بعيسى فخلقه (الله)[11] من روحه ونفخه كما خلق آدم

---

(١) لم يرد نص الكتاب الذي بعث به النبي ﷺ إلى النجاشي في سيرة ابن هشام، وإنما ذكر فقط أن رسول الله ﷺ بعث عمرو بن أمية إلى النجاشي يحمل له كتاباً يدعوه للإسلام: ٤/٢٥٤.

(٢) أصحمة: اسم النجاشي، لأن النجاشي لقب لملك الحبشة وهو أصحمة بن أبجر أو ابن بحر، وأصحمة بالعربية تعني عطية، توفي سنة تسع للهجرة. راجع أسد الغابة: ١/٩٩.

(٣) سقطت من ص.

(٤) في ص: وآخر.

(٥) في الأصل في.

(٦) راكب الحمار هو عيسى عليه السلام.

(٧) سقطت من الأصل، وراكب الجمل هو محمد ﷺ.

(٨) في سيرة زيني دحلان «وأنه ليس الخبر كالعيان»، والقصة بهذا النص نجدها في السيرة الحلبية: ٣/٢٤٨ وسيرة زيني دحلان هامش الحلبية: ٣/٦٧ وإعلام السائلين، لابن طولون ص ٤٩ كما ذكرها ابن القيم في زاد المعاد: ٣/٦٨٩.

(٩) هكذا في جميع النسخ، وفي زاد المعاد: أسلم، انظر: زاد المعاد: ٣/٦٨٩.

(١٠) في ج، ص: عيسى ابن مريم.

(١١) سقطت من ج، ص.

بيده. وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له والموالاة على طاعته، وأن تتبعني وتؤمن بالذي جاءني، فإني رسول الله إليك (وإني)[1] أدعوك وجنودك إلى الله عز وجل، وقد بلّغت ونصحت فاقبلوا نصيحتي والسلام على من اتبع الهدى»[2].

فكتب النجاشي إليه:

«بسم الله الرحمن الرحيم.

إلى محمد رسول الله من النجاشي أصحمة، سلام عليك يا نبي الله من (الله) وبركات الله الذي لا إله إلا هو. أما بعد:

فلقد بلغني كتابك فيما ذكرت من أمر عيسى عليه السلام، فورب السماء والأرض إن عيسى لا يزيد على ما ذكرت تفروقاً، إنّه كما ذكرت، وقد عرفنا ما بعث به إلينا، قد قربنا ابن عمك وأصحابه، فأشهد أنك رسول الله صادقاً مصدقاً، وقد بايعتك وبايعت ابن عمك، وأسلمت على يديه لله رب العالمين»[3]. والتفروق علامة بين النواة والثمرة.

[كتاب رسول الله ﷺ إلى المقوقس]

(فصل): وكذلك ملِك دين النصرانية (بمصر) عرف[4] أنه نبي (صادق)[5] ولكن منعه من اتباعه ملكه، وأن عُبّاد الصليب لا يتركون عبادة الصليب. ونحن نسوق حديثه وقصته.

قال الواقدي: كتب إليه رسول الله ﷺ:

---

(١) سقطت من ص.

(٢) ورد نص هذه الرسالة في تاريخ الطبري: ٢/٦٥٢ وتاريخ الإسلام للذهبي: ٢/١٢١ ـ ١٢٢، وفي طبقات ابن سعد: ١/١٥. كما ذكرها ابن القيم في زاد المعاد: ٣/٦٨٩. يقول الأستاذ حميد الله: وقد ظفر المستشرق الدكتور دنلوب من براندكرك في اسكتلندا بأصل هذا المكتوب ونشر صورته الشمسية في مجلة الجمعية الملكية الآسيائية الانجليزية في يناير سنة ١٩٤٠، وطبع الأستاذ حميد الله صورة الكتاب في كتابه (الوثائق السياسية: ص ١٠٢).

(٣) رسالة النجاشي هذه أوردها الطبري في تاريخه: ٢/٦٥٣ وذكرها ابن سعد في الطبقات: ١/١٥.

(٤) سقطت من الأصل.

(٥) سقط من ج.

«بسم الله الرحمن الرحيم.

من محمد بن عبد الله إلى المقوقس[1] عظيم القبط.

سلام على من اتبع الهدى. أما بعد:

فإني أدعوك بدعاية الإسلام. أسلم تسلم (يؤتك)[2] الله أجرك مرتين فإن توليت فإن عليك إثم القبط.

﴿يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله، فإن تولوا فقولوا: اشهدوا بأنا مسلمون﴾[3] وختم الكتاب[4]».

فخرج به حاطب[5] حتى قدم عليه الإسكندرية، وانتهى إلى حاجبه فلم (يلبث)[6] أن أوصل إليه كتاب رسول الله ﷺ، وقال حاطب للمقوقس لمّا لقيه: إنه قد كان قبلك رجل يزعم أنه الرب الأعلى[7] ﴿فأخذه الله نكال الآخرة والأولى﴾[8] فانتقم به، ثم انتقم منه، فاعتبر بغيرك ولا يعتبر بك غيرك، قال: هات، (قال)[9]: إن لنا ديناً لن ندعه إلا لما

(١) المقوقس: لقب لكل من ملك مصر والاسكندرية، والمقوقس الذي كتب إليه الرسول ﷺ اسمه جريج بن مينا كان نصرانياً وملكاً تابعاً لملك الروم (أسد الغابة: ٤/٤١٢) ط: طهران.

(٢) في ج، ص: وأسلم يؤتك.

(٣) سورة آل عمران: الآية ٦٤.

(٤) نص هذا الكتاب ذكره ابن سعد في الطبقات: ١/١٦ ــ ١٧ وذكره ابن كثير في البداية والنهاية: ٤/٢٧٢.

والكتاب موجود في متحف ثوب قابي باستانبول، كما ذكره الأستاذ محمد حميد الله ووضع صورة عنه في كتابه (الوثائق السياسية: ص ١٣٧).

(٥) هو حاطب بن أبي بلتعة اللخمي، حليف بني أسد بن عبد العزى شهد بدراً والحديبية، وفيه نزل قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين أمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء﴾، بعثه ﷺ في سنة ست من الهجرة إلى المقوقس مات سنة ثلاثين بالمدينة وصلى عليه عثمان، وهو ابن خمس وستين سنة (الاستيعاب: ١/٣١٢).

(٦) في ج، ص: يلبثه.

(٧) وهو فرعون موسى.

(٨) سورة النازعات: ص ٢٥.

(٩) في ص: قال حاطب.

هو خير منه وهو الإسلام الكافي (به الله)[1] فقد ما سواه، إن هـذا النبـي دعا النـاس فكان أشـدهم عليه (إنكـاراً)[2] قريش وأعـداهم له اليهـود، وأقربهم منـه النصـارى. ولعمـري ما بشارة موسى بعيسى إلاّ كبشارة عيسى بمحمد، وما دعاؤنا إياك إلى القرآن إلاّ كدعائـك أهل التوراة إلى الإنجيل، وكل نبـي أدرك قـوماً فهم من أمتـه، والحق عليهم أن يطيعـوه، وأنت ممن أدرك هـذا النبـي، ولسنـا ننهـاك عن دين المسيـح ولكنـا نـأمـرك بـه. فقـال المقـوقس: إني قد نـظرت في أمر هذا النبـي، فرأيتـه لا يأمـر بمزهـود فيـه ولا ينهى عن مرغوب عنه. ولم أجده بالساحر الضال، ولا الكاهن الكاذب، ووجدت معه آلـة النبوّة[3]، مـن إخراج الخبء[4] والأخبار بالنجوى، ووصف لحاطب أشياء من صفة النبـي ﷺ.

وقال: القبط لا يطاوعوني في اتباعه، ولا أحب أن تعلم بمحاورتي إيـاك، وأنا أضنّ بملكي أن أفارقه، وسيظهر على (البـلاد)[5] وينزل بسـاحتنا هـذه (أصحابـه)[6] من بعده. فارجع إلى صاحبك.

وأخذ كتاب النبـي ﷺ فجعله في حِقّ[7] من عاج وختم عليه ودفعه إلى (جاريته)[8] ثم دعا كاتباً يكتب له بالعربية فكتب:

«بسم الله الرحمن الرحيم.

لمحمـد بن عبد الله من المقـوقس عظيم القبط، سـلام عليك أمـا بعد: فقـد قرأت كتابك وفهمت ما ذكرت فيه وما تدعو إليه، وقد علمت أن نبياً بقي، وكنت أظن أنه يخـرج (من الشام)[9]، وقد أكرمتُ رسولك وبعثت إليك بجـاريتين لهما مكـان في القبط عظيم،

---

(١) في الأصل بالله.

(٢) سقطت من ج، ص.

(٣) أي دلائل النبوة.

(٤) الخبء: ما خبىء، وخبء السماء: القطر، وخبء الأرض: النبات، (مختار الصحاح) والخبء هنا بمعنى المغيبات المستورة التي أخبر بها النبـي ﷺ.

(٥) في ج: بلادي.

(٦) في الأصل: هو وأصحابه.

(٧) الحق: وعاء صغير ذو غطاء يتخذ من عاج أو زجاج وغيرهما (المعجم الوسيط).

(٨) في ج، ص: جارية له.

(٩) في ج، ص: بالشام.

وبكسوة، وأهديت إليك بغلة لتركبها والسلام عليك» (ولم يرده إلا مكرماً)[1] والجاريتان: مارية[2] وسيرين[3] والبغلة: دلول، وبقيت إلى زمن معاوية.

قال حاطب: فذكرت قوله لرسول الله ﷺ فقال: ضنّ الخبيث بملكه ولا بقاء لملكه[4].

[كتاب رسول الله ﷺ لابني الجلندي]

(فصل): وكذلك ابنا الجلندي[5]، ملكا عُمان[6] وما حولها من ملوك النصارى، أسلما طوعاً واختياراً، ونحن نذكر قصتهما وكتاب رسول الله ﷺ، وهذا لفظه:

«بسم الله الرحمن الرحيم.

من محمد بن عبد الله إلى (جيفر)[7] وعبد ابني الجلندي.

سلام على من اتبع الهدى.

أما بعد: فإني أدعوكما بدعاية الإسلام، أسلما تسلما، فإني رسول الله إلى الناس كافة، لأنذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين، وإنكما إن أقررتما بالإسلام وليتكما[8]، وإن أبيتما أن تقرّا بالإسلام (فإن)[9] ملككما زائل، وخيلي تحل بساحتكما،

---

(١) سقطت من ث، وفي ج: ولم يزد.

(٢) مارية: تعرف بمارية القبطية، تزوجها رسول الله ﷺ وأنجب منها ولده إبراهيم، فقال: أعتقها ولدها، ماتت سنة ١٦هـ (الأعلام: ٥/٢٥٥).

(٣) سيرين: وفي طبقات ابن سعد بالشين وهكذا في أعلام النساء، كحالة: ٢/٢٧٨.

(٤) انظر: طبقات ابن سعد: ١/١٦ ـ ١٧ والبداية والنهاية لابن كثير: ٤/٢٧٢.

(٥) أبناء الجلندي: وهما جيفر بن الجلندي اليماني، كان رئيس أهل عمان هو وأخوه عبد بن الجلندي، أسلما على يد عمرو بن العاص حين بعثه النبي ﷺ إلى ناحية عمان، ولم يقدما على النبي ﷺ ولم يرياه، وكان إسلامهما بعد خيبر (الاستيعاب: ١/٢٧٥) (مكتبة نهضة مصر ومطبعتها).

(٦) عُمان: بضم العين وتخفيف الميم: اسم كورة عربية على ساحل بحر اليمن والهند تشتمل على بلدان كثيرة ذات نخل وزروع، وأكثر أهلها في أيامنا خوارج أباضية (معجم البلدان).

(٧) في ج، ص: حيفر.

(٨) في ج: وليتكما مكانكما.

(٩) سقطت من الأصل.

وتظهر نبوتي على ملككما»[1]، وختم الكتاب[2]، وبعثه مع عمرو بن العاص.

(قال عمرو: فخرجت حتى انتهيت إلى عُمان، فلما قدمتها انتهيت إلى عبد، فكان أحلم الرجلين وأسهلهما خلقاً. قلت: إني رسول رسول الله إليك وإلى أخيك، فقال: أخي المقدم عليّ بالسن والملك، وأنا أوصلك إليه حتى يقرأ كتابك، ثم قال لي: وما تدعو إليه؟ قلت: أدعوك إلى الله وحده لا شريك له، وتخلع ما عبد من دونه وتشهد أن محمداً عبده ورسوله، قال: يا عمرو إنك سيد قومك، فكيف صنع أبوك؟ فإنّ لنا فيه قدوة قلت: مات ولم يؤمن بمحمد، ووددت أنه كان أسلم وصدق به، وكنت أنا على مثل رأيه حتى هداني الله للإسلام.

قال: فمتى تبعته؟ قلت: قريباً. فسألني، أين كان إسلامي؟ فقلت: عند النجاشي، وأخبرته أن النجاشي أسلم، فقال: كيف صنع قومه بملكه؟ قلت: أقرّوه[3] قال: والأساقفة والرهبان؟ قلت: نعم، قال: انظر يا عمرو ما تقول، إنّه ليس خصلة في رجل أفضح له من كذب، قلت: ما كذبت وما نستحله في ديننا، ثم قال: ما أرى هرقل علم بإسلام النجاشي، قلت: (قد علم)[4] قال: بأي شيء علمت؟ قلت: كان النجاشي يخرج له (خرجاً)[5]، فلما أسلم وصدق بمحمد ﷺ قال: لا والله لو سألني درهماً واحداً ما أعطيته فبلغ هرقل قوله، فقال له أخوه (بناق): أتدع عندك من لا يخرج لك خرجاً ويدين ديناً محدثاً، قال هرقل: رجل رغب في دين واختاره لنفسه، ما أصنع به؟ والله لولا

---

(١) نص الرسالة ذكره ابن سعد في الطبقات: ١/١ ــ ١٨، وفي عيون الأثر: ٢/٣٤٠، وفي زاد المعاد: ٣/ ٦٩٣، وإعلام السائلين: ص ٩٢ وذكرها الأستاذ محمد حميد الله في كتابه وقال: «رأيت عند بعض الإخوان في باريس سنة ١٤٠٠ هـ فصيلة من جريدة يومية عربية من تونس فيها تصوير أصل مكتوب النبي ﷺ إلى جيفر وعبد ابني الجلندي، ولكن لم يعرف اسم الجريدة ولا تاريخها، وعلقت الجريدة بقولها «عثر علماء الآثار على النسخة الأصلية...» جاء هذا أثناء زيارة سفير عمان لدى إيران (آنذاك) لبعض الدول العربية وقد وجد الأصل في حوزة هاوي آثار لبناني الجنسية، وقد رفض تسليم المخطوط لسعادة السفير إلاّ أنه سمح بتصويره (الوثائق السياسية، محمد حميد الله: ص ٧٦).

(٢) في زاد المعاد: وكتب أبي بن كعب وختم الكتاب (زاد المعاد: ٣/٦٩٣).

(٣) يبدو هنا تناقض مع ما سلف ذكره من أن النجاشي أسلم سراً وكتم إسلامه عن قومه.

(٤) في ج، ص: بلى.

(٥) في ج: خراجا.

الضنّ بملكي لصنعت كما صنع! قال: (بم تقول)[1] يا عمرو؟ قلت: والله لقد صدقتك، قال: فأخبرني ما الذي يأمر به وينهى عنه، قلت يأمر بطاعة الله عز وجل، وينهى عن معصيته، ويأمر بالبر، وصلة الرحم، وينهى عن الظلم والعدوان، وعن (الزنا)[2] وشرب الخمر، وعن عبادة الحجر والوثن والصليب، فقال: ما أحسن هذا الذي يدعو إليه، لو كان أخي يتابعني لركبنا حتى نؤمن بمحمد، ونصدق به، ولكن أخي أضنّ بملكه من أن يدعه ويصير ديناً[3]، قلت: إنه إن أسلم ملّكه رسول الله ﷺ على قومه، فأخذ الصدقة من غنيّهم فردّها على فقيرهم، قال: إن هذا (الخلق)[4] حسن، وما الصدقة؟ فأخبرته بما فرض رسول الله ﷺ من الصدقات في الأموال حتى انتهيت إلى الإبل، فقال: يا عمرو ويؤخذ من سوائم مواشينا التي ترعى الشجر وترد المياه؟ فقلت: نعم، قال: والله ما أرى قومي في بعد دارهم، وكثرة عددهم يطيعون بهذا، قال: فمكثت ببابه أياماً وهو يصل إلى أخيه فيخبره كل خبري، ثم إنه دعاني يوماً فدخلت عليه، فأخذ أعوانه بضبعي[5]، فقال: دعوه، فأرسلت فذهبت لأجلس فأبوا أن يدعوني أجلس، فنظرت إليه فقال: تكلم بحاجتك فدفعت إليه الكتاب مختوماً، ففضّ خاتمه فقرأه حتى انتهى إلى آخره ثم دفعه إلى أخيه، فقرأه مثل قراءته، إلا أني رأيت أخاه أرقّ منه، ثم قال: ألا تخبرني عن قريش كيف صنعت؟ فقلت: تبعوه إما راغب في الإسلام وإمّا مقهور بالسيف، فقال: ومن معه؟ قلت: الناس قد رغبوا في الإسلام واختاروه على غيره، وعرفوه بعقولهم مع هدى الله إياهم، إنهم كانوا في ضلال، فما أعلم أحداً بقي غيرك في هذه (الحرجة)[6]، وإن أنت لم تسلم اليوم وتتبعه توطئك الخيل وتبيد خضراءك، فأسلم تسلم، ويستعملك على

---

(١) في ج، ص: انظر ما تقول.

(٢) في ص: الربا.

(٣) يصير ديناً: أي يصير تابعاً.

(٤) في ص: لحق.

(٥) في الأصل يضيعي، والصحيح أنها بالباء لأن الضبع وسط العضد بلحمه يكون للإنسان وغيره، وقيل: الضبع الإبط، وقيل: ما بين الإبط إلى نصف العضد من أعلاه، تقول: أخذ بضبعيه أي بعضديه (لسان العرب).

(٦) في ج: الخرجة، والصحيح بالحاء، لأن الحرجة من الحرج وهو أضيق الضيق والحرج: الذي يهاب أن يتقدم على الأمر، والحرجة الغيضة لضيقها وفي الحديث: حتى تركوه في حرجة (لسان العرب).

قومك، (ولا تدخل)[1] عليك الخيل والرجال، قال: دعني يومي هذا، وارجع إليّ غداً، فرجعت إلى أخيه، فقال: يا عمرو، إني لأرجو أن يسلم إن لم يضنّ بملكه، حتى إذا كان الغد أتيت إليه فأبى أن يأذن لي، فانصرفت إلى أخيه فأخبرته أني لم أصل إليه فأوصلني إليه، فقال: إني (فكرت)[2] فيما دعوتني إليه فإذا أنا (ضعيف)[3] العرب إن ملكت رجلاً ما في يدي وهو لا تبلغ خيله هاهنا، وإن بلغت خيله ألفت (رجالاً)[4] وقتالاً (ليس كمن لاقى في القتال)[5]. قلت: وأنا خارج غداً. فلما أيقن (بمخرجي)[6] خلا به أخوه، فقال: ما نحن فيما قد ظهر عليه، وكل من أرسل إليه قد أجابه.

فأصبح فأرسل إلي فأجاب (بالإسلام)[7] هو وأخوه جميعاً، وصدّقا النبي ﷺ، وخلّيا بيني وبين الصدقة وبين الحكم فيما بينهم، وكانا لي عوناً على من خالفني)[8].

[كتاب رسول الله ﷺ إلى صاحب اليمامة]

(**فصل**): وكتب النبي ﷺ إلى هوذة بن علي الحنفي[9] صاحب اليمامة[10]:

«بسم الله الرحمن الرحيم.

---

(١) في ص: وندخل.
(٢) في ص: ذكرت.
(٣) في ج، ص: أصعف.
(٤) سقطت من ج، ص.
(٥) في ج، ص: ليس كقتال من لاقى.
(٦) في ص: بخروجي.
(٧) في ص: إلى الإسلام.
(٨) والقصة في طبقات ابن سعد: ١/١ ــ ١٨، وفي زاد المعاد: ص ٦٩٣ ــ ٦٩٥ وفي عيون الأثر: ٢/٣٤٠ ــ ٣٤٢، وإعلام السائلين: ص ٩٣ ــ ٩٦، والسيرة الحلبية: ٢٥٣/٣، وسيرة زيني دحلان على هامش الحلبية: ٣/٧٥.
(٩) هوذة بن علي الحنفي وفي النسخ هودة بالدال والصحيح بالذال، وهو هوذة بن علي بن ثمامة بن عمرو الحنفي من بني حنيفة، صاحب اليمامة بنجد وشاعر بني حنيفة وخطيبها قبيل الإسلام وفي العهد النبوي وهو من أهل قران أفصح بني حنيفة (الإعلام: ٨/١٠٢).
(١٠) اليمامة: منطقة في نجد بينها وبين البحرين عشرة أيام، فتحت في حروب الردة حيث دخلها خالد بن الوليد عنوة سنة ١٢هـ (معجم البلدان: ٢/٤٤٢).

من محمد رسول الله إلى هوذة بن علي.

سلام على من اتبع الهدى.

واعلم أن ديني سيظهر إلى منتهى الخف والحافر، فأسلم تسلم، (وأجعل)[1] لك ما تحت يدك»[2].

وكان عنده أركون[3] دمشق ــ عظيم من عظماء النصارى ــ فسأله عن النبي ﷺ وقال: قد جاءني كتابه يدعوني إلى الإسلام، فقال الأركون: لم لا تجبه؟ فقال: ضننت بديني وأنا ملك قومي، إن تبعته لم (أتملك)[4]، قال: بلى، (لئن)[5] اتبعته ليملكنك، وإن الخيرة لك في اتباعه، (والله)[6] (إنه)[7] للنبي العربي (الذي)[8] بشر به عيسى ابن مريم، (وإنه)[9] لمكتوب عندنا في الإنجيل[10].

[كتاب رسول الله ﷺ إلى الحارث بن أبي شمر]

(فصل): وذكر الواقدي أن رسول الله ﷺ بعث شجاع بن وهب[11] إلى الحارث بن

---

(١) في ج: أجعل.

(٢) نص الكتاب ذكره ابن سعد في الطبقات: ١/١ ــ ١٨، وذكره ابن القيم في زاد المعاد: ٣/٦٩٦ وذكره ابن سيد الناس في عيون الأثر: ٢/٣٤٢ وأعلام السائلين: ص ١٠٥، ١٠٦ والوثائق السياسية: ص ١٥٦ ومكاتيب الرسول، أحمد حسين علي: ص ١٣٦.

(٣) الأركون: رئيس القرية (المعجم الوسيط) ويقال: إن أركون دمشق هذا أسلم على يدي خالد بن الوليد في عهد أبي بكر (انظر: شرح المواهب اللدنية: ٣/٣٥٦).

(٤) في ج، ص: لم أملك.

(٥) في ج، ص: والله لئن.

(٦) سقطت من ج، ص.

(٧) سقطت من الأصل.

(٨) سقطت من ج.

(٩) في ج: والله إنه.

(١٠) القصة في: طبقات ابن سعد١/١ ــ ١٨ وفي زاد المعاد: ٣/٦٩٦ ــ ٦٩٧.

(١١) شجاع بن وهب: هو أبو وهب شجاع بن وهب ويقال ابن أبي وهب بن دبيعة بن أسد بن صهيب بن مالك بن خزيمة الأسدي، ذكره ابن إسحق في السابقين الأولين وفيمن هاجر إلى الحبشة وفيمن شهد بدراً، استشهد باليمامة (الإصابة: ٣/٢١٦ ــ ٢١٧).

أبـي شمر[1] وهو بغوطة دمشق، فكتب إليه بمرجعه من الحديبية:

«بسم الله الرحمن الرحيم.

من محمد رسول الله إلى الحارث بن أبـي شمر.

سلام على من اتبع الهدى وآمن به وصدّق.

فـإني أدعوك (أن)[2] تؤمن بـالله وحده لا شـريـك لـه. يبقى لـك ملكـك[3]» وختم الكتاب.

فخرج (به)[4] شجاع بن وهب[5]. قال: فانتهيت إلى حاجبه (فأخذه)[6] يومئـذٍ وهو مشغـول (بتهيئة الأنـزال)[7] والألـطاف لقيصـر وهـو جـاء من حمص إلى إيليـاء[8]، حيث كشف الله عنه جنود فارس، شكراً لله عـز وجل، قـال: فأقمت على بـابه يـومين أو ثلاثـاً، فقلت لحاجبه: إني (رسول)[9] رسول الله إليه، فقال حاجبه ــ وكان رومياً اسمـه مري ــ: لا تصل إليه حتى يخرج يوم كذا وكذا، وجعل صاحبه يسألني عن رسول الله ﷺ وما يـدعو إليه، فكنت أحدثه فيرق حتى يغلبـه البكاء، ويقـول: إني قرأت في الإنجيـل وأجد صفـة هذا النبـي بعينه، فكنت أراه يخرج من الشام. فأراه قد خرج بأرض القرظ[10] فأنا أؤمن به وأصدقه، وأنا أخاف من الحارث بن (أبي)[11] شمر أن يقتلني.

---

(١) الحارث بن أبـي شمر: من أمراء غسان في أطراف الشام، كانت إقامته بغوطـة دمشق عام فتـح مكة (الأعلام: ٢/١٥٥).

(٢) في ج، ص: إلى أن.

(٣) نص الرسالة في طبقات ابن سعـد: ١/١ ــ ١٧ وفي زاد المعاد: ٦٩٧/٣، وعيـون الأثر: ٣٤٢/٢ والوثائق السياسية: ص ١٢٦ والسيرة الحلبية: ٢٥٥/٣ وسيرة زيني دحلان: ٧٨/٣.

(٤) سقطت من الأصل.

(٥) زاد في ص: إلى الحارث بن أبـي شمر.

(٦) سقطت من الأصل.

(٧) في ج: بتهنئة الأتراك.

(٨) ايليا: وهي بيت المقدس.

(٩) سقطت من ج.

(١٠) أرض القرظ: كناية عن أرض العرب، والقرظ شجر يدبغ به، وقيل: هو ما يـدبغ بـه الأدم ومنه أديم مقروظ، قال أبو حنيفة: القرظ أجود ما يدبغ به الأهب في أرض العرب (لسان العرب).

(١١) سقطت من الأصل.

قال شجاع: وكان هذا الحاجب يكرمني ويحسن ضيافتي ويخبرني عن الحارث ما (بالناس)[1] منه. ويقول: هو يخاف قيصر. قال: فخرج الحارث يوماً وجلس فوضع التاج على رأسه، فأذن لي عليه، فدفعت إليه كتاب رسول الله ﷺ، فقرأه وقال: من ينتزع مني ملكي؟ أنا سائر إليه ولو كان باليمن جئته عليّ بالناس، فلم يزل جالساً يعرض حتى الليل وأمر بالخيل (أن تنعل)[2]، ثم قال: أخبر صاحبك ما ترى. وكتب إلى قيصر يخبره بخبري، فصادف قيصر بإيليا، وعنده دحية الكلبي قد بعثه إليه رسول الله ﷺ، فلما قرأ قيصر كتاب الحارث كتب إليه أن لا تسر إليه وآلْهَ عنه ووافني بإيليا، قال: ورجع الكتاب وأنا مقيم، فدعاني وقال: متى تريد (أن)[3] تخرج إلى صاحبك؟ قلت: غداً، (فأمر لي)[4] بمائة مثقال (ذهباً)[5]، ووصلني (مري) الحاجب بنفقة وكسوة، وقال: اقرأ على رسول الله ﷺ مني السلام، وأخبره أني متبع دينه.

قال شجاع: فقدمت على النبي ﷺ فأخبرته فقال: باد ملكه. وأقرأته من (مري) السلام وأخبرته بما قال، فقال رسول الله ﷺ: صدق»[6].

[موقف جمهور الناس من دعوة محمد ﷺ]

(فصل): ونحن إنما ذكرنا بعض ملوك الطوائف الذين آمنوا به، وأكابر علمائهم وعظمائهم، ولا يمكننا حصر من عداهم، وهم جمهور أهل الأرض، ولم يتخلف عن متابعته إلّا الأقلون، وهم إما مسالم له قد رضي بالذلة والجزية والهوان، وإما خائف منه.

فأهل الأرض معه ثلاثة أقسام: مسلمون (له)[7] ومسالمون له وخائفون منه.

---

(١) في الأصل: بالناس.

(٢) في ص: بأن تجد، وتنعل من نعل وانتعل أي لبس النعل، وتنعيلك حافر البرذون بطبق من حديد تقيه الحجارة، وخف البعير بالجلد لئلا يحفى (لسان العرب).

(٣) سقطت من الأصل.

(٤) في ص: فأمرني.

(٥) في الأصل: ذهب بالرفع وهو خطأ.

(٦) القصة في: طبقات ابن سعد ١/١٧ ــ ١٨ وعيون الأثر: ٢/٣٤٣.
وأعلام السائلين: ص ١٠٣ ــ ١٠٤ والسيرة الحلبية: ٣/٣٥٥ ــ ٣٥٦ وسيرة زيني دحلان: ٣/٧٨ ــ ٨٠.

(٧) سقطت من ص.

[موقف علماء اليهود من دعوة محمد ﷺ]

ولو لم يسلم من اليهود (في زمنه)[1] إلا سيدهم (على الإطلاق)[2] وابن سيدهم وعالمهم وابن عالمهم باعترافهم له بذلك وشهادتهم (وهو)[3] عبد الله بن سلام؛ لكان في مقابلة كل يهودي على وجه الأرض، فكيف وقد تابعه على الإسلام من الأحبار والرهبان من لا يحصي عددهم إلا الله.

[إسلام عبد الله بن سلام سيد اليهود]

ونحن نذكر قصة عبد الله بن سلام.

فروى البخاري في صحيحه من (حديث)[4] عبد العزيز بن صهيب عن أنس بن مالك رضي الله عنهم قال: أقبل رسول الله ﷺ إلى المدينة، (فقيل)[5]: جاء نبي الله فاستشرفوا ينظرون، إذ سمع به عبد الله بن سلام وهو في نخل لأهله يخترف[6] لهم منه، فعجل أن يضع الذي يخترف لهم فيها، فجاء وهي معه، فسمع من نبي الله ﷺ، ثم رجع إلى أهله. فلما خلا نبي الله ﷺ جاء عبد الله بن سلام فقال: أشهد أنك نبي الله حقاً، وأنك جئت بالحق، ولقد علمت اليهود أني سيدهم وابن سيدهم وأعلمهم وابن أعلمهم، فادعهم واسألهم عني قبل أن يعلموا أني قد أسلمت؛ فإنهم إن يعلموا أني قد أسلمت، قالوا فيّ ما ليس فيّ.

فأرسل نبي الله ﷺ إليهم فدخلوا عليه، فقال لهم نبي الله ﷺ: يا معشر اليهود، ويلكم: اتقوا الله، فوالله الذي لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أني رسول[7] حقاً، وأني جئتكم بحق، أسلموا.

---

(١) في الأصل من زمنه، وسقطت من ص.

(٢) سقطت من الأصل.

(٣) سقطت من الأصل وج.

(٤) في ص: طريق.

(٥) في ج، ص: فقالوا.

(٦) يخترف: أي يجتني من الثمار (فتح الباري: ٢٥٢/٧) وفي الأصل يخترق بالقاف وهو خطأ.

(٧) في ج، ص: رسول الله.

فقالوا: ما نعلمه، فأعادها (عليهم)[١] ثلاثاً وهم يجيبونه كذلك.

قال: فأي رجل فيكم عبد الله بن سلام؟ قالوا: ذاك سيدنا وابن سيدنا وأعلمنا وابن أعلمنا، قال: أفرأيتم إن أسلم؟ قالوا: حاش لله ما كان أن يسلم! فقال (النبي ﷺ)[٢]: يا ابن سلام اخرج إليهم[٣]، فخرج عليهم، فقال: يا معشر اليهود، ويلكم! اتقوا الله فوالله الذي لا إله إلاّ هو إنكم لتعلمون أنه رسول الله ﷺ حقاً، وأنه جاء بالحق، فقالوا كذبت، فأخرجهم النبي ﷺ[٤].

وفي صحيح البخاري أيضاً من حديث حميد عن أنس قال: سمع عبد الله بن سلام بقدوم رسول الله ﷺ وهو في أرض له فأتى النبي ﷺ فقال: إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي، ما أول أشراط الساعة؟ وما أول طعام أهل الجنة؟ وما ينزع الولد إلى أبيه أو إلى أمه؟ قال: أخبرني بهن جبريل آنفاً (قال: جبريل؟)[٥] قال: نعم[٦]، (قال)[٧]: ذلك عدو اليهود من الملائكة. (قال)[٨]: ثم قرأ هذه الآية: ﴿من كان عدواً لجبريل فإنه نزّله على قلبك بإذن الله﴾[٩].

(ثم قال)[١٠]: أمّا أول أشراط الساعة فنار تخرج على الناس من المشرق إلى المغرب، وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد الحوت، وإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة (نزع، وإذا سبق ماء المرأة ماء الرجل)[١١] نزعت. فقال: أشهد أن لا إله إلا الله

---

(١) سقطت من الأصل.
(٢) سقطت من ج، ص.
(٣) في ج، ص: عليهم.
(٤) صحيح البخاري: (كتاب ٦٣، باب ٤٥، رقم الحديث ٣٩١١).
(٥) ليست في الأصل.
(٦) ليست في صحيح البخاري.
(٧) عند البخاري: قال ابن سلام.
(٨) سقطت من الأصل.
(٩) سورة البقرة: الآية ٩٧ والآية ليست عند البخاري.
(١٠) سقطت من ج، ص.
(١١) سقطت من الأصل، ج وهي هكذا عند البخاري.

وأشهد أنك رسول الله، وأن اليهود قوم بهت وإنهم إن يعلموا بإسلامي قبل أن تسألهم عني بهتوني.

فجاءت اليهود إليه فقال: أي رجل فيكم عبد الله (بن سلام)[1]؟ قالوا: خيرنا وابن خيرنا وسيدنا وابن سيدنا، قال: أرأيتم إن أسلم عبد الله بن سلام؟ قالوا: أعاذه الله من ذلك، فخرج عبد الله (بن سلام)[2] فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله.

قالوا: شرّنا وابن شرّنا وانتقصوه، قال: هذا الذي كنت أخاف يا رسول الله[3].

وقال ابن إسحق: حدثني عبد الله بن أبي بكر عن يحيى بن عبد الله عن رجل من آل عبد الله بن سلام قال: كان من حديث عبد الله بن سلام حين أسلم وكان (حبراً)[4] عالماً، قال: سمعت رسول الله ﷺ، وعرفت صفته واسمه، وهيأته، والذي كنا نتوكف له، فكنت مسرّاً لذلك صامتاً عليه، حتى قدم رسول الله ﷺ المدينة، فلما قدم نزل معنا في بني عمرو بن عوف، فأقبل رجل حتى أخبر بقدومه، وأنا في رأس نخل لي أعمل فيها وعمتي خالدة بنت الحارث[5] تحتي جالسة، فلما سمعت الخبر بقدوم رسول الله ﷺ كبّرت فقالت لي عمتي حين سمعت تكبيري: لو كنت سمعت بموسى بن عمران ما زاد ــ يعني إن فعلت ــ.

قال: قلت لها: (يا عمتي)[6] هو والله أخو موسى بن عمران، وعلى دينه بعث بما بعث به. فقالت: يا ابن أخي، أهو النبيّ الذي كنا نبشّر به أنه يبعث مع نفس الساعة[7]؟ قال: قلت لها: نعم، قالت: فذاك إذاً.

---

(١) سقطت في ص.

(٢) سقطت من الأصل.

(٣) صحيح البخاري: ٣٩٣٨/٥١/٦٣.

(٤) في ج: خيرا.

(٥) خالدة بنت الحارث، خالدة أو خلدة بنت الحارث عمة عبد الله بن سلام ذكر ابن إسحاق أنها أسلمت وحسن إسلامها (انظر: أسد الغابة: ٤٣٣/٥ دار إحياء التراث العربي، بيروت).

(٦) في ج،ص: أي عمّة.

(٧) قال السهيلي: هذا الكلام في معنى قوله عليه السلام: أني لأجد نفس الساعة بين كتفي، وفي معنى =

قال: ثم خرجت إلى رسول الله ﷺ فأسلمت ثم رجعت إلى أهل بيتي فأمرتهم فأسلموا، وكتمت إسلامي من اليهود، ثم جئت رسول (الله) فقلت: إن اليهود قوم بهت وإني أحب أن تدخلني (في)[1] بعض بيوتك تغيبني (عنهم)[2] ثم تسألهم عني، كيف أنا فيهم قبل أن يعلموا بإسلامي؟ فإنهم إن علموا (بإسلامي)[3] بهتوني وعابوني، قال: فأدخلني بعض بيوته فدخلوا عليه وكلموه وسألوه، فقال لهم: وأي رجل عبد الله بن سلام؟ قالوا: سيدنا وابن سيدنا (وحبرنا)[4] وعالمنا، قال: فلما فرغوا من قولهم خرجت عليهم فقلت (لهم)[5]: يا معشر اليهود اتقوا الله، واقبلوا ما جاءكم به. فوالله إنكم تعلمون أنه رسول الله، تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة اسمه وصفته، فإني أشهد أنه رسول الله، وأومن به وأصدقه وأعرفه، قالوا: كذبت، ثم وقعوا (فيّ)[6]. فقلت: يا رسول الله ألم أخبرك أنهم قوم بهت، أهل غدر وكذب وفجور؟ قال: فأظهرت إسلامي وإسلام أهل بيتي، وأسلمت عمتي ابنة الحارث فحسن إسلامها[7].

وفي مسند الإمام أحمد وغيره عنه قال: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة (وانجفل[8] الناس قبله)[9] فقالوا: قدم رسول الله ﷺ قال: فجئت في الناس لأنظر إلى وجهه، (فلما

= قوله: نذير لكم بين يدي عذاب شديد، ومن كان بين يدي طالبه فنفس الطالب بين كتفيه، وكأن النفس في هذا الحديث عبارة عن الفتن المؤذنة بقيام الساعة، وكان بدؤها حين ولي أمته ظهره خارجاً إلى الله تعالى، فكانت بعده الفتن ثم الهزج المتصل بيوم القيامة، ونحو من هذا قوله عليه السلام: بعثت أنا والساعة كهاتين يعني السبّابة والوسطى (الروض الأنف: ٢/ ٢٩٥).

(١) سقطت من ص.

(٢) في ص: فيه عنهم.

(٣) في ج: بذلك، وفي ص: بإسلامي بذلك.

(٤) في ص: وخبرنا.

(٥) سقطت من الأصل.

(٦) في الأصل بي.

(٧) السيرة النبوية، ابن هشام: ٢/١٣٨ ــ ١٣٩.

(٨) في ص: وانحفل بالحاء، والصحيح بالجيم.
وانجفل من انجفل القوم انجفالاً إذا هربوا بسرعة، وانقطعوا كلهم ومضوا. وانجفل الناس قبله أي مضوا مسرعين نحوه (لسان العرب).

(٩) في المسند: وانجفل الناس عليه وكنت فيمن انجفل.

رأيت وجهه)[1] عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب، فكان أول شيء سمعته منه أن قال: «(أيها)[2] الناس أطعموا الطعام وأفشوا السلام، وصلوا الأرحام وصلّوا (بالليل)[3] والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام»[4].

فعلماء القوم وأحبارهم كلهم كانوا كما قال الله تعالى: ﴿الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم﴾[5] فمنهم من آثر الله ورسوله والدار الآخرة، ومنهم من آثر الدنيا وأطاع داعي الحسد والكبر.

وفي مغازي موسى بن عقبة[6] عن الزهري قال: كان بالمدينة ـ مقدم رسول الله ﷺ ـ أوثان (يعبدها)[7] رجال من أهل المدينة لا يتركونها، فأقبل عليهم قومهم وعلى تلك الأوثان فهدموها، وعمد أبو ياسر (بن) أخطب أخو (حُيَيّ)[8] بن أخطب، وهو أبو صفية ـ زوج النبي ﷺ ـ فجلس إلى النبي ﷺ (يسمع)[9] منه، وحادثه ثم رجع إلى قومه، وذلك قبل أن تصرف القبلة نحو المسجد الحرام، فقال أبو ياسر: يا قوم أطيعوني، فإن الله عز وجل قد جاءكم بالذي (كنتم تنتظرونه)[10] فاتبعوه ولا تخالفوه، فانطلق أخوه حيي حين سمع ذلك وهو سيد اليهود يومئذٍ، وهما من بني النضير فأتى النبي ﷺ فجلس إليه وسمع منه، فرجع إلى قومه وكان فيهم مطاعاً فقال: أتيت من عند رجل والله لا أزال له عدواً (أبداً)[11] فقال له أخوه أبو ياسر: يا ابن أم أطعني في هذا الأمر، ثم اعصني فيما

---

(١) في المسند: فلما تبينت وجهه، وفي ب، ج، ص: فلما أن.
(٢) في ب، ج، ص: يا أيها.
(٣) سقطت من ب، ج، ص.
(٤) مسند الإمام أحمد: ٤٥١/٥.
(٥) سورة البقرة: الآية ١٤٦.
(٦) موسى بن عقبة بن أبي عيّاش الأسدي بالولاء، أو محمد مولى آل الزبير، عالم بالسيرة النبوية، من ثقات رجال الحديث، من أهل المدينة، مولده ووفاته فيها، له كتاب المغازي، توفي سنة ١٤١هـ (الأعلام، الزركلي: ١٥٨/٣).
(٧) في الأصل: يعبد، وفي ص، ج: تعبدها.
(٨) في الأصل: يحيى، والصحيح حيي بن أخطب. وهي هكذا في ب، ج، ص.
(٩) في ب، ج: فسمع، وفي ص: وعلم فسمع.
(١٠) سقطت كنتم، من ب، وفي ج، ص: بالذي كنتم تنتظرون.
(١١) سقطت من الأصل.

شئت بعده لا تهلك، قال: لا والله لا أطيعك، واستحوذ عليه الشيطان فاتبعه قومه على رأيه.

وذكر ابن إسحق عن عبد الله بن أبي بكر عمن حدثه عن صفيّة بنت حييّ أنها قالت: لم يكن من ولد أبي وعمي أحد أحب إليهما مني، لم ألقهما في ولد قط إلا أخذاني دونه، فلما قدم رسول الله ﷺ قباء، نزل في بني عمرو بن عوف (فغدا)[1] إليه أبي وعمي أبو ياسر بن أخطب مغلسين[2]، فوالله ما جاءا إلا مع مغيب الشمس، فجاءا فاترين (كسلين)[3] ساقطين يمشيان الهوينا، فهششت إليهما كما كنت أصنع، فوالله ما نظر إليّ واحد منهما، فسمعت عمي أبا ياسر يقول لأبي: أهو هو؟ قال: نعم والله، قال: تعرفه بنعته وصفته؟ قال: نعم والله، قال: فماذا في نفسك منه؟ قال: عداوته والله ما بقيت[4]. قال ابن إسحق: وحدثني محمد بن (أبي محمد)[5] مولى زيد بن ثابت عن سعيد بن جبير وعكرمة عن ابن عباس قال: لما أسلم عبد الله بن سلام وثعلبة بن (سعية)[6] (وأسد بن سعية)[7] وأسيد بن عبيد، ومن أسلم من يهود فآمنوا وصدقوا ورغبوا في الإسلام، قال من كفر من اليهود: ما آمن بمحمد ولا اتبعه إلا شرارنا، ولو كانوا من خيارنا ما تركوا دين آبائهم وذهبوا إلى غيره. فأنزل الله عز وجل (في ذلك)[8]: ﴿ليسوا سواء، من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون، يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين﴾[9].

***

---

(١) في ج: فعدا.

(٢) مغلسين: أي ساروا إليه في الغلس وهو أول النهار قبل انتهاء الظلام.

(٣) في ص: كسيلين.

(٤) السيرة النبوية، ابن هشام: ٢/١٦٥ ـ ١٦٦.

(٥) في ب، ج: محمد.

(٦) في ب: شعبة، وفي ج: شعية، وفي الأصل، سعيد.

(٧) سقطت من الأصل.

(٨) سقطت من الأصل.

(٩) سورة آل عمران: الآيتان ١١٣، ١١٤، وانظر سيرة ابن هشام: ٢/١٤٧.

المسألة الثالثة

(فصل): قال السائل: مشهور عندكم في الكتاب والسنة أن نبيكم كان مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل لكنهم محوه عنهما لسبب الرئاسة والمأكلة فالعقل يستشكل ذلك، (أفكلهم)[1] اتفقوا على محو اسمه من الكتب المنزلة من ربهم شرقاً وغرباً وجنوباً وشمالاً؟! هذا أمر يستشكله العقل أعظم من نفيهم بألسنتهم، لأنه يمكن الرجوع عما قالوا بألسنتهم والرجوع عما محوا أبعد.

(والجواب)[2]: أن هذا السؤال مبني على فهم فاسد، وهو أن المسلمين يعتقدون (أن اسم النبي ﷺ الصريح وهو محمد بالعربية مذكور في التوراة والإنجيل، وهما الكتابان المتضمنان الشريعتين، وأن المسلمين يعتقدون)[3] أن اليهود والنصارى في جميع أقطار الأرض محوا ذلك الاسم وأسقطوه جملة (واحدة)[4] من (الكنائس)[5]، وتواصوا بذلك بعداً وقرباً وشرقاً وغرباً، وهذا لم يقله عالم من علماء المسلمين، ولا أخبر الله سبحانه وتعالى به في كتابه عنهم، ولا رسوله، ولا بكتهم به يوماً من الدهر، ولا قاله أحد من الصحابة ولا الأئمة بعدهم، ولا علماء التفسير، ولا المعتنون بأخبار الأمم وتواريخهم، وإن قدّر أنه قاله بعض عوام المسلمين يقصد به نصر الرسول، فقد قيل يضر الصديق الجاهل أكثر ما يضر العدو العاقل، وإنما أتى هؤلاء من قلة فهم القرآن، وظنوا أن قوله تعالى: ﴿الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة

---

(١) في الأصل: إذا كلهم.
(٢) في ص: والجواب عن ذلك.
(٣) سقطت من الأصل وص، ج.
(٤) سقطت من ب، ج، ص.
(٥) في ب، ج، ص: من الكتابين.

والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر﴾[1] دل على الاسم الخاص بالعربية في التوراة والإنجيل المخصوصين، وإن ذلك لم يوجد البتّة[2] ، فهذه ثلاث مقامات[3]:

(الأول)[4]: (أن الرب)[5] سبحانه إنما أخبر عن كون رسوله مكتوباً عندهم، أي الإخبار عنه وصفته ومخرجه ونعته، ولم يخبر بأن صريح (الاسم)[6] العربي مذكور عندهم في التوراة والإنجيل، وهذا (واقع)[7] في الكتابين كما سنذكر ألفاظهما إن شاء الله تعالى، وهذا أبلغ من ذكره بمجرّد اسمه فإن الاشتراك قد يقع في الاسم فلا يحصل التعريف والتمييز، ولا يشاء أحد (يسمى)[8] بهذا الإسلام أن يدعي أنه هو إلا فعل، (إذاً)[9] الحوالة إنما وقعت على مجرد الاسم، وهذا لا يحصل به بيان ولا تعريف ولا هدى، بخلاف ذكره بنعته وصفته وعلاماته ودعوته وصفة أمته ووقت مخرجه ونحو ذلك، فإن هذا يعينه ويميزه ويحصر نوعه في شخصه، وهذا القدر مذكور في التوراة والإنجيل وغيرها من النبوات، التي بأيدي أهل الكتاب كما سنذكرها، ويدل عليه وجوه[10]:

الوجه الأول: أن رسول الله ﷺ كان أحرص الناس على تصديقه واتباعه وإقامة الحجة على من خالفه وجحد نبوته، ولا سيما أهل العلم والكتاب، فإن الاستدلال عليهم

---

(١) سورة الأعراف: الآية ١٥٧.

(٢) آيات التوراة ذكرت أوصاف رسول الله ﷺ وأوصاف أمته كما في سفر التثنية: ص ١٨ (وأجعل كلامي في فمه) إشارة إلى كونه أمياً. وكذلك في قوله «فليقيم لك الرب إلهك نبياً من وسطك من إخوتك مثلي... إلخ». أما في الإنجيل فقد ورد اسمه عليه السلام صريحاً، ولا زال في إنجيل برنابا في مواضع متعددة، أما في الأناجيل الأخرى فقد حذف اسمه بالتحريف، وبقيت أوصافه في ثنايا الأناجيل المحرفة، كالفارقليط.

(٣) لم يذكر المؤلف غير مقام واحد.

(٤) في ب، ج: المقام الأول وفي ص: أما المقام الأول.

(٥) في ب، ج، ص: فالرب.

(٦) في ب، ج، ص: اسمه.

(٧) في الأصل: وقع.

(٨) في الأصل: تسمى.

(٩) في ب، ج: ان.

(١٠) لم يذكر المؤلف إلا الوجه الأول.

بما يعلمون بطلانه قطعاً لا يفعله عاقل، وهو بمنزلة من يقول لرجل: علامة صدقي أنك فلان بن فلان (وصفتك)[1] كيت وكيت، وتعرف (كيت)[2] وكيت، ولم يكن الأمر كذلك بل بضده، فهذا لا يصدر ممن له مسكة عقل ولا يصدقه أحد على ذلك ولا يتبعه (أحد)[3]، بل ينفر العقلاء كلهم عن تصديقه واتباعه، والعادة تحيل سكوتهم عن الطعن عليه والرد والتهجين لقوله.

ومن المعلوم بالضرورة أن محمداً بن عبد الله ﷺ (وزاده الله شرفاً وصلاة وسلاماً)[4] نادى معلناً في هاتين الأمتين اللتين هما أعلم الأمم في الأرض قبل مبعثه بأن ذكره ونعته وصفته بعينه عندهم في كتبهم، وهو يتلو عليهم ذلك ليلاً ونهاراً سراً وجهاراً في كل مجمع، وكل ناد، يدعوهم (لذلك)[5] (يعني)[6] إلى تصديقه والإيمان به، فمنهم من يصدقه ويؤمن به، ويخبر بما في كتبهم من نعته وصفته وذكره، كما سيمر بك إن شاء الله تعالى.

وغاية المكذب الجاحد أن يقول هذا (الوصف)[7] حق، ولكن لست أنت المراد به بل نبيّ آخر، وهذا غاية ما يمكنه من المكابرة، ولم (تجن)[8] عنه هذه المكابرة (إلا كشف)[9] عورته وإبداء الفضيحة بالكذب والبهتان. فإن الصفات والنعوت والعلامات المذكورة عندهم منطبقة عليه حذو القذة بالقذة[10]، بحيث لا يشك من عرفها ورآه أنه هو

---

(١) في ب، ج، ص: وصنعتك.
(٢) في ب، ج: بكيت.
(٣) في ب، ج: أحد على ذلك.
(٤) لم ترد في بقية النسخ.
(٥) في ب، ج، ص: بذلك.
(٦) في الأصل فقط.
(٧) في ص: النعت، وفي ب، ج: النعت والوصف.
(٨) في ب، ص: تجد.
(٩) في ب، ج، ص: إلا كشفه.
(١٠) حذو القذة بالقذة: من حذا النعل حذواً قدرها وقطعها وحذوت النعل بالنعل والقذة بالقذة: قدرتهما عليهما (لسان العرب).

كما عرفه (سلمان وكما عرفه هرقل)[1] بتلك العلامات المذكورة التي سأل عنها أبا سفيان وطابقت ما عنده، فقال: إن يكن ما تقوله حقاً فإنه نبي وسيملك ما تحت قدمي هاتين.

وكذلك من قدمنا ذكرهم من الأحبار والرهبان الذين عرفوه بنعته وصفته كما يعرفون أبناءهم، (قال تعالى)[2]: ﴿الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون﴾[3].

وقال في موضع آخر: ﴿الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون﴾[4].

ومعلوم أن هذه المعرفة إنما هي بالنعت والصفة المكتوبة عندهم التي هي منطبقة عليه كما قال بعض المؤمنين منهم: والله لأحدنا أعرف به من ابنه، إن أحدنا ليخرج من عند امرأته وما (يدري)[5] (ما يحدث بعده)[6].

ولهذا أثنى سبحانه وتعالى على من عرف الحق منهم ولم يستكبر عن اتباعه فقال: ﴿لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا: إنا نصارى، ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً، وأنهم لا يستكبرون، وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق، يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين. وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق، ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين. فأثابهم الله بما قالوا جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء المحسنين. والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم﴾[7].

---

(١) في ب، ج: قيصر وسلمان وفي ص: سلمان بتلك العلامات التي كانت عنده من بعض علامته وكذلك هرقل عرفه بنبوته بما وصف له.

(٢) في ص: كما قال الله تعالى.

(٣) سورة البقرة: الآية ١٤٦.

(٤) سورة الأنعام: الآية ٢٠

(٥) في الأصل: ندرى.

(٦) من القائلين بذلك عبد الله بن سلام، فقد روي أن عمر سأله: أتعرف محمداً كما تعرف ابنك؟ فقال: نعم وأكثر؛ بعث الله أمينه في سمائه إلى أمينه في أرضه فعرفته وابني لا أدري ما كان من أمه (انظر: تفسير القرطبي: ٢/١٦٣).

(٧) سورة المائدة: الآيات ٨٢ ــ ٨٦.

قال ابن عباس: لما حضر أصحاب النبي ﷺ بين يدي النجاشي وقرأوا القرآن سمع ذلك القسيسون والرهبان، فانحدرت دموعهم مما عرفوا من الحق، فقال الله تعالى: ﴿ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون﴾[1]. وقال سعيد بن جبير: بعث النجاشي من خيار أصحابه ثمانين رجلاً إلى رسول الله ﷺ، فقرأ عليهم القرآن فبكوا ورقوا، وقالوا نعرف والله (أنه الحق)[2]، فأسلموا وذهبوا إلى النجاشي فأخبروه فأسلم، فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول﴾ الآيات[3]. وقال السدّي: (كانوا)[4] اثني عشر رجلاً سبعة من القسيسين وخمسة من الرهبان فلما قرأ عليهم رسول الله ﷺ القرآن بكوا وقالوا: [ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين][5].

قال ابن عباس: هم محمد وأمته وهم القوم الصالحون الذين طمعوا أن يدخلهم الله فيهم[6]، والمقصود أن هؤلاء عرفوا أنه رسول الله (بالنعت)[7] الذي عندهم، فلم يملكوا أعينهم من البكاء، وقلوبهم من المبادرة إلى الإيمان، ونظير هذا قوله سبحانه وتعالى: ﴿قل آمنوا به أو لا تؤمنوا إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجداً، ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا. ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعاً﴾[8].

قال إمام (أهل)[9] التفسير مجاهد رحمه الله: هم قوم من أهل الكتاب لما سمعوا القرآن خروا سجداً، وقالوا سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولاً[10]! كأنّ الله عز وجل

(١) هذا جزء من قصة طويلة عن المهاجرين إلى الحبشة وموقفهم مع النجاشي أوردها الإمام الطبري في تفسيره عن ابن عباس: ١٠/٥٠٠.
(٢) سقطت من ب، ج، ص.
(٣) انظر: تفسير الطبري: ١٠/٤٩٩ ــ ٥٠٥.
(٤) في ج: كان.
(٥) انظر: تفسير الطبري: ١٠/٥٠٠ ــ ٥٠١ (تحقيق أحمد شاكر).
(٦) المرجع السابق: ١٠/٥٠٩.
(٧) في الأصل: بالنعت والصفة.
(٨) سورة الإسراء: الآيات ١٠٧ ــ ١٠٩.
(٩) سقطت من ب، ج، ص.
(١٠) تفسير الطبري: ١٥/١٢٠ الطبعة الأولى ١٩٢٨.

وعد على ألسنة أنبيائه ورسله أن يبعث في آخر الزمان نبياً عظيم الشأن، يظهر دينه على الدين كله، وينشر دعوته في أقطار الأرض وعلى رأس أمته تقوم الساعة.

وأهل (الكتاب)[1] مجمعون على أن الله وعدهم بهذا النبي، فالسعداء مَنهم عرفوا الحق فآمنوا به واتبعوه، والأشقياء قالوا: نحن ننتظره، ولم يبعث بعد رسولاً، (وأولئك)[2] لما سمعوا القرآن من (الرسل)[3] عرفوه أنه (الرسول)[4] الموعود، فخروا سجداً لله إيماناً به وبرسوله، وتصديقاً بوعده الذي أنجزه فرأوه عياناً فقالوا: سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا.

[كتاب رسول الله ﷺ إلى أهل نجران ووفدهم إلى رسول الله في المدينة]

وذكر يونس بن بكير[5] عن سلمة بن عبد يسوع[6] عن أبيه عن جده قال يونس ــ وكان نصرانياً فأسلم ــ: إن رسول الله ﷺ كتب إلى أهل نجران «باسم إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب» (من محمد النبي رسول الله إلى أسقف نجران وأهل نجران (سلم أنتم) إني أحمد إليكم إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب)[7] أما بعد فإني أدعوكم إلى عبادة الله من عبادة العباد، وأدعوكم إلى ولاية الله من ولاية العباد فإن أبيتم فالجزية، فإن

---

(١) في ب، ج، ص: الكتابين.
(٢) سقطت من ب، ج، ص.
(٣) في ج: الرسل.
(٤) في ب، ج: النبي.
(٥) يونس بن بكير بن واصل الشيباني أبو بكر الجمال الكوفي الحافظ، روى عن ابن إسحق وغيره. قال ابن معين: ثقة، وقال الدوري عن ابن معين: كان صادقاً. مات سنة تسع وتسعين ومائة (تهذيب التهذيب: ١١/٤٣٦).
(٦) سلمة بن عبد يسوع: لم أجد له ترجمة، ووجدت قول الأرناؤوط في تحقيق زاد المعاد ــ في تعليقه على هذه القصة ــ: سنده ضعيف لجهالة سلمة بن يسوع فما فوقه، فلم نقف لهم على ترجمة. هامش زاد المعاد: ٣/٦٣٧.
(٧) سقطت من زاد المعاد، ومن الوثائق السياسية.

أبيتم فقد آذنتكم بحرب، والسلام[1].

فلما أتى الأسقف الكتاب وقرأه، قطع به (وذعر منه)[2] ذعراً شديداً فبعث إلى رجل من أهل عمان يقال له «شرحبيل بن وداعة» وكان من همذان[3]، ولم يكن أحد يدعى إلى معضلة قبله، فدفع الأسقف كتاب رسول الله ﷺ إلى شرحبيل فقرأه، فقال الأسقف: ما رأيك يا أبا مريم؟

فقال شرحبيل: قد علمت ما وعد الله إبراهيم في ذرية إسماعيل من النبوة، فما (نؤمن)[4] أن يكون هذا هو ذاك الرجل؟ (ليس)[5] في النبوة رأي، لو كان أمر من الدنيا أشرت عليك فيه برأي وجهدت لك.

(فقال)[6]: تنح فاجلس، (فتنحى)[7] فجلس (ناحية)[8]، فبعث الأسقف إلى رجل من أهل نجران، يقال له (عبد الله بن شرحبيل) وهو فتى ذي أصبح من حمير، (فقرّأه الكتاب وسأله عن الرأي، فقال مثل قول شرحبيل فقال له الأسقف: نحّ فاجلس، فجلس ناحية. فبعث الأسقف إلى رجل من أهل نجران، يقال له)[9] (جبار بن فيض) من بني الحارث بن كعب[10] فأقرأه الكتاب وسأله عن الرأي فيه، فقال مثل قول شرحبيل

---

(١) نص الكتاب ورد في زاد المعاد: ٦٣١/٣، وفي البداية والنهاية: ٥٣/٥ وفي الوثائق السياسية: ص ١٧٤، ومكاتيب الرسول: ص ١٧٥.

(٢) في ب، ج، ص: وذعره.

(٣) همذان: مدينة من عراق العجم من كور الجبل، فتحها بديل بن عبد الله بن ورقاء سنة ثلاث وعشرين، ونزل التتار على همذان سنة ثمان عشرة وستمائة فلم يزل أهلها يقاتلونهم حتى فنيت الأقوات فضعفوا (الروض المعطار الحميري: ص ٥٩٦).

(٤) في الأصل يؤمن.

(٥) في ب، ج، ص: ليس لي.

(٦) في ب، ج، ص: فقال الأسقف.

(٧) في ج: فتنحى شرحبيل.

(٨) في الأصل: ناحيته.

(٩) سقطت من ب، ص والأصل.

(١٠) الحارث بن كعب بن عمرو بن علة بن جلد بن مالك بن أدد بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يوسف بن قحطان (انظر: الأنساب للسمعاني: ١٣/٤).

وعبد الله، فأمره الأسقف (فتنحى ناحية، فلما أجمع الرأي منهم على تلك المقالة ــ جميعاً ــ، أمر الأسقف)[1] بالناقوس فضرب به، ورفعت (المسوح)[2] بالصوامع، وكذلك كانوا يفعلون إذا فزعوا بالنهار، وإذا كان فزعهم بالليل[3] ضرب بالناقوس (ورفعت)[4] النيران في الصوامع فاجتمع أهل الوادي أعلاه وأسفله، وطوله مسيرة يوم للراكب السريع، وفيه ثلاث وسبعون قرية وعشرون ومائة ألف مقاتل، فقرأ عليهم كتاب رسول الله ﷺ، وسألهم عن الرأي فيه، فاجتمع رأي أهل الرأي (أن)[5] يبعثوا شرحبيل بن وداعة الهمذاني، وعبد الله بن شرحبيل، وجبار بن فيض، (فيأتوا)[6] بخبر رسول الله ﷺ.

فانطلق الوفد حتى إذا كانوا بالمدينة، وضعوا ثياب السفر (عنهم)[7]، ولبسوا حللاً لهم يجرونها من حبرة وخواتيم الذهب، ثم انطلقوا حتى أتوا رسول الله ﷺ، فسلموا عليه فلم يرد عليهم السلام، وتصدوا لكلامه نهاراً طويلاً، فلم يكلمهم وعليهم تلك الحلل والخواتيم الذهب، فانطلقوا (يتبعون)[8] عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف وكانا معرفة لهم، كانا يبعثان العير إلى نجران في الجاهلية، فيشتري لهما من برها وثمرها، فوجودهما في ناس من المهاجرين والأنصار في مجلس، فقالوا: يا عثمان ويا عبد الرحمن إن نبيكم كتب إلينا بكتاب، فأقبلنا مجيبين له، فأتيناه فسلمنا عليه فلم يرد سلامنا، فتصدينا لكلامه نهاراً طويلاً فأعيانا أن يكلمنا، فما الرأي منكما؟ أنعود أم نرجع (إليه)[9].

فقالا لعلي بن أبي طالب ــ وهو في القوم ــ: ما ترى يا أبا الحسن في هؤلاء القوم؟

---

(١) سقطت من الأصل.
(٢) في ب، ص: السرج.
(٣) في ب: فزوعهم ليلا، وفي ج، ص: فزعهم ليلا.
(٤) في ج: ورفعوا.
(٥) في ب، ج، ص: منهم على أن.
(٦) في ب، ص: فيأتونه.
(٧) سقطت من الأصل.
(٨) في ص: يبتغون.
(٩) سقطت من الأصل.

فقال علي رضي الله عنه لعثمان وعبد الرحمن رضي الله عنهما: أرى أن يضعوا حللهم هذه وخواتيمهم ويلبسوا ثياب سفرهم ثم يعودون إليه.

ففعل وفد نجران ذلك، ووضعوا حللهم وخواتيمهم، ثم عادوا إلى رسول الله ﷺ (فسلموا فرد)[1] سلامهم، ثم قال: والذي بعثني بالحق (نبياً)[2] لقد أتوني في المرة الأولى وإن إبليس لمعهم. ثم سألهم وسألوه فلم تزل به وبهم المسألة حتى قالوا له: ما تقول في عيسى؟ فإنا نحب أن نعلم ما تقول فيه، فأنزل الله عز وجل: ﴿إن مَثَلَ عيسى عندَ اللهِ كَمَثَلِ آدمَ خَلَقَهُ من ترابٍ ثم قالَ له: كُنْ فيكون. الحقُّ مِن ربِّكَ فلا تكُنْ من المُمْتَرِين. فمن حاجَّكَ فيه مِن بَعْدِ ما جاءَكَ من العلمِ فقُلْ: تعالَوا ندعُ أبناءَنا وأبناءَكم ونساءَنا ونساءَكم وأنفُسَنا وأنفُسَكم ثم نبتهلْ فنجعلْ لعنةَ اللهِ على الكاذبين﴾[3].

فأبوا أن (يقروا)[4] بذلك، فلما أصبح رسول الله ﷺ الغد بعدما أخبرهم الخبر أقبل مشتملاً على الحسن والحسين في خميل[5] له وفاطمة تمشي عند ظهره إلى الملاعنة، وله يومئذٍ عدة (نسوة)[6] فقال شرحبيل لصاحبيه: يا عبد الله بن شرحبيل ويا جبار بن فيض (قد علمتما)[7] أن الوادي إذا اجتمع أعلاه وأسفله لم يردوا ولم يصدروا إلا عن رأيي، (وإني)[8] والله أرى أمراً مقبلاً، والله لئن كان هذا الرجل ملكاً مبعوثاً (فكنا)[9] أول العرب طعناً في عينه ورداً عليه أمره، لا يذهب لنا من صدره ولا من صدور قومه حتى (يصيبنا)[10] (بجائحة)[11]، وإنا لأدنى العرب منهم جواراً، ولئن كان هذا الرجل نبياً مرسلاً فلاعنّاه

---

(١) في ب، ص: فسلموا عليه فرد عليهم.
(٢) سقطت من ب، ج، ص.
(٣) سورة آل عمران: الآيات ٥٩ ــ ٦١.
(٤) في ب، ص: يقولوا.
(٥) الخميل: الثياب المخملة (لسان العرب).
(٦) في الأصل: سنون.
(٧) في ب، ص: لقد علمنا.
(٨) سقطت من الأصل.
(٩) في الأصل: لكنا.
(١٠) في ب، ص: يصيرنا وفي الأصل، ج: يصيبونا.
(١١) في الأصل: بنحاجة.

لا يبقى على وجه الأرض منا شعرة ولا ظفر إلاّ هلك، فقال له صاحباه: فما الرأي يا أبا مريم؟ فقد وضعتك الأمور على ذراع[1]، فهات رأيك، فقال: رأيي أن أحكمه، فإني أرى الرجل لا يحكم شططاً أبداً، فقالا له: أنت وذاك. فلقي شرحبيل رسول الله ﷺ فقال: (إني رأيت)[2] خيراً من ملاعنتك، فقال: وما هو؟ قال شرحبيل: حكمك اليوم إلى الليل وليلتك إلى الصباح، فمهما حكمت فينا فهو جائز، فقال رسول الله ﷺ: لعل وراءك أحد يثرب عليك[3]؟ فقال له شرحبيل: سل صاحبيّ، فسألهما، فقالا: ما ترد الموارد (ولا تصدر)[4] إلاّ عن رأي شرحبيل، فرجع رسول الله ﷺ ولم يلاعنهم، حتى إذا كان الغد أتوه فكتب لهم كتاب صلح وموادعة فقبضوا كتابهم وانصرفوا إلى نجران، فتلقاهم الأسقف، ووجوه نجران على مسير ليلة من نجران، ومع الأسقف أخ له من أمه، وهو ابن (عمه من)[5] النسب، يقال له أبو علقمة، فدفع الوفد كتاب رسول الله ﷺ إلى الأسقف، فبينا هو يقرأه وأبو علقمة (معه)[6] وهما يسيران إذ كبت بأبي علقمة ناقته، فتعس، غير أنه لا يكني عن رسول الله ﷺ، فقال له الأسقف (عند ذلك)[7]: قد والله تعست نبياً مرسلاً. فقال له أبو علقمة: لا جرم والله لا أحل عنها عقداً حتى آتيه، فضرب وجه ناقته نحو المدينة، وثنى الأسقف ناقته عليه فقال له: افهم عني، إنما قلت هذا ليبلغ عني العرب مخافة أن يروا أنا (أخذتنا حمقة)[8]، أو نجعنا لهذا الرجل بما لم ينجع به العرب ونحن أعزهم وأجمعهم داراً. فقال له أبو علقمة: والله (لا أقبلك بعد)[9] ما خرج من رأسك أبداً، ثم ضرب ناقته وهو يقول:

---

(١) وضعتك الأمور على ذراع، الذراع: من ذرع الثوب وغيره يذرعه ذرعاً إذا قدّره بالذراع (لسان العرب) والمعنى هنا أن الأمور وضعتك في موقع التقدير للموقف وقياسه وإعطاء الحكم فيه.

(٢) في ب، ج، ص: أني قد رأيت.

(٣) ثرّب عليه: لامه وعيّره بذنبه وذكره به (لسان العرب).

(٤) في ب، ص: ولا تصدر المصادر.

(٥) في ص: علم له في.

(٦) سقطت من الأصل.

(٧) سقطت من الأصل.

(٨) في ب، ج، ص: أخذنا جمعه، وفي الأصل: حمته.

(٩) في ج: لأقتلك، هو خطأ لغة ومعنى.

إليــك تعــدو قـلقــاً وضيـنهــا   معتــرضــاً في بــطنها جنينُهــا
مخالفاً دينَ النصارىٰ دينُها(١)

حتى أتى النبي ﷺ فلم يزل معه (ثم استشهد بعد ذلك)(٢).

الأدلة على ذكر الكتب السابقة لنبوَّة محمد ﷺ

وإذا عرف هذا، (فالعلم)(٣) بأنـه ﷺ مذكـور في الكتب المقدسـة يعرف من وجـوه متعددة:

أحدها: إخبار من قد ثبتت نبوته قطعاً بأنه مـذكور عنـدهم في كتبهم، فقد أخبـر به من قام الدليل القطعي على صـدقه فيجب تصـديقه فيـه. إذ تكذيبـه والحالـة هذه ممتنـع لـذاته، هـذا لو لـم يعلم ذلـك إلا من مجرد خبـره، فكيف إذا تطابقت الأدلـة على صحّـة ما أخبر به.

الثاني(٤): أنه جعل الإخبار به من أعظم أدلة صدقه وصفة نبوته، وهذا (يستحيل)(٥) أن يصدر إلا من واثق كل الوثوق بذلك وأنه على يقين جازم به.

الثالث: أن المؤمنين به من الأحبار والرهبان الذين آثروا الحق على الباطل، صدقوه في ذلك وشهدوا له بما قال.

---

(١) معنى الشعـر: الوضين، بـطان منسوج بعضـه على بعض يشد بـه الرحـل على البعير، وفي حـديث علي: «إنك لقلق الوضين» أراد أنه سريـع الحركـة يصفه بـالخفة وقلة الثيـاب، وذكر الـطبراني أنـه عليه السلام أفاض من عرفات وهو يقول: إليك تعدو قلقاً وضينها. وأنشدها ابن عمر لما اندفع من جمـع، أراد: أنها قـد هزلت ودقت للسيـر عليها (انـظر: لسان العـرب. وانظر: النهـاية في غـريب الحديث: ٥/١٩٩).

(٢) في ج: حتى استشهد. وقصة وفد نجران هذه ذكرها البيهقي في دلائل النبوة: ص ٢ ووردت في زاد المعـاد: ٣/٦٣١ ــ ٦٣٩، كما ذكـرها ابن كثيـر في البدايـة والنهايـة: ٥/٥٣ ــ ٥٦ وفي التفسيـر: ١/٣٦٩ ــ ٣٧٠، (وقد أسند ابن كثير الرواية إلى البيهقي وقال: وقـد روى البيهقي في دلائل النبـوة قصة نجران مطولة جداً، ولنذكره فإن فيه فوائد كثيرة وفيه غرابة، وفيه مناسبة لهذا المقام).

(٣) في ب، ص: فاعلم.

(٤) في ج، ص، ب: الوجه الثاني.

(٥) في ج: مستحيل.

الرابع: أن المكذبين الجاحدين لنبوته لم يمكنهم إنكار البشارة والإخبار (بنبوته وأنه)[1] نبي عظيم الشأن، صفته كذا وكذا (ونعته كذا وكذا)[2]، وصفة أمته ومخرجه (ومنشؤه)[3] وشأنه، (لكنهم)[4]جحدوا (أنه هو)[5] الذي وقعت به (البشارة)[6]، وأنه نبي آخر غيره، وعلموا هم والمؤمنون به من قومهم أنهم ركبوا (متن)[7] المكابرة وامتطوا غارب البهت.

الخامس: أن كثيراً منهم صرّح لخاصته وبطانته بأنه هو بعينه وأنه عازم على عداوته ما بقي كما تقدم.

السادس: أن إخبار النبي ﷺ بأنه مذكور في كتبهم هو فرد من أفراد إخباراته بما عندهم في كتبهم من شأن أنبيائهم وقومهم، وما جرى لهم، وقصص الأنبياء المتقدمين وأممهم، وشأن المبدأ والمعاد، وغير ذلك مما أخبرت به الأنبياء، وكل ذلك مما يعلمون صدقه فيه ومطابقته لما عندهم، وتلك الأخبار أكثر من أن تحصى. ولم يكذبوه يوماً واحداً في شيء منها وكانوا أحرص شيء على أن يظفروا منه بكذبة واحدة أو غلطة أو سهو فينادون (بها عليه)[8] (ويجدون)[9] بها السبيل إلى تنفير الناس عنه، فلم يقل أحد (منهم)[10] يوماً من الدهر (ولم يظفروا)[11] بقول أنه أخبر بكذا وكذا أنه في كتبنا وهو كاذب فيه، بل كانوا يصدقونه في ذلك، وهم مصرون على عدم اتباعه، وهذا من أعظم

---

(١) في ب، ج، ص: بنبوّة.
(٢) زيادة في ج فقط.
(٣) زيادة في الأصل فقط.
(٤) ب، ج، ص: لكن.
(٥) في ب، ج، ص: أن يكون هو.
(٦) في ج: البشائر.
(٧) سقطت من ب.
(٨) في ج: بها بيان عليه.
(٩) في الأصل: ويتخذون.
(١٠) سقطت من ب.
(١١) سقطت من ب، ج، ص.

(الأدلة)(١) على صدقه فيما أخبر به لو لم (يكن)(٢) يعلم (إلّا)(٣) بمجرد خبره.

السابع: أنه أخبر بهذا لأعدائه من المشركين الذين لا كتاب (لهم)(٤) وأخبر به لأعدائه من أهل الكتاب (وأخبر به لأتباعه)(٥) فلو كان هذا باطلاً لا صحة له لكان ذلك تسليطاً للمشركين أن يسألوا أهل الكتاب، فينكرون ذلك، وتسليطاً لأهل الكتاب على الأفكار، وتسليطاً لأتباعه على الرجوع عنه والتكذيب له بعد تصديقه، وذلك ينقض الغرض المقصود بإخباره من كل وجه، وهو بمنزلة رجل يخبر بما يشهد بكذبه، ويجعل إخباره دليلاً على صدقه (ويجعل إخباره تصديقاً)(٦)، وهذا لا يصدر من عاقل ولا مجنون.

فهذه الوجوه يعلم بها صدق ما أخبر به، وإن لم يعلم وجوده (من غير جهة)(٧) إخباره، فكيف وقد علم وجود ما أخبر به.

الثامن: أنه إن قدر أنهم لم يعلموا بشارة الأنبياء به، وإخبارهم (بنعته)(٨) وصفته، لم يلزم أن لا يكونوا ذكروه وأخبروا به وبشروا بنبوته، إذ ليس كل ما قاله الأنبياء المتقدمون وصل إلى المتأخرين وأحاطوا به علماً، وهذا مما يعلم بالاضطراد، فكم من قول قد قاله موسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام ولا علم لليهود والنصارى به، فإذا أخبر به من قام الدليل القطعي على صدقه لم يكن جهلهم به موجباً لرده وتكذيبه.

التاسع: أنه يمكن أن (يكون)(٩) في (نسخ غير هذه النسخ التي بأيديهم)(١٠) فأزيل من بعضها، ونسخت هذه مما أزيل منه. وقولهم إن نسخ التوراة متفقة في شرق الأرض

---

(١) في ب: الدلالة.
(٢) سقطت من ص، ب، ج.
(٣) سقطت من ص.
(٤) في ب، ج، ص: عندهم.
(٥) سقطت من الأصل.
(٦) سقطت من ج، والأصل.
(٧) في الأصل ص: من جهة.
(٨) في الأصل: ببعثته.
(٩) سقطت من ب، ص.
(١٠) من ذلك مثلاً إنجيل برنابا الذي يصرح باسم محمد ﷺ في كثير من نصوصه.

وغربها كذب ظاهر. فهذه التوراة التي بأيدي النصارى[١]، تخالف التوراة التي بأيدي اليهود، والتي بأيدي السامرة تخالف هذه وهذه. (وهذه)[٢] نسخ الإنجيل يخالف بعضها بعضاً، ويناقضه، فدعواهم أن نسخ التوراة والإنجيل متفقة شرقاً وغرباً من البهت والكذب الذي يروّجونه على أشباه الأنعام، حتى أن هذه التوراة التي بأيدي اليهود فيها من الزيادة والتحريف والنقصان مما لا يخفى على الراسخين في العلم، وهم يعلمون قطعاً أن ذلك ليس في التوراة التي أنزلها الله سبحانه وتعالى على موسى عليه الصلاة والسلام، (وذلك مثل قولهم في حكاية نزول الألواح، وكيف رمى بها موسى عليه الصلاة والسلام[٣] وقصة وفاة موسى[٤]).

ونفس الألواح كانت هي التوراة. ووفاة موسى إنما حدثت بعد نزول التوراة بسنين عديدة.

ومنها حكاية عن موسى أنه نسخ ما في الألواح بخطه[٥])[٦] ولا في الإنجيل الذي أنزل على عيسى عليه الصلاة والسلام.

وكيف يكون في الإنجيل الذي أنزل على المسيح قصة صلبه، وما جرى له، وأنه كذا وكذا وصلب يوم كذا وكذا، (وصلب ودفن وقام)[٧] من القبر بعد ثلاث وغير ذلك مما هو من كلام شيوخ النصارى. وغايته أن يكون من كلام الحواريين خلطوه بالإنجيل

(١) التوراة التي بأيدي النصارى التي يطلقون عليها (العهد القديم) هي التوراة اليونانية السبعينية.

(٢) سقطت من ب، وفي ج: وكذا.

(٣) حكاية نزول الألواح وإلقاء موسى لها وكسرها غاضباً لأنه وجد قومه يعبدون العجل، أشار إليها سفر الخروج: ١٩/٣٢.

(٤) وفاة موسى ذكرت في سفر التثنية: فمات هناك موسى في أرض موآب حسب قول الرب ودفنه في الجواء في أرض موآب ولم يعرف أحد قبره إلى الآن. (التثنية: ٣٤/٥ ــ ٦).

(٥) بعد حكاية إلقاء الألواح وكسرها يذكر سفر الخروج أن الله تعالى أمر موسى أن ينحت لوحين من الحجر ليكتب الله عليهما الكلمات التي كانت على اللوحين الأولين (الخروج: ٣٤/١) وفعل موسى ما أمره ربه وصعد إلى جبل سيناء فنزل الرب وكلمه بالوصايا، وقال الرب لموسى: اكتب لنفسك هذه الكلمات، فكتب على اللوحين كلمات العهد الكلمات العشر (الخروج: ٣٤/٢٨).

(٦) سقطت من ب، ج، ص.

(٧) في ب، ج، ص: وأنه قام.

وسمّوا الجميع إنجيلاً، ولذلك كانت الأناجيل عندهم أربعة يخالف بعضها بعضاً[1].

ومن بهتهم وكذبهم قولهم: إن التوراة التي بأيديهم وأيدي اليهود والسامرة سواء.

والنصارى لا يقرون أن الإنجيل منزل من عند الله على المسيح، وأنه كلام الله، بل كل فرقهم مجمعون على أنها أربعة (أناجيل)[2] تواريخ ألّفها أربعة رجال معروفون في أزمان مختلفة، ولا يعرفون الإنجيل على غير هذا.

إنجيل ألفه (متى)[3] تلميذ المسيح بعد (سبع)[4] سنين من رفع المسيح، وكتبه بالعبرانية في بلد (يهودا)[5] بالشام.

وإنجيل ألفه (مرقس)[6] الهاروني تلميذ شمعون[7] بعد ثلاث وعشرين سنة من رفع المسيح، وكتبه باليونانية في بلد أنطاكية[8] من بلاد الروم ويقولون إن شمعون المذكور هو ألفه، ثم محي اسمه من أوله ونسب إلى تلميذه مرقس.

---

(١) والتناقضات بين نصوص الأناجيل كثيرة جداً وقد أثبت ذلك جيداً الدكتور موريس بوكاي في كتابه «التوراة والإنجيل والقرآن والعلم»: من ص ٩٤ ــ ١٠٦.

(٢) سقطت من ب، ج، ص.

(٣) متى: أحد الاثني عشر رسولاً وكاتب الإنجيل الأول، وكان في الأصل جابياً في كفر ناحوم انظر: قاموس الكتاب المقدس: ٢/٨٣٢).

(٤) في ب، ص: تسع.

(٥) يهودا يعني منطقة القدس والخليل في فلسطين.

(٦) مرقس: ينسب إليه الإنجيل المعروف ولد في القدس يرجح أنه اتبع المسيح بواسطة بطرس ورافق بولس وبرنابا في الرحلة التبشيرية الأولى، وهو مترجم لبطرس (قاموس الكتاب المقدس: ٢/٨٥٣).

(٧) سمعون: أي سمعان، وهو بطرس، كما سماه المسيح ومعناه: الصخرة، ويرجح أن بطرس كان تلميذاً ليوحنا المعمدان قبل مجيئه إلى المسيح. (قاموس الكتاب المقدس: ١/١٧٤).

(٨) أنطاكية: قصبة العواصم من الثغور الشامية بينها وبين حلب يوم وليلة، فتحها أبو عبيدة بن الجراح، وصالح أهلها على الجزية أو الجلاء، ثم نقضوا العهد ففتحها عياض بن غنم (معجم البلدان: ١/٢٦٦).

وإنجيل (ألفه)[1] (لوقا)[2] الطبيب الأنطاكي تلميذ شمعون بعد تأليف مرقس.

وإنجيل ألفه (يوحنا)[3] تلميذ المسيح (بعد رفعه)[4] ببضع وستين سنة كتبه باليونانية.

وكل واحد من هذه الأربعة يسمونه الإنجيل، وبينها من التفاوت والزيادة والنقصان ما يعلمه الواقف عليها، وبين توراة السامرة واليهود والنصارى من ذلك ما يعلمه (الواقف عليها)[5].

فدعوى الكاذب الباحث أن نسخ التوراة والإنجيل متفقة شرقاً وغرباً بعداً وقرباً من أعظم الفرية والكذب. وقد ذكر غير واحد من علماء الإسلام ما بينها من التفاوت والزيادة والنقصان والتناقض لمن أراد الوقوف عليها. ولولا الإطالة وقصد ما هو أهمّ لذكرنا منه طرفاً كبيراً[6].

[وسائل التحريف عند أهل الكتاب]

وقد وبخهم الله تعالى سبحانه وجل شأنه، وبكّتهم على لسان رسوله بالتحريف والكتمان والإخفاء فقال تعالى: ﴿يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون﴾[7].

---

(١) سقطت من ب، ج.

(٢) لوقا: ينسب إليه الإنجيل المعروف، وهو صديق بولس، وقد وصفه بالطبيب الحبيب، ولد في أنطاكية وهو ليس من اليهود (قاموس الكتاب المقدس: ٢/٨٢٢).

(٣) يوحنا: هو ابن زبدي من بيت صيدا في الجليل، وكان أحد الرسل الثلاثة الذين اصطفاهم المسيح ليكونوا رفقاءه الخصوصيّين، ويشك في نسبة الإنجيل المنسوب إليه (قاموس الكتاب المقدس: ٢/١١٠٨).

(٤) سقطت من ب، ص، وفي ج: بعد ما رفع.

(٥) في ب، ج، ص: من وقف عليها.

(٦) من هؤلاء العلماء: القرطبي في كتابه: الإعلام في بيان ما في دين النصارى من البدع والأوهام، وابن تيمية في كتابيه الجواب الصحيح، والتخجيل، وأبو حامد الغزالي في كتابه الرد الجميل، والقرافي في كتابه الأجوبة الفاخرة، والخزرجي في مقامع الصلبان، وغيرهم كثير.

(٧) سورة آل عمران: الآية ٧١.

وقال تعالى: ﴿إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون﴾(١).

وقال تعالى: ﴿إن الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمناً قليلاً أولئك ما يأكلون في بطونهم إلا النار ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير، قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور ويهديهم إلى صراط مستقيم﴾(٣).

[طرق التحريف عند أهل الكتاب]

وأما التحريف فقد أخبر الله سبحانه وتعالى عنه في مواضع متعددة، وكذلك ليّ اللسان بالكتاب ليحسبه السامع منه وما هو منه. فهذه خمسة أمور:

* أحدها: لبس الحق بالباطل، وهو خلطه به بحيث لا يتميز الحق من الباطل.
* الثاني: كتمان الحق.
* الثالث: إخفاؤه وهو قريب من كتمانه.
* الرابع: تحريف الكلم عن مواضعه، وهو نوعان: تحريف لفظه، وتحريف معناه.
* الخامس: ليّ اللسان به ليلتبس على السامع اللفظ المنزل بغيره.

وهذه الأمور إنما ارتكبوها لأغراض لهم دعتهم إلى ذلك، فإن عادوا الرسول وجحدوا نبوته وكذبوه وقاتلوه، فهم إلى أن يجحدوا (نعته)(٤) وصفته ويكتموا ذلك ويزيلوه عن مواضعه ويتأولوه على غير تأويله أقرب بكثير، وهكذا فعلوا، ولكن لكثرة البشارات

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٥٩.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٧٤.

(٣) سورة المائدة: الآيتان ١٥، ١٦.

(٤) في الأصل: بعثه.

وتنوعها غلبوا على كتمانها وإفضائها فصاروا إلى تحريف التأويل وإزالة معناها (عما)[1] لا تصلح لغيره، وجعلها لمعدوم لم يخلقه الله تعالى ولا وجود له البتة.

العاشر: أنه استشهد على صحة نبوته بعلماء أهل الكتاب، وقد شهد له عدولهم. فلا يقدح (جحد)[2] الكفرة الكاذبين المعاندين بعد ذلك. قال تعالى: ﴿ويقول الذين كفروا لست مرسلاً، قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب﴾[3].

وقال تعالى: ﴿قل أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم. إن الله لا يهدي القوم الظالمين﴾[4].

وقال تعالى: ﴿وإنّ من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً أولئك لهم أجرهم عند ربهم إن الله سريع الحساب﴾[5].

وقال تعالى: ﴿ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين﴾[6].

وقال تعالى: ﴿الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون، وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين، أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرأون بالحسنة السيئة ومما رزقناهم ينفقون﴾[7].

وإذا شهد واحد من هؤلاء لم يوزن به ملء الأرض من (الكفرة)[8]، ولا تعارض

---

(١) في الأصل: عمّن.
(٢) في ج: قدح.
(٣) سورة الرعد: الآية ٤٣.
(٤) سورة الأحقاف: الآية ١٠.
(٥) سورة آل عمران: الآية ١٩٩.
(٦) سورة المائدة: الآيتان ٨٢، ٨٣.
(٧) سورة القصص: الآيات ٥٢، ٥٣، ٥٤.
(٨) في الأصل: الكفر.

شهادته بجحود ملء الأرض من الكفرة. كيف (والشاهد)(1) له من علماء أهل الكتاب أضعاف أضعاف المكذبين له منهم.

وليس كل من قال من أشباه الحمير من عباد الصليب وأمة الغضب أنه من علمائهم فهو كذلك (يعني عالماً)(2) كما قالوا. وإذا كان أكثر عوام المسلمين يظنون أنه من علمائهم (يعني أهل الكتاب)(3) ليس كذلك (فيما)(4) ظن بغيرهم (يعني علماء المسلمين)(5).

وعلماء أهل الكتاب إن لم يدخل فيهم من لم يعمل بعلمه، فليس علماؤهم إلّا من آمن به وصدقه، وإن دخل فيهم من علم ولم يعمل كعلماء السوء لم يكن إنكارهم نبوته قادحاً في شهادة العلماء (القائلين)(6) بعلمهم.

الحادي عشر: أنه لو قدر أنه لا ذكر لرسول الله ﷺ (بنعته)(7) ولا صفته ولا (علاماته)(8) في الكتب التي بأيدي أهل الكتاب اليوم، لم يلزم من ذلك أن لا يكون مذكوراً في الكتب التي كانت بأيدي أسلافهم وقت مبعثه ولا تكون اتصلت على وجهها إلى هؤلاء، بل حرّفها أولئك وبدلوا وكتموا (تواصوا وكتبوا)(9) ما أرادوا، وقالوا: هذا من عند الله ثم اشتهرت تلك الكتب وتناقلها خلفهم عن سلفهم فصارت المغيّرة المبدّلة هي المشهورة، والصحيحة بينهم (خفيّة)(10) جداً ولا سبيل إلى العلم باستحالة ذلك، بل هو في غاية الإمكان.

فهؤلاء السامرة غيروا مواضع من التوراة ثم اشتهرت النسخ المغيّرة عند جميعهم

---

(1) في ج: والشاهدون.
(2) ليست في ب، ج، ص.
(3) سقطت من ب، ج، ص.
(4) في الأصل: كما.
(5) ليست في ب، ج، ص.
(6) في ح: العاملين وفي ب: العاملين القائلين.
(7) في الأصل: ببعثه.
(8) في ج: علامته.
(9) سقطت من الأصل.
(10) في الأصل: خفيت.

فلا يعرفون سواها، وهجرت بينهم النسخة الصحيحة بالكلية. وكذلك التوراة التي بأيدي النصارى.

وهكذا تبدل الأديان والكتب، ولولا أن الله سبحانه وتعالى تولى حفظ القرآن (بذاته)[١] وضمن للأمة أن لا تجتمع على ضلالة لأصابه ما أصاب الكتب قبله، قال تعالى: ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾[٢].

الثاني عشر: أنه من الممتنع أن تخلو الكتب المتقدمة عن الإخبار بهذا الأمر العظيم الذي لم يطرق العالم من حين خلق إلى قيام الساعة أمر أعظم منه، ولا شأن أكبر منه، (فإن العلم به طبق)[٣] مشارق الأرض ومغاربها (واستمر على)[٤] تعاقب القرون وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ومثل هذا (النبأ)[٥] العظيم لا بد أن تطابق الرسل على الإخبار به، وإذا كان الدجال ـ رجل كاذب يخرج في آخر الزمان وبقاؤه في الأرض أربعون يوماً (وقيل ستة أشهر)[٦] ـ قد تطابقت الرسل على الإخبار به، وأنذر به كل نبي قومه من نوح إلى خاتم (الأنبياء)[٧] وخاتم الرسل صلى الله عليهم وسلم أجمعين، فكيف (تتطابق)[٨] الكتب الإلهية من أولها إلى آخرها على السكوت عن الإخبار (بهذا النبأ العظيم)[٩]، وبهذا الأمر العظيم الذي لم يطرق العالم أمر أعظم منه، ولا تطرقه أبداً. فهذا مما لا يسوغه عقل عاقل، وتأباه حكمة أحكم الحاكمين، بل الأمر بضد ذلك، وما بعث الله سبحانه وتعالى نبياً إلاّ أخذ عليه الميثاق بالإيمان بمحمد ﷺ وتصديقه كما قال تعالى: ﴿وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما أتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنُنَّ به ولتنصُرُنَّه، قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري؟ قالوا:

---

(١) في ب، ج، ص: بنفسه.
(٢) سورة الحجر: الآية ٩.
(٣) في ب، ج، ص: فإنه قلب العالم وطبق.
(٤) في ب، ص: واستمر على العالم على.
(٥) في الأصل: البيان.
(٦) زيادة في الأصل.
(٧) سقطت من ب، ص، وفي ج: النبيين.
(٨) في ج: مطابقة.
(٩) سقطت من ب، ج، ص.

أقررنا، قال: فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين)[1].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: ما بعث الله من نبي إلا أخذ عليه الميثاق لئن بعث محمد ﷺ وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه، وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته، لئن بعث محمد وهم أحياء ليؤمنن به وليبايعنّه[2].

[بشارات التوراة والإنجيل بنبوّة محمد ﷺ]

(فصل): فهذه الوجوه على تقدير عدم العلم بوجود نعته وصفته والخبر عنه في الكتب المتقدمة... ونحن نذكر[3] بعض ما ورد فيها من البشارة به ونعته وصفته وصفة أمته وذلك يظهر لك من وجوه:

[١ ـ بشارات التوراة]

* **الوجه الأول:**

قوله في التوراة: (أقيم لبني إسرائيل نبياً من إخوتهم مثلك أجعل كلامي في فيه، ويقول لهم ما آمره، والذي لا يقبل قول ذلك النبي الذي يتكلم باسمي أنا أنتقم منه ومن سبطه)[4].

[تأويل أهل الكتاب لهذا النص]

فهذا النص مما لا يمكن لأحد منهم جحده وإنكاره، ولكن لأهل الكتاب فيه أربع طرق:

أحدها: حمله على المسيح وهذه طريق النصارى (وهو دليل يخالف معتقدهم في المسيح)[5].

---

(١) سورة آل عمران: الآية ٨١.

(٢) هذا الأثر أورده الطبري في تفسيره عن علي بن أبي طالب وليس عن ابن عباس، ولكنه ساق ما يقارب هذا المعنى عن ابن عباس (تفسير الطبري: ٦/٥٥٥ ـ ٥٥٦).

(٣) في الأصل: وأما الكتب الإلهية الشاهدة له بذكر.

(٤) التثنية: ١٨/١٨ ـ ١٩، وفي النص الحالي: أنا أطالبه بدل قوله: (أنا أنتقم منه ومن سبطه).

(٥) سقطت من ب، ج، ص.

وأما اليهود فلهم فيه ثلاث طرق:

أحدها: (على)[1] حذف أداة الاستفهام، والتقدير «أأقيم لبني إسرائيل نبياً من إخوتهم، لا أفعل هذا».

فهو استفهام إنكار حذفت منه أداة الاستفهام.

الثاني: أنه خبر (ووعيد)[2] ولكن المراد به (شموئيل النبي)[3] فإنه من بني إسرائيل.

والبشارة إنما وقعت بنبي من إخوتهم، وإخوة القوم هم بنو أبيهم وهم بنو إسرائيل.

الثالث: أنه نبي يبعثه الله في آخر الزمان يقيم به ملك اليهود ويعلو به شأنهم، وهو ينتظرونه الآن (ويسمونه المنتظر)[4].

[رد تأويلهم الفاسد]

قال المسلمون: البشارة صريحة في النبي العربي الأمي محمد ﷺ ابن عبد الله، لا تُحتَمَل على غيره لأنها إنما وقعت بنبي من إخوة بني إسرائيل لا من بني إسرائيل أنفسهم، والمسيح من بني إسرائيل، فلو كان المراد بها هو المسيح لقال: أقيم لهم نبياً من أنفسهم.

كما قال تعالى: ﴿لقد منّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم﴾[5] وإخوة بني إسرائيل هم بنو إسماعيل، ولا يقال في لغة أمة من الأمم إن بني إسرائيل هم إخوة بني إسرائيل كما أن إخوة زيد لا يدخل فيه زيد نفسه.

---

(١) في ب، ج، ص: أنه على.

(٢) في الأصل: ووعد.

(٣) شموئيل النبي: هو صموئيل وهو اسم عبري معناه: اسم الله. وصموئيل هو أول أنبياء العبرانيين بعد موسى وآخر القضاة، وكان أبوه لاوياً، وفي العهد القديم سفران باسمه، وهو النبي الذي اختار شاول وداود للملك (قاموس الكتاب المقدس: ٢/٥٥٢ ـ ٥٥٣).

(٤) سقطت من ب، ج، ص.

(٥) سورة آل عمران: الآية ١٦٤.

وأيضاً فإنه قال: نبياً مثلك وهذا يدل على أنه صاحب شريعة عامة مثل موسى، وهذا يبطل حمله على (شموئيل) من هذه الوجوه أيضاً، ويبطل حمله على (يوشع) من ثلاثة أوجه:

أحدها: أنه من بني إسرائيل لا من إخوتهم.

الثاني: أنه لم يكن مثل موسى، في التوراة: «التي بأيديهم»(١): «لا يقوم في بني إسرائيل مثل موسى»(٢).

الثالث: أن يوشع نبي في زمن موسى (وهو كالب)(٣)، وهذا الوعد إنما هو بنبي يقيمه الله تعالى بعد موسى.

وبهذه الوجوه الثلاثة يبطل حمله على هارون، مع أن هارون توفي قبل موسى، ونبأه الله تعالى مع موسى في حياته. ويبطل ذلك من (وجه رابع أيضاً)(٤) وهو أن في هذه البشارة أنه ينزل عليه كتاباً يظهر للناس من فيه (وهذا لم)(٥) يكن لأحد بعد موسى غير النبي ﷺ، وهذا من علامات نبوته التي أخبر بها الأنبياء المتقدمون، قال تعالى: ﴿وإنه لتنزيل رب العالمين، نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين، وإنه لفي زبر الأولين، أو لم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل﴾(٦).

فالقرآن نزل على قلب رسول الله ﷺ، وظهر للأمة من فيه ولا تصح هذه البشارة على المسيح باتفاق النصارى، لأنها إنما جاءت بواحد من إخوة بني إسرائيل، وبنو إسرائيل وإخوتهم كلهم عبيد لله، ليس فيهم إله والمسيح عندهم إله معبود، وهو أجل عندهم من أن يكون من إخوة (بني إسرائيل)(٧) العبيد. والبشارة وقعت بعبد مخلوق

---

(١) ليست في ب، ج، ص.

(٢) انظر: سفر التثنية: ٣٤/١٠.

(٣) سقطت من ب، ج، ص هو كالب بن يفنّه الذي ذكره سفر التثنية وذكر أنه يعطى هو وأبناؤه الأرض الجيدة لأنه اتبع الرب تماماً، انظر: التثنية: ١/٢٧.

(٤) في الأصل: في أربعة أوجه.

(٥) في الأصل: وهو لم.

(٦) سورة الشعراء: الآيات ١٩٢ ــ ١٩٧.

(٧) ليست في ب، ج، ص.

يُقيمه الله تعالى من جملة عباده وإخوتهم، وغايته أن يكون نبياً لا غاية له فوقها، (وهذا ليس هو المسيح عند النصارى)[١]، (وأما مقالتهم أنه)[٢] على حذف ألف الاستفهام، وهو استفهام إنكار والمعنى (أأقيم لبني إسرائيل نبياً مثلك)[٣]، عادة لهم معروفة في تحريف كلام الله عن مواضعه والكذب على الله، وقولهم لما يبدلونه ويحرفونه: هذا من عند الله.

وحمل هذا الكلام على الاستفهام أو الإنكار غاية ما يكون من التحريف والتبديل.

وهذا التحريف والتبديل من معجزات رسول الله ﷺ التي أخبر بها عن الله من تحريفهم وتبديلهم، فأظهر الله صدقه في ذلك (كله)[٤] إلى كل ذي لب وعقل، فازداد إيماناً إلى إيمانه وازداد الكافرون رجساً إلى رجسهم.

* **الوجه الثاني:**

قال في التوراة في السفر الخامس: (أقبل الله من سيناء وتجلى من ساعير وظهر من جبال فاران، ومعه ربوات الأطهار عن يمينه)[٥] وهذه متضمنة للنبوات الثلاثة: نبوة موسى، ونبوّة عيسى، ونبوّة محمد ﷺ.

فمجيئه من سيناء وهو الجبل الذي كلم الله موسى ونبّأه عليه إخبار عن نبوته.

وتجليه من ساعير هو مظهر عيسى المسيح من بيت المقدس، وساعير قرية معروفة هناك إلى اليوم[٦]. وهذه بشارة بنبوة المسيح.

وفاران هي مكة[٧] وشبه سبحانه وتعالى نبوة موسى بمجيء الصبح (وفلقه)[٨] ونبوة المسيح بعدها بإشراقه وضيائه، ونبوة خاتم النبيين بعدهما ﷺ باستعلان الشمس

---

(١) سقطت من الأصل.

(٢) في ب، ج، ص: وأما قول المحرفين لكلام الله إن ذلك.

(٣) في ب، ج، ص: فتلك.

(٤) سقطت من ب، ج، ص.

(٥) انظر: سفر التثنية: ١/٣٣ ــ ٣.

(٦) قرية سعير: تقع شمال مدينة الخليل بالقرب من بلدة حلحول.

(٧) قال ياقوت: كلمة عبرانية معرّبة وهي من أسماء مكة (معجم البلدان: ٣/٨٣٤).

(٨) سقطت من ب، ج، ص.

(وظهورها)[1] وظهور ضوئها في الآفاق ووقع الأمر كما أخبر به سواء. فإن الله صدع نبوة موسى ليل الكفر فأضاء فجره بنبوته، وزاد الضياء والإشراق بنبوة المسيح، وكمل الضياء واستعلن وطبق الأرض بنبوة محمد ﷺ.

وذكر هذه النبوات الثلاثة التي اشتملت عليها هذه البشارة نظير ذكرها في أول سورة (التين ﴿والتين والزيتون وطور سينين وهذا البلد الأمين﴾)[2].

فذكر أمكنة هؤلاء الأنبياء وأرضهم التي خرجوا منها؛ والتين والزيتون: المراد به منبتهما (وأرضهما)[3]، وهي الأرض المقدسة التي هي (مظهر المسيح)[4]، وطور سينين: الجبل الذي كلم الله عليه موسى فهو مظهر نبوته. وهذا البلد الأمين: مكة، حرم الله وأمنه التي هي مظهر نبوة محمد صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين.

فهذه الثلاثة نظير تلك الثلاثة سواء.

قالت اليهود: فاران هي أرض الشام وليست أرض الحجاز، وليس هذا ببدع من بهتهم وتحريفهم، وعندهم في التوراة: أن إسماعيل لما فارق أباه سكن في برية فاران هكذا نطقت التوراة ولفظها: (وأقام إسماعيل في برية فاران وأنكحته أمه امرأة من أرض مصر)[5].

ولا يشك علماء أهل الكتاب أن فاران مسكن لآل (إسماعيل)[6] فقد تضمنت التوراة نبوة تنزل بأرض فاران، وتضمنت نبوة تنزل على عظيم من ولد إسماعيل، وتضمنت انتشار أمته وأتباعه حتى يملأوا السهل والجبل، كما سنذكره إن شاء الله.

ولم يبق بعد هذا شبهة أصلاً أن هذه هي نبوة محمد ﷺ، التي نزلت بفاران على أشرف ولد إسماعيل حتى (ملأ)[7] الأرض ضياء ونوراً، وملأ أتباعه السهل والجبل،

---

(١) سقطت من ب، ج، ص.
(٢) سورة التين: الآية ١.
(٣) في ج: وأرضهما التي خرجوا منها.
(٤) في ج: أرض المسيح مظهر المسيح.
(٥) التكوين: ٢١.
(٦) في الأصل: عثمان.
(٧) في ب، ج، ص: ملئت.

ولا يكثر على الشعب الذي نطقت التوراة بأنهم عادمو الرأي والفطانة أن ينقسموا إلى جاهل بذلك وجاحد مكابر معاند.

ولفظ التوراة فيهم أنهم الشعب عادم الرأي وليس فيهم فطانة[1].

ويقال لهؤلاء المكابرين: أيّ نبوة خرجت من الشام فاستعلنت استعلان ضياء الشمس وظهرت فوق ظهور النبوتين قبلها؟ وهل هذا إلاّ بمنزلة مكابرة من يرى الشمس قد طلعت من المشرق فيغالط ويكابر ويقول: بل طلعت من المغرب؟

* **الوجه الثالث:**

قال في التوراة في السفر الأول: (إن الملك ظهر لهاجر أم إسماعيل، فقال يا هاجر! من أين أقبلت وإلى أين تريدين؟ فلما شرحت له الحال، قال: ارجعي فإني سأكثر ذريتك وزرعك حتى لا يحصون كثرة، وها أنت تحبلين وتلدين ابناً تسمّيه (إسماعيل) لأن الله قد سمع تذللك وخضوعك، وولدك يكون وحشيّ الناس[2]، وتكون يده على الكل، ويد الكل مبسوطة إليه بالخضوع)[3].

وهذه بشارة تضمنت أن يد ابنها على (يد كل)[4] الخلائق، وأن كلمته العليا، (وأن يد ابنها عالية)[5]، ويد (الخلائق)[6] تحت يده، فمن هذا الذي ينطبق عليه هذا الوصف سوى محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه؟

وكذلك في السفر الأول من التوراة: (إن الله قال لإبراهيم: إني جاعل ابنك إسماعيل لأمة عظيمة إذ هو من زرعك)[7].

وهذه بشارة بمن جعل من ولده لأمة عظيمة، وليس هو سوى محمد بن عبد الله ﷺ

---

(١) التثنية ٣٢/٢٨.
(٢) يكون وحشي الناس كناية عن قتله لأعدائه.
(٣) التكوين: ١٦/٧ ــ ١٢.
(٤) سقطت من الأصل.
(٥) سقطت من ب، ج، ص.
(٦) في ب، ج، ص: الخلق.
(٧) التكوين: ٢١/١٢ ــ ١٣.

الذي هو من صميم ولده، فإنه جعل لأمة عظيمة، ومن تدبر هذه البشارة جزم بأن المراد بها رسول الله ﷺ، لأن إسماعيل لم تكن يده فوق يد إسحق قط، ولا كانت يد إسحق مبسوطة إليه بالخضوع، وكيف يكون ذلك وقد كانت النبوة والملك في ولد إسرائيل والعيص وهما ابنا إسحق، فلما بعث رسول الله ﷺ انتقلت النبوة إلى ولد إسماعيل (ودانت له)(١) الأمم وخضعت له الملوك، وجعل خلافة الملك إلى أهل بيته إلى آخر الدهر، وصارت أيديهم فوق أيدي الجميع، (وأيدي الجميع)(٢) مبسوطة إليهم بالخضوع، وكذلك في السفر (الأول)(٣): «إن الله تعالى قال لإبراهيم: إن في هذا العام يولد لك ولد اسمه إسحق. فقال إبراهيم: ليت إسماعيل هذا يحيي بين يديك ويمجدك، فقال الله تعالى: قد استجبت لك في إسماعيل وإني أباركه (وأنَمّيه)(٤) وأعظمه جداً جداً بما قد استجبت فيه، وإني أصيره إلى أمة (عظيمة كبيرة)(٥) وأعطيه شعباً جليلاً»(٦). والمراد بهذا كله الخارج من نسله، فإنه هو (رسول الله)(٧) عظمه الله جداً جداً، وصيره إلى أمة كبيرة عظيمة، وأعطاه شعباً جليلاً، ولم يأتِ من صلب إسماعيل من بورك وعظم وانطبقت عليه هذه العلامات غير رسول الله ﷺ وأمته، ملأوا الآفاق وأربوا في الكثرة على نسل إسحق.

* الوجه الرابع:

قال في التوراة في السفر الخامس: (قال موسى لبني إسرائيل لا تطيعوا العرافين والمنجمين، فسيقيم لكم الرب سبحانه وتعالى نبياً من إخوتكم مثلي فأطيعوا ذلك النبي)(٨).

ولا يجوز أن يكون هذا النبي الموعود به من نفس بني إسرائيل لما تقدم أن إخوة

---

(١) في ج: وذلت له، وفي ب، ص: ودانت لهم.
(٢) سقطت من ب، ج، ص.
(٣) في ب: الأول ص ١٧ ع ١٩.
(٤) في ب، ص: وايمنه، وفي ج: وابنه.
(٥) في ب: كثيرة كبيرة، وفي ج، ص: كثيرة.
(٦) التكوين: ١٧/١٥ ـ ٢٠.
(٧) في ب، ج، ص: الذي.
(٨) التثنية: ١٨/١٤ ـ ١٥.

القوم ليسوا أنفسهم، كما تقول: بكر وتغلب ابنا وائل، ثم تقول: تغلب أخو بكر، وبنو تغلب إخوة بني بكر، فلو قلت إخوة بني بكر (بنو بكر كان محالاً، ولو قلت لرجل اثنتي برجل من إخوة بني بكر)[1] بن وائل لكان الواجب أن (تأتي)[2] برجل من بني تغلب بن وائل لا بواحد من بني بكر.

[بشارات الإنجيل]

* **الوجه الخامس:**

ما في الإنجيل أن المسيح قال للحواريين: (أنا أذهب وسيأتيكم البارقليط روح الحق لا يتكلم من قبل نفسه، إنما هو كما يقال له، وهو يشهد لي وأنتم تشهدون، لأنكم معي من قبل الناس وكل شيء أعده الله لكم يخبركم به)[3].

وفي إنجيل يوحنا: (البارقليط لا يجيئكم ما لم أذهب، وإذا جاء وبخ العالم على الخطيئة ولا يقول من تلقاء نفسه، ولكنه مما يسمع به يكلمكم (ويسوسكم)[4] بالحق ويخبركم بالحوادث والغيوب)[5].

وفي موضع آخر: (إن البارقليط روح الحق الذي يرسله أبي باسمي هو يعلمكم كل شيء)[6].

وفي موضع آخر: (إني سائل أبي أن يبعث إليكم بارقليطاً آخر يكون معلم الأبد، وهو يعلمكم كل شيء)[7].

وفي موضع آخر: (ابن البشر ذاهب والبارقليط من بعده يجيء لكم بالأسرار، ويفسر

---

(١) سقطت من الأصل.
(٢) في ب، ج، ص: يأتيك.
(٣) يوحنا ١٤/١٠ ــ ١٣.
(٤) في ج: ويسوي بينكم.
(٥) يوحنا: ١٤/٧.
(٦) يوحنا: ١٤/١٦.
(٧) يوحنا: ١٤/١٦.

لكم كل شيء، وهو يشهد لي كما شهدت له، فإني أجيئكم بالأمثال وهو يأتيكم بالتأويل)[1].

قال أبو محمد بن قتيبة[2]: (وهذه الأشياء على اختلافها متقاربة، وإنما اختلفت لأن من نقلها عن المسيح ﷺ في الإنجيل من الحواريين بعده)، والبارقليط في لغتهم (من ألفاظ)[3] الحمد، إما أحمد أو محمد أو محمود أو حامد، ونحو ذلك... وهو في الإنجيل الحبشي (برفقطيس)[4].

وفي موضع آخر: (إن كنتم تحبوني فاحفظوا وصاياي، وأنا أطلب من الأب أن يعطيكم بارقليطاً آخر يثبت معكم إلى الأبد، ويتكلم بروح الحق الذي لم يطق العالم أن يقبلوه لأنهم لم يعرفوه، ولست أدعكم أيتاماً لأني سآتيكم عن قريب)[5].

وفي موضع آخر: (من يحبني يحفظ كلمتي يحبه وإليه يأتي وعنده يتخذ المنزل، كلمتكم بهذا لأني لست عندكم مقيماً، والبارقليط روح الحق الذي يرسله أبي، وهو يعلمكم كل شيء وهو يذكركم كل ما قلت لكم، استودعتكم سلامي، لا تقلق قلوبكم ولا تجزعوا، فإني منطلق وعائد إليكم، لو كنتم تحبوني كنتم تفرحون بمضيي إلى أبي، فإن ثبت كلامي فيكم كان لكم كل ما تريدون)[6].

وفي موضع آخر: (إذا جاء البارقليط الذي أبي يرسله روح الحق الذي من أبي يشهد لي ما قلت لكم حتى إذا كان تؤمنوا ولا تشكوا فيه)[7].

---

(١) يوحنا: ١٥/١٧.

(٢) أبو محمد بن قتيبة، هو أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦هـ وله كتاب دلائل النبوة (ذكره ابن النديم في الفهرست: ص ٨٦) وهو مخطوط في مكتبة الظاهرية بدمشق بعنوان: أعلام رسول الله المنزلة على رسله في التوراة والإنجيل والزبور والقرآن وغير ذلك، ودلائل نبوته من البراهين النيرة والدلائل الواضحة (انظر: معجم ما ألف عن رسول الله ﷺ، صلاح الدين المنجد: ص ٢٦١).

(٣) في ب، ج، ص: لفظ من ألفاظ.

(٤) في ب، ص: برنعتطيس وفي ج: برتعطيس.

(٥) يوحنا: ١٤/١٥ ـ ١٨.

(٦) يوحنا: ١٤/٢٣ ـ ٢٨.

(٧) يوحنا: ١٤/٢٩.

وفي موضع آخر: (إن لي كلاماً كثيراً أريد أن أقوله لكم، ولكنكم لا تستطيعون حمله، لكن إذا جاء روح الحق، ذاك يرشدكم إلى جميع الحق، لأنه ليس ينطق من عنده بل يتكلم بما يسمع ويخبركم بكل ما يأتي ويعرفكم جميع ما للآب)(١). قال يوحنا: (قال المسيح: إن أركون العالم سيأتي وليس لي شيء)(٢) وقال متى: (قال المسيح: ألم يروا أن الحجر الذي أخر البناؤون صار رأساً للزاوية من عند الله(٣). كان هذا وهو عجيب في أعيننا، ومن أجل ذلك أقول لكم: إن ملكوت الله سيؤخذ منكم، ويدفع إلى أمة أخرى تأكل ثمرتها، ومن يسقط على هذا الحجر ينشدح وكل من سقط عليه يمحق)(٤).

وقد اختلف في البارقليط في لغتهم ــ (يعني العبرانية)(٥) ــ فذكروا فيه أقوالاً ترجع إلى ثلاثة (أوجه)(٦):

أحدها: أنه الحامد والحمد كما تقدم ورجحت طائفة هذا القول، وقالوا: الذي يقوم عليه البرهان في لغتهم أنه الحمد. والدليل عليه في قول يوشع: (من عمل حسنة يكون له فارقليط جيد)(٧) أي حمد جيد.

والقول الثاني: ــ وعليه أكثر النصارى ــ (أنه المخلص)(٨) والمسيح نفسه يسمونه

---

(١) يوحنا: ١٦/١٢ ــ ١٣.

(٢) يوحنا: ١٤/٣٠ لكن الترجمة «الحالية»: إن رئيس العالم بدل لفظة أركون، ولفظة أركون معناها الرئيس (راجع المعجم الوسيط).

(٣) وهذا موافق للحديث الذي أخرجه الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: مثلي ومثل الأنبياء قبلي كمثل رجل ابتنى بيوتاً فأحسنها وأجملها وأكملها إلا موضع لبنة من زاوية من زواياها، فجعل الناس يطوفون ويعجبهم البنيان فيقولون: ألا وضعت ههنا لبنة، فيتم بنيانك؟ فقال محمد ﷺ: فكنت أنا اللبنة.

انظر: صحيح مسلم، كتاب الفضائل: حديث ٢١.

(٤) متى: ٢١/٤٢ ــ ٤٤.

(٥) زيادة في الأصل. والبارقليط لفظة يونانية لا عبرانية.

(٦) في الأصل: فقط.

(٧) الترجمات الحالية ليس فيها لفظ (فارقليط) لأن النصارى عمدوا إلى حذفها واستبدالها بالمعزي أو المخلص، وذلك لوضوح معنى الحمد في الفارقليط.

(٨) بعض الطبعات للكتاب المقدس تذكر كلمة «المخلص» بدل كلمة «فارقليط».

المخلص وهذه كلمة سريانية (معناها المخلص)[1]. قالوا: وهو بالسريانية «فاروق» فجعل «فارق» قالوا: و «ليط» كلمة تزاد ومعناها كقول العرب: رجل هو، وحجر هو، وفرس هو، قالوا: فكذلك معنى ليط في السريانية.

والقول الثالث: وقالت (طائفة) أخرى من النصارى معناه بالسريانية (المعزي)[2] قالوا: وكذلك هو في اللسان اليوناني (ويعترض على هذين القولين بأن المسيح لم تكن لغته سريانية)[3] ــ ولا يونانية بل عبرانية ــ (وأجيب عن هذا) بأنه تكلم بالعبرانية، والإنجيل إنما نزل باللغة العبرانية وترجم عليه باللغة السريانية والرومية واليونانية وغيرها.

وأكثر النصارى على أنه المخلص، والمسيح (نفسه)[4] يسمونه المخلص. وفي الإنجيل الذي بأيديهم أنه قال: إنما أتيت لأخلص العالم[5].

والنصارى يقولون في (صلاتهم)[6]: «لقد ولدت لنا مخلصاً»[7].

[تحريف النصارى لهذه البشارة]

ولما لم يمكن النصارى إنكار هذه النصوص، حرفوها أنواعاً من التحريف فمنهم من قال: هو روح نزلت على الحواريين، ومنهم من قال: هو (ألسن نارية)[8] نزلت من السماء على التلاميذ ففعلوا بها الآيات والعجائب. ومنهم من يزعم أنه المسيح نفسه

---

(١) سقطت من الأصل وفي ص: معناها بالعربية أي الفاروق.

(٢) في جميع النسخ: المعز.
وبعض الطبعات تذكر «المعزي» بدل «الفراقليط».
انظر: الكتاب المقدس، نشر دار الكتاب المقدس في العالم العربي، مطبوع في كوريا سنة ١٩٧٦.

(٣) سقطت من الأصل.

(٤) في ج: بعينه.

(٥) انظر: يوحنا: ١٢/٤٧.

(٦) في ج: في صلاتهم بل في ضلالهم.

(٧) انظر: رسالة يوحنا الأولى: ٤/١٤.

(٨) في ج: هو ماء وبه.

لكونه جاء بعد الصليب بأربعين يوماً، وكونه قام من قبره. ومنهم من قال: لا نعرف ما المراد بهذا الفارقليط ولا يتحقق لنا معناه.

[الردّ على هذا التحريف]

ومن تأمل ألفاظ الإنجيل وسياقها (علم)[1] أن تفسيره بالروح باطل، وأبطل منه تفسيره بالألسن النارية، وأبطل منهما تفسيره بالمسيح، فإن روح القدس لا زالت تنزل على الأنبياء والصالحين قبل المسيح وبعده، وليست موصوفة بهذه الصفات. وقد قال تعالى: ﴿لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله، ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه﴾[2].

وقال النبي ﷺ لحسّان بن ثابت رضي الله عنه لما كان يهجو المشركين: «اللهم أيّده بروح القدس»[3] وقال: «إن روح القدس معك ما زلت تنافح عن نبيه»[4].

وإذا كان كذلك، ولم يسم أحد هذه الروح فارقليطاً، علم أن البارقليط هو (أمر)[5] غير هذا، وأيضاً فمثل هذه الروح لا زالت (يؤيد بها)[6] الأنبياء والصالحون، وما بشر به المسيح ووعد به أمر عظيم يأتي بعده أعظم (من هذا)[7]، فإنه وصف الفارقليط بصفات لا تناسب هذه الروح، وإنما تناسب رجلاً يأتي بعده نظيراً له، فإنه قال: «إن كنتم تحبوني فاحفظوا وصاياي، وأنا أطلب من الآب أن يعطيكم فارقليطاً آخر يثبت معكم إلى الأبد» (فقوله)[8]: فارقليطاً آخر دل على أنه ثانٍ لأوّل (وكان)[9] قبله، وأنه لم يكن (معهم)[10]

---

(١) في الأصل: اطلع على.

(٢) سورة المجادلة: الآية ٢٢.

(٣) صحيح مسلم، كتاب الفضائل الصحابة: ١٥٢/٣٤.

(٤) في صحيح مسلم: «إن روح القدس لا زال يؤيدك ما نافحت عن الله ورسوله». ٣٤/٤٤ ـ ١٥٧.

(٥) في الأصل: أمر عظيم.

(٦) في الأصل: تؤديها.

(٧) في الأصل: منه.

(٨) في ج: ومعلوم أنه بقوله.

(٩) في ج: كأنه، وفي ب، ص: كان.

(١٠) في الأصل: معه.

في حياة المسيح، وإنّما يكون بعد ذهابه (وتولّيه)[1]، وأيضاً فإنّه قال: «يثبت معكم إلى الأبد» وهذا إنّما يكون لما يدوم ويبقى (معهم)[2] إلى آخر الدهر، ومعلوم أنه لم يرد بقاء ذاته، فعلم أنه بقاء شرعه وأمره. والبارقليط الأول لم يثبت معهم شرعه ودينه إلى الأبد، وهذا يبين أن الثاني صاحب شرع لا ينسخ بل يبقى إلى الأبد بخلاف الأوّل. وهذا إنما ينطبق على محمد ﷺ.

وأيضاً فإنه أخبر أن هذا البارقليط الذي أخبر به يشهد له، ويعلمهم كل شيء وأنه (يذكرهم)[3] كل ما (قاله)[4]، وأنه يوبخ العالم على خطيئته.

قال: «والفارقليط الذي يرسله أبي هو يعلمكم كل شيء ويذكركم كل ما قلت لكم».

وقال: «(إذا جاء الفارقليط الذي أبي يرسله)[5] هو يشهد لي أني قلت هذا، حتى إذا كان تؤمنوا به ولا تشكوا فيه».

وقال: (إن خيراً لكم أن (أنطلق)[6] إلى أبي، إن لم أذهب لم يأتكم الفارقليط، فإذا انطلقت أرسلته إليكم فهو يوبخ العالم على الخطيئة. وإن لي كلاماً كثيراً أريد أن (أقوله)[7]، ولكنكم لا تستطيعون حمله، لكن إذا جاء روح الحق ذاك الذي يرشدكم إلى جميع الحق لأنه ليس ينطق من عند نفسه بل يتكلم بما يسمع ويخبر بكل ما يأتي ويعرفكم جميع ما للآب)[8].

فهذه الصفات والنعوت التي تلقوها عن المسيح لا تنطبق على أمر معنوي

---

(١) في ب، ج، ص: توليه عنهم.
(٢) في ج: معهم إلى الأبد أي.
(٣) في ب، ص: يذكر لهم.
(٤) في ب، ص: قال المسيح وفي ج: قال المسيح بل يبقى إلى الأبد بخلاف الأول.
(٥) سقطت من ج.
(٦) في ج: اذهب.
(٧) في ب، ص: أقوله لكم.
(٨) يوحنا: ١٦/٧ ـ ٨، ١٢ ـ ١٥.

(يكون)[1] في قلب بعض الناس (لا يراه أحد ولا يسمع كلامه)[2] وإنما ينطبق على من (يراه الناس)[3] ويسمعون كلامه، فيشهد للمسيح ويعلمهم كل شيء، ويذكرهم كل ما قال لهم المسيح، ويوبخ العالم على الخطيئة، ويرشد الناس إلى جميع الحق، ولا ينطق من عنده، بل يتكلم بما يسمع ويخبرهم بكل ما يأتي، ويعرفهم جميع ما لرب العالمين، وهذا لا يكون ملَكاً لا يراه أحد، ولا يكون هدى وعلماً في (قلوب)[4] بعض الناس، ولا يكون إلاّ إنساناً عظيم القدر يخاطب الناس بما أخبر به المسيح، وهذا لا يكون إلاّ بشراً رسولاً بل يكون أعظم من المسيح، فإن المسيح أخبر أنه يقدر على ما لا يقدر عليه المسيح، ويعلم ما (لا يعلمه)[5]، ويخبر بكل ما يأتي وبما يستحقه الرب، حيث قال: «إن لي كلاماً كثيراً أريد أن أقوله ولكنكم لا تستطيعون حمله، ولكن إذا جاء روح الحق ذاك الذي يرشدكم إلى جميع الحق لأنه ليس ينطق من عنده بل يتكلم بما يسمع ويخبركم بما يأتي ويعرفكم جميع ما للآب»[6].

فلا يستريب عاقل أن هذه الصفات لا تنطبق إلاّ على محمد ﷺ وذلك لأن الإخبار عن الله تعالى بما هو متصف به من الصفات وعن ملائكته وعن ملكوته، وعما أعده في الجنة لأوليائه، وفي النار لأعدائه، أمر لا تحتمل أكثر عقول الناس معرفته على التفصيل.

قال علي رضي الله عنه «حدثوا الناس بما يعرفون ودعوا ما ينكرون أتريدون أن يكذب الله ورسوله»[7].

وقال ابن مسعود: «ما من رجل يحدث قوماً بحديث لا تبلغه عقولهم إلاّ كان فتنة لبعضهم»[8].

(١) سقطت من ب، ج، ص.
(٢) سقطت من الأصل.
(٣) سقطت من الأصل.
(٤) في ب، ج، ص: قلب.
(٥) في ب، ج، ص: يعلمه المسيح.
(٦) يوحنا: ١٦/١٢ ــ ١٥.
(٧) أخرجه البخاري في كتاب العلم: ص ٤٩.
(٨) لم أجده.

وسأل رجل ابن عباس رضي الله عنه عن قوله تعالى: ﴿الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلَهن يتنزّل الأمر بينهن﴾[1].

قال: ما يؤمنك أن لو أخبرتك بها لكفرت، يعني: أني لو أخبرتك بتفسيرها لكفرت بها، وكفرك بها تكذيبك بها[2].

فقال لهم المسيح: «إن لي كلاماً كثيراً أريد أن أقوله لكم ولكنكم لا تستطيعون حمله»، وهو الصادق المصدوق (في هذا)[3].

ولهذا ليس في الإنجيل من صفات الله تعالى وصفات ملكوته وصفات اليوم الآخر إلا أمور مجملة، وكذلك التوراة ليس فيها من ذكر اليوم الآخر إلّا أمور مجملة مع أن موسى عليه الصلاة والسلام كان قد مهد (لأمر المسيح)[4] ومع هذا فقد قال لهم المسيح: «إن لي كلاماً كثيراً أريد أن أقوله لكم ولكنكم لا تستطيعون حمله»، ثم قال: «ولكن إذا جاء روح (الحق)[5] فذاك الذي يرشدكم إلى الحق ويخبركم بكل ما يأتي وبجميع ما للرب».

فدل هذا على أن الفارقليط هو الذي يفعل هذا دون المسيح، وكذلك كان، فإن محمداً ﷺ أرشد الناس إلى جميع الحق حتى أكمل الله به الدين، وأتم به النعمة، (ولهذا)[6] كان خاتم الأنبياء، فإنه لم يبق (شيء يأتي به غيره)[7]، وأخبر محمد ﷺ بكل ما يأتي من أشراط الساعة والقيامة والحساب والصراط ووزن الأعمال والجنة وأنواع نعيمها والنار وأنواع عذابها، ولهذا كان في القرآن تفصيل أمر الآخرة وذكر الجنة والنار فهو يأتي بأمور كثيرة لا توجد في التوراة والإنجيل، وذلك تصديق قول المسيح عليه الصلاة والسلام أنه يخبر بكل ما يأتي، وذلك يتضمن صدق المسيح وصدق محمد ﷺ، وهذا معنى قوله

---

(١) سورة الطلاق: الآية ١٢.

(٢) انظر: تفسير الطبري: ١٨/٩٩ الطبعة الأولى.

(٣) سقطت من الأصل.

(٤) في ب، ج: الأمر للمسيح وفي ص: الأرض للمسيح.

(٥) في الأصل: القدس.

(٦) في ج: ولقد.

(٧) في ج: نبي يأتي بعده غيره.

تعالى: ﴿إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون، ويقولون أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون، بل جاء بالحق وصدّق المرسلين﴾[1] أي مجيئه تصديق للرسل قبله فإنهم أخبروا بمجيئه فجاء كما أخبروا به، فتضمن مجيئه تصديقهم، ثم شهد هو بصدقهم فصدّقهم بقوله ومجيئه.

(ومحمد)[2] ﷺ، بعثه الله بين يدي الساعة كما قال ﷺ: «بعثت أنا والساعة كهاتين، وأشار بأصبعيه السبّابة والوسطى»[3] وكان إذا ذكر الساعة علا صوته (واحمرّ وجهه)[4] واشتد غضبه، وقال: «أنا النذير العريان»[5].

فأخبر من الأمور التي تأتي في المستقبل بما لم يأت به نبي من الأنبياء، كما نعته به المسيح ﷺ، حيث قال: إنّه يخبركم بكل ما يأتي. ولا يوجد مثل هذا أصلاً عن (نبي)[6] من الأنبياء قبل محمد ﷺ فضلاً عن أن يوجد في شيء أنزل على قلب بعض الحواريين. وأيضاً فإنه قال: «ويعرفكم جميع ما للرب».

فبيّن أنه يعرّف الناس جميع ما لله، (وذلك)[7] يتناول ما لله من الأسماء والصفات، وما له من الحقوق، وما يجب من الإيمان به وملائكته وكتبه ورسله، بحيث يكون ما يأتي به جامعاً لما يستحقه الرب سبحانه وتعالى، وهذا لم يأت به غير محمد ﷺ، فإنه تضمن ما جاء به من الكتاب والحكمة.

هذا كله وأيضاً فإن المسيح قال: «إذا جاء البارقليط الذي أرسله أبي فهو يشهد لي أني قلت لكم هذا حتى إذا كان تؤمنوا به».

فأخبر أنه شهد له، وهذه صفة نبي بشّر به المسيح، ويشهد للمسيح كما قال

---

(١) سورة الصافات: الآيات ٣٥ ــ ٣٧.
(٢) سقطت من الأصل.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه في عدة مواضع، راجع الجمعة: ٤٣/١٣، الفتن ١٣٣/٢٧ ــ ١٣٥.
(٤) سقطت من ج.
(٥) صحيح البخاري، الرقائق: ص ٢٦، الاعتصام؛ صحيح مسلم، فضائل: ١٦.
(٦) في ب، ج، ص: أحد.
(٧) سقطت من الأصل.

تعالى: ﴿وإذ قال عيسى ابنُ مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يديّ من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد﴾[١].

وأخبر أنه يوبخ العالم على الخطيئة، وهذا يستحيل حمله على معنى يقوم بقلب الحواريين، فإنهم آمنوا به وشهدوا له قبل ذهابه، فكيف يقول «إذا جاء فإنه يشهد لي» ويوصيهم بالإيمان به. أفترى الحواريين لم يكونوا مؤمنين بالمسيح! فهذا من أعظم جهل النصارى وضلالهم.

وأيضاً فإنه لم يوجد أحد وبّخ جميع (العالم)[٢] على الخطيئة إلّا محمد ﷺ فإنه أنذر جميع العالم من أصناف الناس، ووبخهم على الخطيئة من الكفر والفسوق والعصيان، ولم يقتصر على مجرد الأمر والنهي بل وبّخهم وقرّعهم وتهددهم.

وأيضاً فإنه أخبر أنه ليس ينطق من عنده بل يتكلم بكل ما يسمع، وهذا إخبار بأن كل ما يتكلم به فهو (وحي)[٣] يسمعه، ليس هو شيئاً تعلمه من الناس أو عرفه باستنباطه، وهذه خاصة بمحمد ﷺ.

وأما المسيح فكان عنده علم بما جاء به موسى قبله يشارك به أهل الكتاب، تلقاه عمن قبله ثم جاءه وحي (خاص)[٤] من الله فوق ما كان عنده قال تعالى: ﴿ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل﴾[٥] فأخبر سبحانه وتعالى أنه يعلمه التوراة التي تعلمّها بنو إسرائيل وزاده تعليم الإنجيل الذي اختص به والكتاب، الذي هو الكتابة، ومحمد ﷺ لم يكن تعلم قبل الوحي شيئاً من ذلك البتّة كما قال تعالى: ﴿وكذلك (أوحينا)[٦] إليك روحاً من أمرنا ما كنتَ تدري ما الكتاب ولا الإيمان﴾[٧].

---

(١) سورة الصف: الآية ٦.
(٢) في ب، ص: العالم من أصناف الناس.
(٣) في الأصل: شيء.
(٤) في ج: خالص.
(٥) سورة آل عمران: الآية ٤٨.
(٦) سقطت سهواً من الأصل.
(٧) سورة الشورى: الآية ٥٢.

وقال تعالى: ﴿نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين﴾[1][2].

فلم يكن ﷺ ينطق من تلقاء نفسه، بل إنما كان نطقه بالوحي كما قال تعالى: ﴿وما ينطق عن الهوى إن هو إلاّ وحي يوحى﴾[3] وهذا مطابق لقول المسيح: (إنه لا يتكلم من تلقاء نفسه بل يتكلم بما يوحى إليه).

فالله تعالى أمره أن يبلغ ما أنزل إليه وضمن له العصمة في تبليغ رسالاته، فلهذا أرشد الناس إلى جميع الحق، وألقى إلى الناس ما لم يكن غيره من الأنبياء ألقاه خوفاً أن يقتله قومه[4]، وقد أخبر المسيح أنه لم يذكر لهم جميع ما عنده وأنهم لا يطيقون حمله، وهم معترفون بأنه كان يخاف منهم إذا أخبرهم بحقائق الأمور ومحمد ﷺ أيّده الله سبحانه وتعالى تأييداً لم يؤيده لغيره، فعصمه من الناس حتى لم يخف من شيء يقوله[5]، وأعطاه من البيان والعلم ما لم يؤته غيره.

فالكتاب الذي بعث به، فيه من بيان حقائق الغيب ما ليس في كتاب غيره. وأيّد (أمته)[6] تأييداً طاقت به حمل ما ألقاه إليهم، فلم يكونوا كأهل التوراة الذين حُملوا التوراة ثم لم يحملوها، ولا كأهل الإنجيل الذين قال لهم المسيح: (إن لي كلاماً كثيراً أريد أن أقوله لكم ولكن لا تستطيعون حمله).

ولا ريب أن أمة محمد ﷺ أكمل عقولاً وأعظم إيماناً وأتم تصديقاً وجهاداً، ولهذا كانت علومهم وأعمالهم القلبية وإيمانهم أعظم، وكانت العبادات البدنية لغيرهم أعظم.

وأيضاً فإنه أخبر عن الفارقليط أنه يشهد له، وأنه يعلمهم كل شيء، وأنه يذكرهم

---

(١) سورة يوسف: الآية ٣.

(٢) سقطت الآيتان من ص.

(٣) سورة النجم: الآيتان ٣٠، ٣١.

(٤) هذا المعنى لا يتفق مع عصمة الأنبياء والقرآن الكريم أخبرنا أن الأنبياء واجهوا أقوامهم بالحق الذي جاءهم من عند الله ومنهم من قتله قومه.

(٥) كما قال الله تعالى: ﴿يا أيها النبي بلغ ما أنزل إليك من ربك فإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس﴾ [المائدة: ٦٧].

(٦) في ب: الله.

كل ما قال المسيح، ومعلوم أن هذا لا يكون إلا إذا شهد له شهادة يسمعها النّاس عامة، (لا يكون هذا في قلب طائفة قليلة، ولم يشهد أحد للمسيح شهادة يسمعها عامة الناس)[1] إلا محمد ﷺ، فإنه أظهر أمر المسيح وشهد له بالحق، حتى سمع شهادته له عامة أهل الأرض، وعلموا أنه صدّق المسيح ونزهه عما (يقوله عليه اليهود من الافتراء)[2]، وما (غلت)[3] فيه النصارى.

فهو الذي شهد له بالحق، ولهذا لما سمع النجاشي من الصحابة ما شهد به محمد ﷺ للمسيح، قال لهم: ما زاد عيسى على ما قلتم هذا العود.

وجعل الله أمة محمد ﷺ شهداء على الناس، يشهدون عليه بما علموا من الحق إذ كانوا وسطاً عدولاً لا يشهدون بباطل[4]، فإن الشاهد لا يكون إلا عدلاً، بخلاف من جار في شهادته فزاد على الحق أو نقص منه، كشهادة اليهود والنصارى في المسيح.

وأيضاً فإن (معنى)[5] الفارقليط: إن كان هو الحامد أو الحماد أو المحمود أو الحمد، فهذا وصف ظاهر في محمد ﷺ، فإنه وأمته الحامدون الذين يحمدون الله على كل حال، وهو صاحب لواء الحمد، والحمد مفتاح خطبته ومفتاح صلاته، ولما كان حماداً سمي بمثل وصفه (محمداً)[6] على وزن مكرّم ومقدّس ومعظّم، وهو الذي يحمد أكثر ما يحمد غيره، ويستحق ذلك فلما كان حماداً لله كان محمداً، وفي شعر حسّان[7]:

أغر عليه للنبوة خاتم ... من الله (ميمون)[8] يلوح ويشهد
وضم الإله اسم النبي إلى اسمه ... إذ قال في الخمس المؤذن أشهد
وشق له من اسمه ليجلّه ... فذو العرش محمود وهذا محمد

---

(١) سقطت من الأصل.

(٢) في ب، ج، ص: عما افترته عليه اليهود.

(٣) في ج: غالت.

(٤) كما قال تعالى: ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً...﴾ [البقرة: ١٤٣].

(٥) في ب، ص: المعنى في.

(٦) في ب، ج، ص: فهو محمد.

(٧) ديوان حسان بن ثابت: ص ٤٧، دار صادر، بيروت: ١٣٨٦هـ.

(٨) في الديوان: مشهود.

وأما أحمد فهو أفعل التفضيل إذ هو أحمد من غيره، أي أحق بأن يكون محموداً أكثر من غيره، يقال: هذا أحمد من هذا، أي أحق بأن يحمد من هذا، فيكون فيه تفضيل على غيره في كونه محموداً، فلفظ محمد يقتضي زيادة في الكمية، ولفظ أحمد يقتضي زيادة في الكيفيّة.

ومن الناس من يقول: معناه أنه أكثر حمداً لله من غيره وعلى هذا فيكون بمعنى الحامد والحماد وعلى الأول بمعنى المحمود.

وإذا كان الفارقليط بمعنى الحمد، فهو تسمية بالمصدر مبالغة في كثرة الحمد، كما يقال: رجل عدل ورضى ونظائر ذلك، وبهذا يظهر سر ما أخبر به القرآن عن المسيح من قوله: ﴿ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد﴾.

فإن هذا هو معنى الفارقليط كما تقدم.

وفي التوراة ما ترجمته بالعربية: وأما في إسماعيل فقد قبلت دعاءك (قد)[1] باركت فيه وأثمرت وأكثره بـ (مؤد مؤد)[2]. هذا اللفظ مؤد مؤد على وزن عمر، وقد اختلفت فيها علماء أهل الكتاب، فطائفة تقول: معناها جداً جداً أي كثيراً كثيراً، فإن كان هذا معناها فهو بشارة بمن عظم من نبيه كثيراً كثيراً، ومعلوم أنه لم يعظم من نبيه أكثر مما عظم محمد ﷺ.

وقالت طائفة أخرى: بل هي صريح اسم محمد، قالوا: ويدل عليه أن ألفاظ العبرانية قريبة من ألفاظ العربية، فهي أقرب اللغات إلى العربية[3]، فإنهم يقولون لإسماعيل: شماعيل وسمعتك: شمعتخا (وأنا: أنو)[4] وقدسك: قد شتخا، وأنت: أتا، وإسرائيل: يسرائيل، وتأمل قوله في التوراة: (قدش لي خلّ بخور ريحم ببني يسرائيل بأدام وببهيما لي).

(١) في ب، ج، ص: ها أنا قد.

(٢) في جميع النسخ كتبت الهمزة على ألف (ماد ماد).

(٣) اللغة العربية واللغة العبرية لغتان ساميتان، بينهما أوجه شبه كثيرة ذكرها الدكتور ربحي كمال في مقدمة كتابه: دروس اللغة العبرية.

(٤) في ب، ج، ص: واياه أتو.

معناه: «قدس لي كل بكر أو مولود رحم في بني إسرائيل من إنسان إلى بهيمة لي»[1].

وتأمل قوله «نابي أقيم لا هيم مفارت أخيهم كاموها الاؤه يشماعون» وإن معناه: نبياً أقيم لهم من وسط إخوتهم مثلك له تسمعون[2]. وكذلك قوله: «أنتم عابريم بفبول آحيحيم بني عيصا» «أنتم عابرون في تخم إخوتكم بني العيص»[3] ونظائر ذلك أكثر من أن تذكر.

فإذا أخذت لفظة (مود مود)[4] وجدتها أقرب شيء إلى لفظة محمد وإذا أردت تحقيق ذلك فطابق بين ألفاظ العبرانية والعربية، ولذلك يقولون: اصبوع الوهيم، أي أصبع الله كتب له بها التوراة.

ويدل على ذلك أداة الباء في قوله (بمود مود) ولا يقال: أعظمه بجداً جداً، بخلاف أعظمه بمحمد ﷺ (وكذلك هو فإنه عظم به وازداد به شرفاً إلى شرفه، بل تعظيمه بمحمد ابنه ﷺ)[5] فوق تعظيم كل والد لولده العظيم القدر. فالله سبحانه وتعالى (كثره)[6] بمحمد ﷺ.

وعلى التقديرين فالنص من أظهر البشارات به. أما على هذا التفسير فظاهر جداً

---

(١) الخروج: ١٣/١.

(٢) النص: نبياً أقيم لهم من وسط إخوتهم مثلك، التثنية: ١٨/١٨. وأما كلمة «له تسمعون» فهي في قوله «يقيم لك الرب إلهاً نبياً من وسطك من إخوتك مثلي له تسمعون»، التثنية: ١٥/٨. وفي ب، ج، ص: مثلك به يؤمنون.

(٣) التثنية: ٤/٢.

(٤) ذكر الدكتور السقا أن هذه اللفظة تساوي في حساب الجمل ما يساويه اسم (محمد)، وقد أضاف إليها الباء كما وردت في النص واعتبر الواو همزة.
ب = ٢، م = ٤٠، الهمزة = ١، د = ٤، المجموع = ٩٢.
م = ٢٠، ح = ٨، م = ٤٠، د = ٤، المجموع = ٩٢.
(انظر: أقانيم النصارى، د. السقا: ٣٠).

(٥) سقطت من الأصل.

(٦) في ب، ج، ص: كبّره.

جداً، وأما على التفسير الأول فإنه كثر إسماعيل (وعظمه)[1] على إسحق جداً جداً بابنه محمد ﷺ. فإذا طابقت بين معنى البارقليط ومعنى مود مود ومعنى محمد وأحمد، ونظرت إلى خصال الحمد التي فيه وتسميته أمته (بالحامدين)[2]، وافتتاح كتابه بالحمد (وافتتاح الصلاة بالحمد)[3]، وكثرة خصال الحمد التي فيه وفي أمته وفي دينه وفي كتابه، وعرفت ما خلص به العالم من أنواع الشرك والكفر والخطايا والبدع والقول على الله بغير علم، وما أعز الله به الحق وأهله، وقمع به الباطل وحزبه، تيقنت أنه الفارقليط بالاعتبارات كلها، فمن هذا الذي هو روح الحق الذي لا يتكلم إلا بما يوحى إليه ومن هو العاقب للمسيح والشاهد لما جاء به والمصدق له بمجيئه؟ ومن الذي أخبرنا بالحوادث والأزمنة المستقبلة، كخروج الدجال، وظهور الدابة، وطلوع الشمس من مغربها، وخروج يأجوج ومأجوج، ونزول المسيح ابن مريم، وظهور النار التي تحشر الناس، وأضعاف أضعاف ذلك من الغيوب التي قبل يوم القيامة، والغيوب الواقعة يوم القيامة من الصراط والميزان والحساب، وأخذ الكتب بالأيمان والشمائل وتفاصيل ما في الجنة والنار مما لم يذكر في التوراة والإنجيل، غير محمد ﷺ، ومن الذي وبّخ العالم على الخطايا سواه، ومن الذي عرف الأمة (ما ينبغي لله)[4] حق التعريف غيره، ومن الذي يتكلم في هذا الباب بما لم يطق أكثر العالم أن يقبلوه غيره، حتى عجزت عنه عقول كثيرة ممن صدقه وآمن به، فساموه أنواع (التحريف)[5] والتأويل بعجز عقولهم عن حمله، كما قال أخوه المسيح صلوات الله عليهما وسلامه؟ ومن الذي أرسل إلى جميع (الخلق)[6] قولاً وعملاً واعتقاداً في معرفة الله وأسمائه وصفاته وأحكامه وأفعاله (وقضائه)[7] وقدره، غيره ﷺ؟ ومن هو أركون العالم الذي أتى بعد المسيح غيره، وأركون العالم هو عظيم العالم وكبير العالم، وتأمل قول المسيح في هذه البشارة التي لا ينكرونها (أن أركون العالم سيأتي وليس لي من

---

(١) سقطت من ج.
(٢) في ب، ج، ص: بالحمادين.
(٣) هذا في ج فقط.
(٤) سقطت من ج.
(٥) في الأصل: التخويف.
(٦) في ب، ج، ص: الخلق بالحق.
(٧) في الأصل: وفضائله.

الأمر شيء)[1] كيف (وهي شاهدة)[2] بنبوة المسيح وبنبوة محمد ﷺ معاً، فإنه لما جاء صار الأمر له دون المسيح، فوجب على العالم كلهم طاعته والانقياد له ولأمره وصار الأمر له حقيقة، ولم يبق بأيدي النصارى إلا دين باطله أضعاف أضعاف حقه، وحقّه منسوخ بما بعث الله به محمداً ﷺ، فطابق قول المسيح قول أخيه محمد ﷺ «ينزل فيكم ابن مريم حكماً عدلاً وإماماً مقسطاً فيحكم بكتاب ربكم»[3].

وقوله في اللفظ الآخر (فأمكم)[4] بكتاب ربكم، فتطابق قول الرسولين الكريمين صلى الله عليهما وسلم، وبشّر الأول بالثاني وصدق الثاني بالأوّل.

وتأمل قوله في البشارة الأخرى، ألم تر إلى الحجر الذي أخره البناؤون صار (أسا)[5] للزاوية[6]، كيف تجده مطابقاً لقول النبي ﷺ: «مثلي ومثل الأنبياء قبلي، كمثل رجل بنى داراً فأكملها وأتمها إلاّ موضع لبنة منها، فجعل الناس (يطوفون)[7] ويعجبون منها ويقولون: هلاّ وضعت تلك اللبنة؟ فكنت أنا تلك اللبنة»[8].

وتأمل قول المسيح في هذه البشارة: «إن ذلك لعجيب في أعيننا»[9] وتأمل قوله فيها: «إن ملكوت الله سيؤخذ منكم ويدفع إلى (أمة أخرى)»[10] كيف تجده مطابقاً لقوله تعالى: ﴿ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون﴾[11].

وقوله: ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات، ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكننّ لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنّهم من بعد

---

(١) يوحنا: ١٤/٣٠.
(٢) سقطت من الأصل.
(٣) البخاري، بيوع: ص١٠٢؛ مظالم: ص ٣١؛ مسلم، الإيمان: ص ٢٤٢.
(٤) في ص: فيأتيكم.
(٥) في ب: رأساً، وهو هكذا في الإنجيل.
(٦) متى: ٢١/٤٣؛ مرقس: ١٢/١٠؛ لوقا: ٢٠/١٧.
(٧) في الأصل يطيفون.
(٨) صحيح مسلم، الفضائل: ص ٢٠.
(٩) متى: ٢١/٤٣.
(١٠) في الإنجيل: أمة تعمل اثماره، متى: ٢١/٤٤.
(١١) سورة الأنبياء: الآية ١٠٥.

خوفهم أمناً، يعبدونني لا يشركون بـي شيئاً ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون﴾[1].

وتأمل قوله في البارقليط المبشر به: «يفشي لكم الأسرار ويفسر لكم كل شيء فإني أجيئكم بالأمثال وهو يأتيكم بالتأويل»[2].

كيف تجده مطابقاً للواقع من كل وجه لقوله تعالى: ﴿ونَزَّلْنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء﴾[3].

ولقوله تعالى: ﴿ما كان حديثاً يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾[4].

وإذا تأملت التوراة والإنجيل والكتب، وتأملت القرآن وجدته كالتفصيل لجملها والتأويل لأمثلتها والشرح لرموزها، وهذا حقيقة قول المسيح «أجيئكم بالأمثال ويجيئكم بالتأويل ويفسر لكم كل شيء».

وإذا تأملت قوله: «وكل شيء أعده الله لكم يخبركم به» وتفاصيل ما أخبر به من الجنّة والنّار والثواب والعقاب، تيقنت صدق الرسولين الكريمين. ومطابقة (الخبر)[5] المفصل من محمد ﷺ للخبر المجمل من أخيه المسيح عليه الصلاة والسلام. وتأمل قوله في البارقليط: «وهو يشهد لي كما شهدت له» كيف تجده منطبقاً على محمد بن عبد الله، وكيف تجده شاهداً بصدق الرسولين، وكيف تجده صريحاً في رجل يأتي بعد المسيح يشهد له بأنه عبد الله ورسوله، كما شهد له المسيح، فلقد أذّن المسيح بنبوة محمد صلى الله وسلامه عليهما أذاناً لم يؤذنه نبي قبله، وأعلن بتكبير ربه أن تكون له صاحبة أو ولد، ثم رفع صوته بشهادة أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له إلهاً واحداً أحداً فرداً صمداً، ﴿لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد﴾، ثم أعلن بشهادة أن محمداً عبده ورسوله، الشاهد له بنبوته المؤيد (بروح الحق)[6] الذي لا يقول من تلقاء نفسه بل يتكلم

---

(١) سورة النور: الآية ٥٥.

(٢) كورنثوس الأولى: ٢/١٤.

(٣) سورة النحل: الآية ٨٩.

(٤) سورة يوسف: الآية ١١١.

(٥) في ب، ج، ص: الأخبار.

(٦) في الأصل: بروح القدس.

بمـا يوحى إليـه، ويعلمهم كل شيء ويخبـر بما أعـدّ الله لهم، ثم رفع صـوتـه بحيّ على الفلاح باتباعه والإيمان به وتصديقه، وأنه ليس له من الأمـر (شيء)[1]، وختم التأذين بـأن ملكوت الله سيؤخذ ممن كذبه ويدفع إلى أتبـاعه والمؤمنين بـه، فهلك من هلك عن بيّنة، وعاش (من عاش عن بيّنة)[2] فاستجـاب أتباع المسيـح حقاً لهـذا التأذين وأبـاه الكافـرون والجاحدون. فقال تعالى: ﴿إني متوفيك ورافعك إليّ ومطهرك من الذين كفروا، وجاعـل الذين اتبعوك فـوق الذين كفـروا إلى يوم القيـامة، ثم إليّ مـرجعكم فأنبئكم بمـا كنتم فيه تختلفون﴾[3].

وهذا بشارة بأن المسلمين لا يزالون فوق النصارى إلى يوم القيـامة، فـإن المسلمين هم أتبـاع المسيـح في الحقيقـة وأتبـاع جميـع الأنبيـاء، لا أعــداؤه! (وأعـداؤه)[4] عبــاد الصليب، الذين رضوا أن يكـون إلهاً مصفـوعاً مصلوبـاً مقتولاً، ولم يـرضوا أن يكـون نبياً عبداً لله وجيهاً عنده مقرباً لديه. فهؤلاء أعداؤه حقاً والمسلمون أتباعه حقـاً، والمقصود أن بشارة المسيح بالنبـي ﷺ فوق كل بشارة، لما كان أقرب الأنبياء إليه وأولاهم به وليس بينه وبينه نبـي (مرسل صاحب شريعة وكتاب)[5].

(فصل): وتأمل قول المسيح: «أن أركون العالم سيأتي»[6] وأركـون العالم هـو سيد العالم وعظيمه، ومن الذي ساد العالم وأطاعه العالم بعد المسيح غير النبي عليـه الصلاة والسلام؟ وتأمل قول النبـي ﷺ وقد سئل ما كان أول أمرك؟ قال: «أنـا دعوة أبـي إبـراهيم وبشّر بـي عيسى»[7].

وطابق بين هذا وبين هذه البشارة التي ذكرها المسيـح فمن الذي سـاد العالم بـاطناً وظاهراً وانقادت له القلوب والأجساد وأطيع في السر والعلانيـة في محياه وبعـد مماتـه في

(١) في ج: معه من شيء.
(٢) سقطت من الأصل.
(٣) سورة آل عمران: الآية ٥٥.
(٤) سقطت من الأصل، وفي ج: إلاّ أعداؤه.
(٥) سقطت من ب، ج، ص.
(٦) يوحنا: ١٤/٣٠.
(٧) أخرجه الإمام أحمد في مسنده عن أبـي أمامة (مسند الإمام أحمد ٢٦٢/٥).

جميع الأعصار وأفضل الأقاليم والأمصار، وسارت دعوته مسير الشمس في الأقطار وبلغ دينه ما بلغ الليل والنهار، وخرّت لمجيئه الأمم على الأذقان، وبطلت به عبادة الأوثان، وقامت به دعوة الرحمن، واضمحلت به دعوة الشيطان، وأذل الكافرين والجاحدين، وأعز المؤمنين، وجاء بالحق وصدق المرسلين، حتى أعلن بالتوحيد على رؤوس الأشهاد، وعبد الله وحده لا شريك له في كل حاضر وباد، وامتلأت به الأرض تحميداً لله وتسبيحاً وتكبيراً، واكتست به بعد الظلم والظلام عدلاً ونوراً.

(فصل): وطابق بين قول المسيح «أن أركون العالم سيأتيكم» وقول أخيه محمد ﷺ: «أنا سيد ولد أدم ولا فخر، آدم تحت لوائي وأنا خطيب الأنبياء (إذا وفدوا)[1] وإمامهم إذا اجتمعوا ومبشرهم إذا يئسوا. لواء الحمد بيدي وأنا أكرم ولد آدم على ربي»[2].

(فصل): وفي قول المسيح في هذه البشارة: «وليس لي من الأمر شيء» إشارة إلى التوحيد وأن الأمر كله لله، فتضمنت هذه البشارة (أصلي الدين)[3] إثبات التوحيد وإثبات النبوة.

وهذا الذي قاله المسيح مطابق لما جاء به أخوه محمد بن عبد الله عن ربه من قوله: ﴿ليس لك من الأمر شيء﴾[4].

فمن تأمل حال الرسولين الكريمين ودعوتهما وجدهما متوافقين مطابقين حذو القذّة بالقذة، وأنه لا يمكن التصديق بأحدهما مع التكذيب بالآخر البتّة، فإن المكذب بمحمد ﷺ أشد تكذيباً للمسيح الذي هو المسيح ابن مريم عبد الله ورسوله، وإن آمن بمسيح لا حقيقة له ولا وجود فهو أبطل الباطل.

---

(١) سقطت من الأصل.

(٢) هذا الحديث متكاملاً بهذا النص لم أجده في كتب الحديث الثمانية، وقد أخرجه الترمذي في جامعه في حديثين مع اختلاف بسيط جداً في بعض الكلمات (انظر: جامع الترمذي، كتاب المناقب: ٣٦١٠/١ ـ ٣٦١٥) قال الترمذي عن حديث (٣٦١٠): هذا حديث حسن غريب، وعن الثاني (٣٦١٥): وفي الحديث قصة وهذا حديث حسن صحيح.

(٣) في ج: أصل.

(٤) سورة آل عمران: الآية ١٢٨.

وقد قال يوحنا في كتاب «أخبار الحواريين»[1] وهو يسمونه «افراكيس»[2]: (يا أحبائي إياكم أن تؤمنوا بكل روح، ولكن ميّزوا الأرواح التي من عند الله من غيرها، واعلموا أن كل روح تؤمن بأن يسوع المسيح قد جاء وكان جسدانياً فهي من عند الله وكل روح لا تؤمن أن المسيح قد جاء وكان جسدانياً فليست من عند الله بل من المسيح الكذاب الذي هو الآن في العالم)[3].

[عقيدة المسلمين في المسيح تكرمه وعقيدة النصارى فيه تهينه]

فالمسلمون يؤمنون بالمسيح الصادق الذي جاء من عند الله بالهدى ودين الحق الذي هو عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول، والنصارى إنما تؤمن بمسيح دعا لعبادة نفسه وأمه، وأنه ثالث ثلاثة، وأنه الله أو ابن الله، وهذا هو أخو المسيح الكذاب لو كان له وجود.

فإن المسيح الكذاب يزعم أنه الله والنصارى في الحقيقة أتباع هذا المسيح (الكذاب)[4]، كما أن اليهود ينتظرون خروجه، وهم يزعمون أنهم ينتظرون النبي الذي بُشروا به، فعوضهم الشيطان بعد مجيئه من الإيمان به الانتظار للمسيح الدجال، (وهكذا كل من أعرض عن الحق يعوّض من الباطل، وأصل هذا أن إبليس)[5] لما أعرض عن السجود لآدم كبراً أن يخضع له تعوّض من ذلك ذل القيادة لكل فاسق ومجرم من نبيه فلا بتلك النخوة ولا بهذه الحرفة. والنصارى لما أنفوا أن يكون المسيح عبداً لله تعوضوا من هذه الأنفة بأن رضوا (أن يجعلوه)[6] مصفعة لليهود، ومصلوبهم الذي يسخرون منه ويهزأون به، ثم عقدوا له تاجاً من الشوك بدل تاج الملك، وساقوه في حبل إلى خشبة الصلب يصفقون حوله ويرقصون، فلا بتلك الأنفة من عبودية الله، ولا بهذه النسبة له إلى أعظم الذل والضيم والقهر.

---

(١) ويسمى في الترجمات الحالية: أعمال الرسل، وهو من وضع بولس.

(٢) افراكيس، ذكره ابن النديم في الفهرست: ص ٤١ وهو سفر أعمال الرسل.

(٣) هذا النص ورد في رسالة يوحنا الأولى ٤/١ ــ ٣ ولم يرد في سفر أعمال الرسل كما أشار المؤلف.

(٤) سقطت من ب، ج، ص.

(٥) في الأصل: وهذه طريقة الشيطان.

(٦) في ج، ص، ب: بجعله.

[وقوع النصارى بالشرك مع ادعائهم التنزيه لله تعالى]

وكذلك أنفوا أن يكون للبترك والراهب زوجة أو ولد، وجعلوا لله رب العالمين الولد والزوجة، وكذلك أنفوا أن يعبدوا الله وحده لا شريك له ويطيعوا عبده ورسوله، ثم رضوا بعبادة الصليب والصور المصنوعة بالأيدي في الحيطان، وطاعة كل من يحرم عليهم ما شاء أو يحلل لهم ما شاء، ويشرع لهم من الدين ما شاء ومن تلقاء نفسه.

[الجهمية وقعوا في الشرك بحجة التنزيه]

ونظير هذا التعويض أنفت الجهمية أن يكون الله سبحانه وتعالى فوق سمواته على عرشه مبايناً من خلقه حتى لا يكون محصوراً بزعمهم في جهة معينة، ثم قالوا: هو في كل مكان بذاته، فحصروه في الآبار والسجون (والأنجاس والأحواش)[1] وعوضوه بهذه الأمكنة عن عرشه المجيد. فليتأمل العاقل لعبَ الشيطان بعقول هذا الخلق وضحكَه عليهم واستهزاءَه بهم.

[مطابقة هذه البشارات لنصوص من الكتاب والسنة]

(فصل): وقول المسيح: «إذا انطلقت أرسلته إليكم» معناه: أني أرسله بدعائي وطلبي منه أن يرسله، كما يطلب الطالب من ولي الأمر أن يرسل رسولاً، أو يولي نائباً، أو يعطي أحداً، فيقول: أنا أرسلت هذا ووليته وأعطيته (أي)[2] كنت سبباً في ذلك. فإن الله سبحانه وتعالى إذا قضى بأن يكون الشيء، فإنه يقدر له أسباباً يكون بها. ومن تلك الأسباب دعاء بعض عباده بأن يفعل ذلك، فيكون في ذلك من النعمة إجابة دعائه مضافاً إلى نعمته بإيجاد ما قضى كونه. ومحمد ﷺ قد دعا به الخليل عليه الصلاة والسلام

---

(١) في ج: الأنحاس والأحقاس وفي ب، ص: الأنجاش والأخفاش. والأنجاس، بالسين جمع نجس بكسر الجيم وهو الشيء القذر.

والأحواش: من الحائش وهو المجتمع من الشجر، وقيل النخل الملتف المجتمع كأنه لالتفافه يحوش بعضه إلى بعض، وفي الحديث: أنه دخل حائش نخل فقضى فيه حاجته (لسان العرب).

(٢) في ب، ص: يعني أني.

أبوه، فقال: ﴿ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم﴾[1].

مع أن الله سبحانه وتعالى قد قضى بإرساله وأعلن باسمه، قبل ذلك كما قيل له: يا رسول الله متى كنت نبياً؟ «قال: وآدم بين الروح والجسد»[2]. وقال: «إني عند الله لمكتوب خاتم النبيين، وإن آدم لمنجدل في طينته»[3].

وهذا كما قضى الله سبحانه وتعالى بنصره يوم بدر، ومن أسباب ذلك استعانته بربه ودعاؤه وابتهاله بالنصر، وكذلك ما يقتضيه من إنزال الغيث قد يجعله بسبب ابتهال عباده (ودعائهم)[4] وتضرعهم إليه، وكذلك ما يقضيه من مغفرة ورحمة وهداية ونصر، قد يسبب له أدعية يحصل بها ممن ينال ذلك، أو من غيره، فلا يمتنع أن يكون (المسيح)[5] سأل ربّه بعد صعوده أن يرسل أخاه محمداً ﷺ إلى العالم، ويكون ذلك من (أسباب)[6] إرساله إضافة إلى دعوة (أبيه)[7] إبراهيم، لكن إبراهيم سأل ربه أن يرسله في الدنيا، فلذلك ذكره الله سبحانه وتعالى، وأما المسيح فإنما سأله بعد رفعه وصعوده إلى السماء (كما وعد قبل رفعه)[8].

فصل: وتأمل قول المسيح: «إني لست أدعكم أيتاماً لأني سآتيكم عن قريب»[9] كيف هو مطابق لقول أخيه محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليهما: «ينزل فيكم ابن

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٢٩.
(٢) الحديث أخرجه الترمذي في المناقب: ١/٣٦٠٩ وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب من حديث أبي هريرة لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وأخرجه الإمام أحمد في مسنده: ٦٦/٤ و ٥٩/٥.
(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده: ٤/١٢٧ ـ ١٢٨.
(٤) في ج: وابنا لهم.
(٥) سقطت من الأصل.
(٦) في الأصل: من سبب.
(٧) سقطت من الأصل.
(٨) سقطت من ب، ج، ص.
(٩) يوحنا: ١٤/١٨ ـ ٣٧.

مـريم حكماً وعـدلاً وإمامـاً مقسطاً فيقتـل الخنزيـر ويكسر الصليب ويضـع الجـزيـة»[1]، وأوصى أمته بأن يقرئه السلام منه من لقيه منهم.

وفي حديث آخر «كيف تهلك أمة أنا في أولها وعيسىٰ في آخرها»[2] .

بشارة من التوراة:

(فصـل): وقـد تقـدم نص التـوراة «تجلّى الله من طـور سينـاء وأشـرق من سـاعيـر واستعلن من جبال فاران».

قال علماء الإسلام ــ وهذا لفظ أبـي محمـد بن قتيبة ــ : ليس بهـذا خفاء على من تـدبره ولا غمـوض ، لأن (المجيء أي)[3] مجيء الله من طور سينـاء: إنزالـه التوراة على موسى من طور سيناء كالذي هو عند أهل الكتاب وعندنا، وكذلـك يجب أن يكون إشـراقه من ساعير: إنزاله الإنجيل على المسيح ، وكان المسيح من ساعير، أرض الخليل، بقريـة تدعى ناصرة[4]، وباسمهـا تسمى من اتبعه نصـارى[5]، وكما وجب أن يكـون إشراقـه من ساعير بالمسيح ، فكـذلك يجب أن يكـون استعلانـه من جبال فـاران: إنزالـه القرآن على محمد ﷺ، وجبال فاران هي جبال مكة، قال: وليس بين المسلمين وأهل الكتاب خـلاف في أن فاران هي مكة، فإن ادّعوا أنها غير مكة ــ وليس ينكر ذلك من تحريفهم وإفكهم ــ قلنا : أليس في التوراة «أن إبراهيم أسكن هاجر وإسماعيل فاران»[6] وقلنا (لهم)[7]: دلونا

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري في المظالم: ٢٤٦٧/٣١ وأخرجه مسلم في الإيمان: ٢٤٢/٧١ . وزاد في الصحيحين: ويفيض المال حتى لا يقبله أحد.

(٢) ذكـره السيوطي في الجـامع الصغيـر، وضعفه وقـال: أخرجـه أبـو نعيم في أخبـار المهـدي عن ابن عباس. (الجامع الصغير، السيوطي : ٢/ ١٢٨).

(٣) سقطت سن ب، ج، ص.

(٤) النـاصرة ليست من أرض الخليـل، بل هي من أرض الجليـل، أما سـاعيـر فهي من أرض الخليـل، وإشـراقه من سـاعير ليس بمعنى إنـزال الإنجيل عليـه لأن الناصـرة في شمال فلسـطين وسـاعيـر في جنوبها، وإنما بمعنى أن المنطقة كانت أرض دعوته.

(٥) انظر: الجواب الصحيح : ١/ ٣٠٠ نقلا عن دلائل النبوة لابن قتيبة.

(٦) التكوين: ٢١/ ٢١.

(٧) سقط من ب، ج، ص.

على الموضع الذي استعلن الله منه واسمه فاران والنبي الذي أنزل عليه كتاباً بعد المسيح.

أوليس استعلن وعلن بمعنى واحد وهما ظهر وانكشف؟ فهل تعلمون ديناً ظهر ظهور الإسلام وفشا في مشارق الأرض ومغاربها؟ (فبينوه لنا)[١]. (قال علماء الإسلام)[٢]: وساعير جبل بالشام منه ظهور نبوة المسيح إلى جانب قرية بيت لحم[٣] ـ القرية التي ولد فيها المسيح ـ تسمى اليوم ساعير.

وفي التوراة أن نسل العيص كانوا سكاناً بساعير، وأمر الله موسى أن لا يؤذيهم[٤].

قال شيخ الإسلام ـ (يعني ابن تيمية رحمه الله)[٥] ـ: (وعلى هذا فيكون قد ذكر الجبال الثلاثة، (وحراء)[٦] الذي ليس حول (مكة)[٧] أعلى منه، وفيه ابتداء رسول الله ﷺ بنزول الوحي عليه، وحوله جبال كثيرة وذلك المكان يسمّى فاران إلى هذا اليوم، والبرية التي بين مكة وطور سيناء تسمّى بريّة فاران، ولا يمكن أحداً أن يدعي أنه بعد المسيح نزل كتاب في شيء من تلك الأماكن ولا بعث (نبي)[٨]، فعلم أنه ليس المراد باستعلانه من جبال فاران إلّا إرسال محمد ﷺ، وهو سبحانه ذكر هذا في التوراة على الترتيب الزماني فذكر إنزال التوراة ثم الإنجيل ثم القرآن، وهذه الكتب نور الله تعالى وهدايته، وقال في الأوّل: «جاء» وفي الثاني: «أشرق» وفي الثالث: «استعلن» وكان مجيء التوراة مثل طلوع الفجر ونزول الإنجيل مثل إشراق الشمس ونزول القرآن بمنزلة ظهور الشمس في السماء ولهذا قال: «واستعلن من جبال فاران» فإن محمداً ﷺ ظهر به نور الله وهداه

---

(١) في ب، ص: فشنوه قال علماء، وفي ج: فبينوه علماء.
(٢) في الجواب الصحيح: قال أبو هاشم بن ظفر.
(٣) بيت لحم: اسم عبري معناه بيت الخبز، وهي بلدة مبنية على أكمة تبعد ستة أميال إلى الجنوب، من القدس، ولد فيها المسيح عليه السلام (قاموس الكتاب المقدس: ١/٢٠٥).
(٤) كل هذا منقول بالحرف من كتاب الجواب الصحيح لابن تيمية، انظر: الجواب الصحيح: ٣/٣٠٠ ـ ٣٠١.
(٥) سقطت من ب، ج، ص.
(٦) في ج: جبل حراء، وهو هكذا في الجواب الصحيح.
(٧) في ج: مكة المشرفة.
(٨) سقطت من ج.

في مشرق الأرض ومغربها أعظم مما ظهر بالكتابين المتقدمين، كما يظهر نور الشمس في مشارق الأرض ومغاربها (إذا استعلت)[1] وتوسطت (السماء)[2]، ولهذا سمّاه الله تعالى سراجاً منيراً[3]، وسمّى الشمس سراجاً وهاجاً[4]. والخلق يحتاجون إلى السراج المنير أعظم من احتياجهم إلى السراج الوهاج، فإن هذا يحتاجون إليه في وقت دون وقت، وأما السراج المنير فيحتاجون إليه في كل وقت، وفي كل مكان ليلاً ونهاراً، سراً وعلانية.

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى هذه الأماكن الثلاثة في قوله تعالى: ﴿والتين والزيتون﴾ وهو في الأرض المقدسة التي بعث منها المسيح وأنزل فيها الإنجيل ﴿وطور سينين﴾ وهو الجبل الذي كلم الله عليه موسى عليه الصلاة والسلام تكليماً، وناداه من واديه الأيمن من البقعة المباركة في الشجرة التي فيه. وأقسم بالبلد الأمين وهو مكة، التي أسكن إبراهيم (إسماعيل وأمه)[5] فيه وهو فاران كما تقدم. ولما كان (ما)[6] في التوراة خبراً عن ذلك أخبر به على الترتيب الزماني فقدم الأسبق ثم الذي يليه، وأما القرآن فإنه أقسم به تعظيماً (لشأنها)[7] وإظهاراً لقدرته وآياته وكتبه ورسله، فأقسم بها على وجه التدريج درجة بعد درجة، فبدأ بالعالي، ثم انتقل إلى أعلى منه، ثم إلى أعلى منه، فإنّ أشرف (الكتب)[8] القرآن ثم التوراة ثم الإنجيل، وكذلك الأنبياء الثلاثة)[9].

[موافقة أقوال علماء المسلمين لما ورد في التوراة]

(فصل): وهذا الذي ذكره ابن قتيبة وغيره من علماء المسلمين، من تأمل التوراة وجدها ناطقة به صريحاً فيه فإن فيها «وغدا إبراهيم فأخذ الغلام وأخذ خبزاً وسقاء من ماء

---

(١) في ج: استعلت، وفي الأصل: إذا استعلنت.
(٢) سقطت من ب، ص.
(٣) وذلك في قوله تعالى ﴿يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً﴾ [الأحزاب: ٤٥، ٤٦].
(٤) في قوله تعالى ﴿وجعلنا سراجاً وهاجاً﴾ [النبأ: ١٣].
(٥) في ج: ولده إسماعيل أمه.
(٦) سقطت من الأصل.
(٧) في ج: لشرفها.
(٨) في ج: الكتب المنزلة.
(٩) هذا كله منقول بتصرف عن الجواب الصحيح انظر: ٣/٣٠١ ـ ٣٠٤.

ودفعه إلى هاجر وحمله عليها وقال لها: اذهبي، فانطلقت هاجر، ونفذ الماء الذي كان معها، فطرحت الغلام تحت شجرة، وجلست مقابلته على مقدار رمية حجر، لئلا تبصر الغلام حين يموت، ورفعت صوتها بالبكاء، وسمع الله صوت الغلام، وحيث هو فقال لها الملك قومي واحملي الغلام، وشدي يديك به، فإني جاعله لأمّة عظيمة، وفتح الله (عينيها)[1]، (فرأت بئر ماء)[2]، فسقت وملأت سقاءها، وكان الله مع الغلام، فربي وسكن في برّية فاران»[3].

(فهذا نص التوراة أن إسماعيل رُبي، وسكن في (برّية)[4] فاران بعد أن كاد يموت من العطش، وأن الله تعالى (سقاه من بئر ماء)[5]، وقد علم بالتواتر واتفاق الأمم أن إسماعيل إنما ربي بمكة هو وأبوه (إبراهيم)[6] بنيا البيت، فعلم قطعاً أن فاران هي أرض مكة)[7].

(فصل): ومثل هذه البشارة من كلام شمعون مما قبلوه ورضوا ترجمته: جاء الله من جبال فاران وامتلأت الأرض من تسبيحه وتسبيح أمته[8]، ولم يخرج أحد قط من جبال فاران امتلأت الأرض من تسبيحه وتسبيح أمته سوى محمد ﷺ، فإن المسيح لم يكن بأرض فاران البتة، وموسى إنما كلم من الطور والطور ليس من أرض فاران، وإن كانت البرية التي بين مكة والطور تسمى برية فاران، فلم ينزل الله فيها التوراة، وبشارة التوراة قد تقدمت بجبل الطور وبشارة الإنجيل بجبل ساعير[9].

---

(١) في ج، والأصل: عليها.

(٢) في ب، ج، ص: فبصرت ببئر ماء.

(٣) انظر: التكوين: ٢١/١٤ ـ ٢١ وهذا النص منقول بالحرف عن الجواب الصحيح ٣/٣٠٥.

(٤) في ب، ج، ص: تربه.

(٥) في ج: من ببير ماء.

(٦) سقطت من ج.

(٧) من الجواب الصحيح ٣/٣٠٥.

(٨) جاء هذا النص في حبقوق: ٣/٣ فيكون هذا من كلام حبقوق لا من كلام سمعون كما ذكر المؤلف، كما أن النص في حبقوق في النسخ الموجودة حالياً: «الله جاء من يثمان والقدوس من جبل فاران، سلاه جلاله غطى السموات والأرض امتلأت من تسبيحه» ولم يذكر: وتسبيح أمته، والمؤلف نقل ذلك عن الجواب الصحيح ٣/٣١٢.

(٩) انظر: الجواب الصحيح: ٣/٣١٢.

(فصل): ونظير هذا ما نقلوه ورضوا ترجمته في نبوة حبقوق[1] (جاء الله من (اليمن)[2] وظهر (ببيت المقدس والقدوس)[3] على جبال فاران وامتلأت الأرض من تحميد أحمد، وملك بيمينه رقاب الأمم، وأنارت الأرض لنوره، وحملت خيله في البحر)[4].

قال ابن قتيبة: وزادني بعض أهل الكتاب (وستنزع في قسيك أعراقاً وترتوي إلهام بأمرك يا محماد ارتواء)[5].

وهذا إفصاح باسمه وصفاته، فإن ادعوا أنه غيره، فمن أحمد هذا الذي امتلأت الأرض من تحميده، والذي جاء من جبال فاران فملك رقاب الأمم.

* **الوجه السادس**[6]:

(فصل): (ومن ذلك وهو)[7] قوله في الفصل التاسع[8] من السفر الأول من التوراة: إن هاجر لما فارقت سارة وخاطبها الملك فقال: يا هاجر من أين أقبلت وإلى أين تريدين؟ فلما شرحت له الحال قال: ارجعي فإني سأكثر ذريتك وزرعك حتى لا يحصون، وها أنت تحبلين وتلدين ابناً اسمه إسماعيل، لأنّ الله تعالى قد سمع ذلك وخضوعك، ولذلك يكون وحشي الناس ويده فوق يد الجميع ويد الكل به، ويكون مسكنه على (تخوم)[9] جميع إخوانه[10].

---

(١) هذا الذي عزاه المؤلف هنا إلى حبقوق، هو نفس النص السابق الذي نقله عن شمعون.

(٢) في حبقوق: ٣/٣ من يتمان، وفي ص: من التين وكذلك في الجواب الصحيح ٣١٢/٣.

(٣) في ب، ج، ص: القدس.

(٤) النص بمعناه في حبقون ٣/٣ ـ ٨ لكن عبارة: «وامتلأت الأرض من تحميد أحمد وملك بيمينه رقاب الأمم» غير موجودة، وكل العبارات عبارة عن مناجاة لله ومخاطبة له.

(٥) هذه الإضافة موجودة في حبقوق لكن بنص (عريت قوسك تعرية سباعيات سهام كلمتك) وليس فيها «بأمرك يا محمد ارتواء».
والعبارات كما قلت لا تشير إلى أن الكلام عن محمد ﷺ كما فهم ابن قتيبة.

(٦) هذا الوجه كله منقول عن الجواب الصحيح: ٣١٣/٣ ـ ٣١٤.

(٧) سقطت من الأصل.

(٨) النص في الفصل السادس عشر لا في التاسع كما ذكر المؤلف نقلاً عن الجواب الصحيح.

(٩) في ج: نحو.

(١٠) التكوين: ١٦/٧ ـ ١٢.

قال المستخرجون لهذه البشارة: معلوم أن يد بني إسماعيل قبل مبعث محمد ﷺ لم تكن فوق أيدي بني إسحق، بل في أيدي بني إسحق النبوة والكتاب، وقد دخلوا مصر زمن يوسف مع يعقوب، فلم يكن لبني إسماعيل فوقهم يد، ثم خرجوا منها لما بعث موسى، وكان مع موسى (أعز أهل)[1] لم يكن لأحد عليهم يد، وكذلك كانوا مع يوشع[2] إلى زمن داود، وملك سليمان الملك الذي لم يؤت أحد مثله، فلم تكن يد بني إسماعيل (ثم سلط الله عليهم بخت نصّر[3]، ففعل بهم الأفاعيل، ولم تكن يد بني إسماعيل عليهم)[4]، ثم بعث الله المسيح فكفروا به، وكذبوه، فدمر الله عليهم تكذيبهم إياه، وزال ملكهم ولم يقم لهم بعده قائمة، وقطعهم الله في الأرض أمماً، وكانوا تحت حكم الروم والفرس وقهرهم، ولم تكن يد إسماعيل عليهم في هذه الحالة، ولا كانت فوق الجميع إلى أن بعث الله محمداً ﷺ برسالته، وأكرمه بنبوته فصارت بمبعثه يد بني إسماعيل فوق الجميع، فلم يبق في الأرض (سلطان أعزّ من)[5] سلطانهم، بحيث قهروا سلطان فارس والروم والترك والديلم، وقهروا اليهود والنصارى والمجوس والصابئة وعبّاد الأصنام، وظهر بذلك تأويل قوله في التوراة «وتكون يده فوق الجميع ويد الكل به» وهذا أمر مستمر إلى آخر الدهر.

(قالت اليهود)[6]: نحن لا ننكر هذا (ولكن)[7] هذه بشارة بملكه وظهوره وقهره لا برسالته ونبوته.

(قال المسلمون)[8]: الملك ملكان، ملك ليس معه نبوة بل ملك جبار متسلط،

---

(١) في ب، ج، ص: من أعز أهل الأرض.

(٢) وهو يوشع بن نون فتى موسى الذي ذكر في قوله تعالى: ﴿وإذ قال موسى لفتاه﴾ [الكهف: ٦٠] كما أشار البخاري في صحيحه (التفسير: ٤٧٢٥/٢).

(٣) بختنصر بن نبوزراذون بن سنجاريف، قيل إنه من نسل أشوذ بن سام، وكان يملك بين الأهواز والروم من غربي دجلة، وافتتح ما يليه من بلاد بابل والشام، ثم سار إلى القدس فافتتحها. انظر: العبر وديوان المبتدأ والخبر (تاريخ ابن خلدون: ٢٠٩/٢).

(٤) سقطت من ب، ص.

(٥) سقطت من ج.

(٦) في الجواب الصحيح: فإن قيل.

(٧) في ج: ونقّرأن.

(٨) في ج: قيل.

وملك (نفسه نبوة)[1]، والبشارة لم تقع بالملك الأول، ولا سيما إذا ادعى صاحبه النبوة والرسالة، وهو كاذب مفتر على الله فهو من شر الخلق وأفجرهم وأكفرهم، فهذا لا تقع البشارة بملكه، وإنما يقع التحذير من فتنته، كما وقع التحذير من فتنة الدّجال، بل هذا شرّ من سنحاريب[2] وبخت نصّر والملوك الظالمة الفجرة الذين (كذبوا)[3] على الله، فالأخبار لا تكون بشارة ولا يفرح بها هاجر وإبراهيم ولا بشر ممن أخبر بذلك، ولا يكون ذلك (إنابة)[4] لها من خضوعها وذلها، فإن الله تعالى قد سمع ذلك، ويعظم هذا المولود ويجعله لأمة عظيمة، وهذا عند الجاحدين بمنزلة أن يقال: إنك ستلدين جباراً ظالماً طاغياً يقهر الناس بالباطل، ويقتل أولياء الله، ويسبي حريمهم، ويأخذ أموالهم بالباطل، (ويبدل)[5] أديان الأنبياء، ويكذب على الله ونحو ذلك.

فمن حمل هذه البشارة (على هذا) فهو من أعظم الخلق بهتاناً وفرية على الله، وليس هذا بمستنكر لأمة الغضب وقتلة الأنبياء والقوم البهت.

(فصل): الوجه السابع[6]:

قول داود في الزبور: «سبّحوا الله تسبيحاً جديداً، وليفرح إسرائيل بخالقه، وبيوت صهيون من أجل أن الله اصطفى له أمته، وأعطاه النصر، وسدّد الصالحين بالكرامة، ويسبحونه على مضاجعهم، ويكبرون الله تعالى بأصوات مرتفعة، بأيديهم سيوف ذات شفرتين، لينتقم بهم من الأمم الذين لا يعبدونه، يوثقون ملوكهم بالقيود وأشرافهم بالأغلال»[7].

---

(١) في ج: معه نبوة وفي الأصل: نفسه بقّوة.

(٢) سنحاريب: هو ملك أشور (٧٠٤ ــ ٦٨٢) ق.م وقد اعتلى العرش بعد وفاة والده سرجون، كان محارباً عظيماً، ترك من آثار فتوحاته وغزواته الكثير (قاموس الكتاب المقدس: ١/٤٨٨).

(٣) في ب، ص: لم يكذبوا.

(٤) في ب، ص: إثابه.

(٥) في الأصل، ويبطل.

(٦) هذا الوجه أيضاً مأخوذ من الجواب الصحيح بتصرف ٣/٣١٤ ــ ٣١٨.

(٧) النص الحالي في المزمور: (غنوا للرب ترنيمة جديدة تسبيحته في جماعة الأتقياء، ليفرح إسرائيل بخالقه ليبتهج بنو صهيون بملكهم... لأن الرب راض عن شعبه يجمل الودعاء بالخلاص، ليبتهج الأتقياء بمحمد ليرنموا على مضاجعهم، تنويهات الله في أفواههم، وسيف ذو حدين في يدهم =

وهذه الصفات إنما تنطبق على محمد وأمته، فهم الذين يكبرون الله بأصوات مرتفعة في أذانهم للصلوات الخمس، وعلى الأماكن العالية. قال جابر: (كنا مع النبي ﷺ إذا علونا (شرفاً)[1] كبرنا، وإذا هبطنا سبحنا ووضعت الصلاة على ذلك)[2].

وهم يكبرون الله بأصوات عالية مرتفعة في الأذان وفي عيد الفطر وعيد النحر وفي عشر ذي الحجة وعقيب الصلوات (الخمس) في أيام منى وذكر البخاري عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه «أنه كان يكبّر بمنى فيسمعه أهل المسجد فيكبرون بتكبيره فيسمعهم أهل الأسواق (فيكبرون)[3] حتى ترتج منى تكبيراً»[4].

«وكان أبو هريرة رضي الله عنه وابن عمر رضي الله عنه[5] يخرجان إلى الأسواق أيام العشر، فيكبران ويكبر الناس بتكبيرهما»[6] (ويكبرون)[7] أيضاً على (قرابينهم)[8] وضحاياهم، وعند رمي الجمار وعند الصفا والمروة وعند محاذاة الحجر الأسود، وفي أدبار الصلوات، وليس هذا لأحد من الأمم لا أهل الكتاب ولا غيرهم سواهم، فإن اليهود يجمعون الناس بالبوق والنصارى بالناقوس. وأما تكبير الله بأصوات مرتفعة فشعار محمد بن عبد الله ﷺ وأمته.

= ليصنعوا نقمة في الأمم وتأديبات في الشعوب لأسر ملوكهم بقيود وشرفائهم بكبول من حديد) المزمور: ١٤٩/١ ـ ٨.

(١) سقطت من الأصل ومن ب، ص.

(٢) أخرج أبو داود عن علي رضي الله عنه قال: وكان النبي ﷺ وجيوشه إذا علوا الثنايا كبروا وإذا هبطوا سبحوا فوضعت الصلاة على ذلك (سنن أبي داود، الجهاد: ٥٨٢/٧٩).

(٣) في ج: فيكبرون حتى يكبر كل من سمع التكبير.

(٤) أخرجه البخاري في كتاب العيدين ونصه: «وكان عمر رضي الله عنه يكبر في قبته بمنى فيسمعه أهل المسجد فيكبرون ويكبر أهل الأسواق حتى ترتج منى تكبيراً» (انظر: فتح الباري: ٤٦١/٢).

(٥) في الجواب الصحيح: وكان عمر وابن عباس.
والخطأ في الجواب الصحيح لأن ما ذكره المؤلف موافق لنصّ البخاري.

(٦) أخرجه البخاري في كتاب العيدين، بنص: «وكان ابن عمر وأبو هريرة يخرجان إلى السوق... الخ» انظر: فتح الباري: ٤٥٧/٢.

(٧) في ج: ويكبرون الناس.

(٨) في ج: فراشهم.

وقوله: «بأيديهم سيوف ذات شفرتين» فهي السيوف العربية التي فتح الصحابة رضي الله عنهم بها البلاد وهي إلى اليوم معروفة لهم.

وقوله: «يسبحون على مضاجعهم» (هو نعت)[1] المؤمنين الذي يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم.

ومعلوم قطعاً أن هذه البشارة لا تنطبق على النصارى، ولا تناسبهم فإنهم لا يكبّرون الله بأصوات مرتفعة، ولا بأيديهم سيوف ذات شفرتين، ينتقم الله تعالى بها من الأمم. والنصارى تصيب من يقاتل الكفار بالسيوف، وفيهم من يجعل هذا من أسباب التنفير عن محمد ﷺ، ولجهلهم وضلالهم لا يعلمون أن موسى عليه السلام قاتل الكفار وبعده يوشع بن نون وبعده داود وسليمان وغيرهم من الأنبياء، وقبلهم إبراهيم الخليل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

* **الوجه الثامن**[2]:

قول داود: من أجل هذا بارك الله عليك إلى الأبد فتقلد أيها الجبار السيف، لأن البهاء لوجهك، والحمد الغالب عليك، اركب كلمة الحق وسمت التأله، فإن ناموسك وشرائعك مقرونة بهيبة يمينك، وسهامك مسنونة، والأمم يخرون تحتك[3].

وليس متقلداً بسيف بعد داود من الأنبياء سوى محمد ﷺ، وهو الذي خرت الأمم تحته، وقرنت شرائعه بالهيبة، إمّا القبول وإمّا الجزية وإمّا السيف، وهذا مطابق لقوله ﷺ: (نصرت بالرعب مسيرة شهر)[4].

وقد أخبر داود أنّ له ناموساً وشرائع، وخاطبه بلفظ الجبّار، إشارة إلى قوته وقهره

---

(١) في ج: ثم بعث.

(٢) هذا الوجه أيضاً منقول عن الجواب ٣/٣١٨ ــ ٣١٩.

(٣) نص المزمور: (لذلك باركك الله إلى الأبد، تقلد سيفك على فخذك أيها الجبار، جلالك وبهاءك، وبجلالك اقتحم اركب من أجل الحق والدعة والبر فتريك يمنيك مخاوف، نبلك المسنونة في قلب أعداء الملك، شعوب بختك يسقطون) مزمور ٤٥/٢ ــ ٥.

(٤) متفق عليه، أخرجه البخاري، التيمم: ١/٣٣٥ وأخرجه مسلم، المساجد: ٣/٥٢١.

لأعداء الله تعالى، (بخلاف)[1] المستضعف المقهور، وهو ﷺ نبي الرحمة[2]، ونبي الملحمة، وأمته ﴿أشداء على الكفار رحماء بينهم﴾[3] ﴿أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين﴾[4]، بخلاف الأذلاء المقهورين المتكبرين الذين يذلون لأعداء الله ويتكبرون على قدوم الحق.

* **الوجه التاسع**[5]:

قول داود في مزمور آخر: (إنّ الله سبحانه وتعالى أظهر من صهيون إكليلاً محموداً)[6].

وضرب الإكليل مثلاً للرئاسة والأمانة. ومحمود هو محمد ﷺ. وقال في صفته: (ويجوز من البحر إلى البحر من لدن الأنهار إلى متقطع الأرض، وإنه لتخر أهل الجزائر بين يديه على ركبهم، ويلمس أعداؤه التراب، تأتيه ملوك (الفرس)[7] وتسجد له وتدين له الأمم بالطاعة والانقياد ويخلص المضطهد اليائس ممن هو أقوى منه، وينقذ الضعيف الذي لا ناصر له، ويرأف بالمسكين والضعفاء، ويصلّى عليه في كل وقت ويبارك)[8].

ولا يشكل على عاقل تدبّر أمور الممالك والنبوّات، وعرف سيرة محمد ﷺ وسيرة أمته من بعده أنّ هذه الأوصاف لا تنطبق إلا عليه وعلى أمته، لا على المسيح ولا على

---

(١) سقطت من ج.

(٢) سقطت من الأصل.

(٣) سورة الفتح: الآية ٢٩.

(٤) سورة المائدة: الآية ٥٤.

(٥) هذا الوجه أيضاً منقول بتصرف عن الجواب الصحيح ٣/٣١٩.

(٦) هذا النص لم أعثر عليه في الترجمات الحالية، ولكن وجدت ما يشبهه تقريباً في مزمور: ٥٠: (إله لإله الرب تكلم ودعا الأرض من مشرقها إلى مغربها من صهيون كمال الجبال الله أشرق) ٥٠/١ ـ ٢.

(٧) في ص: الأرض.

(٨) النص في المزمور: ٧٤، لكن الطبعات الحالية للكتاب المقدس تنص على أن هذا المزمور لسليمان عليه السلام، والقارئ لهذا المزمور لا يستغرب كونه له لأن سليمان عليه السلام كان له ملك عظيم، وخاض حروباً انتصر فيها على أعدائه ودانت له الأمم بالطاعة والانقياد.

نبي غيره، فإنه حاز من البحر الرومي[1] إلى البحر الفارسي[2]، ومن لدن الأنهار سَيحون[3] وجيحون[4] والفرات (ونيل مصر)[5] إلى منقطع الأرض بالمغرب[6]، وهذا ما طبق لقوله ﷺ: «زويت لي الأرض فأريت مشارقها ومغاربها وسيبلغ ملك أمتي مازوي لي منها»[7].

وهو الذي يصلى عليه ويبارك في كل وقت، وفي كل صلاة من الصلوات الخمس وغيرها، وهو الذي خرّت أهل الجزائر بين يديه، أهل جزيرة العرب وأهل الجزيرة[8] التي بين الفرات ودجلة، وأهل جزيرة الأندلس، وأهل جزيرة قبرص (وغيرهم)[9]، وخضعت لـه ملوك الفرس، ولم يبق فيهم إلا من أسلم أو أدى الجزية ﴿عن يد وهم صاغرون﴾، بخلاف ملوك الروم فإن فيهم من لم يسلم، ولم يؤد الجزية، فلهذا ذكر في البشارة ملوك فارس خاصة، ودانت له الأمم التي سمعت به (وبأمته)[10]. وأنقذ الضعفاء (من الجبارين، وهذا بخلاف المسيح فإنه لم يتمكن هذا التمكين في حياته)[11] ولا من اتبعه بعد رفعه إلى

---

(١) البحر الرومي، هو ما يسمى اليوم بالبحر الأبيض المتوسط، قال ياقوت: بحر الأندلس وبحر المغرب وبحر الشام وبحر الإفرنج وبحر الروم جميعه واحد وكان يسمى بحر الظلمات (معجم البلدان: ١/ ٣٤٥).

(٢) البحر الفارسي، هو شعبة من بحر الهند الأعظم (المحيط الهندي) وتمتد سواحله من البصرة إلى عدن (معجم البلدان: ١/ ٣٤٣) وهو ما يطلق عليه اليوم الخليج العربي.

(٣) سيحون، بفتح أوله، نهر مشهور بما وراء النهر بعف سمرقند يجمد في الشتاء ثلاثة أشهر وهو في حدود بلاد الترك.

(٤) جيحون: بالفتح ثم السكون، وادي خراسان، يتصل بناحية السند والهند وكابل، ويمر بعدّة بلاد حتى تصب في بحيرة خوارزم (معجم البلدان: ٢/ ١٩٦).

(٥) هذه في ج فقط.

(٦) المقصود بمنقطع الأرض، أي نهاية اليابسة على شاطىء المحيط الأطلسي بالمغرب.

(٧) الحديث أخرجه مسلم في كتاب الفتن: ١٩/ ٢٨٨٩، وأخرجه الإمام أحمد في مسنده: ٤/ ١٢٣ ومطلع الحديث عندهما: إن الله زوى لي الأرض.

(٨) منطقة في سوريا لا زالت تسمى منطقة الجزيرة.

(٩) سقطت من ب، ص، وفي ج: وجزر كثيرة أسلمت لا يمكن عدتها.

(١٠) في ج: وبأمته وهم من مؤمن له ومسالم له ومنافق معه وخائف منه.

(١١) في الأصل: ولم ينطبق هذا على المسيح.

السماء، ولا حازوا ما ذكر ولا يصلون عليه، ويباركون في اليوم والليلة، فإن القوم يدّعون إلهيته ويصلون له.

* **الوجه العاشر:**

قوله في مزمور آخر: (لترتاع البوادي وقراها، ولتصر أرض قيدار[1] مروجاً وتسبّح سكان الكهوف، ويهتفوا من قلل الجبال بحمد الرب، ويذيعوا تسابيحه في الجو[2]).

فمن أهل البوادي من الأمم سوى أمة محمد ﷺ؟ ومن (قيدار غير ولد إسماعيل أحد أجداده ﷺ؟ ومن) سكان الكهوف وقلال الجبال سوى العرب؟ ومن هذا الذي دام ذكره إلى الأبد؟

* **الوجه الحادي عشر:**

قوله في مزمور آخر: (إن ربنا عظم محموداً جداً)[3]، وفي مكان آخر: (إلهنا قدوس ومحمد قد عمّ الأرض كلها فرحاً)[4]؛ فقد نصّ داود على اسم محمد وصرّح أن كلمته عمت الأرض.

* **الوجه الثاني عشر:**

قوله في الزبور لداود: (سيولد لك ولد أدعى له أباً، ويدعى لي ابناً (قال داود)[5]: اللهم ابعث جاعل السنّة كي يعلم الناس أنه بشر)[6].

---

(١) قيدار: اسم سامي بمعنى: قدير أو أسود، وهو ابن إسماعيل الثاني (تكوين: ٢٥/١٣) وهو أب لأشهر قبائل العرب ويسمى بلادهم أيضاً قيدار (قاموس الكتاب المقدس: ٢/٧٥٣).

(٢) النص في سفر أشعيا (لترفع البرّية ومدنها صوتها، الديار التي سكنها قيدار، لتترنم سكان سالع من رؤوس الجبال ليهتفوا، ليعطوا الرب مجداً ويخبروا بتسبيحه في الجزائر) أشعيا ٤٢/١١ ـ ١٢.

(٣) النص الحالي في المزامير (عظيم هو الرب وحميد جداً) مزمور: ٤٨/١.

(٤) مزمور: ٤٨/٤٨.

(٥) ليست في ب، ج، ص.

(٦) بداية النص في مزمور: ٨٩/٢٦ ـ ٢٧ لكن بدون: سيولد لك ولد؛ لذا فالنص الموجود حالياً يتحدث عن داود نفسه: «هو يدعوني أبي، أنت إلهي وصخرة خلاصي أنا أيضاً أجعله بكراً أعلى من ملوك الأرض».
أما عبارة «اللهم ابعث جاعل السنة» فلم ترد عند هذا النص مع أنه ورد في معناها نصوص كثيرة في المزامير.

(وهـذا إخبار عن المسيـح ومحمد ﷺ قبـل ظهورهما بـزمن طـويـل، يـريـد: ابعث محمداً ﷺ حتى يعلم الناس أن المسيح بشر[1] ليس إلهـاً، وأنه ابن البشـر لا ابن خالق البشر.

فبعث الله هادي الأمة وكاشف الغمّة فبيّن (للأمم)[2] حقيقة أمـر المسيح، وأنـه عبد كريم ونبـي مرسل، لا كما ادعته النصارى ولا كما رمته اليهود.

* الوجه الثالث عشر:

قوله في نبوّة أشعيا: (قيل لي: قم نظاراً فانظر ما ترى تخبـر به، قلت: أرى راكبين مقبلين أحـدهما على حمـار والآخر على جمـل، يقول أحـدهما لصـاحبه: سقـطت بابـل وأصنامها)[3].

وصـاحب الحمار عنـدنا وعنـد النصارى هـو المسيـح، وراكب الجمـل هـو محمـد صلوات الله عليهما وسلامه، وهو أشهر بركوب الجمل من المسيح بركوب الحمار.

وبمحمـد ﷺ سقطت أصنـام بابـل لا بالمسيـح، ولم يزل في إقليم بـابـل من يعبـد الأوثان من عهد إبراهيم الخليل إلى أن سقطت بمحمد ﷺ.

* الوجه الرابع عشر:

قـولـه في (نبـوة)[4] إشعيـا: إنـه قـال عن مكـة: «ارفعي إلى مـا حـولـك بصـرك، فستبتهجين وتفرحين من أجل أن الله يصير إليك ذخائر البحـر ويحج إليـك عساكـر الأمم، حتى يعمّ بك قطر الإبـل المؤبلة وتضيق أرضك عن القـطرات التي تجتمع إليـك، ويساق إليـك كباش مـدين[5]، ويأتيـك أهل سبـأ[6]، ويسير إليـك أغنـام (قيـدار)[7] ويخـدمـك

---

(١) سقطت من الأصل.

(٢) سقطت من ج.

(٣) انظر: أشعيا: ٢١/٦ ـ ٩.

(٤) في ب، ص: سورة.

(٥) مدين على بحر القلزم محاذية لتبوك على نحو من ست مراحل وهي أكبـر من تبوك وبهـا البئر الـذي استقى منه موسى عليه السلام لسائمة شعيب، ومدين اسم قبيلة (انظر: معجم البلدان: ٧٧/٥).

(٦) سبأ أرض باليمن مدينتها مأرب بينها وبين صنعاء مسيرة ثلاثة أيام (معجم البلدان: ٢٧/٣).

(٧) في ب، ج، ص: فاران.

(رجال)[1] (بناوت)»[2].

يريد سدنة الكعبة وهم من أولاد بنت (ابن)[3] إسماعيل.

قالوا: فهذه الصفات كلها حصلت لمكة فإنها حملت إليها ذخائر البحر وحجّ إليها عساكر الأمم، وسيق إليها أغنام (قيدار هدايا)[4] وأضاح وقرابين، وضاقت الأرض عن قطرات الإبل المؤبلة الحاملة للناس وأزوادهم، وأتاها أهل سبأ، وهم أهل اليمن.

* **الوجه الخامس عشر:**

قول أشعيا في مكة أيضاً: (وقد أقسمت بنفسي كقسمي (أيام) نوح أني أغرق الأرض بالطوفان إني لا أسخط عليك ولا أرفضك، وإن الجبال تزول وإن (القلاع)[5] تخط ورحمتي عنك لا تزول)[6].

ثم قال: (يا مسكينة يا مضطهدة ها أنا ذا بان (بالجصّ)[7] حجارتك، ومزينك بالجواهر، ومكلل باللؤلؤ سقفك، وبالزبرجد أبوابك، وتبعدين من الظلم، فلا تخافي، ومن الضعف فلا تضعفي، وكل سلاح (يصنعه)[8] صانع لا يعمل فيكِ، وكل لسان ولغة تقوم معك بالخصومة تفلحين معها، ويسميك الله اسماً جديداً (يريد أنّه سمّاها المسجد الحرام) فقومي فأشرقي فإنّه قد دنا نورك، ووقار الله عليك، انظري بعينيك حولك فإنهم مجتمعون، يأتوك بنوك وبناتك عدواً، فحينئذٍ تشرقين وتزهرين ويخاف عدوك ويتسع قلبك، وكل غنم قيدار (تجمع إليك)[9] وسادات بناوت يخدمونك (وبناوت هو بنت ابن اسماعيل، وقيدار جد النبي ﷺ وهو أخو (بناوت)[10]).

---

(١) في ب، ص: رجل وسقطت من ج.
(٢) أشعيا: ٦٠/٤ ـ ٧. مع الاختلاف البسيط في الترجمة.
(٣) سقطت من الأصل.
(٤) في ب، ص: فاران هدايا وفي ج: هدايا فارن.
(٥) في ب، ص: التلاع.
(٦) أشعيا: ٥٤/٩ ـ ١٠.
(٧) في ب، ج، ص: بالحسن.
(٨) سقطت من الأصل.
(٩) سقطت من الأصل.
(١٠) في ب، ص: بنت وفي ج: بنته.

ثم قال: (وتفتح أبـوابك بـالليل والنهـار لا تغلق ويتخذونـك قبلة وتُدْعَين بعـد ذلك مدينة الرب)[1].

* **الوجه السادس عشر:**

قـوله أيضـاً في مكة: (سـري واهتزي أيتهـا العاقـر التي لم تلد وانـطقي بـالتسبيح وافرحي، ولم تحبلي، فإن أهلك يكونون أكثر من أهلي)[2].

يعني بـأهله بيت المقدس، ويعني بـالعاقـر مكة لأنهـا لم تلد قبل محمـد ﷺ نبيـاً، ولا يجوز أن يريد بالعاقر بيت المقدس، لأنه بيت الأنبياء ومعدن الوحي، وقد ولد (فيه)[3] أنبياء كثيرة.

* **الوجه السابع عشر:**

قول أشعيا أيضاً لمكة شرفها الله تعالى: «إني أعطي البادية كـرامة لبنـان وبها الكنـز (مال)»[4].

قال: (وهـما الشام وبيت المقدس) يـريد أجعـل الكرامـة التي كانت هنـاك بالـوحي وظهور الأنبياء للبداية بالنبي ﷺ وبالحج.

ثم قال «وتشق بالبادية مياه وسواق في أرض فلاة وتكون بـالفيافي والأمـاكن العطاش ينـابيع وميـاه ويصير هنـاك محجة وطـريق الحرم، لا يمـرّ به أنجـاس الأمم والجـاهـل بـه لا (يصل)[5] هناك، ولا يكون بها سباع ولا أسد ويكون هناك ممر المخلصين»[6].

* **الوجه الثامن عشر:**

قول أشعيا في كتابه أيضاً عن الحرم: (إن الذئب والحمل فيه يرتعان معاً)[7] إشـارة إلى أمنـه الـذي يخصـه الله بـه دون بقــاع الأرض، ولـذلــك سمّـاه البلد الأمين وقــال:

---

(١) أشعيا: ٥٤/١١ ــ ١٧.
(٢) أشعيا: ٥٤/١ ــ ٣.
(٣) سقطت من ب، ج، ص.
(٤) سقطت من الأصل.
(٥) في ب، ص: لا يضل.
(٦) انظر: أشعيا: ٣٥/٦ ــ ٩.
(٧) أشعيا: ٦٥/٣٥.

﴿أو لم يروا أنا جعلنا حرماً آمنا (ويجبى إليه ثمرات كل شيء) ويتخطف الناس من حولهم﴾[1].

وقال يعدد نعمه على أهله: ﴿لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف، فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف﴾[2].

* الوجه التاسع عشر:

قول أشعيا معلناً باسم رسول الله ﷺ: (إني جعلت أمرك يا محمد بالحمد يا قدوس الرب، اسمك موجود من الأبد)[3] مطابق لقول داود في مزمور له: (اسمك موجود قبل الشمس)[4].

* الوجه العشرون:

قول أشعيا في ذكر الحجر الأسود: (قال الرب والسيد ها أنا ذا مؤسس بصهيون حجراً) في زاوية ركن منه، فمن كان مؤمناً فلا يستعجلنا، وأجعل العدل مثل الشاقول[5]، والصدق مثل الميزان، فيهلك الذين ولعوا بالكذب)[6].

فصهيون هي مكة عند أهل الكتاب[7]، (وكذا كل بيت بني للصلاة، وصهيون أيضاً

---

(١) سورة العنكبوت: الآية ٦٧، وقد أخطأ في الأصل: حيث أضاف ويجبي إليه ثمرات كل شيء.

(٢) سورة قريش.

(٣) في سفر أشعيا: ١١/١٠، ما يشابه هذا النص بالمعنى لكن لم يذكر فيه اسم محمد وإنما قال: ويكون في ذلك أن أصل يسي القائم راية للشعوب.

(٤) نص مزمور: ١٧/٧٢، (يكون اسمه إلى الدهر قدام الشمس يمتد اسمه).

(٥) الشاقول: عصا في رأسها زج يستعملها الزراع في قياس الأرض أو ضبط حدودها أو استقامة الخطوط، كما يستعمله البناؤون.
المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية: ٤٩٢/١؛ المكتبة العلمية، طهران.

(٦) انظر أشعيا: ٢٨/١٦ ــ ١٧.

(٧) ليس في الكتاب المقدس الحالي ما يدل على أن صهيون هي مكة، والنصوص التي ذكرت صهيون تدل كلها على أنه في القدس، فهو أحد الرؤوس الأربعة التي تقوم عليها القدس، وعلى صهيون كان حصن اليبوسيين الذي أخذه منهم داود (٢صم: ٧/٥ ــ ٩) وأكثر ما ذكر صهيون في الأسفار الشعرية والنبوية، ولا يزال في القدس جبل يدعى صهيون جزء منه داخل المدينة وجزء خارجها معظمه مشغول بالمقابر وعليه قلعة تعرف بالنبي داود وعليه أيضاً مدرسة صهيون الإنجليزية.

الأرض المقدسة)[1]، وهذا الحجر هو الحجر الأسود الذي تقبله الملوك فمن دونهم، وهو مما اختص به محمدﷺ وأمته.

* **الوجه الحادي والعشرون:**

قول أشعيا في موضع آخر: (إنه ستملأ البادية والمدن قصوراً إلى قيدار، ومن رؤوس الجبال ينادونهم الذين يجعلون لله الكرامة، ويبثون تسبيحهُ في البر والبحر)[2].

وقال: (ارفع علماً لجميع الأمم من بعيد فيصفر بهم من أقصى الأرض فإذا هم سراع يأتون)[3].

وبنو قيدار هم العرب، لأن قيدار ابن إسماعيل بإجماع الناس. والعلم الذي يرفع هو النبوّة، والصفير بهم دعاؤهم من (أقصى)[4] الأرض إلى الحج. فإذا هم سراع يأتون.

وهذا مطابق لقوله عز وجل: ﴿وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق﴾[5].

* **الوجه الثاني والعشرون:**

قول أشعيا في موضع آخر: «سأبعث من الصبا قوماً يأتون من المشرق مجيبين أفواجاً كالصعيد (كثرة)[6]، ومثل الطيّان الذي يدوس برجليه الطين»[7].

والصبا تأتي من نحو مطلع الشمس، بعث الله من هناك قوماً من أهل المشرق مجيبين بالتلبية أفواجاً كالتراب كثرة، وقوله: «مثل الطيّان الذي يدوس برجله» إما أن يراد به الهرولة في الطواف والسعي، وإما أن يراد به رجال قد كلت أرجلهم من المشي.

---

(١) سقطت من ب، ج، ص.
(٢) أشعيا: ٤٢/١١.
(٣) أشعيا: ٥/٢٦.
(٤) في ب، ص: أقاصي.
(٥) سورة الحج: الآية ٢٧.
(٦) سقطت من الأصل.
(٧) النص في أشعيا: (ومن مشرق الشمس يدعو باسمي يأتي على الولاة كما على الملاط وكخزاف يدوس الطين) (أشعيا: ٤١/٢٥).

* **الوجه الثالث والعشرون:**

قوله في كتاب أشعيا أيضاً: (عبدي وخيرتي ورضى نفسي أفيض عليه روحي أو قال: أنزل عليه روحي فنظر في الأمم عدلي، ويوصي الأمم بالوصايا، لا يضحك، ولا يسمع صوته، يفتح (العيون)[1] العمي والعور، ويسمع الآذان الصم، ويحيي القلوب، وما أعطيه لا أعطي غيره، لا يضعف (ولا يغلب)[2]، ولا يميل إلى اللهو، ولا يسمع في الأسواق صوته، ركن للمتواضعين، وهو نور الله الذي لا يطفأ، ولا يخصم، حتى تثبت في الأرض حجتي، وتنقطع به المعذرة)[3].

فمن وجد بهذا الوصف غير محمد ﷺ ابن عبد الله؟ فلو اجتمع أهل الأرض لم يقدروا أن يذكروا نبياً جمع هذه الأوصاف كلها، وهي باقية في أمته إلى يوم القيامة، ولو بحثوا عن غيره لم يجدوا إلى ذلك سبيلاً.

فقوله (عبدي) مطابق لقوله في القرآن: ﴿(وإن)[4] كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا﴾[5] وقوله: ﴿تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا﴾[6] وقوله: ﴿وأنه لما قام عبد الله يدعوه﴾[7] وقوله: ﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله﴾[8] وقوله: (وخيرتي ورضى نفسي) مطابق

---

(١) سقطت من الأصل.

(٢) في ج: ولا يلعب ولا يغلب.

(٣) النص في أشعيا: «هو ذا عبدي الذي أعضده، مختاري الذي سرت به نفسي وضعت روحي عليه فيخرج الحق للأمم لا يصيح ولا يرفع ولا يسمع في الشارع صوته، قصبه مرضوضة لا يقصف وفتيله خامدة لا يطفىء، إلى الأمام يخرج الحق لا يكلّ ولا ينكسر حتى يضع الحق في الأرض وتنتظر الجزائر شريعته. . . أنا الرب قد دعوتك بالبر فأمسك بيدك وأحفظك وأجعلك عهداً للشعوب، ونوراً للأمم، لتفتح عيون العمي لتخرج من الحبس المأسورين من بيت السجن الجالسين في الظلمة» أشعيا: ٤٢/١ ـ ٧.

(٤) في المصرية: فإن.

(٥) سورة البقرة: الآية ٢٣.

(٦) سورة الفرقان: الآية ١.

(٧) سورة الجن: الآية ١٩.

(٨) سورة الإسراء: الآية ١.

لقوله ﷺ: «إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل واصطفى قريشاً من كنانة، واصطفى بني هاشم من قريش، واصطفاني من بني هاشم»[1].

وقوله: (لا يضحك) مطابق لوصفه الذي كان عليه ﷺ، قالت عائشة رضي الله عنها: «ما رؤي رسول الله ﷺ ضاحكاً حتى تبدو لهواته إنما كان يتبسم تبسماً»[2]، وهذا لأن كثرة الضحك من خفة الروح، ونقصان العقل، بخلاف التبسم فإنه من حسن الخلق، وكمال الإدراك، وأما صفته ﷺ في بعض الكتب المتقدمة بأنه الضحوك القتّال، فالمراد به أنه لا يمنعه ضحكه وحسن خلقه عن القتل إذا كان حباً لله تعالى وحقاً له، ولا يمنعه ذلك عن تبسمه في موضعه، فيعطي كل حال ما يليق بتلك الحال، فترك الضحك بالكلية من الكبر والتجبّر وسوء الخلق، وكثرته من الخفّة والطيش، والاعتدال بين ذلك (غير منكر)[3].

وقوله: «أنزل عليه روحي» مطابق لقوله تعالى: ﴿وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا﴾[4] وقوله تعالى: ﴿(يلقي)[5] الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق﴾[6] فسمي الوحي روحاً، لأن حياة القلوب والأرواح به، كما أن حياة الأبدان بالأرواح.

وقوله: «فينظر في الأمم عدلي» مطابق لقوله تعالى: ﴿فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم، وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم﴾[7].

وقوله عن أهل الكتاب: ﴿فإن جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم، وإن تعرض

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل: ١/٢٢٧٦.

(٢) متفق عليه أخرجه البخاري في كتاب التفسير (سورة الأحقاف) وفي كتاب الأدب: ص ٦٨.
وأخرجه الإمام مسلم في كتاب الاستسقاء: ص ١٦.

(٣) سقطت من ب، ج، ص.

(٤) سورة الشورى: الآية ٥٢.

(٥) في الأصل: ينزل وهو خطأ.

(٦) سورة غافر: الآية ١٥.

(٧) سورة الشورى: الآية ١٥.

عنهم فلن يضروك شيئاً، وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط﴾[1] وقوله: يوصي الأمم بالوصايا، مطابق لقوله تعالى: ﴿شرع لكم من الدين ما وصّى به نوحاً والذي أوحينا إليك، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه﴾[2].

وقوله في سورة الأنعام: ﴿قل تعالوا أتل ما حرّم ربكم عليكم أن لا تشركوا به شيئاً...﴾ إلى قوله: ﴿... ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون﴾[3] ثم قال: ﴿ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده...﴾ إلى قوله: ﴿... ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون﴾[4] ثم قال: ﴿وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلك وصّاكم به لعلكم تتقون﴾[5].

ووصاياه ﷺ هي عهوده إلى أمته بتقوى الله تعالى وعبادته وحده لا شريك له، والتمسك بما بعثه الله به من الهدى ودين الحق، والإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله ولقائه.

وقوله: ولا يسمع صوته، أي ليس بصخاب (له فديد)[6] كحال من ليس له (علم)[7] ولا وقار. وقوله: «يفتح العيون العمي والآذان الصم والقلوب» إشارة إلى أن تكميل مراتب العلم والهدى الحاصل بدعوته في القلوب والأبصار والأسماع، فباينوا بذلك أحوال الصم البكم العمي الذين لهم قلوب لا يعقلون بها. فإن الهدى يصل إلى العبد من هذه الأبواب الثلاثة، وهي مغلقة عن كل أحد لا تفتح إلّا على أيدي الرسل ففتح الله تعالى بمحمد ﷺ الأعين العمي، فأبصرت بالله، والآذان الصم، فسمعت عن الله، والقلوب الغلف، فعقلت عن الله، فانقادت لطاعته عقلاً وقولاً وعملاً، وسلكت سبل مرضاته ذللاً.

---

(١) سورة المائدة: الآية ٤٢.
(٢) سورة الشورى: الآية ١٣.
(٣) سورة الأنعام: الآية ١٥١.
(٤) سورة الأنعام: الآية ١٥٢.
(٥) سورة الأنعام: الآية ١٥٣.
(٦) في الأصل: لا له قدر، الفديد: الصوت والجلبة، فدّد الرجل: مشى متكبراً بطراً، وأجلب في بيعه وشرائه. (انظر: المعجم الوسيط: ٢/٦٨٣ ـ ٦٨٤).
(٧) في ب، ج، ص: حكم.

وقوله: «ما أعطيه فلا أعطي غيره» مطابق لقوله ﷺ: «أعطيت ما لم يعط أحد من الأنبياء قبلي»[1].

ولقول الملائكة لما ضربوا له المثل: «لقد أعطي هذا النبي ما لم يعط نبي قبله، إن عينيه تنامان وقلبه يقظان»[2].

فمن ذلك أنه بعث إلى الخلق عامة، وختم به ديوان الأنبياء، ونزل عليه القرآن الذي لم ينزل من السماء كتاب يشبهه، ولا يقاربه، وأنزل على قلبه محفوظاً متلواً، وضمن له حفظه إلى أن يأتي الله بأمره، وأوتي جوامع الكلم، ونصر بالرعب في قلوب أعدائه وبينهما مسيرة شهر[3]، وجعلت صفوف أمته في الصلاة على مثال صفوف الملائكة في السماء، وجعلت له ولأمته الأرض مسجداً وطهوراً[4]، وأسري به إلى أن جاوز السموات السبع ورأى ما لم يره بشر قبله ورفع على سائر النبيين، وجعل سيد ولد آدم، وانتشرت دعوته في مشارق الأرض ومغاربها، واتبعه على دينه أتباع أكثر من أتباع سائر النبيين من عهد نوح إلى المسيح، (فأمته ثلثا أهل الجنّة)[5] وخصه بالوسيلة، وهي أعلى درجة في الجنة، وبالمقام المحمود الذي يغبطه به الأولون والآخرون، وبالشفاعة العظمى التي يتأخر عنها آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى[6]، وأعزّ الله به الحق وأهله عزاً لم يعزه بأحد من قبله، وأذلّ به الباطل وحزبه ذلاً لم يحصل بأحد قبله، وآتاه من العلم والشجاعة (والسماحة)[7] والصبر والزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة والعبادات (القلبية)[8]

---

(١) صحيح مسلم كتاب المسافرين: ٢٥٤، وفي مسند أحمد عن أبي ذر: «أوتيت خمساً لم يؤتهن نبي كان قبلي...» المسند: ١٤٥/٥.

(٢) جامع الترمذي، الأدب: ص ٨٦.

(٣) في قوله ﷺ «أوتيت خمساً...» الذي مرّ ذكره.

(٤) نفس المرجع السابق.

(٥) هكذا في جميع النسخ بلفظ «ثلثا» وما ورد في الحديث «ثلث أهل الجنّة» هكذا أخرجه البخاري في كتاب الرقاق: ص ٤٥؛ والإيمان: ص ٣؛ والأنبياء: ص ٧؛ وأبو داود في الجهاد: ص ١٦٢؛ والترمذي في الجنّة: ص ١٣؛ وابن ماجه في الزهد: ص ٣٤؛ والإمام أحمد في مسنده: ٣٢/٣

(٦) وذلك واضح في حديث الشفاعة الطويل الذي أخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما (راجع: صحيح البخاري، صحيح مسلم، الإيمان: ٣٢٢/٨٤).

(٧) سقطت من الأصل، وفي ج: السماحة والزهد.

(٨) في ج: القلبية أي العليّة.

والمعارف الإلهية ما لم يؤته نبي قبله، وجعلت الحسنة منه ومن أمته بعشر (حسنات مثلها)[1] إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، وتجاوز له عن أمته الخطأ والنسيان، وما استكرهوا عليه، وصلى (الله)[2] عليه هو وجميع ملائكته، وأمر عباده المؤمنين كلهم أن يصلوا عليه ويسلموا تسليماً[3]، وقرن اسمه باسمه فإذا ذكر الله ذكر معه، كما في الخطبة والتشهد والأذان، فلا يصح لأحد أذان ولا خطبة ولا صلاة حتى يشهد أنه عبده ورسوله، ولم يجعل لأحد معه أمراً يطاع، لا ممن قبله ولا ممن هو كائن بعده إلى أن تطوى الدنيا ومن عليها، وأغلق أبواب الجنة إلا عمن سلك خلفه، واقتدى به، وجعل لواء الحمد بيده، فآدم وجميع الأنبياء تحت لوائه يوم القيامة، وجعله أول من تنشق عنه الأرض، وأول شافع وأول مشفّع، وأول من يقرع باب الجنّة، وأول من يدخلها[4]، فلا يدخلها أحد من الأولين والآخرين إلّا بشفاعته ﷺ وأعطي من اليقين والإيمان والصبر والثبات والقوة في أمر الله تعالى، والعزيمة على تنفيذ أوامره، والرضا عنه، والشكر له، والتنوع في مرضاته، وطاعته ظاهراً وباطناً، سراً وعلانية، في نفسه وفي الخلق، ما لم يعطه نبي غيره. ومن عرف أحوال العالم، وسير الأنبياء وأممهم، تبين له أن الأمر فوق ذلك، فإذا كان يوم القيامة ظهر (للخلائق)[5] كلهم من ذلك ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر أنه يكون أبداً.

وقوله: «ولا يضعف ولا يغلب» هكذا حال ﷺ، ما ضعف في ذات الله قط، ولا في حالة انفراده وقلة أتباعه، وكثرة أعدائه واجتماع أهل الأرض على حربه، بل هو ﷺ أقوى الخلق وأثبتهم جأشاً، وأشجعهم قلباً، حتى أنه يوم أحد قُتل أصحابه وجرحوا، وما ضعف ولا استكان، بل خرج من الغد في طلب عدوه على شدة القرح، حتى أرعب منه العدو، وكرّ خاسئاً على كثرة عددهم (وعددهم)[6] وضعف أصحابه، وكذلك يوم حنين، أفرد عن

(١) في ب، ج، ص: أمثالها.
(٢) سقطت من ب، ج، ص.
(٣) في قوله تعالى: ﴿إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً﴾ [الأحزاب: ٥٦].
(٤) كما في الحديث الذي مرّ ذكره.
(٥) في ج: للخلق.
(٦) سقطت من ب، ج.

الناس في نفر يسير دون العشرة، والعدو قد أحاطوا به وهم ألوف مؤلفة، فجعل (يثب)[1] في العدو ويقول:

أنا النبي لا كَذِب   أنا ابن عبد المطلب

وتقدم إليهم وأخذ حفنة من التراب فرمى بها وجوههم فولوا منهزمين. ومن تأمل سيرته وحروبه علم أنه لم يطرق العالم أشجع منه، ولا أثبت ولا أصبر، وكان أصحابه مع أنهم أشجع الأمم إذا احمرّ البأس، واشتد الحرب، اتقوا به، وتترسوا به، فكان أقربهم إلى العدو، وكان أشجعهم هو الذي يكون قريباً منه.

وقوله: «ولا يميل إلى اللهو» هكذا كانت سيرته ﷺ، أبعد الناس من اللهو واللعب، بل أمره كله جد وحزم وعزم، مجلسه مجلس حياء وكرم، وعلم وإيمان، ووقار وسكينة.

وقوله: «ولا يسمع في الأسواق صوته» أي ليس من الصخابين بالأسواق في طلب الدنيا، ولا الحرص عليها، كحال أهلها الطالبين لها.

وقوله: «ركن للمتواضعين» من تأمل سيرته وجده أعظم الناس تواضعاً للصغير والكبير، والمسكين والأرملة، والحر والعبد، يجلس معهم على التراب، ويجيب دعوتهم ويسمع كلامهم وينطلق مع أحدهم في حاجته، ويخصف لأحدهم نعله، ويخيط له ثوبه، ويأخذ له حقّه ممن لا يستطيع أن يطالبه به.

وقوله «وهو نور الله الذي لا يطفأ ولا يخصم حتى يثبت في الأرض حجتي وينقطع به العذر» هذا مطابق لحاله وأمره لما شهد به القرآن في غير موضع، كقوله: ﴿يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون﴾[2]، ﴿يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله مُتِمُّ نوره ولو كره الكافرون﴾[3] وقوله تعالى: ﴿إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم، وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً﴾[5] وقوله تعالى: ﴿قد جاءكم من الله

---

(١) في ب، ج: يثبت.
(٢) سورة التوبة: الآية ٣٢، وقد سقطت من ص والأصل.
(٣) سورة الصف: الآية ٨.
(٤) سورة الأحزاب: الآيتان ٤٥ ــ ٤٦.
(٥) سورة النساء: الآية ١٧٤.

نور وكتاب مبين، يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام﴾(١)، وقوله تعالى: ﴿فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون﴾(٢). ونظائره في القرآن كثيرة.

وقوله: «حتى ينقطع به العذر... وتثبت به الحجة» مطابق لقوله تعالى: ﴿رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل﴾(٣)، وقوله تعالى: ﴿والمرسلات عرفاً...﴾ إلى قوله: ﴿...الملقيات ذكراً عذراً أو نذراً﴾(٤)، وقوله تعالى: ﴿لولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم فيقولوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولاً فنتبع آياتك ونكون من المؤمنين﴾(٥).

وقوله تعالى: ﴿أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا، وإن كنّا عن دراستهم لغافلين، أو تقولوا لو أنّا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم، فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة﴾(٦).

فالحجة إنّما قامت على الخلق بالرسل، وبهم انقطعت المعذرة، فلا يمكن من بلغته دعوتهم أن يعتذر إلى الله يوم القيامة إذ ليس له عذر يقبل منه.

(فصل): وهذه البشارة مطابقة لما في صحيح البخاري أنه قيل لعبد الله بن عمرو: أخبرنا ببعض صفات رسول الله ﷺ في التوراة، (فقال): «إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن: ﴿يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً﴾(٧)، وحرزاً للأميين أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ ولا (صخّاب)(٨) بالأسواق،

---

(١) سورة المائدة: الآيتان ١٥ ـ ١٦.
(٢) سورة الأعراف: الآية ١٥٧.
(٣) سورة النساء: الآية ١٦٥.
(٤) سورة المرسلات: الآيات ١ ـ ٦.
(٥) سورة القصص: الآية ٤٧.
(٦) سورة الأنعام: الآيتان ١٥٦ ـ ١٥٧.
(٧) سورة الأحزاب: الآية ٤٥.
(٨) عند البخاري سخّاب بالسين، قال ابن حجر: وهي لغة أثبتها الفراء وغيره، وبالصاد أشهر (فتح الباري: ٨/٥٨٦).

ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن (يجزي)[1] بالسيئة الحسنة، ويعفو ويغفر، ولن أقبضه حتى أقيم به الملة العوجاء، فأفتح به أعينا عمياً وآذاناً صماً وقلوباً غلفاً بأن يقولوا: لا إله إلا الله»[2].

وقوله: «إن هذا في التوراة» لا يريد به التوراة المعنية التي هي كتاب موسى فقط، فإن لفظ التوراة والإنجيل والزبور والقرآن يراد به (الكتب)[3] المعنية تارة (ويراد به الجنس تارة)[4]، فيعبّر بلفظ القرآن عن الزبور، وبلفظ التوراة عن الإنجيل وعن القرآن أيضاً.

وفي الحديث الصحيح عن النبي ﷺ: «خفف على داود القرآن فكان ما بين أن يسرج دابته إلى أن يركبها يقرأ القرآن»[5] والمراد به قرآنه، وهو الزبور.

وكذلك قوله في البشارة التي في التوراة «نبياً أقيم لبني إسرائيل من إخوتهم أنزل عليه توراة مثل توراة موسى».

وكذلك في صفة أمته ﷺ في الكتب المتقدمة: أناجيلهم في صدورهم. فقوله: «أخبرني بصفة رسول الله ﷺ» إمّا أن يريد التوراة المعينة (وليست المبدلة التي بأيدي اليهود لعنهم الله)[6]، أو جنس الكتب المتقدمة، وعلى التقديرين فأجابه عبد الله بن عمرو بما هو في (التوراة التي هي أتم من الكتاب المعين، فإن هذا الذي ذكره ليس في)[7] التوراة المعينة فقط. بل هو في كتاب أشعيا كما حكيناه عنه، وقد ترجموه أيضاً بترجمة أخرى فيها بعض الزيادة: «عبدي ورسولي الذي سرّت به نفسي أنزل عليه وحيي، فيظهر في الأمم عدلي، ويوصيهم بالوصايا، لا يضحك، ولا يسمع صوته في الأسواق، يفتح العيون العور، والآذان الصم، ويحيي القلوب الغلف، وما أعطيه لا أعطيه أحداً،

---

(١) سقطت من الأصل.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب التفسير: ٨/٦٥، ٤٨٣٨؛ كتاب البيوع: ٨/٣٤، ٢١٢٥.
(٣) في ج: الكتب المنزلة.
(٤) في ج: وتارة الجنس.
(٥) أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء: ٦/٦٠، ٣٤١٧؛ وعند تفسيره قوله تعالى: ﴿وآتينا داود زبوراً﴾ التفسير: ٨/٦٥، ٤٧١٣.
(٦) ليست في ب، ج، ص.
(٧) سقطت من الأصل.

يحمد الله حمداً جديراً يأتي من أقطار الأرض، وتفرح البرية وسكانها يهللون بالله على كل شرف ويكبرونه على كل رابية، لا يضعف، ولا يغلب، ولا يميل إلى الهوى، مشفّح ولا يذل الصالحين الذين هم كالقصبة الضعيفة، بل يقوي الصديقين، وهو ركن المتواضعين، وهو نور الله الذي لا يطفأ، أثر سلطانه على كتفيه»[١].

وقوله «مشفح» بالشين المعجمة والفاء المشددة بوزن مكرّم ــ وهي لفظة عبرانية ــ مطابق لاسم محمد معنى ولفظاً، مقارباً لمطابقة مؤد مؤد بل أشد مطابقة، ولا يمكن العرب أن يتلفظوا بها بلفظ العبرانيين، فإنّها بين الحاء والهاء، وفتحة الفاء بين الضمة والفتحة ولا يتريب عالم من علمائهم منصف أنها مطابقة لاسم محمد.

قال أبو محمد بن قتيبة: مشفح محمد من غير شك. واعتباره أنهم يقولون (شفحا لاها) إذا أرادوا أن يقولوا: الحمد لله، وإذا كان الحمد شفحاً فمشفح محمد بغير شك.

وقد قال لي ولغيري بعض من أسلم من علمائهم: إن مئد مئد هي محمد، وهي بكسر الميم والهمزة، وبعضهم يفتح الميم ويدنيها من الضمة، قال: ولا يشك العلماء منهم بأنه محمد، (وإن سكتنا عن ذلك)[٢] وضربنا عن هذا صفحاً فمن هذا الذي انطبقت عليه وعلى أمته هذه الصفات سواه ﷺ، ومن هذا الذي أثر سلطانه وهو خاتم النبوة على كتفيه، رآه الناس عياناً، مثل زرّ الحجلة، فماذا بعد الحق إلا الضلال، وبعد البصيرة إلا العمى، ﴿ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور﴾[٣].

فصفات هذا النبي ومخرجه ومبعثه وعلاماته وصفاته وصفات أمته في كتبهم، يقرؤونها في كنائسهم، ويدرسونها في مجالسهم، لا ينكرها منهم عالم، ولا يأباها جاهل، ولكنهم يقولون: لم يظهر بعد وسيظهر ونتبعه.

قال ابن إسحق: حدثني محمد بن أبي محمد عن عكرمة أو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما أن يهود كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله ﷺ قبل مبعثه، فلما بعثه الله من العرب، كفروا به وجحدوا نبوته، وجحدوا ما كانوا يقولونه

---

(١) تقدم الحديث عن هذا النص الذي أورده أشعيا.

(٢) سقطت من ب، ج، ص.

(٣) سورة النور: الآية ٤٠.

فيه، فقال معاذ بن جبل وبشر بن البراء بن معرور[1] وداود بن سلمة[2]: يا معشر اليهود اتقوا الله وأسلموا، فقد كنتم تستفتحون بمحمد ﷺ، ونحن أهل شرك، وتخبرونا أنه مبعوث وتصفونه بصفته، فقال سلام بن مشكم[3] أخو بني النضير: ما جاءنا بشيء نعرفه، وما هو الذي كنا نذكر لكم، فأنزل الله تعالى: ﴿وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به، فلعنة الله على الكافرين﴾[4][5].

وقال أبو العالية: كان اليهود إذا استنصروا بمحمد على مشركي العرب يقولون: اللهم ابعث هذا النبي الذي نجده مكتوباً عندنا، حتى (يعذب)[6] المشركين ويقتلهم، فلما بعث الله محمداً ﷺ، ورأوا أنه من غيرهم، كفروا به (حسداً للعرب)[7]، وهم يعلمون أنه رسول الله ﷺ، فأنزل الله عز وجل هذه الآيات: ﴿فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين﴾[8].

وقال ابن إسحق: حدثني عاصم عن عمر بن قتادة الأنصاري عن رجال من قومه قالوا: ومما دعانا إلى الإسلام مع رحمة الله وهداه، ما كنا نسمع من رجال يهود، كنا أهل شرك أصحاب أوثان، وكانوا أهل كتاب، عندهم علم ليس عندنا، فكانت لا تزال بيننا

---

(١) بشر بن البراء بن معرور الأنصاري الخزرجي السلمي، والده أحد النقباء، أما بشر فشهد العقبة مع أبيه، وشهد بدراً وما بعدها ومات بعد خيبر من أكلة أكلها مع النبي ﷺ من الشاة التي سمّ فيها (الإصابة: ١/٩٤).

(٢) في سيرة ابن هشام: لم يذكر داود بن سلمة وإنما قال: بشر بن البراء بن معرور أخو بني سلمة، مع أن ابن حجر في الإصابة ذكر عند ترجمته لداود بن سلمة قال: له ذكر، فروى ابن أبي حاتم في التفسير من طريق ابن إسحق، وساق هذه القصة وذكر الثلاثة ومنهم داود بن سلمة (الإصابة: ٣٨٣/٢).

(٣) في الأصل مكشم وفي ب مسلم والصحيح مشكم وهو هكذا في سيرة ابن هشام وغيره من كتب السيرة.

(٤) سورة البقرة: الآية ٨٩.

(٥) السيرة النبوية، ابن هشام: ١٧٣/٢.
وقد أخرج الطبري هذه القصة عن ابن حميد عن سلمة عن ابن إسحق (تفسير الطبري: ٣٢٥/١).

(٦) في الأصل: يضرب.

(٧) سقطت من ص.

(٨) انظر: تفسير الطبري: ٣٢٦/١ (دار المعرفة ـ بيروت).

وبينهم شرور، فإذا نلنا منهم بعض ما يكرهون، قالوا لنا: قد تقارب زمان نبي يبعث الآن نتبعه (فنقتلكم معه)[1] قتل عاد وإرم، فكنا كثيراً ما نسمع ذلك منهم، فلما بعث الله تعالى رسوله ﷺ أجبنا حين دعانا إلى الله، وعرفنا ما كانوا يتوعدونا به، فبادرناهم إليه، فآمنا به وكفروا به، ففينا وفيهم نزلت هذه الآيات التي في البقرة: ﴿ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين﴾[2].

* **الوجه الرابع والعشرون:**

قوله في كتاب أشعيا: أشكر حبيبي وابني أحمد[3]، فلهذا جاء ذكره في نبوة أشعيا أكثر من غيرها من النبوات، وأعلن أشعيا بذكره وصفته وصفة أمته، ونادى بها في نبوته سراً وجهراً لمعرفته بقدره ومنزلته عند الله تعالى.

وقال أشعيا أيضاً: (إنا سمعنا من أطراف الأرض صوت محمد)[4] وهذا إفصاح منه باسمه ﷺ، فليرنا أهل الكتاب نبياً نصّت الأنبياء على اسمه وصفته ونعته وسيرته وصفة أمته وأحوالهم سوى رسول الله ﷺ.

* **الوجه الخامس والعشرون:**

قول حبقوق في كتابه: (إن الله جاء من اليمن[5] والقدوس من جبال فاران، لقد أضاءت السماء من بهاء محمد، وامتلأت الأرض من حمده، شعاع منظره مثل النور يحوط بلاده بعزّة، تسير المنايا أمامه، وتصحب سباع الطير أجناده، قام فمسح الأرض فتضعضعت له الجبال القديمة، وانخفضت الروابي فتزعزعت أسوار مدين، ولقد

---

(١) في ج: فيقتلكم ونحن معه.

(٢) سورة البقرة: الآية ٨٩، وهذه الرواية أخرجها الطبري في تفسيره عن ابن حميد قال: حدثنا سلمة قال: حدثني ابن إسحق عن عاصم عن ابن عمر. . (تفسير الطبري: ١/٣٢٥)، دار المعرفة - بيروت.

(٣) هذا النص ليس في الترجمات الحالية لسفر أشعيا.

(٤) نفس المرجع السابق.

(٥) النص الحالي: (الله جاء من تيمان) وكذلك في الجواب الصحيح (التيمن): ٣/٣٣٠.

(حاز)[1] المساعي القديمة، ثم قال: (زجرك في الأنهار واحتذام صوتك)[2] في البحار، ركبت الخيول وعلوت مراكب الأتقياء وستنزع في قسيك[3] أعراقاً[4]، وترتوي الهام بأمرك يا محمد ارتواء، ولقد رأتك الجبال فارتاعت، وانحرف عنك شؤبوب السيل[5] وتضيّمت المهاري (تضوّراً)[6]، ورفعت أيديها وجلاً وخوفاً، وسارت العساكر في بريق سهامك، ولمعان نيازكك وتدوخ الأرض وتدوس الأمم أنك ظهرت بخلاص أمتك وإنقاذ تراب آبائك)[7].

فمن رام صرف هذه البشارة عن محمد فقد رام ستر الشمس بالنهار، وتغطية البحار، وأنى يقدر على ذلك، وقد وصفه بصفات عينت شخصه، وأزالت عن الحيران لبسه، بل قد صرّح باسمه مرتين، حتى انكشف الصبح لمن كان ذا عينين، وأخبر بقوة أمته، وتسيير المنايا أمامهم، واتباع جوارح الطير آثارهم. وهذه النبوّة لا تليق إلاّ بمحمد ﷺ، ولا تصلح إلا له، ولا تنزل إلا عليه، فمن حاول صرف الأنهار العظيمة عن مجاريها، وحبسها عن غايتها ومنتهاها فهيهات ما يروم المبطلون والجاحدون، ﴿ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون﴾.

فمن الذي امتلأت الأرض من حمده وحمد أمته في صلواتهم وخطبهم، وإدبار صلواتهم، وعلى السراء والضراء، وجميع الأحوال سواهم، حتى سماهم الله تعالى قبل ظهورهم الحمادين، ومن ذا الذي كان وجهه كأن الشمس والقمر يجريان فيه من ضيائه ونوره.

---

(١) في الأصل جاز.

(٢) احتذام الصوت: سرعته، الحذم: الإسراع في المشي، ومنه قول عمر لبعض المؤذنين إذا أذنت فترسل، وإذا أقمت فاحذم، يريد عجل إقامة الصلاة ولا تطولها كالأذان (لسان العرب)،

(٣) القسي: جمع القوس (لسان العرب).

(٤) أعراقاً: جمع عرقاة بفتح العين وكسرها، وهو الأصل الذي يذهب في الأرض سفلاً وتشعب منه العروق، وقال بعضهم: أعرقه وعرقات، وعرقاة كل شيء: أصله ويقال في الدعاء: استأصل الله عرقاته، والعرب تقول: استأصل الله عرقاتهم أي شأفتهم (لسان العرب).

(٥) الشؤبوب هو شدة دفع السيل، أو للدفعة من المطر، القاموس مادة: شؤب، المعجم الوسيط: ٤٧٢/١ . والمهاري بالياء مشددة ومخففة، والمهارى بالألف المقصورة: جمع مهرية وهي إبل نجائب تسبق الخيل منسوبة لقبيلة مهرة بن حيدان، المعجم الوسيط ٨٩٧/٢. والتضوّر: الصياح والتلوي عند الضرب أو الجوع، مختار الصحاح.

(٦) سقطت من الأصل.

(٧) انظر: حبقوق: ٣/٣ ـ ١٣ مع اختلاف في الألفاظ.

(قد عود الطير عادات وثقن به فهن يَتْبَعْنَهُ في كل مرتحل)[1]
(لو لم يقل)[2] إني رسول أما أتى شاهده في وجهه ينطق

ومن ذا الذي سارت المنايا أمامه، وصحبت سباع الطير جنوده لعلمهما بقرب من ذبح الكفار لله الواحد القهار.

(يتطايرون بقربه قربانهم)[3] بدماء من علقوا من الكفار

ومن ذا الذي تضعضعت له الجبال (وانخفضت)[4] له الروابي، وداس الأمم وروّع العالم وانتقضت لنبوته الممالك، وخلّص الأمة من الشرك والكفر والجهل والظلم سواه.

* **الوجه السادس والعشرون:**

قوله في كتاب حزقيل يهدد اليهود ويصف لهم أمة محمد ﷺ: (إن الله مظهرهم عليكم، وباعث فيهم نبياً، وينزل عليه كتاباً، ويملكهم رقابكم فيقهرونكم ويذلونكم بالحق، ويخرج رجال بني قيدار في جماعات الشعوب معهم ملائكة على خيل بيض متسلحين يوقعون بكم وتكون عاقبتكم إلى النار)[5].

فمن الذي أظهره الله على اليهود حتى قهرهم وأذلهم وأوقع بهم وأنزل عليه كتاباً، ومن هم بنو قيدار غير بني إسماعيل الذي خرجوا معه وهم جماعات الشعوب، ومن الذي نزلت عليه وعلى أمته الملائكة على خيل بيض يوم بدر، ويوم الأحزاب، ويوم حنين، حتى عاينوها عياناً، فقاتل بين يديه، وعن يمينه، وعن شماله، حتى غلب ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً ليس معهم غير فرسين، ألف رجل مقنعين في (الحديد)[6] معدودين من فرسان

(١) البيت سقط من الأصل.
(٢) سقطت من ص.
(٣) في ب، ص: يتطهرون يرونه قربانهم، وفي ج: يتطهرون برؤية قربانهم.
(٤) في الأصل: وانخضعت.
(٥) هذا النص أورده ابن تيمية عن دانيال وليس عن حزقيل (انظر الجواب الصحيح: ٣/٣٣١) والنص في دانيال، ويوجد في حزقيل ما يشبهه قليلاً وإن كان الحديث فيه عن بني إسرائيل لا عن بني قيدار (حزقيال: ٣٧/٢١).
ويبدو أن النص محرف والتحريف كان في وضع كلمة بني إسرائيل بدل كلمة بني إسماعيل.
(٦) سقطت من الأصل.

العرب فأصبحوا بين قتيل وأسير (ومنهزم)[1].

* **الوجه السابع والعشرون:**

قول (دانيال)[2] وذكره باسمه الصريح من غير تعريض ولا تلويح، وقال: (ستنزع في قسيك أعراقاً وترتوي السهام بأمرك يا محمد ارتواء)[3].

وقول دانيال النبي أيضاً حين سأله بخت نصر عن تأويل رؤيا رآها ثم أنسيها: (رأيت أيها الملك صنماً عظيماً قائماً بين يديك رأسه من الذهب وساعداه من الفضة)[4]وبطنه وفخذه من النحاس، وساقاه من الحديد، ورجلاه من الخزف[5]، فبينما أنت تتعجب منه إذ أقبلت صخرة فدقت في ذلك الصنم فتفتت وتلاشى، وعاد رفاتاً[6]، ثم نسفته الرياح، وذهب وتحوّل ذلك الحجر إنساناً عظيماً ملأ الأرض، فهذا ما رأيت أيها الملك، فقال بخت نصر صدقت! فما تأويلها؟ قال: أنت الرأس الذي رأيته من ذهب، ويقوم بعدك ولدك، وهو الذي رأيته من الفضة، وهو دونك وتقوم بعده مملكة أخرى (هي دونه وهي تشبه النحاس وبعدها مملكة قوية مثل الحديد، وأما الرجلان اللذان رأيت من الخزف فمملكة)[7] ضعيفة، وأما الحجر العظيم الذي رأيته دقّ الصنم ففتّته فهو نبي يقيمه إله الأرض والسماء بشريعة قوية فيدق جميع ملوك الأرض وأممها حتى تمتلىء الأرض منه ومن أمته، ويدوم سلطان ذلك النبي إلى انقضاء الدنيا، فهذا تعبير رؤياك أيها الملك[8].

ومعلوم أن هذا منطبق على محمد بن عبد الله ﷺ حذو القذة بالقذة لا على المسيح ولا على نبي سواه، فهو الذي بعث بشريعة قوية، ودّق جميع ملوك الأرض وأممها، حتى

---

(١) في ج: منهزمين.

(٢) في الأصل: حبقوق.

(٣) سبق تعليقنا عليه، دانيال: ١١/٣.

(٤) في النص الحالي: صدره وذراعه من الفضة، دانيال: ٢٢/٢.

(٥) في النص الحالي: قدماه بعضهما من حديد والبعض من خزف: ٢٣/٢.

(٦) الرفات: الحطام، مختار الصحاح: ص ٢٤٩.

(٧) سقطت من ص.

(٨) هذا الوجه منقول عن الجواب الصحيح: ٤/٤ ــ ٥.

امتلأت الأرض من أمته، وسلطانه دائم إلى آخر الدهر لا يقدر أحد أن يزيله، كما أزال سلطان اليهود من الأرض وأزال سلطان النصارى عن خيار الأرض ــ وسطها ــ فصار في بعض أطرافها، وأزال سلطان المجوس وعباد الأصنام وسلطان الصابئين.

* **الوجه الثامن والعشرون**[1]:

قول دانيال أيضاً: «سألت الله وتضرعت إليه أن يبين لي ما يكون من بني إسرائيل، وهل يتوب عليهم ويرد إليهم ملكهم، ويبعث إليهم الأنبياء، أو يجعل ذلك في غيرهم فظهر لي الملك في صورة شاب حسن الوجه، فقال: السلام عليك يا دانيال: إن الله يقول: إن بني إسرائيل أغضبوني، وتمردوا عليّ وعبدوا (من) دوني آلهة أخرى، وصاروا من بعد العلم إلى الجهل، ومن بعد الصدق إلى الكذب، فسلطت عليهم بخت نصر، فقتل رجالهم، وسبى ذراريهم، وهدم مساجدهم، وحرق كتبهم، وكذلك فعل من بعده بهم، وأنا غير راض عنهم، ولا مقيلهم عثراتهم، فلا يزالون في سخطي حتى أبعث مسيحي ابن العذراء البتول، وأختم عليهم ذلك باللعن والسخط، فلا يزالون ملعونين عليهم الذل والمسكنة حتى أبعث نبي بني إسماعيل الذي بشرت به هاجر، وأرسلت إليها ملاكي، فبشرها، وأوحي إلى ذلك النبي، وأعلمه الأسماء، وأزينه بالتقوى، وأجعل البر شعاره، والتقوى ضميره، والصدق قوله، والوفاء طبيعته، والقصد سيرته، والرشد سنته، أخصه بكتاب مصدق لما بين يديه من الكتاب، وناسخ لبعض ما فيها، أسري به إليّ وأرقيه من سماء إلى سماء حتى يعلو فأدنيه، وأسلم عليه وأوحي إليه، ثم أرده إلى عبادي بالسرور والغبطة، حافظاً لما استودع، صادقاً فيما أمر، يدعو إلى توحيدي باللين من القول والموعظة الحسنة، لا فظ ولا غليظ ولا صخاب بالأسواق، رؤوف بمن والاه، رحيم بمن آمن به، خشن على من عاداه، فيدعو قومه إلى توحيدي وعبادتي، ويخبرهم بما رأى من آياتي فيكذبونه ويؤذونه»[2].

---

(١) في المصرية الأصل: في.

(٢) لا نجد في دانيال ــ في الترجمات الحالية ــ مثل هذا النص واضحاً مرتباً، والموجود هو معاني متناثرة لأجزاء منه، انظر دانيال: ٣/٩ ــ ١٥، ٣/١١ ــ ١٠ وقد نقله ابن القيم عن الجواب الصحيح: ٤/٤ ــ ٥.

ثم سرد دانيال قصة رسول الله ﷺ بما أملاه (عليه) الملك، حتى وصل آخر أيام أمته بالنفخة وانقضاء الدنيا، وهذه البشارة الآن عند اليهود والنصارى، يقرؤونها ويقرّون بها، ويقولون: لم يظهر صاحبها بعد.

(قال أبو العالية: لمَّا فتح المسلمون تستر[١] وجدوا دانيال ميتاً ووجدوا عنده مصحفاً)[٢].

قال أبو العالية: فأنا قرأت ذلك المصحف، وفيه صفتكم وأخباركم، وسيرتكم ولحون كلامكم، وكان أهل الناحية (يعني أهل أرض السويس حيث دانيال مدفون)[٣]، إذا أجدبوا كشفوا عن قبره (فيسقون)[٤]، فكتب (أبو موسى)[٥] في ذلك إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فكتب إليه عمر أن أحضر بالنهار ثلاثة عشر قبراً وادفنه بالليل في واحد منها كي لا تفتن الناس به[٦].

* **الوجه التاسع والعشرون[٧]:**

قال كعب[٨]: وذكر صفة رسول الله ﷺ في التوراة ــ ويريد بها التوراة التي هي أعم من التوراة المعنية ــ أحمد عبدي المختار، لا فظ ولا غليظ ولا صخاب بالأسواق، ولا يجزي السيئة بالسيئة، يعفو ويغفر مولده بكّا[٩]، وهجرته طابا[١٠]، وملكه بالشام، وأمته

---

(١) تستر: أعظم مدينة بخوزستان وبها قبر البراء بن مالك وفتحها أبو موسى الأشعري (معجم البلدان ٢/٢٩).

(٢) سقطت هذه العبارة من الأصل ومن ج، ص.

(٣) سقطت من ب، ج، ص.

(٤) سقطت من الأصل.

(٥) في ص: أبو موسى الأشعري.

(٦) رواية أبي العالية هذه أوردها البيهقي في دلائل النبوة: ١/٢٨٤ كما ذكرها ابن تيمية في الجواب الصحيح: ٤/٤.

(٧) هذا الوجه منقول عن الجواب الصحيح ٤/٥ ــ ٦.

(٨) يعني كعب الأحبار.

(٩) في النص القرآني: (بكة) بالتاء المربوطة وذلك في قوله تعالى: ﴿إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة﴾.

(١٠) طابا هي طيبة وهذا من أسماء المدينة المنورة.

الحامدون، يحمدون الله على كل نجد، ويسبحونه في كل منزلة، ويوضئون أطرافهم، ويأتزرون على أنصافهم، وهم رعاة الشمس، ومؤذنهم في جو السماء، وصفّهم في القتال وصفّهم في الصلاة سواء، رهبان بالليل أسد بالنهار، لهم دوي كدوي النحل، يصلون الصلاة حيث ما أدركتهم ولو على كناسة(١).

*** الوجه الثلاثون(٢):**

قال ابن أبي الزناد(٣): (حدثني عبد الرحمن بن الحارث عن عمر بن حفص(٤)، وكان من خيار الناس قال: كان عند أبي وجدي ورقة يتوارثونها قبل الإسلام، فيها اسم الله وقوله الحق وقول الظالمين في تبار، هذا الذكر لأمة تأتي في آخر الزمان، يتزرون على أوساطهم، ويغسلون أطرافهم، ويخوضون البحور إلى أعدائهم، فيهم صلاة لو كانت في قوم نوح ما هلكوا بالطوفان، وفي ثمود ما أهلكوا بالصيحة)(٥).

*** الوجة الحادي والثلاثون(٦):**

قال أشعيا وذكر قصة العرب فقال: (يدوسون الأمم دياس البيادر، وينزل البلاء بمشركي العرب، وينهزمون بين يدي سيوف مسلولة، وقسيٍّ موتورة من شدة الملحمة)(٧). وهذا إخبار عما حلّ بعبدة الأوثان من رسول الله ﷺ وأصحابه يوم بدر ويوم حنين وفي غيرهما من الوقائع.

*** الوجه الثاني والثلاثون:**

قوله في الإنجيل الذي بأيدي النصارى عن يوحنا أن المسيح قال للحواريين: «من

---

(١) هذا النص غير موجود في الترجمات الحالية للكتاب المقدس. وقد ذكر البيهقي الجزء الأول من هذا النص بأكثر من طريق عن كعب (انظر: دلائل النبوة: ٢٧٨، ٢٧٩، ٢٨٠) وذكر ابن سعد بقية القول (انظر: الطبقات: ١/٢ ــ ٨٧) وقوله: ولو على كناسة، فيه نظر.

(٢) هذا الوجه منقول عن الجواب الصحيح: ٦/٤.

(٣) عبد الرحمن بن أبي الزناد بن ذكوان المدني، أحد العلماء الكبار، روى له أصحاب السنن الأربعة، مات ببغداد سنة ١٧٤هـ (ميزان الاعتدال: ٥٧٥/٢).

(٤) عمر بن حفص: وعند البيهقي عمر بن الحكم بن رافع بن سنان.

(٥) دلائل النبوة، البيهقي: ص ٢٨٥.

(٦) هذا الوجه منقول عن الجواب الصحيح: ص ٤ ــ ٦.

(٧) انظر: أشعيا: ١٢/٢١ ــ ١٦.

أبغضني فقد أبغض الرب، ولـولا أني صنعت لهم (صنائـع) لم يصنعها أحـد لم يكن لهم ذنب، (ولكن من الآن بطروا)[1] فلا بـد أن تتم الكلمة التي في النـاموس لأنهم أبغضـوني مجاناً، ولو قد جاء المنحمنا[2] هذا الذي يرسله الله إليكم من عند الرب روح القدس، فهو شهيـد عليّ، وأنتم أيضـاً لأنكم قـديمـاً كنتم معي، هــذا قـولي لكم لكي لا تشكــوا إذا جاء»[3].

والمنحمنا بالسريانية وتفسيره بالرومية: البارقليط وهو (بالعربيّة)[4] الحامد والمحمود والحمد كما تقدم.

* **الوجه الثالث والثلاثون:**

قوله في الإنجيل أيضاً: (إن المسيـح قال لليهـود: ويقولـون: لو كنـا في أيام آبـائنا لم نسـاعدهم على قتـل الأنبياء، فـأتموا كيـل آبائكم (يـاثعـابين)[5] بني الأفـاعي، (كيف لكم)[6] النجاة من عذاب النار)[7].

(ويؤيـد ذلـك مـا ورد في سـورة يس ﴿فـأرسلنـا إليهم اثنين فكـذبـوهمــا فعـززنــا بثالث﴾[8].

وذلك محقق أنه بعد رفع المسيح. وقد تقدم الكلام على معنى)[9] وسـأبعث إليكم أنبيـاء وعلمـاء وتقتلون منهم، وتصلبـون وتجلدون، وتـطلبـونهم من مـدينـة إلى أخـرى، لتتكامل عليكم دماء المؤمنين المهرقة على الأرض، من دم هابيل الصالح إلى دم زكريا بن برضيا الذي قتلتموه عند المذبح، إنه سيـأتي جميع مـا وصفت على هذه الأمـة يا أورشليم

---

(١) في الأصل: من الآن ينظروا.

(٢) الترجمات الحالية لا تذكر لفظ المنحمنا، فبعضها يذكر البارقليط وبعضها المعزى.

(٣) يوحنا: ١٥/ ٢٤ ــ ٢٧.

(٤) في الأصل: بالعبرانية.

(٥) في ج، ص: ياتابعين.

(٦) سقطت من الأصل.

(٧) متى: ٢٣/ ٣٠ ــ ٣٣.

(٨) سورة يس: الآية ١٤.

(٩) زيادة في الأصل فقط.

التي تقتل الأنبياء، وترحم من بعث إليك، قد أردت أن أجمع بنيك كجمع الدجاجة (فراريجها)[1] حتى جناحها، وكرهت أنت ذلك، سأقفر عليكم بيتكم، وأنا أقول لا تروني الآن حتى يأتي من يقولون له مبارك، يأتي على اسم الله[2].

فأخبرهم المسيح أنهم لا بد أن يستوفوا الصاع الذي قدر لهم، وأنه سيقفر (بيتهم)[3]، أي يخليه منهم، وأنه يذهب عنهم فلا يرونه حتى يأتي المبارك الذي يأتي على اسم الله، فهو الذي انتقم بعده لدماء المؤمنين، وهذا نظير قوله في الموضع الآخر: (إنه خير لكم أن أذهب عنكم حتى يأتيكم البارقليط، فإنه لا يجيء ما لم أذهب)[4]، وقوله أيضا: (ابن البشر ذاهب والبارقليط من بعده)[5]. وفي موضع آخر: (أنا ذاهب وسيأتيكم البارقليط)[6].

والمبارك الذي جاء بعد المسيح، هو محمد ﷺ كما تقدم تقريره.

* **الوجه الرابع والثلاثون:**

قوله في إنجيل متى: (إنه لما حبس يحيى بن زكريا بعث تلاميذه إلى المسيح، وقال لهم: قولوا له: أنت إيليا أم نتوقع غيرك؟ فقال المسيح: الحق اليقين أقول لكم: إنه لم تقم النساء عن أفضل من يحيى بن زكريا، وإن التوراة وكتب الأنبياء يتلو بعضها بعضاً بالنبوة والوحي، حتى جاء يحيى. وأما الآن فإن شئتم فاقبلوا فإن (ايل) مزمع أن يأتي فمن كانت له أذنان سامعتان فليستمع)[7].

وهذه بشارة بمجيء الله سبحانه وتعالى الذي هو ايل بالعبرانية ومجيئه هو مجيء رسوله وكتابه ودينه، كما في التوراة (جاء الله من طور سيناء) قال بعض عباد الصليب: إنما بشر بإلياس النبي.

---

(١) في الأصل: في أريجها.
(٢) متى: ٢٣/٣٤ ــ ٣٩.
(٣) في ب، ج، ص: عليهم بيتهم.
(٤) يوحنا: ١٦/٧.
(٥) يوحنا: ص ١٤.
(٦) يوحنا: ص ١٥.
(٧) انظر: متى: ١١/٩ ــ ١٥.

وهذا لا ينكر من جهل أمة الضلال وعباد خشبة الصليب التي نحتتها أيدي اليهود، فإن إلياس تقدم إرساله على المسيح بدهور متطاولة.

* الوجه الخامس والثلاثون:

قوله في نبوة أرميا: (قبل أن أخلقك قد عظمتك من قبل أن أصورك في البطن، وأرسلتك وجعلتك نبياً للأجناس كلهم)[1]، فهذه بشارة على لسان أرميا لمن بعده، وهو إما المسيح وإما محمد صلوات الله وسلامه عليهما، لا تعدوهما إلى غيرهما، ومحمد أولى بها لأن المسيح إنما كان نبياً لبني إسرائيل، كما قال الله تعالى: ﴿ورسولاً إلىٰ بني إسرائيل﴾[2].

والنصارى تقرّ بذلك، ولم يدّع المسيح أنه رسول إلى (سائر)[3] الأجناس من أهل الأرض، فإن الأنبياء من عهد موسى إلى المسيح إنما كانوا يبعثون إلى قومهم، بل عندهم في الإنجيل أن المسيح قال للحواريين: «لا تسلكوا إلى سبيل الأجناس ولكن اختصروا على الغنم الرابضة من نسل إسرائيل»[4].

وأما محمد بن عبد الله فهو الذي بعثه الله إلى سائر أجناس الأرض وطوائف بني آدم.

وهذه البشارة مطابقة لقوله تعالى: ﴿قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً﴾[5].

ولقوله ﷺ: (بعثت إلى الأسود والأحمر)[6].

---

(١) أرميا: ١/٥.

(٢) سورة آل عمران: الآية ٤٩

(٣) في ب، ج، ص: جميع.

(٤) انظر: متى: ١٠/٥ ـ ٦.

(٥) سورة الأعراف: الآية ١٥٨.

(٦) أخرجه مسلم ضمن حديث: (أعطيت خمسا...) بلفظ: «وبعثت إلى كل أحمر وأسود» (صحيح مسلم، المساجد: ٣/٥٢١).

وقوله: (وكان النبي يبعث إلى قومه وبعثت إلى الناس عامة)[1].

وقد اعترفت النصارى بهذه البشارة ولم ينكروها. لكن قال بعض زعمائهم إنها بشارة موسى بن عمران وإلياس واليسع، وأنهم سيأتون في آخر الزمان، وهذه من أعظم البهت والجرأة على الله تعالى والافتراء عليه، فإنه لا يأتي من قد مات إلى يوم الميقات المعلوم.

* **الوجه السادس والثلاثون:**

قول المسيح في الإنجيل الذي بأيديهم، وقد ضرب مثل الدنيا فقال: (كمثل رجل (اغترس)[2] كرماً (ويسيّج)[3] حوله، وجعل فيه معصرة، وشيّد فيه قصراً، ووكل به أعواناً، وتقرب عنه، فلما دنا أوان القطاف، بعث (عبداً)[4] إلى أعوانه المتوكلين بالكرم، (ثم ضرب مثلاً للأنبياء ولنفسه، ثم للنبي الموكل آخر بالكرم)[5] إلى أن أفصح عن أمته فقال: (وأقول لكم: سيزاح عنكم ملك الله وتعطاه الأمة المطيعة العاملة)[6].

ثم ضرب لبني إسرائيل مثلاً بصخرة وقال: «من سقط على هذه الصخرة، ينكسر، ومن سقطت عليه يتهشّم»[7] وهذه صفة محمد ﷺ ومن ناوأه وحاربه من الناس لا ينطبق على أحد بعد المسيح سواه.

* **الوجه السابع والثلاثون:**

قول أشعيا في (صفته)[8]: لتفرح أرض البادية العطشى، ولتبتهج الروابي

---

(١) الحديث أخرجه هكذا الإمام أحمد في مسنده في حديث: أُعطيت خمساً... الذي تقدم الحديث عنه (مسند الإمام أحمد: ٥/١٤٥).
(٢) في ج: اغترت.
(٣) في الأصل: ويسبّح.
(٤) سقطت من الأصل.
(٥) سقطت من الأصل.
(٦) متى: ٢١/٣٣ ـ ٣٥، ٤٣.
(٧) متى: ٢١/٤٤.
(٨) في الأصل: صحفة.

والفلوات، لأنها ستعطي بأحمد محاسن لبنان ومثل حسن (الدساكير[1] وبالله)[2] ما بعد هذا إلا المكابرة وجحد الحق بعد ما تبيّن.

* **الوجه الثامن والثلاثون:**

قول حزقيل في صحفه التي بأيديهم: «يقول الله عز وجل بعدما ذكر معاصي بني إسرائيل وشبّههم بكرمة غذاها وقال: لم تلبث الكرمة أن قلعت بالسخطة ورمي بها على الأرض، وأحرقت السمائم ثمارها، فعند ذلك غرس في البدو وفي الأرض المهملة العطشى، وخرجت من أغصانها الفاضلة نار أكلت تلك الكرمة، حتى لم يوجد فيها غصن قوي ولا قضيب»[3]..

وهذا تصريح لا تلويح به ﷺ وببلده وهي مكة العطشى المهملة من النبوة قبله من عهد إسماعيل.

* **الوجه التاسع والثلاثون:**

ما في صحف دانيال وقد نعت (الكشدانيين)[4] الكلدانيين[5] فقال: لا تميد دعوتهم، وأقسم الرب بساعده أن لا يظهر الباطل، ولا يقوم لمدّع كاذب دعوة أكثر من ثلاثين سنة[6].

وفي التوراة ما يشبه هذا. وهذا صريح بصحة نبوته ﷺ، فإن الذين اتبعوه بعد موته أضعاف أضعاف الذين اتبعوه في حياته، وهذه دعوته التي مرت عليها القرون من السنين، وهي باقية مستمرة، وكذلك إلى آخر الدهر. ولم يقع هذا لملك قط فضلاً عن كذاب مفتر

---

(١) أشعيا: ٣/٣٥.

(٢) في ج: الدنيا كبروا بالله.

(٣) حزقيال: ١٣/١٤.

(٤) لم يرد ذكر الكشدانيين في سفر دانيال، وإنما ذكر الكلدانيون أكثر من مرة، والكلدانيون هم الجنس الغالب في بابل من ص ١٢١ ـ ٥٣٩ ق.م ومن ملوكهم نبوخذ نصر (قاموس الكتاب المقدس: ٢/٧٨٥).

(٥) في الأصل: الكلدانيين.

(٦) هذا النص ليس في سفر دانيال الحالي.

على الله وأنبيائه مفسد للعالم (مغيّر)[1] لدعوة الرسل، ومن ظنّ هذا بالله فقد ظن به أسوأ الظن، وقدح في علمه وقدرته وحكمته.

[مناظرة لابن القيم مع أحد رؤساء اليهود]

وقد جرى لي مناظرة مع أكبر من تشير إليه اليهود بالعلم والرئاسة، فقلت له في أثناء الكلام: إنهم بتكذيبهم محمداً ﷺ وقد شتمتم الله أعظم شتيمة فعجب من ذلك، وقال: مثلك يقول هذا الكلام! فقلت له: اسمع الآن تقريره: إذا قلتم إن محمداً ملك (ظالم)[2] قهر الناس بسيفه، وليس برسول من عند الله، وقد أقام ثلاثاً وعشرين سنة يدعي أنه رسول الله أرسله إلى الخلق كافة، ويقول: أمرني الله بكذا ونهاني عن كذا وأوحي إليّ كذا، ولم يكن من ذلك شيء، ويقول إنه أباح لي سبي ذراري من كذبني وخالفني ونساءهم، وغنيمة أموالهم، وقتل رجالهم، ولم يكن من ذلك شيء، وهو (يدأب)[3] في تغيير الأنبياء ومعاداة أممهم، ونسخ شرائعهم، فلا يخلو: إما أن تقولوا: إن الله سبحانه وتعالى كان يطلع على ذلك ويشاهده ويعلمه، أو تقولوا: إنّه خفي عنه ولم يعلم به، فإن قلتم لم يعلم به نسبتموه إلى أقبح الجهل، وكان من علم ذلك أعلم منه؛ وإن قلتم بل كان كله بعلمه ومشاهدته واطلاعه عليه، فلا يخلو: إما أن يكون قادراً على تغييره، والأخذ على يديه، ومنعه من ذلك، أو لا: فإن لم يكن قادراً، فقد[4] نسبتموه إلى أقبح العجز المنافي للربوبية، وإن كان قادراً، وهو مع ذلك يعزه وينصره ويوده، ويعليه ويعلي كلمته، ويجيب دعاءه، ويمكنه من أعدائه، ويظهر على يديه من أنواع المعجزات والكرامات ما يزيد على الألف، ولا يقصده أحد بسوء إلّا ظفر به، ولا يدعوه بدعوة إلّا استجابها له، فهذا من أعظم الظلم والسفه الذي لا تليق نسبته إلى آحاد العقلاء فضلاً عن رب الأرض والسماء، فكيف وهو يشهد له بإقراره على دعوته وتأييده بكلامه، وهذه عندكم شهادة زور وكذب؟!

---

(١) في الأصل: مفتر.
(٢) في الأصل: ظاهر.
(٣) في ج: كذاب.
(٤) سقطت من الأصل.

فلما سمع ذلك قال: معاذ الله أن يفعل الله هذا بكاذب مفتر، بل هو نبي صادق من اتبعه أفلح وسعد.

قلت: فما لك لا تدخل في دينه؟

قال: إنما بعث للأميين الذين لا كتاب لهم، وأما نحن فعندنا كتاب نتبعه.

قلت له: غلبت كل الغلب، فإنّه قد علم الخاص والعام أنه أخبر أنه رسول الله إلى جميع الخلق، وأن من لم يتبعه فهو كافر من أهل الجحيم، وقاتل اليهود والنصارى وهم أهل كتاب، فإذا صحت رسالته، لزم تصديقه في كل ما أخبر به، فأمسك ولم يحر جواباً.

[مناظرة لأحد علماء المغرب مع بعض اليهود]

وقريباً من هذه المناظرة ما جرى لبعض علماء المسلمين مع بعض اليهود ببلاد المغرب[(١)].

قال له المسلم: في التوراة التي بأيديكم إلى اليوم أن الله تعالى قال لموسى عليه الصلاة والسلام: «إني أقيم لبني إسرائيل من إخوتهم نبياً مثلك أجعل كلامي على فيه، فمن عصاه انتقمت منه»[(٢)] قال له اليهودي: ذلك يوشع بن نون، فقال له المسلم: هذا محال من وجوه:

أحدهما: أنه قال عندك في آخر التوراة: «أنه لا يقوم في بني إسرائيل نبي مثل موسى»[(٣)].

الثاني: أنه قال: «من إخوتهم»، وأخوة بني إسرائيل إما العرب وإما الروم.

فإن العرب بنو إسماعيل والروم بنو العيص[(٤)]، وهؤلاء إخوة بني إسرائيل، فأما

---

(١) العالم المسلم هو أبو عبيدة الخزرجي المتوفى سنة ٥٨٢هـ، وكان يناظر أحد رهبان اليهود، وهذه المناظرة موجودة في كتابه بين الإسلام والمسيحية، تحقيق الدكتور محمد شامة: ص ٢٦٠ ــ ٢٦٣.

(٢) انظر: التثنية: ١٨/١٨ ــ ١٩.

(٣) انظر: التثنية: ٣٤/١٠.

(٤) العيص، أو عيسو، وهو ابن إسحق وتوأم يعقوب، (انظر: قاموس الكتاب المقدس: ٢/٦٤٩).

الروم فلم يقم منهم نبي سوى أيوب عليه السلام وكان قبل موسى عليه السلام فلا يجوز أن يكون هو الذي بشرت به التوراة، فلم يبق إلاّ العرب وهو بن إسماعيل وهم أخوة بني إسرائيل.

وقد قال الله تعالى في التوراة حين ذكر إسماعيل جد العرب: «أنه يضع فسطاطه في وسط بلاد إخوته»[1] وهم بنو إسرائيل.

وهذه بشارة بنبوة ابنه محمد الذي نصب فسطاطه، وملك أمته في وسط بلاد بني إسرائيل، وهي الشام التي (هي) مظهر ملكه كما تقدم من قوله: «وملكه بالشام».

فقال له اليهودي: فعندكم في القرآن، ﴿وإلى مدين أخاهم شعيباً﴾[2] ﴿وإلى عاد أخاهم هوداً﴾[3]، ﴿وإلى ثمود أخاهم صالحاً﴾[4] والعرب تقول: يا أخا بني تميم للواحد منهم. فهذا قوله «أقيم لبني إسرائيل من إخوتهم».

قال المسلم: الفرق بين الموضعين ظاهر فإنه من المحال أن يقال: بنو إسرائيل إخوة بني إسرائيل، وبنو تميم إخوة بني تميم، وبنو هاشم أخوة بني هاشم.

وهذا ما لا يعقل في لغة قوم وأمة من الأمم، بخلاف قولك زيد أخو بني تميم. وهود أخو عاد، وصالح أخو ثمود، أي واحد منهم. فهو أخوهم في النسب، ولو قيل: عاد أخو عاد، وثمود أخو ثمود ومدين أخو مدين، لكان نقضاً، وكان نظير قولك بنو إسرائيل أخوة بني إسرائيل، فاعتبار أحد الموضعين بالآخر صريح.

قال اليهودي: أخبر أنه سيقيم هذا النبي لبني إسرائيل، ومحمد إنما أقيم للعرب ولم يقم لبني إسرائيل، فهذا الاختصاص يشعر بأنه إليهم مبعوث لا إلى غيرهم.

قال المسلم: هذا من دلائل (صدقه)[5]، فإنه ادعى أنه رسول الله إلى أهل الأرض

---

(١) انظر: التكوين: ١٦/١٢.

(٢) سورة الأعراف: الآية ٨٥؛ سورة هود: الآية ٨٤.

(٣) سورة الأعراف: الآية ٦٥؛ سورة هود: الآية ٥٠.

(٤) سورة الأعراف: الآية ٧٣؛ سورة هود: الآية ٦١.

(٥) في الأصل: متفرقة.

كتابيهم وأميهم. ونص الله في التوراة على أنه يقيمه لهم لئلا (يتوهم)[1] أنه مرسل إلى العرب والأميين (خاصة)[2]، والنبي ﷺ خُص بالذكر لحاجة المخاطب إلى ذكره، ولئلا يتوهم السامع أنه غير مراد باللفظ العام ولا داخل فيه، وللتنبيه على أن ما عداه أولى بحكمه، ولغير ذلك من المقاصد. فكان في تعيين بني إسرائيل إزالة لوهم من توهم أنه مبعوث إلى العرب خاصة. وقد قال الله تعالى: ﴿لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك﴾[3] وهؤلاء قومه، ولم ينف ذلك أن يكون نذيراً لغيرهم، فلو أمكنك أن تذكر عنه أنه ادعى أنه رسول إلى العرب لكان ذلك حجة، فأما وقد نطق كتابه وعرف الخاص والعام بأنه ادعى أنه مرسل إلى بني إسرائيل وغيرهم فلا حجة لك.

قال اليهودي: إن أسلافنا من اليهود كلهم على أنه ادعى ذلك، ولكن العيسوية[4] منا تزعم أنه نبي العرب خاصة، ولسنا نقول بقولهم، ثم التفت إليّ يهودي معه فقال: نحن قد جرى شأونا[5] على اليهودية، وبالله ما أدري كيف أتخلص من هذا العربي، إلاّ أنه أقل ما يجب علينا أن نأخذ به أنفسنا النهي عن ذكره بسوء.

وقال محمد بن سعد في «الطبقات»: حدثنا (معن بن عيسى)[6] حدثنا (معاوية)[7] بن صالح عن أبي فروة عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه سأل كعب الأحبار كيف تجد نعت رسول الله ﷺ في التوراة؟ قال: نجده محمد بن عبد الله، مولده بمكة ومهاجره إلى طابة، ويكون ملكه بالشام، ليس بفحاش ولا صخاب بالأسواق، ولا يكافىء بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويصفح[8]. وقال عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي، حدثنا

---

(١) في ب، ج، ص: يظنوا.

(٢) سقطت من ج.

(٣) سورة السجدة: الآية ٣.

(٤) العيسوية: إحدى فرق اليهود تنسب إلى أبي عيسى إسحق بن يعقوب الأصفهاني، كان في زمان المنصور، زعم أنه نبي وأنه رسول المسيح المنتظر وخالف اليهود في كثير من أحكام الشريعة (الملل والنحل، الشهرشاني: ٢/٥٥).

(٥) الشأو: الغاية والأمد، والسبق (مختار الصحاح: ص ٣٢٧).

(٦) سقطت من ص.

(٧) في ج: معونة.

(٨) الطبقات الكبير، ابن سعد: ١/٢ ـ ٨٧.

الحسن بن الربيع حدثنا أبو الأحوص عن الأعمش عن أبي صالح قال: قال كعب: نجد مكتوباً (في التوراة)[1]: محمد لا فظّ ولا غليظ ولا صخاب بالأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويغفر، وأمته الحمادون يكبرون الله على كل نجد ويحمدونه في كل منزلة، (يأتزرون)[2] على أنصافهم ويتوضأون على أطرافهم، مناديهم يناديهم في جو السماء، صفهم في القتال وصفهم في الصلاة سواء، (لهم دوي)[3] كدوي النحل. مولده بمكة ومهاجره بطابة وملكه بالشام[4].

قال الدارمي: (أخبرنا زيد بن عوف حدثنا أبو عوانة عن عبد الملك بن عمير عن (ذكران بن أبي صالح) عن كعب قال: في السطر الأول: محمد رسول الله عبدي المختار، لا فظ ولا غليظ ولا صخاب بالأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويغفر، مولده بمكة وهجرته بطيبة وملكه بالشام. وفي السطر الثاني: محمد رسول الله أمته الحمادون، يحمدون الله في كل حال ومنزلة، ويكبرونه على كل شرف، رعاة الشمس، يصلون الصلاة إذا جاء وقتها، ولو كانوا على رأس كناسة، يأتزرون على أوساطهم، ويوطئون أطرافهم، وأصواتهم بالليل في جو السماء أصوات النحل)[5].

وقال عاصم بن عمرو بن قتادة عن نملة بن أبي نملة عن أبيه قال: كانت يهود بني قريظة يدرسون ذكر رسول الله ﷺ في كتبهم، ويعلّمون الولدان صفته واسمه ومهاجره، فلما ظهر حسدوا وبغوا[6].

وذكر أبو نعيم في دلائل النبوة من حديث سليمان بن سحيم (الخدري)[7] ورميح بن (عبد الرحمن)[8] كلاهما عن عبد الرحمن بن أبي سعيد الخدري عن أبيه قال: سمعت

---

(١) ليست في ب، ج، ص.
(٢) عند الدارمي: يتأزرون.
(٣) عند الدارمي: لهم بالليل دوي.
(٤) سنن الدارمي: ١/٤، (مطبعة الاعتدال، دمشق، سنة ١٣٤٩هـ).
(٥) سنن الدارمي: ١/٥ ـ ٦.
(٦) طبقات ابن سعد: ١/١ ـ ١٠٤؛ دلائل النبوة لأبي نعيم: ١/٩١.
(٧) سقطت من الأصل، ج، ب.
(٨) في ص: عبد الله.

أبا مالـك بن سنان يقـول: جئت لبني عبد الأشهـل يومـاً لأتحدث فيهم، ونحن يـومئذ في هدنة من الحرب، فسمعت يوشع اليهودي يقول: أظل خروج نبـي يقال له: أحمد يخـرج من الحرم، فقال له خليفة بن ثعلبة الأشهلي كالمستهزىء به: ما صفته؟ فقال: رجل ليس بالقصير ولا بالطويل في عينيه حمرة، يلبس الشملة، ويركب الحمار، وهذا البلد مهاجره، قال: فرجعت إلى قومي بني خدرة، وأنا يومئذٍ أتعجب مما قال يوشع، (فأسمـع رجلاً منـا يقول: هذا وحـده يقولـه)[1]؟ (كل يهـود)[2] يثرب تقـول هذا. قـال أبـي: فخرجت حتى جئت بني قريظة فتذاكروا النبـي ﷺ، فقال الزبير بن باطا: قد طلع الكوكب الأحمر الـذي لم يطلع إلا لخروج نبـي وظهوره، ولم يبق (أحد)[3] إلا أحمد هذه مهاجره.

قـال أبو سعيـد: فلما قـدم رسول الله ﷺ المـدينـة أخبره أبـي هـذا الخبـر، فقـال النبـي ﷺ: لو أسلم الزبير وذووه من رؤساء يهود لأسلمت يهود كلها، إنما هم له تبع[4].

وقال النضر بن سلمة: حدثنـا يحيـى بن إبراهيم عن صـالح بن محمـد عن أبيه عن عـاصم بن عمر بن قتـادة عن محمود بن لبيـد عن محمد بن سلمـة قـال: لم يكن في بني عبـد الأشهل إلا يهـودي واحد يقـال له يـوشع فسمعتـه يقول ـ وإني لغـلام ـ: قـد أظلكم خـروج نبـي يبعث من نحو هـذا البيت، وأشار بيـده إلى بيت الله (الحرام)[5] فمن أدركـه فليصدقه، فبعث رسول الله ﷺ فأسلمنا، وهو بين أظهرنا ولم يسلم حسداً وبغياً[6].

قـال النضر: وحـدثنا عبـد الجبار بن سعيـد عن أبـي بكر بن عبـد الله العامـري عن مسلم بن يسـار عن عمارة بن خـزيمة بن ثـابت قال: مـا كـان في الأوس والخـزرج رجـل أوصف لمحمد من أبـي عامـر الراهب، كـان (يألفـه اليهود)[7]، ويسـألهم عن (الدين)[8]

---

(١) في دلائل النبوة: فأسمع رجلاً يقول: ويوشع يقول هذا وحده.

(٢) في ب: كله ليهود.

(٣) ليست في الأصل.

(٤) دلائل النبوة، أبو نعيم: ٩٢/١١٢.

(٥) سقطت من ب.

(٦) هذه الرواية ذكرها أبو نعيم في الدلائل: ٩٣/١، عن النضر بن سلمة بغير هذا السند.

(٧) في الأصل: يألفهم.

(٨) في ص: عن اليهود ودينهم.

ويخبرونه بصفة رسول الله ﷺ وأن هذه دار هجرته ثم خرج إلى يهود تيما[1]، فأخبروه بمثل ذلك، ثم خرج إلى الشام فسأل النصارى فأخبروه بصفة رسول الله ﷺ، وأن مهاجره يثرب، فرجع أبو عامر وهو يقول: أنا على دين الحنيفية، وأقام مترهباً ولبس المسوح، وزعم أنه على دين إبراهيم، وأنه ينتظر خروج النبي ﷺ، فلما (خرج وظهر)[2] رسول الله ﷺ لم يخرج إليه، وأقام على ما كان عليه، فلما قدم النبي ﷺ المدينة حسده وبغى ونافق، وأتى النبي ﷺ فقال: يا محمد بم جئت؟ بم بعثت؟ قال: بعثت بالحنيفية. قال: أنت تخلطها بغيرها؟ فقال النبي ﷺ أتيت بها بيضاء، أين ما كان يخبرك به الأحبار من اليهود والنصارى من وصفي، فقال لست بالذي وصفوا، فقال النبي ﷺ: (كذبت قال: ما كذبت فقال الرسول ﷺ)[3]: الكاذب أماته الله وحيداً طريداً! قال: آمين، ثم رجع إلى مكة فكان مع قريش يتبع دينهم، وترك ما كان عليه، فلما أسلم أهل الطائف لحق بالشام فمات بها طريداً غريباً وحيداً[4].

وقال الواقدي: حدثني محمد بن (سعيد)[5] الثقفي وعبد الرحمن بن عبد العزيز في جماعة، كل حدثني بطائفة من الحديث عن المغيرة بن شعبة أنه دخل على المقوقس، وأنه قال له: إن محمداً نبي مرسل، ولو أصاب القبط والروم اتبعوه. قال المغيرة: فأقمت بالإسكندرية لا أدع كنيسة إلا دخلتها، وسألت أساقفتها (من قبطها ورومها)[6] عما يجد من صفة محمد ﷺ، وكان أسقف من القبط، وهو رأس كنيسة أبي محيس[7]، كانوا يأتونه بمرضاهم فيدعو لهم، لم (أر)[8] أحداً (لا يصلي)[9] الخمس أشد اجتهاداً منه، فقلت: أخبرني هل بقي أحد من الأنبياء؟ قال: نعم وهو آخرهم ليس بينه وبين عيسى أحد، وهو

---

(١) تيماء: قرية بين خيبر وتبوك.
(٢) في ب، ج، ص: ظهر.
(٣) سقطت من الأصل.
(٤) هذه القصة ذكرها ابن سعد في الطبقات: ١/ ١. كما ذكرها أبو نعيم في الدلائل: ١/٩٣ ـ ٩٤.
(٥) في الدلائل: سعد.
(٦) سقطت من الأصل.
(٧) كنيسة أبي محيس، وفي ب: محنس.
(٨) سقطت من ج.
(٩) في ب، ج، ص: يصلي.

نبي قد أمرنا عيسى باتباعه، وهو النبي الأمي العربي (اسمه أحمد)[1]، ليس بالطويل ولا بالقصير، وفي عينيه حمرة، وليس بالأبيض ولا بالآدم، يعفي شعره، ويلبس ما غلظ من الثياب، ويجتز بما لقي من الطعام، سيفه على عاتقه، ولا يبالي بمن لاقاه، يباشر القتال بنفسه، ومعه أصحابه يفدونه بأنفسهم، هم له أشد حباً من أولادهم وآبائهم، يخرج من أرض (القرظ)[2]، ومن حرم يذهب إلى حرم، يهاجر إلى أرض سبخة ونخل، يدين بدين إبراهيم، يأتزر على وسطه، ويغسل أطرافه، ويخص بما لا يخص به الأنبياء قبله، كان النبي يبعث إلى قومه وبعث إلى الناس كافة، وجعلت له الأرض مسجداً وطهوراً، أينما أدركته الصلاة تيمّم وصلّى، ومن كان قبلهم مشدّد عليهم، لا يصلّون إلّا في الكنائس والبيع[3].

وقال الطبراني: حدثنا علي بن عبد العزيز حدثنا عبد الله بن رجاء حدثنا المسعودي عن فضيل بن هشام بن سعيد بن زيد عن أبيه عن جده سعيد بن زيد أن زيد بن عمرو[4] وورقة بن نوفل[5] خرجا يلتمسان الدين حتى انتهيا إلى راهب بالموصل، فقال لزيد: من أين أقبلت؟ قال: من بيت إبراهيم، قال: وما تلتمس؟ قال ألتمس الدين. قال: ارجع فإنه يوشك أن يظهر (الدين)[6] الذي تطالب في أرضك، فرجع وهو يقول: لبيك حقاً حقاً، تعبّداً ورقاً[7].

وقال ابن قتيبة في كتاب الأعلام: حدثني يزيد بن عمرو حدثنا العلاء بن الفضل

---

(١) ليست في الأصل.

(٢) في ب، ج: القبط وأرض القرظ هي أرض العرب.

(٣) انظر: دلائل النبوة، أبو نعيم (١/١٠١ ـ ١٠٥).

(٤) زيد بن عمرو بن نفيل، والد سعيد بن زيد أحد العشرة، وابن عمّه عمر بن الخطاب، سئل عنه النبي ﷺ فقال: يبعث أمةً وحدة، وكان يتعبد في الجاهلية، ويطلب دين إبراهيم الخليل عليه السلام ويوحد الله تعالى (انظر: أسد الغابة: ٢/٢٩٥، طبعة دار الشعب المحققة).

(٥) ورقة بن نوفل: هو ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزي بن قصي القرشي ابن عم خديجة زوج النبي ﷺ، وهو الذي أخبرها أن رسول الله ﷺ نبي هذه الأمة (انظر: أسد الغابة: ٥/٤٤٧، طبعة دار الشعب المحققة).

(٦) سقطت من الأصل.

(٧) هذه القصة جزء مما رواه الطبراني في المعجم الكبير: ١/١١٤.

حدثنا أبي عن أبيه عبد الملك بن أبي سوّية (عن أبيه)[١] خليفة بن عبده المنقري[٢] قال: سألت محمد بن عدي[٣] كيف سماك أبوك محمداً؟ قال: أما إني قد سألت أبي عما سألتني عنه فقال: خرجت رابع أربعة من بني تميم، أنا أحدهم و(سفيان بن مجاشع[٤]) بن دارم، ويزيد بن عمرو بن ربيعة، وأسامة بن مالك بن (جندب)[٥] و (زيد)[٦] ابن جفنة الغساني، فلما قدمنا الشام نزلنا على غدير فيه شجرات وقرية ديراني[٧]، فأشرف علينا وقال: إن هذه اللغة ما هي لأهل هذا البلد، قلنا: نعم نحن قوم من مضر[٨]، قال: من أي المضريين؟ قلنا: من خندف[٩]، قال: أما إنه سيبعث منكم وشيكاً نبي، فسارعوا إليه وخذوا بحظكم منه ترشدوا، فإنه خاتم النبيين، واسمه محمد، فلما انصرفنا من عند أبي جفنة (الغسّاني)[١٠] وصرنا إلى أهلنا، ولد لكل رجل منا غلام

---

(١) في الأصل، ب، ص: عن أبي سويّة عن أبيه والصواب: ما في نسخة ج لأن أبا سوية هو خليفة بن عبده.

(٢) خليفة بن عبده المنقري، هو أبو سهيل، وسهيل هو أبو سوّية قال ابن الأثير: كان مسلماً، ولا تصح له صحبة.
انظر: أسد الغابة: ٢/١٤٥ و٥/١٠٤.

(٣) محمد بن عدي بن ربيعة بن سعد، عداده في أهل المدينة، وقد ذكره ابن الأثير في أسد الغابة، وذكر قصة تسميته وقال: وهذا أيضاً لم يدرك رسول الله ﷺ لأنه أقدم من زمان الرسول ﷺ (انظر: أسد الغابة: ٥/١٠٥).

(٤) سقطت من جميع النسخ وهي هكذا (سفيان بن مجاشع) في كتب السيرة قال في عيون الأثر: سفيان بن مجاشع، وابنه محمد بن سفيان، وهو جدّ الفرزدق الشاعر.
انظر: عيون الأثر: ١/٤٠.

(٥) في فتح الباري: حبيب بن العنبر، وقد ذكر ابن حجر اختلاف الأقوال في ذكر من تسموا محمداً في الجاهلية (انظر: فتح الباري: ٦/٥٥٧).
كما ذكر ابن سعد أربعة غير هؤلاء إلّا محمد بن سفيان بن مجاشع وقال عنه: كان أسقفاً (راجع: الطبقات: ١/١٦٩).

(٦) في الأصل: ويله.

(٧) ديراني: أي رجل دير نسب إلى الدير فأطلق عليه ديراني.

(٨) مضر قبيلة عربية.

(٩) في ب، ج: خندق، والصواب خندف وهي ليلى بنت حلوان بن عمران زوجة الياس بن مضر (القاموس المحيط، الفيروز آبادي).

(١٠) في الأصل: الفناني.

فسماه محمداً[1]. وقال الإمام أحمد: «(حدثنا روح)[2]، حدثنا حماد بن سلمة عن عطاء بن السائب عن أبي عبيدة بن عبد الله بن مسعود عن أبيه قال: دخل رسول الله ﷺ الكنيسة فإذا هو بيهود، وإذا يهودي يقرأ عليهم التوراة، فلما أتوا على صفة النبي ﷺ أمسكوا، وفي ناحيتها رجل مريض، فقال النبي ﷺ: مالكم أمسكتم، قال المريض: إنهم أتوا على صفة نبي فأمسكوا، ثم جاء المريض يحبو حتى أخذ التوراة، فقرأ حتى صفة رسول الله ﷺ فقال: هذه صفتك وصفة أمتك، أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله ثم مات، فقال النبي ﷺ لأصحابه: خذوا أخاكم)»[3].

وقال محمد بن سعد: «حدثنا محمد بن عمر قال: حدثني سليمان بن داود بن الحصين عن أبيه عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهم عن أبي بن كعب قال: لما قدم (تبّع)[4] المدينة ونزل بقباء بعث إلى أحبار اليهود فقال: إني مخرب هذه البلد حتى لا تقوم به يهودية، ويرجع الأمر إلى دين العرب، فقال له (شموال)[5] اليهودي - وهو يومئذٍ أعلمهم -: أيها الملك إن هذه بلد تكون إليه مهاجرة نبي من بني إسماعيل مولده بمكة، اسمه أحمد وهذه دار هجرته، وإن منزلك هذا الذي أنت به يكون به من القتلى والجراح كثير من أصحابه وفي عدوّهم، قال تبع: ومن يقاتله يومئذٍ وهو نبي كما تزعمون؟ قال: يسير إليه قومه (فيقتتلون)[6] ههنا، قال: فأين قبره، قال بهذه البلد، قال: فإذا قوتل لمن تكون الدائرة؟ قال: تكون له مرة وعليه مرة، وبهذا المكان الذي أنت به (يكون عليه)[7]

---

(١) ذكر القصة أبو نعيم في دلائل النبوة: ١/١١٣؛ وذكرها كذلك زيني دحلان في السيرة النبوية: ١/١٢٥.

(٢) سقطت من ج.

(٣) مسند أحمد: ١/٤١٦.

(٤) تبع بن حسان بن تبان من ملوك حمير في اليمن وهو تبع الأصغر، آخر التبابعة، وعقد الحلف بين اليمن وربيعة وسار إلى الشام فلقيه قوم من حمير من بني عمرو بن عامر فشكوا إليه ما نزل بهم من اليهود في يثرب، وذكروا له سوء مجاورتهم لهم، ونقضهم العهد الذي بينهم فسار إلى يثرب، ونزل في سفح أحد، وبعث إلى اليهود فقتل منهم ثلاثمائة رجل ليس له تاريخ ولادة أو وفاة (انظر: الأعلام، الزركلي: ٢/٨٣).

(٥) في الطبقات: سامول.

(٦) في الأصل: فيقتلونه، وفي الطبقات: فيقتتلون.

(٧) في الطبقات: تكون عليه، وفي الأصل: يكون غلبه.

وتقتل أصحابه قتلاً لم يقتلوه في موطن، ثم تكون له العاقبة، ويظهر فلا ينازعه في هذا الأمر أحد، قال: وما صفته؟ قال: رجل ليس بالقصير ولا بالطويل، في عينيه حمرة يركب البعير ويلبس الشملة، سيفه على عاتقه، لا يبالي من لاقى من أخ وابن عم أو عم، حتى يظهر أمره، قال تبّع: ما إلى هذه البلد من سبيل، وما كان يكون خرابها على يدي، فخرج تُبّع منصرفاً إلى اليمن»[1].

قال يوسف بن عبد الله بن سلام عن أبيه: لم يمت تبّع حتى صدّق بالنبي ﷺ، لما كان يهود يثرب يخبرونه وأن تبّع مات (مسلماً)[2].

وقال محمد بن (سعد)[3]: «حدثنا محمد بن عمر حدثنا عبد الحميد بن جعفر عن أبيه قال: كان الزبير بن باطا أعلم اليهود، وكان يقول: إني وجدت سفراً كان أبي يكتمه عليّ، فيه ذكر أحمد، نبي يخرج بأرض القرظ صفته كذا وكذا، فيحدث به الزبير بعد أبيه، والنبي ﷺ (لم يبعث بعد، فما هو إلا أن سمع بالنبي ﷺ) قد خرج بمكة، فعمد إلى ذلك السّفر فمحاه وكتم شأن النبي ﷺ وقال: ليس به»[4].

قال محمد بن عمرو: (وحدثني الضحاك بن عثمان عن مخرمة بن سليمان عن كريب عن ابن عباس)[5] قال: كانت يهود قريظة والنضير وفدك وخيبر يجدون صفة النبي ﷺ عندهم، قبل أن يبعث، وإن دار هجرته المدينة، فلما ولد رسول الله ﷺ، (قال أحبار يهود: ولد أحمد الليلة، هذا الكوكب قد طلع، فلما تنبأ قالوا: تنبأ أحمد، قد طلع الكوكب، كانوا يعرفون ذلك، ويقرون به ويصفونه، فما منعهم إلا الحسد والبغي)[6].

---

(١) الطبقات، ابن سعد: ١/١/١٠٣ ــ ١٠٤، وأورد ابن هشام القصة مفصلة، انظر: السيرة النبوية: ١/١٦ ــ ٢٤.

(٢) في ج: لما صدّق وأسلم ورواية إسلامه هذه ذكرها ابن كثير في تفسيره حيث نقل قول عائشة: «لا تسبوا تبعاً» فإنه قد كان رجلاً صالحاً، ونقل عن ابن أبي حاتم أن سهل بن سعد الساعدي كان يقول: قال رسول الله ﷺ: «لا تسبوا تبعاً فإنه كان قد أسلم» ورواه الإمام أحمد في مسنده عن حسن بن موسى عن ابن لهيعة (مسند أحمد: ٥/٣٤٠. انظر: تفسير ابن كثير: ٤/١٤٤).

(٣) في ج، ب: سعيد وهو خطأ.

(٤) طبقات ابن سعد: ١/١/١٠٤.

(٥) سقطت من الأصل.

(٦) طبقات ابن سعد: ١/١/١٠٤.

وقـال محمـد بن سعـد: أخبرنـا علي بن محمـد عن أبـي عبيـدة بن عبـد الله، وعبـد الله بن محمد بن عمـار بن يـاسـر وغيـره عن هشـام بن عـروة عن أبيـه عن عـائشـة رضي الله عنهم قـالت: سكن يهـودي بمكـة يبيـع بـه تجـارات، فلمـا كـانت ليلة ولـد رسول الله ﷺ، قال في مجلس من مجالس قريش: هل كان فيكم من مـولود هـذه الليلة، قالوا: لا نعلمه، قال: انظروا يا معشـر قريش)[1]، احصـوا ما أقـول لكم، ولد نبـي هـذه الأمـة أحمد، وبـه شامـة بين كتفيه، فيهـا شعـرات، فتصـدع القـوم من مجـالسهم، وهم يعجبـون من حـديثـه، فلمـا صـاروا في منـازلهم ذكـروه لأهـاليهم، فقيـل لبعضهم: وُلـد لعبد الله بن عبد المطلب الليلة غلام وسماه محمداً، فأتوا اليهـودي في منزلـه، فقالـوا له: أعلمت أنه ولد فينـا الليلة غلام؟ فقـال أبعد خبـري أم قبله؟ فقالـوا: قبله واسمه أحمـد، فقال: فاذهبوا بنا إليـه، فخرجـوا معي حتى أتوا أمـه، فأخـرجته إليهم، فـرأى الشامـة في ظهـره، فغشي (عليه ــ أي على اليهـودي ــ)[2] فلما أفـاق، قالـوا: مالـك ويلك! فقال: ذهبت النبـوّة من بني إسرائيـل، وخرج الكتـاب من بين أيديهم، وفـازت العرب بـالنبـوّة، أفـرحتم يا معشـر قـريش؟ أمـا والله ليسـطون بكم سـطوة يخـرج نبـأهـا من المشـرق إلى المغرب[3].

قـال ابن (سعد)[4]: وأخبـرني علي بن محمد عن علي بن مجـاهـد عن محمـد بن إسحق عن سـالم مولى (عبـد الله بن مطيـع عن أبـي هريـرة قـال أتى رسـول الله ﷺ بيت المـدارس فقال: أخـرجوا إليّ أعلمكم، فقـالـوا)[5]: عبـد الله بن صـوريـا[6]، فخـلا بـه رسول الله ﷺ فناشـده بدينـه وبما أنعم الله عليهم، وأطعمهم من المن والسلوى، وظللهم

---

(١) سقطت من الأصل.

(٢) في ب، ج، ص: على اليهودي.

(٣) ورد هـذا الحديث في الطبقات الكبـرى، ابن سعـد: ١/١/١٠٦ ـ ١٠٧؛ وأخـرجـه الحـاكم في مستـدركه في كتـاب التـاريخ: ٢/٦٠١ ـ ٦٠٢؛ وقـال: حـديث صحيـح الإسنـاد ولم يخـرجـاه، ولم يوافقه الذهبي، كما ذكره الماوردي في أعلام النبوة: ص١٥٣.

(٤) في الأصل: سعيد.

(٥) سقطت من الأصل.

(٦) عبـد الله بن صوريـا: أحد أحبـار اليهود، استحلفـه رسول الله ﷺ ليخبـره عن حد الـزنى في التوراة فأجابه، ولم يسلم.

من الغمام، أتعلم أني رسول الله؟ فقال: اللهم نعم، وإن القوم ليعرفون ما أعرف، وإن صفتك ونعتك لبيّن في التوراة ولكن حسدوك، قال: فما يمنعك أنت؟ قال: أكره خلاف قومي، عسى أن يتبعوك ويسلموا فأسلم[١].

وقال أبو الشيخ الأصبهاني[٢]: «(حدثنا)[٣] أبو يحيى الرازي، حدثنا سهيل بن عثمان حدثنا علي بن مسهر عن داود عن الشعبي قال: قال عمر بن الخطاب: كنت آتي اليهود عند دراستهم التوراة، فأعجب من موافقة التوراة القرآن (وموافقة القرآن للتوراة)[٤] فقالوا: يا عمر ما (أحمد)[٥] أحب إلينا منك لأنك تغشانا، قلت: إنما أجيء لأعجب من تصديق كتاب الله بعضه بعضاً. فبينا أنا عندهم ذات يوم إذمرّ رسول الله ﷺ، فقالوا: هذا صاحبك، فقلت: أنشدكم الله وما أنزل عليكم من الكتاب، أتعلمون أنه رسول الله؟ فقال سيدهم: إنه قد نشدكم الله (فأخبروه)[٦] فقالوا: أنت سيدنا فأخبره، فقال: إنا نعلم أنه رسول الله. قلت: فأنى أهلككم إن كنتم تعلمون أنه رسول الله ثم لم تتبعوه؟ قالوا: إن لنا عدواً من الملائكة وسلماً من الملائكة، عدونا جبريل وهو ملَك (الفظاظة)[٧] والغلظة، وسلمنا ميكائيل وهو ملك الرأفة (والرحمة)[٨] واللين (وجبريل صاحبه)[٩]، قلت: فإني أشهد ما يحل لجبريل أن يعادي سلم ميكائيل، ولا لميكائيل أن يعادي سلم جبريل، ولا أن يسالم عدوه، ثم قمت فاستقبلني رسول الله ﷺ فقال: ألا أقرئك آيات نزلت علي

---

(١) الطبقات الكبرى، ابن سعد: ١/١/١٠٨؛ البداية والنهاية: ١/٣٢٤.

(٢) هو عبد الله بن محمد بن جعفر بن حيان الأصبهاني المعروف بأبي الشيخ المتوفى سنة ٣٦٩هـ، وله في هذا الموضوع كتاب دلائل النبوة (ذكره السخاوي في الضوء اللامع: ص ٣٤)؛ وكتاب سيرة النبي الذي ذكره السخاوي: ص ٥٢٨؛ والغالب أن النص في دلائل النبوة ولم أتمكن من الوقوف عليه.

(٣) سقطت من الأصل، وفي ج: بن.

(٤) في الأصل: وموافقه التوراة للقرآن.

(٥) سقطت من الأصل.

(٦) سقطت من الأصل.

(٧) في الأصل: القاظة.

(٨) سقطت من ب، ص.

(٩) زيادة في الأصل.

(قلت: قل)[1]، فتلا: ﴿من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك﴾[2] الآية. فقلت: والذي بعثك بالحق نبياً ما جئت إلا لأخبرك بقول اليهود، قال عمر: فلقد رأيتني أشد في دين الله من حجر»[3].

وذكر أبو نعيم من حديث عمر بن عبسة قال: رغبت عن آلهة قومي في الجاهلية ورأيت أنها على الباطل، يعبدون الحجارة وهي لا تضر ولا تنفع، فلقيت رجلاً من أهل الكتاب فسألته عن أفضل الدين فقال: يخرج رجل من مكة ويرغب عن آلهة قومه، ويأتي بأفضل الدين، فإذا سمعت به فاتبعه، فلم يكن لي هم إلا مكة آتيها فأسأل هل حدث فيها خبر؟ فيقولون: لا (فأنصرف إلى أهلي، وأعترض الركبان فأسألهم فيقولون لا)[4] فإني لقاعد إذ مرّ بي راكب، فقلت: من أين جئت؟ قال: من مكة، قلت: هل حدث حدث فيها؟ قال: نعم رجل رغب عن آلهة قومه ودعا إلى غيرها، قلت: صاحبي الذي أريد، فشددت راحلتي، وجئت فأسلمت[5]. وقال (عبد الله)[6] بن سعيد: «حدثنا موسى بن عبد الرحمن عن ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما، وعن مقاتل عن الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما أن ثمانية من أساقفة نجران قدموا على رسول الله ﷺ منهم العاقب والسيد، فأنزل الله تعالى: ﴿قل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم...﴾ الآية[7] فقالوا: أخرنا ثلاثة أيام فذهبوا إلى بني قريظة والنضير وبني قينقاع فاستشاروهم، فأشاروا عليهم أن يصالحوه ولا يلاعنوه، وهو النبي الذي نجده في التوراة والإنجيل، فصالحوا النبي ﷺ على ألف حلة في صفر،

---

(١) في ب، ج، ص: قبل.

(٢) سورة البقرة: الآية ٩٧.

(٣) هذا النص أخرجه السيوطي عن ابن أبي شيبة في المصنف وإسحق بن راهويه في مسنده وابن جرير وابن أبي حاتم عن الشعبي، قال السيوطي: صحيح الإسناد، ولكن الشعبي لم يدرك عمر، الدر المنثور، السيوطي: ١/٩٠. نشر محمد أمين دمج ـ بيروت.

(٤) سقطت من الأصل.

(٥) انظر دلائل النبوة، لأبي نعيم: ص ٣٣٧ ـ ٣٣٩؛ وطبقات ابن سعد: ٤/٢١٧؛ وأخرج مسلم في صحيحه: ٢/٢٠٨. أصل القصة عن أبي أمامة.

(٦) في ب، ج، ص: عبد الغني.

(٧) سورة آل عمران: الآية ٦١.

وألف في رجب ودراهم»[1]. وقال يونس بن بكير عن قيس بن الربيع عن يونس بن أبي سلم عن عكرمة أن ناساً من أهل الكتاب آمنوا بمحمد ﷺ قبل أن يبعث، فلما بعث كفروا به، فذلك قوله تعالى: ﴿ (فأما)[2] الذين اسودّت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم، فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون﴾[3].

وقال (ابن سعد)[4]: «حدثنا محمد بن إسماعيل بن أبي فديك عن موسى بن يعقوب الزمعي عن سهل مولى عثمة أنه كان نصرانياً، وكان يتيماً في حجر عمه، وكان يقرأ الإنجيل، قال: فأخذت مصحفاً لعمي، فقرأته حتى مرت بي ورقة (أنكرت قراءتها)[5]، فإذا هي ملصقة ففتقتها فوجدت فيها نعت محمد ﷺ أنه لا قصير ولا طويل، أبيض بين كتفيه خاتم النبوة، يكثر الاجتباء[6] ولا يقبل الصدقة، ويركب الحمار والبعير، ويحتلب الشاة، ويلبس قميصاً مرقوعاً، وهو من ذرية إسماعيل اسمه أحمد، قال: فجاء عمي فرأى الورقة (فضربني وقال: مالك وفتح هذه الورقة)[7]، فقلت: بها (نعت)[8] النبي أحمد، فقال: إنه لم يأت بعد»[9].

وقال وهب: (أوحى الله إلى أشعيا أني مبتعث نبياً أفتح به آذاناً صماً وقلوباً غلفاً أجعل السكينة لباسه، والبر شعاره، والتقوى ضميره، والحكمة معقوله، والوقار والصدق طبيعته، والعفو والمغفرة والمعروف خلقه، والعدل سيرته، والحق شريعته، والهدى إمامه، والإسلام ملته، وأحمد اسمه، أهدي به بعد الضلالة وأعلم به بعد الجهالة، وأكثر به بعد القلة، وأجمع به الفرقة، وأولف به بين قلوب مختلفة (وأهواء متشتتة، وأمم

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور: ٢/٣٩.
(٢) في الأصل: وأما.
(٣) سورة آل عمران: الآية ١٠٦. والرواية: ذكرها السيوطي في الدر المنثور: ٢/٦٣.
(٤) في الأصل سعيد.
(٥) في ج: أنكرتها لكثافتها وفي ب، ص أنكرت كثافتها.
(٦) الاجتباء؟ بمعنى الاختبار ولعل الأصح الجباية من جبا الخراج والمال إذا جمعه (المعجم الوسيط).
(٧) سقطت من الأصل.
(٨) في ج: بعث.
(٩) طبقات ابن سعد: ١.

مختلفة، وأجعل أمته خير أمة)[١] وهم رعاة الشمس، طوبى لتلك القلوب)[٢].

وذكر ابن أبي الدنيا[٣] في حديث عثمان بن عبد الرحمن أن رجلاً من أهل الشام من النصارى قدم مكة فأتى على نسوة قد اجتمعت في يوم عيد من أعيادهم، وقد غاب أزواجهن في بعض أمورهم، فقال: يا نساء تيماء إنه سيكون فيكم نبي يقال له أحمد، وأيما امرأة منكن استطاعت أن تكون له فراشاً فلتفعل، فحفظت خديجة حديثه[٤].

وقال عبد المنعم بن إدريس عن أبيه عن وهب قال في قصة داود وما أوحى الله تعالى إليه في الزبور: يا داود إنه سيأتي من بعدك نبي يسمى أحمد ومحمداً صادقاً سيداً لا أغضب عليه أبداً، ولا يغضبني أبداً، قد غفرت له قبل أن (يغضبني)[٥]، ما تقدم من ذنبه وما تأخر. وأمته مرحومة، أعطيهم من النوافل مثل ما أعطيت الأنبياء، وافترضت عليهم الفرائض التي افترضت على الأنبياء (والرسل، حتى يأتوني يوم القيامة ونورهم مثل نور الأنبياء، وذلك أني افترضت عليهم أن يتطهروا كل صلاة كما افترضت على الأنبياء)[٦] قبلهم، وأمرتهم بالحج كما أمرت الأنبياء قبلهم، وأمرتهم بالجهاد كما أمرت الرسل قبلهم، يا داود إني فضلت محمداً وأمته على الأمم، كما أعطيتهم ست خصال لم أعطها غيرهم من الأمم)[٧] لا أواخذهم بالخطأ والنسيان، وكل ذنب ركبوه على غير عمد إذا استغفروني منه غفرته لهم، وما قدموا لآخرتهم من شيء طيبة به أنفسهم عجلت لهم أضعافاً مضاعفة، ولهم في المدخور عندي أضعافاً مضاعفة، وأفضل من ذلك، وأعطيتهم على المصائب إذا صبروا، واسترجعوا الصلاة والرحمة والهدى، وإن دعوني استجبت لهم، يا داود: من لقيني من أمة محمد يشهد أن لا إله إلا أنا وحدي لا شريك لي صادقاً بها، فهو معي في جنتي وكرامتي، ومن لقيني وقد كذّب محمداً، أو كذّب

---

(١) سقطت من الأصل.

(٢) انظر: أشعيا: ٤٢/٢ ــ ٧.

(٣) هو عبد الله بن محمد المعروف بابن أبي الدنيا المتوفى سنة ٢٨١هـ، وله في هذا الموضوع كتاب دلائل النبوة ذكره السخاوي في الضوء اللامع: ص ٥٣٥.

(٤) كتاب دلائل النبوة لابن أبي الدنيا غير مطبوع ولم أستطع الحصول على مخطوطه.

(٥) في ص، ب: يعصيني.

(٦) سقطت من الأصل.

(٧) سقطت من الأصل.

بما جاء به، واستهزأ بكتابي، صببت عليه في قبره العذاب صباً، وضربت الملائكة وجهه ودبره عند منشره من قبره، ثم أدخله الدرك الأسفل من النار[1].

وقال عفّان: (حدثنا همام عن قتادة)[2] عن زرارة بن أوفى عن مطرف بن مالك أنه قال: شهدت فتح تستر مع الأشعري فأصبنا قبر دانيال بالسويس وكانوا إذا استسقوا خرجوا فاستسقوا به، فوجد معه ربعة فطلبها نصراني من الحيرة يسمى (نعيماً)[3]، فقرأها، وفي أسفلها: ﴿ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين﴾[4]، فأسلم فيهم يومئذٍ اثنان وأربعون حبراً، وذلك في خلافة معاوية (فأتحفهم)[5] وأعطاهم. قال همام: فأخبرني بسطام بن مسلم أن معاوية بن قرة قال: تذاكرنا الكتاب إلى ما صار، فمر علينا شهر بن حوشب فدعوناه، فقال: على الخبير سقطت، إن الكتاب كان عند كعب فلما احتضر قال: ألا أئتمنه على أمانة يؤديها؟ قال شهر: فقال ابن عم لي يكنى أبا لبيد: أنا. فدفع إليه الكتاب، فقال: إذا بلغت موضع كذا فاركب قرقورام[6]، ثم اقذف به في البحر، ففعل فانفرج الماء فقذفه فيه، ورجع إلى كعب فأخبره، فقال: صدقت إنه من التوراة التي أنزلها الله عز وجل.

[أخبار أمية بن أبي الصلت]

(**فصل**): ومن ذلك أخبار أمية بن أبي الصلت الثقفي[7]، ونحن نذكر بعضها: قال

---

(١) أورد القصة البيهقي في دلائل النبوة: ص ٢٨٢.

(٢) في ج: حدثنا قتادة.

(٣) في ب، ج: نعمان.

(٤) سورة آل عمران: الآية ٨٥.

(٥) سقطت من ج.

(٦) القرقور: بالضم ضرب من السفن العظيمة (لسان العرب).

(٧) أمية بن أبي الصلت: عبد الله بن أبي ربيعة بن عوف أبو الحكم الثقفي، شاعر جاهلي قدم دمشق قبل الإسلام وقيل إنه كان مستقيماً وإنه كان في أول أمره على الإيمان ثم زاغ عنه وإنه هو الذي أراده الله في قوله تعالى: ﴿واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها...﴾ (انظر: البداية والنهاية: ٢/٢٢٠).

الزبير بن بكار[1]: حدثني عمي مصعب عن مصعب بن عثمان قال: كان أمية قد نظر في الكتب وقرأها، ولبس المسوح تعبداً، وكان ممن ذكر إبراهيم وإسماعيل والحنيفية، وحرم الخمر والأوثان، والتمس الدين، وطمع في النبوة، لأنه قرأ في الكتب أن نبياً يبعث من العرب، فكان يرجو أن يكون هو، فلما بعث محمد ﷺ قيل له: هذا الذي كنت تبشر به، وتقول فيه، فحده عدو الله، وقال: أنا كنت أرجو أن أكون هو[2]، فأنزل الله عز وجل: ﴿واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين﴾[3].

وهو الذي يقول: كل دين يوم القيامة عند الله إلا دين الحنيفية زور[4].

قال الزبير: وحدثني عمر بن أبي بكر الموصلي قال: كان أمية ابن أبي الصلت يلتمس الدين، ويطمع في النبوة، فخرج إلى الشام (فمرّ بكنيسة)[5]، وكان معه جماعة من العرب من قريش وغيرهم، فقال أمية: إن لي حاجة في هذه الكنيسة، فانتظروني، فدخل الكنيسة، ثم خرج إليهم كاسفاً متغيراً فرمى بنفسه، (فأقاموا)[6] عليه حين سري عنه، ثم مضوا فقضوا حوائجهم، ثم رجعوا فلما صاروا إلى الكنيسة قال لهم: انتظروني، ودخل الكنيسة فأبطأ، ثم خرج إليهم أسوأ حالاً من حاله الأول، فقال له أبو سفيان بن حرب: قد شققت على رفقتك، فقال: خلّوني فإني أرتاد لنفسي وأنظر لمعادي، إن ههنا راهباً عالماً أخبرني أنه سيكون بعد عيسى ست رجفات وقد مضت خمس وبقيت واحدة، فخرجت وأنا أطمع أن أكون نبياً، وأخاف أن تخطىء فأصابني ما رأيت، فلما رجعت أتيته فقال: قد (كانت الرجفة) وبعث نبي من العرب، فأيست من النبوة، فأصابني ما رأيت، وفاتني ما كنت أطمع فيه[7].

---

(١) الزبير بن بكار بن عبد الله القرشي الأسدي من أحفاد الزبير بن العوام عالم بالأنساب وأخبار العرب، راوية، ولد في المدينة، وولي قضاء مكة وتوفي فيها سنة ٢٥٦هـ انظر: الأعلام، الزركلي: ٣/٧٤.

(٢) انظر الأغاني، الأصفهاني: ٤/١٢٦؛ وانظر: خزانة الأدب، البغدادي: ١/٢٥١.

(٣) سورة الأعراف: الآية ١٧٥.

(٤) انظر الأغاني، للأصفهاني: ٤/١٢٦.

(٥) سقطت من الأصل.

(٦) في الأصل: فأقبلوا.

(٧) النص بتمامه في كتاب الأغاني: ٤/١٢٧.

قال: وقال الزهري[1]: خرج أمية في سفر، فنزلوا منزلاً، فأمّ أمية وجهاً وصعد (في كثيب)[2]، (فرفعت)[3] له كنيسة فانتهى إليها، وإذا بشيخ جالس، فقال لأمية حين رآه: إنك لمتبوع، فمن أين يأتيك رئيك[4]؟ قال: من شقي الأيسر، قال: فأي الثياب أحب إليه أن تلقاه فيها؟ قال: السواد، قال: (كدت)[5] تكون نبي العرب (ولست هو أوْ لَسْتَ به)[6]، هذا خاطر من الجن وليس بملك، وإن نبي العرب صاحب هذا الأمر يأتيه الملك من شقه الأيمن، وأحب الثياب إليه أن يلقاه فيها البياض[7].

قال الزهري: وأتى أمية أبا بكر، فقال: يا أبا بكر عمي الخبر، فهلا أحسست شيئاً؟ قال: لا والله، قال: قد وجدته يخرج في هذا العام[8].

وقال عمر بن شيبة: سمعت خالداً (بن يزيد)[9] يقول: إن أمية وأبا سفيان بن حرب صحبا في تجارة إلى الشام، فذكر نحو الحديث الأول وزاد فيه: فخرج من عند الراهب وهو (يعتل)[10] فقال له أبو سفيان: إن بك لشراً فما قصتك؟ قال: خير، أخبرني عن عتبة بن ربيعة: كم سنّه؟ فذكر سناً، قال: أخبرني عن ماله؟ فذكر مالاً، (فقال له صفته)[11] قال أبو سفيان: بل رفضه (فقال إن صاحب هذا الاسم ليس بشيخ، ولا بذي

---

(١) الزهري هو محمد بن مسلم بن شهاب الزهري المتوفى سنة ١٢٤هـ، وله في هذا الموضوع عدة كتب منها: المغازي النبوية، نشر دار الفكر بتحقيق الدكتور سهيل زكار، وليس به هذا الخبر، ومنها: مشاهد النبي ﷺ (ذكره السخاوي في الضوء اللامع: ص ٥٢٧) ومنها: مسند الزهري لأحمد بن شعيب النسائي، ولم أعثر عليه ولعل النص فيه والله أعلم.

(٢) سقطت من الأصل وهي موجودة في الأغاني.

(٣) في ب: فوضعت.

(٤) رئيك: أي الجن الذي يأتيك.

(٥) في ج: كذب.

(٦) في ج، ب: وليست به، وفي ص: ولست به.

(٧) انظر: الأغاني: ١٢٧/٤.

(٨) المرجع السابق نفسه.

(٩) سقطت من الأصل.

(١٠) في ج: يقتل، وفي ب، ص: ثقيل.

(١١) سقطت من ب، ج.

مال، قال: وكان الراهب أتاه وأخبره)[1]، فقال: إن صاحب هذا الأمر لرجل من قريش[2].

قال الزبير: وحدثني عمر بن أبي بكر المؤمّلي قال: حدثني رجل من أهل الكوفة، قال: كان أميّة نائماً فجاءه طائران، فوقع أحدهما على باب البيت، ودخل الآخر، فشق عن قلبه ثم رده الطائر، فقال له الطائر الآخر: أوعى؟ قال: نعم زكي؟ قال: (أبىٰ)[3].

وقال الزهري: دخل يوماً أمية بن أبي الصلت على أخته (وهي تهيء)[4] أدماً لها فأدركه النوم، فنام على سرير في ناحية البيت، (فانشق جانب من السقف في البيت)[5]، وإذا بطائرين قد وقع أحدهما على صدره: ووقف الآخر مكانه، فشق الواقع صدره، فأخرج قلبه فشقه، ثم قال الطائر الآخر للذي على صدره: أوعى؟ قال: وعى. قال: أقبل؟ قال: أبى، فرد قلبه في موضعه، ثم مضى، فأتبعهما أمية طرفه، وقال: (لبيكما لبيكما)[6] ها أنا ذا لديكما، لا (برىء)[7] فاعتذر (ذو عشيرة)[8] فانتصر، فرجع الطائر فوقع على صدره فشقه، حتى أخرج قلبه فشقه، فقال الطائر الأعلى: أوعى؟ قال: وعى، قال: أقبل؟ قال: أبى ونهض فأتبعهما أمية بصره، فقال: (لبيكما لبيكما)[9] ها أنا ذا لديكما، لا مال لي يغنيني ولا عشيرة تحميني.

فرجع الطائر فوقع على صدره ثم أخرج قلبه فشقه، فقال الطائر الأعلى: أوعى؟ قال: وعى، قال: أقبل؟ قال: أبى، فنهض (فأتبعها)[10] أمية بصره وقال: (لبيكما

---

(١) سقطت من الأصل.
(٢) انظر: الأغاني: ١٢٨/٤.
(٣) انظر: البداية والنهاية: ٢٢٤/٢؛ وانظر: الأغاني: ١٢٩/٤.
(٤) في الأصل: وقال تهيأ.
(٥) سقطت من ص والأصل.
(٦) في ج: ليتكما ليتكما.
(٧) في ب، ج، يرى.
(٨) في الأصل شريعة.
(٩) في ب، ص ليتكما ليتكما.
(١٠) في ج والأصل: فأتبعه.

لبيكما)[1] ها أنا ذا لديكما محفوف بالنعم (محفوظ)[2] (بالدين)[3] فرجع الطائر فوقع على صدره فشقه فأخرج قلبه فشقه، فقال الأعلى: أوعى؟ قال: وعى، قال: أقبل؟ قال: أبى، ونهض فأتبعها طرفه فقال: لبيكما لبيكما ها أنا ذا لديكما.

إن تغفر اللهم تغفر جماً وأي عبد لك لا ألما

ثم انطبق (الشق)[4] وجلس أمية يمسح صدره، فقلت: يا أخي، هل تجد شيئاً؟ قال: لا ولكني أجد حرّاً في صدري ثم أنشأ يقول:

ليتني كنتُ قبلَ ما قد بدا لي في (تلالِ)[5] الجبال أرعى الوُعولا
اِجعلِ الموتَ نُصْبَ عينيكَ واحذرْ غولةَ الدهرِ إن للدهر غولا[6]

[رحلة أبي سفيان مع أمية بن أبي الصلت]

وقال مروان بن الحكم عن معاوية بن أبي سفيان بن حرب (عن أبيه)[7] قال: خرجت أنا وأمية بن أبي الصلت تجاراً إلى الشام، فكان كلما نزلنا (قرية أو بمنزل)[8]، أخرج منه سفراً يقرؤه علينا، فكنا كذلك حتى نزلنا بقرية من قرى النصارى، فرأوه فعرفوه وأهدوا له (فذهبوا ومضى)[9] معهم إلى بيعتهم، ثم رجع وسط النهار فطرح نفسه، واستخرج ثوبين أسودين، فلبسهما ثم قال: يا أبا سفيان هل لك في عالم من علماء النصارى إليه تناهى علم الكتب تسأله عما بدا لك؟ فقلت: لا، فمضى هو وحده وجاءنا بعد

(١) في ج: ليتكما ليتكما.
(٢) في ص: محوط.
(٣) في ب، ج، ص: بالذنب.
(٤) في ص، ب: السقف.
(٥) في البداية والنهاية: قلال.
(٦) قصة الرؤيا هذه ذكرها ابن كثير عن الزهري مع التفصيل في أبيات الشعر التي قالها أمية (انظر: البداية والنهاية: ٢/ ٢٢٤ ـ ٢٢٦).
(٧) سقطت من الأصل، وفي ج: عن أبي سفيان بن حرب.
(٨) في ب، ج، ص: منزلاً.
(٩) في ب، ج، ص: وذهب.

هدأة من الليل، فطرح ثوبيه ثم انجدل على فراشه، فوالله ما نام ولا قام حتى أصبح، وأصبح كئيباً حزيناً ما يكلمنا وما نكلمه، فسرنا ليلتين على ما به من الهم، وقلت: ما رأيت مثل الذي رجعت به من عند صاحبك، قال: لمنقلبي؟ فقلت: وهل لك منقلب؟ قال: أي والله لأموتن ولأحاسبن. قلت: فهل أنت قابل أماني؟ قال: على ماذا؟ قلت: إنك لا تبعث ولا تحاسب؟ (قال)[1]: فضحك وقال: بلى والله لنبعثن ولنحاسبن وليدخلن فريق في الجنة وفريق في السعير، قلت: ففي أيهما أنت أخبرك صاحبك؟ قال: لا علم لصاحبي بذلك فيّ ولا في نفسه، فكنا في ذلك ليلنا يعجب منا، ونضحك منه، حتى قدمنا غوطة دمشق، فبعنا متاعنا، وأقمنا شهرين، ثم ارتحلنا حتى نزلنا (قرية)[2] من قرى النصارى، فلما رأوه جاؤوه وأهدوا له، وذهب معهم إلى بيعتهم، ثم جاءنا مع نصف النهار، فلبس ثوبيه الأسودين، وذهب حتى جاءنا بعد هدأة من الليل، فطرح ثوبيه، ثم رمى بنفسه على فراشه، فوالله ما نام ولا قام حتى أصبح مبثوثاً[3] حزيناً، ولا يكلمنا ولا نكلمه فرحلنا، فسرنا ليالي ثم قال: يا صخر حدثني عن عتبة بن ربيعة أيجتنب المحارم والمظالم؟ قلت: أي والله، قال: أويصل (الرحم)[4] ويأمر بصلتها؟ قلت: نعم، قال: فكريم الطرفين وسيط في العشيرة؟ قلت: نعم، قال: فهل تعلم قرشياً أشرف منه؟ قلت: لا والله، قال: أمحوج هو؟ قلت: لا بل ذو مال كثير، قال: كم أتى له من السنين؟ قلت: هو ابن سبعين قد قاربها، قال: فالسن والشرف أزريا به؟ قلت: والله بل زاده خيراً، قال: هو ذاك، ثم (قال)[5] إن الذي رأيت بي إني جئت هذا العالِم فسألته عن هذا الذي ينتظر، فقال: هو رجل من العرب من أهل بيت تحجه العرب، فقلت: فينا بيت تحجه العرب، قال: هو من إخوانكم وجيرانكم من قريش، فأصابني شيء ما أصابني مثله، إذ خرج من يدي فوز الدنيا والآخرة، وكنت أرجو أن أكون أنا هو، فقلت: فصفه لي فقال: رجل شاب (حتى)[6] دخل في الكهولة بدء أمره، إنه يجتنب المحارم والمظالم

---

(١) سقطت من ب، ج، ص.
(٢) سقطت من الأصل.
(٣) المبثوث: الكئيب.
(٤) في الأصل: الروح.
(٥) سقطت من ج.
(٦) في الأصل: حيي.

ويصل الرحم ويأمر بصلتها، وهو كريم (الطرفين)[1] متوسط في العشيرة أكثر جنده من الملائكة، قلت: وما آية ذلك؟ قال: رجفت الشام منذ هلك عيسى ابن مريم رجفات كلها فيها مصيبة، وبقيت رجفة عامة فيها مصيبة تخرج على أثرها، فقلت: هذا هو الباطل! لئن بعث الله رسولاً لا يأخذه إلا مسناً شريفاً. قال أمية: والذي يحلف به أنه لهكذا، فخرجنا حتى إذا كان بيننا وبين مكة ليلتان أدركنا راكب من خلفنا، فإذا هو يقول أصابت الشام (رجفة)[2] دثر أهلها فيها، وأصابتهم (مصيبة)[3] عظيمة. فقال أميّة: يا أبا سفيان، فقلت: والله ما أظن صاحبك إلا صادقاً.

وقدمنا مكة ثم انطلقت حتى أتيت أرض الحبشة تاجراً، فكنت فيها خمسة أشهر، ثم قدمت مكة فجاء إليّ الناس يسلمون عليّ وفي آخرهم محمد وهند تلاعب صبيانها، فسلم عليّ ورحب بي وسألني عن سفري ومقدمي، ثم انطلق، وقلت: والله إن هذا الفتى لعجب، ما جاءني من قريش أحد له معي بضاعة إلا سألني عنها وما بلغت، والله إن له معي لبضاعة ما هو بأغناهم عنها، ثم ما سألني عنها، فقلت: أوما علمت بشأنه؟ فقلت وفزعت: وما شأنه؟ قالت: يزعم أنه رسول الله، فذكرت قول النصراني فوجمت، ثم قدمت الطائف فنزلت على أمية فقلت: هل تذكر حديث النصراني؟ قال: نعم، فقلت: قد كان. قال: ومن؟ قلت: محمد بن عبد الله. فتصبب عرقاً، فقلت: قد كان من أمر الرجل ما كان وأين أنت منه؟ فقال: والله لا (أومن)[4] بنبي من غير ثقيف أبداً[5]. فهذا حديث أبي سفيان عن أمية، وكذلك حديثه عن هرقل، وهو في صحيح البخاري وكلاهما من أعلام النبوة المأخوذة من علماء أهل الكتاب.

---

(١) سقطت من الأصل.
(٢) في ب، ج، : بعدكم رجفه.
(٣) في ب، ج، ص: مصائب.
(٤) في ص والأصل: أوتي.
(٥) قصة أبي سفيان مع أمية هذه رواها ابن كثير في البداية والنهاية نقلاً عن الطبراني وقال: وقد رواه البيهقي في الدلائل ولكن سياق الطبراني الذي أوردناه أتم وأطول والله أعلم (البداية والنهاية: ٢/ ٢٢١ ـ ٢٢٣).

[قصة الراهب بحيرة]

وذكر الترمذي وغيره من حديث عبد الرحمن بن (غزوان)[1] وهو ثقة، أخبرنا يونس بن أبي إسحق عن أبي بكر بن موسى عن أبيه، قال: خرج أبو طالب إلى الشام، وخرج معه النبي ﷺ في أشياخ من قريش، فلما أشرفوا على الراهب حطّوا عن رحالهم، فخرج إليهم الراهب، وكانوا قبل ذلك (يمرون)[2] به فلا يخرج إليهم ولا يلتفت، قال: فهم يحلون رحالهم فجعل يتخللهم الراهب حتى إذا جاء فأخذ بيد النبي ﷺ، فقال هذا سيد العالمين يبعثه الله تعالى رحمة للعالمين، فقال له أشياخ قريش: ما علمك؟ فقال: إنكم حين أشرفتم من العقبة لم يبقَ شجر ولا حجر إلا خرّ ساجداً ولا يسجدون إلاّ لنبي، وإني أعرفه بخاتم النبوة أسفل من غضروف كتفه مثل التفاحة، ثم رجع فصنع لهم طعاماً، فلما آتاهم به، وكان هو في رعيه الإبل، قال: أرسلوا إليه، فأقبل وعليه غمامة (مظللة)[3]، فلما دنا من القوم وجدهم قد سبقوه إلى فيء شجرة، فلما جلس مال فيء الشجرة عليه، فقال: انظروا إلى فيء الشجرة مال عليه، قال: فبينما هو قائم عليهم يناشدهم أن لا يذهبوا به إلى الروم فإن الروم إن رأوه عرفوه بالصفة فيقتلونه، وإذا بسبعة من الروم قد أقبلوا فاستقبلهم، وقال: ما جاء بكم؟ قالوا: بلغنا أن هذا النبي خارج في هذا الشهر، فلم يبق طريق إلا بعث إليه بأناس، وإنا قد أخبرنا خبره بعثنا إلى طريقك هذا. قال: هل خلفكم أحد هو خير منكم؟ قالوا: إنا قد أخبرنا خبره في طريقك هذا، قال: أفرأيتم أمراً أراد الله أن يقضيه هل يستطيع أحد من الناس (منعه)[4]؟ قالوا: لا. قال: فبايعوه (وأقيموا)[5] معه (قال: أنشدكم الله أيكم وليه؟ قالوا: أبو طالب فلم يزل يناشدهم حتى رده)[6]، [7].

---

(١) في ص: عوفان.

(٢) في الأصل: يلوون.

(٣) في ب، ج، ص: تظله.

(٤) في ب، ج، ص: رده.

(٥) في ب، ج، ص: وأقاموا.

(٦) سقطت من ص.

(٧) أخرجه الترمذي في كتاب المناقب (انظر: تحفة الأحوذي: ص ١٠٦ ــ ١٠٧).

وقد روى محمد بن سعد هذه القصة مطولة، قال ابن سعد: حدثنا محمد بن عمر بن واقد، حدثنا محمد بن صالح وعبد الله بن جعفر (الزبيري)[١]، قال محمد بن عمرو: وحدثنا ابن أبي حبيبة عن داود بن الحصين، قال: لما خرج أبو طالب إلى الشام وخرج معه رسول الله ﷺ في المرة الأولى وهو ابن اثنتي عشرة سنة، فلما نزل الركب بصرى من الشام وبها راهب يقال له بحيرة في صومعة له، وكان علماء النصارى يكونون في تلك الصومعة يتوارثونها عن كتاب يدرسونه، فلما نزلوا على بحيرا، وكان كثيراً ما يمرون به ولا يكلمهم حتى إذا كان ذلك العام ونزلوا منزلاً قريباً من صومعته، قد كانوا ينزلونه قبل (ذلك كلما مروا)[٢]، فصنع لهم طعاماً ثم دعاهم، وإنما حمله على دعائهم أنه رآهم حين طلعوا وغمامة تظل رسول الله ﷺ، حتى نزلوا تحت الشجرة، ثم نظر إلى تلك الغمامة أظلت تلك الشجرة فاخضلت أغصان الشجرة على رسول الله ﷺ، حتى استظل تحتها، فلما رأى بحيرة ذلك نزل من صومعته وأمر بذلك (الطعام)[٣]، فأتى به وأرسل إليهم وقال: إني قد صنعت لكم طعاماً يا معشر قريش، وأنا أحب أن تحضروه كلكم، ولا تخلفوا أحداً منكم كبيراً أو صغيراً حراً ولا عبداً، فإن هذا شيء تكرموني به، فقال رجل: إن لك لشأناً يا بحيرة، ما كنت تصنع هذا، فما شأنك اليوم؟ فقال: إني أحب أن أكرمكم، ولكم حق، (فاجتمعوا)[٤] إليه وتخلف رسول الله ﷺ من بين القوم لحداثة سنه في رحالهم تحت الشجرة، فلما نظر بحيرة إلى القوم فلم ير الصفة التي يعرفها، ويجدها عنده، وجعل ينظر فلا يرى الغمامة على أحد من القوم، ويجدها على النبي ﷺ، فقال بحيرة: يا معشر قريش لا يتخلفن منكم أحد عن طعامي، قالوا: ما تخلف أحد إلّا غلام هو أحدث القوم سناً في رحالهم، فقال: ادعوه ليحضر طعامي، فما أقبح أن تحضروا، ويتخلف رجل واحد مع أني أراه من أنفسكم، فقال القوم: والله أوسطنا نسباً، وهو ابن أخ هذا الرجل يعنون أبا طالب، وهو من ولد عبد المطلب فقال الحارث بن عبد المطلب: والله إن كان بنا للؤم أن يتخلف ابن عبد المطلب من بيننا، ثم

---

(١) في ص: الزهري.

(٢) سقطت من الأصل.

(٣) سقطت من الأصل.

(٤) في ص: فاجتمع القوم.

قام إليه فاحتضنه، وأقبل به حتى (أجلسه)[1] على الطعام، والغمامة تسير على رأسه، وجعل بحيرا يلحظه لحظاً شديداً، وينظر إلى أشياء في جسده، قد كان يجدها عنده في صفته، فلما تفرقوا عن الطعام قام إليه الراهب فقال يا غلام أسألك بحق اللات والعزى إلا ما أخبرتني عما أسألك عنه (فقال رسول الله ﷺ: لا تسألني باللات والعزى فوالله ما أبغضت شيئاً بغضهما. قال: فبالله إلا أخبرتني عما أسألك عنه، قال: سلني عما بدا لك، فجعل رسول الله ﷺ يخبره فيوافق ذلك ما عنده، ثم جعل ينظر ما بين عينيه، ثم كشف عن ظهره فرأى خاتم النبوة بين كتفيه على الصفة التي عنده، فقبّل موضع الخاتم، وقالت قريش: إن لمحمد عند هذا الراهب لقدرا، وجعل أبو طالب لما يرى من الراهب يخاف على ابن أخيه، فقال الراهب لأبي طالب: ما هذا الغلام منك؟ قال: هو ابني، قال: ما ينبغي لهذا الغلام أن يكون أبوه حياً، قال: فابن أخي، قال: فما فعل أبوه؟ قال: هلك وأمه (حبلى)[2] به، قال: فما فعلت أمه؟ قال: توفيت قريباً، قال: صدقت، ارجع بابن أخيك إلى بلده، واحذر عليه من اليهود، فوالله لئن عرفوا منه ما أعرف لتبغنّه عنتاً، وإنه كائن لابن أخيك شأن عظيم نجده في كتابنا، واعلم أني قد أديت إليك النصيحة، فلما فرغوا من تجارتهم خرج به سريعاً، وكان رجال من يهود رأوا رسول الله ﷺ وعرفوا صفته، فأرادوا أن يغتالوه، فذهبوا إلى بحيرا فذكروا أمره فنهاهم أشد النهي، وقال لهم: أتجدون صفته؟ قالوا: نعم، قال: فما لكم إليه سبيل؟ فصدقوه وتركوه ورجع أبو طالب، فما خرج به سفراً بعد ذلك خوفاً عليه)[3].

وذكر الحاكم والبيهقي وغيرهما من حديث عبد الله بن إدريس عن شرحبيل بن مسلم عن أبي أمامة عن هشام بن العاص قال: ذهبت أنا ورجل من قريش إلى هرقل صاحب الروم ندعوه إلى الإسلام، فخرجنا حتى قدمنا الغوطة غوطة دمشق، فنزلنا على جبلة بن الأيهم[4] الغساني، فدخلنا عليه فإذا هو على سرير له، فأرسل إلينا برسول نكلمه، فقلنا:

---

(١) في ص: أجلسه أعلى القوم.

(٢) في ج: حامل.

(٣) الطبقات الكبرى، ابن سعد: ١/١/٩٩ ـ ١٠١.

(٤) جبلة بن الأيهم الغساني: هو أبو المنذر ملك آل جفنة بالشام أسلم وأهدى النبي ﷺ هدية، فلما كان زمن عمر ارتد ولحق بالروم. (انظر: سير أعلام النبلاء: ٣/٥٣٢).

لا والله لا نكلم رسولاً إنما بعثنا إلى الملك، فإن أذن لنا كلمناه، وإلا لم نكلم الرسول، فرجع إليه الرسول فأخبره بذلك، قال: فأُذن لنا، فقال: تكلموا، فكلمه هشام بن العاص(١) ودعاه إلى الإسلام وإذا عليه ثياب سواد، فقال له هشام: ما هذه التي عليك؟ فقال: لبستها وحلفت أن لا أنزعها حتى أخرجكم من الشام، قلنا: ومجلسك هذا فوالله لنأخذنه منك، ولنأخذن منك (الملك)(٢) الأعظم، أخبرنا بذلك نبيّنا فقال: لستم بهم بل هم قوم يصومون بالنهار ويفطرون بالليل فكيف صومكم؟ فأخبرناه فملأ وجهه سواداً، فقال: قوموا وبعث معنا رسولاً إلى الملك، فخرجنا حتى إذا كنا قريباً من المدينة، قال لنا الذي معنا: إن دوابكم لا تدخل مدينة الملك، فإن شئتم حملناكم على براذين وبغال، قلنا: والله لا ندخل إلّا عليها، فأرسلوا إلى الملك أنهم (يأبون)(٣)، فدخلنا على رواحلنا متقلدين سيوفنا، حتى انتهينا إلى غرفة له، فأنخنا في أصلها وهو ينظر إلينا، فقلنا لا إله إلّا الله والله أكبر، والله يعلم، لقد انتفضت الغرفة حتى صارت كأنها عذق تصفقه الرياح(٤). فأرسل إلينا أن ليس لكم أن تجهروا علينا بدينكم، وأرسل إلينا أن ادخلوا، فدخلنا عليه وهو على فراش له وعنده بطارقته من الروم، وكل شيء في مجلسه أحمر وما (حوله أحمر)(٥)، وعليه ثياب من الحمرة، فدنونا منه فضحك وقال: ما كان عليكم لو حييتموني بتحيتكم فيما بينكم، وإذا رجل فصيح بالعربية كثير الكلام، فقلنا: إن تحيّتنا فيما بيننا لا تحل لك، وتحيتك التي تحيّي بها لا تحل لنا أن نحيّيك بها فقال: كيف تحيتكم فيما بينكم؟ قلنا: السلام عليكم فقال: كيف تحيون ملككم؟ قلنا: بها، قال: فكيف يرد عليكم؟ قلنا: بها، قال: فما أعظمُ كلامكم؟ قلنا: لا إله إلا الله والله أكبر، فلما تكلمنا بها (يعلم الله)(٦)، لقد انتفضت الغرفة حتى رفع رأسه إليها، قال: هذه الكلمة التي قلتموها حيث انتفضت الغرفة كلما قلتموها في بيوتكم تنتفض بيوتكم عليكم؟

---

(١) هشام بن العاص السهمي، ابن أخت أبي جهل، أسلم بمكة وهاجر إلى الحبشة، ثم عاد ليلحق برسول الله ﷺ إلى المدينة فحبسه قومه بمكة ثم قدم بعد الخندق مهاجراً. (انظر: طبقات ابن سعد ٤/ ١٩١).

(٢) في ب، ج، ص: ملك الملك.

(٣) في الأصل: يأتون.

(٤) العذق: هو أعلى النخلة التي عليها الثمر، وتصفقه الرياح أي تحركه بشدة.

(٥) في الأصل: عليه حمرة.

(٦) في ب، ج، ص: والله يعلم.

قلنا: لا ، ما رأيناها فعلت هذا قط إلا عندك، قال: وددت أنكم كلما قلتموها ينتفض كل شيء عليكم، وإني خرجت من نصف ملكي، قلنا: لم؟ لأنه يكون أيسر لشأنها وأحذر أن لا تكون من أمر النبوة، وأن (لا تكون)[1] من حيل الناس، ثم سألنا عما أراد فأخبرناه، فقال: كيف صلاتكم وصومكم فأخبرناه، فقال: قوموا، فقمنا فأمر لنا بمنزل حسن (ونزل كثير)[2]، فأقمنا ثلاثاً فأرسل إلينا ليلاً، فدخلنا عليه، فاستعاد قولنا، فأعدناه، ثم دعا بشيء كهيئة الربعة العظيمة مذهبة فيها بيوت صغار عليها أبواب (ففتحها بيتاً وقفلاً)[3]، فاستخرج حريرة سوداء نشرها، فإذا فيها صورة حمراء، فإذا فيها رجل ضخم العينين عظيم الأليتين، لم أر مثل طول عنقه، فإذا ليست له لحية، وإذا له ظفيرتان أحسن ما خلق الله تعالى، قال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا، قال هذا آدم عليه السلام. وإذا هو أكثر الناس شعراً، ثم فتح باباً آخر، واستخرج منه حريرة سوداء وإذا فيها صورة بيضاء، وإذا له شعر قطط، أحمر العينين، ضخم الهامة، حسن (اللحية)[4]، قال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا، قال: هذا نوح عليه السلام. ثم فتح باباً آخر فاستخرج منه حريرة سوداء فيها رجل شديد البياض (حسن)[5] العينين، (صلت)[6] الجبين، طويل الخد، أبيض اللحية كأنه يبتسم قال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا، قال: هذا إبراهيم عليه السلام، ثم فتح باباً آخر فاستخرج منه حريرة بيضاء، فإذا فيها (صورة)[7] وإذا والله رسول الله ﷺ قال: أتعرفون من هذا؟ قلنا: نعم محمد رسول الله ﷺ، قال: وبكينا، قال: والله يعلم أنه قام قائماً ثم جلس، وقال: (آلله)[8] إنه لهو؟ قلنا: نعم إنه لهو كأنما ننظر إليه، فأمسك ساعة ينظر إليها، ثم قال: أما إنه كان آخر البيوت (ولكني عجلته)[9] لكم لأنظر

(١) في ب، ج، ص: يكون.

(٢) سقطت من الأصل.

(٣) في دلائل النبوة: ففتح منها باباً، وفي ب، ج، ص: ففتح بيتاً وقفلاً.

(٤) في ب، ج: الوجه.

(٥) سقطت من ج.

(٦) في ج: صلب. وصلت الجبين من كان جبينه بارزاً واضحاً في سعة وبريق (المعجم الوسيط، ١: ٥٢٢).

(٧) في ب، ج، ص: صورة بيضاء.

(٨) في ج، ص: والله.

(٩) في ج: فعجلته.

ما عندكم، ثم فتح باباً آخر فاستخرج منه حريرة سوداء فإذا فيها صورة أدماء[1] سمحاء، وإذا رجل جعد قطط[2]، غاير العينين، حديد النظر، عابس متراكب الأسنان، مقلص الشفة كأنه غضبان. فقال: هل تعرفون من هذا؟ قلنا: لا. قال: هذا موسى بن عمران وإلى جنبه صورة تشبهه، إلا أنه مدهان الرأس عريض الجبين في عينيه قبلة، فقال هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا، قال: هذا هارون، ثم فتح باباً آخر فاستخرج منه حريرة بيضاء فإذا فيها صورة رجل أدم سبط[3] ربعة[4] كأنه غضبان، فقال: هل تعرفون هذا؟ قالوا: لا. قال: هذا لوط، ثم فتح باباً آخر فاستخرج منه حريرة بيضاء، فإذا فيها صورة رجل أبيض يشرب بحمرة أقنى خفيف العارضين حسن الوجه قال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا، قال: هذا إسحق، ثم فتح باباً آخر فاستخرج منه حريرة بيضاء، فإذا فيها صورة تشبه إسحق إلا أنه على شفته السفلى خال، فقال: تعرفون هذا؟ قلنا: لا فقال: هذا يعقوب، ثم فتح باباً آخر فاستخرج حريرة سوداء، فيها صورة رجل (أبيض)[5] (حسن الوجه)[6] أقنى الأنف حسن القامة، يعلو وجهه نور، يعرف في وجهه الخشوع، يضرب إلى الحمرة، فقال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا، قال: هذا إسماعيل جد نبيكم، ثم فتح باباً آخر فاستخرج حريرة بيضاء، فيها صورة كأنها صورة آدم كأن وجهه الشمس، فقال هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا، قال: هذا يوسف، ثم فتح باباً آخر، فاستخرج حريرة بيضاء فيها صورة رجل أحمر (حمش)[7] الساقين أخفش[8] العينين ضخم البطن ربعة متقلداً سيفاً، فقال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا، قال: هذا داود. ثم فتح باباً آخر، فاستخرج منه حريرة

---

(١) أدماء: من الأدمة وهي السمرة (مختار الصحاح).

(٢) القطط: شعر الزنجي يقال: رجل قطط وشعر قطط، وجعد قطط أي شديد الجعودة (لسان العرب).

(٣) سبط: شعر سبط بفتح الباء وكسرها أي مسترسل غير جعد (مختار الصحاح).

(٤) ربعة: رجل ربعة أي مربوع الخلق لا طويل ولا قصير (لسان العرب).

(٥) سقطت من الأصل وص.

(٦) في ج: يشوب بحمرة.

(٧) في الأصل: أخمش، وفي ج: خمش، والصواب: حمش، والحمش والحموشة: الدقة، وهو حمش الساقين والذراعين دقيقهما. (لسان العرب).

(٨) أخفش من الخفش وهو ضعف في البصر وضيق في العين، وقيل: صغر في العين خلقة (لسان العرب).

بيضاء، فيها (صورة)[1] رجل ضخم الأليتين (طويل الرجلين)[2] راكباً فرساً، فقال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا، قال: هذا سليمان بن داود، ثم فتح باباً آخر فاستخرج منه حريرة سوداء فيها صورة بيضاء، وإذا رجل شاب شديد سواد اللحية، لين الشعر، حسن الوجه حسن العينين، فقال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا، قال: هذا عيسى (ابن مريم)[3]، قلنا: من أين لك هذه الصور؟ لأنا نعلم أنها على ما صورت عليه الأنبياء، لأنا رأينا صورة نبينا مثله، قال: إن آدم سأل ربه أن يريه من ولده فأنزل عليه صورهم، وكانوا في خزانة آدم عند مضرب الشمس، فاستخرجها ذو القرنين، فصارت إلى دانيال، ثم قال: أما والله إن نفسي طالبت بالخروج من ملكي، وإني (كنت كاسراً بكم ملكه)[4] حتى أموت، ثم أجازنا وأحسن جائزتنا (وسرحنا)[5]، فلما أتينا أبا بكر الصديق رضي الله عنه فأخبرناه بما رأينا، وما قال لنا، وما أجازنا (وما أحسن إلينا)[6]، فبكى أبو بكر وقال: لو أراد الله به خيراً لفعل[7].

[أخبار نبوة محمد ﷺ]

(فصل): فهذه الأخبار بنبوته مما تلقاه المسلمون من أفواه علماء أهل الكتاب

(١) سقطت من ص.
(٢) سقطت من ج.
(٣) ليست في ب، ج، ص.
(٤) في ب، ج: عند الإسراء بكم ملكه. وفي ص: عبداً لاسرا بكم ملكه وعند أبي نعيم: فوالله لو تطيب نفسي في الخروج عن ملكي، ما باليت أن أكون عبداً لاشدكم ملكه ولكن عسى أن تطيب نفسي، وعند البيهقي: إن نفسي طابت بالخروج من ملكي، وإن كنت عبداً لا يترك ملكه حتى أموت.
(٥) سقطت من ج.
(٦) هذه في ب فقط.
(٧) هذه القصة ذكرها البيهقي في الدلائل: ١/٢٨٧ ـ ٢٩١، كما ذكرها أبو نعيم في الدلائل: ١/٥٦. قال ابن حجر: وفي دلائل النبوة لأبي نعيم بإسناد ضعيف: أن هرقل أخرج لهم سفطاً من ذهب عليه قفل من ذهب، فأخرج منه حريرة مطوية فيها صور، فعرضها عليه إلى أن كان آخرها صورة محمد ﷺ، فذكر لهم أنها صورة الأنبياء وأنه خاتمهم ﷺ، قال: ووقع في أمالي المحاملي، رواية الأصبهاني من طريق هشام بن عروة عن أبي سفيان أن صاحب بصرى أخذه وناساً معه وهم في تجارة فذكر القصة مختصرة، فتح الباري: ٩/٨٥.

والمؤمنين منهم، والأول (مما نقلوه)(١) من كتبهم، وعلماؤهم يقرون أنه في كتبهم، فالدليل بالوجه الأول يقام عليهم (من كتبهم وبهذا الوجه يقام عليهم)(٢) بشهادة من لا يتهم عليهم، لأنه إما من عظمائهم، وإما من رغب عن رئاسته وماله ووجاهته فيهم، وآثر الإيمان على الكفر، والهدى على الضلال، وهو في هذا مدّع أن علماءهم يعرفون ذلك، ويقرون به، ولكن لا يطلعون جهالهم عليه.

[طرق معرفة هذه الأخبار]

والأخبار والبشارة بنبوته ﷺ في الكتب المتقدمة عرفت من عدة طرق:

أحدها: ما ذكرناه وهو قليل من كثير وغيض من فيض.

الثاني: إخباره ﷺ لهم أنه مذكور عندهم، وأنهم وعدوا به، وأن الأنبياء بشرت به، واحتجاجه عليهم بذلك، ولو كان هذا لا وجود له البتّة، لكان مغرياً لهم بتكذيبه منفراً لأتباعه محتجاً على دعواه بما يشهد ببطلانها.

الثالث: أن هاتين الأمتين معترفون بأن الكتب القديمة بشرت بنبي عظيم الشأن، يخرج في آخر الزمان، نعته كيت وكيت، وهذا مما اتفق عليه المسلمون واليهود والنصارى. فأما المسلمون: فلما جاءهم آمنوا به وصدّقوه وعرفوا أنه الحق من ربهم، وأما اليهود فعلماؤهم عرفوه، وتيقنوا أنه محمد بن عبد الله، فمنهم من آمن به، ومنهم من جحد نبوته، وقال للأتباع: إنه لم يخرج بعد.

وأما النصارى فوضعوا بشارات التوراة والنبوات التي بعدها على المسيح، ولا ريب أن بعضها صريح فيه، وبعضها ممتنع حمله عليه، وبعضها محتمل.

وأما بشارات المسيح فحملوها كلها على الحواريين، وإذا جاءها ما يستحيل انطباقه عليهم حرّفوه وسكتوا عنه، وقالوا: لا ندري من المراد به.

الرابع: اعتراف من أسلم منهم بذلك، وأنه صريح في كتبهم، وعن المسلمين

---

(١) في ص: فيما فعلوه.
(٢) سقطت من ص والأصل.

الصادقين ومنهم تلقى المسلمون هـذه البشارات، وتيقنـوا صدقهـا بشهادة المسلمين منهم بهـا، مع تبـاين أعصارهـا وأمصارهـا، وكثرتهم واتفـاقهم على لفظهـا، وهذا يفيـد القـطع بصحتهـا، ولو لم يقـرّ بها أهـل الكتـاب، فكيف وهم مقـرون بهـا لا يجحـدونهـا، وإنمـا يغالطون في تأويلها والمراد بها، وكل واحد من هذه الطرق الأربعة كاف في العلم بصحـة هذه البشارات، وقد قدّمنا أن إقدامه ﷺ على إخبار أصحابه وأعدائه بأنه مـذكور في كتبهم بنعته وصفته، وأنهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، وتكراره ذلك عليهم مرة بعد مرة في كل مجمع، وتعريفهم بذلك، وتوبيخهم والنداء عليهم، من أقوى الأدلة القـطعية على وجـوده من وجهين:

أحدهما: قيام الدليل القطعي على صدقه.

الثـانـي: دعوته لهم بذلك إلى تصديقه، ولـو لم يكن له وجـود لكان (ذلـك)[1] من أعظم دواعي تكذيبه والتنفير عنه.

[الاستدلال بأخبار الكتابين]

(فصـل): وهذه الـطريق يسلكها من يسـاعدهم على أنهم لم يحـرفوا ألفـاظ التوراة والإنجيـل (ولم يبدلـوها)[2]، فيسلكهـا بعض نـظار المسلمين معهم من غيـر تعـرض إلى التبديل والتحريف.

وطائفة أخرى تزعم أنهم بدلوا وحرّفوا كثيراً من الفاظ الكتابين، مع أن (الغرض)[3] الحامل لهم على ذلك دون الغرض الحامل لهم على تبديل البشارة برسول الله ﷺ بكثير، وإن البشارات لكثرتها لم يمكنهم إخفاؤها كلها، وتبديلها، ففضحهم ما عجزوا عن كتمانه أو تبـديله، وكيف تنكر الأمـة الغضبية قتلة الأنبيـاء الذين رمـوهم بالعـظائم (أن ينكروا)[4] (نعت)[5] رسول الله ﷺ وصفته؟ وقـد جحدوا نبـوة المسيح ورمـوه وأمه بـالعظائم، ونعتـه

---

(١) سقطت من الأصل.
(٢) في ب، ج، ص: ولم يبدلوا شيئاً منها.
(٣) في ج: العارض.
(٤) في ص، ب: أن يكتموا.
(٥) في الأصل: بعث.

والبشارة به موجودة في كتبهم، ومع هذا أطبقوا على جحد نبوته، وإنكار بشارة الأنبياء به، ولم يفعل بهم ما فعله محمد ﷺ من القتل والسبي وغنيمة الأموال، وتخريب الديار، وإجلائهم منها، فكيف لا تتواصى هذه الأمة بكتمان (بعثه)[1] وصفته؟ وتبدله (من كتبهم)[2]؟ وقد (نعى)[3] الله سبحانه وتعالى عليهم ذلك في غير موضع من كتابه ولعنهم عليه.

ومن العجب أنهم، والنصارى يقرّون أن التوراة كانت طول مملكة بني إسرائيل عند الكاهن الأكبر الهاروني وحده، واليهود تقر أن السبعين كاهناً اجتمعوا على اتفاق من جميعهم على تبديل ثلاثة عشر حرفاً من التوراة، وذلك بعد المسيح في عهد القياصرة الذين كانوا تحت قهرهم، حيث زال الملك عنهم، ولم يبق لهم ملك يخافونه (ويأخذ على أيديهم، (ومنهم من يقول: بلى وهو بخت نصر، حيث ألزمهم بكتابة التوراة لطائفة من جماعته، حين أسكنهم بيت المقدس، وعلى تقرير الروايتين)[4] فمن رضي بتبديل موضع واحد من كتاب الله، فلا يؤمن منه تحريف غيره، واليهود تقرّ أيضاً: أن السامرة حرّفوا مواضع في التوراة، وبدلوها تبديلاً ظاهراً وزادوا ونقصوا، والسامرة تدعي ذلك عليهم.

وأما الإنجيل فقد تقدم أن الذي بأيدي النصارى منه أربعة كتب مختلفة، من تأليف أربعة رجال: يوحنا ومتى ومرقس ولوقا، فكيف ينكر تطرق التبديل والتحريف إليها وعلى ما فيها من ذلك؟ فقد صرفهم الله عن تبديل ما ذكرنا من البشارات بمحمد بن عبد الله وإزالته، وإن قدروا على كتمانه على أتباعهم وجهالهم.

[افتراءات في التوراة تشهد بالتحريف]

وفي التوراة التي بأيديهم من التحريف والتبديل، وما لا تجوز نسبته إلى الأنبياء

---

(١) في ب، ص: نعته.
(٢) في ب، ج، ص: من كتبها.
(٣) في الأصل: عاب.
(٤) سقطت من ب، ج، ص.

ما لا (يشك)[1] فيه ذو بصيرة. والتوراة التي أنزلها الله على موسى بريئة من ذلك، ففيها عن لوط رسول الله أنه خرج من المدينة، وسكن في كهف الجبل، ومعه ابنتاه، فقالت الصغرى للكبرى: قد شاخ أبونا فارقدي بنا معه لنأخذ منه نسلاً، فرقدت معه الكبرى، ثم الصغرى، ثم فعلتا ذلك في الليلة الثانية، وحملتا منه بولدين (موآب وعمون)[2][3].

فهل يحسن أن يكون نبي رسول كريم على الله يوقعه الله سبحانه وتعالى في مثل هذه الفاحشة العظيمة في آخر عمره، ثم (يذيعها)[4] عنه ويحكيها للأمم.

وفيها: أن الله تجلى لموسى في سيناء وقال له بعد كلام كثير: أدخل يدك في جحرك وأخرجها مبروصة كالثلج[5]، وهذا من النمط الأول، والله سبحانه لم يتجل لموسى، وإنما أمره أن يدخل يده في جيبه، وأخبره أنها تخرج بيضاء من غير سوء، أي من غير برص.

وفيها: (أن هارون هو الذي صاغ لهم العجل)[6]، وهذا إن لم يكن من زيادتهم وافترائهم في كلامهم، فهارون اسم السامري الذي صاغه، ليس هو بهارون أخي موسى.

وفيها: أن الله قال لإبراهيم: (اذبح ابنك بكرك إسحق)[7] وهذا من بهتهم وزيادتهم و(افترائهم)[8] في كلام الله سبحانه وتعالى، وقد جمعوا بين (النقيضين)[9]، فإن (بكره)[10] هو إسماعيل، فإنه بكر أولاده، وإسحق إنما بشّر به على الكبر بعد قضية الذبح.

---

(١) في ج: يكشف.

(٢) في الأصل: موان وعمران، وفي ص: تواب وعمون.

(٣) انظر: التكوين: ١٩/ ٣٠ ــ ٣٨.

(٤) في ب، ج: لم يدفعها.

(٥) الخروج: ٤/ ٦.

(٦) الخروج: ٣٢/ ٢ ــ ٣.

(٧) قصة ذبح إسحق، انظر: التكوين: ص ٢٢.

(٨) سقطت من ب، ج، ص.

(٩) في ب، ج: القصتين.

(١٠) في الأصل: يكن.

وفيها: (ورأى الله أن قد كثر فساد الآدميين في الأرض، فندم على خلقهم، وقال: سأذهب (الآدميين)[1] الذين خلقت على الأرض والخشاش وطيور السماء، لأني نادم على خلقها جداً[2]. تعالى الله عن إفك المفترين، وعما يقول الظالمون علواً كبيراً.

وفيها: أن الله سبحانه وتعالى علواً كبيراً، تصارع مع يعقوب فضرب به يعقوب الأرض[3].

وفيها: (أن يهودا بن يعقوب النبي زوج ولده الأكبر من امرأة يقال لها (تامار)، فكان يأتيها مستدبراً فغضب الله من فعله، فأماته فزوج يهودا ولده الآخر بها، وكان إذا دخل بها أمنى على الأرض، علماً بأنه إن أولدها كان الولد الأول يدعى باسم أخيه، ومنسوباً إلى أخيه، فكره ذلك من فعله فأماته، وأمرها يهودا باللحاق ببيت أبيها إلى أن يكبر شيلا ولده، ويتمّ عقله، ثم ماتت زوجة يهودا، وذهب إلى منزله ليحجر غنمه، فلما أخبرت تامار به، لبست زي الزواني، وجلست على طريقه، فلما مرّ بها (ظنها)[4] زانية، فراودها (عن نفسها)[5]، فطالبته بالأجرة، فوعدها بجدي، ورمى عندها بعصاه وخاتمه، فدخل بها، فعلقت منه بولد، ومن هذا الولد كان داود النبي)[6].

فقد جعلوه ولد زنا، كما جعلوا المسيح ولد زنا، ولم يكفهم ذلك حتى نسبوا ذلك إلى التوراة، كما جعلوا ولدي لوط، ولدي زنا، ثم نسبوا داود وغيره من أنبيائهم إلى ذينك الوالدين.

وأما فريتهم على الله ورسله وأنبيائه، ورميهم لرب العالمين ورسله بالعظائم فكثير جداً، كقولهم: (إن الله استراح في اليوم السابع من خلق السموات والأرض)[7]،

---

(١) في ب، ج، ص: الآدمي.
(٢) التكوين: ٦/٧.
(٣) انظر: هوشع: ١٢/٤، وانظر: التكوين: ٣٢/٢٤ ــ ٢٩.
(٤) في ب، ج، ص: خالها.
(٥) سقطت من ب، ج، ص.
(٦) القصة في التكوين: ص٣٨، لكن هذا الإصحاح يذكر أنها وضعت توأمين الأول دعي فارص والثاني دعي زارح، التكوين: ٣٨/٢٧ ــ ٣٠.
(٧) انظر: التكوين: ١ ــ ٢.

فأنزل الله تعالى تكذيبهم بقوله: ﴿وما مسَّنا مِنْ لُغُوب﴾[1] (أي تعب)[2].

وقولهم: ﴿إن الله فقير ونحن أغنياء﴾[3]، وقولهم: ﴿يـد الله مغلولة، غُلَّت أيـديهم ولُعنوا بما قالوا﴾[4].

وقولهم: ﴿إن الله عهد إلينا أن لا نؤمن لرسول حتى يأتينـا بقربـان تأكله النـار﴾[5]. وقولهم: ﴿لن تمسّنا النار إلا أياماً معدودة﴾[6]، وقولهم: (إن الله بكى على الطوفـان حتى رمدت عيناه وعادته الملائكة)[7].

وقولهم الذي حكينـا آنفاً: إن الله نـدم على خلق بني آدم، وأدخلوا هذه الفـرية في التـوراة، وقولهم عن لـوط: إنه وطىء ابنتيـه، وأولدهمـا ولدين نسبـوا إليهما جمـاعـة من الأنبياء. وقولهم في بعض دعاء صلواتهم: (انتبه كم تنام يا رب استيقظ من رقدتك)[8].

فتجـرأوا على رب العالمين بهـذه المنـاجـاة القبيحـة كـأنهم (ينـاجـونـه)[9] بـذلـك لينتخي[10] لهم، ويحتمي، كأنهم يخبرونه أنه قـد اختار الخمـول لنفسه وأحبـائه فيهـزؤونه بهذا الخطاب للنباهة واشتهار الصيت. قال بعض أكابرهم بعد إسلامه: «فترى أحدهم إذا تلا هذه الكلمات في صلاتـه يقشعر جلده، ولا يشـك (أنه كلام)[11] يقع عنـد الله بموقـع عـظيم، وأنه يؤثـر في ربه، ويحـركه لـذلك ويهـزه وينخيه، فكـذبهم الله تعـالى بقـولـه: ﴿لا تأخذه سِنَةٌ ولا نوم. . .﴾ الآية، وكذّبهم على لسـان نبيه بقـوله: ﴿ومـا كان لبشـر أن

---

(١) سورة ق: الآية ٣٨.
(٢) ليست في ب، ج، ص.
(٣) سورة آل عمران: الآية ١٨١.
(٤) سورة المائدة: الآية ٦٤.
(٥) سورة آل عمران: الآية ١٨٣.
(٦) سورة البقرة: الآية ٨٠.
(٧) لم أجد هذا النص في الكتاب المقدس.
(٨) مزامير: ٢٣/٣٥ ــ ٤٤ ــ ٢٣.
(٩) في ب، ج، ص: يوبخونه.
(١٠) في الأصل لينتخي، وهي من النخوة التي بمعنى الكبر والعظمة، يقال: انتخى فلان علينا أي افتخر وتعظم. (مختار الصحاح): ص ٦٥١.
(١١) في ب، ج، ص: إن كلامه.

يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب﴾. وقوله خطاباً لموسى: لن تراني. . . الآية[1]. وعندهم في توراتهم (أن موسى صعد الجبل مع مشايخ أمته، فأبصروا الله جهرة، وتحت رجليه كرسي منظره كمنظر البلور)[2] ويسمّونه بلغتهم (السبقير) وهذا من كذبهم وافترائهم على الله وعلى التوراة.

وعندهم في توراتهم: أن الله سبحانه وتعالى لما رأى فساد قوم نوح وأن شرهم قد (عظم ندم)[3] على خلق البشر وشقّ عليه[4].

وعندهم في توراتهم أيضاً: أن الله ندم على تمليكه شاول على إسرائيل[5].

وعندهم فيها أيضاً: أن نوحاً لما خرج من السفينة بنى بيتاً مذبحاً لله، وقرّب عليه قرابين واستنشق الله رائحة القتار[6]، فقال في ذاته: (لن أعاود لعنة الأرض بسبب الناس لأن (خاطر البشر)[7] مطبوع على الرداءة، وأن أهلك جميع الحيوان كما صنعت)[8].

قال بعض علمائهم الراسخين في العلم ممن هداه الله إلى الإسلام[9]: لسنا نرى أن هذه الكفريات كانت في التوراة المنزلة على موسى، ولا نقول أيضاً أن اليهود قصدوا تغييرها وإفسادها، بل الحق أولى ما اتبع، وقال: ونحن نذكر حقيقة سبب تبديل التوراة (فإن)[10] علماء القوم وأحبارهم يعلمون أن هذه التوراة التي بأيديهم لا يعتقد أحد من

---

(١) هذه الآيات في ج فقط.
(٢) انظر: الخروج: ٩ ــ ١٠.
(٣) سقطت من ص.
(٤) انظر التكوين: ٥ ــ ٦.
(٥) صموئيل الأول: ١٥/١١.
(٦) القتار (بضم القاف): ريح القدر، وقد يكون من الشواء والعظم المحرق وريح اللحم المشوي، ولحم قاتر إذا كان له قتار لدسمه، وفي حديث جابر: لا تؤذ جارك بقتار قدرك. انظر: لسان العرب: ٧١/٥.
(٧) في ج: خطر البشرى.
(٨) انظر: التكوين: ٨/٢٠ ــ ٢١.
(٩) والذي يقصده المؤلف هنا من هؤلاء العلماء هو صاحب كتاب «بذل المجهود في إفحام اليهود» شموئيل بن يهوذا بن أيوب، لأن النص الذي نقله موجود في هذا الكتاب انظر: بذل المجهود: قطعة ٢٩ من مخطوطة المكتبة الخالدية: القدس رقم ١٩.
(١٠) في ب، ج، ص: قال.

علمائهم وأحبارهم أنها (عين)[١] التوراة المنزلة على موسى بن عمران البتة، لأن موسى صان التوراة عن بني إسرائيل، ولم يبثها فيهم خوفاً من اختلافهم بعده في تأويل التوراة المؤدي إلى انقسامهم أحزاباً، وإنما سلّمها إلى عشيرته أولاد لاوي، قال: ودليل ذلك قول التوراة التي بأيديهم ما هذه ترجمته «وكتب موسى هذه التوراة فدفعها إلى الأئمة بني لاوي»[٢].

وكان بنو هارون قضاة اليهود وحكامهم، لأن الإمامة وخدمة القرابين وبيت المقدس كانت فيهم، ولم يبذل موسى من التوراة لبني إسرائيل إلا نصف سورة. وقال الله لموسى عن هذه السورة وتكون هذه السورة شاهدة لي على بني إسرائيل ولا تنسى هذه السورة من أفواه أولادهم[٣]، وأما بقية التوراة فدفعها إلى أولاد هارون وجعلها فيهم وصانها عمن سواهم، فالأئمة الهارونيّون هم الذين كانوا يعرفون التوراة، ويحفظون أكثرها، فقتلهم بخت نصر على دم واحد يوم استولى على بيت المقدس، ولكن التوراة محفوظة على ألسنتهم بل (كل)[٤] من الهارونيين يحفظ فصلاً من التوراة، فلما رأى (عزرا)[٥] أن القوم قد (أحرق)[٦] هيكلهم وزالت دولتهم وتفرق جمعهم ورفع كتابهم، جمع من محفوظاته ومن الفصول التي تحفظها الكهنة، ما لفق منه هذه التوراة التي بأيديهم، فلذلك بالغوا في تعظيم عزرا غاية المبالغة، وقالوا فيه ما حكاه الله عنهم في كتابه[٧]، وزعموا أن النور إلى الآن يظهر على قبره عند بطائح العراق، لأنه عمل لهم كتاباً يحفظ دينهم.

فهذه التوراة التي بأيديهم على الحقيقة كتاب عزرا، وإن كان فيها أو أكثرها من التوراة التي أنزلها الله على موسى، قال: وهذا يدل على أن الذي جمع هذه الفصول التي

---

(١) في ج: غير.

(٢) التثنية: ٣١/٩.

(٣) نجد في سفر التثنية ما نصه: «ولما فرغ موسى من مخاطبة جميع إسرائيل بكل هذه الكلمات قال لهم: وجهوا قلوبكم إلى جميع الكلمات التي أنا أشهد عليكم بها اليوم لكي توصوا بها أولادكم» التثنية: ٣٢/٤٥ ــ ٤٦.

(٤) في ب، ج، ص: كان كل واحد.

(٥) عزرا، وفي ج: عزير.

(٦) في الأصل: أحرقوا.

(٧) أي في قوله تعالى: ﴿وقالت اليهود عزير ابن الله﴾ [التوبة: ٣٠].

بأيديهم رجل جاهل بصفات الرب تعالى، وما ينبغي له، وما لا يجوز عليه، فلذلك نسب إلى الرب تعالى ما يتقدس ويتنزه عنه، وهذا الرجل يعرف عند اليهود بعازر الوراق، ويظن بعض الناس أنه الرجل الذي ﴿مرّ على قرية وهي خاوية على عروشها، قال: أنى يحيي هذه الله بعد موتها؟ فأماته الله مائة عام ثم بعثه﴾(١)، ويقول إنه نبي، ولا دليل على هاتين المقدمتين، ويجب التثبت في ذلك نفياً وإثباتاً، فإن كان نبياً واسمه عزير فقد وافق (صاحب التوراة)(٢) في الاسم (لا في النبوّة)(٣).

وبالجملة فنحن وكل عاقل يقطع ببراءة التوراة التي أنزلها الله على كليمه موسى عليه الصلاة والسلام من هذه الأكاذيب والمستحيلات والترهات، كما يقطع ببراءة صلاة موسى وبني إسرائيل معه من هذا الذي يقولونه في (صلاتهم)(٤)؛ (فإنهم في العشر الأول من محرم في كل سنة يقولون في صلاتهم)(٥) ما ترجمته: (يا أبانا أتملك على جميع أهل الأرض ليقول كل ذي نسمة: الله إله إسرائيل قد ملك وملكته في الكل متسلطة)(٦).

ويقولون فيها أيضاً: (وسيكون لله الملك وفي ذلك اليوم يكون الله واحداً واسمه واحداً)(٧)، ويعنون بذلك أنه لا يظهر كون الملك له وكونه واحداً إلا إذا صارت الدولة لهم، فأما ما دامت الدولة لغيرهم فإنه تعالى فاصل الذكر عند الأمم مشكوك في وحدانيته مطعون في ملكه.

ومعلوم قطعاً أن موسى (ورب موسى)(٨) بريء من هذه الصلاة براءته من تلك الترهات.

(فصل): وجحدكم نبوة محمد من الكتب التي بأيديكم نظير جحدكم نبوة المسيح،

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٥٩.
(٢) سقطت من ج.
(٣) هذه في ج فقط.
(٤) في ب، ج، ص: صلاتهم اليوم.
(٥) سقطت من الأصل.
(٦) انظر: مزمور: ١٠٣/ ١٩.
(٧) مزمور: ٤٧/ ٢ ـ ٣.
(٨) في ج: ومن مشى على قدمه

وقد صرحت باسمه، ففي نص التوراة (لا يزول الملك من آل يهودا والرسم بين ظهرانيهم إلى أن يأتي المسيح)[1]، وكانوا أصحاب دولة حتى ظهر المسيح فكذبوه ورموه بالعظائم وبهتوه وبهتوا (أمه)[2]، فدمّر الله عليهم وأزال ملكهم، وكذلك قوله (جاء الله من طور سيناء وأشرق من ساعير) (واستعلن من جبال فاران، فأي نبوة أشرقت من ساعير)[3] غير نبوة المسيح وهم لا ينكرون ذلك، ويزعمون أن قائماً يقوم فيهم من ولد داود النبي، إذا حرّك شفتيه بالدعاء مات جميع الأمم ولا يبقى إلا اليهود)[4]، وهذا المنتظر بزعمهم هو المسيح الذي وعدوا به.

قالوا: ومن علامات مجيئه أن الذئب والتيس (يربضان)[5] معاً، وأن البقرة والذئب يرعيان جميعاً، وأن الأسد يأكل التبن كالبقر، فلما بعث المسيح كفروا به عند مبعثه، وأقاموا ينتظرون متى يأكل الأسد التبن (كالبقرة)[6]، حتى تصح لهم علامات مبعث المسيح، ويعتقدون أن هذا المنتظر متى جاءهم يجمعهم بأسرهم إلى القدس، وتصير لهم الدولة، ويخلو العالم من غيرهم، ويحجم الموت عن جنابهم المنيع مدة طويلة، وقد عوضوا من الإيمان بالمسيح ابن مريم انتظار مسيح الضلالة الدجال، فإنّه هو الذي ينتظرونه حقاً، وهم عساكره، وأتبع الناس له، ويكون لهم في زمانه شوكة ودولة إلى أن ينزل مسيح الهدى ابن مريم، فيقتل منتظرهم ويضع هو وأصحابه فيهم السيوف، حتى يختبيء اليهودي وراء (الحجارة والشجرة)[7]، فيقولان: يا مسلم هذا يهودي ورائي تعال فاقتله[8]، فإذا نظف الأرض منهم ومن عباد الصليب، فحينئذٍ يرعى الذئب والكبش معاً،

---

(١) انظر: التكوين: ١/٤٦.

(٢) في ب، ج: أمته.

(٣) سقطت من الأصل، ص.

(٤) ليست في النص الحالي.

(٥) في ج: يرتعان.

(٦) سقطت من ب، ج، ص.

(٧) في ب، ج، ص: الحجر والشجر.

(٨) يفهم من كلام المؤلف رحمه الله أن قتل اليهود واختباءهم وراء الشجر والحجر لا يكون إلا على عهد المسيح عليه السلام بعد نزوله في آخر الزمان، مع أن الأحاديث الصحيحة الواردة في صحيح مسلم لم تقيد ذلك بزمن معين، سوى أن ذلك سيحصل قبل قيام الساعة، وقد ورد في صحيح مسلم أربعة =

ويربضان معاً، وترعى البقرة والذئب معاً، ويأكل الأسد التبن، ويلقى الأمن في الأرض.

وهكذا أخبر به أشعيا في نبوته، (وطابق)[1] خبره ما أخبر بـه النبـي ﷺ في الحديث الصحيح في خروج الدجال وقتل المسيح ابـن مريم له، وخروج يأجوج ومأجوج في أثره، ومحقهم من الأرض، وإرسـال البـركـة والأمن في الأرض، حتى تـرعى الشـاة والـذئب، وحتى أن الحيات والسباع لا تضر الناس فصلوات الله تعالى وسلامه على من جاء بـالهدى والنور وتفصيل كل شيء وبيانه.

وأهـل الكتاب عنـدهم عن أنبيائهم حق كثيـر لا يعـرفـونـه ولا يحسنـون أن يضعـوه مواضعه، ولقد كمل الله سبحانه وتعالى بمحمد صلوات الله وسلامه عليه ما أنـزل الله على الأنبياء من الحق وبينه وأظهره لأمته، وفصـل على لسانـه ما أجمله لهم، وشـرح ما رمـزوا إليه، فجاء بالحق وصدق المرسلين، وتمت به نعمة الله على عباده المؤمنين.

فالمسلمون واليهود والنصارى ينتظرون مسيحاً يجيء في آخر الزمان، فمسيح اليهود هـو الدجـال، ومسيح النصـارى لا حقيقة (لـه) فإنـه عندهم إلـه وابن إلـه وخـالق ومميت ومحيـي، فمسيحهم الذي (ينتظرونـه)[2] هو المصلوب (المسمـر)[3] المكلل بالشـوك بين اللصوص المصفوع الذي هو مصفعة اليهود، وهو عندهم رب العـالمين وخالق السمـوات (والأرضين)[4].

ومسيح المسلمين الذي ينتظرونه هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم البتول عيسى ابن مريم، أخو عبد الله ورسوله محمد بن عبد الله، فيظهر دين الله وتوحيده، ويقتل أعداءه عباد الصليب الذين اتخـذوه وأمه إلهين من دون الله، وأعـداؤه اليهود الـذين رمـوه وأمه بـالعظائم، فهـذا هو الـذي ينتظره المسلمـون «وهو نـازل على المنارة الشـرقية

= أحـاديث في ذلك كلهـا بلفظ (لتقاتلن اليهـود) أو (لا تقوم السـاعة حتى تقـاتلوا اليهـود...) راجـع مسلم، كتاب الفتن: ١٨/ ٧٩ ــ ٨١.

(١) في ج: مطابقاً.

(٢) في ب، ج: ينتظرونه مسيحاً يجيء في آخر الزمان.

(٣) في ب، ج، ص: المستمر.

(٤) في ب، ج: الأرض.

بدمشق، واضعاً يديه على منكبي ملكين يراه الناس عياناً بأبصارهم نازلاً من السماء»[١]، فيحكم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وينقذ ما أضاعه الظلمة والفجرة والخونة من دين رسول الله ﷺ، ويحيي ما أماتوه، «وتعود الملل كلها في زمانه ملة واحدة»[٢] وهي ملته وملة أخيه محمد وملة أبيهما إبراهيم وملة سائر الأنبياء صلَّى الله عليهم وسلَّم، وهي الإسلام الذي من يبتغ غيره ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين، «وقد حمّل رسول الله ﷺ من أدركه من أمته السلام وأمره أن يقرئه إياه منه»[٣] فأخبر عن موضع نزوله بأي بلد وبأي مكان منه وبحاله وقت نزوله وبلبسه الذي عليه «وأنّه ممصَّرتان»[٤] أي ثوبان، وأخبر بما يفعله عند نزوله مفصلاً، حتى كأن المسلمين يشاهدونه عياناً قبل أن يروه، وهذا من جملة الغيوب التي أخبر بها، فوقعت مطابقة لخبره حذو القذة بالقذة.

فهذا منتظر المسلمين، لا منتظر المغضوب عليهم والضالين، ولا منتظر إخوانهم من الروافض (المارقين)[٥]، وسوف يعلم المغضوب عليهم إذا جاء منتظر المسلمين أنه ليس بابن يوسف النجار، ولا هو ولد(زنية)[٦]، ولا كان طبيباً حاذقاً ماهراً في صناعته استولى على العقول بصناعته، ولا كان ساحراً ممحزقاً، ولا مكنوا من صلبه وتسميره وصفعه وقتله بل كانوا أهون على الله من ذلك، ويعلم الضالون أنه ابن البشر وأنه عبد الله ورسوله، وأنه ليس بإله ولا بابن إله وأنه (مبشر)[٧]، بشّر بنبوة أخيه محمد ﷺ أولاً، وحكم بشريعته

---

(١) نزول المسيح عليه السلام على المنارة الشرقية بدمشق واضعاً كفيه على أجنحة ملكين، جزء من حديث الدجال الطويل الذي أخرجه الإمام مسلم في صحيحه في كتاب الفتن: ٥٢/٢٠ ـ ٢٩٣٧، وذكره الكشميري في كتابه التصريح بما تواتر في نزول المسيح بتحقيق الشيخ عبد الفتاح أبو غدة: ص ١٢٦.

(٢) هذا مأخوذ من حديث أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢/٤٣٧) ونصه «ويهلك الله في زمانه الملل كلها إلّا الإسلام».

(٣) هذا مأخوذ مما أخرجه الحاكم في مستدركه «من أدرك منكم عيسى ابن مريم فليقرئه مني السلام» (المستدرك: ٤/٥٤٥).

(٤) وأنه ممصرتان، جزء من حديث أخرجه الإمام أحمد في مسنده واللفظ : فإذا رأيتموه فاعرفوه رجلاً مربوعاً، إلى الحمرة والبياض، عليه ثوبان ممصّران. (مسند الإمام أحمد: ٢/٤٠٦).

(٥) سقطت من ج.

(٦) في ب، ج: ريبة.

(٧) سقطت من ب، ج، ص.

ودينه آخراً، وأنه عدو المغضوب عليهم والضالين، ووليّ رسول الله ﷺ وأتباعه المؤمنين، وما كان أولياؤه الأرجاس والأنجاس عبدة الصليب والصور المدهونة في الحيطان، إن أولياؤه إلا الموحدون، عباد الرحمن أهل الإسلام والإيمان الذين نزهوه وأمه عما رماهما به أعداؤهما اليهود، ونزهوا ربه وخالقه ومالكه وسيده عما رماه به أهل الشرك والسبّ للواحد المعبود.

فلنرجع إلى الجواب على طريق من يقول: إنهم غيّروا ألفاظ الكتب وزادوا ونقصوا، كما أجبنا على طريق من يقول: إنما غيّروا ببعض ألفاظها، وتأولوها غير تأويلها، قال هؤلاء: نحن لا ندعي، ولا طائفة من المسلمين أن ألفاظ[1] كل نسخة في العالم غيّرت وبدلت، بل من المسلمين من يقول: إنه غيّر بعض ألفاظها قبل مبعث رسول الله ﷺ، وغيّرت بعض النسخ بعد مبعثه، ولا يقولون: إنه غيّرت كل نسخة في العالم بعد المبعث، بل غير البعض، وظهر عند كثير من الناس بعض النسخ المبدلة المغيرة دون التي لم تبدل، والنسخ التي تبدل موجودة في العالم، ومعلوم أن هذا مما لا يمكن نفيه، والجزم بعدم وقوعه، فإنه لا يمكن أحداً أن يعلم كل نسخة في العالم على لفظ واحد بسائر الألسنة، ومن الذي أحاط بذلك علماً أو عقلاً؟ وأهل الكتاب يعلمون أن أحداً لا يمكنه ذلك، وأما من قال من المسلمين: إن التغيير وقع في أول الأمر، فإنهم قالوا إنه وقع أولاً من عزرا الوراق في التوراة في بعض الأمور، إما عمداً وإما خطأً، فإنه لم يقم دليل على عصمته، ولا أن تلك الفصول التي جمعها من التوراة بعد إحراقها هي عين التوراة التي أنزلت على موسى، وقد ذكرنا أن فيها ما لا يجوز نسبته إلى الله وأنه أنزله على رسوله وكليمه، وتركنا كثيراً لم نذكره.

[تناقضات وانحرافات في الأناجيل تشهد بالتحريف]

وأما (الإنجيل فهو)[2] أربعة أناجيل، أخذت عن أربعة نفر، اثنان منهم لم يريا المسيح أصلاً[3]، واثنان رأياه واجتمعا به وهما متى ويوحنا، وكل منهم يزيد وينقص

---

(١) سقطت من الأصل.

(٢) في ب، ج، ص: الأناجيل فهي.

(٣) وهما مرقس ولوقا، يقول موريس بوكاي عن إنجيل مرقس: إنه أقصر الأناجيل الأربعة وأقدمها، ولكنه ليس كتاب رسول وكل ما فيه أنه كتاب محرر من تلميذ رسول، ولا يعتبر كولمان مرقساً تلميذاً =

ويخالف إنجيله لإنجيل أصحابه في أشياء، وفيها ذكر القول ونقيضه، كما فيه أنه قال: (إن كنت أشهد لنفسي فشهادتي غير مقبولة، ولكن غيري يشهد لي)[1].

وفي موضع آخر منه: (إن كنت أشهد لنفسي فشهادتي حقّ لأني أعلم من أين جئت وإلى أين أذهب)[2] وفيه أنه لما استشعر بوثوب اليهود عليه قال: (جزعت نفسي الآن فماذا أقول يا أبتاه سلمني من هذا الوقت)[3].

وأنه لما رفع على خشبة الصليب صاح صياحاً عظيماً، وقال: (يا إلهي لم أسلمتني)[4]، فكيف يجمع هذا مع قولكم إنه هو الذي (أسلم)[5] نفسه إلى (اليهود)[6] ليصلبوه ويقتلوه رحمة منه بعباده، حتى فداهم بنفسه من الخطايا، وأخرج بذلك آدم ونوحاً وإبراهيم وموسى وجميع الأنبياء من جهنم بالحيلة التي دبرها على إبليس يجزع إله العالم بذلك. وكيف يسأل السلامة منه، وهو الذي اختاره ورضيه وكيف يشتد صياحه ويقول: (يا إلهي لم أسلمتني) وهو الذي أسلم نفسه، وكيف لم يخلصه أبوه مع قدرته على تخليصه، وإنزاله صاعقة على الصليب وأهله أم كان رباً عاجزاً مقهوراً مع اليهود؟!!

وفيه أيضاً أن اليهود سألته أن يظهر لهم برهاناً أنه المسيح فقال: تهدمون هذا البيت

= لعيسى، (التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، موريس بوكاي: ص ٦٦) وفي قاموس الكتاب المقدس: (كان الاعتقاد السائد في أواخر القرن الأول الميلادي أن هذا الإنجيل كتب في روما ووجه إلى المسيحيين الرومانيين، وكتب بابيوس مستنداً إلى ما استقاه من يوحنا الشيخ لهذه العبارة التي اقتبسها يوسيلوس في تاريخه الكنسي: «هذا أيضاً ما قاله الشيخ إن مرقس وقد كان مفسراً لبطرس ومترجماً لآرائه سجل جميع الأشياء التي تذكرها من أقوال المسيح، وأعماله، وذلك لأنه لم يسمع الرب ولا كان من أتباعه، ولكنه اتبع بطرس فيما بعد») (قاموس الكتاب المقدس: ٨٥٤/٢).

(١) يوحنا: ٣٢/٣.

(٢) يوحنا: ١٤/٨.

(٣) متى: ٢٦/ ٣٨ ـ ٣٩ مع اختلاف في النص الحالي، وهو (فقال لهم: نفسي حزينة جداً حتى الموت. . . وكان يصلي قائلاً: يا أبتاه إن أمكن فلتعبر عني هذه الكأس).

(٤) النص في إنجيل متى (صرخ يسوع بصوت عظيم قائلاً: إيلي إيلي لما شبقتني، أي: إلهي إلهي لماذا تركتني) متى: ٤٦/٣٧.

(٥) في ب، ج، ص: اختار إسلام.

(٦) وقع في نسخة الأصل خطأ (النصارى) والصحيح أنه أسلم نفسه لليهود.

يعني بيت المقدس، وأبنيه لكم في ثلاثة أيام، فقالوا له: بيت مبني في ست[1] وأربعين سنة تبنيه أنت في ثلاثة أيام؟[2].

ثم ذكرتم في الإنجيل أيضاً أنه لما ظفرت به اليهود وحمل إلى بلاط عامل قيصر واستدعيت عليه بينة أن شاهدي زور جاءا إليه وقالا: (سمعناه يقول: أنا قادر على بناء بيت المقدس في ثلاثة أيام)[3] (فكيف)[4] يدعي أن تلك معجزته ويدعي أن الشاهدين عليه بها شاهدا زور[5].

وفيه أيضاً للوقا: أن المسيح قال لرجلين من تلامذته: «اذهبا إلى الحصن الذي يقابلكما فإذا دخلتماه فستجدان (فلواً)[6] مربوطاً لم يركبه أحد، فحلاه وأقبلا به إليّ»[7] قال: وفي إنجيل متى في هذه القصة أنها كانت حمارة متعبة[8].

وفيه أنه قال: «لا تحسبوا أني قدمت لأصلح بين أهل الأرض، لم آت لصلاحهم لكن لألقي المحاربة بينهم. إنما قدمت لأفرق بين المرء وابنه والبنت وأمها، حتى يصير أعداء المرء أهل بيته»[9] ثم فيه أيضاً: «إنما قدمت لتحيوا وتزدادوا خيراً، وأصلح بين الناس»[10] وأنه قال: «من لطم خدك الأيمن فانصب له الأخرى»[11]، وفيه أيضاً أنه قال:

---

(١) في الأصل: خمسة، وهذا لا يوافق بقية النسخ ولا النص في إنجيل يوحنا بل فيه خطأ لغوي، فالصحيح (خمس) بالتذكير لأنه مع سنة المؤنثة.
(٢) يوحنا: ٢/١٨ ـ ٢٠.
(٣) يوحنا: ٢/١٨ ـ ٢٠.
(٤) في إنجيل متى ما نصه: «وأخيراً تقدم شاهدا زور وقالا: هذا قال: إني أقدر أن أنقض هيكل الله وفي ثلاثة أيام أبنيه» متى: ٢٦/٦٠ ـ ٦١.
(٥) في ب، ج، ص: فيالله العجب.
(٦) الفلوّ: المهر (مختار الصحاح: ص ٥١٢).
(٧) في النص الحالي: «.. تجدان جحشاً مربوطاً لم يجلس عليه أحد من الناس قط فحلّاه وائتيا به» لوقا: ١٩/٣٠ ـ ٣١.
(٨) في النص الحالي «تجدان أتاناً مربوطة وجحشاً معها فحلّاهما وائتياني بهما».
(٩) متى: ١٠/٣٤ ـ ٣٦.
(١٠) انظر: يوحنا: ٥/٤٠ والنص (... ولا تريدون أن تأتوا إليّ لتكون لكم حياة).
(١١) متى: ٥/٣٩.

«طوبى لك يا شمعون (رأس الجماعة)[1] وأنا أقول إنك الحجر، وعلى هذا الحجر تبني بيعتي، وكل ما أحللته في الأرض يكون محللاً في السماء، وما عقدته على الأرض يكون معقوداً في السماء»[2]، ثم فيه بعينه بعد أسطر يقول له: «اذهب عني يا شيطان ولا تعارض، فإنك جاهل»[3] فكيف يكون شيطان جاهل مطاع في السموات، وفي الإنجيل نص أنه «لم تلد النساء مثل يحيى»[4]؟!

هذا في إنجيل متى وفي إنجيل يوحنا أن اليهود بعثت إلى يحيى من يكشف عن أمره (من أنت)[5] أهو المسيح؟ قال: لا، قالوا: أتراك الياس؟ قال: لا، قالوا: أنت النبي؟ قال: لا، قالوا: أخبرنا من أنت؟ قال: أنا صوت مناد في المفاوز[6]، ولا يجوز لنبي أن ينكر نبوته فإنه يكون مخبراً بالكذب.

ومن العجب أن في إنجيل متى نسبة المسيح إلى أنه ابن (يوسف)[7]، ثم إلى إبراهيم الخليل تسعة وثلاثين أباً[8]، ثم نسبه لوقا أيضاً في إنجيله إلى يوسف، وعدّ منه إلى إبراهيم نيفاً وخمسين أباً[9]، فبينا هو إله تام إذ صيّروه ابن الإله ثم جعلوه ابن يوسف النجار.

والمقصود أن الاضطراب في الإنجيل يشهد بأن التغيير وقع فيه قطعاً، ولا يمكن أن يكون ذلك من عند الله، بل الاختلاف (الكثير الذي فيه يدل على أن ذلك الاختلاف من عند)[10] غير الله، وأنت إذا اعتبرت نسخه، ونسخ التوراة التي بأيدي اليهود والسامرة

---

(١) في ب، ج، ص: ابن الحمامة.
(٢) متى: ١٦: ١٧ ــ ١٨.
(٣) والنص في الإنجيل الحالي: (فالتفت وقال لبطرس: اذهب عني يا شيطان أنت معثرة لي لأنك لا تهتم بما لله) متى: ١٦/٢٣.
(٤) متى: ١١/١١.
(٥) في ب، ج، ص: فسألوه من هذا.
(٦) يوحنا: ١/٣٠ ــ ٣٣.
(٧) في ج، ص: يوسف النجار.
(٨) متى: ١/١ ــ ١٧.
(٩) لوقا ٤/٢٣ ــ ٣٨.
(١٠) سقطت من الأصل.

والنصارى، رأيتها مختلفة اختلافاً يقطع من وقف عليه أنه من جهة التغيير والتبديل.

[التواطؤ على التحريف]

ومن المعلوم أن نسخ التوراة والإنجيل إنما هي عند رؤساء اليهود والنصارى وليست عند عامتهم، ولا يحفظونها في صدورهم كحفظ المسلمين القرآن، ولا يمتنع على الجماعة القليلة التواطؤ على تغيير بعض النسخ، (ولا سيما إذا كان بقيتهم لا يحفظونها، فإذا قصد طائفة منهم تغيير نسخة أو نسخ)[1] عندهم، أمكن ذلك، وهذا وقع في العالم كثيراً، فهؤلاء اليهود تواطأوا وتواصوا بكتمان نبوة المسيح وجحد البشارة وتحريفها، واشتهر ذلك بين طوائفهم في مشارق الأرض ومغاربها، وكذلك تواطأوا على أنه كان طبيباً ساحراً ممحزقاً ابن زنية، وتواصوا به مع رؤيتهم الآيات الباهرة التي أرسل بها، وأعلمهم أنه أبعد خلق الله مما رمي به، وشاع ما تواطؤوا عليه وملأوا به كتبهم شرقاً وغرباً، وكذلك تواطأوا على أن لوطاً نكح ابنتيه، وأولدهما أولاداً، وشاع ذلك فيهم جميعهم. وتواطؤوا على أن الله ندم وبكى على الطوفان، وعضّ أنامله، وصارع يعقوب فصرعه يعقوب، وأنه راقد عنهم، وأنهم يسألونه أن ينتبه من رقدته وشاع ذلك في جميعهم، وكذلك تواطأوا على فصول لفقوها بعد زوال مملكتهم، يصلون بها لم تعرف عن موسى ولا عن أحد من أتباعه كقولهم في صلاتهم: «اللهم اضرب ببوق عظيم لعتقنا واقبضنا جميعاً من أربعة أقطار الأرض إلى قدسك، سبحانك يا جامع تشتيت قومه إسرائيل».

وقولهم فيها: (اردد حكمنا)[2] كالأولين ومسيرتنا كالابتداء وابن أورشليم قرية قدسك في أيامنا (كما وعدتنا)[3] بينائها، سبحانك يا باني أورشليم. ولم يكن موسى وقومه يقولون في صلاتهم شيئاً من ذلك.

وكذلك تواطؤهم على قولهم في صلاة أول العام ما حكيناه عنهم. وكذلك تواطؤهم

(١) سقطت من الأصل.
(٢) في ب، ج، ص: حكامنا.
(٣) في ب، ج، ص: واعزنا.

على شرع صوم إحراق بيت المقدس، وصوم (حصار)[1] وصـوم كدليـا[2] وفرضـهم ذلـك (صوما)[3]، وصوم صلب هامـان، وقد اعتـرفوا بـأنهم زادوها لأسبـاب اقتضتها، وتـواطأوا بذلك على مخالفة ما نصت عليه التوراة من قوله: (لا تزيدوا على الأمر الذي أنا أوصيكم به شيئاً، ولا تنقصوا منه شيئاً)[4] فتواطأوا على الزيـادة والنقصان وتبـديل أحكـام الله، كما تواطؤوا على (تعطيل)[5] فريضة الرجم على الـزاني، وهو في التـوراة (نصاً)[6]، وكـذلك تواطأوا على امتناع النسخ على الله فيما شرعـه لعباده تمسكـاً منه بـاليهوديـة، وقد كـذبتهم التوراة وسائر النبوات.

ومن العجائب حجرهم على الله أن ينسخ ما شـرعه لئـلا يلزم البداء[7]، ثم يقـولون إنـه ندم وبكى عن الـطوفان، وعـاد في رأيـه ونـدم على خلق الإنسـان، وهـذه مضـارعـة لإخوانهم من عباد الصليب الذين نزهوا رهبانهم عن الصاحبة والولد، ونسبوهما إلى الفـرد الصمد.

ومن ذلك (تواطؤهـم)[8] على الملك يعود إليهم، وترجع الملل كلها إلى ملة اليهـود ويصيرون قاهرين لجميع الملل.

---

(١) في جميـع النسخ، حصـا، والصواب: حصـار لأنه تـذكـار لحصـار بيت المقـدس. انـظر: الملوك الثاني: ٢٥/١.

(٢) جدليا: رجل من يهودا عالي النسب أقامه نبوخذ نصر حاكماً على فلسطين، اغتاله غدراً إسماعيل بن نثنيا من النسل الملكي بمساعدة بعض رجاله (قاموس الكتاب المقدس: ١/٢٥٣).

(٣) ذكر زكي شانوده هذه الأنـواع الثلاثـة من صوم اليهـود فقال: وفي أيـام زكريـا النبـي تقرر أن يصـوم اليهود في الشهر الرابع والخامس والتاسع والعاشر تذكاراً لحصار القدس في الشهر العاشر وسقـوطها في الرابع وخراب الهيكل في الخامس ومقتل جدليا واليهـود الذي كـانوا معـه في السابـع (المجتمع اليهودي، شنودة: ص ٢١٢).

(٤) التثنية: ٤/٢.

(٥) سقطت من الأصل.

(٦) في الأصل: أيضاً.

(٧) بحثت في قسم الدراسة مسألة البداء وكيف أن اليهود رفضوا النسخ كي لا يلزم البداء، وبينت الفرق بينهما.

(٨) سقطت من ج.

ومن ذلك تواطؤهم على تعطيل أحكام التوراة وفرائضها، وتركها في جل أمورهم إلا اليسير من ذلك، وهم معترفون بذلك، وأنه أكثر أسباب زوال ملكهم وعزّهم، فكيف ينكر من طائفة تواطأت على تكذيب المسيح، وجحد نبوته، وبهته وبهت أمه والكذب الصريح على الله وعلى أنبيائه وتعطيل أحكام الله والاستبدال بها وعلى قتلهم أنبياء الله[1]، أن يتواطأوا على تحريف بعض التوراة، وكتمان نعت رسول الله ﷺ وصفته فيها.

وأما أمة الضلال وعباد الصليب والصور المزوقة في الحيطان، وإخوان الخنازير وشاتموا خالقهم ورازقهم أقبح شتم، وجاعلوه مصفعة اليهود، وتواطؤهم على ذلك، وعلى ضروب المستحيلات، وأنواع الأباطيل، فلا إله إلا الله الذي أبرز إلى الوجود مثل هذه الأمة التي هي أضل من الحمير، ومن جميع الأنعام السائمة، وخلّى بينهم وبين سبّه وشتمه وتكذيب عبده ورسوله، (ومعاداة)[2] حزبه وأوليائه، وموالاة الشيطان والتعوض بعبادة الصور والصلبان عن عبادة الرحمن، وعن قول الله أكبر بالتصليب على الوجه، وعن قراءة الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، «اللهم اعطنا خبزنا (كفافنا)[3] الملائم، وعن السجود للواحد القهار السجود للصورة المدهونة في الحائط بالأحمر والأصفر والأزورد[4]، فهذا بعض شأن (هاتين الأمتين اللتين عندهما آثار النبوة والكتاب، فما الظن بسائر)[5] الأمم الذين ليس عندهم من النبوة والكتاب حس ولا خبر ولا عين ولا أثر!

[المسألة الرابعة]

قال السائل:

فإن قلتم: إن عبد الله بن سلام وكعب الأحبار ونحوهما شهدوا لنا بذلك من كتبهم، فهلّا أتى ابن سلام وأصحابه الذين أسلموا بالنسخ التي لهم كي تكون شاهدة علينا؟

والجواب من وجوه:

---

(١) سقطت من الأصل.

(٢) في ج: وتكذيب.

(٣) ليست في ب، ج، ص.

(٤) في ج: الأزرق وفي الأصل: والأزور.

(٥) سقطت من الأصل.

أحـدها: أن شـواهد النبـوة وآيتها لا تنحصـر فيما عنـد أهل الكتـاب من (نعت)[1] النبـي وصفته، وشواهدها متنوعة متعددة جداً، وصفته ونعته في الكتب المتقـدمة فـرد من أفرادها.

وجمهـور أهـل الأرض لم يكن إسـلامهم عن الشـواهـد والأخبـار التي في كتبكم، وأكثرهم لا يعلمونها ولا سمعوها بل أسلموا للشواهد التي عاينوها، والآيات التي شاهدوها وجاءت تلك الشواهد التي عند أهل الكتاب مقوية وعاضدة من باب تقويـة البنية، وقـد تم النصاب بدونها، فهؤلاء العرب من أولهم إلى آخرهم (لم يتوقف إسلامهم)[2] على معرفـة ما عند أهل الكتاب من الشواهد، وإن كـان ذلك قـد بلغ بعضهم وسمعه منهم قبـل النبوة وبعدها، كما كان الأنصار يسمعون من اليهود صفة النبـي ﷺ (وبعثـه)[3] ومخرجـه، فلما عاينوه وأبصـروه عرفـوه بالنعت الـذي أخبرهم بـه اليهود فسبقـوهم إليه، فشـرق أعداء الله بريقهم (وعصوا بمائهم)[4]وقالوا: ليس هو الذي كنا نعدكم به.

والعلم بنبوة محمد والمسيـح وموسى لا يتـوقف على العلم (بأن من قبلهم أخبـرهم وبشّر بنبوتهم، بل طرق العلم)[5] بها متعددة فإذا عرفت نبوة النبـي ﷺ بطريق من الـطرق تثبت نبوته ووجب اتباعه وإن لم (يعلم أن)[6] من قبله بشـر به، وإذا علمت نبـوته بمـا قام عليها من البراهين، فإما أن يكون تبشير من قبله به لازماً لنبوته، وإمـا أن لا يكون لازمـاً، فإن لم يكن لازماً لم يجب وقوعه (ولا)[7] يـوقف تصديق النبـي عليـه، بل يجب تصـديقه بدونه، وإن كان لازماً علم قطعاً أنه قد وقع، وعدم نقله إلينا لا يدل على عـدم وقوعـه، إذ لا يلزم من وجود الشيء نقله العام ولا الخاص، وليس كل ما أخبر به (موسى)[8] والمسيح

---

(١) في الأصل: بعث.

(٢) في الأصل: لم تتوقف.

(٣) في ص: ونعته.

(٤) في نسخة الأصل، ص: وغصّوا بمائهم، وفي ب، ج: وعصوا بماء يمّهم.

(٥) سقطت من ص.

(٦) في ص: يكن.

(٧) سقطت من الأصل.

(٨) ورد سهـواً في جميع النسـخ: تعالى، والصـواب: موسى لأنـه قال: وغيـرهما من الأنبيـاء، وسيـاق الكلام عما جاء به موسى وعيسى.

وغيرهما من الأنبياء المتقدمين وصل إلينا، وهذا مما علم بالاضطراد فلو (قدّر)[1] أن البشارة بنبوته ﷺ ليست في الكتب الموجودة بأيديكم، لم يلزم أن لا يكون (غيره)[2] بشّر به ولم ينفك، ويمكن أن يكون في كتب غير هذه المشهورة المتداولة بينكم، فلم تزل عند كل أمة كتب لا يطلع عليها إلا بعض خاصتهم، فضلاً عن جميع عامتهم، ويمكن أنه كان في بعضها فأزيل منه وبدل ونسخت النسخ من هذه التي (قد بدلت)[3] واشتهرت، بحيث لا يعرف غيرها، واختفى أمر تلك النسخ الأولى، وهذا كله ممكن، لا سيما من الأمة التي تواطأت على تبديل دين نبيها وشريعته، هذا كله على تقدير عدم البشارة به في شيء من كتبهم أصلاً، ونحن قد ذكرنا من البشارات به في كتبهم ما لا يمكن من (يعرفه)[4] منهم جحده والمكابرة فيه، وإن أمكنهم المغالطة بالتأويل عند رعاعهم وجهالهم.

الوجه الثاني: أن عبد الله بن سلام قد قابل اليهود ووافقهم بين يدي رسول الله ﷺ على أن ذكره ونعته وصفته في كتبهم، وأنهم يعلمون أنه رسول الله وقد شهدوا بأنه أعلمهم وابن أعلمهم (وخيرهم وابن خيرهم فلم يضر قولهم بعد ذلك أنه شرهم وابن شرهم وابن جاهلهم)[5]، كما إذا شهد على رجل (شاهد)[6] عند الحاكم فسأله عنه فعدله وقال: إنه مقبول الشهادة عدل رضى لا يشهد إلا بالحق وشهادته جائزة عليّ، فلما أدى الشهادة قال: إنه كاذب شاهد زور، ومعلوم أن هذا لا يقدح في شهادته، وأما كعب الأحبار فقد ملأ الدنيا من الأخبار بما في النبوات المتقدمة من البشارة به، وصرّح بها بين أظهر المسلمين واليهود والنصارى، وأذّن بها على رؤوس الملأ، وصدقه مسلمو أهل الكتاب عليها، وأخبروا على ما أخبر به، فإنه كان أوسعهم علماً في كتب الأنبياء، وقد كان الصحابة يمتحنون ما ينقله ويزنونه بما (يعرفون)[7] صحته، فيعلمون صدقه، وشهدوا

---

(١) في الأصل: قدمه.
(٢) في ب، ج، ص: المسيح وغيره.
(٣) في ب، ج، ص: قد عيرت.
(٤) في ص: له أدنى معرفة وفي ب، ج: له معرفة.
(٥) سقطت من الأصل، وفي ج: وحبرهم بدل خيرهم.
(٦) سقطت من ج.
(٧) في ب، ج، ص: يعرفهم.

له بأنه أصدق (من)[1] يحكون لهم عن أهل الكتاب أو من أصدقهم.

ونحن اليوم ننوب عن عبد الله بن سلام، (وقد وجدنا)[2] هذه البشارات في كتبكم، وهي شاهدة لنا عليكم، والكتب بأيديكم فأتوا بها فاتلوها إن كنتم صادقين.

وعندنا ممن وفقه الله للإسلام منكم من يوافقكم ويقابلكم ويحاققكم عليها، وإلا فاشهدوا على أنفسكم بما شهد الله وملائكته وأنبياؤه ورسله وعباده المؤمنون به عليكم من الكفر والتكذيب والجحد للحق ومعاداة الله ورسوله.

والوجه الثالث: أنه لو أتاكم عبد الله بن سلام بكل نسخة متضمنة لغاية البيان والصراحة لكان في بهتكم وعنادكم وكذبكم ما يدفع في (وجوهها)[3] ويحرفها أنواع التحريف ما وجد إليه سبيلاً، فإذا جاءكم ما لا قبل لكم به قلتم ليس به، ولم يأت بعد، وقلتم: نحن لا نفارق حكم التوراة، ولا نتبع نبي الأميين، وقد صرح أسلافكم الذين شاهدوا رسول الله ﷺ وعاينوه أنه رسول الله حقاً، وأنه (المبشر به)[4] الموعود به على ألسنة الأنبياء المتقدمين، (وثم)[5] من قال له منهم في وجهه: نشهد أنك نبي، فقال: ما يمنعكما من اتباعي؟ قالا: إنا نخاف أن تقتلنا يهود[6]، وقد قال تعالى: ﴿إن الذين حقّت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كلُّ آية حتى يروا العذاب الأليم﴾[7].

وقد جاءكم آيات هي أعظم من بشارات الأنبياء به وأظهر، بحيث إن كل آية منها يصلح أن يؤمن على مثلها البشر، فما زادكم ذلك إلا نفوراً وتكذيباً وإباء لقبول الحق، فلو أنزل إليكم ملائكته (وكلمكم الموتى، وشهد له بالنبوة كل رطب ويابس)[8] لغلبت عليكم الشقوة وصرتم إلى ما سبق لكم في أم الكتاب. وقد رأى من كان أعقل منكم وأبعد من

---

(١) في ب، ج، ص: الذين.
(٢) في الأصل، ج، ص: وقد أوجدناكم.
(٣) في ب، ج: وجهها.
(٤) سقطت من ج.
(٥) في ب، ج، ص: وقال.
(٦) في ج: يغلبنا اليهود.
(٧) سورة يونس: الآيتان ٩٦، ٩٧.
(٨) سقطت من الأصل.

الحسد من آيات الأنبياء ما رأوا، وما زادكم ذلك إلا تكذيباً وعناداً، فأسلافكم وقدوتكم في تكذيب الأنبياء من الأمم لا يحصيهم إلا الله، حتى كأنكم تواصيتم بذلك، أوصى به الأول للآخر واقتدى به الآخر بالأول، قال تعالى: ﴿كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون. أتواصوا به بل هم قوم طاغون﴾[1] وهبنا أنا ضربنا من أخبار الأنبياء المتقدمين به صفحاً أفليس في الآيات والبراهين التي ظهرت على يديه ما يشهد لصحة نبوته؟ وسنذكر منها بعد الفراغ من الأجوبة طرفاً يقطع المعذرة ويقيم الحجة والله المستعان.

***

(١) سورة الذاريات: الآيتان ٥٢، ٥٣.

[المسألة الخامسة]

(فصل): قال السائل:

إنكم نسبتم الأمتين العظيمتين المذكورتين إلى اختيار الكفر على الإيمان للغرض المذكور، فابن سلام وأصحابه أولى بذلك الغرض لأنهم قليلون جداً وأضداده كثيرون لا يحصيهم عدد. والجواب من وجوه:

أحدها: أنه قد بينا أن جمهور هاتين الأمتين المذكورتين آمن به وصدقه وقد كانوا ملء الأرض، وهذه الشام ومصر وما (جاورهما)[1] واتصل بهما من أعمالها والجزيرة والموصل وأعمالها وأكثر بلاد المغرب وكثير من بلاد المشرق، كانوا كلهم نصارى فأصبحت هذه البلاد كلها مسلمين، (والمتخلف)[2] من هاتين الأمتين عن الإيمان أقل القليل، بالإضافة إلى من آمن به وصدقه، وهؤلاء عبّاد الأوثان كلهم أطبقوا على الإسلام إلّا من كان منهم في أطراف الأرض، بحيث لم تصل إليه الدعوة (وهذه أمة المجوس توازي هاتين الأمتين كثرة وشوكة وعدداً)[3] دخلوا في دينه، وبقي من بقي منهم كما بقيتم أنتم تحت الذلة والجزية.

الثاني: أنا قد بينا أن الغرض الحامل لهم على (هذا الأمر)[4] ليس هو مجرد المأكلة والرئاسة وإن (كانا)[5] من جملة الأغراض، بل منهم من حمله على ذلك، ومنهم من حمله الحسد، ومنهم من حمله الكبر، ومنهم من حمله الهوى،(ومنهم من حمله

---

(١) سقطت من الأصل.

(٢) في الأصل، ج: والمتخلف.

(٣) في الأصل: وعدد كثير.

(٤) في ب، ج، ص: الكفر.

(٥) في الأصل: ذلك.

محبة الآباء والأسلاف وحسن الظن بهم)(١)، ومنهم من حمله (محبة)(٢) أُلفِهِ للدين الذي نشأ عليه، فجبن بطبعه، فصار انتقاله عنه كمفارقة الإنسان ما طبع عليه، وأنت ترى هذا السبب كيف هو الغالب المستولي على أكثر بني آدم في إيثارهم ما اعتادوه من المطاعم والمشارب والملابس والمساكن والديانات على ما هو خير منه وأوفق بكثير.

ومنهم من حمله (التقليد والجهل)(٣) (وهم الأتباع الذين ليس لهم علم، ومنهم من حمله الخوف)(٤) من فوات محبوب أو حصول مرهوب، فلم ينسب هاتين الأمتين إلى الغرض المذكور وحده؟

الثالث: أنا قد بينا أن الأمم الذين كانوا (عليهم)(٥) كانوا أكثر عدداً وأغزر عقولاً منهم، وكلهم اختار العمى على الهدى، والكفر على الإيمان بعد البصيرة، فلهاتين الأمتين سلف كثير وهم أكثر الخلق.

الرابع: أن عبد الله بن سلام (ومن دونه)(٦) إنما أسلموا في وقت شدة من الأمر وقلة من المسلمين وضعف وحاجة، وأهل الأرض مطبقون على عداوتهم، و (اليهود)(٧) والمشركون هم أهل الشوكة والعدة والحلقة والسلاح، ورسول الله ﷺ وأصحابه إذ ذاك قد أووا إلى المدينة، وأعداؤهم يطلبونهم في كل وجه، وقد بذلوا الرغائب لمن جاءهم بهم، فخرج رسول الله ﷺ وصاحبه وخادمهم (واستخفوا ثلاثاً)(٨) في الغار تحت الأرض، ثم خرجوا بعد ثلاث على غير الطريق إلى أن قدموا المدينة، والشوكة والعدد والعدة فيها لليهود والمشركين، فأسلم عبد الله بن سلام حين مقدم النبي ﷺ المدينة، لما رأى أعلام النبوة التي يعرفها وشاهدها فيه، وترك الأغراض التي منعت المغضوب عليهم من

---

(١) سقطت من الأصل ومن ص.
(٢) سقطت من ب، ج.
(٣) سقطت من ج.
(٤) سقطت من ج والأصل.
(٥) في ج: قبلهم وفي الأصل: عليه.
(٦) في ب، ج، ص: وذويه.
(٧) في ب، ج: واليهود والنصارى.
(٨) سقطت من ج.

الإسلام، من الرئاسة والمال والجاه بينهم، وقد شهدوا له كلهم عند رسول الله ﷺ أنه رئيسهم وخيرهم وسيدهم، فعلم أنهم إن علموا بإسلامه أخرجوه من تلك الرئاسة والسيادة، فأحب أن يعلم رسول الله ﷺ بذلك فقال: أدخلني بعض بيوتك وسلهم عني ففعل، وسألهم عنه فأخبروه أنه سيدهم ورئيسهم وعالمهم، فخرج عليهم وذكرهم ووقفهم على أنهم يعلمون أنه رسول الله، وقابلهم بذلك فسبّوه وقدحوا فيه وأنكروا رئاسته وسيادته وعلمه[1].

فلو كان عبد الله بن سلام ممن يؤثر عرض الدنيا والرئاسة لفعل كما فعله إخوان القردة وأمة الغضب والقوم البهت. وهكذا شأن من أسلم من يهود خيبر.

وأما (المختلفون)[2] فكثير منهم صرح بغرضه لخاصته وعامته، وقال: إن هؤلاء (القوم قد)[3] عظمونا ورأسونا وملكونا، فلو اتبعناه لنزعوا ذلك كله منا، وهذا قد رأيناه نحن في زماننا وشاهدناه عياناً، ولقد ناظرنا بعض علماء النصارى معظم يوم، فلما تبين له الحق بهت فقلت له ــ وأنا وهو خاليان ــ: ما يمنعك الآن من اتباع الحق؟ فقال لي: (إذا)[4] قدمت على هؤلاء الحمير ــ هكذا لفظه ــ فرشوا (الشقاق)[5] تحت حوافر دابتي، وحكموني في أموالهم ونسائهم، ولم يعصوني فيما آمرهم به، وأنا لا أعرف صنعة، ولا أحفظ قرآناً، ولا نحواً ولا فقهاً فلو أسلمت لدرت في الأسواق أتكفف الناس، فمن الذي يطيب نفساً بهذا؟ فقلت له: هذا لا يكون، وكيف تظن بالله أنك لو (أسلمت)[6] وآثرت رضاه على هواك يحزنك ويذلك ويحوجك، ولو فرضنا أن ذلك أصابك فما ظفرت به من الحق والنجاة من النار ومن سخط الله وغضبه، فيه أتم العوض عما فاتك. فقال: حتى يأذن الله، فقلت: والقدر لا يحتج به، ولو كان القدر حجة لكان حجة لليهود على

---

(١) قصة عبد الله بن سلام هذه مرت.
(٢) في الأصل: المتخلفون.
(٣) سقطت من الأصل.
(٤) في الأصل إذ.
(٥) في الأصل: الشفاق، وقد تكون (الشقاف بالقاء والشقاف: الخزف المكسر، لسان العرب: ٩/١٨٣ أو الشقاق كما في نسخة ج جمع الشقة وهي قطعة من الثياب مستطيلة (انظر: المعجم الوسيط).
(٦) سقطت من ب، ج، ص.

تكذيب المسيح، وحجة للمشركين على تكذيب الرسل، ولا سيما أنتم تكذبون بالقدر، فكيف تحتج به؟ فقال: دعنا الآن من ذلك وأمسك.

الخامس: أن جوابك في نفس سؤالك فإنك (اعترفت)[1] أن عبد الله بن سلام وذويه كانوا قليلين جداً وأضدادهم لا يحصون كثرة، ومعلوم أن الغرض الداعي لموافقة الجمهور الذين لا يحصون كثرة، وهم أولو القوة والشوكة أقوى من الغرض الداعي لموافقة الأقلين المستضعفين والله الموفق.

***

(١) في ب، ج، ص: أعطيت.

[المسألة السادسة]

(فصل): قال السائل:

تدخل علينا الريبة من جهة عبد الله بن سلام وأصحابه، وهو أنكم قد بنيتم أكثر (أساس)[1] شريعتكم في الحلال والحرام والأمر والنهي على أحاديث عوام من الصحابة، الذين ليس لهم بحث في علم ولا دراسة ولا كتابة قبل مبعث نبيكم، فإن سلام وأصحابه أولى أن تأخذ بأحاديثهم ورواياتهم؛ لأنهم كانوا أهل علم وبحث ودراسة وكتابة، قبل مبعث نبيكم وبعده، ولا تراكم تروون عنهم من الحلال والحرام والأمر والنهي إلّا شيئاً يسيراً جداً وهو ضعيف عندكم.

والجواب من وجوه:

أحدها: أن هذا بهت من قائله، فإنا لم نبن أساس شريعتنا في الحلال والحرام والأمر والنهي إلا على كتاب ربنا المجيد، الذي ﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد﴾[2] (الذي أنزله على رسوله محمد ﷺ)[3] الذي تحدى به الأمم كلها ـ على اختلاف علومها وأجناسها وطبائعها وهو غاية الضعف وأعداؤه طبق الأرض ـ أن يعارضوه بمثله فيكونوا أولى بالحق منه، ويظهر كذبه وصدقهم، فعجزوا عن ذلك، فتحداهم (بأن يأتوا بعشر سور مثله فعجزوا)[4] فتحداهم بأن يأتوا بسورة من مثله فعجزوا.

هذا وأعداؤه (الأدنون)[5] منه أفصح الخلق، وهم أهل البلاغة والفصاحة واللسن

---

(١) سقطت من الأصل.
(٢) سورة الشورى: الآية ٤٢.
(٣) سقطت من ج.
(٤) سقطت من ص.
(٥) في ب: الأذلون وفي ج: الاذيون، والصواب: الأدنون بمعنى الأقربون وهم العرب.

والنظم والنثر والخطب وأنواع الكلام، فما منهم من فاه في معارضته ببنت شفة، وكانوا أحرص الناس على تكذيبه وأشدهم أذى له بالقول والفعل والتنفير عنه بكل طريق، فما (تفرد)[1] أحد منهم عنه بسورة واحدة إلا مسيلمة الكذاب[2] بمثل (قوله: يا ضفدع بنت ضفدعين نقي كم تنقين، لا الشارب تمنعين ولا الماء تكدرين)، ومثل «والطاحنات طحناً والعاجنات عجناً، فالخابزات خبزاً، إهالة وسمنا»[3] وأمثال ذلك من هذه الألفاظ التي هي بألفاظ أهل المجون، والمعتوهين أشبه منها بألفاظ العقلاء، فالمسلمون إنما بنوا أساس دينهم[4] ومعالم حلالهم وحرامهم على الكتاب الذي لم ينزل من السماء كتاب أعظم منه، فيه بيان كل شيء، وتفصيل كل شيء، وهدى ورحمة وشفاء لما في الصدور، به هدى الله رسوله وأمته فهو أساس دينهم.

[علم الصحابة وفضلهم]

الثاني: أن قولكم إن المسلمين بنوا أساس دينهم على رواية عوام من الصحابة من أعظم البهت وأفحش الكذب، فإنهم وإن كانوا (أميين)[5] قد بعث الله فيهم رسوله، زكاهم وعلمهم الكتاب والحكمة، وفضلهم في العلم والهدى، والمعارف الإلهية، والعلوم النافعة المكملة للنفوس على جميع الأمم، فلم تبق أمة من الأمم تدانيهم في فضلهم وعلومهم وأعمالهم ومعارفهم، فلو قيس ما عند جميع الأمم من معرفة وعلم وهدى وبصيرة إلى ما عندهم لم يظهر له نسبة إليه بوجه ما، وإن كان غيرهم من الأمم أعلم بالحساب والهندسة والكم المتصل والكم المنفصل، والنبض[6] والقارورة[7] والبول

---

(١) في ج، ص: يقرّ وفي ب: نفر.

(٢) مسيلمة الكذاب، هو مسيلمة بن ثمامة الحنفي الوائلي، متنبيء من المعمرين ولد باليمامة، تنبأ زمن رسول الله ﷺ، وقتل في حروب الردة سنة ١٢هـ (الأعلام، الزركلي: ٧/٢٢٦).

(٣) الإهالة: ما أذبت من الشحم وقيل: الشحم والزيت، وقيل كل دهن أؤتدم به إهالة (لسان العرب) وقد ذكر ابن كثير هذه الأقوال عن مسيلمة، في البداية والنهاية: ٦/٣٢٦.

(٤) سقطت من الأصل.

(٥) في الأصل: أمنين.

(٦) النبض: ضربات الشرايين من انقباضات القلب يستدل على حالة الجسم من صحة ومرض، يقال: جس الطبيب نبضه (المعجم الوسيط).

(٧) القارورة: وعاء.

و (القسطة)[1]، ووزن الأنهار، ونقوش الحيطان، ووضع الآلات العجيبة، وصناعة الكيمياء، وعلم الفلاحة، وعلم الهيئة وتسيير الكواكب، وعلم الموسيقى والألحان، وغير ذلك (من العلوم)[2] التي هي بين علم لا ينفع، وبين ظنون كاذبة، وبين علم نفعه في العاجلة وليس من زاد المعاد، فإن أردتم أن الصحابة كانوا عواماً في هذه العلوم فنعم إذاً وتلك شكاة ظاهر (عنك)[3] عارها.

وإن أردتم أنهم كانوا عواماً في العلم بالله وأسمائه وصفاته، وأفعاله وأحكامه، ودينه وشرعه وتفاصيله، (واليوم الآخر وتفاصيله)[4]، وتفاصيل ما بعد الموت، وعلم سعادة النفوس وشقاوتها، وعلم صلاح القلوب وأمراضها، فمن بهت نبيهم بما بهته به وجحد نبوته ورسالته التي هي للبصائر أظهر من الشمس للأبصار، لم ينكر له أن يبهت أصحابه، ويجحد فضلهم ومعرفتهم، ويُنكر ما خصهم الله به، وميزهم على من قبلهم، ومن هو كائن بعدهم إلى يوم القيامة، (وقد كان الحواريون الذين نقلوا لأتباع المسيح معالم دينه، وسيرة المسيح، لا يعلمون شيئاً من ذلك، حتى مَنّ الله بالمسيح وشاهدوا ما خصّه الله به من الآيات وأظهره على يده من المعجزات، وكمل نفوسهم بالعلوم الإلهية والفضائل النفسانية، فصاروا يفعلون ما نقله الجم الغفير إلينا عنهم من العجائب ويدونون العلوم، كل ذلك ببركته، وكذلك هؤلاء أعني الصحابة رضي الله عنهم)[5]، وكيف يكونون عواماً في ذلك وهم أذكى الناس فطرة وأزكاهم نفوساً، وهم يتلقونه غضاً طرياً ومحضاً لم يشب عن نبيهم، وهم أحرص الناس عليه، وأشوقهم إليه، وخبر السماء يأتيهم على لسانه في ساعات الليل والنهار والحضر والسفر، وكتابهم قد اشتمل على علوم الأولين والآخرين،

---

(١) ب، ج: الفائط وفي ص: القنبطة، والقسطة لم أجد لها معنى، وقد تكون القسطرة وهي أنبوبة من المطاط تدخل في مجرى البول لتفرغ المثانة انظر: المعجم الوسيط، أو تكون القسط وهي مكيال للدواء، كان يستعمله الصيادلة العرب (انظر: الموجز في تاريخ الطب والصيدلة عند العرب، د. محمد كامل حسين: ٣٦٨).

(٢) سقطت من الأصل.

(٣) في الأصل: عنهم.

(٤) سقطت من ص.

(٥) سقطت من ب، ج، ص.

وعلم ما كان من (المبدأ)[١]، وتخليق العالم، وأحوال الأمم الماضية، والأنبياء وسيرهم وأحوالهم مع أممهم ودرجاتهم ومنازلهم عند الله، وعددهم وعدد المرسلين منهم، وذكر كتبهم وأنواع العقوبات التي عذب الله بها أعداءهم، وما أكرم به أتباعهم، وذكر الملائكة وأصنافهم وأنواعهم، وما وكلوا به واستعملوا فيه، وذكر اليوم الآخر وتفاصيل أحواله وذكر الجنة وتفاصيل نعيمها والنار وتفاصيل عذابها، وذكر البرزخ وتفاصيل (أحوال الخلق)[٢] فيه، وذكر أشراط الساعة، والإخبار بها مفصلاً بما لم يتضمنه كتاب غيره من حين قامت الدنيا إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، كما أخبر به المسيح عنه من قوله في الإنجيل وقد بشرهم به فقال: (وكل شيء أعده الله لكم يخبركم به)[٣] وفي موضع آخر منه: ويخبركم بالحوادث والغيوب[٤]، وفي موضع آخر: «ويعلمكم كل شيء»[٥]، وفي موضع آخر: «يحيي لكم الأسرار ويفسر لكم كل شيء وأجيئكم بالأمثال، وهو يجيئكم بالتأويل»[٦] وفي موضع آخر: «إن لي كلاماً كثيراً أريد أن أقوله لكم، ولكنكم لا تستطيعون حمله، لكن إذا جاء روح الحق ذاك يرشدكم إلى جميع الحق، لأنه ليس ينطق من عنده، بل يتكلم بما يسمع، ويخبر بكل ما يأتي ويعرفكم جميع ما للآب»[٧] فمن هذا علمه (بشهادة)[٨] المسيح، وأصحابه (يتلقون)[٩] ذلك جميعه عنه، وهم أذكى الخلق وأحفظهم وأحرصهم، كيف تدانيهم أمة من الأمم في هذه العلوم (والمعارف)[١٠]؟!

ولقد صلى رسول الله ﷺ يوماً صلاة الصبح، ثم صعد المنبر فخطبهم حتى حضرت الظهر، ثم نزل وصلى، وصعد فخطبهم حتى حضرت العصر، ثم نزل فصلى (وصعد)[١١]

---

(١) في ص: المبدأ والمعاد.
(٢) في ج: أحوالهم.
(٣) يوحنا: ١٦/١٣.
(٤) يوحنا: ١٦/١٣.
(٥) يوحنا: ١٦/١٣ (ويرشدكم إلى جميع الحق).
(٦) يوحنا: ١٦/٣٥.
(٧) يوحنا: ١٦/١٢ ــ ١٣.
(٨) في الأصل: بشاهده.
(٩) في الأصل: يتلقنون.
(١٠) سقطت من ج.
(١١) سقطت من ص والأصل.

وخطبهم حتى حضرت المغرب، فلم يدع شيئاً إلى قيام الساعة إلا أخبرهم به (فكان أعلمهم أحفظهم)(١) وخطبهم مرة أخرى(٢) فذكر بدء الخلق حتى دخل أهل الجنة منازلهم وأهل النار منازلهم(٣).

وقال يهودي لسلمان: «لقد علمكم نبيكم كل شيء حتى الخراءة، قال: أجل»(٤) فهذا اليهودي كان أعلم بنبيّنا من هذا السائل وطائفته.

وكيف يدعى في أصحاب نبينا أنهم وهذه العلوم الناقصة المبثوثة في الأمم على كثرتها (واتساعها وتفنن ضروبها)(٥) إنما هي عنهم مأخوذة، ومن كلامهم وفتاويهم مستنبطة. وهذا عبد الله بن عباس كان (من صبيانهم)(٦) وفتيانهم وقد طبق الأرض علماً، وبلغت فتاويه نحواً من ثلاثين سفراً، وكان بحراً (لا ينزف)(٧) لو نزل به أهل الأرض لوسعهم علماً، وكان إذا أخذ في الحلال والحرام والفرائض يقول القائل: لا يحسن سواه (فإذا أخذ في تفسير القرآن ومعانيه يقول السامع: لا يحسن سواه)(٨)، فإذا أخذ في السنة والرواية عن النبي ﷺ يقول القائل: لا يحسن سواه، فإذا أخذ في القصص وأخبار الأمم وسير الماضين فكذلك، فإذا أخذ في أنساب العرب وقبائلها وأصولها وفروعها فكذلك، فإذا (أخذ)(٩) في الشعر والغريب فكذلك.

---

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه في كتاب الفتن: ٢٨٩٢/٦.

(٢) سقطت من الأصل.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب بدء الخلق: ٣١٩٢/١.
وتمام الحديث عنده: (حفظ ذلك من حفظه ونسيه من نسيه).

(٤) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه عن سلمان (الطهارة: ٢٢٦/٥٧) لكن الرواية لا تذكر أن القائل يهودي، بل النص عند مسلم عن سلمان قالا: قيل له، وفي رواية أخرى لمسلم عن سلمان قال: قال لنا المشركون.

(٥) في الأصل: واشتياعها ونفي ضررها.

(٦) في ج: من أولاد الصحابة رضي الله تعالى عنهم.

(٧) في ب، والأصل: ينزف والصواب: لا ينزف لأن النزف هو النزح وأنزف القوم إذا انقطع شرابهم (لسان العرب).

(٨) سقطت من ج.

(٩) سقطت من ج.

قال مجاهد[١]: العلماء أصحاب رسول الله ﷺ، وقال قتادة في قوله تعالى: ﴿ويرى الـذين أوتـوا العلم الـذي أنـزل إليـك من ربـك هـو الحق﴾[٢] قـال: هم أصحـاب محمد ﷺ[٣].

ولما حضر معـاذاً الموت قيـل له أوصنـا، قال: أجلسـوني (فأجلسـوه)[٤] فقال: إن الإيمان والعلم (بمكانهما، من اتبعهما وجدهما التمسوا العلم)[٥] عند أربعة رهط: عند عـويمر أبـي الـدرداء[٦]، وعند سلمـان الفـارسي، وعنـد عبـد الله بن مسعـود[٧]، وعند عبد الله بن سلام، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول إنه عاشر عشرة في الجنة[٨].

قال أبو إسحق السبيعي[٩]: قال عبد الله: علماء الأرض ثلاثة: رجل بالشام، وآخـر بالكوفة وآخر بالمدينة، فأما هذان فيسألان الذي بالمدينة، والذي بالمدينة لا يسألهمـا عن شيء.

---

(١) هو مجاهد بن جبر، أبو الحجاج المكي، مولى بني مخزوم، تابعي مفسر، قـال الذهبـي: هـو شيخ القراء والمفسرين، أخـذ التفسير عن ابن عباس، قرأه عليـه ثلاث مـرات وتنقل في الأسفـار واستقر بالكوفة، توفي سنة ١٠٤هـ (انظر الأعلام، الزركلي: ٢٧٨/٥).

(٢) سورة سبأ: الآية ٦.

(٣) انظر: تفسير الطبري ٤٤/٢٢.

(٤) ليست في ب، ج، ص.

(٥) سقطت من ص والأصل.

(٦) عويمر أبو الدرداء: اختلف في اسمه فقيل عـامر، وعـويمر لقب، واختلف في اسم أبيـه فقيل عـامر أو مالك أو ثعلبة، وأبوه أبـو قيس بن أمية بن عـامر الأنصـاري الخزرجي أسلم يـوم بدر وشهـد أحداً وأبلى فيهـا، قال ابن حبـان: ولاه معاويـة قضاء دمشق في خـلافة عمـر، ومات في خـلافـة عثمـان (الإصابة: ٧٤٨/٤).

(٧) عبد الله بن مسعود بن غافل... بن هذيل بن مخزمة، أبـو عبد الـرحمن الهذلي حليف بني زهـرة، كان إسلامه قديماً في أول الإسلام، وله مناقب كثيـرة، وكان من أعلم الصحـابة بـالقرآن وهـو الذي قتل أبا جهل يوم بدر، مات بالمدينـة سنة ثنتين وثـلاثين، وكان ابن بضـع وستين سنة (الاستيعـاب: ٩٨٧/٣).

(٨) الاستيعاب: ١٢٢٨/٣ وأخرجه الترمذي في المناقب: ٣٨٠٦.

(٩) أبو إسحق السبيعي: هو أبو إسحق عمرو بن عبـد الله السبيعي الهمذاني الكـوفي من أعيان التـابعين ولد لثلاث سنين بقين من خـلافة عثمـان وتوفي سـنة تسع وعشـرين وقيل سبـع وعشرين وقيـل ثمان وعشرين ومائة (وفيات الأعيان ٤٥٩/٣).

وقيل لعلي بن أبي طالب كرم الله تعالى وجهه ورضي الله عنه: حدثنا عن أصحاب رسول الله ﷺ قال: عن أيهم؟ قالوا عن عبد الله بن مسعود، قال: قرأ القرآن، وعلم السنة، ثم انتهى وكفاه ذلك، قالوا: فحدثنا عن حذيفة؟ قال: أعلم أصحاب محمد بالمنافقين، قالوا: فأبو ذر؟ قال: (كنيف)(١) مليء علماً، عجن فيه، قالوا: فعمّار؟ قال: مؤمن نسيء إذا ذكرته ذكر، خلط الله الإيمان بلحمه ودمه، ليس للنار فيه نصيب، قالوا: فأبو موسى؟ قال: صبغ في العلم صبغة. قالوا: فسلمان؟ قال: علم (العلم)(٢) الأول والآخر، بحر لا ينزح، (منا)(٣) أهل البيت، قالوا: فحدثنا عن نفسك يا أمير المؤمنين؟ قال: إياها أردتم، كنت إذا سألت أعطيت وإذا سكت ابتدئت(٤).

وقال مسروق(٥): شافهت(٦) أصحاب محمد ﷺ فوجدت علمهم ينتهي إلى ستة، إلى: عليّ وعبد الله وعمر وزيد بن ثابت وأبي الدرداء وأبيّ بن كعب، ثم شافهت الستّة، فوجدت علمهم ينتهي إلى عليّ وعبد الله(٧).

وقال مسروق: جالست أصحاب رسول الله ﷺ وكانوا كالأخاذ(٨)، والأخاذ يروي الراكب والأخاذ يروي الراكبين والأخاذ (يروي)(٩) العشرة لو نزل به أهل الأرض

---

(١) في ج: كيف وفي ب: كنف. والكنيف: تصغير تعظيم للكنف وهو الوعاء (انظر: النهاية في غريب الحديث: ٤/٢٠٥).

(٢) سقطت من ج.

(٣) في الأصل: عنا.

(٤) لم أجده.

(٥) مسروق: تابعي ثقة من أهل اليمن قدم المدينة أيام أبي بكر وسكن الكوفة وشهد حروب علي، وكان أعلم بالفتيا من شريح، وشريح أبصر منه بالقضاء توفي رحمه الله سنة ٦٣هـ (الأعلام للزركلي: ٧/٢١٥).

(٦) في ص: شاممت، وهي هكذا في صفة الصفوة وشاممت من الشمم وهو الدنو والقرب، شاممت الرجل إذا قاربته ودنوت منه، ويقال: شامم فلاناً أي انظر ما عنده (انظر: لسان العرب).

(٧) ذكره ابن الجوزي في صفة الصفوة: ١/٤٠٣.

(٨) الأخاذ: جمع إخاذة وهي شيء كالغدير (مختار الصحاح: ص ٩) وقال ابن الأثير: الأخاذ هو مجتمع الماء وجمعه أخذ ككتاب وكتب، وقيل هو جمع الإخاذة وهو مصنع للماء يجتمع فيه (انظر النهاية: ١/١٢٨).

(٩) سقطت من ج.

لأصدرهم، وإن عبد الله من ذلك الأخاذ(1).

وفي الصحيح عن النبي ﷺ قال: (بينا أنا نائم أتيت بقدح لبن فشربت منه، حتى أرى الري يخرج من أظفاري، ثم (أعطيت) فضلي عمر، فقالوا: ما أوّلت ذلك يا رسول الله، قال: العلم)(2).

وقال عبد الله(3): (إني لأحسب عمر)(4) قد ذهب بتسعة أعشار العلم(5)، وقال عبد الله(6): (لو أن)(7) علم عمر بن الخطاب وضع.

وقال حذيفة بن اليمان(8): كأن علم الناس مع علم عمر دسّ(9) في جحر(10)، وقال الشعبي: قضاة هذه (الأمة)(11) أربعة: عمر وعلي وزيد وأبو موسى. وقال قبيصة بن جابر(12): ما رأيت رجلاً قط أعلم بالله ولا أقرأ لكتاب الله ولا أفقه في دين الله من عمر(13).

---

(1) ذكره ابن الجوزي في صفة الصفوة: 1/403.

(2) متفق عليه واللفظ لمسلم: أخرجه البخاري في كتاب فضائل الصحابة 3681/6، وأخرجه مسلم في كتاب فضائل الصحابة 16/2.

(3) عبد الله المعني هنا هو عبد الله بن مسعود كما ذكر ابن الجوزي في مناقب عمر: ص 247.

(4) في ص: لو أن علم عمر بن الخطاب.

(5) انظر: مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (ابن الجوزي: ص 247).

(6) هو كذلك عبد الله بن مسعود (المناقب، ابن الجوزي: ص 247).

(7) في ص: إني لأحسب عمر لو أن.

(8) حذيفة بن اليمان: وهو حذيفة بن صل ويقال: صبل وسمي باليمان لأنه حالف الأنصار، هاجر إلى النبي ﷺ، فخيره بين الهجرة والنصرة فاختار النصرة، شهد حذيفة مع النبي ﷺ أحداً وقتل أبوه فيها (أسد الغابة: 1/390).

(9) الدس: دسّك شيئاً تحت شيء وهو الإخفاء، ومنه قوله تعالى: ﴿أم يدسّه في التراب﴾ (لسان العرب: 82/6).

(10) ذكره السيوطي بلفظ «كأن علم الناس كان مدسوساً في حجر عمر» (انظر: تاريخ الخلفاء، السيوطي: 120).

(11) سقطت من ج، والأصل.

(12) قبيصة بن جابر الأسدي، روى عنه العديد من الرواة، يعد من فقهاء أهل الكوفة بعد الصحابة، ذكره ابن حبان في الثقات، وهو أخو معاوية في الرضاعة مات سنة 69هـ (انظر تهذيب التهذيب: 344/1 الطبعة الأولى).

(13) ذكره ابن الجوزي في مناقب عمر: ص 251.

وقال علي: بعثني رسول الله ﷺ إلى اليمن وأنا حديث السن ليس لي علم بالقضاء، فقلت: إنك ترسلني إلى قوم يكون فيهم الأحداث وليس لي علم بالقضاء[1]، قال: فضرب في صدري وقال: إن الله (سيهدي)[2] قلبك ويثبت لسانك، قال: (فما)[3] شككت في قضاء بين اثنين بعد[4].

وفي الصحيح عن عبد الله بن مسعود قال: كنت أرعى غنماً لعقبة بن أبي معيط، فمرّ بي رسول الله ﷺ وأبو بكر فقال لي: يا غلام هل من لبن؟ قلت: نعم، ولكني مؤتمن، قال: فهل من شاة لم ينز عليها الفحل؟ قال: فأتيته بشاة فمسح ضرعها، فنزل لبن، فحلبه في إناء، فشرب وسقى أبا بكر ثم قال للضرع: اقلص فقلص قال: فأتيته بعد هذا، فقلت: يا رسول الله، علمني من هذا القول، فمسح رأسي وقال: يرحمك الله إنك (عليم)[5] معلم[6].

وقال (عقبة بن عامر)[7]: ما أرى أحداً أعلم بما أنزل على محمد ﷺ من عبد الله[8]، فقال موسى: إن تقل ذاك فإنه كان يسمع حين لا نسمع، ويدخل حين لا ندخل.

وقال مسروق: قال عبد الله: ما أنزلت سورة إلّا وأنا أعلم فيما أنزلت، ولو أني أعلم

---

(١) سقطت من الأصل.

(٢) في ص: سيهديك ويهدي.

(٣) سقطت من الأصل ج.

(٤) أخرجه أبو داود في كتاب الأقضية: ص ٦، وابن ماجه في كتاب الأحكام: ص ١، وذكره ابن عبد البر في الاستيعاب ٣/ ١١٠٠.

(٥) في ب، ج: غلام وفي ص: غليم.

(٦) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ١/ ٣٧٩ ــ ٤٦٢ كما ذكره ابن عبد البر في الاستيعاب: ٣/ ٩٨٨.

(٧) في ب، ص، ج: عقبة بن عمر، وفي ج: عتبة بن عمر، والصواب عقبة. وهو عقبة بن عامر بن عبسي بن عمرو الجهني، صحابي كانت له السابقة والهجرة ولاّه معاوية مصر سنة ٤٤هـ، وتوفي في آخر خلافة معاوية. (تهذيب التهذيب: ٧/ ٢٤٢).

(٨) يعني عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

أن رجلاً أعلم بكتاب الله مني تبلغه الإبل والمطايا لأتيته[1]، وقال عبد الله بن بريدة[2] في قوله عز وجل: ﴿حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم ماذا قال آنفاً﴾[3] قال: (هو)[4] عبد الله بن مسعود[5].

وقيل لمسروق: (كانت عائشة تحسن الفرائض قال: والله لقد رأيت الأكابر من أصحاب رسول الله ﷺ يسألونها عن الفرائض)[6].

وقال أبو موسى: ما أشكل علينا أصحاب محمد ﷺ حديث قط فسألنا عائشة، إلاّ وجدنا عندها منه علماً.

وقال شهر بن حوشب[7]: كان أصحاب محمد ﷺ إذا تحدثوا وفيهم معاذ بن جبل نظروا إليه هيبة له[8].

وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: أبو ذر وعى علماً ثم (وكى)[9] عليه فلم يخرج منه شيء حتى قبض[10].

وقال مسروق: قدمت المدينة فوجدت زيد بن ثابت من الراسخين في العلم[11]،

---

(1) انظر: صفة الصفوة، لابن الجوزي: ١/٤٠٢.
(2) عبد الله بن بريدة بن أبي حبيب الأسلمي المروزي، قاضي مرو، توفي سنة ١١٥هـ وعمره مائة سنة (انظر: تهذيب التهذيب: ٥/١٥٧.
(3) سورة محمد: الآية ١٦.
(4) سقطت من الأصل.
(5) انظر: الدرّ المنثور: السيوطي: ٦/٥٠.
(6) أخرجه الحاكم في المستدرك: ٤/١١.
(7) شهر بن حوشب: فقيه قارىء من رجال الحديث، شامي الأصل، سكن العراق وولي بيت المال مدة، وهو متروك الحديث (الأعلام، الزركلي: ٣/١٧٨).
(8) انظر: صفة الصفوة: ١/٤٩٥.
(9) وكى: (والصحيح أوكى) أوكى على ما في سقائه شده بالوكاء وهو ما يشد رأس القربة وفي الحديث: إنه كان يوكي بين الصفا والمروة، قيل: معناه أنه يسكت فلا يتكلم كأنه يوكي فمه، وهو من قولهم: (أوك حلقك) أي اسكت (مختار الصحاح: ص ٧٣٥).
(10) الطبقات، ابن سعد: ٢/٣٥٤ (دار صادر).
(11) الاستيعاب: ٢/٥٣٩.

ولما بلغ أبا الدرداء موت عبد الله بن مسعود قال: أما إنه لم يخلق بعده مثله[١].

وقال أبو الدرداء: إن من الناس من أوتي علماً، ولم يؤت حلماً، وشدادِ بن أوس[٢] ممن أوتي علماً وحلماً[٣].

ولما مات زيد بن ثابت قام ابن عباس على قبره وقال: (هكذا يذهب العلم)[٤]، وضم رسول الله ﷺ عبد الله بن عباس وقال: (اللهم علمه الحكمة وتأويل الكتاب)[٥]، وقال محمد بن الحنفية[٦] لمَّا مات ابن عباس: لقد مات ربانيّ هذه الأمة[٧].

وقال (عبد الله بن عتبة)[٨] بن مسعود[٩]: ما رأيت أحداً أعلم بالسنة ولا أجلد رأياً ولا أثقب نظراً حين ينظر من ابن عباس[١٠].

---

(١) لم أجده.

(٢) شداد بن أوس بن ثابت الخزرجي الأنصاري، أبو يعلى، صحابي من الأمراء ولّاه عمر إمارة حمص، ولما قتل عثمان اعتزل وعكف على العبادة: توفي في القدس سنة ٧٥هـ (الأعلام، الزركلي: ٣/١٥٨).

(٣) صفة الصفوة: ١/٧٠٩.

(٤) المرجع السابق: ١/٧٠٧.

(٥) أخرجه البخاري في فضائل الصحابة: ٢٤/٣٧٥٦ بلفظ: اللهم علمه الحكمة، اللهم علمه الكتاب.

(٦) محمد بن الحنفية: هو محمد بن علي بن أبي طالب المعروف بابن الحنفية، أحد الأبطال الأشداء في صدر الإسلام وهو أخو الحسن والحسين غير أن أمهما فاطمة وأمه خولة الحنفية، ينسب إليها تمييزاً له عنهما، وكان المختار الثقفي يدعو إلى إمامته ويزعم أنه المهدي ومات بالطائف سنة ٨١هـ. (الأعلام: ٦/٢٧٠).

(٧) الاستيعاب: ٣/٩٣٤.

(٨) في ب، ج: عبد الله بن عبد الله بن عتبة.

(٩) عبد الله بن عتبة بن مسعود الهذلي وهو حجازي ويرد نسبه عند ذكر عمه عبد الله بن مسعود، أدرك النبي ﷺ ورآه واستعمله عمر بن الخطاب رضي الله عنه على السوق كان ثقة رفيعاً كثير الحديث والفتيا فقيهاً. وذكره ابن حبان في الثقات وقال: كان يؤم الناس بالكوفة مات في ولاية بشر بن مروان سنة أربع وسبعين. (انظر: أسد الغابة: ٣/٢٠٢ ــ ٢٠٣؛ وتهذيب التهذيب: ٥/٣١١.

(١٠) الاستيعاب: ٣/٩٣٦.

وكان عمر بن الخطاب يقول: قد طرأت علينا عضل أقضيته أنت لها ولأمثالها[1]، ثم يقول (عبد الله)[2] وعمر عمر في جده وحسن نظره للمسلمين[3].

وقال عطاء بن أبي رباح[4]: ما رأيت مجلساً قط أكرم من مجلس ابن عباس أكثر فقهاً، وأعظم جفنة[5]، إن أصحاب الفقه عنده وأصحاب القرآن عنده وأصحاب الشعر عنده، يصدرهم كلهم في واد واسع[6].

وكان عمر بن الخطاب يسأله مع الأكابر من أصحاب رسول الله ﷺ، ودعا له رسول الله ﷺ[7] أن يزيده الله علماً وفقهاً[8].

وقال عبد الله بن مسعود: لو أن ابن عباس (بلغ)[9] أسناننا ما عشّره منا رجل[10]، أي ما بلغ عشره.

وقال ابن عباس: ما سألني أحد عن مسألة إلا عرفت أنه فقيه أو غير فقيه. وقيل له: أنّى أصبت هذا العلم؟ قال: بلسان سؤول وقلب عقول[11]، وكان يسمى البحر من كثرة علمه[12].

---

(١) انظر: أسد الغابة: ٣/٢٩٠.

(٢) في ب، ج: عبيد الله.

(٣) انظر: أسد الغابة: ٣/٢٩٠.

(٤) عطاء بن أبي رباح: هو عطاء بن أسلم بن صفوان، تابعي سمع من أجلّاء الصحابة، كان عبداً أسود ولد في جند باليمن ونشأ بمكة وكان مفتي أهلها ومحدثهم، وتوفي فيها سنة ١١٤هـ (الأعلام، الزركلي: ٤/٢٣٥).

(٥) جفنة: الجفنة كالقصعة وجمعها جفان، مختار الصحاح: ص ١٠٦.

(٦) انظر: فضائل الصحابة، أحمد بن حنبل: ٢/٩٧٨.

(٧) سقطت من الأصل.

(٨) الاستيعاب: ٣/٩٣٥.

(٩) في ب، ج: أدرك.

(١٠) الاستيعاب: ٣/٩٣٥، وانظر: فضائل الصحابة: ٢/٩٥٠.

(١١) انظر: فضائل الصحابة: ٢/٩٦١.

(١٢) المرجع السابق: ٢/٩٧٧.

وقال طاوس[1]: أدركت نحو خمسين من أصحاب رسول الله ﷺ إذا ذكر لهم ابن عباس شيئاً خالفوه لم يزل بهم حتى يقررهم[2].

وقال الأعمش[3]: كان ابن عباس إذا رأيته قلت: أجمل الناس، فإذا تكلم قلت: أفصح الناس، فإذا حدث قلت: أعلم الناس[4].

وقال مجاهد: (كان ابن عباس إذا)[5] فسر الشيء رأيت عليه النور. وقال ابن سيرين[6]: كانوا يرون أن الرجل الواحد يعلم من العلم ما لا يعلمه الناس أجمعون.

قال ابن عون[7]: فكأنه رآني أنكرت ذلك، قال: فقال: أليس أبو بكر كان يعلم (من العلم)[8] ما لا يعلمه الناس (ثم كان عمر يعلم ما لا يعلمه الناس)[9].

وقال عبد الله بن مسعود: لو وضع علم أحياء العرب في كفة (وعلم عمر في كفة)[10]

---

(١) طاوس: هو طاوس بن كيسان اليماني، أبو عبد الرحمن الحميري يقال: اسمه ذكوان وطاوس لقب، ثقة فقيه فاضل، مات سنة ١٠٦ وقيل بعد ذلك (تقريب التهذيب: ١/٣٧٧).

(٢) ذكره ابن كثير في البداية والنهاية بلفظ: إني رأيت سبعين... (البداية والنهاية: ٨/٣٠١).

(٣) الأعمش: هو أبو محمد سليمان بن مهران الأسدي الكاهلي مولاهم، الكوفي أصله من بلاد الري، رأى أنس بن مالك وحفظ عنه، قال ابن المديني له نحو من ألف وثلاثمائة حديث توفي سنة ١٤٨هـ وله سبع وثمانون سنة (تذكرة الحفاظ الذهبي: ١/١٥٤).

(٤) ذكر الرواية ابن عبد البر في الاستيعاب: ٣/٩٣٥، عن الأعمش عن مسروق.

(٥) سقطت من الأصل.

(٦) ابن سيرين: هو محمد بن سيرين البصري، الأنصاري بالولاء إمام وفقيه في علوم الدين بالبصرة تابعي من أشراف الكتاب، مولده ووفاته بالبصرة، اشتهر بالورع وتعبير الرؤيا واستكتبه مالك بن أنس بفارس (الأعلام: ٦/١٥٤).

(٧) ابن عون: هو عبد الله بن عون بن أرطبان المزني مولاهم أبو عون الخزار البصري رأى أنس بن مالك وروى عن كبار التابعين، قال ابن المديني: جمع لابن عون من الإسناد ما لم يجمع لأحد من الصحابة، ومات ابن عون سنة ١٥١هـ، (تهذيب التهذيب: ٥/٣٤٨).

(٨) سقطت من ج.

(٩) سقطت من ص والأصل.

(١٠) سقطت من الأصل.

لرجح بهم علم عمر[1].

قال الأعمش: فذكرت ذلك لإبراهيم[2]: فقال: قال: عبد الله؟ إنا كنا لنحسبه قد ذهب بتسعة أعشار العلم[3].

وقال سعيد بن المسيب[4]: ما أعلم أحداً من الناس بعد رسول الله ﷺ أعلم من عمر بن الخطاب[5].

وقال الشعبي[6]: قضاة الناس أربعة: عمر (وعلي)[7] وزيد بن ثابت وأبو موسى الأشعري[8]، وكانت عائشة رضي الله عنها مقدمة بالفرائض والسنن والأحكام والحلال والحرام والتفسير.

قال عروة بن الزبير: ما جالست أحداً أعلم بقضاء، ولا بحديث الجاهلية، ولا أروى للشعر، ولا أعلم بفريضة، ولا طب، من عائشة رضي الله عنها[9].

وقال عطاء: كانت عائشة أعلم الناس، وأفقه الناس[10].

وقال البخاري في تاريخه: روى العلم عن أبي هريرة ثمانمئة رجل ما بين صاحب

---

(١) الاستيعاب: ٣/١١٤٩، وذكره ابن الجوزي في مناقب عمر بلفظ (لو وضع علم الأرض) انظر: مناقب عمر بن الخطاب، لابن الجوزي: ص ٢٤٧.

(٢) وهو إبراهيم النخعي، توفي سنة ٩٦هـ، وهو ابن تسع وأربعين، طبقات ابن سعد: ٦/٧٠.

(٣) انظر: مناقب عمر، ابن الجوزي: ص ٢٤٧.

(٤) سعيد بن المسيب: هو أبو محمد المخزومي أجل التابعين ولد لسنتين مضتا من خلافة عمر وسمع من عمر شيئاً، وسمع من عثمان وزيد وعائشة وأبي هريرة، كان واسع العلم متين الديانة قوّالاً بالحق فقيه النفس توفي سنة ٩٤هـ. (تذكرة الحفاظ: ١/٥٤).

(٥) لم أجده.

(٦) الشعبي: وهو عامر بن شراحيل بن عبد ذي كبار الشعبي الحميري، راوية من رواة التابعين يضرب به المثل بحفظه ولد ونشأ ومات فجأة في الكوفة، وهو من رجال الحديث الثقات، استقضاه عمر بن عبد العزيز وكان فقيهاً شاعراً. الأعلام: ٣/٢٥١.

(٧) في الأصل: علي عليه السلام.

(٨) سبق ذكره وهو هنا مكرر.

(٩) أخرجه الحاكم في المستدرك: ٤/١١.

(١٠) المرجع السابق: ٤/١٤.

وتابع[1]، وقال عبد الله بن مسعود: إن الله تعالى نظر في قلوب العباد فوجد قلب محمد خير قلوب العباد، فاصطفاه وبعثه لرسالته، ثم نظر في قلوب العباد (بعد)[2] قلب محمد (فوجد)[3] قلوب أصحابه (خير قلوب العباد)[4]، فجعلوا (وزراء نبيه)[5][6].

وقال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى﴾[7] قال: هم أصحاب محمد ﷺ[8].

وقال الشافعي: وقد أثنى الله تعالى على الصحابة في التوراة والإنجيل والقرآن، وسبق لهم على لسان نبيهم ﷺ من الفضل ما ليس لأحد بعدهم[9].

وقال أبو حنيفة رضي الله عنه: إذا جاء عن النبي ﷺ فعلى الرأس والعين، وإذا جاء عن الصحابة يختار من قولهم ولم يخرج عنه[10].

وقال (ابن القاسم)[11] سمعت مالكاً يقول: (لما دخل أصحاب رسول الله ﷺ الشام، نظر إليهم رجل من أهل الكتاب فقال: ما كان أصحاب عيسى ابن مريم الذين قطعوا بالمناشير وصلبوا على الخشب بأشد اجتهاداً من هؤلاء)[12].

---

(١) تاريخ البخاري: ٦٢/٣.
(٢) في ص: فاصطفى من بعد.
(٣) سقطت من الأصل.
(٤) سقطت من الأصل.
(٥) في ص: وزراءه.
(٦) الاستيعاب: ١٣/١.
(٧) سورة النمل: الآية ٥٩.
(٨) انظر الاستيعاب: ١٣/١.
(٩) انظر: مناقب الشافعي، للبيهقي: ص ٤٤٢.
(١٠) انظر: أبو حنيفة، أبو زهرة: ص ٣٥٥.
(١١) في الأصل: ابن القسم، والصواب: ابن القاسم وهو أبو عبد الله عبد الرحمن بن القاسم العتقي بالولاء، الفقيه المالكي جمع بين الزهد والورع، وصحب مالكاً عشرين سنة، وهو صاحب المدونة وعنه أخذها سحنون، ولد سنة ١٣٢هـ وتوفي سنة ١٩١هـ (وفيات الأعيان: ١٢٩/٣).
(١٢) ذكر الرواية ابن عبد البر في الاستيعاب: ١١/١.

وقد شهد لهم الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى بأنهم خير القرون على الإطلاق[1].

كما شهد لهم ربهم تبارك وتعالى بأنهم خير الأمم على الإطلاق[2]. وعلماؤهم وتلاميذهم الذين ملأوا الأرض علماً، فعلماء الإسلام كلهم تلاميذهم وتلاميذ تلاميذهم وهلُمَّ جرّاً.

وهؤلاء الأئمة الأربعة الذين طبق علمهم الأرض شرقاً وغرباً، تلاميذ تلاميذهم وخيار ما عندهم ما كان من الصحابة، وخيار الفقه ما كان منهم، وأوضح التفسير ما أخذ عنهم.

وأما كلامهم في باب معرفة الله وأسمائه وصفاته وأفعاله، وقضائه وقدره ففي أعلى المراتب، فمن وقف عليه وعرف ما قالته الأنبياء (عرف)[3] أنه مشتق منه مترجم عنه، وكل علم نافع في الأمة فهو مستنبط من كلامهم ومأخوذ عنهم، وهؤلاء تلاميذهم وتلاميذ تلاميذهم قد طبقت تصانيفهم وفتاويهم الأرض، فهذا مالك جمعت فتاويه عدة أسفار، وأبو حنيفة كذلك، وهذه تصانيف الشافعي رضي الله عنه تقارب المائة، وهذا الإمام أحمد بلغت فتاويه وتآليفه نحو مائة سفر. وفتاويه عندنا في نحو عشرين سفراً، وغالب تصانيفه عن رسول الله ﷺ وعن الصحابة والتابعين، وهذا علّامتهم المتأخر شيخ الإسلام ابن تيمية جمع بعض أصحابه فتاواه في ثلاثين مجلداً ورأيتها في الديار المصرية[4]، وهذه تآليف أئمة الإسلام التي لا يحصيها إلا الله، وكلهم من أولهم إلى آخرهم يقر للصحابة بالعلم والفضل، ويعترف بأن علمه بالنسبة إلى علومهم كعلومهم بالنسبة إلى علم نبيهم.

---

(١) وذلك في الحديث الصحيح: «خير القرون قرني...» أخرجه البخاري في باب فضائل الصحابة رقم: ٣٦٥٠.

(٢) وذلك في قوله تعالى: ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس﴾ [آل عمران: ١١٠].

(٣) سقطت من ص.

(٤) من المعروف أن ابن تيمية رحمه الله أقام بمصر من ٧٠٥هـ ــ ٧١٢هـ حيث رجع إلى دمشق، ويبدو أن تلامذته قد جمعوا فتاويه في هذه المجلدات التي اطلع عليها ابن القيم في رحلته العلمية إلى مصر بعد وفاة ابن تيمية.

وفي الثقفيات(١) حدثنا قتيبة بن (سعيد)(٢) عن سعيد بن عبد الرحمن المعافري(٣) عن أبيه أن كعباً رأى حبر اليهود يبكي، فقال: ما يبكيك؟ فقال: ذكرت بعض (الأمر)(٤)، فقال كعب: أنشدك الله لئن أخبرتك ما أبكاك لتصدقني؟ قال: نعم، قال: أنشدك الله هل تجد في كتاب الله المنزل أن موسى نظر في التوراة فقال: ربِّ إني أجد خير أمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويؤمنون بالكتاب الأول والكتاب الآخر، ويقاتلون أهل الضلالة حتى يقاتلوا أعور الدجال، فاجعلهم أمتي، قال: هم أمة أحمد يا موسى.

قال الحبر: نعم، قال كعب: فأنشدك الله هل تجد في كتاب الله المنزل أن موسى نظر في التوراة فقال: يا رب إني أجد أمة هم الحمادون رعاة الشمس المحكمون إذا أرادوا أمراً قالوا: نفعله إن شاء الله فاجعلهم أمتي، قال: هم أمة (أحمد)(٥) يا موسى، قال الحبر: نعم. قال كعب: أنشدك الله أتجد في كتاب الله المنزل أن موسى نظر في التوراة فقال: يا رب إني أجد أمة إذا أشرف أحدهم على شرف كبر الله، وإذا هبط حمد الله، الصعيد طهورهم والأرض لهم مسجداً حيثما كانوا يتطهرون من الجنابة طهورهم بالصعيد كطهورهم بالماء حيث لا يجدون الماء، غرّاً محجلين من آثار الوضوء، فاجعلهم من أمتي قال: هم أمة أحمد يا موسى، قال الحبر: نعم، قال كعب: فأنشدك الله هل تجد في (كتاب الله)(٦) أن موسى نظر في التوراة؟ فقال: يا رب إني أجد أمة مرحومة

---

(١) الثقفيات، لم أجد كتاباً بهذا الاسم، وقد يكون هو كتاب أخبار ثقيف للحارث بن أبي أسامة المدائني. (انظر: الفهرست، لابن النديم: ص ١١٦، طبعة طهران).

(٢) قتيبة بن سعيد، وفي الأصل: سعد.
وهو قتيبة بن سعيد بن جميل بن... الثقفي، روى عن مالك والليث وابن لهيعة وغيرهم ذكره الإمام أحمد بخبر، قال ابن معين وأبو حاتم: ثقة، وقال النسائي: ثقة صدوق (تهذيب التهذيب: ٣٥٨/٨).

(٣) سعيد بن عبد الرحمن، أبو صالح المعافري روى عن علي وجبلة بن الحارث الغفاري وله صحبة، وعقبة بن عامر الجهني وكعب الأحبار، ذكره ابن حبان في الثقات قال العجلي: مصري تابعي ثقة (تهذيب التهذيب: ٤/٥٩).

(٤) في ج: الأمور.

(٥) في الأصل: محمد.

(٦) في ب: كتاب الله المنزل.

ضعفاء يرثون الكتاب واصطفيتهم لنفسك فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد، ومنهم سابق بالخيرات، فلا أجد أحداً منهم إلا مرحوماً فاجعلهم أمتي، قال: هم أمة أحمد يا موسى، قال الحبر: نعم، قال كعب: فأنشدك الله، أتجد في كتاب الله أن موسى نظر في التوراة فقال: يا رب إني أجد مصاحفهم في صدورهم، يصفون في صلاتهم كصفوف الملائكة، أصواتهم في مساجدهم كدوي النحل، لا يدخل النار منهم أحد إلّا من بريء من الحسنات، مثل ما بريء الحجر من ورق الشجر، قال موسى: فاجعلهم أمتي قال: هم أمة أحمد يا موسى. قال الحبر: نعم، فلما عجب موسى من الخير الذي أعطى الله محمداً وأمته، قال: ليتني من أصحاب محمد فأوحى الله إليه ثلاث آيات يرضيه بهن، ﴿يا موسى إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي﴾[1] ﴿وكتبنا له في الألواح...﴾[2] الآية.

﴿ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون﴾[3].

قال: (فرضي)[4] كل الرضى[5].

وهذه الفصول بعضها في هذه التوراة التي بأيديهم، وبعضها في نبوة أشعيا، وبعضها في نبوة غيره، (والتوراة)[6] أعم من التوراة المعينة، وقد كان الله سبحانه وتعالى كتب لموسى في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلاً لكل شيء، فلما كسرها[7] رفع

---

(١) سورة الأعراف: الآية ١٤٤.

(٢) سورة الأعراف: الآية ١٤٥.

(٣) سورة الأعراف: الآية ١٥٩.

(٤) في ب، ج، ص: فرضي موسى.

(٥) هذه القصة ذكرها ابن الجوزي في كتابه «الوفا بأحوال المصطفى» تصحيح وتعليق: محمد زهري النجار: ١/٧٨ ـ ٨٠.

(٦) في ب، ج،: والتوراة الأولى.

(٧) ورد في سفر الخروج، أن موسى عليه السلام لما أخذ الألواح التي كتبت عليها التوراة ورجع إلى قومه فوجدهم يعبدون من العجل، فغضب وطرح هذه الألواح فكسرها. (انظر: سفر الخروج: ١٩/٣٢).

وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك دون أن يذكر كسر هذه الألواح، وذلك في قوله تعالى: ﴿ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً، قال بئسما خلفتموني من بعدي، أعجلتم أمر ربكم وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره إليه﴾ [الأعراف: ١٥٠].

منها الكثير وبقي خير كثير، فلا يقدح في هذا النقل جهل أكبر أهل الكتاب به، فلا زال في العلم الموروث عن الأنبياء شيء مما لا يعرفه إلّا الآحاد من الناس أو الواحد، وهذه الأمة على قرب عهدها بنبيها في العلم الموروث عنه ما لا يعرفه إلا الأفراد القليلون جداً من أمته، وسائر الناس منكر له وجاهل به.

وسمع كعب رجلاً يقول: رأيت في المنام كأن الناس جمعوا للحساب فدعا الأنبياء فجاء مع كل نبي أمته، ورأيت لكل نبي نورين، ولكل من اتبعه نوراً يمشي (به في الناس)[1] بين يديه، فدعي محمد ﷺ، فإذا لكل شعرة في رأسه ووجهه نور، ولكل من اتبعه نوران يمشي بهما.

قال كعب: من حدثك هذا؟ قال: رؤيا رأيتها في منامي، قال: أنت رأيت هذا في منامك، قال نعم، قال: والذي نفس كعب بيده إنها لصفة محمد وأمته وصفة الأنبياء وأممهم، لكأنما قرأتها من كتاب الله تعالى[2].

وفي بعض الكتب القديمة أن عيسى ابن مريم صلوات الله وسلامه عليهما، قيل له: يا روح الله، هل بعد هذه الأمة أمة؟ قال: نعم قيل: وأي أمة؟ قال: أمة أحمد. قيل: يا روح الله، وما أمة أحمد؟ قال: علماء (حكماء)[3] أبرار أتقياء كأنهم من الفقه أنبياء، يرضون من الله باليسير من الرزق، ويرضى الله منهم باليسير من العمل، ويدخلهم الجنة بشهادة أن لا إله إلا الله.

وقال كعب: علماء هذه الأمة كأنبياء بني إسرائيل.

وفيه حديث مرفوع (لا أعرف)[4] حاله[5].

(ثم نقول: وما يدريكم يا معاشر المثلثة وعباد الصلبان وأمة اللعنة والغضب، بالفقه

---

(١) سقطت من ب، ج، ص.

(٢) انظر طبقات ابن سعد: ١/٣٤٧. (طبعة لجنة نشر الثقافة الإسلامية القاهرة سنة ١٣٥٨هـ وانظر: الوفا بأحوال المصطفى، ابن الجوزي: ١/٨٠).

(٣) في الأصل: حلماء.

(٤) في ج: لا أعرفه ولا أعرف.

(٥) ذكره ابن الديبع في التمييز، ونقل عن الدميري والزركشي وابن حجر أنه لا أصل له، (تمييز الطيب من الخبيث: ص ١٢١، الطبعة الأولى).

والعلم (ومسمّى)[1] هذا الاسم، حيث تسلبونه أصحاب محمد الذين هم وتلاميذهم كأنبياء بني إسرائيل (وهل)[2] يميز بين العلماء والجهال ويعرف مقادير العلماء إلاّ من هو من جملتهم ومعدود في زمرتهم[3]؟ فأما طائفة شبّه الله علماءهم بالحمير التي تحمل الأسفار، وطائفة علماؤها يقولون في الله ما لا ترضاه أمة من الأمم فيمن تعظمه وتجله، وتأخذ دينها عن كل كاذب ومفتر على الله وعلى أنبيائه، فمثلها مثل عريان يحارب شاكي[4] السلاح، ومن سقف (بيته)[5] زجاج، وهو يراجم أصحاب القصور بالأحجار، ولا يستكثر على من قال في الله ورسوله ما قال أن يقول في أعلم الخلق إنهم عوام.

فليهن أمة الغضب علم المشنا[6] والتلمود[7] وما فيها من الكذب على الله وعلى كليمه موسى، وما يحدث لهم أحبارهم وعلماء السوء كل وقت، وليهنهم علوم دلّتهم على (أن)[8] الله ندم على خلق البشر حتى شق عليه، وبكى على الطوفان حتى رمد وعادته الملائكة. ودلّتهم على أنه يناجونه في صلاتهم بقولهم: (يا إلهنا انتبه من رقدتك كم تنام) ينخونه حتى يتنخى (وينقذ)[9] دولتهم، وليهن أمة الضلال علومهم التي فارقوا بها جميع

---

(١) في الأصل: وتسمي.

(٢) في الأصل: وهذا.

(٣) في ص: قدّمت هذه الجملة على التي قبلها.

(٤) شاكي السلاح: من شك الشيء شكاً: لصق بعضه ببعض واتصل، وفي السلاح لبسه تاماً (المعجم الوسيط: ١/٤٩٣).

(٥) في الأصل: بيده.

(٦) المشنا: كلمة عبرية معناها الشريعة المكررة، وهو عبارة عن كتاب جمع التعاليم الشفوية التي كانت تتناقلها الأجيال مما لم يدون في التوراة وقد قام بالجمع أحد حاخامات اليهود بعد المسيح بمائة وخمسين سنة (راجع: كتاب اليهودية لأحمد شلبي: ص ٢٧٤ نقلاً عن كتاب: الكنز المرصود للدكتور روهليج ترجمة يوسف نصر الله: ص ٢٩ ــ ٣٠).

(٧) التلمود: كلمة عبرية بمعنى التعاليم، وهو عبارة عن المشنا والجمارا وهي الشروح التي أضيفت إلى المشنا. وهناك تلمود أورشليم، وهو المشنا الذي به زيادات لحاخامات فلسطين، وتلمود بابل، وهو المشنا الذي به زيادات لحاخامات بابل، وهو المتداول بين اليهود، والمراد به عند الإطلاق. واليهود يضعون التلمود في مكانة أعظم من التوراة (راجع: كتاب اليهودية لأحمد شلبي: ص ٢٧٤).

(٨) سقطت من ب.

(٩) في ب، ج، والأصل: ينفد.

شرائع الأنبياء، وخالفوا فيها المسيح خلافاً يتحققه علماؤهم في كل أمر كما سيمر بك، وعلومهم التي قالوا بها في رب العالمين ما قالوا، مما كادت السماوات تنشق منه والأرض تنفطر والجبال (تنهد)[1] لولا أن أمسكها الحكيم المصور.

وعلومهم التي دلتهم على التثليث وعبادة خشبة الصليب والصور المدهونة بالسيرقون[2] والزنجفر[3].

ودلتكم على قول عالمكم (أفريم) إن اليد التي جبلت طينة آدم هي التي علقت على الصلبوت، وإن الشبر الذي ذرعت به السماوات، هو الذي سمّر على الخشبة، وقول عالمكم (عرنقورس) من لم يقل إن مريم والدة الإله فهو خارج عن ولاية الله[4].

***

(١) سقطت من ج.
(٢) السيرقون، ورد في مختار الصحاح، المسرجة التي فيها الفتيلة والدهن، والسِّرجين بالكسر معرب، ويقال سرقين أيضاً (مختار الصحاح: ص ٢٩٣).
(٣) الزنجفر، معدن بصّاص حاصل من ازدواج الزئبق بالكبريت ومسحوقه أحمر ناصع يستعمله الكتاب والمصورون (انظر: المعجم الوسيط: ١/٤٠٤).
(٤) أقرّت ألوهيّة المسيح في مجمع أفسس الأول سنة ٤٣١م.

[المسألـة السابعـة]

(**فصـل**): قال السائل:

نـرى في دينكم أكثر الفـواحش فيمن هـو أعلم وأفقـه (في دينكم) كـالـزنى واللواط والخيانة، والحسد والبخل، والغـدر والجبن، والكبر والخيـلاء، وقلة الورع واليقين، وقلة الـرحمة والمـروءة والحمية، وكثـرة الهلع، والتكالب على الـدنيا والكسـل عن الخيرات، وهذا الحال يكذب لسان المقال.

والجواب من وجوه:

أحدها: أن يقال ماذا على الرسل الكرام من معاصي أممهم وأتبـاعهم؟ وهل يقـدح ذلك شيئاً في نبوتهم؟ أو (يوجب تغييراً)[١] في وجه رسالتهم؟ وهل سلم من الـذنوب على اختـلاف أنواعهـا وأجناسهـا إلّا الرسـل والأنبياء عليهم الصـلاة والسـلام؟ وهـل يجـوز ردّ رسالاتهم وتكذيبهم بمعصية بعض أتباعهم لهم؟ وهل هذا إلّا من أقبـح (التعنت)[٢]؟ وهو بمنزلة رجل مريض (دعاه طبيب ناصح إلى سبب ينال به غاية عاقبته، فقال: لو كنت طبيباً لم يكن فلان وفلان فعلاً مرضى)[٣]، وهـل يلزم الرسـل أن يشفوا جميـع المرضى بحيث لا يبقى في العالم مريض؟ وهل تعنّت (أحد على)[٤] الرسل بمثل هذا التعنّت؟.

الـوجه (الثـاني)[٥]: أن الذنـوب أو المعـاصي أمـر مشتـرك بين الأمم، لم يـزل في

---

(١) في ب، ج، ص: يغيّر.
(٢) في الأصل: النعت.
(٣) سقطت من الأصل.
(٤) في ب، ج، ص: أحد من الناس.
(٥) في الأصل: الثالث (سهوا).

العـالم من طبقـات بني آدم عـالمهم وجـاهلهم وزاهـدهم في الـدنيـا وراغبهم وأميـرهم ومأمورهم، وليس هذا أمراً اختصت به هذه الأمة حتى يقدح به فيها وفي نبيّها.

الوجه الثالث: أن الذنوب والمعاصي لا تنافي الإيمان بالرسل، بل يجتمع في العبد الإسـلام والإيمان، والـذنوب والمعـاصي، فيكون فيـه هذا وهـذا، فـالمعـاصي لا تنـافي الإيمان بالرسل وإن قدحت في كماله وتمامه[1].

الـوجه الـرابع: أن الـذنوب تغفـر بالتـوبة النصـوح، فلو بلغت ذنـوب العبـد عنـان السماء، وعدد الرمل والحصى، ثم تاب منها تاب الله عليه، قـال تعالى: ﴿قـل يا عبـادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً﴾[2].

فهـذا في حق التائب، وأن التـوبة تجبُّ مـا قبلها، والتـائب من الذنب كمن لا ذنب له، والتوحيد يكفر الذنوب، كمـا في الحديث الصحيـح[3]: «ابن آدم لو لقيتني بقـراب[4] الأرض خطايا، ثم لقيتني لا تشرك بـي شيئاً، لقيتك بقرابها مغفرة»[5] فالمسلمون ذنـوبهم ذنوب (موحـد)[6] إن قوي التـوحيد على محـو آثارهـا بالكليـة وإلاّ فما معهم من التـوحيد يخرجهم من النار إذا عذبوا بذنوبهم.

وأمـا المشركـون والكفار فـإن شـركهم وكفـرهم محبط حسنـاتهم، ولا يلقـون ربهم بحسنـة يرجـون بهـا النجـاة (ولا يعقب لهم شيء من مغفـرة)[7] ذنـوبهم، قـال الله تبـارك

---

(١) هذه هي عقيدة أهل السنة والجماعة في الكبائر والمعاصي فإنها لا تنافي الإيمـان، وإن كانت تقـدح في كماله وتمامه كما أشار المؤلف رحمه الله.

(٢) سورة الزمر: الآية ٥٣.

(٣) وهذا حديث قدسي.

(٤) قال في القاموس: قراب الشيء بالكسر وقرابه وقـرابته بضمهـا: ما يقـارب قدره (القـاموس المحيط) وفي النهاية: إن لقيتني بقراب الأرض، أي بما يقارب ملأها، وهو مصدر قارب يقارب: ٤/ ٣٤.

(٥) أخرجه الترمذي وقال: حديث حسن صحيـح (الدعـوات: ص ٩٨) وأخرجـه مسلم في صحيحه في كتاب الذكر: ص ٢٢.

(٦) في ج: توحيد.

(٧) في ب، ج: ولا يغفر لهم شيء من، وفي ص: ولا يكفر لهم شيء من.

وتعالى: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾[1] وقال تعالى في حق الكفار والمشركين: ﴿وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً﴾[2]، وقال رسول الله ﷺ: «أبى الله أن يقبل من مشرك عملاً»[3].

فالذنوب تزول آثارها بالتوبة النصوح، والتوحيد الخالص، والحسنات الماحية، والمصائب المكفرة، وشفاعة الشافعين في الموحدين، وآخر ذلك إذا عذب بما يبقى عليه منها أخرجه توحيده من النار، وأما الشرك بالله والكفر بالرسول، فإنه يحبط جميع الحسنات بحيث لا يبقى معه حسنة.

الوجه الخامس: أن يقال لمورد هذا السؤال إن كان من الأمة الغضبية إخوان القرود: ألا يستحي من إيراد هذا السؤال من آباؤه وأسلافه كانوا يشاهدون في كل يوم من الأيام ما لم يره غيرهم من الأمم، وفلق الله البحر فأنجاهم من عدوهم، وما جفت أقدامهم حتى قالوا لموسى: ﴿اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة، قال إنكم قوم تجهلون﴾[4].

ولما ذهب لميقات ربه لم يمهلوه أن عبدوا بعد ذهابه العجل المصوغ، وغلب أخوه هارون معهم، ولم يقدر على الإنكار عليهم، وكانوا مع مشاهدتهم (العجائب)[5] يهمون برجم موسى وأخيه هارون في كثير من الأوقات، والوحي بين أظهرهم، ولما ندبهم إلى الجهاد قالوا: ﴿اذهب أنت وربك فقاتلا إنّا ههنا قاعدون﴾[6] وآذوا موسى أنواع الأذى، حتى قالوا: إنه آدر[7]، (وهذا لكونه كان)[8] يغتسل وحده، فاغتسل يوماً ووضع ثوبه على

---

(١) سورة النساء: الآية ١١٦.

(٢) سورة الفرقان: الآية ٢٣.

(٣) أخرجه النسائي في كتاب الزكاة: ٧٣ وأخرجه ابن ماجه في كتاب الحدود: ٢ وأخرجه الإمام أحمد في مسنده: ٥/٥.

(٤) سورة الأعراف: الآية ١٣٨.

(٥) في ب، ج، ص: الآيات والعجائب.

(٦) سورة المائدة: الآية ٢٤.

(٧) آدر: الأدرة، بالضم: نفخة في الخصية، يقال: رجل آدر بيِّن الأدر، وقيل: هو الذي يصيبه فتق في إحدى الخصيتين (لسان العرب: ٤/٥).

(٨) في ب، ج، ص: ولهذا.

حجر، ففرّ الحجر بثوبه وعدا خلفه عرياناً حتى نظر بنو إسرائيل إلى عورته، فرأوه أحسن خلق الله متجرداً[1].

ولما مات أخوه هارون قالوا: موسى قتله وغيّبه، فرفعت الملائكة لهم تابوته بين السماء والأرض حتى عاينوه ميتاً[2]، وآثروا العود إلى مصر وإلى العبودية، ليشبعوا من أكل اللحم والبصل والقثاء والعدس[3] هكذا عندهم[4].

والذي حكاه الله عنهم أنهم آثروا (ذلك على)[5] المنّ والسلوى، وانهماكهم على الزنى، وموسى بين أظهرهم، وأعداؤهم بإزائهم، حتى ضعفوا عنهم ولم يظفروا بهم معروف عندهم، وعبادتهم الأصنام بعد عصر يوشع بن نون[6]، وتحيلهم على صيد

---

(١) وقد ورد هذا الكلام في حديث أخرجه البخاري عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: (إن موسى كان رجلاً حييّاً ستيراً لا يرى من جلده شيء استحياء منه، فآذاه من آذاه من بني إسرائيل، فقالوا ما يستتر هذا التستّر إلاّ من عيب جلده إما برص وإما أدره وإما آفة...) الخ. البخاري: ٢٨/٦٠ ــ ٣٤٠٤ وإلى ذلك أشارت الآية الكريمة: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا﴾ [الأحزاب: ٦٩].

(٢) نقل ابن كثير في تفسيره ما أورده ابن أبي حاتم في سننه بإسناده عن علي بن أبي طالب في قوله: ﴿فبرأه الله مما قالوا﴾ قال: صعد موسى وهارون الجبل فمات هارون عليه السلام، فقال بنو إسرائيل لموسى عليه السلام أنت قتلته، كان ألين لنا منك وأشد حياء، فآذوه من ذلك فأمر الله ملائكته فحملته فمروا به على مجالس بني إسرائيل فتكلمت بموته (تفسير ابن كثير: ٢٥٠/٣) وذكر الرواية ابن حجر في الفتح بقوله: «وقد روى أحمد بن منيع في مسنده والطبري وابن أبي حاتم بإسناد قوي عن ابن عباس عن علي» الحديث ثم قال: «وما في الصحيح أصح من هذا» (الفتح: ٥٣٤/٨ ــ ٥٣٥).

(٣) وذلك في قوله تعالى: ﴿فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها﴾ [البقرة: ٦١].

(٤) انظر: الخروج: ٣/١٦.

(٥) سقطت من الأصل.

(٦) ذكر البخاري في صحيحه أن يوشع بن نون هو فتى موسى عليه السلام، الذي ذكره القرآن الكريم بقوله: ﴿وإذ قال موسى لفتاه﴾ [الكهف: ٦٠] (انظر: صحيح البخاري، التفسير ٤٧٢٥/٢) أما عبادة اليهود للأصنام فقد صرحت أسفار اليهود بهذا، فنجد في سفر صموئيل الأول ما نصه: «فصرخوا إلى الرب وقالوا: أخطأنا لأننا تركنا الرب، وعبدنا البعليم والعشتاروت فالآن أنقذنا من يد أعدائنا فنعبدك» (صموئيل الأول ١٢/١ ــ ١٠). =

الحيتان في يوم السبت لا تنسه، حتى مسخوا قردة خاسئين[1] وقتلهم الأنبياء بغير حق حتى قتلوا في يوم واحد سبعين نبياً في أول النهار، وأقاموا السوق آخره كأنهم جزروا غنماً أمر معروف[2].

وقتلهم يحيى بن زكريا ونشرهم إياه في المنشار[3].

وإصرارهم على العظائم واتفاقهم على تغيير كثير من أحكام التوراة[4]، ورميهم لوطاً بأنه وطىء ابنتيه وأولدهما[5].

ورميهم يوسف بأنه حلّ سراويله وجلس من امرأة العزيز مجلس المرأة من القابلة حتى انشق الحائط، وخرجت له كفّ يعقوب وهو عاض على أنامله، فقام وهرب، وهذا لو رآه أفسق الناس وأفجرهم لقام ولم يقض غرضه.

وطاعتهم للخارج على ولد سليمان بن داود[6]، لما وضع لهم كبشين من ذهب[7]،

= وبعليم جمع بعل (كما جاء في قاموس الكتاب المقدس: ١٨١/١) وهو إله كنعاني. وقد جاء في قاموس الكتاب المقدس: وقد صار البعل بعد ذلك عثرة للإسرائيليين الذين كسروا شريعة الله بإدخالهم عبادة هذا الإله إلى بلادهم: ١٨١/١ وعشتروت هي إلهة بابل وآشور ومدن الفينيقيين على سواحل فلسطين وسورية وكانت عبادتها تنطوي على كثير من معالم الخلاعة (قاموس الكتاب المقدس: ٦٢٨/٢).

(١) اقرأ قوله تعالى: ﴿واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر إذ يعدون في السبت..﴾ إلى قوله ﴿فلما عتوا عما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين﴾ [الأعراف: ١٦٣ ــ ١٦٦].

(٢) أخرج ابن كثير عن شمر بن عطية قال: (قتل على الصخرة التي ببيت المقدس سبعون نبياً) البداية والنهاية ٥٥/٢.

(٣) قصة قتل اليهود ليحيى ونشرهم زكريا بالمنشار، وردت في أحاديث كثيرة ذكر بعضها ابن كثير في البداية والنهاية: ٥٣/٢ ــ ٥٥.

(٤) ورد ذلك كثيراً في القرآن الكريم ومن ذلك قوله تعالى: ﴿يحرفون الكلم عن مواضعه﴾ [المائدة: ١٣] وقوله تعالى: ﴿فبدل الذين ظلموا قولاً غير الذي قيل لهم﴾ [البقرة: ٥٩] ومن المعلوم أن اليهود بدّلوا التوراة في بابل تبديلاً تاماً، ثم لجأوا إلى تحريف الكلم عن مواضعه.

(٥) انظر: التكوين: ٣١/١٩ ــ ٣٨.

(٦) ولد سليمان بن داود هو (رحبعام)، ثم اضطجع سليمان مع آبائه ودفن في مدينة داود أبيه وملك (رحبعام) ابنه عوضاً عنه (الملوك الأول: ٤٣/١١) والخارج عليه (يربعام بن نباط) (راجع: الملوك الأول: ١٢).

(٧) الوارد في التوراة: عجلين من ذهب وليس كبشين (انظر: الملوك الأول: ٢٨/١٢).

فعكفت جملتهم على عبادتها إلى أن جرت الحرب بينهم وبين المؤمنين الذين كانوا مع ولد سليمان، وقتل منهم في معركة واحدة ألوف مؤلفة[1].

أفلا يستحي عباد الكباش والبقر من تعيير الموحدين بذنوبهم؟ أو لا يستحي ذرية قتلة الأنبياء من تعيير المجاهدين لأعداء الله؟ فأين ذرية من سيوف آبائهم تقطر من دماء (الأنبياء، ممن تقطر سيوفهم من دماء)[2] الكفار المشركين؟ أو لا يستحي من يقول في صلاته لربه: «انتبه كم تنام، استيقظ من رقدك»[3] ينخيه بذلك ويحميه، من تعيير من يقول في صلاته: ﴿الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، إياك نعبد وإياك نستعين﴾[4].

فلو بلغت ذنوب المسلمين عدد الحصى والرمل والتراب والأنفاس، ما بلغت مبلغ قتل نبي واحد، ولا وصلت إلى قول إخوان (القردة)[5] ﴿إن الله فقير ونحن أغنياء﴾[6]، وقولهم ﴿عزير ابن الله﴾[7] وقولهم ﴿نحن أبناء الله وأحباؤه﴾[8] وقولهم: «إن الله بكى على الطوفان حتى (رمدت عيناه)[9] من البكاء وجعلت الملائكة تعوده»[10] وقولهم: «إن الله عضّ أنامله على ذلك»[11]، وقولهم: إنه ندم على خلق البشر وشقّ عليه لما رأى

---

(١) انظر الملوك الأول: ١٤/٣٠.
(٢) سقطت من ص، وفي ب: الأنبياء إلى ذريه من سيوفهم وسيوف آبائهم تقطر من دماء.
(٣) انظر: المزامير: ٨٠/٦٥.
(٤) سورة الفاتحة: الآيات ٢ ــ ٥.
(٥) سقطت من الأصل.
(٦) سورة آل عمران: الآية ١٨١.
(٧) سورة التوبة: الآية ٣٠.
(٨) سورة المائدة: الآية ١٨.
(٩) في ب، ج، ص: رمد.
(١٠) لم أجد في الترجمات الحالية للكتاب المقدس هذين النصين، وقد ذكر سفر التكوين بعد سرده لقصة الطوفان ما نصه: (وقال الرب في قلبه لا أعود ألعن الأرض.. ولا أعود أيضاً أميت كل حي كما فعلت) (التكوين ٨/٢١).
(١١) التكوين: ٨/ ٢١.

من معاصيهم وظلمهم(١).

وأعظم من ذلك نسبة هذا كله إلى التوراة التي أنزلها على كليمه فلو بلغت ذنوب المسلمين ما بلغت لكانت في جنب ذلك كتفلة في بحر، ولا تنس قصة أسلافهم مع (شاؤول)(٢) الخارج على داود، فإن سوادهم الأعظم انضم إليه، وشهدوا معه على حرب داود، ثم لما عادوا إلى طاعة داود وجاءت وفودهم وعساكرهم مستغفرين معتذرين بحيث اختصموا في السبق إليه، (فتتبع منهم)(٣) شخص (ونادى)(٤) بأعلى صوته: لا نصيب لنا في داود ولا حظ لنا في (شاول)(٥)، لِيمضِ كل منهم إلى خبائه يا إسرائيليين، فلم يكن بأوشك (من أن ذهب)(٦) جميع عسكر بني إسرائيل إلى أخبيتهم بسبب كلمته ولما قتل هذا (الصائح)(٧) عادت العساكر كلها إلى خدمة داود(٨)، فما كان القوم إلّا مثل همج رعاع يجمعهم طبل ويفرقهم عصا.

[فرق اليهود وتحريفاتهم لكتبهم]

(فصل): وهذه الأمة الغضبية وإن كانوا مفترقين افتراقاً كثيراً فيجمعهم فرقتان:

---

(١) ورد في سفر آرميا (وتاره أتكلم على أمه.. فتفعل الشر في عيني فلا تسمع لصوتي فأندم) (أرميا: ١٨/٩ ـ ١٠).

(٢) في ج، ص: ابشالون والصحيح شاول وشاول الذي كان مع داود هو ابن قيس من سبط بنيامين أول ملوك إسرائيل (قاموس الكتاب المقدس: ١/٥٠٢) ومن خلال نصوص العهد القديم عنه يظهر أنّه هو طالوت الذي ورد في القرآن الكريم: ﴿ألم تر إلى الملأ من بني إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبي لهم ابعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله...﴾ إلخ [البقرة: ٢٧٦، ٢٤٧]. لكن القرآن الكريم لم يشر إلى أن (طالوت) (شاول) خرج على دواد.

(٣) في الأصل: فتبعهم.

(٤) سقطت من ج.

(٥) في ج، ص: ميشائل.

(٦) في الأصل: وأن أذهب.

(٧) في ب، ج، ص: الصالح.

(٨) هذه القصة ترد في العهد لقديم بين رحبعام بن سليمان ويربعام بن نباط الذي خرج عليه (انظر: الملوك الأول: ١٢: ١٦).

(القراؤون[1] والربانيون[2])، وكان لهم أسلاف فقهاء وهم[3] صنعوا كتابين: أحدهما يسمى المشنا ومبلغ حجمه نحو ثمانمائة ورقة، والثاني: يسمى التلمود[4] ومبلغه قريب من نصف حمل (بغل)[5]، ولم يكن المؤلفون له في عصر واحد، وإنما ألّفوه في جيل بعد جيل، فلما نظر متأخروهم إلى ذلك، وأنه كلما مرّ عليهم الزمان زادوا فيه، وفي الزيادات المتأخرة ما ينقض كثيراً من أوله، علموا أنهم إن لم يغلقوا باب الزيادة وإلا أدى إلى الخلل الفاحش، فقطعوا الزيادة، وحظروها على فقهائهم، وحرموا من يزيد عليه شيئاً. فوقف الكتاب على ذلك المقدار، وكان فقهاؤهم قد حرموا عليهم في هذين الكتابين مؤاكلة من كان على غير ملتهم، (وحرموا)[6] عليهم أكل اللحمان[7] من ذبائح من لم يكن على دينهم، لأنهم علموا أن دينهم لا يبقى عليهم مع كونهم تحت الذل والعبودية وقهر الأمم لهم، إلا أن يصدوهم عن مخالطة من كان على غير ملتهم، وحرموا عليهم مناكحتهم، والأكل من ذبائحهم ولم يمكنهم ذلك إلا بحجة يبتدعونها من أنفسهم، ويكذبون فيها على الله، فإن التوراة إنما حرمت عليهم مناكحة غيرهم من الأمم لئلا يوافقوا أزواجهن في عبادة الأصنام والكفر بالله[8]، وإنما حرمت عليهم أكل ذبائح الأمم التي

---

(١) القراؤون: هم فرقة كانت تمثل القلة بين اليهود، فلما تدهور شأن الفريسيين ورثوا نفوذهم، والقراؤون لا يعترفون إلّا بالعهد القديم كتاباً مقدساً، فلا يعترفون بالتلمود (انظر: اليهودية، أحمد شلبي: ص ٢٣١).

(٢) الربانيون: هم الذين أطلق عليهم: الفريسيّون، ومعناها المنعزلون والمنشقون، وهم يكرهون هذه التسمية ويسمون أنفسهم (الأحبار) أو (الإخوة في الله) أو (الربانيين) ولهم آراء تدل على مزيد من التعصب والتشدد.

ويرى الفريسيّون أنّ التوراة ليست هي كل الكتب المقدسة التي يعتمد عليها، وإنما هناك الروايات الشفوية التي تناقلها الحاخامات جيلاً بعد جيل وما أضافوه لها من شروح والتي دونت فيما بعد باسم التلمود (انظر اليهودية، أحمد شلبي: ٢٢٦ ــ ٢٢٨).

(٣) أي الربانيّون أو الفريسيّون.

(٤) سبقت الإشارة إلى أن (المشنا) هي الروايات الشفوية التي تناقلها الحاخامات، ثم أضيفت شروح لهذه الروايات سميت باسم (الحجارا) ومن مجموعهما كان التلمود.

(٥) في ج: بعير.

(٦) في ب، ج، ص: وخطروا.

(٧) اللحمان: جمع لحم (مختار الصحاح).

(٨) انظر: التثنية: ٧/٣ ــ ٤.

يذبحونها قرباناً للأصنام لأنه سمي عليها غير الله(١)، فأما ما ذكر عليه اسم الله وذبح (لله)(٢) فلم تنطق التوراة بتحريمه البتة، بل (نطقت)(٣) بإباحة أكلهم من أيدي غيرهم من الأمم، وموسى إنما نهاهم عن مناكحة عباد الأصنام خاصة، وأكل ما يذبحونه باسم الأصنام، قالوا: التوراة حرمت علينا أكل الطريفا، قيل لهم: الطريفا هي الفريسة التي يفترسها الأسد والذئب أو غيرهما من السباع، كما قال في التوراة: (ولحم في الصحراء فريسة لا تأكلوا للكلب ألقوه)(٤)، فلما نظر فقهاؤهم إلى التوراة غير ناطقة بتحريم مأكل الأمم عليهم إلا عباد الأصنام وصرحت التوراة بأن تحريم مؤاكلتهم ومخالطتهم خوف استدراج المخالطة إلى المناكحة، والمناكحةُ قد تستتبع الانتقال (إلى أديانهم)(٥) وموافقتهم في عبادة الأوثان، ووجدوا جميع هذا واضحاً في التوراة، اختلقوا كتاباً سمّوه «هلكت شحيطا» وتفسيره «علم الذباحة» ووضعوا في هذا الكتاب من الآصار والأغلال ما شغلهم به عمّا هم فيه من الذل والصغار والخزي، فأمروهم فيه أن ينفخوا الرئة حتى يملؤوها هواء، ويتأملونها هل يخرج (الهواء)(٦) من ثقب منها أم لا؟ فإن خرج منها (الهواء)(٧) حرّموه وإن كان بعض أطراف الرئة لاصقة ببعض لم يأكلوه، وأمروا الذي يتفقد الذبيحة أن يدخل يده في بطن الذبيحة ويتأمل بأصابعه، فإن وجد القلب ملتصقاً إلى الظهر أو أحد الجانبين ولو كان الالتصاق بعرق دقيق كالشعرة حرموه ولم يأكلوه وسموه «طريفا» ومعنى هذه اللفظة عندهم أنه نجس حرام، وهذه التسمية عدوان منهم، فإن معناها في نعتهم هو «الفريسة التي يفترسها السبع» ليس لها معنى في لغتهم سواه.

وكذلك عندهم في التوراة: أن أخوة يوسف لما جاءوا بقميصه ملطخاً بالدم، قال يعقوب في جملة كلامه: «طاروف يطراف يوسف» تفسيره: وحش رديء أكله، افتراساً افترس يوسف(٨).

---

(١) ورد في سفر الخروج ما نصه «من ذبح لإلهة غير الرب وحده يهلك». الخروج ٢٢/٢١.
(٢) سقطت من الأصل.
(٣) في ب، ج: قطعت.
(٤) الخروج ٢٢/٣١.
(٥) في ص: من دينهم إلى دينهم.
(٦) و (٧) في الأصل: الهوى.
(٨) التكوين: ٣٧/٣٣.

وفي التوراة: «ولحم في الصحراء فريسة لا تأكلوه»[1]. فهذا الذي حرمته التوراة من الطريفا. وهذا نزل عليهم وهم في التيه، وقد اشتد (قَرَمُهُم)[2] إلى اللحم فمنعوا من أكل الفريسة والميتة.

ثم اختلفوا في خرافات وهذيانات تتعلق بالرئة وقالوا: ما كان من الذبائح سليماً من هذه الشروط فهو (دخيا)[3] وتفسيره: طاهر (مذكى)[4]، وما كان خارجاً عن ذلك فهو طريفا وتفسيره: نجس حرام.

ثم قالوا: معنى قوله في التوراة: «ولحم فريسة في الصحراء لا تأكلوه، للكلب ألقوه» يعني: إذا ذبحتم ذبيحة ولم توجد فيها هذه الشروط فلا تأكلوها، بل بيعوها على من ليس من أهل ملتكم (قالوا: ومعنى قوله للكلب ألقوه أي: لمن ليس على ملتكم)، فهو الكلب فأطعموه إياها بالثمن.

فتأمل هذا التحريف والكذب على الله وعلى التوراة وعلى موسى. ولذلك كذبهم الله على لسان رسوله في تحريم ذلك. فقال في السورة المدنية[5] التي خاطب فيها أهل الكتاب: ﴿فكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيباً واشكروا نعمة الله إن كنتم إياه تعبدون، إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن الله غفور رحيم﴾[6]، وقال في سورة الأنعام: ﴿قُلْ لا أجدُ فيما أُوحيَ إليّ مُحَرَّماً على طاعمٍ يَطْعَمُهُ إلّا أن يكونَ ميتةً أو دماً مسفوحاً أو لحمَ خنزيرٍ فإنه رِجْسٌ أو فسقاً أُهِلَّ لغيرِ اللهِ به، فمن اضْطُرَّ غيرَ باغٍ ولا عادٍ فلا إثم عليه إن الله غفورٌ رحيم[7].

---

(١) الخروج: ٣١/٢٢.

(٢) في ب، ج، ص: قومهم والقرم: بفتحتين، شدة شهوة اللحم، وقد قرم إلى اللحم من باب طرب (مختار الصحاح: ص ٥٣٢).

(٣) في ب: دوحينا.

(٤) ليست في ب، ج، ص.

(٥) السورة مكية والخطاب ليس لأهل الكتاب كما ذكر المؤلف، قال القرطبي: وهي مكية كلها في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر، ثم ذكر القرطبي استثناء بعض الآيات وليس منها هذه الآية. (انظر: الجامع لأحكام القرآن: ٥/٦٥).

(٦) سورة النحل: الآيتان ١١٤، ١١٥.

(٧) الآية ١٤٥ من سورة الأنعام، وقد وقع سهو من الناسخ (في نسخة الأصل) فلم يكتب هذه الآية.

وعلى الذين هادوا حرَّمْنا كلَّ ذي ظُفُرٍ ومن البقرِ والغنم حرّمنا عليهم شُحُومَهُما إلا ما حملتْ ظهورُهُما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم﴾[1] فهذا تحريم زائد على الأربعة المتقدمة.

وقال في سورة النحل، وهي بعد هذه السورة نزولاً ﴿(وعلى)[2] الذين هادوا حرمنا ما قصصنا عليك من قبل﴾[3].

فهذا المحرم عليهم بنص التوراة ونص القرآن، فلما نظر القراؤون منهم وهم أصحاب عانان[4] وبنيامين[5] إلى هذه المحالات الشنيعة والافتراء الفاحش والكذب البارد على الله وعلى التوراة وعلى موسى، وأن أصحاب التلمود والمشنا كذابون على الله وعلى التوراة وعلى موسى، وأنهم أصحاب حماقات ورقاعات[6]، وأن أتباعهم ومشايخهم يزعمون أن الفقهاء منهم كانوا إذا اختلفوا في مسألة من هذه المسائل وغيرها، يوحي الله إليهم بصوت يسمعونه «الحقّ في هذه المسألة[7] مع الفقيه فلان» ويسمون هذا الصوت[8]: بث قول (فلما نظر القراؤون إلى هذا الكذب والمحال)[9]، قالوا: قد فسق هؤلاء ولا يجوز (قبول)[10] خبر فاسق ولا فتواه، فخالفوهم في سائر ما أصّلوه من الأمور التي لم ينطق بها نص التوراة، وأما تلك الترهات التي ألفها فقهاؤهم الذين يسمونهم

(١) سورة الأنعام: الآيتان ١٤٥، ١٤٦.

(٢) في الأصل: على.

(٣) سورة النحل: الآية ١١٨.

(٤) عانان: وفي ج: عايان. وهو داود عنان مؤسس فرقة القرائين في القرن الثامن الميلادي، وهو أحد علماء اليهود في بغداد في ذلك الوقت (بنو إسرائيل في الكتاب والسنة د. محمد سيّد طنطاوي: ١/ ٩٨).

(٥) بنيامين: لم أقف على ترجمة له ويبدو أنه مؤسس فرقة القرائين.

(٦) الرقاعات: أرقع الرجل جاء برقاعة وحمق، والرقيع والمرقعان الأحمق (مختار الصحاح: ص ٢٥٣).

(٧) في الأصل: المسائل.

(٨) في الأصل: هذه الأصوات.

(٩) سقطت من الأصل.

(١٠) سقطت من ج.

«الحخاميم» في علم الذباحة ورتبوها ونسبوها إلى الله، فأطرحها القراؤون كلها وألغوها وصاروا لا يحرّمون شيئاً من الذبائح التي يقولون ذبحها البتّة، ولهم فقهاء أصحاب تصانيف إلاّ أنهم لا يبالغون في الكذب على الله وهم[1] أصحاب ظواهر مجردة، والأولون أصحاب[2] استنباط وقياسات (الفرقة الثانية)[3] يقال لهم «الربانيّون» وهم أكثر عدداً. وفيهم الحخاميم الكذابون على الله الذين يزعمون أن الله كان يخاطب جميعهم في كل مسألة بالصوت والحرف الذي يسمونه «بثّ قول» وهذه الطائفة أشد اليهود عداوة لغيرهم من الأمم. فإن الحخاميم أوهموهم بأن الذبائح لا يحل منها إلاّ ما كان على الشروط التي ذكروها، وأن سائر الأمم لا تعرف هذا، وأنه شيء خصوا به وميزوا به عمّن سواهم، وأن الله شرفهم به كرامة لهم فصار الواحد منهم ينظر إلى من ليس على نحلته كما ينظر إلى الدابّة، وينظر إلى ذبائحه كما ينظر إلى الميتة.

وأما القراؤون (فأكثرهم)[4] خرجوا إلى دين الإسلام ونفعهم تمسكهم بالظواهر، وعدم تحريفهم إلى أن لم يبق منهم إلاّ القليل لأنهم أقرب استعداداً لقبول الإسلام لأمرين:

أحدهما: إساءة (الظن)[5] بالفقهاء الكذابين المفترين على الله وطعنهم عليهم.

الثاني: تمسكهم بالظواهر وعدم تحريفها وإبطال معانيها.

وأما أولئك الربانيّون فإن فقهاءهم وحخاميمهم حصروهم في مثل سمّ الخياط، بما وضعوا لهم (من التشديدات)[6] والأغلال (والآصار المضافة إلى الأغلال والآصار)[7] التي شرعها الله عقوبة لهم، وكان لهم في ذلك مقاصد:

---

(١) يعني القرائين.

(٢) وهم الفريسيّون أو الربانيّون.

(٣) في الأصل: وهم الزنين.

(٤) ليست في الأصل.

(٥) في ب، ج، ص: ظنهم.

(٦) سقطت من ص وفي ج: التشديد.

(٧) سقطت من ص.

منها: أنهم قصدوا بذلك مبالغتهم في مضادة مذاهب الأمم حتى لا يختلطوا بهم، فيؤدي اختلاطهم بهم إلى موافقتهم والخروج من السبت واليهودية.

والقصد الثاني: أن اليهود (مبددون في)[1] شرق الأرض وغربها وجنوبها وشمالها، كما قال تعالى: ﴿وقطعناهم في الأرض أمماً﴾[2] وما من جماعة منهم (في بلدة)[3] إلاّ إذا قدم عليهم رجل من أهل دينهم من بلاد بعيدة يظهر لهم الخشونة في دينه والمبالغة في الاحتياط. فإن كان من فقهائهم شرع في إنكار أشياء عليهم يوهمهم قلة دينهم وعملهم، وكلما شدد عليهم قالوا: هذا هو العالم، فأعلمهم أعظمهم تشديداً عليهم، فتراه أول ما ينزل عليهم لا يأكل من أطعمتهم وذبائحهم ويتأمل سكين الذابح ويشرع في الإنكار عليه في بعض أمره، ويقول «لا آكل إلاّ من ذبيحة يدي».

فتراهم معه في عذاب، ويقولون: هذا عالم غريب قدم علينا فلا يزال ينكر عليهم الحلال، ويشدّد عليهم الآصار والأغلال، ويفتح لهم أبواب المكر والاحتيال وكلما فعل لهم هذا قالوا: هذا هو العالم الرباني (والحاخام)[4] الفاضل. فإذا رآه رئيسهم قد مشى حاله وقيل بينهم ما قاله (وزن)[5] نفسه معه فإذا رأى أنه أزرى به[6] وطعن عليه لم يقبل منه، فإن الناس في الغالب يميلون مع الغريب، وينسبه أصحابه إلى الجهل وقلة الدين، ولا يصدقونه لأنهم يرون القادم قد شدد عليهم وضيّق، وكلما كان الرجل أعظم تشديداً وتضييقاً كان أفقه عندهم فينصرف عن هذا الرأي فيأخذ في مدحه وشكره، فيقول: لقد عظم الله ثواب فلان إذ قوى ناموس الدين في قلوب هذه الجماعة، وشيّد أساسه وأحكم سياج الشرع، فبلغ القادم قوله فيقول: (هذا)[7] ما عندكم أفقه منه ولا أعلم (منه)[8]، وإذا لقيه يقول: «لقد زيّن الله بك أهل بلدنا ونعّش بك هذه الطائفة».

---

(١) في ج: يتبددون.
(٢) سورة الأعراف: الآية ١٦٨.
(٣) سقطت من الأصل.
(٤) في ج، ص: الحجميم وفي ب: الحخميم.
(٥) في الأصل: أزراً وفي ص: وزر.
(٦) و (٧) سقطت من ص والأصل.
(٨) في ب، ج، ص: بالتوراة.

وإن كان القادم عليهم حبراً من أحبارهم فهناك ترى العجب العجيب من الناموس الذي (يعتمده)[1] والسنن التي يحدثها ولا يعترض عليه أحد بل تراهم مسلمين له وهو يحتلب درّهم ويحتلب درهمهم، وإذا بلغه عن يهودي طعن عليه، (صبر)[2] عليه حتى يرى منه جلوساً على قارعة الطريق يوم السبت، أو يبلغه أنه اشترى من مسلم لبناً أو خمراً أو خرج عن بعض أحكام (المشنا)[3] والتلمود، حرمه بين ملأ اليهود، وأباحهم عرضه، ونسبه إلى الخروج عن اليهودية، فيضيق به البلد على هذا الحال، فلا يسعه إلاّ أن يصلح ما بينه وبين الحبر بما يقتضيه (الحال)[4]، فيقول (لليهود)[5]: إن فلاناً قد أبصر رشده وراجع الحق وأقلع عما كان فيه، وهو اليوم يهودي على الوضع، فيعودون بالتنظيم والإكرام.

[مسألة البياما والجالوس]

وأذكر لك عن مسألة من مسائل شرعهم المبدل أو المنسوخ تعرف بمسألة «البياما والجالوس» وهي: أن عندهم في التوراة إذ أقام أخوان في موضع ومات أحدهما ولم (يعقب)[6]، فلا تصير امرأة الميت إلى رجل أجنبي بل (حموها)[7] ينكحها، وأول ولد يولد لها ينسب إلى أخيه الدارج، فإن أبى أن ينكحها خرجت متشكية إلى مشيخة قومه قائلة: قد أبى (حموي)[8] أن يستبقي اسماً لأخيه في بني إسرائيل ولم يرد نكاحي، فيحضره ويكلفه أن يقف ويقول: ما أردت نكاحها، فتتناول المرأة نعله فتخرجه من رجله، وتمسكه بيدها وتبصق في وجهه وتنادي عليه: كذا فليصنع (بالذي)[9] لا يبني بيت أخيه،

---

(١) في ص: تراه يعتمده.
(٢) في ب، ج: أسلى وفي ص: أصلى.
(٣) في ب: المشيا وفي ج: المنشا.
(٤) سقطت من الأصل.
(٥) في ج: الحبر لليهود.
(٦) في ب، ج: يعقب ولداً.
(٧) في ص: أين حموها.
(٨) في ص: ابن حموي.
(٩) في ب، ج، ص: بالرجل الذي.

ويدعى فيما بعد بمخلوع النعل (وينبذ)[1] بهذا اللقب[2]، وفي هذا (كالتلجئة)[3] له إلى نكاحها لأنه إذا علم أنه قد فرض على المرأة وعليه (ذلك)[4]، فربما استحى وخجل من شيل نعله من رجله والبصاق في وجهه ونبذه باللقب المستكره الذي يبقى عليه وعلى أولاده (عارة)[5]، لم يجد بداً من نكاحها، فإن كان من الزهد فيها والكراهة لها، بحيث يرى أن هذا كله أسهل عليه من أن يبتلى بها، وهان عليه ذلك كله في التخلص منها لم يكره على نكاحها.

هذا عندهم في التوراة، ونشأ لهم من ذلك فرع مرتب عليه، وهو أن يكون مريداً للمرأة محباً لها، وهي غاية الكراهة له، فأحدثوا بهذا الفرع حكماً في غاية الظلم والفضيحة، فإذا جاءت إلى عند الحاكم أحضروه معها (ولقّنوها)[6] أن تقول إن (حموي)[7] لا يقيم لأخيه اسماً في بني إسماعيل، ولم يرد نكاحي وهو عاشق لها، فيلزمونها بالكذب عليه، وأنها أرادته فامتنع، فإذا قالت ذلك ألزمه الحاكم أن يقوم ويقول: ما أردت نكاحها ــ ونكاحها غاية سؤله وأمنيته ــ فيأمرونه بالكذب فيخرج نعله من رجله إلّا أنه (لا شيل هنا)[8] ويبصق في وجهه، وينادى عليه: هذا جزاء من لا يبني بيت أخيه، فلا يكفيهم أن كذبوا عليه، وأقاموه مقام الخزي وألزموه بالكذب والبصاق في وجهه والعتاب على ذنب جرّه إليه غيره كما قيل:

وجرم جرّه سفهاء قوم ... وحلّ بغير جارمه العذاب

أفلا يستحي من تعيير المسلمين مَنْ هذا شرعه ودينه؟!

---

(١) في ب، ج: ويكبر.
(٢) انظر: التثنية: ٢٥/٥ ــ ١٠.
(٣) في الأصل: كالتنخية.
(٤) سقطت من ب، ج.
(٥) سقطت من ج.
(٦) في الأصل: وأثبتوها.
(٧) في ص: ابن حموي.
(٨) في ب، ج، الأصل: ولا شك هناك. وفي ج: لا يسكر.

[الاضطراب السياسي من أهم أسباب التحريف]

(فصل): ولا يستبعد اصطلاح الأمة الغضبية على المحال واتفاقهم على أنواع من الكفر والضلال، فإن الدولة إذا انقرضت عن أمة باستيلاء غيرها عليها، وأخذها بلادها، وانطمست حقائق سالف أخبارها، ودرست معالم دينها وآثارها، (وتعذّر)[1] الوقوف على الصواب الذي كان عليه (أولها)[2] وأسلافها، لأن زوال الدولة عن الأمة إنما يكون بتتابع الغارات وخراب البلاد، وإحراقها وجلاء أهلها عنها، فلا تزال هذه البلايا متتابعة عليها إلى أن تستحيل رسوم ديانتها، وتضمحل أصول شرعها وتتلاشى قواعد دينها، وكلما كانت الأمة أقدم واختلفت عليها الدول المتناولة لها بالإذلال والصغار كان حظها من اندراس دينها أوفر.

وهذه الأمة الغضبية أوفر الأمم حظاً من ذلك، فإنّها أقدم الأمم عهداً، واستولت عليها سائر الأمم من (الكشدانيين)[3] والكلدانيين[4] والبابليين والفرس واليونان والنصارى، وما من هذه الأمم أمة إلا قصدت استئصالهم، وإحراق كتبهم وتخريب بلادهم، حتى لم يبق لهم مدينة ولا جيش ولا حصن إلاّ بأرض الحجاز وخيبر، فأعزّ ما كانوا هناك، فلما (قام)[5] الإسلام واستعلن الرب تعالى من جبال فاران صادفهم تحت ذمة الفرس والنصارى، وصادق هذه الشرذمة بخيبر والمدينة فأذاقهم الله بالمسلمين من القتل والسبي وتخريب الديار (ذنوباً مثل ذنوب[6] أصحابهم)[7]، وكانوا من سبط

---

(١) في الأصل: وبعدت من.

(٢) في ب، ص، والأصل: أولوها.

(٣) الكشدانيون: لم يعرف قوم بهذا الاسم ويبدو أنها تصحيف نسَّاخ.

(٤) الكلدانيون: في ج، ب: المكدانيين وفي ص: الكلدانيين والكنانيين. والكلدانيون: هم الجنس الغالب في بابل من ٧٢١ ـ ٥٣٩ق.م وكانوا يسكنون كلديا جنوب بابل، وقد ملأوا كل مناصب الكهنوت (قاموس الكتاب المقدس: ٢/٧٨٥).

(٥) في ب: قدم.

(٦) الذنوب: (بفتح الذال): النصيب، وهو أيضاً: الدلو الملأى ماء (مختار الصحاح).

(٧) هذا اقتباس من قوله تعالى: ﴿فإن للذين ظلموا ذنوباً مثل ذنوب أصحابهم فلا يستعجلون﴾ [الذاريات: ٥٩].

لم يصبهم الجلاء، فكتب الله تعالى عليهم الجلاء، وشتتهم ومزّقهم بالإسلام كل ممزق، ومع هذا فلم يكونوا مع أمة من الأمم أطيب منهم مع المسلمين ولا آمن، فإن الذي نالهم من النصارى والفرس وعباد الأصنام لم ينلهم مع المسلمين مثله، وكذلك الذي نالهم مع ملوكهم العصاة الذين قتلوا الأنبياء وبالغوا في طلبهم، وعبدوا الأصنام، وأحضروا من البلاد سدنة (الأصنام)[1] لتعظيمها (وتعليم)[2] رسومها في العبادة، وبنوا لها البيع والهياكل وعكفوا على عبادتها وتركوا لها أحكام التوراة وشرع موسى أزمنة (طويلة)[3] وأعصاراً متصلة، فإذا كان هذا شأنهم مع ملوكهم فما الظن بشأنهم مع أعدائهم وأشد الأعداء عليهم كالنصارى الذين عندهم أنهم قتلوا المسيح وصلبوه وصفعوه وبصقوا في وجهه ووضعوا الشوك على رأسه. وكالفرس والكلدانيين وغيرهم.

وكثيراً ما منعهم ملوك الفرس من الختان وجعلوهم قلفاً[4]، وكثيراً ما (منعوهم)[5] من الصلاة لمعرفتهم أن معظم صلواتهم دعاء على الأمم بالبوار وعلى بلادهم بالخراب إلّا أرض كنعان، فلما رأوا أن صلاتهم هكذا منعوهم من الصلاة، فرأت اليهود أن الفرس قد جدّوا في منعهم من الصلاة، فاخترعوا أدعية خرجوا بها صلاتهم سمّوها (الخزانة)[6]، (وصاغوا)[7] لها ألحاناً عديدة وصاروا يجتمعون على تلحينها (وتلاوتها)[8].

والفرق بين الخزانة والصلاة، أن الصلاة بغير (لحن)[9]، ويكون المصلي فيها وحده، والخزانة بلحن يشاركه غيره فيه. وكانت الفرس إذا أنكروا ذلك عليهم، قالت

---

(١) سقطت من ج.

(٢) في ص: وتعظيم.

(٣) سقطت من ج.

(٤) قلف: جمع أقلف، وهو الرجل الذي لم يختن (مختار الصحاح: ص ٥٤٩).

(٥) في ب، ج، والأصل: منعهم.

(٦) في الأصل ج: الخزانة، بالخاء المهملة وفي ب، ص: الحرانة. والصحيح أنها بالخاء المعجمة وقد ورد في إنجيل يوحنا «هذا الكلام قاله يسوع في الخزانة وهو يعلم في الهيكل» (يوحنا: ٢٠/٨).

(٧) في ص: ووضعوا.

(٨) سقطت من ب.

(٩) في ج: الحق.

اليهود: نحن (نغني)[1] وننوح على أنفسنا، فيخلون بينهم وبين ذلك. فجاءت دولة الإسلام فأمنوا فيها غاية الأمن وتمكنوا من صلاتهم في كنائسهم، واستمرت الخزانة سُنة فيهم، في الأعياد والمواسم والأفراح، وتعوضوا بها عن الصلاة. والعجب أنهم مع ذهاب دولتهم وتفرق شملهم وعلمهم بالغضب الممدود المستمر عليهم، ومسخ أسلافهم قردة، وقتلهم الأنبياء (وعدوانهم)[2] في السبت وخروجهم عن شريعة موسى والتوراة وتعطيلهم لأحكامها، يقولون في كل يوم في صلاتهم «محبّة الدهر»:

«(أحبنا)[3] يا إلهنا، يا أبانا، أنت أبونا منقذنا».

ويمثلون أنفسهم بعناقيد العنب، وسائر الأمم بالشوك المحيط بالكرم لحفظه، وأنهم سيقيم الله لهم نبياً من آل داود، إذا حرّك شفتيه بالدعاء مات جميع الأمم، ولا يبقى على وجه الأرض إلّا اليهود[4]، وهو بزعمهم المسيح الذي وعدوا به وينبهون الله ــ بزعمهم ــ من رقدته في صلاتهم وينخونه ويحمونه ــ تعالى الله عن إفكهم وضلالهم علواً كبيراً ــ. وضلال هذه الأمة الغضبية وكذبها وافتراؤها على الله تعالى وعلى دينه وأنبيائه لا مزيد عليه.

وأما أكلهم الربا والسحت والرشا (واستبدادهم)[5] دون العالم بالخبث والمكر والبهت وشدة الحرص على الدنيا، وقسوة القلب (والذل والصغار والخزي والتحيل على الأغراض الفاسدة ورمي البراء بالعيوب والطعن)[6] على الأنبياء، فأرخص شيء عندهم، وما عيّروا به المسلمين مما ذكروه ومما لم يذكروه فهو في بعضهم وليس في جميعهم. ونبيهم وكتابه ودينه وشرعه بريء منه. وما عليه من معاصي أمته وذنوبهم فإلى الله تعالى إيابهم وعلى الله حسابهم.

---

(١) في ج: ننعى.
(٢) في الأصل: وعدواتهم.
(٣) في ج: أحينا.
(٤) انظر: التثنية: ١٨/١٥ ــ ٢٠.
(٥) في الأصل: واستئذاؤه.
(٦) سقطت من الأصل.

[أمة النصارى]

[أولاً: انحرافهم في الأصول والعقائد]

(فصل): وإن كان المعير للمسلمين من أمة الضلال وعباد الصليب والصور المدهونة في الحيطان والسقوف، فيقال له: ألا يستحي من أصل دينه الذي يدين به (ويعتقده)[١] أن رب السموات والأرض تبارك وتعالى نزل عن كرسي عظمته وعرشه ودخل في (فرج)[٢] امرأة تأكل وتشرب وتبول (وتتغوط)[٣]، فالتحم ببطنها وأقام هناك تسعة أشهر يتلبط بين نجو[٤] وبول ودم وطمث، ثم خرج إلى القماط[٥] (والسرير)[٦] كلما بكى ألقمته أمّه ثديها، ثم انتقل إلى المكتب بين الصبيان، ثم آل أمره إلى لطم اليهود خديه وصفعهم قفاه وبصقهم في وجهه ووضعهم تاجاً من الشوك على رأسه، والقصبة في يده استخفافاً به وانتهاكاً لحرمته، ثم قربوه من مركب خص (بالبلاء)[٧]، فشدوه عليه وربطوه بالحبال وسمّروا يديه ورجليه، وهو يصيح ويبكي ويستغيث من حرّ الحديد وألم الصليب.

هذا وهو (بزعمهم)[٨] الذي خلق السموات والأرض وقسم الأرزاق والآجال ولكن اقتضت حكمته ورحمته أن مكن أعداءه من نفسه لينالوا منه ما نالوا فيستحقوا بذلك العذاب والسجن في الجحيم، ويفدي أنبياءه ورسله (وأولياءه)[٩]، فيخرجهم من سجن إبليس، فإنّ روح آدم وإبراهيم ونوح وسائر النبيين عندهم، كانت في سجن إبليس في النار حتى خلصها من سجنه بتمكين أعدائه من صلبه.

---

(١) في ب، ج، ص: اعتقاده.
(٢) في ج: بطن.
(٣) في ص: وتتغوط وتحيض.
(٤) النجو: ما يخرج من البطن (مختار الصحاح: ص ٦٤٨).
(٥) القماط: حبل يشد به قوائم الشاة عند الذبح، وكذا ما يشدّ به الصبي في المهد (مختار الصحاح: ص ٥٥١).
(٦) في الأصل: السرى.
(٧) في ص: بالبلاء راكبة.
(٨) ليست في ب، ج، ص.
(٩) في ب، ج، ص: وأولياءه بنفسه.

وأما قولهم في مريم، فإنهم يقولون إنّها أم المسيح ابن الله في الحقيقة، ووالدته في الحقيقة[1] لا أم لابن الله إلاّ هي والدة، ولا والدة له غيرها، ولا أب إلاّ الله، ولا والد له سواه، وإن الله اختارها لنفسه ولولادة ولده وابنه من بين سائر النساء، ولو كانت كسائر النساء لما ولدت إلاّ عن وطء الرجال لها، ولكن اختصت عن النساء بأنها حبلت بابن الله وولدت ابنه الذي لا ابن له في الحقيقة غيره، ولا والد له سواه، وإنها على العرش جالسة عن يسار الرب تعالى والد ابنها. وابنها عن يمينه، والنصارى يدعونها ويسألونها سعة الرزق وصحة البدن وطول العمر ومغفرة الذنوب، وأن يكون لهم عند ابنها ووالده الذي يعتقد عامّتهم أنه زوجها، ولا ينكرون ذلك عليهم ـ سوراً وسنداً وذخراً وشفيعاً وركناً ـ ويقولون في دعائهم:

«يا والدة الإله اشفعي لنا».

وهم يعظمونها ويرفعونها على الملائكة وعلى جميع النبيين والمرسلين، ويسألونها ما يسأل الإله من العافية والرزق والمغفرة.

حتى أن اليعقوبية[2] تقول في مناجاتهم لها: «يا مريم يا والدة الإله كوني لنا سوراً وسنداً وذخراً، (وركناً)»[3].

والنسطورية[4] تقول: «يا والدة المسيح كوني لنا كذلك».

ويقولون لليعقوبية: لا تقولوا يا والدة الإله، وقولوا يا والدة المسيح، فقالت لهم اليعقوبية: المسيح عندنا وعندكم إله في الحقيقة؛ فأيّ فرق بيننا وبينكم في ذلك، ولكنكم أردتم مصالحة المسلمين (ومقارنتهم)[5] في التوحيد.

---

(١) قال النصارى بألوهية مريم، وقد أقروا ذلك في مجمع أفسس الأول سنة ٤٣١، حيث وضع هذا المجمع مقدمة الوثيقة الأمانة؛ نصها: «نعظمك يا أم النور يا والدة الإله...) (انظر: تاريخ الأقباط: ١/١٧٨).

(٢) اليعقوبية: هم أتباع يعقوب البرادعي، وسيأتي الحديث عنهم عند الحديث عن فرق اليهود.

(٣) سقطت من الأصل.

(٤) النسطورية: هم أتباع نسطور، ... وترجمتهم عند الحديث عن فرق اليهود.

(٥) في ص: ومقاربتهم.

هذا والأوقاح الأرجاس من هذه الأمة (الضالة)[1] تعتقد أن الله سبحانه وتعالى اختار مريم لنفسه وتخطاها كما يتخطى الرجل المرأة.

قال النظام[2] بعد أن حكى ذلك «وهم يفصحون بهذا عند من يثقون به» وقد قال ابن الإخشيد[3] هذا عنهم في «المعونة»[4].

وقال: إليه يشيرون، ألا ترى أنهم يقولون: «من لم يكن والداً يكون عقيماً» والعقم آفة وعيب.

وهذا قول جميعهم، وإلى المباضعة يشيرون، ومن خالط القوم وطاولهم وباطنهم عرف ذلك منهم.

فهذا كفرهم وشركهم برب العالمين، ومسبتهم له، ولهذا (قال)[5] أحد الخلفاء الراشدين[6]: «أهينوهم ولا تظلموهم، فلقد سبّوا الله مسبّة ما سبّه أحد من البشر»[7].

وقد أخبر النبي ﷺ عن ربه في الحديث الصحيح أنه قال: «شتمني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وكذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، أما شتمه إيّاي فقوله: اتخذ الله ولداً، وأنا الأحد الصمد الذي لم ألد ولم أولد ولم يكن لي كفواً أحد، وأما تكذيبه إيّاي فقوله: لن يعيدني كما بدأني (وليس أول)[8] الخلق بأهون عليّ من إعادته»[9].

---

(١) ليست في ب، ج، ص.

(٢) النظام: هو أبو إسحق إبراهيم بن سيار بن هانيء، وهو من أئمة المعتزلة (انظر: الفهرست، ابن النديم: ص ٢٠٥).

(٣) ابن الإخشيد: هو أبو بكر أحمد بن علي بن معجور الإخشيد، من أفاضل المعتزلة وصلحائهم وزهادهم. كان حسن الفصاحة وله معرفة بالعربية وله في الفقه عدة كتب، توفي سنة ٣٢٦هـ (انظر: الفهرست: ص ٢٢٠).

(٤) هو كتاب المعونة في الأصول لابن الإخشيد، ذكره ابن النديم في الفهرست: ص ٢٢٠.

(٥) في ب، ج، ص: قال فيهم.

(٦) في إغاثة اللهفان: عمر بن الخطاب.

(٧) هذا القول مذكور في الجواب الصحيح: ١٧٣/٣. كما ذكره ابن القيم في إغاثة اللهفان: ٢٨٣/٢.

(٨) في الأصل: وليس ذلك، وفي ج: مبدأ.

(٩) أخرجه البخاري في كتاب التفسير مع شيء من التقديم والتأخير انظر: صحيح البخاري: ٨/٦٥ ــ ٤٤٨٢. كما ذكره في بدء الخلق: ٥٩/١ ــ ٣١٩٣.

فلو أتى الموحدون بكل ذنب وفعلوا كل قبيح وارتكبوا كل معصية، ما بلغت مثقال ذرة في جنب هذا الكفر العظيم برب العالمين، ومسبته هذا السب وقول العظائم فيه. فما ظن هذه الطائفة برب العالمين أن يفعل بهم إذا لقوه ﴿يوم تبيضّ وجوه وتسودّ وجوه﴾[1]، ويُسأل المسيح على رؤوس الأشهاد (وهم يسمعون)[2] ﴿يا عيسى ابن مريم، أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلٰهين من دون الله﴾[3].

فيقول المسيح (مكذباً لهم)[4]: ﴿سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق، إن كنت قلتُه فقد علمتَه، تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علام الغيوب. ما قلت لهم إلاّ ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم، فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد﴾[5].

(فصل): (فهذا) أصل دينهم وأساسه الذي قام عليه.

[ثانياً: انحرافهم في الفروع والشرائع]

وأما فروعه وشرائعه فهم مخالفون للمسيح في جميعها، وأكثر ذلك بشهادتهم وإقرارهم ولكن (يحيلون)[6] على البتاركة[7] والأساقفة[8]، فإن المسيح صلوات الله وسلامه عليه كان يتدين بالطهارة ويغتسل من الجنابة ويوجب غسل الحائض. وطوائف النصارى عندهم أن ذلك كله غير واجب، وأن الإنسان يقوم من على بطن المرأة ويبول ويتغوط ولا يمس ماء ولا (يستنجي)[9]، والبول والنجو يتحدر على ساقه وفخذه ويصلي

(١) تضمين من الآية ١٠٦ آل عمران.
(٢) سقطت من ج.
(٣) سورة المائدة: الآية ١١٦.
(٤) في ب، ج، ص: مكذباً لهم ومتبرئاً منهم.
(٥) سورة المائدة: الآية ١١٦ ــ ١١٧.
(٦) في ج، ب: يختلفون؛ وفي ص: يجهلون.
(٧) البتاركة: جمع بطريرك.
(٨) الأساقفة: جمع أسقف.
(٩) في ب، ج، ص: يستخمر.

كذلك وصلاته صحيحة تامة، ولو تغوط وبال وهو يصلي ولم يضره، فضلاً عن أن يفسو ويضرط.

ويقولون: إن الصلاة (بالبول)[1] والغائط أفضل من الصلاة بالطهارة، لأنها حينئذٍ أبعد من صلاة المسلمين واليهود وأقرب إلى مخالفة الأمتين.

ويستفتح الصلاة بالتصليب بين عينيه، وهذه الصلاة رب العالمين بريء منها، وكذلك المسيح وسائر (الحواريين المبينين فإن هذا بالاستهزاء أشبه منها بالعبادة، وحاشا المسيح أن تكون هذه صلاته أو صلاة أحد من الحواريين)[2].

والمسيح كان يقرأ في صلاته ما كان الأنبياء وبنو إسرائيل يقرأون في صلاتهم من التوراة والزبور.

وطوائف النصارى إنّما يقرأون في صلاتهم كلاماً قد لحنه لهم الذين يتقدمون ويصلون بهم يجري مجرى النوح والأغاني، فيقولون: هذا قداس فلان ينسبونه إلى الذين وضعوه لهم.

وهم يصلون إلى الشرق وما صلى المسيح إلى الشرق قط[3]، وما صلى إلى أن (توفاه)[4] الله إلّا إلى بيت المقدس، وهي قبلة داود والأنبياء قبله، وقبلة بني إسرائيل.

والمسيح اختتن[5] وأوجب الختان كما أوجبه موسى وهارون والأنبياء (قبله)[6].

والمسيح حرم الخنزير ولعن آكله وبالغ في ذمّه ــ (والنصارى) تصرّ بذلك ــ (ولقد

---

(١) في ب، ج، ص: بالجنابة والبول.

(٢) سقطت من الأصل.

(٣) صلاتهم إلى الشرق مأخوذة من الوثنية الرومانية، ومن عبادة الشمس بالذات التي كانت سائدة آنذاك، ويظهر تأثير عبادة الشمس في النصرانية جلياً في أعياد النصارى فهي في معظمها أعياد لها صلة وثيقة بالشمس حتى العيد الأسبوعي وهو يوم الأحد، وهو بالانجليزية (Sunday) وترجمته الحرفية (يوم الشمس) توضح ذلك.

(٤) في ب، ج: رفعه.

(٥) الأسفار الحالية للعهد الجديد تذكر أنه عليه السلام اختتن ولا يشير إطلاقاً إلى النهي عن الختان.

(٦) في ب، ج، ص: قبل المسيح.

رفع إلى الله)[1] وما طعم من لحمه وزن شعيرة، والنصارى تتقرب إليه بأكله.

والمسيح ما شرع لهم هذا الصوم الذي يصومونه قط، ولا صامه في عمره مرّة واحدة، ولا أحد من أصحابه، ولا صام العذارى في عمره، ولا أكل في الصوم ما يأكلونه ولا حرّم ما يحرمونه، ولا عطّل السبت يوماً واحداً حتى لقي الله، ولا اتخذ الأحد عيداً قط.

والنصارى تقرّ أنه رقى مريم المجدلانية فأخرج منها سبع شياطين[2]، وأن الشياطين قالت له: أين تأوي؟ فقال لها: (اسلكي)[3] هذه الدابة النجسة يعني: الخنزير[4]. فهذه حكاية النصارى عنه.

وهم يزعمون أن الخنزير من أطهر الدواب وأجملها وأطيبها.

والمسيح سائر في الذبائح والمناكح والطلاق والمواريث سيرة الأنبياء قبله، وليس عند النصارى على من زنى أو لاط أو سكر حدّ في الدنيا أبداً، ولا عذاب في الآخرة، لأن القسّ والراهب يغفره لهم، فكلما أذنب أحدهم ذنباً أهدى للقس هدية وأعطاه دراهم أو غيرها ليغفر له، وإذا أذنبت امرأة أحدهم بيّتها عند القس ليطيبها له، فإذا انصرفت من عنده وأخبرت زوجها أن القس طيبها، قبل ذلك منها وتبرّك به.

وهم يقرّون أن المسيح قال: «إنما جئتكم لأعمل بالتوراة وبوصايا الأنبياء قبلي، وما جئت ناقضاً بل متمماً، ولأن تقع السماء على الأرض أيسر على الله من أن أنقض شيئاً من شريعة موسى، ومن نقض شيئاً من ذلك يدعى ناقضاً في ملكوت السماء»[5].

وما زال هو وأصحابه كذلك إلى أن خرج من الدنيا، وقال لأصحابه: اعملوا بما رأيتموني أعمل، ووصّوا الناس بما وصّيتكم به، وكونوا معهم كما كنت معكم، وكونوا لهم كما كنت لكم.

---

(١) في ب، ج، ص: ولقي الله.

(٢) لوقا: ٨/٢.

(٣) في ب، ج: اسكني.

(٤) في إنجيل لوقا «فخرجت الشياطين من الإنسان ودخلت في الخنازير» (انظر: ٨/٣٣).

(٥) متى: ٥/١٧ ـ ١٩.

[خروج كامل على التوراة]

وما زال أصحاب المسيح بعده على ذلك قريباً من ثلاثمائة سنة. ثم أخذ القوم في التغيير والتبديل والتقرب إلى الناس بما يهوون وما تكره اليهود ومناقضتهم بما فيه ترك دين المسيح والانسلاخ منه جملة، فرأوا اليهود أنهم قالوا في المسيح إنه ساحر ممحزق ولد زنة، فقالوا: هو الرتام وهو ابن الله، ورأوا اليهود يختتنون فتركوا الختان، ورأوهم يبالغون في الطهارة فتركوها جملة، ورأوهم يجتنبون من (مؤاكلة)[1] الحائض (وملامستها)[2] فجامعوها هم. ورأوهم يحرمون الخنزير فأباحوه وجعلوه شعار دينهم. ورأوهم يحرمون كثيراً من الذبائح والحيوان فأباحوا ما دون الفيل إلى البعوضة، وقالوا: «كل ما شئت (ودع ما شئت)[3] لا حرج».

ورأوهم يستقبلون بيت المقدس في الصلاة، فاستقبلوا هم الشرق، ورأوهم يحرمون على الله نسخ شريعة شرعها، فجوزوا هم لأساقفتهم وبطاركتهم أن ينسخوا ما شاؤوا ويحللوا ما شاؤوا ويحرموا ما شاؤوا.

ورأوهم يحرمون السبت ويحفظونه فحرموا هم الأحد، وأحلوا السبت مع إقرارهم بأن المسيح كان يعظم السبت ويحفظه.

ورأوهم ينفرون من الصليب فإن في التوراة (التي بأيديهم)[4]: «ملعون من تعلق بالصليب»[5] والنصارى تقرّ بهذا فعبدوا هم الصليب، كما أن في التوراة تحريم الخنزير نصاً فتعبدوا هم بأكله.

وفيها الأمر بالاختتان فتعبدوا بتركه، مع إقرار النصارى أن المسيح قال لأصحابه:

---

(١) في الأصل: أكله.
(٢) في ب، ج: وملامستها ومخالطتها.
(٣) سقطت من ص.
(٤) سقطت من ب، ج، ص.
(٥) التثنية: ٢١/٢٣.

«إنما جئتكم لأعمل بالتوراة ووصايا الأنبياء قبلي، وما جئت ناقضاً بل متمماً ولأن تقع السماء على الأرض أيسر عند الله من أن أنقض شيئاً من شريعة موسى»(١).

فذهبت النصارى تنقضها شريعة شريعة في مكايدة اليهود (ومغايظتهم)(٢)، وانضاف إلى هذا السبب ما في كتابهم المعروف عندهم «بافراكيس»(٣):

«أن قوماً من النصارى خرجوا من بيت المقدس وأتوا انطاكية وغيرها (من الشام)(٤)، فدعوا الناس إلى دين المسيح الصحيح، فدعوهم إلى العمل في التوراة وتحريم ذبائح من ليس أهلها، وإلى الختان وإقامة السبت وتحريم الخنزير وتحريم ما حرمته التوراة، فشقّ ذلك على (الأمم)(٥) واستثقلوه، فاجتمع النصارى ببيت المقدس، وتشاوروا فيما يحتالون به على (الأمم)(٦) ليجيبوهم إلى دين المسيح، ويدخلوا فيه فاتفق رأيهم على مداخلة الأمم، والترخيص لهم والاختلاط بهم، وأكل ذبائحهم والانحطاط في أهوائهم، والتخلق بأخلاقهم وإنشاء شريعة تكون بين شريعة الإنجيل وما عليه الأمم. وأنشأوا في ذلك كتاباً. فهذا أحد مجامعهم الكبار ـ وكانوا كلما أرادوا إحداث شيء اجتمعوا مجمعاً، وافترقوا فيه عما يريدون إحداثه إلى أن اجتمعوا المجمع الذي لم يجتمع

---

(١) متى: ٥/١٧ ـ ١٨.
(٢) في ب، ج: ومغالطتهم.
(٣) في الأصل: فراكيس. وقد ذكره ابن حزم باسم الافركسيس، وقال عنه: وهو كتاب ألفه لوقا الطبيب في أخبار الحواريين، وأخبار صاحبه بولس البنياميني، وسيرهم وقتلهم (انظر: الفصل في الملل: ٢/٣).
وقد نقل عنه بعض علماء المسلمين ومنهم القاضي عبد الجبار في دلائل النبوة لكنه ذكر أن اسمه (فراكسيس) بتقديم السين على الكاف (انظر: تثبيت دلائل النبوة: ١/١٥٠)، وذكره ابن النديم في الفهرست بقوله «وكتاب الحواريين ويعرف بـ (فراكسيس) بتقديم الكاف على السين (انظر: الفهرست: ص ٤١). هذا الكتاب هو ما يعرف بسفر أعمال الرسل الذي وضعه بولس، ومما يؤيد ذلك أن هذه القصة المنقولة عن هذا الكتاب موجودة في سفر أعمال الرسل (انظر: الأعمال: ١٥/٢٣ ـ ٢٩).
(٤) في ج: من البلاد أي بلاد الشام وفي ب: من بلاد الشام.
(٥) في ج: الناس.
(٦) في ج: الناس.

لهم أكبر منه في زمن قسطنطين[1] الرومي (بن هيلانة الحرانية)[2] الفندقية[3].

وفي زمنه بدل دين المسيح، وهو الذي شاد دين النصرانية المبتدع، وقام بـه وقعد، وكان عدتهم زهاء ألفي رجل[4] فقرروا تقريراً ثم رفضوه ولم يرتضوه، ثم اجتمـع ثلاثمـائة وثمانية عشر رجلاً منهم[5]، والنصارى يسمونهم الآباء، فقرروا هذا التقرير الذين هم عليه اليوم، وهو أصل الأصول عند جميع طوائفهم، لا تتم لأحد منهم نصرانية إلّا بـه ويسمونـه «سنهودس» وهي «الأمانة» ولفظها:

«نؤمن بالله الأب الواحد خالق ما يرى ومـا لا يرى، وبـالرب الـواحد يسوع ابن الله بكر أبيه وليس بمصنوع، إله حق من إله حق، من جوهـر أبيه الـذي بيده أتقنت العـوالم، وخالق كل شيء الذي من أجلنا معاشر الناس ومن أجل خلاصنا نزل من السماء، وتجسّـد من روح القـدس، ومن مريم البتـول، (وحبلت به مـريم البتـول)[6]، وأخـذ وصلب أيـام

---

(١) هـو قسطنـطين بن قسطنـديوس كلوروس من زوجتـه هيلانـة، ولد في (نيش) من أعمـال يوغسـلافية حوالي سنة ٢٨٠م، التحق بالجيش وهو في الخامسة عشرة من عمره ثم صـار قائـداً وهو في الثـامنة عشرة ثم فصل من الجيش، واستدعاه أبوه قسطنديوس وكان قيصراً يحكم غالبية إسبانيا وبـريطانيـا. تولى قسطنطين عرش الإمبراطورية سنة ٣٢٣م وتوفي يوم العنصرة: ٢٢/أيار/ ٣٣٧م (انظر: الروم، أسد رستم: ١/٥٢ ــ ٧٢).

(٢) في الأصل: هيلانة الحرابية (بالباء) والصواب: الحرانية (بـالنون) نسبـة إلى حران وهي التي تعـرف عند النصارى بالقديسة هيلانة، وهي والدة الامبراطور قـسطنطين.

(٣) هـذا هو المجمـع المعروف بـ (مجمـع نيقية) الـذي عقد سنـة ٣٢٥ وهو الـذي صـدرت فيـه وثيقـة الأمانة.

(٤) أي عدة رجال الدين الذين حضروا مجمع نيقية.

(٥) لقد حضر الجلسة الأولى لمجمع نيقية أكثر من ألفي رجل، لكن الغالبيـة العظمى منهم انسحبت من المجمع لأن قسطنـطين أراد أن يفرض بـالقوة الآراء المنحـرفة كتـأليه المسيـح أو غير ذلـك، فدعي لاجتماع خاص حضره المؤيدون لـه أو بالأحـرى المنافقـون له وبلغ عـددهم ثلاثمـائة وثمـانية عشـر رجلاً. صدرت باسمهم وثيقة الإيمـان المعروفـة وقرارات المجمـع، وقد اعتـرف مؤرخو المسيحيـة بذلك، فقد قال صاحب تاريخ الأقباط: «وقد بلغ مجموع الحاضرين نحو الألفين» وذكر ابن البطريق (المؤرخ المسيحي المعروف) أنه اجتمع في نيقية ثمانمائة وأربعون وألفاً من القساوسة (انظر: تاريخ الأقباط: ١/ ١٥٤؛ وانـظر: محاضـرات في النصرانية: ص ١٣٨).

(٦) سقطت من ج.

(بلاطس) الرومي، ومات ودفن (وقام)[1] في اليوم الثالث ــ كما هو مكتوب ــ وصعد إلى السماء وجلس عن يمين أبيه، وهو مستعد للمجيء تارة أخرى للقضاء بين الأموات (والأحياء)[2]، ونؤمن بالرب الواحد الذي يخرج من أبيه روح محبته، وبمعموديّة واحدة لغفران الخطايا، وبجماعة واحدة قديسيّة سليحية جاثليقية، وبقيام أبداننا، وبالحياة الدائمة إلى أبد الآبدين».

فصرّحوا فيها بأنّ المسيح رب، وأنه ابن الله وأنه بكره، وأنه ليس له ولد غيره، وأنه ليس بمصنوع أي ليس بعبد مخلوق بل هو ربّ خالق، وأنه إله حق استلّ وولد من إله حق، وأنه مساو لأبيه في الجوهر وأنه بيده أتقنت العوالم، وهذه اليد التي أتقنت بها العوالم عندهم، هي التي ذاقت حرّ المسامير كما صرّحوا به في كتبهم، وهذه ألفاظهم:

قالوا: وقد قال القدوة عندنا: إن اليد التي سمّرها اليهود في الخشبة، هي اليد التي عجنت طينة آدم وخلقته، وهي اليد التي شبرت[3] السماء، وهي اليد التي كتبت التوراة لموسى «قالوا: وقد وصفوا صنيع اليهود به ــ وهذه ألفاظهم ــ وأنهم لطموا الإله وضربوه على رأسه».

قالوا: وفي بشارة الأنبياء به أن الإله تحبل به امرأة عذراء وتلده ويؤخذ ويصلب ويقتل.

قالوا: وأمّا «سنهودس» دون (الأمم)[4]، قد اجتمع عليه سبعمائة من الآباء وهم القدوة وفيه: أن مريم حبلت بالإله وأولدته وأرضعته وسقته وأطعمته، قالوا: وعندنا أن المسيح ابن آدم وهو ربه وخالقه ورازقه وابن (إبراهيم وربه وخالقه ورازقه وابن إسرائيل وربه وخالقه ورازقه)[5] وابن مريم وربها وخالقها ورازقها.

قالوا: وقد قال علماؤنا، ومن هو القدوة عند جميع طوائفنا «يسوع في البدء لم يزل

---

(١) سقطت من ج.
(٢) سقطت من ج.
(٣) شبر الثوب شبراً كاله بشبره (لسان العرب: ٤/ ٣٩٠).
(٤) في الأصل: الأنام.
(٥) سقطت من ص والأصل.

كلمة، والكلمة لم تزل الله، والله هو الكلمة»[1]، فذاك الذي ولدته مريم (وعاينه)[2] الناس، وكان بينهم هو الله، وهو ابن الله وهو كلمة الله.

ـ هذه ألفاظهم ـ قالوا: فالقديم الأزلي خالق السموات والأرض هو الذي عاينه الناس بأبصارهم ولمسوه بأيديهم، وهو الذي حبلت به مريم، وخاطب الناس من بطنها، حيث قال (للأعمى أنت مؤمن بالله قال)[3] الأعمى: ومن هو حتى أؤمن به؟ قال: هو المخاطب (لك)[4] فقال: آمنت بك وخرّ ساجداً.

قالوا: فالذي حبلت به مريم هو الله وابن الله وكلمة الله، قالوا: وهو الذي ولد ورضع وفطم وأخذ وصلب وصفع وكتفت يداه وسمّر في وجهه ومات ودفن وذاق ألم الصلب والتسمير والقتل لأجل خلاص النصارى من خطاياهم.

قالوا: وليس المسيح عند طوائفنا الثلاثة بنبي ولا عبد صالح، بل هو رب الأنبياء وخالقهم وباعثهم ومرسلهم وناصرهم ومؤيدهم ورب الملائكة.

قالوا: وليس (مع)[5] أمه بمعنى الخلق والتدبير واللطف والمعونة، فإنه لا يكون لها بذلك مزيّة على سائر الإناث ولا الحيوانات، ولكنّه معها بحبلها به واحتواء بطنها عليه، فلهذا فارقت جميع إناث الحيوان، وفارق ابنها جميع الخلق فصار الله وابنه الذي نزل من السماء، وحبلت به مريم وولدته إلهاً واحداً ومسيحاً واحداً ورباً واحداً وخالقاً (واحداً)[6] لا يقع بينهما فرق، ولا يبطل الاتحاد بينهما بوجه من الوجوه لا في حبل، ولا في ولادة، ولا في حال نوم، ولا مرض، ولا صلب، ولا موت، ولا دفن، بل هو متحد به في حال الحبل، فهو في تلك الحال مسيح واحد، وخالق واحد، وإله واحد، ورب واحد، وفي حال الولادة كذلك، وفي حال الصلب والموت كذلك، قالوا: فمنا من يطلق في لفظه وعبارته حقيقة هذا المعنى فيقول: مريم حبلت بالإله (وولدت الإله)[7] ومات الإله. ومنّا

(١) يوحنا: ١/١ ـ ٢.
(٢) في ج: وعاتبه.
(٣) سقطت من ص والأصل.
(٤) في الأصل: به مريم.
(٥) سقطت من الأصل.
(٦) سقطت من ص.
(٧) سقطت من ص.

من يمتنع من هذه العبارة لبشاعة لفظها، ويعطي معناها وحقيقتها، ويقول: «مريم حبلت بالمسيح في الحقيقة، وولدت المسيح في الحقيقة (وهي أم المسيح في الحقيقة والمسيح إله في الحقيقة ورب في الحقيقة)[1] وابن الله في الحقيقة، وكلمة الله في الحقيقة، لا ابن الله في الحقيقة سواه ولا أب للمسيح في الحقيقة إلّا هو.

قالوا: فهؤلاء يوافقون في المعنى قول من يقول: حبلت بالإله، وولدت الإله وقتل الإله (وصلب الإله ودفن الإله)[2]، وإن منعوا اللفظ والعبارة.

قالوا: وإنما منعنا هذه العبارة التي أطلقها إخواننا لئلا يتوهم علينا إذا قلنا: حبلت بالإله وولدت الإله (وأم)[3] إله، أن هذا كله حلّ ونزل بالإله الذي هو أب، ولكنا نقول: حل هذا كله ونزل بالمسيح، والمسيح عندنا وعند طوائفنا إله تام (من إله تام)[4] من جوهر أبيه، فنحن وإخواننا في الحقيقة شيء واحد لا فرق بيننا إلّا في العبارة فقط. قالوا: فهذا حقيقة ديننا وإيماننا، والآباء والقدوة قد قالوا قبلنا وسنّوه لنا ومهدوه، وهم أعلم بالمسيح منا.

ولا يختلف المثلثة عباد الصليب من أولهم إلى آخرهم أن المسيح ليس بنبي ولا عبد صالح، ولكنه إله حق من إله حق من جوهر أبيه، وأنه إله تام من إله تام، وأنه خالق السموات والأرض والأولين والآخرين ورازقهم ومحييهم ومميتهم وباعثهم من القبور وحاشرهم ومحاسبهم ومثيبهم ومعاقبهم.

والنصارى تعتقد أن الأب انخلع من ملكه كله، وجعله لابنه فهو الذي يخلق ويرزق ويميت ويحيي ويدبر أمر السموات والأرض.

ألا تراهم يقولون في أمانتهم: «ابن الله بكر أبيه وليس بمصنوع» إلى قولهم: «بيده أتقنت العوالم وخلق كل شيء» إلى قولهم: «وهو مستعد للمجيء تارة أخرى لفصل القضاء بين الأموات والأحياء».

---

(١) سقطت من الأصل.

(٢) في ب، ج، ص: وصلب ومات ودفن.

(٣) في ب: ومات الإله وألم وفي ج، ص: وألم.

(٤) سقطت من الأصل.

ويقـولون في صـلاتهم ومناجـاتهم: «أنت أيها المسيـح يسـوع تحيينـا (وتميتنـا)[1] وترزقنا وتخلق أولادنا وتقيم أجسادنا وتبعثنا وتجازينا».

[حقيقة المسيح عليه السلام]

وقد تضمن هذا كله تكذيبهم الصريح للمسيح، وإن أوهمتهم ظنونهم الكاذبـة أنهم يصدقونه، فإن المسيح قال لهم: «إن الله ربـي وربكم، وإلهي وإلهكم»[2].

فشهد على نفسه أنه عبد مربوب مصنوع كما أنهم كذلك، وأنـه مثلهم في العبوديـة والحاجة والفاقة إلى الله تعالى.

وذكر أنه رسول الله إلى خلقه كما أرسل الأنبياء قبله.

ففي إنجيل يوحنا أن المسيح قال في دعائـه: (إن الحياة الـدائمة إنمـا تجب للناس بأن يشهدوا أنك الله الواحد الحق. وأنك أرسلت يسوع المسيح)[3].

وهـذه حقيقة شهـادة المسلمين أن لا إله إلا الله وأن محمـداً رسول الله، وقـال لبني إسرائيل: «بل تريدون قتلي وأنا رجل قلت لكم الحق الذي سمعت الله يقـول»[4]، فذكـر غايته أنه رجل بلغهم ما قاله الله، ولم يقل: وأنا إله ولا ابن إله، (على معنى التوالـد)[5]، وقـال: «إني لم أجيء لأعمـل بمشيئـة نفسي ولكن بمشيئة من أرسلني)[6]، وقـال: «إن الكـلام الذي تسمعـونه مني ليس (هـو لي)[7]، ولكن للذي أرسلني، والويـل لي إن قلت شيئاً من تلقاء نفسي، (ولكن بمشيئة من أرسلني)[8]»[9].

---

(١) سقطت من ب، ج، ص.
(٢) يوحنا: ٢٠/١٧ (إني أصعد إلى أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم).
(٣) يوحنا: ١٧/٣.
(٤) يوحنا: ٨/٤٠.
(٥) سقطت من ب، ج، ص.
(٦) يوحنا: ٥/٣٠.
(٧) في ص: من تلقاء نفسي.
(٨) سقطت من ب، ج.
(٩) يوحنا: ٧/١٦ ـ ١٧.

وكان يواصل العبادة من الصلاة والصوم. ويقول: (ما جئت لأخدم بل جئت لأخدم)(1)، فانزل نفسه بالمنزلة التي أنزله الله بها، وهي منزلة الخدام (لله)(2) وقال: (لست أدين العباد بأعمالهم ولا أحاسبهم بأعمالهم، ولكن الذي أرسلني هو الذي يلي ذلك منهم)(3).

كل هذا في الإنجيل الذي بأيديهم. وفيه أن المسيح قال: «يا رب قد علموا أنك قد أرسلتني وقد ذكرت لهم اسمك»(4) فاخبر أن الله ربه وأنه عبده ورسوله.

[دعوة إلى التوحيد]

وفيه «إن الله الواحد رب كل شيء أرسل ابن البشر إلى جميع العالم ليقبلوا إلى الحق». وفيه أنه قال: (إن الأعمال التي أعملها، الشاهدات لي بأن الله تعالى أرسلني إلى هذا العالم)(5) وفيه «ما أبعدني إن أحدثت شيئاً من قبل نفسي ولكني أتكلم وأجيب بما علمني ربي»(6).

وقال: «إن الله مسحني وأرسلني، (وإنما أعبد الله)(7) الواحد ليوم الخلاص»(8)

---

(1) النص في إنجيل متى (وأكبركم يكون خادماً لكم، فمن يرفع نفسه يتضع، ومن يضع نفسه يرتفع) (متى: ٢٣/١١ ــ ١٢).

(2) سقطت من ب، ج، ص.

(3) لعل هذا مأخوذ مما ورد في يوحنا ما نصه (كما أسمع أدين ودينونتي عادلة لأني لا أطلب مشيئتي بل مشيئة الآب الذي أرسلني) يوحنا: ٥/٣٠، والنص الذي أورده المؤلف رحمه الله يتعارض مع ما ورد في إنجيل يوحنا ونصه: «لأن الآب لا يدين أحداً بل قد أعطى كل الدينونة للابن» يوحنا: ٥/٢٩.

(4) يوحنا: ١٧/٤ ــ ٦.

(5) يوحنا: ٥/٣٦.

(6) يوحنا: ١٤/٧.

(7) في ب، ج: وإنما أنا عبد الله.

(8) في إنجيل لوقا (روح الرب علي لأنه مسحني لأبشر المساكين، أرسلني لأشفي المنكسري القلوب) (لوقا: ٤/١٨).

وقـال: «إن الله عز وجـل ما أكـل ولا يأكـل وما شـرب ولا يشرب ولم ينم ولا ينـام وما ولـد ولا يلد وما رآه أحد إلا مات»[١].

وبهذا يظهر لك سر قوله تعالى في القرآن العظيم: ﴿ما المسيح ابن مريم إلاّ رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام﴾[٢]، تـذكيراً للنصـارى بما قـال لهم المسيح.

وقـال في دعائـه لما سـأل ربه أن يحيـي الميت: «أنـا أشكرك وأحمـدك (لأنـك)[٣] تجيب دعـائي في هذا الـوقت وفي كل وقت، فـأسألـك أن تحيـي هـذا الميت لتعلم بنـو إسرائيل أنك أرسلتني وأنك تجيب دعائي)[٤].

عيسى النبي الإنسان:

وفي الإنجيل «إن المسيح حين خرج من السامرية ولحق بجلجال[٥] قـال: لـم يكرم أحد من الأنبياء في وطن»[٦] فلم يزد على دعوى النبوة.

---

(١) هذا النص لا نجده متكاملاً في مكان واحد، بل نجده مبثوثاً في أمـاكن مختلفة من العهـدين القديم والجديد في إنجيل يوحنا «الله لم يره أحد قط» (يوحنا: ١/١٨).

(٢) سورة المائدة: الآية ٧٥.

(٣) في ج: أنت.

(٤) يوحنا: ١١/٤١ ـ ٤٣.

(٥) جلجال: كلمة عبرية معناها متدحرج، ولها عدة معان وردت في الكتاب المقدس؛ ويستفاد من سفر صموئيل الأول أن الجلجال نصب شاول ملكاً وتجددت مملكتـه، وإلى الجلجال أتى وفـد من سبط يهوذا يرحب برجوع داود إلى الملك بعد موت ابنه شالوم، ويرجح أن ما ذكـر في نحميا بعـد السبـي إشارة إلى بيت الجلجال ولأن هي بقعة تسمى خرابة الأثلة، وبالقرب منها بركة الجلوجولية على بعد ميل وثلث شرقي أريحا، كما يرد أنها قرية خـرج منها إيليـا واليشع، كمـا أنها عـاصمة ملك جـوييم (قاموس الكتاب المقدس: ١/٢٦٢).

(٦) ترد هذه العبارة ضمن قصة للمسيح مع اليهود في الناصرة عاصمة الجليل في أكثر من موضع، الأول في إنجيـل متى (ليس لنبي بلا كـرامة إلا في وطنـه) (متى: ١٣/٥٧)، والثاني في لـوقا (ليس نبـي مقبولاً في وطنه) (لوقا: ٤/٢٤) كما ترد في إنجيل يوحنا (فلما جاء إليه السامريـون سألـوه أن يمكث عندهم فمكث هناك يومين. . . وبعد اليومين خرج من هناك ومعنى إلى الجليل لأن يسوع نفسه شهد أن ليس لنبي كرامة في وطنه) يوحنا: ٤/٤٠ ـ ٤٣.

وفي إنجيل لوقا: (لم يقبل)[1] أحد من الأنبياء في وطنه، فكيف (تقبلونني)؟»[1]. وفي إنجيل مرقس، أن رجلاً أقبل إلى المسيح وقال: «أيها المعلم الصالح، أي خير أعمل لأنال الحياة الدائمة؟ فقال له المسيح: لم قلت صالحاً؟ إنما الصالح الله وحده، وقد عرفت الشروط، لا تسرق ولا تزن ولا تشهد بالزور ولا تخن وأكرم أباك وأمك»[2].

وفي إنجيل يوحنا أن اليهود لما أرادوا قبضه رفع بصره إلى السماء وقال (قد دنا الوقت يا إلهي فشرفني لديك، واجعل لي سبيلاً أن أملك كل من ملكتني الحياة (الدائمة، وإنما الحياة)[3] الباقية أن يؤمنوا بك إلهاً واحداً وبالمسيح الذي بعثت، وقد عظمتك على أهل الأرض واحتملت الذي أمرتني به فشرفني)[4].

فلم يدّع سوى أنه عبد مرسل مأمور مبعوث، وفي إنجيل متى: (لا تنسبوا أباكم على الأرض فإن أباكم الذي في السماء وحده، ولا تدعوا معلمين فإنما معلمكم المسيح وحده)[5].

والآب في لغتهم الرب المربي، أي لا تقولوا: إلهكم وربكم في الأرض، ولكنّه في السماء. ثم أنزل نفسه المنزلة التي أنزله بها ربه ومالكه، وهو أن غايته أنه يعلم في الأرض، وإلههم هو الذي في السماء.

وفي إنجيل لوقا، حين دعا الله فأحيا ولد المرأة، فقالوا: هذا النبي لعظيم وإن الله قد تفقد أمته[6].

---

(١) في الأصل: لم يقتل، تقتلونني، وفي ب: يقبل ويقبلونني وهو الصحيح وبالتاء تصحيف من النساخ وهذا ما يرد في إنجيل لوقا كما أشار المؤلف رحمه الله (ليس نبي مقبولاً في وطنه) (لوقا: ٤/٢٤) كما أن بقاءها بلفظ (يقتل) مخالفة للواقع، فكم من الأنبياء قتلوا في أوطانهم وبخاصة عند بني إسرائيل.

(٢) مرقس: ١٠/١٧ ـ ١٨.

(٣) سقطت من ب، ج، ص.

(٤) يوحنا: ١٧/١ ـ ٤.

(٥) متى: ٢٣/٩ ـ ١٠.

(٦) لوقا: ٧/١٦.

وفي إنجيل يوحنا أن المسيح (أعلى)[1] صوته في البيت وقال لليهود (قد عرفتموني وموضعي، ولم آت من ذاتي (وقد)[2] بعثني الحق، وأنتم تجهلونه، فإن قلت إني أجهله كنت (كاذباً)[3] مثلكم، وأنا أعلم (أني منه)[4] وهو بعثني)[5].

فما زاد في دعواه على ما ادعاه الأنبياء فأمسكت المثلثة قوله (إني منه) وقالوا: إله حق من إله حق. وفي القرآن ﴿رسول من الله﴾[6].

وقال هو ﴿ولكني رسول من رب العالمين﴾[7] وكذلك قال صالح. ولكن أمة الضلال كما أخبر الله عنهم يتبعون المتشابه ويردون المحكم. وفي الإنجيل أيضاً أنه قال لليهود، وقد قالوا له «نحن أبناء الله» فقال: لو كان الله أباكم لأطعتموني لأني رسول منه، خرجت مقبلاً، ولم أقبل من ذاتي، ولكن هو بعثني، ولكنكم لا تقبلون وصيتي، وتعجزون عن سماع كلامي، إنما أنتم أبناء الشيطان وتريدون إتمام شهواته[8].

وفي الإنجيل أن اليهود حاطت به وقالت له: «إلى متى تخفي أمرك إن كنت المسيح الذي ننتظره فأعلمنا بذلك»[9].

ولم تقل: إن كنت الله أو ابن الله، فإنه لم يدع ذلك، ولا فهمه عنه أحد من أعدائه ولا أتباعه.

وفي الإنجيل أيضاً أن اليهود أرادوا القبض عليه، فبعثوا الأعوان، وأن الأعوان رجعوا إلى قوادهم، فقالوا لهم: لم (لم)[10] تأخذوه؟ فقالوا: ما سمعنا آدمياً أنصف منه،

---

(١) في ج، ص: أعلن.

(٢) في ب، ج، ص: ولكن.

(٣) في ج: كذابا بينكم.

(٤) في ص: وأنتم تجهلونه أنه مني وأنا منه.

(٥) يوحنا: ٧/٢٨ ــ ٢٩.

(٦) سورة البينة: الآية ٢.

(٧) سورة الأعراف: الآية ٦٧.

(٨) يوحنا: ٨/٤١ ــ ٤٤.

(٩) يوحنا: ١٠ ــ ٢٤.

(١٠) سقطت من ج.

فقالت اليهود: وأنتم أيضاً مخدوعون؟ أترون (أنه)[1] آمن به أحد من القواد ومن رؤساء أهل الكتاب؟ فقال لهم بعض أكابرهم: أترون كتابكم يحكم على أحد قبل أن يسمع منه؟ فقالوا له: اكشف الكتب ترى أنه لا يجيء من جلجال نبي[2]، فما قالت اليهود ذلك إلا وقد أنزل نفسه بالمنزلة التي أنزله بها ربه ومالكه أنه نبي، ولو علمت من دعواه الإلهية لذكرت ذلك له وأنكرته عليه، وكان أعظم أسباب التنفير عن طاعته لأن كذبه كان يعلم بالحس والعقل والفطرة واتفاق الأنبياء.

[الرد على إلٰهيّة المسيح]

ولقد كان يجب لله سبحانه ــ لو سبق في حكمته أن يبرز (لعباده)[3]، وينزل عن كرسي عظمته ويباشرهم بنفسه ــ أن لا يدخل في (فرج)[4] امرأة ويقيم في بطنها بين البول والنجو والدم عدة أشهر (وإذ قد فعل ذلك لا يخرج صبياً صغيراً يرضع ويبكي)[5] وإذ قد فعل ذلك لا يأكل مع الناس ولا يشرب مع الناس ولا ينام معهم[6]، وإذ قد فعل فلا يبول ويتغوط، ويمتنع من الخرأة إذ هي منقصة ابتلي بها الإنسان في هذه الدار لنقصه وحاجته، وهو تعالى المختص بصفات الكمال، المنعوت بنعوت الجلال، الذي ما وسعته سماواته ولا أرضه، وكرسيّه وسع السموات والأرض، فكيف وسعه (فرج)[7] امرأة ــ تعالى رب العالمين ــ وكلكم متفقون على أن المسيح كان يأكل ويشرب ويبول ويتغوّط وينام.

فيا معشر المثلثة وعبّاد الصليب، أخبرونا من كان الممسك للسموات والأرض حين كان ربها وخالقها مربوطاً على خشبة الصليب، وقد شدت يداه ورجلاه بالحبال، وسمّرت اليد التي أتقنت العوالم؟ فهل بقيت السموات والأرض خلواً من إلهها وفاطرها، وقد جرى

(١) في الأصل: الله.
(٢) يوحنا: ٧/٤٥ ــ ٥٢.
(٣) في الأصل: بعبادته.
(٤) في ج: بطن.
(٥) سقطت من ص والأصل.
(٦) سقطت من ص.
(٧) في ج: بطن.

عليه هذا الأمر؟ أم تقولون استخلف على تدبيرها (غيره)[1]، وهبط عن عرشه لربط نفسه على خشبة الصليب، وليذوق حرّ المسامير ويوجب اللعنة على نفسه، حيث قال في التوراة: (ملعون ملعون من تعلق بالصليب)[2]، أم تقولون ــ وهو في الحقيقة قولكم ــ: لا ندري ولكن هذا في الكتب، وقد قاله الآباء ــ وهم القدوة ــ والجواب عليهم.

[شبهات وردود]

فنقول لكم: (وإلا يا)[3] معاشر المثلثة عباد الصليب، ما الذي دلكم على إلهية المسيح؟.

[الشبهة الأولى]

فإن كنتم استدللتم عليها بالقبض من أعدائه (عليه)[4]بزعمكم وسوقه إلى خشبة الصليب وعلى رأسه تاج من الشوك، وهم يبصقون في وجهه ويصفعونه، ثم أركبوه (ذلك)[5] المركب الشنيع، وشدوا يديه ورجليه بالحبال، وضربوا فيها المسامير، وهو يستغيث ويقلق ثم فاضت نفسه وأودع ضريحه.

فما (أَصَحَّهُ)[6] من استدلال عند أمثالكم ممن هو أضل من الأنعام، وهم عار على جميع الأنام.

[الشبهة الثانية]

وإن قلتم: إنما استدللنا على كونه إلهاً بأنه لم يولد من البشر، ولو كان مخلوقاً لكان مولوداً من البشر، فإن كان هذا الاستدلال صحيحاً فآدم إله المسيح، وهو أحق بأن يكون إلهاً منه لأنه لا أم ولا أب له والمسيح له أم.

---

(١) سقطت من ص.
(٢) تثنية: ٢١/ ٢٣.
(٣) في الأصل: وللآباء.
(٤) سقطت من الأصل.
(٥) سقطت من ب، ج.
(٦) في الأصل: أقبحه.

وحواء أيضاً اجعلوها إلهاً خامساً، لأنهـا لا أمّ لها، وهي أعجب من خلق المسيـح. والله سبحانه وتعالى قد نوّع خلق آدم، وبنيه إظهاراً لقدرته وأنه يفعل ما يشـاء، فخلق آدم لا من ذكر ولا من أنثى، وخلق زوجته حـواء من ذكر لا من أنثى، وخلق عبـده المسيح من أنثى لا من ذكر، وخلق سائر (النوع)[1] من ذكر وأنثى.

[الشبهـة الثالثـة]

وإن قلتم: استدللنا على كونه إلهاً بأنه أحيـى الموتى، ولا يحييهم إلاّ الله. فاجعلوا موسى إلهاً آخـر فإنـه أتى من ذلك بشيء لم يـأت المسيح بنـظيره ولا يقـاربه، وهـو جعل الخشبة حيواناً عظيماً، وهذا أبلغ وأعجب من إعـادة الحياة إلى جسم كـانت فيه أولاً فـإن قلتم: هذا غير إحياء الموتى، فهذا اليسع النبي أتى بإحياء الموتى[2] وهم يقرّون بذلك.

وكـذلك (إيليـا)[3] النبـي أيضاً أحيـى صبيـاً بإذن الله[4]. وهـذا مـوسى قـد أحيـى بإذن الله السبعين الذين ماتوا من قومه.

وفي كتبكم من ذلك كثير عن الأنبياء والحواريين، فهل صار أحد منهم إلهاً بذلك.

[الشبهـة الرابعـة]

وإن قلتم جعلنـاه إلهاً للعجـائب التي ظهرت على يـديـه، فعجـائب مـوسى أعجب وأعجب.

---

(١) في ج: الأنواع.

(٢) اليسع وهو اليشيع ـ بالعبرية ـ ورد ذكر إحيائه للموتى في العهد القديم في أكثر من موضـع، فسفر الملوك يسرد قصته مع المرأة الشونمية، وكيف بشرها بغلام وكان زوجهـا قد شـاخ، وكبر الغـلام ثم مات فأرسلت إليه فأحياه بإذن الله (الملوك الثـاني: ٤/٨ ـ ٣٧) كما يـذكر هـذا السفر أنـه لما مـات اليشع ودفن، دفن فوقه في الحال ميت آخـر فلما مس عـظام اليشع عـاش وقام على رجليـه (الملوك الثاني: ١٣/٢٠ ـ ٢١).

(٣) في ب، ج: الياس.

(٤) إيليا هو إلياس عليه السلام. وقصة إحيائه الصبي نجدها في سفر الملوك الأول: ١٧/١٧ ـ ٢٤.

وهذا إيلياء النبـي بارك على دقيق العجوز ودهنها فلم ينفد ما في جراحها من الدقيق وما في قارورتها من الدهن سبع سنين(١).

[الشبهـة الخامسـة]

وإن جعلتموه إلهاً لكونه أطعم من أرغفة يسيرة آلافاً من الناس(٢)، فهـذا موسى قـد أطعم أمته أربعين سنة من المنّ والسلوى. وهذا محمد ﷺ ابن عبد الله قد أطعم العسكـر كله من زاد يسيـر جـداً حتى شبعـوا ومـلأوا أوعيتهم، وسقـاءهم كلهم من مـاء يسيـر لا (يغمر)(٣) اليد حتى ملأوا كل سقاء في العسكر، وهذا منقول عنه بالتواتر(٤).

[الشبهـة السادسـة]

وإن قلتم جعلناه إلهاً لأنه صاح بالبحر فسكنت أمواجه(٥)، فقد ضرب مـوسى البحر بعصاه فانفلق اثني عشر طريقاً، وقام الماء بين الطرق كالحيطان، وفجّر من الحجر الصلد اثني عشر (عينا)(٦) سارحة.

[الشبهـة السابعـة]

وإن جعلتمـوه إلهاً لأنـه أبرأ الأكمـه والأبرص (وأحيـى المـوتى)(٧). فآيـات موسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين أعجب من ذلك.

---

(١) انظر: الملوك الأول: ١٧/١١ ـ ١٦ لكن النص لا يحدد المـدة بسبع سنين، لأنـه هكذا قـال الرب إله إسرائيل إن كوار الدقيق لا يفرغ وكوز الزيت لا ينقص إلى اليوم الذي فيه يعطي الرب مطراً على وجه الأرض.

(٢) الأرغفة خمسة وعدد الرجال نحو خمسة آلاف. انظر: يوحنا: ٦/٩ ـ ١٠.

(٣) في ب، ج، ص: يعم.

(٤) الحديث، انظر: صحيح مسلم ١/١٠ ـ ٤٥.

(٥) مرقس ٤/٣٩.

(٦) سقطت من الأصل.

(٧) في ب، ج، ص: وإحياء الموتى أعجب من ذلك.

[الشبهة الثامنة]

وإن جعلتموه إلهاً لأنه ادعى ذلك، فلا يخلو إما أن يكون الأمر كما تقولون عنه، أو يكون إنما ادعى العبودية والافتقار وأنه مربوب ومصنوع مخلوق. فإن كان كما ادعيتم عليه، (فهذا)[1] أخو المسيح الدجال، وليس بمؤمن ولا صادق فضلاً عن أن يكون نبياً كريماً. وجزاؤه جهنم وبئس المصير، كما قال تعالى: ﴿ومن يقل منهم إني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم﴾[2].

وكل من ادعى الالهية من دون الله فهو من أعظم أعداء الله، كفرعون ونمرود وأمثالهما من أعداء الله. فأخرجتم المسيح عن كرامة الله ونبوته ورسالته، وجعلتموه من أعظم أعداء الله، ولهذا كنتم أشد (الناس)[3] عداوة للمسيح في صورة محب (موال)[4]، ومن أعظم ما يعرف به كذب المسيح الدجال أنه ادعى الإلهية فيبعث الله عليه عبده ورسوله مسيح الهدى ابن مريم فيقتله، ويظهر (للخلائق)[5] أنه كان كاذباً مفترياً. ولو كان إلهاً لم يقتل فضلاً عن أن يصلب ويسمر ويبصق في وجهه.

وإن كان المسيح إنما ادعى أنه (عبد الله ورسوله)[6] كما شهدت به الأناجيل كلها ودل عليه العقل والفطرة وشهدتم أنتم له بالإلهية ـ وهذا (هو)[7] الواقع ـ فلم تأتوا على إلهيته ببينة غير تكذيبه في دعواه. وقد ذكرتم عنه في أناجيلكم في مواضع عديدة ما يصرح بعبوديته، وأنه مربوب مخلوق، وأنه ابن البشر، وأنه لم يدع غير النبوة والرسالة فكذبتموه في ذلك كله، وصدقتم من كذب على الله (وعليه)[8].

---

(١) في ب، ج، ص: فهو.

(٢) سورة الأنبياء: الآية ٢٩.

(٣) سقطت من الأصل.

(٤) سقطت من الأصل.

(٥) سقطت من الأصل.

(٦) في ب، ج، ص: عبد ونبي ورسول.

(٧) في ب، ج: قول.

(٨) في ب: تعالى ورسوله.

[الشبهة التاسعة]

وإن قلتم: إنما جعلناه إلهاً لأنه أخبر بما يكون بعده من الأمور (كذلك كان)[1] الأنبياء، بل وكثير من الناس يخبر (بما يكون بعده من الأمور)[2] ويخبر عن حوادث في المستقبل (جزئية)[3] ويكون ذلك كما أخبر به.

ويقع من ذلك كثير للكهان والمنجمين والسحرة.

[الشبهة العاشرة]

وإن قلتم: إنما جعلناه إلهاً لأنه سمى نفسه ابن الله في غير موضع من الإنجيل، كقوله «إني ذاهب إلى أبي»[4] و«إني سائل أبي»[5] ونحو ذلك وابن الإله إله. قيل: فاجعلوا أنفسكم (آلهة)[6] كلكم، فإن في الإنجيل في غير موضع أنه سمّاه أباه وأباهم كقوله «إني ذاهب إلى أبي وأبيكم»[7].

وفيه (لا تنسبوا آباكم على الأرض فإن أباكم الذي في السماء وحده)[8] وهذا كثير في الإنجيل. وهو يدل على أن الأب عندهم الرب.

[الشبهة الحادية عشرة]

وإن جعلتموه إلهاً لأن تلاميذه ادعوا ذلك، وهم أعلم الناس به كذّبتكم أناجيلُكُم التي بأيديكم، وكلها صريحة أظهر صراحة بأنهم ما ادعوا له إلا ما ادعاه لنفسه من أنه عبده.

---

(١) في ب، ج، ص: فكذلك عامة.
(٢) سقطت من ب، ص.
(٣) في ص والأصل: مما جربه.
(٤) يوحنا: ١٦/١٦.
(٥) يوحنا: ٢٦/١٦.
(٦) سقطت من ج.
(٧) يوحنا: ١٧/٢٠.
(٨) متى: ٩/٢٣.

فهذا متّى يقول في الفصل (التاسع)[1] من إنجيله محتجاً بنبوة أشعيا في المسيح عن الله عز وجل: (هذا عبدي الذي اصطفيت وحبيبي الذي ارتاحت نفسي له)[2].

وفي الفصل الحادي عشر[3] من إنجيله: «إني أشكرك يا رب السموات والأرض»[4] وهذا لوقا يقول في آخر إنجيله: «إن المسيح عرض له ولآخر من تلاميذه في الطريق (ملك)[5] وهما محزونان فقال لهما وهما لا يعرفانه: ما بالكما محزونين؟ فقال: كأنك غريب في بيت المقدس! إذ كنت لا تعلم ما حدث فيها في هذه الأيام من أمر يسوع الناصري فإنه كان رجلاً نبياً قوياً تقياً في قوله وفعله عند الله وعند الأمة. أخذوه وقتلوه»[6]. وهذا كثير جداً في الإنجيل.

[الشبهة الثانية عشرة]

وإن قلتم: إنما جعلناه إلهاً لأنه صعد إلى السماء. فهذا أخنوخ[7] وإلياس[8]، قد صعدوا إلى السماء وهما حيّان مكرمان لم تشكهما شوكة ولا طمع فيهما طامع.

---

(١) هكذا في جميع النسخ، مع أن النص في الإصحاح الثاني عشر من إنجيل متى.

(٢) متى: ١٢/١٨.

(٣) هكذا في جميع النسخ، والنص في الفصل الحادي عشر من إنجيل متى.

(٤) متى: ١١/٢٥.

(٥) في الأصل: يسلك.

(٦) لوقا: ٢٤/١٣ ــ ٢٧.

(٧) أخنوخ: هو إدريس عليه السلام.
ويشير سفر التكوين إلى صعوده فيقول: (وسار أخنوخ مع الله ولم يوجد لأن الله أخذه) التكوين: ٥/٢٤.
كما أشار القرآن الكريم إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿واذكر في الكتاب إدريس إنه كان صديقاً نبياً ورفعناه مكاناً علياً﴾ (مريم: ٥٦ ــ ٥٧).
وقد روي عن مجاهد في قوله: ﴿ورفعناه مكاناً علياً﴾ قال: إدريس رفع ولم يمت كما رفع عيسى، وقال سفيان عن منصور عن مجاهد ﴿ورفعناه مكاناً علياً﴾ قال: السماء الرابعة (تفسير ابن كثير ٣/١٢٦).

(٨) إلياس عليه السلام وهو الذي يُطلق عليه (إيليا) في التوراة وقصة صعوده إلى السماء أثناء رحلته مع (اليشع) من الجلجال إلى الأردن ذكرها سفر الملوك الثاني: ٢/١ ــ ١٨.

والمسلمون مجمعون على أن محمداً ﷺ صعد إلى السماء وهو عبد محض وهذه الملائكة تصعد إلى السماء، وهذه أرواح المؤمنين تصعد إلى السماء بعد مفارقتها الأبدان، ولا تخرج بذلك عن العبودية، وهل كان الصعود إلى السماء مخرجاً من العبودية بوجه من الوجوه؟

[الشبهة الثالثة عشرة]

وإن جعلتموه إلهاً لأن الأنبياء سمته إلهاً ورباً وسيداً ونحو ذلك، فلم تزل كثير من أسماء الله عز وجل تقع على غيره عند جميع الأمم وفي سائر الكتب، وما زالت الروم والفرس والهند والسريانيون (والعبرانيون)[1] والقبط وغيرهم يسمّون ملوكهم آلهة وأرباباً.

وفي السفر الأول من التوراة «إن بني الله دخلوا على بنات (الناس)[2] ورأوهن بارعات بالجمال فتزوجوا منهن»[3].

وفي السفر الثاني[4] من التوراة قصة المخرج من مصر: «إني جعلتك إلهاً لفرعون»[5] وفي المزمور الثاني والثمانين: «وقام الله في جميع الآلهة»[6].

هذا في العبرانية، وأما من نقله إلى السريانية فإنه حرفه، فقال: قام الله في جماعة الملائكة وقال في هذا المزمور وهو يخاطب قوماً بالروح: «لقد ظننت أنكم آلهة وأنكم (أبناء)[7] الله كلكم»[8] وقد سمى الله عبده بالملك كما سمى نفسه بذلك[9].

---

(١) سقطت من الأصل.
(٢) في ج: الياس.
(٣) التكوين: ٦/٢.
(٤) في الأصل: الثامن.
(٥) الخروج: ٧/١.
(٦) مزامير: ٨٢/١.
(٧) في الأصل: اماء.
(٨) مزامير ٨٢/٦.
(٩) الملك من أسماء الله ﴿الملك القدوس...﴾[الحشر: ٢٣] وأطلق القرآن اسم الملك على بعض ملوك الأرض ﴿وقال الملك إني أرى سبع بقرات...﴾ [يوسف: ٤٣] وغيرها كثير.

وسمى نبيه بالرؤوف الرحيم كما سمى نفسه بذلك[١]، وسماه العزيز[٢] وسمى نفسه كذلك، واسم الرب واقع على غير الله تعالى في لغة أمة التوحيد، كما يقال: (هو رب الدار)[٣]، ورب المنزل، ورب الإبل، ورب هذا المتاع.

وقد قال أشعيا: (عرف الثور من اقتناه، والحمار مربط ربّه، ولم تعرف بنو إسرائيل)[٤] (يعني من خلقهم)[٥].

[الشبهة الرابعة عشرة]

وإن جعلتموه إلهاً لأنه صنع من الطين (كهيئة الطير أي)[٦] صورة طائر ثم نفخ فيها وصارت لحماً ودماً وطائراً حقيقة ولا يفعل هذا إلا الله.

قيل: فاجعلوا موسى بن عمران إله الآلهة فإنه ألقى عصاه فصارت ثعباناً عظيماً، ثم أمسكه بيده فصارت كما كان.

[الشبهة الخامسة عشرة]

وإن قلتم: جعلناه إلهاً بشهادة الأنبياء الرسل له بذلك، قال عزرا[٧]: حيث أسباهم بخت نصر إلى أرض بابل، (إلى أربعمائة واثنين وثمانين سنة، يأتي المسيح ويخلص الشعوب والأمم) وعند انتهاء هذه المدة أتى المسيح، ومن يطيق يخلص الأمم

(١) سقطت من الأصل.
(٢) ذكر اسم العزيز في القرآن على يوسف عليه السلام ﴿قالوا يا أيها العزيز﴾ [يوسف: ٧٨].
(٣) سقطت من ب، ج، ص.
(٤) آشعيا: ١/٣.
(٥) سقطت من ب، ج، ص.
(٦) سقطت من ب، ج، ص.
(٧) عزرا: اسم عبري معناه (عون) وهو كاهن عاد من بابل إلى القدس واعتبره اليهود المتأخرون زعيماً لهم بعد موسى، ويعتبرونه مؤسس نظم اليهودية المتأخرة أي التي وضعت في القرن الخامس قبل الميلاد، ولقبوه بالكاتب لأنه كان دارساً مجتهداً ومفسراً عميقاً لوصايا الله وعهده لبني إسرائيل، وفي الكتاب المقدس سفر يعرف باسمه (سفر عزرا) (قاموس الكتاب المقدس: ٢/٦٢١).

(والشعوب)[1] غير الإله التام، قيل لكم: فاجعلوا جميع الرسل آلهة فإنهم خلصوا الأمم من الكفر والشرك، وخلصوهم من النار بإذن الله (وحده)[2].

ولا شك أن المسيح خلص من آمن به واتبعه من ذل الدنيا وعذاب الآخرة، كما خلص موسى بني إسرائيل من فرعون وقومه، وخلصهم بالإيمان بالله واليوم الآخر من عذاب (النار)[3] في الآخرة.

وخلص الله سبحانه وتعالى بمحمد ﷺ ابن عبد الله عبده ورسوله من الأمم والشعوب ما لم يخلصه نبي سواه. فإن وجبت الإلهية لعيسى (بذلك)[4] فموسى (ومحمد)[5] أحقّ بها منه.

[الشبهة السادسة عشرة]

وإن قلتم: أوجبنا له الإلهية لقول (أرميا) النبي عن ولادته في ذلك الزمان (يقوم لداود ابن، وهو ضوء النهار، يملك الملك ويقيم الحق والعدل في الأرض، ويخلص من آمن به من اليهود ومن بني إسرائيل ومن غيرهم، ويبقى بيت المقدس بغير مقابل، ويسمى الإله)[6].

فقد تقدم أن اسم الإله في الكتب المتقدمة وغيرها قد أطلق على غيره بمنزلة الرب والسيد والأب، ولو كان عيسى هو الله لكان أجلّ من أن يقال: ويسمى الإله، وكان يقول وهو الله، فإن الله سبحانه وتعالى لا يعرّف بمثل هذا. وفي هذا (الدليل)[7] الذي جعلتموه به إلهاً أعظم الأدلة على أنه عبد، وأنه ابن البشر، فإنه قال: (ويقوم لداود ابنٌ) فهذا الذي

---

(١) سقطت من ب، ج، ص.
(٢) في ج: الواحد القهار.
(٣) سقطت من ب، ج، ص.
(٤) سقطت من ج.
(٥) سقطت من ص.
(٦) معنى هذا النص نجده في سفر أشعيا وليس في سفر أرميا، كما أشار المؤلف رحمه الله (انظر: أشعيا: ٩/٦ ـ ٧).
(٧) سقطت من الأصل.

قـام لداود هـو الذي سمي بـالإله، فعلم أن هـذا الاسم لمخلوق مصنوع مـولـود لا لـرب العالمين وخالق السماوات والأرضين.

[الشبهة السابعة عشرة]

فإن قلتم: إنما جعلنـاه إلهاً من جهـة قول أشعيـا النبـي (قل لصهيـون يفرح ويتهلل فـإن الله يـأتي ويخلص الشعـوب، ويخلص من آمن بـه ويخلص مـدينـة بيت المقـدس، ويظهر الله ذراعه الطاهر فيها لجميـع الأمم المتبدّدين ويجعلهم أمـة واحدة، ويبصـر جميع أهل الأرض خلاص الله، لأنه يمشي معهم وبين يديهم ويجمعهم إله إسرائيل)[1].

قيل لكم: هذا يحتاج أولاً إلى أن يعلم أن ذلك في نبـوة أشعيا بهـذا اللفظ من غير تحريف للفظه ولا غلط في الترجمة وهذا غير معلوم.

وإن ثبت ذلك لم يكن فيه دليل على أنه إله تام، وأنه غير مصنوع ولا مخلوق، فإنـه نظير ما في التوراة من قوله:

(جاء الله من طور سيناء وأشرق من ساعير واستعلن من جبال فاران). وليس في هذا ما يدل على أن موسى ومحمد إلهين.

والمراد مجيء دينه وكتابه وشرعه وهداه ونوره.

وأما قوله: (ويظهر الله ذراعه الطاهر لجميع الأمم المتبددين). ففي التوراة مثل هـذا وأبلغ منه في غير موضع.

وأما قولـه: (ويبصر جميـع أهل الأرض خـلاص الله لأنه يمشي معهم وبين يـديهم) فقد قال في التوراة في السفر الخامس لبني إسرائيل: (لا تهابـوهم ولا تخافـوهم، لأن الله ربكم السائر بين أيديكم وهو محارب عنكم)[2].

وفي موضع آخـر قال مـوسى: (إن الشعب هو شعبـك، فقال: أنـا أمضي أمامـك،

---

(١) أشعيا: ٦٢/١١ ـ ١٢.

(٢) التثنية: ١/٢٩ ـ ٣٠.

فقال: إن لم تمض أنت أمامنا وإلا فلا تصعدنا من هٰهنا، وكيف أعلم أنا وهذا الشعب أني وجدت نعمة كذا إلا بسيرك معنا)[1].

وفي السفر الرابع (إن «أصعدت»[2] هؤلاء بقدرتك فيقولون لأهل الأرض الذين سمعوا منك الله فيما بين هؤلاء القوم يرونه عيناً بعين وغمامك (يقيم)[3] عليهم، ويعود غمام يسير بين أيديهم نهاراً ويعود ناراً ليلاً)[4].

وفي التوراة أيضاً يقول الله لموسى: (إني آت إليك في غلظ الغمام لكي يسمع القوم مخاطبتي لك)[5].

وفي الكتب الإلهية وكلام الأنبياء (من هذا كثير)[6]، وفيما حكى خاتم الأنبياء عن ربّه تعالى أنه قال: «ولا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبّه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، فبي يسمع وبي يبطش وبي يمشي»[7].

[الشبهة الثامنة عشرة]

وإن قلتم جعلناه إلهاً لقول زكريا في نبوته: (افرحي يا بنت صهيون لأني آتيك وأحل فيك، (وأتراءى)[8] ويؤمن بالله في ذلك اليوم الأمم الكثيرة ويكونون له (شعباً)[9]

---

(١) الخروج ٣٣/١٤ ـ ١٦.
(٢) في الأصل: أضعت.
(٣) في ج، ص: يقيم.
(٤) العدد: ١٤ ـ ١٥.
(٥) الخروج: ١٩/٩.
(٦) في ج: كثير من هذا.
(٧) هذا النص جزء من حديث أخرجه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة، مع اختلاف في اللفظ، فلم ترد عند البخاري كلمة (أكون) وإنما كان اللفظ (حتى أحبه) ولم يرد عند البخاري خاتمة هذا النص (فبي يسمع وبي يبطش وبي يمشي) وإنما ختم الحديث (وإن سألني لأعطينه ولئن استعاذ بي لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته) (البخاري: ٨١/٣٢ ـ ٦٥٠٢). وأخرجه الإمام أحمد في مسنده: ٦/٢٥٦.
(٨) في الأصل: اتزايا وفي ج: اتزانا وفي ص: اترايا.
(٩) في الأصل شيئاً وفي ج: شيعا.

واحداً، ويحلّ هو فيهم، ويعرفني أني أنا لله القوي الساكن فيك، ويأخذ الله في ذلك اليوم الملك من يهودا ويملك عليهم إلى الأبد)[1].

قيل لكم: إن وجبت له الإلهية بذلك فتجب لإبراهيم وغيره من الأنبياء، فإن عند أهل الكتاب وأنتم معهم (إن الله تجلى على إبراهيم واستعلن له وتراءى له)[2].

وأما قوله (وأحل فيك) لم يرد الله سبحانه وتعالى حلول ذاته ـ التي لم تسعها السماوات والأرض ـ في بيت المقدس. وكيف تحل ذاته في مكان يكون فيه مقهوراً مغلوباً مع شرار الخلق؟ (كيف)[3] وقد قال: ويعرفون أني أنا الله القوي الساكن فيك؟ أفترى (عرفوا)[4] قوته بالقبض عليه، وشدّ يديه بالحبال، وربطه على خشبة الصليب، ودق المسامير في يديه ورجليه، ووضع تاج الشوك على رأسه، وهو يستغيث ولا يغاث؟! وما كان المسيح يدخل بيت المقدس إلا وهو مغلوب مقهور مستخف في غالب أحواله.

ولو صحّ مجيء هذه الألفاظ صحة لا تدفع، وصحت ترجمتها كما ذكروه لكان معناها أن معرفة الله والإيمان به وذكره ودينه وشرعه حلّ في تلك البقعة وبيت المقدس، لما ظهر فيه دين المسيح بعد رفعه حصل فيه من الإيمان بالله ومعرفته ما لم يكن قبل ذلك.

وجماع الأمر أن النبوات المتقدمة والكتب الإلهية لم تنطق بحرف واحد يقتضي أن يكون ابن البشر إلهاً تاماً إله حق، وأنه غير مصنوع (ولا مربوب)[5]، بل لم يخصه إلا بما خصه به أخوه وأولى الناس به محمد بن عبد الله ﷺ في قوله (إنه)[6] عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه.

وكتب الأنبياء المتقدمة وسائر النبوات موافقة بما أخبر به محمد ﷺ، وذلك كله يصدق بعضه بعضاً، وجميع ما تستدل به المثلثة عباد الصليب على إلهية المسيح من

---

(١) انظر: زكريا: ٢/١٠ ـ ١٢ وانظر: صفنيا: ٣/١٤ ـ ١٧.
(٢) انظر: التكوين: ١/١٧.
(٣) سقطت من ج.
(٤) في الأصل: يمزقوا.
(٥) سقطت من الأصل.
(٦) في الأصل: هو.

ألفاظ وكلمات في الكتب فإنّها مشتركة بين المسيح وغيره، كتسميته ابناً وكلمة وروح الحق وإلهاً (وكذلك هو روح القدس. أما روح القدس فهي سرّ الله وأمره، وقد ورد في الكتب الإلهية لغير المسيح.

وقد أطلقت لمعان منها جبريل[1]، ومنها: اسم الله الأعظم، ومنها: الوحي[2]، وقد أطلقت على المسيح لأن روحه لم تخالط نطفة، والقدوس هو الطاهر، ولذلك أطلق على المسيح روح الله، وهذه الإضافة إضافة تعظيم كقوله: بيت الله وناقة الله وكما كانت الأمم الماضية يطلقون على أنفسهم أبناء الله. ومنها[3] القرآن الذي هو أعمّ من القرآن المنزل على محمد الشامل لكل كتاب منزل.

وأما الروح التي بها الحياة فهي النفس على قاعدة أهل السنّة، وهي: جسم لطيف ويشاكل الأجسام المحسوسة تحدث، ويخرج بها إلى السماء بفرح، لا تموت ولا تفنى، وهي مما له أول، وليس له آخر كالجنة والنار، والأجساد في المعاد وهي بعينين ويدين، وهي ذو ريحة طيبة أو كريهة بحسب محلها، وهي إما منعمة أو معذبة، وذلك غاية الدليل على حدوثها.

وإنما سمي المسيح روح الله لأنه ذو روح، وجد من غير جزء من ذي روح، كالنطفة المنفصلة من الأب الحي، وإنما اخترع اختراعاً من عند الله وقدرته خالصة.

وسمّي كلمة الله لأنه وجد بكلمته وأمره من غير واسطة أب ولا نطفة وهذا ظاهر)[4].

وكذلك ما أطلق من حلول[5] روح القدس فيه، وظهور الرب فيه أو في مكانه، وقد وقع في نظير شركهم وكفرهم طوائف من المنتسبين إلى الإسلام، واشتبه عليهم ما يحلّ في قلوب العارفين من الإيمان به ومعرفته ونوره وهداه، فظنوا أن ذلك نفس ذات الرب،

---

(١) كما في قوله تعالى: ﴿قل نزله روح القدس من ربك بالحق﴾ [النحل: ١٠٢].

(٢) كما في قوله ﷺ «نفث الروح الأمين في روعي...»

(٣) كما في قوله تعالى: ﴿وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا﴾ [الشورى: ٥٢].

(٤) هذه الفقرات كلها من قوله: وكذلك هو روح القدس... إلى قوله: وهذا ظاهر سقطت من ب، ج، ص.

(٥) في الأصل: من حلول.

فقد قال الله تعالى: ﴿وله المثل الأعلى في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم﴾[1] وهو ما في قلوب الملائكة وأنبيائه وعباده المؤمنين من الإيمان به ومعرفته ومحبته وإجلاله وتعظيمه، وهو نظير قوله تعالى: ﴿فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا﴾[2] وقوله تعالى: ﴿وهو الله في السموات وفي الأرض يعلم سركم وجهركم ويعلم ما تكسبون﴾[3].

وقوله تعالى: ﴿وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله وهو الحكيم العليم﴾[4].

فأولياء الله يعرفونه ويحبونه ويجلونه أن يقال هو ما في قلوبهم، والمراد محبته ومعرفته، والمثل الأعلى في قلوبهم لا نفس ذاته، وهذا أمر تعتاده الناس في مخاطباتهم ومحاوراتهم، يقول الإنسان لغيره: أنت في قلبي ولا زلت في عيني، كما قال القائل:

ومن عجب أني أحن إليهم ... وأسأل عنهم من لقيت وهم معي
وتطلبهم عيني وهم في سوادها ... ويشتاقهم قلبي وهم بين أضلعي

وقال آخر:

خيالك في عيني وذكراك في فمي ... ومثواك في عيني[5] فأين تغيب

وقال آخر[6]: (في المعنى مفرد)(*)

ساكن في القلب يعمره ... لست أنساه فأذكره

وقال آخر: (في المعنى وأجاد)(*)

إن قلت غبت فقلبي لا يصدقني ... إذ أنت فيه ـ فدتك النفس ـ لم تَغِبِ
أو قلت ما غبت قال الطرف ذا كذب ... فقد تحيرت بين الصدق والكذب

وقال آخر[7]: (في المعنى مفرد)(*)

---

(١) سورة الروم: الآية ٢٧.
(٢) سورة البقرة: الآية ١٣٧.
(٣) سورة الأنعام: الآية ٣.
(٤) سورة الزخرف: الآية ٨٤.
(٥) في ب، ج، ص: قلبي.
(٦) هذا الشاهد والشواهد الثلاثة السابقة ذكرها ابن تيمية رحمه الله في الجواب الصحيح ٢/١٧٦.
(٧) هذا الشاهد ذكر في الجواب الصحيح: ٢/١٨١.
(*) هذه في ج فقط.

أحن إليه وهو في القلب ساكن   فيا عجباً ممن يحن لقلبه

ومن غلظ طبعه، وكشف فهمه عن فهم مثل هذا، لم يكثر عليه أن يفهم من ألفاظ الكتب أن ذات الله سبحانه تحل في الصورة البشرية، وتتحد بها وتمتزج بها ـ تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً ـ.

[الشبهة التاسعة عشرة]

وإن قلتم: أوجبنا له إلهيّة من قول أشعيا: «من أعجب الأعاجيب أن رب الملائكة سيولد من البشر»(١).

قيل: لكم هذا، مع أن هذا يحتاج إلى صحة الكلام عن أشعيا، وأنه لم يحرف بالنقل من ترجمة إلى ترجمة، وأنه كلام منقطع عما قبله وبعده، تنبيه ودليل على أنه مخلوق مصنوع(٢)، وأنه ابن البشر يولد منه لا من الأحد الصمد الذي ﴿لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد﴾(٣).

[الشبهة العشرون]

وإن قلتم: جعلناه إلهاً من قول متّى في الإنجيل: (إن ابن الإنسان يرسل ملائكته ويجمعون كل الملوك، فيلقونهم في أتون(٤) النار)(٥).

---

(١) هذا النص موجود في الأسفار الحالية بمعناه لا بلفظه، (انظر: أشعيا: ٧/١٤).

(٢) نجد حول هذا الكلام على هامش المخطوط الأصل وبخط الناسخ نفسه، ما نصه: «لا شك أن رب بمعنى صاحب وبمعنى سيد ولا شك أن الأنبياء أهل لصحبة الملائكة فهذا هو المراد منه لا ما توهموه من معنى الإلهية، وأما قوله: (سيولد من البشر) هو على معنيين: إما ظاهره ولا إشكال فيه، ووجه التعجب من ذلك أنه يولد من البشر سيد أفضل من الملائكة أو صاحب للملائكة، أو على مقتضى ألغاز الإنجيل وتمثيله فهو بمعنى قوله: من لم يولد من الماء والروح لن يستطيع أن يدخل في ملكوت الله، يعني يعمد من معمودية يوحنا ومعمودية المسيح، فافهم ذلك» (هامش ص ١١٧ نسخة الأصل) وقد ذكرته لما فيه من توضيح.

(٣) من سورة الإخلاص.

(٤) أتون: الأتون بالتشديد الموقد، والعامة تخففه (مختار الصحاح: ص ٤).

(٥) نفس النص ليس في إنجيل متى، ومسألة مجيء ابن الإنسان تكررت في الأناجيل، ولعل المؤلف =

قيل: هذا كالذي قبله، ولم يرد أن المسيح هو رب الأرباب ولا أنه خالق الملائكة، (ومما يشهد لذلك وأن الضمير في الهاء من الملائكة راجع إلى الله لا إلى المسيح، قول مرقس في إنجيله في هذا المحل في هذا المعنى: «فابن الإنسان يفضحه إذا جاء في محرابه وملائكته المقدسين»[1] فافهم ذلك.

ويمكن أن يجعل الله المسيح سفيراً يوم القيامة بينه وبين بعض ملائكة العذاب في جميع ملوك الكفر من المنتسبين لدينه من عرصات القيامة وإدخالهم النار.

والضمير في الملائكة عائد إلى الله لا إلى المسيح، وإنما القوم جهلة بمقام الربوبية ومقام النبوة ومقام الملائكة، واللسان العربي المترجم به عن لغتهم ﴿ومن يضلل الله فما له من هاد﴾[2])[3] وحاشَ لله أن يطلق عليه أنه رب الملائكة (بل هذا من أقبح الكذب والافتراء، بل)[4] ورب الملائكة أوصاهم بحفظ المسيح وتأييده بشهادة (النبي) القائل عندهم: «إن الله يوصي ملائكته بك ليحفظوك»[5] ثم بشهادة لوقا أن الله أرسل له ملكاً من السماء ليقويه[6].

= رحمه الله يشير بذلك إلى ما ورد في إنجيل متى ونصه: «ويبصرون ابن الإنسان آتياً على سحاب السماء بقوة ومجد كثير، فيرسل ملائكته ببوق عظيم الصوت فيجمعون مختاريه من الأربع الرياح من أقصاء السموات إلى أقصاها» (متى: ٢٤/٣٠ ــ ٣١) ولم يشر النص في هذا الإصحاح إلى أنهم (يلقونهم في أتون النار).

وفي الإصحاح الذي يليه نجد قصة مجيء ابن الإنسان في مجده وجميع ملائكته يجمع أمامه جميع الشعوب فيميز بعضهم من بعض، كما يميز الراعي الخراف من الجداء، فيقيم الخراف عن يمينه والجداء عن يساره، ثم يقول الملك للذين عن يمينه: تعالوا يا مباركي أبي رثوا الملكوت المعدّ لكم منذ تأسيس العالم... ثم يقول للذين عن اليسار اذهبوا عني يا ملاعين إلى النار الأبدية المعدة لإبليس وملائكته) (متى: ٢٥/٢١ ــ ٤١).

(١) النص في إنجيل مرقس (لأن من استحى بي وبكلامي... فإن ابن الإنسان يستحي به حتى جاء بمجد أبيه مع الملائكة القديسين) (مرقس: ٨/٢٨) والنص لا ينسب الملائكة لابن الإنسان، بل واضح أن ابن الإنسان يأتي بمجد أبيه ومعه الملائكة.

(٢) سورة غافر: الآية ٣٣.

(٣) من قوله: ومما يشهد لذلك... إلى آخر هذه الآية كلها سقطت من ب، ج، ص.

(٤) سقطت من الأصل.

(٥) لوقا: ٤/١٠.

(٦) لوقا: ٢٢/٤٣.

هذا الذي نطقت به الكتب فحرف الكذابون على الله وعلى مسيحه ذلك، ونسبوا إلى الأنبياء أنهم قالوا: هو رب الملائكة.

وإذا شهد الإنجيل (واتفق)[1] الأنبياء والرسل أن الله يوصي ملائكته بالمسيح ليحفظوه، علم أن الملائكة والمسيح (عبيد الله منقادون)[2] لأمره ليسوا أرباباً ولا آلهة.

قال المسيح لتلاميذه: (من قبلكم فقد قبلني، ومن قبلني فقد قبل من أرسلني)[3].

وقال المسيح لتلامذته أيضاً: (من أنكرني قدّام الناس أنكرته قدّام الملائكة)[4].

وقال للذي يضرب عند رئيس الكهنة: (اغمد سيفك، ولا تظن أني لا أستطيع أن أدعو الله الأب، فيقيم لي أكثر من اثني عشر من الملائكة)[5].

فهل يقول هذا من هو رب الملائكة وإلههم وخالقهم؟.

[الشبهة الواحدة والعشرون]

وإن أوجبتم له الإلهيّة بما نقلتموه عن أشعيا (تخرج عصا من بيت نبي (ويخرج)[6] منها نور ويحل فيه روح (القدس)[7]، روح الله، روح الكلمة والفهم، روح الحيل والقوة، روح الحلم وخوف الله[8]، وبه يؤمنون وعليه يتكلون ويكون لهم التاج والكرامة إلى دهر الداهرين)[9].

---

(١) في ب، ج، ص: واتفاق.

(٢) في ج: عند الله منفذون، وفي ب، ص: عبيد الله منفذون.

(٣) أخطأ الناسخ في نسخة الأصل ص، فكتب: من قتلكم فقد قتلني (بالتاء بدل الباء والنص وارد بالباء في إنجيل متى: ١٠/٤٠).

(٤) متى: ١٠/٣٣. في إنجيل متى: أبي الذي في السماوات، وفي ب، ج، ص: ملائكة الله.

(٥) متى: ٢٦/٥٢ ـ ٥٣.

(٦) في ب، ج، ص: وينبت.

(٧) سقطت من ج.

(٨) النص إلى هنا في أشعيا: ١١/١ ـ ٢.

(٩) معنى هذه البقية من النص نجدها في قول أشعيا عن هذا المنتظر «إياه تطلب الأمم ويكون محله مجداً» (أشعيا: ١١/١٠).

قيل لكم: هذا الكلام بعد المطالبة بصحة نقله عن أشعيا، وصحة الترجمة له باللسان العربي، وأنه لم تحرفه التراجم، هو حجة على المثلثة عبّاد الصليب لا لهم، فإنه لا يدل على أن المسيح هو خالق السموات والأرض، بل يدل على مثل ما دلّ عليه القرآن، وأن المسيح أيّد بروح القدس، فإنّه قال: ويحلّ فيه روح القدس، روح الله، روح الكلمة والفهم، روح الحيل والقوة، روح (العلم)[1] وخوف الله، ولم يقل: تحلّ فيه حياة الله فضلاً عن أن يحل الله فيه (ويتحد فيه)[2]، ويتخذ حجاباً من ناسوته. وهذه الروح تكون مع الأنبياء والصديقين. وعندهم في التوراة أن الذين كانوا يعملون في قبة الزمان حلّت فيهم روح الحكمة وروح الفهم والعلم[3] وهي ما يحصل به الهدى والنصر والتأييد.

وقوله (روح الله) لا تدل على أنها صفته، فضلاً أن يكون هو الله، وجبريل يسمى روح الله، والمسيح اسمه روح الله.

والمضاف (إلى الله)[4] إذا كان ذاتاً قائمة بنفسها فهو إضافة مملوك إلى مالك، كبيت الله وناقة الله وروح الله، ليس المراد به بيتاً يسكنه ولا ناقة يركبها ولا روحاً قائمة به. وقد قال تعالى: ﴿أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه﴾[5].

وقال تعالى: ﴿وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا﴾[6].

فهذه الروح أيد بها عباده المؤمنين.

وأما قوله: «وبه يؤمنون وعليه يتوكلون» فهو عائد إلى الله تعالى لا إلى العصا التي تنبت من بيت النبوة.

وقد جمع الله بين هذين الأصلين في قوله: ﴿قل هو الرحمن آمنّا به وعليه

---

(١) في ب، ج، ص: الفهم.

(٢) في ج: يحدثه.

(٣) الخروج: ٣١/٣.

(٤) سقطت من ص.

(٥) سورة المجادلة: الآية ٢٢.

(٦) سورة الشورى: الآية ٥٢.

توكلنا﴾[1] ﴿وقال موسى لقومه: يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين﴾[2].

وهو كثير في القرآن، وقد أخبر أنه أيّده الله بروح العلم وخوف الله، فجمع بين العلم والخشية، وهما الأصلان اللذان جمع القرآن بينهما في قوله تعالى: ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾[3].

وفي قول النبي ﷺ: «أنا أعلمكم بالله وأشدكم له خشية»[4].

وهذا شأن العبد المحض، وأما الإله الحق رب العالمين، فلا يلحقه خوف ولا خشية ولا يعبد غيره، والمسيح كان قائماً بأوراد العبادات لله أتم القيام.

[الشبهة الثانية والعشرون]

وإن أوجبتم له الإلهيّة بقول أشعيا: (إن غلاماً ولد لنا (وأبناً)[5] أعطيناه كذا وكذا رئاسة على عاتقيه وبين منكبيه، ويدعى اسمه ملكاً عظيماً إلهاً قوياً مسلطاً رئيساً قوي السلامة في كل الدهور، وسلطانه كامل ليس له فناء)[6]، قيل لكم ليس في هذه البشارة ما يدل على أن المراد بها المسيح بوجه من الوجوه.

ولو كان المراد بها المسيح لم يدل على مطلوبهم. أما المقام الأول: فدلالتها على محمد بن عبد الله أظهر من دلالتها على المسيح، فإنه هو الذي رئاسته على عاتقه وبين منكبيه من جهتين: من جهة أن خاتم النبوة على بعض (كتفيه)[7] وهو من أعلام النبوة

(١) سورة الملك: الآية ٢٩.

(٢) سورة يونس: الآية ٨٤.

(٣) سورة فاطر: الآية ٢٨.

(٤) أخرجه البخاري عن مسروق قال: قالت عائشة رضي الله عنها: «صنع النبي ﷺ شيئاً ترخص فيه وتنزه عنه قوم، فبلغ ذلك النبي ﷺ فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: ما بال أقوام يتنزهون عن الشيء أصنعه؟ فوالله إني أعلمهم بالله وأشدهم خشية» (٥/٩٦ ـ ٧٣٠١).

(٥) في ب: وإنّما، وفي ج: وأنا، وفي ص: وإننا.

(٦) أشعيا: ٩/٦ ـ ٧.

(٧) في ج: اكتافه.

الذي أخبرت به الأنبياء، وعلامة ختم ديوانهم، ولذلك كان في ظهره من جهة أنه بعث بالسيف الذي تقلد به على عاتقه، ويرفعه إذا ضرب به على عاتقه، ويدل عليه قوله: «رئيس مسلط قوي السلامة» وهذه صفة محمد ﷺ المؤيد المنصور المسلط رئيس السلامة، فإنّ دينه الإسلام ومن اتبعه سلم من (خزي)[1] الدنيا وعذاب الآخرة، ومن استيلاء عدوه عليه.

والمسيح لم يسلط على أعدائه كما سلط محمد ﷺ، بل كان أعداؤه مسلطين عليه قاهرين له حتى عملوا به ما عملوا عند المثلثة عباد الصليب، فأين مطابقة هذه الصفات للمسيح بوجه من الوجوه، وهي مطابقة لمحمد بن عبد الله ﷺ من كل وجه، وهو الذي سلطانه كامل ليس له فناء إلى آخر الدهر.

فإن قيل: إنكم لا تدعون محمداً إلهاً بل هو عندكم عبد محض، قيل: (نعم)[2] والله إنه لكذلك عبد محض، والعبوديّة أجلّ مراتبه، واسم الإله من جهة التراجم جاء والمراد به السيّد المطاع لا إله له المعبود الخالق الرازق.

[الشبهة الثالثة والعشرون]

وإن أوجبتم له الإلهية من قول أشعيا فيما زعمتم (ها هي العذراء تحبل وتلد ابناً يدعى اسمه: عمانويل)[3].

وعمانوئيل كلمة عبرانية تفسيرها بالعربية: إلهنا معنا[4].

فقد شهد له النبي أنّه إله.

قيل لكم بعد ثبوت هذا الكلام وتفسيره: لا يدل على أن العذراء ولدت رب العالمين وخالق السموات والأرضين، فإنه قال «تلد ابناً» وهذا دليل على أنه نبي، من جملة النبيين ليس هو رب العالمين[5].

---

(١) في الأصل: جزاء.

(٢) في ج: لهم.

(٣) أشعيا: ٧/١٤.

(٤) هكذا ورد تفسيرها في إنجيل متى: ١/٢٣.

(٥) سقطت من الأصل.

وأما قوله: ويدعى اسمه «عمانويل» فإنما يدل على أنه يسمى بهذا الاسم كما تسمي الناس أبناءهم بأنواع من الصفات والأسماء والأفعال والجمل المركبة من اسمين واسم وفعل، وكثير من أهل (الكتاب)[1] يسمّون أولادهم عمانويل.

ومن علمائكم من يقول: المراد بالعذراء ههنا غير مريم، ويذكر في ذلك قصة، ويدل على هذا أن المسيح لا يعرف اسمه عمانويل، وإن كان ذلك اسمه، (فكونه)[2] يسمى إلهنا معنا أو بالله حسبي، أو الله وحده، ونحو ذلك (لا يدل على أنه إله)[3].

وقد حرف بعض المثلثة عباد الصليب هذه الكلمة وقال: معناها الله معنا[4]، فرد عليهم بعض من أنصف من علمائهم وحكم رشده على هواه، وهداه الله للحق وبصّره من عماه، وقال أهذا هو القائل أنا الرب[5] ولا إله غيري أنا أحيي وأميت وأخلق وأرزق؟[6].

أم هو القائل لله إنك أنت الإله الحق وحدك الذي أرسلت يوسع المسيح؟[7].

قال: والأول باطل، والثاني هو الذي شهد به الإنجيل، ويجب تصديق الإنجيل، وتكذيب من زعم أن المسيح إله معبود.

قال: وليس المسيح مخصوصاً بهذا الاسم، بل «عمانوئيل» اسم تسمّي به النصارى واليهود أولادها قال: وهذا موجود في عصرنا هذا. ومعنى هذه التسمية بينهم شريف القدر عند الله.

قال: وكذلك السريان يسمّون أولادهم عمانويل، والمسلمون وغيرهم يقولون

---

(١) سقطت من الأصل.
(٢) في ج: فيكون.
(٣) سقطت من الأصل، ص، وفي ج: جاء قبل (أو بالله حسبي).
(٤) نعم هكذا نص تفسير متى في إنجيله (انظر: متى: ١/٢٣).
(٥) سقطت من الأصل.
(٦) تثنية: ٣٢/٣٩.
(٧) يوحنا: ١٧/٣.

للرجل: الله معك، فإذا سمي الرجل بقوله: (الله معك) أو (الله معناه)[1] كان هـذا تبركاً بمعنى هذا الاسم[2].

[الشبهة الرابعة والعشرون]

وإن أوجبتم لـه الإلهية بقـول حبقـوق فيمـا حكـاه عنـه: (إن الله في الأرض يتـزيّـا ويختلط مع الناس ويمشي معهم)[3].

ويقول أرميا أيضاً بعد هذا: (الله يظهر في الأرض ويتقلب مع البشـر)[4] قيل لكم: هذا بعد احتيـاجه إلى ثبـوت نبوة هـذين الشخصين أولاً، وإلى ثبوت هـذا النقل عنهمـا، وإلى مطابقة الترجمة من غير تحريف، وهذه ثلاث (مقامات)[5]يعزّ عليكم إثباتهـا، لا تدل على أن المسيـح هو خـالق السموات والأرض، وأنـه إله حق ليس بمخلوق ولا مصنـوع. ففي التـوراة ما هـو من هذا الجنس وأبلغ لم يـدل على أن موسى إلـه، ولا أنه خـارج عن جملة العبيد لله.

وقوله: «يتزّيا» مثل تجلى الله وظهر واستعلن ونحو ذلك من ألفاظ التوراة وغيرها من الكتب الإلهية.

وقد ذكر في التوراة أن الله تعالى تجلى وتـزيا لإبـراهيم وغيره من الأنبيـاء، ولم يدل (ذلك على الإلهية لأحد منهم)[6].

ولم يـزل في عـرف النـاس ومخـاطبتهم أن يقـولـوا: فـلان معنـا وهـو بين أظهـرنـا ولم يمت، إذا كان علمه وسنته وسيرته بينهم، ووصاياه يعمل بها بينهم.

---

(١) سقطت من ب، ج، ص.

(٢) علق الناسخ هنا على الهامش بقوله: (وقـد رأينا بعض النـاس يسمي بعض إمائـه: الله وكيل. وليس المقصـود من ذلـك إلا التبـرك بـاسم الله، والإشـارة إلى أنـه متـوكـل على الله ومن يكن الله وكيله لا يخسر): ص ١١٩ وذكرت تعليق الناسخ من باب التوضيح.

(٣) النص بالمعنى من حبقوق: ٣/٣ ــ ١٠.

(٤) أرميا: ١٤/٩.

(٥) في ب، ج: مقالات.

(٦) في ج: على ذلك بإبراهيم الإلهية أحد منهم.

وكذلك يقول القائل لمن مات والده: ما مات من خلّف مثلك، وأنا والدك، وإذا رأوا تلميذ العالم يعلم علمه قالوا: هذا فلان باسم أستاذه، كما كان يقال عن عكرمة: هذا ابن عباس، وعن أبي حامد[1]: هذا الشافعي[2].

وإذا بعث الملك نائباً يقوم مقامه في بلد قال الناس: جاء الملك وحكم ورسم الملك.

وفي الحديث الصحيح الإلهي[3] يقول الله عز وجل يوم القيامة: (عبدي)[4] مرضت فلم تعدني، فيقال: يا رب وكيف أعودك وأنت رب العالمين؟! قال: أما (علمت)[5] أن عبدي فلاناً مرض فلم تعده، (أما لو)[6] عدته لوجدتني عنده، (عبدي)[7] (جعت)[8] فلم تُطْعِمْني، (فيقول)[9]: يا رب، كيف أطعمك وأنت رب العالمين؟! قال: (أما إن عبدي فلاناً استطعمك)[10] فلم تطعمه، أما لو أطعمته لوجدت ذلك عندي، (عبدي)[11] استقيتك فلم تسقني (فيقول)[12]: يا رب وكيف أسقيك وأنت رب العالمين؟! (فيقول: أما إن عبدي

---

(1) أبو حامد محمد بن محمد بن محمد بن أحمد حجة الإسلام أبو حامد الطوسي الفقيه الشافعي، اشتغل في مبدأ أمره بطوس ثم قدم نيسابور، ولي تدريس النظامية ببغداد ثم ارتحل إلى دمشق ومصر وعاد مرة أخرى إلى النظامية، له تصانيف كثيرة من أشهرها إحياء علوم الدين. ورغم شهرته عند العلماء وثنائهم عليه إلّا أن بعضهم أخذ عليه بعض المآخذ، ولد سنة ٤٠٥هـ وتوفي سنة ٥٠٥هـ (الوافي بالوفيات، الصفدي: ١/٢٧٤).

(2) محمد بن إدريس الشافعي الفقيه المعروف.

(3) الحديث الإلهي هو المعروف بالحديث القدسي.

(4) عند مسلم: يا ابن آدم.

(5) سقطت من جميع النسخ وهي عند مسلم.

(6) عند مسلم: أما علمت أنك لو.

(7) عند مسلم: يا ابن آدم.

(8) عند مسلم: استطعمتك.

(9) عند مسلم: قال.

(10) عند مسلم: أما علمت أنه استطعمك عبدي فلان.

(11) عند مسلم: يا ابن آدم.

(12) عند مسلم: قال.

فلاناً عطش (فاستقاك)[١] فلم تسقه[٢] (أما لو أسقيته)[٣] لوجدت ذلك عندي[٤]. وأبلغ من هذا قوله تعالى: ﴿إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم﴾[٥]، ومن هذا قوله تعالى: ﴿من يطع الرسول فقد أطاع الله﴾[٦].

فلو استحل: المسلمون ما استحللتم لكان استدلالهم بذلك على أن محمداً ﷺ إله من جنس استدلالكم لا فرق (بينهما)[٧].

[الشبهة الخامسة والعشرون]

وإن أوجبتم له الإلهيّة بقوله في السفر الثالث[٨] من أسفار الملوك: «والآن يا رب إله إسرائيل، ليتحقق كلامك لداود لأنه حق أن يكون آية، سيسكن الله مع الناس على الأرض، اسمعوا أيتها الشعوب كلكم، ولتنصت الأرض وكل من فيها فيكون الرب عليها شاهداً، ويخرج من موضعه، وينزل ويطأ مشارق الأرض في شأن خطيئة بني يعقوب»[٩].

قيل لكم: هذا السفر يحتاج فيه أولاً إلى أن يثبت، وأن الذي تكلم به نبي وأن هذا لفظه وأن الترجمة مطابقة له، وليس ذلك بمعلوم. وبعد ذلك، فالقول في هذا الكلام (كالقول في نظيره مما ذكرتموه وما لم تذكروه، وليس في هذا الكلام)[١٠] ما يدل على أن المسيح خالق السماوات والأرض، (كأنه)[١٠] إله غير مصنوع ولا مخلوق. فإن قوله:

---

(١) سقطت من الأصل.

(٢) عند مسلم: قال: استسقاك عبدي فلان فلم تسقه.

(٣) عند مسلم: أما إنك لو سقيته.

(٤) الحديث أخرجه مسلم في صحيحه: ١٣/٤٥ ــ ٤٣.

(٥) سورة الفتح: الآية ١٠.

(٦) سورة النساء: الآية ٨٠.

(٧) سقطت من ص.

(٨) هذا النص نجده بالمعنى في سفر الملوك الأول، والمؤلف رحمه الله ذكر أنه سفر الملوك الثالث، ويبدو أن المؤلف نقل عن ترجمة اليسوعيين فهم يسمون سفري صموئيل الأول والثاني، سفر الملوك وسفر الملوك الأول في ترجمة البروتستانت هو سفر الملوك الثالث عند اليسوعيين، كما ذكر المؤلف رحمه الله.

(٩) انظر: الملوك الأول: ٨/٢٦ ــ ٢٧.

(١٠) سقطت من الأصل.

إن الله سيسكن مع الناس في الأرض، هو مثل كونه معهم. وإذا صار في الأرض نوره وهداه ودينه ونبيه كانت هذه سكناه، لا أنه بذاته المقدسة ينزل عن عرشه ويسكن مع أهل الأرض، ولو قدّر تقدير المحالات أن ذلك واقع لم يلزم أن يكون هو المسيح، فقد سكن الرسل والأنبياء قبله وبعده فما الموجب لأن يكون المسيح هو الإله دون إخوانه من المرسلين. أترى ذلك للقوة والسلطان الذي كان له وهو في الأرض، وقد قلتم إنه قبض عليه وفعل به ما فعل من غاية الإهانة والإذلال والقهر، فهذا ثمرة سكناه في الأرض مع خلقه؟

وإن قلتم: سكناه في الأرض (مع خلقه)[1] هو ظهوره في ناسوت المسيح قيل لكم: أما الظهور الممكن المعقول وهو ظهور محبته ومعرفته ودينه وكلامه، فهذا لا فرق فيه بين ناسوت المسيح وناسوت سائر الأنبياء والمرسلين، وليس في هذا اللفظ على هذا التقدير ما يدل على اختصاصه بناسوت المسيح.

وأما الظهور المستحيل الذي تأباه العقول والفطر والشرائع وجميع النبوات، وهو ظهور ذات الرب في ناسوت مخلوق من مخلوقاته واتحاده به وامتزاجه واختلاطه فهذا محال عقلاً وشرعاً. فلا يمكن أن تنطق به نبوة أصلاً بل النبوات من أولها إلى آخرها متفقة على أصول:

[صفات الله التي اتفقت عليها جميع الرسالات السماوية]

أحدها: أن الله سبحانه وتعالى قديم واحد لا شريك له في ملكه، ولا ند ولا ضد ولا وزير ولا مشير ولا ظهير ولا شافع إلّا من بعد إذنه[2].

الثاني: أنه لا والد له ولا ولد ولا كفؤ ولا نسيب بوجه من الوجوه ولا زوجة[3].

---

(١) سقطت من الأصل.

(٢) قال تعالى: ﴿قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير، ولا تنفع الشفاعة عنده إلّا لمن أذن له﴾ [سبأ: ٢٢، ٢٣].

(٣) اقرأ سورة الإخلاص وقوله تعالى: ﴿وأنه تعالى جَدُّ ربنا ما اتخذ صاحبةً ولا ولداً﴾ [الجن: ٣].

الثالث: أنه غني بذاته فلا يأكل ولا يشرب ولا يحتاج إلى شيء مما يحتاج إليه خلقه بوجه من الوجوه[1].

الرابع: أنه لا يتغير ولا تعرض له الآفات من الهرم والمرض والسنة والنوم والنسيان والندم والخوف والهم والحزن ونحو ذلك[2].

الخامس: أنه لا يماثل شيئاً من مخلوقاته بل ﴿ليس كمثله شيء﴾[3] لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله.

السادس: أنه لا يحل في شيء من مخلوقاته ولا يحل في ذاته شيء منها، بل هو بائن عن خلقه بذاته والخلق بائنون عنه[4].

السابع: أنه أعظم من كل شيء وأكبر من كل شيء وفوق كل شيء وغالب على كل شيء وليس فوقه شيء البتة[5].

الثامن: أنه قادر على كل شيء فلا يعجزه شيء يريده بل هو الفعال لما يريد[6].

التاسع: أنه عالم بكل شيء، يعلم السرّ وأخفى، ويعلم ما كان وما يكون لو كان كيف كان يكون. ﴿وما تسقط من ورقة إلاّ يعلمها ولا حبّة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس﴾[7] (ولا ساكن)[8] ولا متحرك إلاّ وهو يعلمه على حقيقته.

العاشر: أنه سميع بصير (يسمع)[9] (ضجيج)[10] الأصوات باختلاف اللغات على

---

(١) قال تعالى: ﴿يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله، والله هو الغني الحميد﴾ [فاطر: ١٥].

(٢) قال تعالى: ﴿لا تأخذه سنة ولا نوم﴾ [البقرة: ٢٥٥].

(٣) سورة الشورى: الآية ١١.

(٤) الآيات التي تدل على علوّه تعالى على خلقه كثيرة جداً ﴿أأمنتم من في السماء﴾ [الملك: ١٦] ﴿تعرج الملائكة والروح إليه﴾ [المعارج: ٤].

(٥) ﴿وهو القاهر فوق عباده﴾ [الأنعام: ١٨].

(٦) ﴿وهو على كل شيء قدير﴾ [آل عمران: ١٢] ﴿فعال لما يريد﴾ [البروج: ١٦].

(٧) سورة الأنعام: الآية ٥٩.

(٨) سقطت من ص.

(٩) سقطت من ب.

(١٠) في ص: صحيح.

تفنن الحاجات، ويرى دبيب النملة السوداء على الصخرة الصمّاء في الليلة الظلماء. قد أحاط سمعه بجميع (المسموعات وبصره بجميع المبصرات، وعلمه بجميع المعلومات وقدرته بجميع) المقدورات[1]، ونفذت مشيئته في جميع البريّات، وعمت رحمته جميع المخلوقات ووسع كرسيّه الأرض والسموات.

الحادي عشر: أنه الشاهد الذي لا يغيب، ولا يستخلف أحداً على تدبير ملكه. ولا يحتاج إلى من يرفع إليه حوائج عباده أو يعاونه عليها أو يستعطفه عليهم ويسترحمه لهم.

الثاني عشر: أنه الأبدي الباقي الذي لا يضمحل ولا يتلاشى ولا يعدم ولا يموت[2].

الثالث عشر: أنه المتكلم المكلم الآمر الناهي قائل الحق وهادي السبيل[3] ومرسل الرسل ومنزل الكتب، والقائم على كل نفس بما كسبت من الخير والشر، ويجازي المحسن على إحسانه، والمسيء بإساءته.

الرابع عشر: أنه الصادق في وعده وخبره، فلا أصدق منه قيلًا، ولا أصدق منه حديثاً، وهو لا يخلف الميعاد[4].

الخامس عشر: أنه تعالى صمد[5] بجميع معاني الصمديّة فيستحيل عليه ما يناقض صمديته.

السادس عشر: أنه قدوس سلام[6] فهو المبرّأ من كل عيب ونقص وآفة.

السابع عشر: أنه الكامل الذي له الكمال المطلق من جميع الوجوه.

---

(١) سقطت من الأصل.

(٢) ﴿كل شيء هالك إلا وجهه﴾ [القصص: ٨٨].

(٣) ﴿والله يقول الحق وهو يهدي السبيل﴾ [الأحزاب: ٤].

(٤) ﴿ومن أصدق من الله قيلًا﴾ [النساء: ١٢٢] ﴿ومن أصدق من الله حديثاً﴾ [النساء: ٨٧] ﴿إن الله لا يخلف الميعاد﴾ [آل عمران: ٩].

(٥) ﴿الله الصمد﴾ [الإخلاص: ٢].

(٦) ﴿الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن...﴾ [الحشر: ٢٤].

الثامن عشر: أنه العدل الذي لا يجور ولا يظلم[1]، ولا يخاف عباده منه ظلماً[2].

فهذا مما اتفقت عليه جميع الكتب والرسل، وهو من المحكم الذي لا يجوز أن تأتي شريعة بخلافه ولا يخبر نبيّ بخلافه أصلاً.

فترك المثلثة عبّاد الصليب هذا كله، وتمسكوا بالمتشابه من المعاني والمجمل من الألفاظ، وأقوال من قد ضلوا من (قبل)[3] وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل.

وأصول المثلثة ومقالتهم في رب العالمين تخالف هذا كله أشد المخالفة، وتباينه أعظم المباينة.

[نبوّة محمد ﷺ تصديق للمرسلين عليهم السلام]

(فصل): في أنه (لو لم) يظهر محمد بن عبد الله ﷺ لبطلت نبوة سائر الأنبياء، فظهور نبوته تصديق (لشهادتهم)[4]، وشهادة (لهم بالصدق)[5].

فإرساله من آيات الأنبياء قبله. وقد أشار سبحانه إلى هذا المعنى بعينه (في قوله)[6] ﴿بل جاء بالحق وصدّق المرسلين﴾[7].

فإن المرسلين بشروا به وأخبروا بمجيئه، فمجيئه هو نفس صدق خبرهم، فكان مجيئه تصديقاً لهم إذ هو تأويل ما أخبروا به، ولا تنافي بين هذا وبين القول الآخر: إن تصديقه المرسلين بشهادته بصدقهم وإيمانه بهم، فإنه صدقهم بقوله ومجيئه. فشهد بصدقهم بنفس مجيئه، وشهد بصدقهم بقوله، وهذا مثل قول المسيح: ﴿مصدقاً لما بين يديّ من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد﴾[8].

---

(١) ﴿ولا يظلم ربك أحداً﴾ [الكهف: ٤٩].

(٢) ﴿فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخساً ولا رهقاً﴾ [الجن: ١٣].

(٣) سقطت من الأصل.

(٤) في ب، ج، ص: لنبواتهم.

(٥) في ب، ص: لها بالصدق وفي ج: لهم بالتصديق.

(٦) في الأصل: فقال في قوله.

(٧) سورة الصافات: الآية ٣٧.

(٨) سورة الصف: الآية ٦.

فإن التوراة لما بشرت به وبنبوته كان نفس ظهوره تصديقاً لها، ثم بشّر برسول يأتي من بعده، فكان ظهور الرسول المبشر به تصديقاً له، كما كان ظهوره تصديقاً للتوراة فعادة الله[1] في رسله أن السابق بشّر باللاحق واللاحق يصدق السابق فلو لم (يظهر)[2] محمد بن عبد الله ﷺ، ولو لم يبعث لبطلت نبوة الأنبياء قبله.

والله سبحانه وتعالى لا يخلف وعده ولا يكذب خبره، وقد كان بشّر إبراهيم وهاجر ببشارات بينات، ولم نرها تمّت ولا ظهرت إلاّ بظهور رسول الله ﷺ، فقد بُشّرت هاجر من ذلك بما لم تبشر به امرأة من العالمين غير مريم ابنة عمران بالمسيح على أن مريم بُشّرت به مرة واحدة وبشرت هاجر بإسماعيل مرتين، وبشّر به إبراهيم مراراً.

ثم ذكر سبحانه (هاجر)[3]، وبعد وفاتها كالمخاطب لها على ألسنة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ففي التوراة: أن الله قال لإبراهيم: قد أجبت دعاك في إسماعيل وباركت عليه وكثرته وعظمته جداً جداً، وسيلد (اثني عشر عظيماً)[4]، وأجعله (لأمته عظيماً)[5]، هكذا ترجمه بعض المترجمين[6].

وأما في الترجمة التي ترجمها اثنان وسبعون حبراً من أحبار اليهود[7]، فإنه يقول: «وسيلد اثني عشر أمة من الأمم».

وفيها «لما هربت هاجر من سارة (تزايا)[8] لها مَلَك الله وقال: يا هاجر (أمة سارة)[9]، من أين أقبلت وإلى أين تذهبين؟ قالت: هربت من سيدتي، فقال لها الملك:

---

(١) في الأصل: فعادة نبوة الأنبياء قبله والله سبحانه وتعالى. وهو كلام لا يستقيم به المعنى.

(٢) في ص: يكن.

(٣) سقطت من ج.

(٤) في ج: ابناً عظيماً.

(٥) في التكوين: «وأجعله أمة عظيمة»، في ج: وأجعل له أمة عظيمة. التكوين: ١٧/ ٢٠.

(٦) كما في الترجمة التي اعتمدتها وهي ترجمة البروتستانت.

(٧) يقصد الترجمة اليونانية (السبعينية).

(٨) الصحيح أنها (تزيّا) بدون الألف، وهي من الزي: الهيئة من الناس، وقد تزيّا الرجل وزينته تزيّة (لسان العرب: ١٤/ ٣٦٧)، ويكون المعنى أن الملك ظهر لهاجر كهيئة الإنسان.

(٩) سقطت من ج.

ارجعي إلى سيدتك، واخضعي لها، فإني سأكثر ذريتك وزرعك حتى لا يحصون كثرة، وها أنت تحبلين وتلدين ابناً تسميه إسماعيل، لأن الله قد سمع تذللك وخضوعك وخشوعك، وهو يكون عين الناس وتكون يده فوق الجميع مبسوطة إليه بالخضوع، ويكون مسكنه على تخوم جميع إخوته[1].

وفي موضع آخر قصة إسكانها وابنها إسماعيل في بريّة فاران وفيها: «فقال الملَك يا هاجر ليفرح روعك، فقد سمع الله تعالى صوت الصبي، قومي فاحمليه، وتمسكي به، فإن الله تعالى جاعله لأمة عظيمة. وإن الله تعالى (فتح عليها)[2]، فإذا بئر ماء فذهبت وملأت المزادة منه[3]، وسقت الصبي منه، وكان الله معها ومع الصبي حتى تربى، وكان مسكنه في برية فاران»[4].

فهذه أربع بشارات خالصة لأم إسماعيل نزلت اثنتان منها على إبراهيم واثنتان على هاجر، وفي التوراة بشارات بإسماعيل وولده وأنهم أمة عظيمة، وأن نجوم السماء تحصى ولا يحصون، وهذه البشارة إنما تمت بظهور محمد بن عبد الله ﷺ وأمته، وإن بني إسحق لم يزالوا مطرودين مشردين (خولاً)[5] للفراعنة والقبط حتى (أنقذهم)[6] الله بنبيّه وكليمه موسى بن عمران وأورثهم أرض الشام، فكانت كرسي مملكتهم، ثم سلبهم ذلك، وقطّعهم في الأرض أمماً مسلوباً عزّهم وملكهم، قد أخذتهم سيوف السودان وعلتهم أعلاج الحمران[7]، حتى إذا ظهرت تلك البشارات بعد دهر طويل، وعلت وانتشرت في آفاق الدنيا، ومدت وعلت بنو إسماعيل على من حولهم فهشموهم هشماً وطحنوهم طحناً، وانتشروا في آفاق الدنيا، ومدت الأمم أيديهم إليهم بالذل والخضوع، وعلوهم

(١) التكوين: ١٦/٧ ــ ١٢.
(٢) في التكوين: فتح عينيها.
(٣) المزادة: هي الظرف الذي يحمل فيه الماء كالراوية والقربة (لسان العرب: ٣/١٩٩)، وفي ب، ص: المرأة.
(٤) التكوين: ٢١/١٧ ــ ٢١.
(٥) خولاً: أي عبيداً.
(٦) في ج: أبعدهم.
(٧) لعله يقصد بالسودان والحمران الناس جميعاً أسود وأحمر.

علو الثريا فيما بين الهند والحبشة والسوس الأقصى[1] وبلاد الترك والصقالبة والخزر[2] وملكوا ما بين الخافقين[3]، وحيث ملتقى أمواج البحرين، وظهر ذكر إبراهيم على ألسنة الأمم كلها، فليس (صبي)[4] من بعد ظهور النبي ﷺ ولا امرأة ولا حر ولا عبد ولا ذكر ولا أنثى إلاّ وهو يعرف إبراهيم والد إسماعيل.

وأما النصرانية وإن كانت قد ظهرت في أمم كثيرة جليلة فإنه لم يكن لهم في محل إسماعيل وأمه هاجر سلطان ظاهر ولا عز قاهر البتة، ولا صارت أيدي هذه الأمة فوق أيدي الجميع، ولا امتدت إليهم (أيدي الأمم بالخضوع، وكذلك سائر ما تقدم من البشارات)[5]، ويفيد مجموعها العلم القطعي بأن المراد بها محمد بن عبد الله ﷺ وعلى أمته، فإنه لو لم يقع تأويلها بظهوره ﷺ لبطلت النبوات.

ولهذا لما علم الكفار من أهل الكتاب أنه لا يمكن الإيمان بالأنبياء المتقدمين إلاّ بالإيمان بالنبي ﷺ الذي بشروا به، قالوا: نحن في انتظاره ولم يجىء بعد.

ولما علم بعض الغلاة في كفره وتكذيبه منهم أن هذا النبي ولد في ولد إسماعيل أنكروا أن يكون لإبراهيم (ابن)[6] اسمه إسماعيل، وأن هذا لم يخلقه الله تعالى. ولا يكثر على أمة البهت وإخوان القرود وقتلة الأنبياء مثل ذلك، كما لم يكثر على المثلثة وعباد الصليب الذين سبّوا رب العالمين أعظم مسبّة أن يطعنوا في ديننا، وينقضوا بنبينا ﷺ.

---

(١) السوس الأقصى: السوس بلدة بخوزستان فيها قبر دانيال النبي عليه السلام، والسوس: بالمغرب كورة مدينتها طنجة، وهناك السوس الأقصى: كورة أخرى مدينتها طرقلة، ومن السوس الأدنى إلى السوس الأقصى مسيرة شهرين (معجم البلدان).

(٢) الخزر: بالتحريك ثم بالراء، هي بلاد الترك خلف باب الأبواب المعروف بالدربند، والخزر اسم إقليم من قصبة تسمى اتل، واتل اسم نهر يجري إلى الخزر من الروس وبلغار. والخزر اسم المملكة لا اسم مدينة، والخزر مسلمون ونصارى وفيهم عبدة أوثان، وأقل الفرق اليهود، على أن الملك منهم، وكان الصقالبة وكل من يجاورهم في طاعته (معجم البلدان)..

(٣) بين الخافقين: أي بين أفقي المشرق والمغرب، لأن الليل والنهار يخفقان فيهما (مختار الصحاح: ص ١٨٣).

(٤) في الأصل: بني.

(٥) سقطت من الأصل.

(٦) في ب، ج، ص: ولد.

[نبوة محمد ﷺ أكثر إثباتاً لوجود المسيح ومعجزاته]

(فصل): ونحن نبين لهم أنهم لا يمكنهم أن يثبتوا للمسيح فضيلة ولا نبوة ولا آية معجزة إلّا بإقرارهم أن محمداً ﷺ رسول الله، وإلّا فمع (تكذيبهم إياه)[1] لا يمكن أن يثبت للمسيح شيء من ذلك البتّة. فنقول: إذا كفرتم يا معشر المثلثة عباد الصليب بالقرآن وبمحمد ﷺ فمن أين لكم أن تثبتوا لعيسى فضيلة أو معجزة؟ ومن نقل إليكم عنه آية أو معجزة؟ فإنكم إنما تبعتم من بعده ما ينيف على مائتين وعشرات من السنين أخبرتم عن منام رؤى وأسرعتم إلى تصديقه، وكان الأولى لمن كفر بالقرآن أن ينكر وجود عيسى (في العالم)[2]، لأنه لا يقبل قول اليهود فيه، ولا سيما وهم أعظم أعدائه الذين رموه وأمه بالعظائم، فأخبار المسيح والصليب إنما شيوخكم فيها اليهود (لعنهم الله)[3]، وهم فيما بينهم مختلفون في أمره أعظم اختلاف، وأنتم مختلفون معهم في أمره، فإنّ اليهود لعنهم الله، تزعم أنهم حين أخذوه وحبسوه في السجن أربعين يوماً وقالوا: ما كان لكم أن تحبسوه أكثر من ثلاثة أيام، ثم تقتلوه، إلّا أنه كان يقصده أحد قواد الروم لأنه كان يداخله في صناعة الطب عندهم.

وفي الإنجيل الذي في أيديكم: أنه أخذ صبح يوم الجمعة وصلب في الساعة التاسعة من اليوم بعينه[4] فمتى تتوافقون مع اليهود في (خبره)[5].

[اليهود ينكرون أن يكون المسيح نبياً له معجزاته وفضائله]

واليهود مجمعة أنه لم تظهر له معجزة، ولا بدت منه لهم آية، غير أنه طار يوماً، وقد همّوا بأخذه، وطار على أثره آخر منهم، فعلاه في طيرانه، فسقط إلى الأرض بزعمهم.

---

(١) في ص، ب: تكذيبه.
(٢) سقطت من الأصل.
(٣) ليست في ب، ج، ص.
(٤) انظر: متى: ٢٧/٣١ ـ ٣٤ مرقس: ١/٢٤ ـ ٢٨ لوقا: ٣٨/٣٣ ـ ٣٨ يوحنا: ١٩/١٨ ـ ٢٤ ويزعمون أن الصلب كان يوم الجمعة في السابع من إبريل سنة ٣٠م بالقرب من القدس (انظر: قاموس الكتاب المقدس: ٢/٨٨٤).
(٥) في الأصل: في غيره.

وفي الإنجيل الذي بأيديكم في غير موضع، ما يشهد أنه لا معجزة ولا آية فمن ذلك أن فيه منصوصاً «إن اليهود قالوا له يوماً: ماذا تفعل حتى ننتهي به إلى أمر الله؟ قال: (أن تؤمنوا بمن)[1] بعثه. قالوا له: وما آيتك التي ترينا ونؤمن بك، وأنت تعلم أن آباءنا قد أكلوا المن والسلوى بالمفاوز؟.

قال: «إن كان أطعمكم موسى خبزاً، فأنا أطعمكم خبزاً سماوياً»[2]. يريد نعيم الآخرة، ولو عرفوا له معجزة ما قالوا ذلك.

وفي الإنجيل الذي بأيديكم أن اليهود قالت له: ما آيتك التي نصدقك بها؟ قال: اهدموا البيت أبنيه لكم في ثلاثة أيام[3]، فلو كانت اليهود تعرف له آية لم تقل هذا، ولو كان قد أظهر لهم معجزة لذكرهم بها حينئذٍ.

وفي الإنجيل الذي بأيديكم أيضاً أنهم جاءوا يسألونه آية فقذفهم فقال: «إن القبيلة (الفاجرة)[4] الخبيثة آية فلا تعطى ذلك»[5].

وفيه أيضاً: أنهم كانوا يقولون له وهو على الخشبة ـ بظنهم ـ: «إن كنت المسيح فأنزل نفسك نؤمن بك»[6] يطلبون بذلك آية، فلم يفعل.

فإذا كفرتم معاشر المثلثة عباد الصليب بالقرآن، لم يتحقق لعيسى ابن مريم (عندكم)[7] آية ولا فضيلة، فإن أخباركم عنه وأخبار اليهود لا يلتفت إليها، لاختلافكم في شأنه أشد الاختلاف وعدم يقينكم لجميع أموره.

وكذلك اليهود اجتمعت على أنه لم يدّع شيئاً من الإلهية التي نسبتم إليه ادعاءها.

[اليهود نسبوا الألوهية للمسيح استهزاءً به ومحاولة لضربه]

وكان أقصى مرادهم أن يدعي ذلك ليكون أبلغ تسلطهم عليه، وقد ذكرتم السبب

---

(١) في ج، ص: أمر الله أن يؤمنوا بما، وفي ب: أن تؤمنوا بما.

(٢) يوحنا: ٦/٢٨ ـ ٣٥.

(٣) يوحنا: ٢/١٨ ـ ١٩.

(٤) في الأصل: الفاخرة.

(٥) انظر: متى ١٦/٤، ونصه: «جيل شرير يلتمس آية، ولا تعطى له آية».

(٦) مرقس: ١٥/٣٠.

(٧) سقطت من ب، ج، ص.

في استفاضة ذلك عليه، وهو أن أحبارهم وعلماءهم لما مضى وبقي ذكره، خافوا أن يصير عامتهم إليه، إذ كان على سنن تقبله قلوب الذين لا غرض لهم فشنعوا عليه أموراً كثيرة ونسبوا إليه دعوى الإلهية تزهيداً للناس في أمره.

[اختلاف اليهود في المسيح عليه السلام]

ثم إن اليهود عندهم من الاختلاف في أمره ما يدل على عدم يقينهم بشيء من أخباره، فمنهم من يقول إنه كان رجلاً منهم، ويعرفون أباه[1] وأمه وينسبوه لزنية[2]، (وحاشاه)[3]، وحاشا أمه الصديقة الطاهرة البتول، التي لم يقرعها فحل قط ــ قاتلهم الله أنّى يؤفكون ــ ويسمون أباه للزنية البنديرالرومي، وأمه مريم الماشطة، ويزعمون أن زوجها يوسف بن يهودا[4] وجد البنديرا عندها على فراشها أو شعر بذلك فهجرها وأنكر ابنها.

ومن اليهود ــ لعنهم الله[5] ــ من رغب عن هذا القول، وقالوا: إنّما أبوه يوسف بن يهودا الذي كان زوجاً لمريم، ويذكرون أن السبب في استفاضة اسم الزنيم عليه، أنه بينا هو يوماً مع معلمه (يهشوع بن برضيا) وسائر التلاميذ (فنزلوا في سفر)[6] موضعاً، وجاءت امرأة من أهله وجعلت تبالغ في إكرامهم، فقال يهشوع: ما أحسن هذه المرأة ــ يريد أفعالها ــ فقال عيسى ــ بزعمهم ــ: لولا عمش بعينيها، فصاح يهشوع وقال: (ممزار)[7] ــ ترجمته: يا زنيم ــ أتزني بالنظر وغضب غضباً شديداً، وعاد إلى بيت المقدس، وحرم

---

(١) انظر ما ورد في إنجيل لوقا: «وكان الجميع يشهدون له ويتعجبون من كلمات النعمة الخارجة من فمه ويقولون: أليس هذا ابن يوسف» (لوقا: ٤/٢٣) كما أن الأناجيل تذكر أسماء آبائه حتى إبراهيم عليه السلام، (انظر أول إنجيل متى، وإنجيل لوقا: ٣/٢٣ــ ٣٨).

(٢) انظر: يوحنا: ٨/٤١.

(٣) سقطت من الأصل.

(٤) يوسف بن يهودا: يصرح إنجيل متى أن يوسف بن يهودا زوج مريم العذراء وهو من بيت داود من بيت لحم، (متى: ١/١٦، ١/٢٠). ومارس مهنة النجارة، متى: ١٣/٥٥.

(٥) ليست في ب.

(٦) في ب، ج، ص: في سفر فنزلوا.

(٧) في ب، ص: فمن.

اسمه ولعنه في أربعمائة قرن، فحينئذٍ لحق (ببعض)[1] قواد الروم وأدخله بصناعة الطب فقوي لذلك على اليهود، وهم يومئذٍ في ذمة (قيصر بتاريوش)[2]، وجعل يخالف حكم التوراة، ويستدرك عليها، ويعرض عن بعضها إلى أن كان من أمره ما كان.

وطوائف من اليهود ــ لعنهم الله ــ يقولون غير هذا، ويقولون إنه كان يلاعب الصبيان بالكرة فوقفت لهم بين جماعة من مشايخ اليهود، فضعف الصبيان عن استخراجها من بينهم (حياءً منهم ــ أي من مشايخهم ــ)[3] فقوى عيسى (وتخطّى)[4] رقابهم وأخذها، فقالوا له: ما نظنك إلاّ زنيماً.

ومن (اختلاف)[5] اليهود ــ لعنهم الله ــ في أمره، أنهم يسمون أباه ــ بزعمهم ــ الذي هو خطيب مريم، يوسف بن يهودا النجار، وبعضهم يقول: إنما هو يوسف الحداد[6]. والنصارى تزعم أنها ذات بعل، وأن زوجها يوسف بن يعقوب، وبعضهم يقول: يوسف بن (آل)[7].

وهم يختلفون أيضاً في آبائه، وعددهم إلى إبراهيم عليه الصلاة والسلام، فمن مقل ومن مكثر[8] فهذا ما عند اليهود لعنهم الله، وهم شيوخكم في نقل الصلب وأمره، وإلاّ فمن المعلوم أنه لم يحضره أحد من النصارى وإنّما (حضره)[9] اليهود ــ لعنهم الله ــ

---

(١) سقطت من ب.

(٢) قيصر طباريوس (هكذا في إنجيل لوقا) وفي زمن هذا القيصر كان بيلاطس والياً على منطقة اليهودية وهيروروس رئيس ربع الجليل (لوقا: ٣/١).

(٣) في ب، ج، ص: حياء من المشايخ.

(٤) سقطت من ب، ج.

(٥) في الأصل: أخلاق.

(٦) من باب الاستهزاء.

(٧) في إنجيل لوقا: هالي.

والذي يقول إن زوجها يوسف بن يعقوب، هو متى (انظر: متى: ١/١٦).

والذي قال إن زوجها يوسف بن هالي، هو لوقا (انظر: لوقا: ٣/٢٣).

(٨) المقلّ هو (متى) حيث بلغ عدد سلسلة الآباء عنده من يوسف أبي المسيح (كما يدعي) إلى إبراهيم عليه السلام أربعين رجلاً. والمكثر هو (لوقا) حيث بلغ عددهم عنده خمسة وخمسين رجلاً. وقد أكمل السلسلة إلى آدم عليه السلام.

(٩) في الأصل: حضرهم.

وقالوا: قتلناه وصلبناه، وهم الذين قالوا فيه ما (قالوا مما)[1] حكيناه عنهم، فإن صدقتموهم في الصلب فصدقوهم في سائر ما ذكروه، وإن كذبتموهم فيما نقلوه عنه فما الموجب لتصديقهم في الصلب، (وتكذيبهم)[2]، وما صلبوه بل صانه الله وحماه وحفظه، وكان أكرم على الله وأوجه عنده من أن يبتليه بما تقولون أنتم ـ قاتلكم الله ـ واليهود ـ لعنهم الله.

[اختلاف النصارى في المسيح عليه السلام]

وأما خبر ما عندكم أنتم، فلا نعلم أمة من الأمم أشد اختلافاً في معبودها ونبيّها ودينها منكم، فلو سألت الرجل وامرأته وابنته وأباه وأمه عن دينهم لأجابك كل واحد منهم بغير جواب الآخر[3].

ولو اجتمع عشرة منهم يتذاكرون الدين لتفرقوا عن أحد عشر مذهباً. مع اتفاق فرقهم المشهورة اليوم على القول بالتثليث وعبادة الصليب، وأن المسيح ابن مريم ليس بعبد صالح (ولا رسول)[4] وأنه إله في الحقيقة وأنه خالق السموات والأرض والملائكة والنبيين، وأنه هو الذي أرسل الرسل وأظهر على أيديهم المعجزات والآيات، وأن للعالم إلهاً هو أب والد لم يزل، وأن ابنه نزل من السماء، وتجسم من روح القدس، ومن مريم، وصار هو وابنها الناسوتي إلهاً واحداً ومسيحاً واحداً وخالقاً واحداً ورازقاً، وحبلت به مريم وولدته، وأخذ وصلب وألم ومات ودفن وقام بعد ثلاثة أيام، وصعد إلى السماء وجلس على يمين أبيه.

وقالوا: والذي ولدته مريم وعاينه الناس وكان بينهم هو الله، وهو ابن الله وهو كلمة الله.

فالقديم الأزلي خالق السموات والأرض، هو الذي حبلت به مريم، وأقام هناك تسعة أشهر، وهو الذي ولد ورضع وفطم وأكل وشرب (وتغوط)[5] وأخذ وصلب وشد بالحبال وسمرت يداه.

---

(١) سقطت من ب، ج، ص.

(٢) في ب، ج، ص: وتكذيب.

(٣) هذا منقول عن الجواب الصحيح: ٣/ ١٥٥.

(٤) في ب، ج، ص: ولا نبي ولا رسول.

(٥) سقطت من الأصل.

[أشهر فرقهم ومذهبها في طبيعة المسيح عليه السلام]

[اليعقوبية]:

ثم اختلفوا، فقالت اليعقوبية(١) ـ قاتلهم الله ـ وهم أتباع يعقوب البرادعي ولقب بذلك لأن لباسه كان من خروق برادع الدواب يرقع بعضها ببعض ويلبسها ـ: إن المسيح طبيعة واحدة من طبيعتين، إحداهما طبيعة الناسوت والأخرى طبيعة اللاهوت، وإن هاتين الطبيعتين تركبتا فصارتا إنساناً واحداً وجوهراً واحداً وشخصاً واحداً، (وهذه الطبيعة الواحدة والشخص الواحد)(٢) هو المسيح وهو إله كله وإنسان كله، وهو شخص واحد وطبيعة واحدة من طبيعتين(٣).

وقالوا: إن مريم ولدت الله، وإن الله سبحانه وتعالى قبض عليه، وصلب وسمر ومات ودفن ثم عاش بعد ذلك.

[الملكية]:

(فصل): وقالت الملكية(٤) ـ وهم الروم، نسبة إلى دين الملك لا إلى رجل يدعي ملكايا(٥)، وهو صاحب مقالتهم، كما يقوله بعض من لا علم له بذلك ـ: إن الابن الأزلي

---

(١) اليعقوبية: من فرق النصارى الرئيسية، سميت بذلك نسبة ليعقوب البرادعي ولم تنسب له لأنه مؤسسها بل لأنه من أنشط دعاتها، وأول من أنشأ مذهبها وأعلنه بطريرك الاسكندرية في منتصف القرن الخامس الميلادي، أما يعقوب فقد وجد في القرن السادس الميلادي، (انظر: محاضرات في النصرانية، محمد أبو زهرة: ص ١٧٥).

(٢) سقطت من ج.

(٣) زاد في ج: إحداهما طبيعة الناسوت والأخرى طبيعة اللاهوت. هذا هو القول بالطبيعة الواحدة والمشيئة الواحدة، وهو اليوم مذهب الكنيسة الأرثوذكسية. ومنها القبطية والتي تعتبر امتداداً لفرقة اليعقوبية.

(٤) الملكية، أو الملكانية كما تسميها بعض المراجع، أو الملكائية ـ بالهمزة ـ كما يسميها الشهرستاني في الملل والنحل: ٢/ ٦٢ (مطبوعها في هامش الفصل) من أشهر فرق النصارى، وسميت بذلك نسبة إلى الملوك لأنها كما قال ابن حزم رحمه الله: مذهب جميع ملوك النصارى وأهل ممالكهم حيث كانوا حاشا الحبشة والنوبة (الفصل، ابن حزم، ١/ ٤٨) والكاثوليكية اليوم امتداد لهذه الفرقة.

(٥) في ب: ملكاً، وفي ج: ملكاناً. من الذين أخطأوا في ذلك وظنوا أن اسم الملكائية، نسبة إلى رجل اسمه ملكاً، أبو الفتح الشهرستاني رحمه الله فقد ذكر في كتابه الملل ما نصه: الملكائية: أصحاب =

الذي هو الكلمة تجسدت من مريم تجسداً كاملاً كسائر أجساد الناس، وركبت في ذلك الجسد نفساً كاملة بالعقل والمعرفة والعلم كسائر أنفس الناس، وأنه صار إنساناً بالجسد والنفس اللذين هما من جوهر الناس (إلهاً بجوهر اللاهوت كمثل أبيه لم يزل وهو إنسان بجوهر الناس)[1] كمثل إبراهيم وموسى وداود وهو شخص واحد لم يزد عدده، وثبت له جوهر اللاهوت كما لم يزل، وصح له جوهر الناسوت الذي لبسه (ابن)[2] مريم، وهو شخص واحد لم يزد عدده، وطبيعتان ولكل واحد من الطبيعتين مشيئة كاملة، فله باللاهوتية مشيئة مثل الأب، وله بناسوتيته مشيئة كمشيئة إبراهيم وداود. وقالوا: إن مريم ولدت المسيح وهو اسم يجمع اللاهوت والناسوت وقالوا: إن الذي مات هو الذي ولدته مريم، وهو الذي وقع عليه الصلب والتسمير والصفع والربط بالحبال. واللاهوت لم يمت ولم يألم ولم يدفن.

قالوا: وهو إله قام بجوهر لاهوته، وإنسان قائم بجوهر ناسوته، وله المشيئتان: مشيئة اللاهوت ومشيئة الناسوت، فأتوا بمثل ما أتى به اليعقوبية من أن مريم بزعمهم نزهوا الإله عن الموت.

وإذا تدبرت قولهم وجدته في الحقيقة (هو)[3] قول اليعقوبية مع (تناقضهم)[3] واليعقوبية أطرد (لكفرهم)[4] لفظاً ومعنى[5].

= ملكا الذي ظهر بالروم واستولى (الملل والنحل: ٢/٦٢ هامش الفصل). ويبدو أن التسمية عربية أطلقها المسلمون على أصحاب هذا المذهب لأنهم من الملوك وأتباعهم وكان هذا المذهب يعرف من قبل بالمذهب الروماني.

(١) سقطت من ج.

(٢) سقطت من ص.

(٣) في ص: تنازعهم وتناقضهم.

(٤) في الأصل: لكفر.

(٥) رغم اختلاف الفرقتين حول طبيعة المسيح عليه السلام، فبينما تقول الملكانية (وتتبعها الكاثوليكية) بالطبيعتين اللاهوتية والناسوتية فهو إله تام وإنسان تام كما يقولون، وتقول اليعقوبية (وتتبعها الأرثوذكسية) بالطبيعة الواحدة والمشيئة الواحدة للسيد المسيح رغم هذا الاختلاف إلّا أنهما تتفقان على ألوهيّة المسيح، وتتفقان على أن الكلمة اتحدت بالمسيح مع اختلافهما في كيفية الاتحاد، فهو اتحاد تمازج عند الملكانية، واتحاد استحالة وانقلاب عند اليعقوبية، فالكلمة انقلبت لحماً ودماً عندهم، ومن هنا كان كفرهم أقطع كما أشار المؤلف رحمه الله.

[النسطورية]:

وأما النسطورية(1) (فقد ذهبوا)(2) إلى القول بأن المسيح شخصان وطبيعتان لهما مشيئة واحدة، وأن طبيعة اللاهوت لما وجدت بالناسوت صار لهما إرادة واحدة، واللاهوت لا يقبل زيادة ولا نقصاناً، ولا يمتزج بشيء، والناسوت (يقبل)(3) بالزيادة والنقصان، وكان المسيح بذلك إلهاً إنساناً، فهو الإله بجوهر اللاهوت الذي لا يقبل الزيادة والنقصان، وهو إنسان بجوهر الناسوت الذي يقبل الزيادة والنقصان. وقالوا: إن مريم ولدت المسيح بناسوته، وإن اللاهوت لم يفارقه قط.

وكل هذه الفرق استنكفت أن يكون المسيح عبد الله، وهو لم يستنكف من ذلك، ورغبت به عن عبودية الله، وهو لم يرغب عنها، بل أعلى منازله عبودية لله، ومحمد وإبراهيم خير منه، وأعلى منازلهما تكميل مراتب العبودية (بالله تعالى، ويا فوز من)(4) رضيه أن يكون له عبداً. فلم ترض المثلثة بذلك.

وقالت الأريوسية(5) منهم، وهم أتباع آريوس أن المسيح عبد الله كسائر الأنبياء والرسل وهو مربوب مخلوق مصنوع.

وكان النجاشي على هذا المذهب.

وإذا ظفرت المثلثة بواحد من هؤلاء قتلوه شر قتلة، وفعلوا به ما يفعل لمن سبّ المسيح وشتمه أعظم سب.

---

(1) النسطورية: أصحاب نسطور الذي كان أسقفاً للقسطنطينية، ونادى بانفصال الطبيعتين اللاهوتية والناسوتية، وقد حضر مجمع أفسس الأول سنة ٤٣١م، إلا أن المجمع حرمه وطرده (انظر: تاريخ الأقباط: ١/١٧٧) وقد وهم الشهرستاني رحمه الله حين قال «النسطورية: أصحاب نسطور الحكيم الذي ظهر في زمان المأمون وتصرف في الأناجيل بحكم رأيه» (الملل والنحل: ٢/٦٤) ذلك لأن المأمون توفي سنة ٢١٨هـ بينما نسطور حضر مجمع أفسس الأول سنة ٤٣١م والفرق بين التاريخين حوالي أربعمائة سنة.

(2) سقطت من الأصل.

(3) في الأصل: لا يقبل.

(4) في ب، ج، ص: فالله.

(5) الأريوسية نسبة إلى آريوس الذي ولد في ليبيا القيروان سنة ٢٧٠م ودخل في شبابه المدرسة اللاهوتية بالاسكندرية، ثم رسمه البابا (بطرس) بطريرك الاسكندرية، شماساً سنة ٣٠٧م ثم قساً وواعظاً، وكان ذكياً فصيحاً (انظر: تاريخ الأقباط: ١/١٥٠).

وكل من تلك الفرق الثلاث[1]، عوامهم لا يفهم مقالة خواصهم على حقيقتها، بل يقولون: إن الله تخطى مريم كما يتخطى الرجل المرأة، وأحبلها فولدت له ابناً، ولا يعرفون تلك الهذيانات التي وضعها خواصهم، فهم يقولون: (الذي تدندنون حوله[2])[3]، نحن نعتقده بغير حاجة منا إلى معرفة الأقانيم الثلاث والطبيعتين والمشيئتين، وذلك التهويل والتطويل.

وهم يصرّحون بأن مريم والدة الإله، والله أبوه وهو الابن، فهذا الزوج والزوجة والولد. ﴿وقالوا اتخذ الرحمن ولداً * لقد جئتم شيئاً إدّاً[4] * تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدّاً * أن دعوا للرحمن ولداً * وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولداً * إن كل من في السموات والأرض إلاّ آتي الرحمن عبداً * لقد أحصاهم وعدّهم عدّاً * وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً﴾[5].

فهذه أقوال أعداء المسيح من اليهود والمغالين فيه من النصارى المثلثة عباد الصليب. (قاتل)[6] الله الفئتين: أنّى يؤفكون.

[عقيدتنا في المسيح عليه السلام]

بعث[7] الله محمداً ﷺ بما أزال الشبهة في أمره، وكشف الغمّة، وبرّأ المسيح وأمه مما افتراه (من افتراء اليهود لعنهم الله وبهتهم وكذبهم، وتنزه رب العالمين وخالق المسيح وأمه مما افتراه) عليه المثلثة عباد الصليب الذين سبّوه أعظم السب (ـ قاتلهم الله أنّى يؤفكون ـ)[8]، وأنزل (أخاه المسيح)[9] بالمنزلة التي أنزله الله بها وهي أشرف منازله

(١) اليعقوبية، والملكية، والنسطورية.

(٢) تدندنون: ورد في هامش نسخة الأصل وبخط يد الناسخ، يدندنون حوله أي يقولون كلاماً لا يفهم (ص ١٢٦).

(٣) في الأصل: الذين يدندنون حوله.

(٤) إدّا: أي أمراً فظيعاً (هامش نسخة الأصل ص ١٢٦).

(٥) سورة مريم: الآيات ٨٨ ــ ٩٥.

(٦) في الأصل: قال الله والجملة كلها ليست في ب، ج، ص.

(٧) في الأصل: فبعث.

(٨) ليست في ب، ج، ص.

(٩) في ب، ج، ص: المسيح أخاه.

فآمن به وصدقه وشهد له بأنه عبد الله ورسوله وروحه، وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول[1] الطاهرة الصديقة سيدة نساء العالمين في زمانها، وقرّر معجزات المسيح وآياته وأخبر عن ربه تعالى بتخليد من كفر بالمسيح في النار، وأنّ ربّه تعالى أكرم عبده ورسوله ونزهه وصانه أن ينال إخوان القردة (أمة الغضب)[2] منه ما زعمته النصارى أنهم نالوه منه، بل رفعه الله إليه مؤيداً منصوراً لم يشكه أعداؤه بشكوة ولا نالته أيديهم بأذى، فرفعه الله إليه وأسكنه (سماءه)[3]، وسيعيده إلى الأرض ينتقم به من مسيح الضلال وأتباعه، ثم يكسر الصليب، ويقتل به الخنزير، ويعلي به الإسلام، وينصر به ملة أخيه وأولى الناس به محمد ﷺ.

فإذا وضع هذا القول في المسيح في كفة، وقول عبّاد الصليب المثلثة في كفة، تبين لكل من له أدنى مسكة من عقل، ما بينهما من التفاوت، وأن تفاوتهما كتفاوت ما بينه وبين قول المغضوب عليهم فيه وبالله التوفيق.

فلولا محمد ﷺ لما عرفنا أن المسيح ابن مريم (الذي)[4] هو رسول الله وعبده وكلمته وروحه موجود أصلاً. فإن هذا المسيح الذي أثبته اليهود من شرار خلق الله ليس بمسيح الهدى. (والذي)[5] أثبته النصارى من أبطل الباطل، لا يمكن وجوده في عقل ولا فطرة، ويستحيل أن يدخل في الوجود أعظم استحالة، ولو (أمكن)[6] وجوده لبطلت أدلة العقول، ولم يبق لأحد ثقة بمعقول أصلاً، فإن استحالة وجوده فوق استحالة جميع المحالات، ولو صحّ ما يقولون لبطل العالم واضمحلت السموات والأرض، وعدمت الملائكة والعرش والكرسي، ولم يكن بعث ولا نشور ولا جنّة ولا نار.

ولا يستعجب من إطباق أمة الضلال، الذين شهد الله أنهم أضل من الأنعام على ذلك. فكل باطل ينسب في الوجود إلى أمة من الأمم فإنّها مطبقة عليه. وقد تقدم ذكر

---

(١) البتول من النساء: المنقطعة عن الرجال لا أرب لها فيهم، وسميت العذراء بذلك لتركها التزويج (لسان العرب).
(٢) ليست في ب، ج، ص.
(٣) في الأصل: سماواته.
(٤) سقطت من الأصل.
(٥) في ب، ج، ص: والمسيح الذي.
(٦) في ص: صح.

إطباق الأمم العظيمة التي لا يحصيها إلاّ الله عز وجل على الكفر والضلال بعد معاينة الآيات البينات. فلعبّاد الصليب أسوة بإخوانهم من أهل الشرك والضلال.

[مجامع النصارى ودورها في التحريف]

(فصل): في ذكر استنادهم في دينهم إلى أصحاب المجامع الذي كفّر بعضهم بعضاً (ولعن بعضهم بعضاً)[1] وتَلَقِّيهم أصول دينهم عنهم.

بداية النصرانية وما لها:

(ونحن نذكر)[2] الأمر كيف ابتدأ وتوسط وانتهى حتى كأنك تراه عياناً، كان الله قد بشّر بالمسيح على (لسان أنبيائه)[3] من لدن موسى إلى (زمن)[4] داود ومن بعده من الأنبياء، وأكثر الأنبياء (تبشيراً)[5] به داود. وكانت اليهود تنتظره وتصدق به قبل مبعثه، فلما بعث كفروا به بغياً وحسداً، وشردوه في البلاد، وطردوه وحبسوه، وهمّوا بقتله مراراً إلى أن أجمعوا على القبض عليه، وعلى قتله فصانه الله تعالى، وأنقذه من أيديهم ولم يهنه بأيديهم، وشبّه لهم أنهم صلبوه، ولم يصلبوه، كما قال تعالى: ﴿وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً * وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله * وما قتلوه وما صلبوه ولكن شُبّه لهم * وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه * ما لهم به من علم إلا اتباع الظن * وما قتلوه يقيناً * بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً حكيماً﴾[6].

وقد (اختلفوا في قوله)[7] ﴿ولكن شبه لهم﴾، فقيل: المعنى ولكن شبه لهم، للذين صلبوه، بأن ألقي شبهه على غيره فصلبوا الشبه.

وقيل المعنى: ولكن شبه (لهم)[8] للنصارى، أي جعلت لهم الشبهة في أمره،

---

(١) سقطت من ص.
(٢) في ج: نذكر وفي ص: ونحن نذكر الآن.
(٣) في ب، ص: ألسنة أنبيائه وفي ج: ألسنة الأنبياء.
(٤) في ب، ج: لدن.
(٥) في ج: بشر.
(٦) سورة النساء: الآيات: ١٥٦ ــ ١٥٨.
(٧) في ب، ج، ص: اختلف في معنى قوله.
(٨) سقطت من ص.

وليس لهم علم بأنه قتل ولا صلب، ولكن لما قال أعداؤه: إنهم قتلوه وصلبوه (واتفق)[1] رفعه من الأرض وقعت الشبهة في (أمرهم وصدّقهم)[2] النصارى في صلبه لتتم الشفاعة عليهم.

وكيفما كان، فالمسيح صلوات الله عليه وسلامه لم يقتل ولم يصلب يقيناً لا شك فيه، ثم تفرق الحواريون في البلاد بعد رفعه، على دينه ومنهاجه، يدعون الأمم (من بني إسرائيل)[3] إلى توحيد الله ودينه، والإيمان بعبده ورسوله ومسيحه، فدخل كثير من الناس في دينه بين (ظاهر ومستور)[4]: ظاهر مشهور ومختف مستور.

وأعداء الله اليهود ــ لعنهم الله ــ في غاية (الشدة)[5] والأذى لأصحابه وأتباعه.

[النصرانية والدولة الرومانية[6]]

ولقي تلاميذ المسيح وأتباعه من اليهود ومن الروم شدة شديدة من قتل وعذاب وتشريد وحبس وغير ذلك.

[اليهود يحرضون حكام الرومان على النصارى]

وكان اليهود في زمن المسيح في ذمة الروم، الذين كانوا ملوكاً عليهم. وكتب نائب

---

(١) في ج: وافق.

(٢) في ب، ج، ص: في أمره وصدقهم.

(٣) سقطت من ب، ج، ص.

(٤) ليست في ب، ج، ص.

(٥) في ص: الشرور والشدة.

(٦) بين الإمام ابن القيم في هذا الفصل تاريخ النصرانية من بدايتها، وما لاقاه النصارى على يد حكام الرومان من الأذى والاضطهاد، ثم بداية انحرافات النصرانية وتنازلاتها ومغازلتها للدولة الرومانية على حساب عقيدتها، وأشار إلى اعتناق الأمبراطور قسطنطين للنصرانية، حيث بدأ تدخل الدولة الرومانية في صلب العقيدة النصرانية وأكثر ما تجلى ذلك في مجمع نيقية الذي عقد برئاسة الأمبراطور لبحث مشكلة آريوس الذي عارض القول بألوهية المسيح. وقد نقل ابن القيم هذا الفصل باختصار عن الجواب الصحيح نقلاً عن تاريخ ابن البطريق (انظر الجواب الصحيح: ٣/٥).

وقد رجعت إلى تاريخ ابن البطريق ووجدته مفصلاً هناك، (انظر: التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق، ابن البطريق: ١/٩٣ ــ ٢١٩) وقد ظهر واضحاً أن ابن تيمية نقل عن تاريخ ابن البطريق، أما ابن القيم فقد نقل عن الجواب الصحيح.

الملك ببيت المقدس إلى الملك[1] يعلمه بأمر المسيح وتلاميذه، وما يفعل من العجائب الكثيرة من إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى، فهمّ أن يؤمن به ويتبع دينه، فلم يتابعه أصحابه.

ثم هلك وولي بعده ملك آخر[2]، وكان شديداً على (تلامذة المسيح)[3]، ثم مات وولي بعده آخر[4].

[الظروف التي كتبت فيها الأناجيل]

وفي زمنه كتب (متى)[5] إنجيله بالعبرانية، وفي زمنه صار (مرقس)[6] والي الإسكندرية، فدعا إلى الإيمان بالمسيح، وهو أول شخص جعل بتركاً[7] بالإسكندرية، (وصيّر)[8] معه اثني عشر قسيساً على عدة نقباء بني إسرائيل في زمن موسى، وأمرهم إذا مات البترك أن يختاروا من الاثني عشر واحداً يجعلونه بتركاً مكانه، ويضع الاثني عشر أيديهم على رأسه (ويباركونه)[9]، ثم يختارون رجلاً فاضلاً قسيساً يصيرونه تمام العدة، ولم يزل أمر القوم كذلك إلى زمان قسطنطين، ثم انقطع هذا الرسم فاصطلحوا على أن ينصبوا البترك من أي بلد كان من أولئك (القسيسين)[10]، ثم يسمّوه (بابا) ومعناه أبو

---

(١) في الجواب الصحيح: ٣/٥ وكتب بلاطوس إلى طيباربوس، وهو هكذا في تاريخ ابن البطريق: ٩٣/١.

(٢) واسمه غابيوس عند ابن البطريق: ص٩٣.

(٣) في ص: تلامذته.

(٤) واسمه قلوديوس قيصر (ابن البطريق: ٩٤/١).

(٥) في ب، ج، ص: مرقس، والصواب متى، قال ابن البطريق: وفي عهد قلوديوس قيصر كتب مرقس إنجيله بالعبرانية في بيت المقدس (تاريخ ابن البطريق: ٩٤/١).

(٦) سقطت من جميع النسخ وفي الجواب الصحيح: مرقس هو الذي كان يدعو إلى الإيمان بالاسكندرية وأول بترك لها: ٦/٣ وكذلك يشير النص بعد قليل، كما بين ذلك ابن البطريق في تاريخه: ٩٥/١.

(٧) يشير تاريخ ابن البطريق إلى أن مرقس صيّر حنانيا بطريكاً على الاسكندرية، وهو أول بطريرك صيّر على الاسكندرية (تاريخ ابن البطريق: ٩٥/١).

(٨) في ج: وجعل.

(٩) في ج: ويتركونه.

(١٠) في ج، ص: القسيس أو من غيرهم.

الأبـاء، وخرج مـرقس إلى برقـة[1] يدعـو الناس إلى دين المسيـح، ثم جاء[2] ملك آخـر فـأهاج[3] على أتبـاع المسيح الشـر والبلاء، وأخـذهم بأنـواع العذاب، وفي عصـره كتب بطرس رئيس الحواريين إنجيل مرقس عنه بالرومية، ونسبه إلى مرقس[4] وفي عصـره كتب لوقا إنجيله بالرومية لرجل شريف من عظماء الروم[5]، وكتب له الإفـركسيس[6] الذي فيـه أخبار التلاميذ، وفي زمنه صلب بطرس.

وزعموا أن بطرس قال له: «إن أردت أن تصلبني فـاصلبني منكساً، لئـلا أكون مثـل سيدي المسيح فإنه صلب قائماً».

وضرب عنق بولس[7] بالسيف وأقام (بطرس)[8] بعد صعود المسيح اثنتين وعشـرين سنـة. وأقام (مـرقس) بالاسكنـدرية وبـرقـة (سبـع سنين)[9]، يـدعـو النـاس إلى الإيمـان بالمسيح، ثم قتل بالإسكندرية وأحرق جسده بالنار.

ثم استمـرت القيـاصـرة ملوك الـروم على هــذه السيـرة إلى أن ملك قيصـر يسمى (طيطس)[10] فخرب بيت المقـدس بعد المسيـح بسبعين سنة بعـد أن حاصرها، وأصـاب أهلهـا جوع عـظيم، وقتل من كـان بها من ذكـر وأنثى حتى كانـوا يشقون بـطون الحبـالى

(١) برقة: بفتح أوله والقاف، اسم صقع كبيـر يشتمل على مـدن وقرى بين الاسكنـدرية وأفـريقية، وهي مما افتتح صلحاً، صالحهم عليها عمرو بن العاص سنة ٢١هـ: وفيات الأعيان.

(٢) سقطت من الأصل.

(٣) في تـاريخ ابن البـطريق: ومات قلوديـوس قيصر، وملك بعـده ابنه نـارون ثلاث عشـر سنة: ٩٦/١ وهكذا أيضاً في الجـواب الصحيح: ٧/٣ لكنـه ذكر فلوريـوس بدل قلوديـوس وبارون بـدل نارون، ولعله خطأ مطبعي وتصحيف من النساخ.

(٤) نص على ذلك ابن البطريق: ٩٦/١ وهذا مما يرجح أن مرقس لم يكتب إنجيله.

(٥) واسمه عند ابن البطريق: ثاوفيلا، وفي الجواب الصحيح: فوفيلا.

(٦) الابركسيس هو أخبار التلاميذ أو ما يعرف الآن بأعمال الرسل وهو مما ينسب إلى بولس.

(٧) في الأصل: عنق توكس.

(٨) في ج: مرقس.

(٩) سقطت من ج.

(١٠) تيطس هو الأمبراطور الـروماني تيـطس ابن الأمبراطـور اسباسيـانوس: وقـد ملك تيطس ثـلاث سنين وشهـرين ونصف ومات، وقـد قام بتخـريب بيت المقدس سنـة ٧٠م (انظر: تـاريـخ ابن البـطريق: ٩٨/١ ــ ٩٩).

ويضربون بأطفالهن الصخور، وضرب المدينة وأضرم فيها ناراً وأحصي (القتلى)[١] فبلغوا ثلاثة آلاف ألف[٢].

ثم ملك ملوك آخرون فكان منهم واحد شديداً على اليهود جداً[٣]، فبلغه أن النصارى يقولون إن المسيح ملكهم وإن ملكه يدوم إلى آخر الدهر، فاشتد غضبه وأمر بقتل النصارى وأن لا يبقى في مملكته (نصراني)[٤].

وكان (يوحنا) صاحب الإنجيل هناك، فهرب[٥]، ثم أمر الملك بإكرامهم وترك الاعتراض عليهم.

ثم ملك بعده آخر[٦] فأثار على النصارى بلاءً عظيماً وقتل بترك إنطاكية[٧] ورومية، وقتل أسقف بيت المقدس وصلبه، وله يومئذٍ مائة وعشرون سنة، وأمر باستعباد النصارى، فاشتد عليهم البلاء إلى أن رجمتهم الروم، وقال له وزراؤه: إن لهم ديناً وشريعة، وإنه لا يحل استعبادهم فكفَّ عنهم.

وفي عصره كتب يوحنا إنجيله بالرومية[٨]، وفي ذلك العصر رجع اليهود إلى بيت المقدس، فلما كثروا وامتلأت بهم المدينة، عزموا على أن يُملكوا منهم ملكاً، فبلغ الخبر (قيصر)[٩]، فوجه جيشاً إليهم فقتل منهم ما لا يحصى، ثم ملك بعده آخر[١٠]، فأخذ

---

(١) في ب، ج، ص: القتلى على يده وهكذا عند ابن البطريق.

(٢) نفس الرقم عند ابن البطريق وفي الجواب الصحيح.

(٣) في الجواب الصحيح: اسمه ذوما طيتوس وعند ابن البطريق دوما تيانوس بالدال لا بالذال.

(٤) في الأصل: أحد منهم.

(٥) عند ابن البطريق: هرب إلى أفسس.

(٦) عند ابن البطريق: وملك بعده نارواس قيصر ويسمى برسطيوس قيصر برومية سنة وخمسة أشهر ومات، وملك بعده طرابيانوس قيصر، ويسمى اندريانوس قيصر، وهذا الملك أثار على النصارى بلاءً عظيماً... (تاريخ ابن البطريق: ١/ ١٠٠).

(٧) أنطاكية: قصبة العواصم من الثغور الشامية، بينها وبين حلب يوم وليلة، أول من بناها انطيخس الملك الثالث بعد الاسكندر، وقد سار إليها أبو عبيدة من حلب وقد تحصن بها خلق كثير، فحاصرها من جميع نواحيها، فصالحه أهلها على الجزية وبعضهم على الجلاء، ثم نقضوا العهد، فوجه إليهم أبو عبيدة عياض بن غنم وحبيب بن سلمة ففتحاها على الصلح الأول (معجم البلدان).

(٨) عند ابن البطريق: باليونانية.

(٩) في الجواب الصحيح: ٣/ ٩ طيباربوس قيصر وعند ابن البطريق: طرابيانوس قيصر.

(١٠) اسمه في الجواب الصحيح اندميانوس وعند ابن البطريق إيليا اندريانوس.

الناس بعبادة الأصنام، وقتل من النصارى خلقاً كثيراً. ثم ملك بعده ابنه[1]، وفي زمانه قتل اليهود قتلاً ذريعاً، وخرب بيت المقدس، وهرب اليهود إلى مصر وإلى الشام والجبال والأغوار، وتقطعوا في الأرض وأمر الملك أن لا يسكن المدينة يهودي، وأن يُقتل (اليهود)[2] ويُستأصلوا، وأن يسكن المدينة اليونانيون، وامتلأت بيت المقدس من اليونانيين، والنصارى في ذمة الروم تحت أيديهم، فرأوهم يأتون إلى مزبلة هناك فيصلون فيها، فمنعوهم من ذلك، وبنوا على المزبلة هيكلاً باسم الزهرة، فلم يمكن النصارى بعد ذلك قربان ذلك الموضع.

[فترة رفع البلاء عن اليهود]

ثم هلك هذا الملك، وقام بعده آخر، فنصب[3] يهودا أسقفاً على بيت المقدس. قال ابن البطريق: فمن يعقوب أسقف بيت المقدس (الأول)[4] إلى يهودا هذا أسقفه هذا كانت الأساقفة[5] الذين على بيت المقدس كلهم (مجبوبين)[6].

[وعاد البلاء]

ثم ولي بعده آخر[7] فأثار على النصارى بلاءً شديداً وحزناً طويلاً، ووقع في أيامه

---

(١) واسمه في الجواب الصحيح: أيليا، وهو ابن اندريانوس كما ذكر ابن تيمية وعنه أخذ ابن القيم، ولم يرد عند ابن البطريق ذلك، وإنما اسم الأمبراطور إيليا اندريانوس وهو الذي أصابه المرض، وهو الذي ضرب بيت المقدس، وكان هذا آخر خراب لها، وأمر أن لا يسكنها اليهود، وأسكن فيها اليونانيين وأمر أن تسمى (إيليا) باسمه (تاريخ ابن البطريق: ١/١٠١ ــ ١٠٢).

(٢) في ج: اليهود الذين على بيت المقدس.

(٣) في الجواب الصحيح وعند ابن البطريق هو انطونيوس قيصر.

(٤) في ب: الأول كتاباً.

(٥) هذه الفقرة كاملة نقلها الناسخ في ج من هذا الموضع ووضعها بعد أسطر بعد عبارة: قال ابن البطريق وفي زمانه.

(٦) في ج: مختونين، وكذا عند ابن البطريق وابن تيمية (راجع تاريخ ابن البطريق: ١/١٠٣ والجواب الصحيح: ٣/١٠).

(٧) في الجواب الصحيح اسمه مرقس: ٣/١٠ قال ابن البطريق: ومات انطونيوس قيصر وملك بعده مرقس، ويسمى أوريليوس قيصر، ويسمى أيضاً انطونيوس سورس أقام تسع عشرة سنة ومات (تاريخ ابن البطريق: ١/١٠٤).

قحط شديد كاد الناس أن يهلكوا، فسألـوا النصارى أن يبتهلوا إلى إلههم، فـدعوا وابتهلوا إلى الله فأمطروا وارتفع القحط والوباء.

قال ابن البطريق: وفي زمانه كتب بترك الإسكندرية إلى أسقف بيت المقدس وبترك إنطاكية وبترك رومية في (كتـاب)[1] فصح النصـارى وصومهم، وكيف يستخـرج من فصح اليهود فوضعوا فيها كتباً على ما هي اليوم[2].

قال: وذلك أن النصـارى كانـوا بعد صعـود المسيح إذا عيّـدوا عيد الغـطاس[3] من الغد يصومون أربعين يوماً، (ويفطرون كما فعل المسيح لأنه لمـا اعتمد بـالأردن خرج إلى البرية فأقام بها صائماً أربعين يوماً)[4].

وكان النصارى إذا أفصـح اليهود عيّـدوا هم الفصح، فـوضع هؤلاء البتـاركة حسـاباً للفصح ليكون فطرهم (يوم الفصح)[5]، وكان المسيح يعيّد مع اليهود في عيدهم، فاستمر على ذلك أصحابه إلى أن ابتدعـوا تغيير الصـوم، فلم يصومـوا عقيب الغطاس، بـل نقلوا الصوم إلى وقت لا يكون عيدهم مع (عيد)[6] اليهود.

ثم مـات ذلك الملك، وقـام بعده آخـر[7]، وفي زمنه كـان جالينـوس[8] وفي زمنـه ظهرت الفرس، وغلبت على بابل[9] وآمد[10] وفارس (وتملك ازدشير)[11] بن (بابك)[12] في

---

(١) عند ابن البطريق وابن تيمية: حساب.

(٢) فصح النصارى اليوم، عند الكنيسة الشرقية في ٢٦ نيسان وعند الكنيسة الغربية في ١٩ نيسان.

(٣) عيد الغطاس في ٦ كانون الثاني.

(٤) سقطت من ص.

(٥) في الأصل: غير يوم الفصح.

(٦) سقطت من ص.

(٧) واسمه قومودوس قيصر ابن انطونيوس (تاريخ ابن البطريق ٢/١٠٥).

(٨) جالينوس الحكيم صاحب صناعة الطب: ١١/٣ الجواب. ولد بعـد نبوة عيسى بمـائتي سنة اتفـاقاً، هكذا في مرآت الكائنات (من هامش نسخة الأصل ص ١٣٠).

(٩) بابل: اسم ناحية في العـراق منها الكـوفة والحلة، ويقـال إن أول من سكنها نـوح عليه السـلام بعد الطوفان، وسكنها ملوك كثيرون منهم بخت نصر (معجم البلدان).

(١٠) آمد، وتعرف بآمد يَزَه، وهي من قرى بخارى (انظر: معجم البلدان).

(١١) ازدشير بن بابك بن ساسان من أهل اصطخر: أول ملك ملك على فارس في المرة الثانية (تاريخ ابن البطريق: ١/١٠٦).

(١٢) في الأصل بابل.

(اصطخر)[1]، وهو أول ملك على فارس في (المدة الثانية)[2].

ثم مات قيصر وقام بعده آخر (ثم آخر)[3]، وكان شديداً على النصارى عذّبهم عذاباً شديداً، وقتل خلقاً كثيراً منهم، وقتل كل عالم فيهم، ثم قتل من كان بمصر والإسكندرية من النصارى، وهدم الكنائس وبنى بالإسكندرية هيكلاً وسماه هيكل الآلهة.

ثم قام بعده قيصر آخر ثم آخر[4]، وكانت النصارى في زمنه في هدوء وسلامة وكانت تحت ذمة ــ أي تحت أيدي الروم[5] ــ.

ثم قام بعده آخر (فأثار)[6] على النصارى بلاءً عظيماً، وقتل منهم خلقاً، وأخذ الناس بعبادة الأصنام وقتل من الأساقفة خلقاً كثيراً (منهم وقتل كل عالم فيهم)[7]، وقتل بترك إنطاكية، فلما سمع بترك (بيت المقدس)[8] بقتله هرب وترك الكرسي.

ثم هلك وقام بعده (آخر)[9]، وفي أيام هذا[10] ظهر (ماني)[11] الكذاب، وزعم أنه نبي، وكان كثير الحيل والمخاريق، فأخذه (بهرام) ملك الفرس فشقه نصفين، وأخذ من أتباعه مائتي رجل فغرس رؤوسهم في الطين منكسين حتى ماتوا.

---

(١) في الجواب الصحيح: وتملك أزدشير بن ساسان بابل من أهل اصطخر وعند ابن البطريق: أزدشير بن بابك بن ساسان من أهل اصطخر.

(٢) عند ابن البطريق: ومات ترمودوس قيصر ملك الروم وملك بعده برطنيتوس قيصر ملك الروم ثلاثة أشهر ثم قتل، وملك بعده يوليانوس قيصر شهرين وقتل وملك بعد سويرس قيصر على الروم برومية سبع عشرة سنة: ١/١٠٧.

(٣) هكذا في الجواب الصحيح: ١٢/٣ وعند ابن البطريق وفي جميع النسخ: في المدة النائية.

(٤) عند ابن البطريق: ومات سويرس قيصر وملك بعده انطونيوس قيصر فاقليوس وهو الأصلع: ١/١٠٨.

(٥) في ب، ج، ص: وكانت أمة تحب النصارى.

(٦) في ج: فأقام.

(٧) ليست في ب، ج، ص.

(٨) سقطت من الأصل.

(٩) في ب، ج، ص: آخر ثم آخر وعند ابن البطريق: مقسيماينوس وبعده بوبينوس وبعده غروريانوس.

(١٠) وغروريانوس الذي كان في زمنه بهرام بن هرمز ملك الفرس.

(١١) ماني: ولد سنة ٢٣٩م، وأشاع أن المسيح ترك عمل الخلاص ناقصاً، وأنه هو الذي سيتمه، وهو مؤسس مذهب المانوية، ويدعي أن للكون إلهين هما إله النور وإله الظلام، وقد ادعى ماني أنه هو البارقليط (انظر: تاريخ الأقباط: ١/١٤٩).

ثم قام من بعده (فيليبس)[1] فآمن بالمسيح فوثب عليه (بعض قواده فقتله)، ثم قام من بعده (ذانقيوس)[2] (ويسمى دقيانيوس)[3] فلقي النصارى منه بلاءً عظيماً وقتل منهم ما لا يحصى، وقتل بترك رومية، ثم بنى (بكنيستها)[4] هيكلاً عظيماً، وجعل فيه الأصنام، وأمر أن يسجد لها ويذبح لها، ومن لم يفعل يقتل، فقتل خلقاً كثيراً من النصارى، وصلبوا على الهيكل، واتخذ من أولاد عظماء المدينة سبعة (غلمان)[5] فجعلهم خاصته فقدمهم على جميع من عنده، وكانوا لا يسجدون للأصنام، فأعلم الملك بخبرهم، فحبسهم ثم أطلقهم، وخرج إلى مخرج له، فأخذ الفتية كل مالهم فتصدقوا به ثم خرجوا إلى جبل عظيم فيه كهف كبير، فاختفوا فيه، وصبّ عليهم النعاس فناموا كالأموات، وأمر الملك أن يبنى عليهم باب الكهف كي يموتوا فأخذ قائد من قواده صفيحة من نحاس (فيها أسماؤهم وقصتهم مع دقيانوس)[6] وصيرها في صندوق من نحاس (ودفنه داخل الكهف)[7]، وسدّه[8]، ثم مات الملك، ثم قام بعده قيصر آخر[9]، وفي زمنه جعل في إنطاكية بتركاً

(١) في الأصل: قواده فقتلوه، وعند ابن البطريق، قائد من قواده.

(٢) في ب، ج: دايتنوس، وفي ص: دايتنوس، قال ابن البطريق: فوثب عليه قائد من قواده يقال له داقيوس فقتله، وغلب على الملك على الروم سنتين: ١/١١٢ وفي الجواب الصحيح، ذافينوس: ٣/١٣.

(٣) ليست في ب، ج، ص ولا عند ابن البطريق. وهي موجودة في الجواب الصحيح.

(٤) ليست في ب، ج، ص.

(٥) في الأصل: علماء.

(٦) في ج: فكتب فيها قصتهم وأسماءهم، وما تمّ لهم مع دانيقيوس وفي ب، ص: فكتب فيها أسماءهم وقصتهم مع دقيانوس.

(٧) في ج: ووضعه عندهم بالكهف.

(٨) لعل هؤلاء الفتية هم أصحاب الكهف الذين ذكرهم القرآن الكريم وإن كان هذا السياق الذي يرويه ابن البطريق يختلف عن سياق القصة في القرآن الكريم، لكنه ذكر أنهم سبعة غلمان وسمّاهم، وهم من أولاد عظماء أفسس وقد رفضوا السجود للأصنام، فأمر الملك بحبسهم، ثم أطلق سبيلهم فخرجوا إلى كهف وناموا. . . تاريخ ابن البطريق: ١/١١٢ وقد رجح ابن تيمية رحمه الله كون القصة عن أصحاب الكهف بل نقل ما سرده ابن البطريق بعد ذلك وعند الحديث عن القيصر الذي ظهر فيه أهل الكهف بعد نومهم الطويل (انظر: الجواب الصحيح: ٣/٣٤ ـ ٣٦) قلت: ورجح هذا كثير من المفسرين ومنهم ابن كثير في تفسيره، فقد ذكر أن القصة حدثت زمن دقيانوس، بل أشار رحمه الله إلى أن أكثر من واحد من السلف والخلف ذكر ذلك (انظر تفسير ابن كثير: ٣/٧٤).

(٩) واسمه قلوديوس قيصر كما ذكر ابن البطريق، وقد ملك قبله اثنان: ١/١١٤.

يسمى (بولس الشمشاطي)[1]، وهو أول من ابتدع في شأن المسيح اللاهوت والناسوت، وكانت النصارى قبله كلمتهم واحدة أنه عبد رسول مخلوق ومربوب لا يختلف فيه اثنان منهم. فقال (بولس) هذا ــ وهو أول من أفسد (النصارى وأفسد دينهم)[2] ــ: إن سيدنا عيسى خلق من اللاهوت إنساناً كواحد منا في جوهره، أن ابتداء الابن من مريم وأنه اصطفي ليكون مخلصاً للجوهر الإنسي، وصحبته النعمة الإلهية فحلّت فيه بالمحبة والمشيئة، ولذلك سمي ابن الله، وقال: (إن الله جوهر واحد وأقنوم واحد).

وقال سعيد بن بطريق: وبعد موته اجتمع ثلاثة عشر أسقفاً في مدينة إنطاكية، ونظروا في مقالة (بولس)، وأوجبوا عليه اللعن فلعنوه ولعنوا من يقول قوله وانصرفوا[3].

ثم قام قيصر آخر[4] (فكانت)[5] النصارى في زمنه يصلّون في المطامير والبيوت فزعاً من الروم، ولم يكن بترك الإسكندرية يظهر، خوفاً أن يقتل، فقام (بارون)[6] بتركاً، فلم يزل يداري الروم حتى بنى بالإسكندرية كنيسة.

ثم قام قياصرة أخر، منهم اثنان تملكا على الروم إحدى وعشرين سنة[7]، فأثارا على النصارى بلاءً عظيماً وعذاباً أليماً، وشدة تجلّ عن الوصف في القتل والعذاب واستباحة الحريم والأموال، وقتلا ألوفاً مؤلفة من النصارى، وعذبوا (مارجرجس)[8] أشد

---

(١) بولس الشمشاطي: في ب، ج، ص: بالسين لا بالشين.
(٢) في ب، ص، ج: دين النصارى.
(٣) تاريخ ابن البطريق: ١/١١٤.
(٤) في الجواب الصحيح: ٣/١٥ اسمه أوراغوس قيصر، وعند ابن البطريق، أورلليوس قيصر.
(٥) في الجواب الصحيح: ٣/١٥ وكان وفي الأصل: فكادت.
(٦) في الجواب الصحيح: ٣/١٥ نارون (بالنون) وهكذا عند ابن البطريق.
(٧) وهما: ديوكليتيانوس ومقسيميانوس ويسمى الكوريوس.
(٨) ذكر ابن البطريق أن هذين الأمبراطورين عذبا مارجرجس وقتلاه في فلسطين (انظر: تاريخ ابن البطريق: ١/١١٦).

العذاب ثم قتلوه، وفي زمانهما ضربت (عنق)[1] بطرس بترك الإسكندرية وكان له تلميذان[2].

وكان في زمنه (آريوس)[3] يقول: إنّ الآب وحده الله الفرد الصمد، والابن مخلوق مصنوع، وقد كان الأب إذا لم يكن الابن.

وقال (بطرس) لتلميذيه: إن المسيح لعن أريوس فاحذرا أن تقبلا قوله، فإني رأيت المسيح في النوم مشقوق الثوب، فقلت: يا سيدي، من شق ثوبك؟ فقال لي: آريوس فاحذروا أن تقبلوه أو يدخل معكم الكنيسة[4].

وبعد قتل بطرس بخمس سنين صيّر أحد تلميذيه[5] بتركاً على الإسكندرية، فأقام ستة أشهر ومات[6]، ولما جرى على أريوس ما جرى، أظهر أنه رجع عن مقالته، فقبله هذا البترك وأدخله الكنيسة وجعله قسيساً.

ثم قام قيصر آخر[7] فجعل يتطلب النصارى ويقتلهم حتى صبّ الله عليه (الهلاك)[8] فهلك بشَرِّ هلكة.

ثم قام بعده قيصران[9] أحدهما ملك الشام وأرض الروم وبعض المشرق، والآخر رومية وما جاورها. وكانا كالسباع الضارية على النصارى، فعلا بهم من القتل والسبي والجلاء ما لم يفعله بهم ملك قبلهما.

---

(١) في ج: رقبة.
(٢) ذكر اسمهما في الجواب الصحيح، وهما: أشلا، والاكصندروس، وهكذا عند ابن البطريق.
(٣) عند ابن البطريق: وكان بالاسكندرية رجل كافر يقال له آريوس.
(٤) انظر: تاريخ ابن البطريق: ١/١١٦ ـ ١١٧.
(٥) في الجواب الصحيح، وعند ابن البطريق: أشلا.
(٦) سقطت من الأصل.
(٧) في الجواب الصحيح: ٣/١٦ دقيطيانوس وعند ابن البطريق: غابيوس.
(٨) في ب، ج، ص: النقمة.
(٩) في الجواب الصحيح: أحدهما اسمه (علانيوس) والآخر (مقصطيوس): ٣/١٧، عند ابن البطريق: فملك مكسيميانوس الذي يسمى غلاريوس المشرق والشام وأرض الروم وملك مكسنيتوس مدينة رومية وتخومها (تاريخ ابن البطريق: ١/١١٧).

[والد قسطنطين يتزوج القديسة هيلانة]

وملك معهما قسطنطين[1] أبو قسطنطين، وكان ديّناً مبغضاً للأصنام محباً للنصارى، فخرج إلى ناحية الجزيرة والرها[2]، فنزل في قرية من قرى الرها[3]، فرأى هناك امرأة جميلة يقال لها (هيلانة)، وكانت قد تنصرت على يد أسقف الرها، وتعلمت قراءة الكتب فخطبها قسطنطين من أبيها فزوجها منه فحبلت منه، وولدت قسطنطين فتربى بالرها وتعلم حكمة اليونان، وكان جميل الوجه قليل الشر محباً للحكمة.

وكان (علانيوس)[4] ملك الروم حينئذٍ رجلاً (فاجراً شديد البأس مبغضاً للنصارى جداً كثير القتل منهم، محباً للنساء لم يترك للنصارى بنتاً جميلة[5] إلا أفسدها، وكذلك أصحابه، وكان النصارى في جهد شديد معهم. فبلغه خبر قسطنطين وأنه غلام هادىء قليل الشر كثير الخير كثير العلم، وأخبره المنجمون (والكهنة)[6] أنه سيملك ملكاً عظيماً، فهمّ بقتله، فهرب قسطنطين من الرها، ووصل إلى أبيه فسلم إليه الملك، ثم مات أبوه وصبّ الله على (علانيوس) أنواعاً من البلاء، حتى تعجب الناس مما ناله، ورحمه أعداؤه مما حل به فرجع إلى نفسه وقال: لعل هذا بسبب ظلم النصارى، فكتب إلى جميع عماله أن (يطلقوا)[7] النصارى من الحبوس، وأن يكرموهم ويسألوهم أن يدعوا له في صلاتهم، فوهب الله له العافية، ورجع إلى أفضل ما كان عليه من الصحة والقوة، فلما صحّ وقوي رجع إلى أشر ما كان عليه، وكتب إلى عماله أن يقتلوا النصارى، وأن لا يدعوا في مملكتهم نصرانياً، ولا يسكنوا له مدينة ولا قرية، فكان القتلى يحملون على العجل ويرمى بهم في البحر والصحارى.

---

(١) عند ابن البطريق: قسطس وهكذا في الجواب الصحيح.

(٢) الرها: أو الرهاء، مدينة بالجزيرة بين الموصل والشام بينهما ستة فراسخ (معجم البلدان).

(٣) في الأصل: قرى النصارى في الرها (وفي الجواب الصحيح، يقال لها: كفرجاشر وعند ابن البطريق، كفر فخار).

(٤) في الأصل: مكسنتيوس وعند ابن البطريق: مكسيميانوس المسمى غلاريوس: ١١٨/١.

(٥) سقطت من ص.

(٦) في ج: والعلماء والكهنة.

(٧) في ج: يقتلوا.

[قصة الصراع بين قسطنطين ومنافسيه]

وأما قيصر الآخر الذي كان معه[1] فكان شديداً على النصارى، واستعبد من كان برومية من النصارى ونهب أموالهم، وقتل رجالهم ونساءهم وصبيانهم، فلما سمع أهل رومية بقسطنطين أنه مبغض للشر محب للخير، وأن أهل مملكته معه في هدوء وسلامة، كتب رؤساؤهم إليه يسألونه أن يخلصهم من عبودية ملكهم، فلما قرأ كتبهم اغتم غمّاً شديداً وبقي متحيراً لا يدري كيف يصنع.

قال سعيد بن البطريق: فظهر (له بنصف)[2] النهار في السماء صليب من كوكب مكتوباً حوله بهذا تغلب، فقال لأصحابه: رأيتم ما رأيته؟ قالوا: نعم، فآمن حينئذٍ بالنصرانية، فتجهز لمحاربة قيصر المذكور، وصنع صليباً كبيراً من ذهب وصيّره على (البند)[3] وخرج بأصحابه فأعطي النصر على قيصر، فقتل من أصحابه مقتلة عظيمة، وهرب الملك ومن (بقي من أصحابه)[4]، فخرج أهل رومية إلى قسطنطين بالإكليل الذهب، وبكل أنواع اللهو واللعب، فتلقوه وفرحوا به فرحاً عظيماً، فلما دخل المدينة أكرم النصارى، وردّهم إلى بلادهم بعد النفي والتشريد، وأقام أهل رومية سبعة أيام (يعبدون)[5] للملك والصليب. فلما سمع (علانيوس) جمع جموعه وتجهز (لقتال)[6] قسطنطين، فلما وقعت العين في العين انهزموا، وأخذتهم السيوف، وأفلت (علانيوس) فلم يزل من قرية إلى قرية حتى وصل إلى (بلده)[7]، فجمع السحرة والكهنة والعرافين الذين كان يحبهم (ويقبل منهم)[8]، فضرب أعناقهم لئلا يقعوا في يد قسطنطين.

---

(١) وهو مكسنتيوس كما في الجواب الصحيح، وعند ابن البطريق.

(٢) في الأصل: لهم نصف.

(٣) في ب، ج، ص: رأس البند والبند هو العلم الكبير، فارسي معرب وجمعه بنود، وقيل: من أعلام الروم يكون للقائد (لسان العرب).

(٤) سقطت من الأصل، وفي ج: الباقي من أصحابه.

(٥) في ب، ج، ص: يعيِّدون.

(٦) في ص: للقتال مع.

(٧) في الأصل، بلاده.

(٨) في ج: وأمر.

[إعلان الدولة الرومانية نصرانيتها]

وتنصر قسطنطين وأمر ببناء الكنائس (في كل بلد وأن يخرج)[1] من بيت المال الخراج فيما يعمل فيه أبنية الكنائس، وقام بدين النصرانية حتى ضرب بجرانه[2] في زمانه. فلما تم له خمس عشرة سنة من ملكه (ماج)[3] النصارى في أمر المسيح واضطربوا، فأمر بالمجمع في مدينة (نيقية)[4]، وهي التي رتبت فيها (الأمانة) بعد هذا المجمع كما سيأتي، فأراد آريوس أن يدخل معهم فمنعه بترك الإسكندرية[5]، وقال: إن بطرس قال لهم: إن الله لعن آريوس، فلا تقبلوه ولا تدخلوه الكنيسة.

وكان بالإسكندرية أسيوط من عمل مصر أسقف[6] يقول بقول آريوس فلعنه أيضاً، وكان بالإسكندرية هيكل عظيم على اسم (زحل)[7] وكان فيه صنم من نحاس يسمى ميكائيل، وكان أهل مصر وأهل الإسكندرية في اثني عشر من شهر (هتور) وهو تشرين الثاني، يعيّدون لذلك الصنم عيداً عظيماً، ويذبحون له (الذبائح)[8]، فلما ظهرت النصرانية بالإسكندرية، أراد بتركها أن يكسر الصنم ويبطل الذبائح له[9]، فامتنع عليه أهلها فاحتال عليهم بحيلة وقال: لو جعلتم هذا العيد لميكائيل ملك الله لكان أولى، فإن هذا الصنم لا ينفع (ولا يضر)[10] فأجابوه فكسر الصنم وجعل منه صليباً وسمى الهيكل كنيسة ميكائيل.

---

(١) سقطت من ص، ووضع الناسخ بدلاً منها عبارة مبعثرة غير صحيحة.

(٢) ضرب بجرانه: الجران: باطن العنق، وقيل مقدم العنق سمر، فإذا برك البعير ومد عنقه على الأرض قيل: ألقى جرانه بالأرض، وفي حديث عائشة؛ حتى ضرب الحق بجرانه «أرادت أن الحق استقام وقر في قراره» (لسان العرب).

(٣) في ص: حاج.

(٤) مجمع نيقية، كان سنة ٣٢٥م ونيقية: من أعمال اسطنبول على البر الشرقي، وهي المدينة التي اجتمع بها آباء الملة المسيحية، وأظهروا الأمانة التي هي أصل دينهم (معجم البلدان).

(٥) وهو آنذاك البطريرك الاكسندرس (تاريخ ابن البطريق: ١/ ١٢٤).

(٦) واسمه كما عند ابن البطريق ــ مليطيوس.

(٧) في ب، ج: رجل.

(٨) سقطت من ص، وفي ب، ج: الذبائح الكثيرة.

(٩) سقطت من ص والأصل.

(١٠) في ج: ويضر.

[آريوس قبل مجمع نيقية]

فلما منع بترك الإسكندرية آريوس من دخول الكنيسة ولعنه، خرج آريوس مستعدياً عليه ومعه أسقفان[1]، فاستغاثوا إلى قسطنطين، وقال آريوس: إنه تعدى عليّ وأخرجني من الكنيسة ظلماً، وسأل الملك أن يشخص بترك الإسكندرية (ليناظره قدام الملك فوجه قسطنطين برسول إلى الإسكندرية)[2]، فأشخص البترك وجمع بينه وبين آريوس يناظره، فقال قسطنطين لأريوس: اشرح مقالتك.

[مناظرة بين آريوس وبطريرك الإسكندرية]

قال آريوس: أقول: إن الأب كان إذا لم يكن الابن، ثم إنه أحدث الابن، وكان كلمة له إلاّ أنه محدث مخلوق، ثم فوّض الأمر إلى ذلك الابن المسمى كلمة، فكان هو خالق السموات والأرض وما بينهما، كما قال في إنجيله إذ يقول: «وهب لي سلطاناً على السماء والأرض»[3]، (وكان هو الخالق لهما بما أعطي من ذلك)[4]. ثم إن الكلمة تجسدت من مريم العذراء ومن روح القدس فطر ذلك مسيحاً واحداً فالمسيح الآن معنيان كلمة وجسد إلا أنهما جميعاً مخلوقان.

فأجابه عند ذلك بترك الإسكندرية وقال: (تخبرنا)[5] (أيما)[6] أوجبُ علينا عندك عبادة من خلقنا أو عبادة من لم يخلقنا؟.

قال آريوس: بل عبادة من خلقنا.

فقال له البترك: فإن كان خالقنا الابن ـ كما وصفت ـ وكان الابن مخلوقاً فعبادة الابن المخلوق أوجب من عبادة الأب الذي ليس بخالق، بل تصير عبادة الأب الذي خلق

---

(١) والأسقفان: أحدهما يسمى أومابنوس أسقف مدينة نيقومودية، والآخر اسمه أوسابيوس أسقف مدينة فيلا (تاريخ ابن البطريق: ١/٢٣٥).

(٢) سقطت من ج، ص.

(٣) متى: ٢٨/١٨.

(٤) في الأصل: فكان هو بما أعطي من ذلك.

(٥) في ص: تحيّرنا.

(٦) سقطت من الأصل.

الابن كفراً، وعبادة الابن المخلوق إيماناً، وذلك من أقبح الأقاويل. فاستحسن الملك وكل من حضر مقالة البترك، وشنّع عندهم مقالة آريوس، ودارت أيضاً بينهما مسائل كثيرة، فأمر قسطنطين البترك أن يكفر أريوس وكل من قال بمقالته، فقال له: بل يوجه الملك بشخص البتارك والأساقفة حتى يكون لنا مجمع ونضع فيه قضية، ونكفر آريوس (ونشرح الدين)[1] ونوضحه للناس، فبعث قسطنطين الملك إلى جميع البلدان فجمع البتاركة والأساقفة، واجتمع في مدينة (نيقية) بعد سنة (وشهرين)[2] ألفان وثمانية وأربعون أسقفاً، فكانوا مختلفي الآراء (مختلفي الأديان)[3].

[اختلاف المعتقدات قبل انعقاد المجمع]

فمنهم من يقول: المسيح ومريم إلهان من دون الله، وهم (المريمانية)[4].

ومنهم من يقول: المسيح من الآب بمنزلة شعلة نار، تعلقت من شعلة نار، فلم تنقص الأولى لإيقاد الثانية منها[5].

ومنهم من يقول: لم تحبل مريم تسعة شهور، وإنما مرّ نور في بطن مريم كما يمرّ الماء في الميزاب[6]، لأن كلمة الله دخلت من أذنها وخرجت من حيث يخرج الولد من ساعتها، وهذه مقالة (البان)[7] وأشياعه.

ومنهم من كان يقول: إن المسيح إنسان خلق من اللاهوت كواحد منّا في جوهره، وأن ابتدأ الابن من مريم وأنه اصطفى ليكون مخلصاً للجوهر الإنسي صحبته النعمة الإلهية، فحلّت منه بالمحبة والمشيئة فلذلك سمي ابن الله.

---

(١) في ج: ونشرح أريوس الدين.

(٢) في الأصل: وشهر.

(٣) سقطت من الأصل.

(٤) في ج: المريانية، وعند ابن البطريق: وهم البربرانية ويسمّون المريميين: ١/١٢٦.

(٥) وهي مقالة (سبارينون) وأشياعه، كما في الجواب الصحيح: ٣/٢٣ وعند ابن البطريق، وهي مقالة سابليوس وشيعته: ١/١٢٦.

(٦) الميزاب، وزب الشيء يزب وزوبا إذا سال، والميزاب، المتعب؛ فارسي معرّب (لسان العرب).

(٧) في ج، ص: اليان وهكذا عند ابن البطريق.
وفي الجواب الصحيح: البان: ٣/٢٣ وهي هكذا في ب.

ويقولون: إن الله جوهر واحد وأقنوم واحد، ويسمونه بثلاثة أسماء، ولا يؤمنون بالكلمة ولا بروح القدس، وهذه مقالة بولس[1] وأشياعه.

ومنهم من كان يقول: ثلاثة آلهة (لم يزل)[2] صالح وطالح وعدل بينهما وهي مقالة مرقيون[3] وأشياعه.

ومنهم من كان يقول: ربنا هو المسيح، وهي مقالة الثلاثمائة (وثمانية عشر)[4] أسقفاً[5].

قال ابن البطريق: فلما سمع قسطنطين الملك مقالاتهم عجب من ذلك، وأخلى لهم داراً، وتقدم لهم بالإكرام والضيافة، وأمرهم أن يتناظروا فيما بينهم، لينظر من معه الحق فيتبعه، فاتفق منهم ثلاثمائة (وثلاثة عشر)[6] أسقفاً على دين واحد ورأي واحد، وناظروا بقية الأساقفة المختلفين، ففلحوا عليهم في المناظرة.

وكان (باقي)[7] الأساقفة مختلفي الآراء والأديان، فصنع الملك للثلاثمائة (والثمانية عشر)[8] أسقفاً مجلساً عظيماً وجلس في وسطه وأخذ خاتمه وسيفه وقضيبه فدفع ذلك إليهم وقال لهم: قد سلطتكم اليوم على المملكة، فاصنعوا ما بدا لكم، وما ينبغي لكم أن تصنعوا، مما فيه قوام الدين وصلاح الأمة، فباركوا على الملك وقلدوه سيفه وقالوا له: أظهر دين النصرانية، وذبّ عنه، ووضعوا له أربعين كتاباً فيها السنن والشرائع، وفيها ما يصلح أن يعمل فيه الأساقفة وما يصلح للملك أن يعمل فيها.

---

(١) وهو بولس السمساطي بطريرك انطاكية وهم البوليقانيون (تاريخ ابن البطريق: ١/١٢٦).
(٢) سقطت من ج والأصل.
(٣) قال ابن البطريق: وهي مقالة مرقيون اللعين وأصحابه، وزعموا أن مرقيون هو رئيس الحواريين وأنكروا بطرس السليع (تاريخ ابن البطريق: ١/١٢٦).
(٤) في ج: وثمانية وأربعون، وعلى هامش ب بالرقم ٣١٣ وهو الصحيح.
(٥) قال ابن البطريق: وهي مقالة بولس الرسول ومقالة الثلاثمائة وثمانية عشر أسقفاً (تاريخ ابن البطريق: ١/١٢٦).
(٦) في ج: وثمانية وأربعون.
(٧) في الأصل: بقيّة.
(٨) في ب: والثلاثة عشر، وفي ج: والثمانية وأربعون.

وكان رئيس القوم (والجمع)[1] المقدم فيه بترك الإسكندرية وبترك إنطاكية وأسقف بيت المقدس[2].

[من قرارات المؤتمر]

ووجّه بترك رومية من عنده رجلين[3]، فاتفق الكل على لعن آريوس وأصحابه (ولعنوه)[4]، وكل من قال بمقالته، ووضعوا الأمانة وقالوا إن الابن مولود من الآب قبل كون الخلائق، وأن الابن مع طبيعة الآب غير مخلوق.

واتفقوا على أن يكون فصح النصارى يوم الأحد، ليكون بعد فصح اليهود، وأن لا يكون فصح اليهود مع فصحهم في يوم واحد، ومنعوا أن يكون للأسقف زوجة، وذلك أن الأساقفة منذ وقت الحواريين إلى مجمع الثلاثمائة (والثمانية عشر)[5] كان لهم نساء، لأنهم كانوا إذا صيّروا واحداً أسقفاً وكانت له زوجة ثبتت معه ولم تتنح عنه ما خلا البتاركة، فإنّه لم يكن لهم نساء، ولا كانوا يصيرون أحداً له زوجة بتركاً.

قال: وانصرفوا مكرمين محظوظين، وذلك في سبع عشرة (سنة)[6] من ملك قسطنطين الملك (وأمر)[7] بثلاث سنن[8] إحداها: كسر الأصنام وقتل كل من يعبدها.

والثانية: أن لا يثبت في الديوان إلا أولاد النصارى ويكونوا هم الأمراء والقواد.

---

(١) سقطت من الأصل.

(٢) عند ابن البطريق: الاكسندرس بطريرك الاسكندرية، وأسطات بطريرك انطاكية، ومقاريوس أسقف بيت المقدس: ١/١٢٧.

(٣) عند ابن البطريق: ووجه سلبسطرس بطريرك رومية من عنده قسيسين اسم أحدهما (بقطر) والآخر (فيكنقيوس) (١/١٢٧).

(٤) سقطت من ج.

(٥) في ج: والثمانية وأربعون.

(٦) سقطت من ج والأصل وعند ابن البطريق: في تسع عشرة سنة من ملك قسطنطين.

(٧) سقطت من ب، ج، ص.

(٨) في ب: وسنّ قسطنطين الملك ثلاث سنين. وفي ج: وسّن قسطنطين ثلاث سنين. وفي الجواب الصحيح: وأمر بثلاث سنن: ٣/٢٥.

والثالث: أن يقيم الناس (جمعة)[1] الفصح فالجمعة التي بعدها لا يعملون فيها عملاً ولا يكون فيها (حرب)[2].

وتقدم قسطنطين إلى أسقف بيت المقدس[3] أن يطلب موضع المقبرة والصليب ويبني الكنائس ويبدأ ببناء (بيت القبابة)[4].

فقالت هيلانة (أمه): إني نذرت أن أسير إلى بيت المقدس وأطلب المواضع المقدسة وأبنيها، فدفع إليها الملك أموالاً جزيلة، وسارت مع أسقف بيت المقدس، فبنت كنيسة القيامة في موضع الصليب وكنيسة قسطنطين.

[مناظرة بين مانيوس الأريوس وبطريرك الإسكندرية]

ثم اجتمعوا بعد هذا مجمعاً عظيماً ببيت المقدس[5]، وكان معهم رجل[6] دسه بترك القسطنطينية وجماعة معه، ليسألوا بترك الإسكندرية، وكان هذا الرجل لما رجع إلى الملك أظهر له أنه مخالف لأريوس، وكان يرى رأيه ويقول بمقالته، فقام الرجل وقال: إن آريوس لم يقل إن المسيح خلق الأشياء، ولكن به خلقت الأشياء، لأنه كلمة الله التي بها (خلقت) السموات والأرض، وإنما خلق الله الأشياء كلها بكلمته ولم يخلق الأشياء

---

(١) في الأصل: جمعهم.
(٢) في الأصل: حرث.
(٣) واسمه مقاريوس (تاريخ ابن البطريق: ١/١٢٩).
(٤) هكذا في الأصل. وفي ص: القمامة وفي الجواب الصحيح: القمامة المقدسة، ولعل ابن تيمية رحمه الله أطلق عليها ذلك من باب الاستهزاء لأنها أقيمت مكان مزبلة، كما أشار بعد ذلك بأسطر: ٢٥/٣، وكما ذكر ابن البطريق في تاريخه: ١٢٩/١ وفي ب، ج: القيامة والصحيح أنها القيامة وهي كنيسة القيامة المعروفة، وسميت بذلك لأنها بنيت في المكان الذي قام فيه المسيح بعد موته ـ كما يزعمون ـ.
(٥) سقطت من الأصل.
(٦) هذا الرجل اسمه: مانيوس، كما ذكر في الجواب الصحيح: ٢٦/٣ أو أومانيوس كما هو عند ابن البطريق.

كلمته[1]، كما قال المسيح في الإنجيل: كل بيده كان، كل من دونه لم يكن شيئاً[2]، وقال: به كانت الحياة (والحياة)[3] نور البشر[4]، وقال (العالم به يكون)[5] فأخبر أن الأشياء به تكونت.

قال ابن البطريق: فهذه كانت مقالة آريوس ولكن الثلاثمائة (والثمانية عشر)[6] أسقفاً تعدّوا عليه (وحرموه)[7] ظلماً وعدواناً.

فرد عليه بترك الإسكندرية وقال: أما آريوس فلم تكذب عليه الثلاثمائة (والثمانية عشر)[8] أسقفاً ولا ظلموه لأنه إنما قال: الابن خالق الأشياء دون الأب وإذا كانت الأشياء إنما خلقت بالابن دون أن يكون الأب لها خالقاً فقد أعطى أنه ما خلق منها شيئاً، وفي ذلك تكذيب قوله (الآب يخلق وأنا أخلق)[9].

وقال: (إني أنا إن لم أعمل عمل أبي فلا تصدقوني)[10].

وقال: (كما أن الآب يحيي من يشاء ويميته)[11] كذلك الابن يحيي من يشاء

---

(١) لا شك أن مقالة أريوس عرفت، ولعل هذا أقرب ما يكون لقول (آريوس) وهذا يعني أن الله تعالى خلق الأشياء بالكلمة وهي كلمة (كن) ﴿إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون﴾ [يس: ٨٢] وبما أن عيسى كلمة الله فصار المعنى أن الكون خلق بالكلمة التي خلق بها المسيح وهي (كن) والله أعلم.

(٢) يوحنا: ١/٣.

(٣) سقطت من ج.

(٤) يوحنا: ١/٤ لكن النص (فيه) وليس به.

(٥) بهذا النص لم ترد وإنما بالمعنى كقوله (كل شيء به كان) (يوحنا: ١/٣).

(٦) في ج: والثمانية وأربعون وفي هامش ب: والثلاثة عشر.

(٧) في ص: جرّموه.

(٨) في ج: والثمانية وأربعون.

(٩) يوحنا: ٥/١٧ والنص الحالي (أبي يعمل حتى الآن وأنا أعمل).

(١٠) يوحنا: ٥/٣٦ والنص (لأن الأعمال التي أعطاني الآب لأكملها هذه الأعمال بعينها التي أنا أعملها هي تشهد لي أن الآب قد أرسلني).

(١١) يوحنا: ٥/٢١.

ويميته قالوا: فدل على أنه يحيي ويخلق. وفي هذا تكذيب لمن زعم أنه ليس بخالق، وإنما خلقت الأشياء به دون أن يكون (خالقاً)(١).

وأما قولك: إن الأشياء تكونت به (فإنه)(٢) لما كنا لا نشك أن المسيح حيّ فعال، وكان قد دل بقوله: (إني)(٣) أفعل الخلق والحياة، كان قولك: «به تكونت الأشياء» إنما هو راجع في المعنى إلى أنه كوّنها وكانت به مكونة (ولم يكن، فتناقض)(٤) القولان.

قال: وأما قول من قال من أصحاب آريوس: إن الأب يريد الشيء فيكوّنه الابن والإرادة للأب والتكوين (للابن)(٥) فإن ذلك يفسد أيضاً إذ كان الابن عنده مخلوقاً فقد صار حظ المخلوق في الخلق (أوفى)(٦) من حظ الخالق فيه. وذلك أن هذا أراد وفعل، وذاك أراد ولم يفعل، فهذا أوفر حظاً في فعله من ذلك، ولا بد لهذا أن يكون في فعله لما يريد ذلك، بمنزلة كل فاعل من الخلق لما يريد الخالق منه، ويكون حكمه كحكمه في الجبر والاختيار، وإن كان مجبوراً فلا شيء له في الفعل (والقول)(٧)، وإن كان مختاراً فجائز أن يطاع وجائز أن يعصى، وجائز أن يثاب وجائز أن يعاقب، وهذا أشنع في القول.

وردّ عليه أيضاً وقال: إن كان الخالق إنما خلق خلقه بمخلوق (فالمخلوق)(٨) غير الخالق بلا شك ـ فقد زعمتم أن الخالق يفعل بغيره والفاعل بغيره محتاج إلى متمّم ليفعل به، إذا كان لا يتم له الفعل إلّا به ـ والمحتاج إلى غيره (منقوص)(٩) والخالق متعال عن هذه الكلمة(١٠).

---

(١) في ج: خالقاً لها.
(٢) في ج، ص: فأنّا.
(٣) في الأصل: أنا.
(٤) في ب، ص: ولو لم يكن ذلك لتناقض وفي ج: ولم يكن ذلك لتناقض القولان.
(٥) في ج: للأب.
(٦) هكذا في الجواب الصحيح: ٢٧/٣ وفي الأصل: أدنى والمعنى يختل بعبارة الأصل.
(٧) سقطت من ج، ب، ص.
(٨) في ص: فالمقول.
(٩) في الأصل: متعوض.
(١٠) هذه المناظرة موجودة في تاريخ ابن البطريق: ١٣١/١ ـ ١٣٢.

قال: فلما دحض بترك الإسكندرية حجج أولئك المخالفين، وظهر لمن حضر بطلان قولهم، وتحيروا وخجلوا، فوثبوا على بترك الإسكندرية فضربوه حتى كاد يموت، فخلصه من أيديهم ابن أخت قسطنطين، وهرب بترك الإسكندرية، (وصار)[1] إلى بيت المقدس من غير حضور أحد من الأساقفة، ثم أصلح دهن الميرون، وقدس الكنائس ومسحها بدهن الميرون، وسار إلى الملك وأعلمه بالخبر فصرفه إلى الإسكندرية.

وقال ابن البطريق: وأمر الملك بأن لا يسكن يهودي بيت المقدس، ولا يجوز بها، ومن لم يتنصر قتل، فظهر دين النصرانية وتنصر من اليهود خلق (كثير)[2]، فقيل للملك: إن اليهود يتنصرون من خوف القتل وهم على دينهم، فقال: كيف لنا أن نعلم ذلك منهم؟ فقال بولس البترك: إن الخنزير في التوراة حرام واليهود لا يأكلون لحم الخنزير، فأمر أن تذبح الخنازير (وتطبخ لحومها)[3] ويطعم منها (اليهود)[4]، فمن لم يأكل علم أنه مقيم على (دين اليهودية)[5].

فقال الملك: إذا كان الخنزير حراماً في التوراة فكيف يحلّ لنا أن نأكله ونطعمه الناس؟ فقال له بولس: فإن سيدنا المسيح قد أبطل كل ما في التوراة (وجاء بناموس)[6] وبتوراة جديدة وهو الإنجيل.

وفي (إنجيله)[7] (إن كل ما يدخل البطن فليس بحرام ولا نجس، وإنما ينجس الإنسان ما يخرج من فيه)[8].

وقال بولس: إن بطرس رئيس الحواريين بينا هو يصلي في ست ساعات من النهار، وقع عليه سبات فنظر إلى السماء قد تفتحت وإذا بإزار قد نزل من السماء حتى بلغ

---

(١) سقطت من الأصل.
(٢) سقطت من ب، ص.
(٣) في ب: ويطبخ لها لحمها.
(٤) سقطت من ب، ج، ص.
(٥) في ج: دينه أي دين اليهودية.
(٦) في ج: وجاءنا بناموس آخر وفي ب: جاء بناموس آخر وفي ص: وجاء بنواميس آخر.
(٧) في الأصل: الإنجيل.
(٨) متى: ١٥/ ١٧ ــ ١٨.

الأرض، وفيه كل ذي أربع (قوائم)[1] على الأرض من السباع والدواب وغير ذلك، وسمع صوتاً من السماء يقول له: يا بطرس قم فاذبح وكل، فقال بطرس: يا رب ما أكلت شيئاً نجساً قط ولا وسخاً قط، فجاء صوت (ثان كُلّ)[2] ما طهره الله فليس بنجس[3]، وفي نسخة أخرى «ما طهره الله فلا تنجسه أنت» ثم جاء الصوت بهذا ثلاث مرات[4].

ثم إن الإزار ارتفع إلى السماء فتعجب بطرس وتحير فيما بينه وبين نفسه، فأمر الملك أن تذبح الخنازير وتطبخ لحومها وتقطع صغاراً، (وتصيّر)[5] على أبواب الكنائس في كل مملكته يوم الأحد الفصح، وكل من خرج من الكنيسة (يلقم)[6] لقمة من لحم الخنزير، فكل من لم يأكل منه يقتل، فقتل لأجل ذلك خلق كثير[7].

[المجمع الأريوسي]:

ثم هلك قسطنطين، (وولي)[8] بعده (أكبر أولاده واسمه قسطنطين)[9]، وفي أيامه اجتمع أصحاب أريوس ومن قال بمقالته إليه فحسنوا له دينهم ومقالتهم، وقالوا: إن الثلاثمائة والثمانية عشر أسقفاً الذين اجتمعوا بنيقية قد أخطأوا (وحادوا)[10] عن الحق في قولهم: إن الابن متفق مع الأب في الجوهر، فأمر أن لا يقال هذا فإنه خطأ، فعزم الملك على فعله فكتب إليه أسقف بيت المقدس أن لا تقبل قول أصحاب آريوس فإنهم حائدون عن الحق وكفار، وقد لعنهم الثلاثمائة (والثمانية عشر)[11] أسقفاً، ولعنوا كل من يقول بقولهم فقبل قوله.

---

(١) في الأصل: قوام.
(٢) في ج: بأن يأكل، وفي ص: بان كل.
(٣) الأعموا: ١٠/٦.
(٤) يتضح من هذا النص أن الحكم أخذ من الرؤيا، وقد أشار العهد القديم إلى عدم جواز العمل بالرؤيا (انظر: أرميا: ٣٣/١٦).
(٥) في الأصل: وتصبّر.
(٦) يأكل ويلقم.
(٧) تاريخ ابن البطريق: ١/١٣٣ ــ ١٣٤.
(٨) في ب، ج، ص: وقام.
(٩) في الأصل: قيصر آخر.
(١٠) هكذا في الجواب الصحيح: ٣/٢٩ وفي الأصل: وحاوروا.
(١١) في ج: ثمانية وأربعون.

قال ابن بطريق: وفي ذلك الوقت غلبت مقالة آريوس على قسطنطينية وإنطاكية والإسكندرية.

وفي ثاني سنة من ملك قسطنطين هذا صار على إنطاكية بترك آريوسي ثم بعده آخر مثله.

(قال)[1]: وأما أهل مصر والإسكندرية وكان أكثرهم آريوسيين ومنائيين[2]، فغلبوا على كنائس مصر فأخذوها ووثبوا على بترك الإسكندرية، فهرب منهم واستخفى، ثم ذكر جماعة من البتاركة والأساقفة من طوائف النصارى، وما جرى عليهم مع بعضهم بعضاً (وما تعصبت به كل طائفة لبتركها حتى قتل بعضهم بعضاً)[3]، واختلفت النصارى أشد الاختلاف، وكثرت مقالاتهم واجتمعوا عدة مجامع (كل مجمع)[4] يعلن فيه بعضهم بعضاً، ونحن نذكر بعض مجامعهم بعد هذين المجمعين[5].

[من المجمع الثالث إلى المجمع العاشر]

[مجمع القسطنطينية سنة ٣٨١م]:

وكان لهم مجمع ثالث بعد ثمان وخمسين سنة من المجمع الأول بنيقية[6]، فاجتمع (الوزراء)[7] والقواد إلى الملك[8] وقالوا: إن مقالة الناس قد فسدت، وغلبت عليهم مقالة آريوس ومقدونيوس[9]، فاكتب إلى جميع الأساقفة والبتاركة أن يجتمعوا ويوضحوا دين

---

(١) في الأصل: قال ابن البطريق.

(٢) منائيين في ج: مبابيين وفي ص: منابتين وفي ب: منابتين ولعل الأصح مانيين نسبة إلى ماني الذي ولد سنة ٢٣٩م (تاريخ الأقباط ١: ١٤٩).

(٣) سقطت من الأصل.

(٤) سقطت من الأصل.

(٥) راجع تاريخ ابن البطريق: ١/ ١٣٥ ـ ١٣٦.

(٦) وهو ما يعرف بمجمع القسطنطينية الأول سنة ٣٨١، ومعروف أن مجمع نيقية عقد سنة ٣٢٥م فيكون ما بينهما ست وخمسون سنة، لا ثمان وخمسون كما أشار المؤلف رحمة الله، وهو هكذا في الجواب الصحيح: ٣/ ٣٣ وعند ابن البطريق: ١/ ١٤٦.

(٧) في الأصل: الازرا.

(٨) واسمه عند ابن البطريق: ثاوذوسيوس، وفي الجواب الصحيح: تذوس.

(٩) مقدونيوس: هو مقدونيوس: من الأريوسيين، عين بطريكاً للقسطنطينية سنة ٣٤٣م وأنكر لاهوت الروح القدس (تاريخ الأقباط: ١/ ٦).

النصرانية، فكتب الملك إلى سائر (البلاد)[1]، فاجتمع في قسطنطينية مائة وخمسون أسقفاً، فنظروا وبحثوا عن مقالة أريوس فوجدوها أن روح القدس مخلوق مصنوع ليس بإله، فقال بترك الإسكندرية ليس روح القدس عندنا غير روح الله، وليس روح الله غير حياته، وإذا قلنا (روح الله مخلوق فقد قلنا)[2] إن حياته مخلوقة، (وإذا قلنا حياته مخلوقة)[3] فقد جعلناه غير حي وذلك كفر به.

فلعنوا جميعهم من يقول بهذه المقالة، ولعنوا جماعة من أساقفتهم وبتاركتهم كانوا يقولون بمقالات أخر لم يرتضوها، وبينوا أن روح القدس خالق غير مخلوق إله حق من طبيعة الأب والابن جوهر واحد وطبيعة واحدة.

وزادوا في الأمانة التي وضعها الثلاثمائة (والثمانية عشر)[4]: «ونؤمن بروح القدس» (الرب)[5] (المحيي) الذي من (الأب)[6] منبثق، الذي مع الأب والابن وهو مسجود له (وممجد)[7].

وكان في تلك الأمانة (وبروح القدس) فقط.

(وبينوا)[8] أن الأب والابن وروح القدس ثلاثة أقانيم وثلاثة وجوه وثلاث خواص، وأنها واحدة في تثليث في وحدة، وثبتوا أن جسد المسيح بنفس ناطقة عقلية[9].

فانفض هذا المجمع وقد لعنوا فيه كثيراً من أساقفتهم وأشياعهم.

[مجمع أفسس الأول سنة ٤٣١م]:

ثم بعد إحدى وخمسين سنة من هذا المجمع كان لهم مجمع رابع على

---

(١) في ج: البلاد الذي تحت كلمته.
(٢) سقطت من الأصل.
(٣) سقطت من ص والأصل.
(٤) في ج: ثمانية وأربعون.
(٥) سقطت من الأصل.
(٦) في الأصل: الإله.
(٧) في ج: محمود وممجد.
(٨) في الأصل: وثبتوا.
(٩) تاريخ ابن البطريق: ١/١٤٥ ــ ١٤٦.

نسطورس[١]، وكان رأيه أن مريم ليست بوالدة الإله على الحقيقة، ولذلك كـان (اثنان)[٢] أحدهما الإله الذي هو (موجود)[٣] من الأب، والآخر إنسان وهو (الموجود)[٤] من مـريم.

وأن هذا الإنسان الذي يقول إنه المسيح، متوحد مع ابن الإله، ويقـال له: إلـه وابن الإله ليس على الحقيقة ولكن (موهبة)[٥]، واتفاق الاسمين على طـريق الكرامـة[٦]، فبلغ ذلك بتاركة سائر البلاد فجرت بينهم مراسلات واتفقوا على تخطيئه، واجتمع منهم مـائتا أسقف في مدينة (أفسس)[٧]، وأرسلوا إليه للمناظـرة، فامتنـع ثلاث مـرات، فأجمعـوا على لعنه فلعنـوه ونفوه، (وبينـوا)[٨] أن مريم ولـدت إلهاً، وأن المسيـح إله حق من إلـه حق، وهـو إنسان وله طبيعتان، فلما لعنوا نسطورس (غضب)[٩] له بترك إنطاكيا[١٠]، فجمع الأساقفـة الذين قدموا معه وناظرهـم وقـطعهم، فتقاتلوا وتـلاعنوا وجـرى بينهم شر، وتفـاقم أمرهـم، فلم يزل الملك حتى أصلح بينهم، فكتب أولئك صحيفـة: إن مريم القـديسة ولـدت إلهاً وهو ربنا يسوع المسيح (الذي هو)[١١] مع الله في الطبيعة ومع الناس في الناسـوت، وأقروا بطبيعتين، وبوجه واحد وأقنوم واحد وأنفذوا لعن نسطورس.

---

(١) نسطورس، أو نسطور، ولـد في جرمـانيقية المعـروفة الآن بمـرعش في سوريـة وإليه ينسب مـذهب النسطورية (تاريخ الأقباط: ١/١٦٠).

(٢) عند ابن البطريق: ابنان.

(٣) عند ابن البطريق: مولود.

(٤) عند ابن البطريق: مولود.

(٥) هكذا في الجواب الصحيح: (١/٣٦) وفي الأصل، بوهبه وفي ب: يوهبه.

(٦) وهـذا يشير إلى بشـرية المسيـح وأنه ليس إلهاً أو ابن إله وإذا أطلق عليـه ذلـك فمن بـاب التكـريم والتحبب.

(٧) في ص: أفسـس وهي مدينة دقيانوس.

(٨) في الأصل، ج: وثبتوا.

(٩) في ب، ص: تعصب.

(١٠) وهوالبطريرك يوحنا كما ذكر ابن البطريق، وكان قد تأخر عن حضور المجمع، فلما حضر وجدهم قد نظروا في مقالة نسطورس ولعنوه ونفوه، ولم ينتظروا وصول البطريرك يـوحنا، فغضب وقـال: ظلمتم نسطورس ولعنتموه باطلاً (تاريخ ابن البطريق: ١/١٥٧).

(١١) سقطت من الأصل.

فلمـا لعن ونفي سار إلى مصـر وأقام في (أخميم)[1] (سبـع)[2] سنين، ومات ودفن بهـا، وماتت مقـالته إلى أن أحيـاها (ابن جـرمـا)[3] مـطران (نصيبين)[4]، وبثهـا في بـلاد المشرق فأكثر نصارى المشرق والعراق نسطورية[5].

وانفض ذلك المجمع الـرابع أيضـاً، وقد أطبقـوا على لعن نسطورس وأشيـاعه ومن قال بمقالته.

[مجمع أفسس الثاني سنة ٤٤٩م]:

ثم كان لهم بعد هذا مجمع خامس، وذلك أنه كان بالقسطنطينية طبيب راهب يقـال له (أوطيسوس)[6] يقول: إن جسد المسيح ليس هو من أجسـادنا بـالطبيعـة، فإن المسيـح قبل التجسد من طبيعتين، وبعد التجسد طبيعة واحدة، وهـو أول من أحدث هـذه المقالـة (وهي مقالة)[7] اليعقوبية، فرحل إليه بعض الأساقفة[8] فناظره فقطعه ودحض حجته.

ثم صار إلى قسطنطينية فأخبر بتركها[9] بالمناظرة وبانقطاعه، فأرسل بترك قسطنطينية إليـه فاستحضـره، وجمع جمعـاً عظيمـاً وناظـره، فقال (أوطيسـوس) إن قلنـا إن للمسيـح طبيعتين فقد قلنا بقول نسطورس، ولكنا نقول إن المسيح طبيعة واحدة وأقنوم واحـد، لأنه

---

(١) أخمـيم: بلد بـالصعيد بمصـر على شاطىء النيـل، بها عجـائب كثيرة من صـور وتمـاثيـل، (معجم البلدان).

(٢) في ج: تسع.

(٣) في ب، ج: ابن مصرما وفي ص: ابن صرما وعند ابن البطريق: برصوما.

(٤) نصيبين: مدينة عامرة على جادة القوافل من الموصل إلى الشام بينها وبين الموصـل ستة أيـام فتحها عياض بن غنم وصالح أهلها (معجم البلدان).

(٥) انظر: تاريخ ابن البطريق: ١/١٥٦ ـ ١٥٨.

(٦) أوطيسوس وعند ابن البطريق، اوتيشوس واسمه في تاريخ الأقباط (أوطاخي) وقد كان هذا رئيساً لدير بـالقرب من القسـطنـطينيـة تـطرف في تعبيـره في مجـال الجـدال مـع الأريـوسيين، فحكم أسقف القسـطنطينيـة بقطعـه في مجمع مكـاني، فعقد هـذا المجمع استئنـافاً للحكم، فحكم ببـراءته بعـد اعترافه بتمسكه بالإيمان النيقاوي (انظر: تاريخ الأقباط: ١/١٧٨).

(٧) سقطت من ج.

(٨) الذي رحل إليه هو أوصابيوس أسقف درليه (تاريخ ابن البطريق: ١/١٧٩).

(٩) وبتركها آنذاك هو فلابيانوس (تاريخ ابن البطريق: ١/١٧٩).

(من طبيعتين كانتا قبل التجسد زالت عنه وصار)[1] من طبيعة واحدة وأقنوم واحد، فقال له بترك القسطنطينية: إن كان المسيح طبيعة واحدة فالطبيعة الواحدة هي الطبيعة القديمة، وهي الطبيعة المحدثة، وإن كان القديم هو المحدث (فالذي لم يزل هو الذي لم يكن، ولو جاز أن يكون القديم هو المحدث)[2] لكان القائم هو القاعد والحار هو البارد، فأبى أن يرجع عن مقالته فلعنوه فاستعدى إلى الملك، وزعم أنهم ظلموه، وسأله أن يكتب إلى جميع البتاركة للمناظرة فاستحضر الملك البتاركة والأساقفة من سائر البلاد إلى مدينة (أفسس)، فثبّت بترك الإسكندرية مقالة أوطيسوس وقطع بتارك القسطنطينية وإنطاكية وبيت المقدس وسائر البتاركة والأساقفة، وكتب إلى بترك رومية وإلى جماعة الكهنة فحرمهم ومنعهم من القربان إن لم يقبلوا مقالة (أوطيسوس)، (وفسدت الأمانة وصارت المقالة مقالة أوطيسوس)[3] وخاصة بمصر والإسكندرية وهو مذهب اليعقوبية[4].

فافترق هذا المجمع الخاص، وكل فريق يلعن الآخر ويحرمه ويتبرأ من مقالته[5].

[مجمع خلقدونية سنة ٤٥١م]:

(فصل): ثم كان لهم بعد هذا مجمع سادس في مدينة (خلقدون)[6]، فإنه لما مات الملك ولي بعده (مرقيون)[7]، فاجتمع إليه الأساقفة من سائر البلاد، فأعلموه ما كان من ظلم ذلك المجمع وقلة الإنصاف، وأن مقالة أوطيسوس قد غلبت على الناس، وأفسدت دين النصرانية، فأمر الملك باستحضار سائر البتاركة والمطارنة والأساقفة إلى مدينة خلقدون، اجتمع فيها ستمائة وثلاثون أسقفاً، فنظروا في مقالة أوطيسوس وبترك الإسكندرية

---

(١) سقطت من الأصل.

(٢) سقطت من الأصل.

(٣) سقطت من ص والأصل.

(٤) انظر تاريخ ابن البطريق: ١/١٧٩.

(٥) وكان هذا المجمع بداية الانقسام في النصرانية الذي نشأ عنه ما يسمى اليوم بالكنيسة الشرقية والكنيسة الغربية وقد تم الانقسام تماماً في مجمع خلقدونية، حيث تزعمت الكنيسة المصرية القبطية الكنيسة الشرقية، وتزعمت كنيسة روما الكنيسة الغربية.

(٦) خلقدون: وفي النسخ بالحاء المهملة وهو خطأ.

وخلقدونية ويقال قدونه: الثغر الذي منه المصيصة وطرسوس وغيرهما (معجم البلدان).

(٧) مرقيون: وفي ص: برقيون، وعند ابن البطريق: مرقيان.

الذي قطع جميع البتاركة، فأفسد الجميع مقالتهما، ولعنوهما وأثبتوا أن يسوع المسيح إله وإنسان، وفي المكان مع الله باللاهوت وفي المكان معنا بالناسوت، (يعرف بطبيعتين تام باللاهوت وتام بالناسوت)[١]، مسيح واحد[٢]، وثبتوا قول الثلاثمائة (وثمانية عشر)[٣] أسقفاً[٤]، وقبلوا قولهم بأن الابن مع الله في المكان نور من نور إله حق (من إله حق)[٥]، (معروف بالطبيعتين، تام باللاهوت وتام بالناسوت)[٦]. ولعنوا آريوس، وقالوا: إن روح القدس إله، وإن الأب والابن وروح القدس واحد بطبيعة واحدة وأقانيم ثلاثة، وثبتوا قول المجمع الثالث[٧] في مدينة أفسس، (أعني)[٨] المائتي أسقف على نسطورس، وقالوا: إن مريم العذراء ولدت إلهاً، ربنا يسوع المسيح الذي هو مع الله (بالطبيعة ومع الناسوت بالطبيعة)[٩].

وشهدوا أن للمسيح طبيعتين وأقنوماً واحداً (ووجهاً واحداً)[١٠]، ولعنوا نسطورس وبترك الإسكندرية، ولعنوا المجمع الثاني الذي كان أفسس[١١]، ثم (ثبتوا)[١٢] المجمع الثالث المائتي أسقف بمدينة أفسس أول مرة[١٣]، ولعنوا نسطورس[١٤]، وبين

(١) سقطت من ج، ص.

(٢) وهذا خلاف رأي الكنيسة الأرثوذكسية ومنها القبطية، لذلك فإن الكنيسة القبطية لا تعترف بقرارات مجمع خلقدونية، لأنه قال بالطبيعتين والمشيئتين للمسيح بخلاف قول الكنيسة الأرثوذكسية بالطبيعة الواحدة والمشيئة الواحدة للمسيح، (انظر: تاريخ الأقباط: ١/١٧٩).

(٣) في ج: وثمانية وأربعون.

(٤) أي قول مجمع نيقية سنة ٣٢٥م

(٥) سقطت من ص.

(٦) موجودة في ج فقط.

(٧) وهو مجمع أفسس الأول سنة ٣٤١م.

(٨) ليست في ب، ج، ص.

(٩) في ب، ج: تعالى في الطبيعة اللاهوت ومعناه في طبيعة الناسوت.

(١٠) سقطت من ص والأصل.

(١١) أي المجمع الذي عقده بطريرك أنطاكية عقب مجمع أفسس الأول، لأنه غضب من قرار المجمع بلعن نسطورس.

(١٢) سقطت من جميع النسخ، وهي هكذا عند ابن البطريق: ١/١٨٢.

(١٣) وهو مجمع أفسس الأول.

(١٤) انظر: تاريخ ابن البطريق: ١/١٨١ ـ ١٨٢.

(نسطروس)[1] إلى مجمع خلقدون إحدى وعشرون سنة فأنقض هذا المجمع، وقد لعنوا من مقدمتهم وأساقفتهم ممن ذكرنا وكفروهم وتبرأوا منهم ومن مقالاتهم.

[مجمع معارض لمجمع خلقدونية]:

(فصل): ثم كان لهم بعد هذا المجمع مجمع سابع في أيام (انسطاس)[2] الملك، وذلك أن (سورس)[3] القسطنطيني كان على رأي أوطيسوس فجاء إلى الملك فقال: إن المجمع الخلقدوني (الستمائة والثلاثين) قد أخطأوا في لعن أوطيسوس (وبترك الإسكندرية)[4]، والدين الصحيح ما قالاه، فلا يقبل دين من سواهما، ولكن اكتب إلى جميع عمالك أن يلعنوا الستمائة والثلاثين ويأخذوا الناس بطبيعة واحدة ومشيئة واحدة (وأقنوم واحد)[5]، فأجابه الملك إلى ذلك. فلما بلغ (إيليا) بترك بيت المقدس جمع الرهبان ولعنوا (انسطاس) الملك و(سورس) ومن يقول بقولهما، فبلغ ذلك (انسطاس) فنفاه إلى (أيلة)[6]، وبعث (يوحنا) بتركاً على بيت المقدس (لأن يوحنا كان قد ضمن له أن يلعن المجمع الخلقدوني في الستمائة وثلاثين، فلما قدم إلى بيت المقدس)[7] اجتمع الرهبان وقالوا: إياك أن تقبل من (سورس)، ولكن قاتل عن المجمع الخلقدوني ونحن معك، فضمن لهم ذلك وخالف أمر الملك، فبلغ ذلك الملك، فأرسل قائداً وأمره أن يأخذ يوحنا بطرح للجمع الخلقدوني، فإن لم يفعل بنفيه عن الكرسي. فقدم القائد وطرح يوحنا بالحبس فصار إليه الرهبان في الحبس، وأشاروا عليه بأن يضمن للقائد أن يفعل

---

(١) سقطت من ج.

(٢) وقد ملك انسطاس على الروم سبعاً وعشرين سنة وكان يعقوبياً مخالفاً لمقالة الملكية، وكان من مدينة حماة، فأمر أن تبنى مدينة حماة وتحصّن (تاريخ ابن البطريق: ١/١٩١).

(٣) سورس: وعند ابن البطريق، سوديرس، وكان يرى رأي ديستورس واوبتنسوس وكان يقول بطبيعة واحدة وأقنوم واحد ومشيئة واحدة (تاريخ ابن البطريق: ١/١٩٣) ويعقوب البرادعي تلميذه (ابن البطريق: ١/١٩٥).

(٤) سقطت من جميع النسخ.

(٥) سقطت من الأصل.

(٦) أيلة: بالفتح مدينة على ساحل بحر القلزم (الأحمر) مما يلي الشام صالح رسول الله ﷺ أهلها، وهو في تبوك على الجزية. (معجم البلدان) وهي تسمى اليوم (إيلات) على خليج العقبة.

(٧) سقطت من الأصل.

ذلك، فإذا حضر فليقر بلعنة من لعنه الرهبان ففعل ذلك، واجتمع الرهبان وكانوا عشرة آلاف راهب ومنهم (يدرس)[1] و(سابا) ورؤساء الديارات فلعنوا (أوطيسوس) و(سورس) و(نسطورس) ومن لا يقبل المجمع الخلقدوني.

وفزع رسول الملك من الرهبان، وبلغ ذلك الملك، فهمّ بنفي يوحنا، فاجتمع الرهبان والأساقفة فكتبوا إلى انسطاس الملك أنهم لا يقبلون مقالة (سورس)، ولا أحداً من المخالفين، ولو أهريقت دماؤهم. وسألوه أن يكف أذاه عنهم.

وكتب بترك رومية إلى الملك بقبح فعله وبلعنه[2]، فانفض هذا المجمع أيضاً، وقد تلاعن فيه هذه الجموع على ما وصفناه.

[الصراع بين اليعاقبة والملكية]:

وكان لسورس تلميذ يقال له يعقوب، ويقول مقالة سورس وكان يسمى يعقوب البرادعي، وإليه تنسب أليعاقبة، فأفسد أمانة النصارى.

ثم مات انسطاس وولي قسطنطين، فردّ كلّ من نفاه انسطاس الملك إلى موضعه واجتمع الرهبان، وأظهروا كتاب الملك وعيّدوا عيداً حسناً (بزعمهم وأثبتوا)[3] المجمع الخلقدوني بالستمائة والثلاثين أسقفاً.

ثم (ولي)[4] آخر، وكانت اليعقوبية قد غلبوا على الإسكندرية، وقتلوا بتركاً لهم يقال له (بولس) كان ملكياً، فأرسل قائداً ومعه عسكر عظيم إلى الإسكندرية فدخل الكنيسة في (ثياب)[5] البتركة، وتقدم وقدس فرموه بالحجارة، حتى كادوا يقتلونه، فانصرف، ثم أظهر لهم من بعد بثلاثة أيام أنه قد أتاه كتاب الملك، وضرب الجرس ليجتمع الناس يوم الأحد في الكنيسة، فلم يبق أحد في الإسكندرية (إلا حضر لاستماع)[6] كتاب الملك، وقد كان جعل بينه وبين جنده علامة إذا هو فعلها (أوضعوا

---

(١) في الأصل يورنس وهو بدرس.

(٢) تاريخ ابن البطريق: ١/١٩٣ ـ ١٩٤.

(٣) في الأصل: ونسوا، وفي ب، ج: وأثبتوا.

(٤) في ج: ملك وفي ب، ص: ولي ملك واسمه عند ابن البطريق يوستنيانوس: ١/٢٠٠.

(٥) في ب، ج: ثبات.

(٦) في ج: حتى لسماع.

السيوف)[1] في الناس، فصعد المنبر وقال: يا معشر أهل الإسكندرية إن رجعتم إلى الحق وتركتم مقالة اليعاقبة، وإلا لن تأمنوا أن يرسل الملك إليكم من يسفك دماءكم، فرموه بالحجارة حتى خاف على نفسه أن يقتل، فأظهر العلامة فوضعوا السيف على كل من في الكنيسة، فقتلوا داخلها وخارجها أمماً (لا يحصون كثرة)[2] حتى خاض الجند في الدماء، وهرب منهم خلق كثير وظهرت مقالة الملكية[3].

[مجمع القسطنطينية الثاني سنة ٥٥٣م]:

(فصل): ثم كان بعد ذلك مجمع ثامن بعد المجمع الخلقدوني الذي لعن فيه اليعقوبية بمائة سنة وثلاث سنين، وذلك أن أسقف منبج[4] (وهي بلدة شرقي حلب بالقرب منها، وهي مخسوفة الآن)[5]، كان يقول بالتناسخ، وأن ليس قيامة، وكان أسقف (الرها)[6] وأسقف (المصيصة)[7] وأسقف آخر، يقولون: إن جسد المسيح خيال غير حقيقة، فحشرهم الملك إلى قسطنطينية فقال لهم بتركها: إن كان جسده خيالاً فيجب أن يكون فعله خيالاً وقوله خيالاً، وكل جسد نعاينه لأحد من الناس أو فعل أو قول فهو كذلك.

وقال لأسقف منبج: إن المسيح قد قام من الموت، وأعلمنا أنه كذلك تقوم الناس من الموت يوم الدينونة، وقال في إنجيله: لن تأتي الساعة حتى أن كل من في القبور إذا سمعوا قول (ابن)[8] الله يجيبوا[9].

---

(١) في ب، ج، ص: وضعوا السيف.

(٢) في ب: لا تحصى كثيرة، وفي ج: لا تحصى لكثرتها، وفي ص: لا تحصى كثرة.

(٣) تاريخ ابن البطريك: ١/٢٠٠.

(٤) سقطت من ب، ج والأصل.

(٥) واسم هذا الأسقف: أوريجانوس، وكان ذلك في عهد يوشينيانوس الملك (ابن البطريق: ١/٢٠٩) ومنبج: مدينة كبيرة بينها وبين حلب عشرة فراسخ، وبينها وبين الفرات ثلاثة فراسخ، فتحها عياض بن غنم صلحاً وإليها ينسب البحتري وأبو فراس (معجم البلدان).

(٦) وأسقف الرها هو أنيا أو ايبا (تاريخ ابن البطريق: ١/٢٠٥)

(٧) وأسقف المصيصة هو تداوس، والمصيصة: بالفتح ثم الكسر والتشديد هي مدينة على شاطئ جيحان من ثغور الشام بين إنطاكية وبلاد الروم تقارب طرسوس (معجم البلدان).

(٨) في الأصل: أتي.

(٩) يوحنا: ٥/٢٥.

فكيف تقولون ليس قيامة؟ فأوجب عليهم الخزي واللعن، وأمر الملك أن يكون لهم مجمع يلعنون فيه، واستحضر بتاركة البلاد، فاجتمع في هذا المجمع مائة (وأربعة)[1] وستون أسقفاً، فلعنوا أسقف منبج، وأسقف المصيصة، وثبتوا على أسقف الرها أن جسد المسيح حقيقة (لا خيالاً)[2]، وأنه إله تام وإنسان تام معروف بطبيعتين ومشيئتين وفعلين أقنوم واحد، وثبتوا المجامع الأربعة التي قبلهم وبعد المجمع الخلقدوني، وأن الدنيا زائلة وأن القيامة كائنة، وأن المسيح يأتي بمجد عظيم، فيدين الأحياء والأموات كما (كان الثلاثمائة وثمانية عشر)[3].

[مجمع القسطنطينية الثالث سنة ٦٨٠م]:

ثم كان لهم مجمع تاسع في أيام معاوية بن أبي سفيان تلاعنوا فيه، وذلك أنه كان برومية راهب قديس يقال له (مقلمس)[4]، وله تلميذان فجاء إلى قسطا الوالي فوبّخه على قبح مذهبه وشناعة كفره، فأمر به (قسطا) فقطعت يداه ورجلاه ونزع لسانه، وفعل بأحد التلميذين مثله. وضرب الآخر بالسياط ونفاه، فبلغ ذلك ملك قسطنطينية فأرسل إليه أن يوجه إليه من أفاضل الأساقفة، ليعلم وجه هذه الحجة ومن الذي كان (في ابتدائها)[5] لكي ما يطرح جميع الآباء القديسين كل من استحق اللعنة، فبعث إليه مائة وأربعين[6] أسقفاً وثلاث شمامسة، فلما وصلوا إلى قسطنطينية جمع الملك مائة وثمانية وستين أسقفاً فصاروا ثلاثمائة وثمانية[7]، وأسقطوا الشمامسة[8] في البرطحة[9].

وكان رئيس هذا المجمع بترك قسطنطينية وبترك إنطاكية، ولم يكن ببيت المقدس

---

(١) في الأصل: وأربعون.

(٢) في الأصل لا خيالاً.

(٣) في ص: قال الستمائة والثمانية عشر، وفي ج: قال الثلاثمائة وثمانية وأربعون، والصواب ثلاثمائة وثمانية عشر كما عند ابن البطريق: ١/٢٠٦.

(٤) وعند ابن البطريق: مقسيموس.

(٥) في ص: ابتداءها.

(٦) وعند ابن البطريق: مائة وأربعة وعشرين: ٢/٣٤.

(٧) العدد عند ابن البطريق: مائتان واثنان وتسعون.

(٨) فبقي ــ كما ذكر ابن البطريق ــ مائتان وتسعة وثمانون أسقفاً.

(٩) لم تذكر هذه الكلمة عند ابن البطريق، بل قال: وكذلك يذكرون في الدبتيخة: ٢/٣٥.

وإسكندرية بترك فلعنوا من تقدم من القديسين الذين خالفوهم وسمّوهم واحداً واحداً، وهم جماعة، ولعنوا أصحاب المشيئة الواحدة[1].

ولما لعنوا هؤلاء جلسوا (فلخصوا)[2] الأمانة بزعمهم فقالوا نؤمن (بالثالوث)[3] الابن الوحيد الذي هو الكلمة الأزلية الدائم المستوى مع الأب الإله في الجوهر الذي هو ربنا يسوع المسيح بطبيعتين تامتين وفعلين ومشيئتين في أقنوم واحد، ووجه واحد، يعرف تاماً بلاهوته، (تاماً)[4] بناسوته، وشهدت كما شهد مجمع الخلقدونية على ما سبق أن الإله الابن في آخر الأيام (اتخذ من)[5] العذراء السيدة (مريم القديسة)[6] (جسداً)[7] إنساناً بنفسين، وذلك برحمة الله تعالى محبّ البشر. ولم يلحقه اختلاط ولا فساد ولا فرقة ولا فصل، ولكن هو واحد يعمل بما يشبه الإنسان أن يعمله في طبيعته، وما يشبه الإله أن يعمله في طبيعته، الذي هو الابن الوحيد، والكلمة الأزلية المتجسدة، إلى أن صارت في الحقيقة لحماً، كما يقول الإنجيل المقدس من غير أن تنتقل عن محلها الأزلي، وليست بمتغيرة لكنها بفعلين ومشيئتين وطبيعتين إلهي وإنسي، الذي بهما يكون القول الحق، وكل واحدة من الطبيعتين تعمل مع شركة صاحبتها مشيئتين غير متضادتين ولا متضارعتين، ولكن مع المشيئة الإنسيّة في المشيئة الإلهية القادرة على كل شيء[8].

هذه شهادتهم وأمانة المجمع السادس من المجمع الخلقدوني، وثبّتوا (ما ثبته

(١) وكان على رأس الملعونين في هذا المجمع يوحنا مارون، ولذلك كان من آثار هذا المجمع ظهور طائفة المارونيين خرجوا من جماعة كنيسة روما والقسطنطينية (محاضرات في النصرانية: ص ١٥٩).
(٢) في الأصل: فخلصوا.
(٣) في ب: بأن الواحد من الثالوث وفي ص: بأن الواحد اللاهوت.
(٤) في ج: قائماً.
(٥) في الأصل: اتحد مع.
(٦) سقطت من ج.
(٧) في الأصل: حينئذٍ.
(٨) راجع: تاريخ ابن البطريق: ٢/٣٦.

الخمس)[1] مجامع التي كانت قبلهم، ولعنوا من لعنوه، وبين المجمع الخامس[2] إلى هذا المجمع مائة سنة.

[المجمع العاشر]:

ثم كان لهم مجمع عاشر لما مات الملك وولي بعده ابنه[3] واجتمع فريق المجمع السادس، وزعموا أن اجتماعهم كان على الباطل فجمع الملك مائة وثلاثين أسقفاً فثبتوا قول المجمع السادس، (ولعنوا)[4] من لعنهم وخالفهم، وأثبتوا قول المجامع الخمسة، ولعنوا من لعنهم وانصرفوا[5]. فانقرضت هذه المجامع والحشود وهم علماء النصارى وقدماؤهم، وناقلو الدين إلى المستأخرين، وإليهم يستند من بعدهم.

وقد اشتملت هذه المجامع العشرة المشهورة على زهاء أربعة عشر ألفاً من الأساقفة والبتاركة والرهبان، كلهم يكفّر بعضهم بعضاً ويلعن بعضهم بعضاً.

فدينهم إنما قام على اللعنة بشهادة بعضهم على بعض، وكل منهم لاعن ملعون، فإذا كانت هذه حالة المتقدمين مع قرب زمنهم من أيام المسيح وبقاء أحبارهم فيهم، والدولة دولتهم والكلمة كلمتهم، وعلماؤهم إذ ذاك أوفر ما كانوا، واحتفالهم بأمر دينهم واهتمامهم به كما نرى، ثم هم مع ذلك تائهون حائرون بين لاعن وملعون، لا يثبت لهم قدم، ولا يتحصل لهم قول في معرفة معبودهم، بل كل منهم قد اتخذ إلهه هواه، وباح باللعن والبراءة ممن اتبع سواه، فما لظن بحالة (الماضين)[6] ونفاية الغابرين وزبالة

---

(١) في الأصل: أمانة الأربع.

(٢) ويقصد بالمجمع الخامس، مجمع القسطنطينية الثالث سنة ٦٨٠م. وعبارة ابن البطريق: فمن المجمع الخامس المائة والأربعة والستين أسقفاً الذين اجتمعوا في القسطنطينية إلى هذا المجمع السادس المائتين والتسعة والثمانين أسقفاً الذين اجتمعوا بالقسطنطينية في زمان قسطنطين ملك الروم مائة عام.

(٣) عند ابن البطريق: ومات قسطنطين الملك المؤمن وله في الملك ست عشرة سنة، وملك بعده ابنه يوستينيانوس على الروم، وذلك في خلافة معاوية ابن أبي سفيان.

(٤) في الأصل: وأفنوا.

(٥) تاريخ ابن البطريق: ٢/٣٧.

(٦) في الأصل: الباقين.

الحائرين وذرية الضالين، وقد طال عليهم الأمد وبعد العهد، وصار دينهم ما (يبلغونه)[1] عن الرهبان. قوم إذا كشفت عنهم وجدتهم أشبه شيء بالأنعام، وإن كانوا في صور الأنام، بل هم كما ال تعالى ــ ومن أصدق من الله قيلاً ــ: ﴿إن هم إلّا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً﴾[2].

وهؤلاء الذين عناهم الله بقوله: ﴿قل يا أهل الكتاب لا تغلو في دينكم غير الحق، ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلّوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلّوا عن سواء السبيل﴾[3].

ومن أمة الضلال بشهادة الله ورسوله عليهم؟ وأمة اللعن بشهادتهم على نفوسهم يلعن بعضهم بعضاً، وقد لعنهم الله سبحانه وتعالى على لسان رسوله في قوله ﷺ: (لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، يحذر ما فعلوا)[4] هذا والكتاب واحد والرب واحد والنبي واحد والدعوة واحدة، كلهم يتمسك بالمسيح وإنجيله وتلاميذه، ثم يختلفون فيه هذا الاختلاف المتباين، فمنهم من يقول: إنه (الله)[5]، ومنهم من يقول: (ابن الله)[6]، ومنهم من يقول: (ثالث ثلاثة)[7]، ومنهم من يقول: (إنه)[8] (عبد)[9] ومنهم من يقول: إنه أقنوم (وطبيعة)[10]، ومنهم من يقول: (أقنومان وطبيعتان)[11] إلى غير ذلك من المقالات التي حكوها عن أسلافهم، وكل منهم يكفر صاحبه.

---

(١) في الأصل: فيلقونة.

(٢) سورة الفرقان: الآية ٤٤.

(٣) سورة المائدة: الآية ٧٧.

(٤) أخرجه مسلم عن أبي هريرة دون ذكر «يحذرنا ما فعلوا» (المساجد: ٣/٢١) وأخرجه عن عائشة وابن عباس مع ذكر «يحذر مثل ما صنعوا» (المساجد: ٣/٢٢).

(٥) مثل اليعاقبة ومن تابعهم كالأرثوذكس ومنهم الأقباط، الذين يقولون بالطبيعة الواحدة.

(٦) وكل طوائف النصارى اليوم تقول بأن المسيح ابن الله.

(٧) وهو مذهب الملكانية ومن تابعهم كالكاثوليك والبروتستانت.

(٨) في الأصل: الله.

(٩) كالأريوسيّة.

(١٠) سقطت في ب، ج. وهم اليعاقبة ومن تابعهم من الأرثوذكس وغيرهم.

(١١) وهم الملكانية ومن تابعهم من الكاثوليك وغيرهم.

فلو أن قوماً لم عرفوا لهم إلهاً، ثم عرض عليهم دين النصرانية هكذا، لتوقفوا عنه وامتنعوا من قبوله.

فوازن بين هذا وبين ما جاء به خاتم الرسل والأنبياء، تعلم علماً يضارع المحسوسات أو يزيد عليها، أن الدين عند الله الإسلام[1].

***

(١) سقطت من الأصل.

القسم الثاني
نبوّة محمّد ﷺ

(فصل): في أنه لا يمكن الإيمان بنبي أصلاً مع جحود نبوة رسول الله ﷺ، وأن من جحد نبوته فهو لنبوة غيره من الأنبياء أشد جحوداً وهذا يتبين من وجوه:

أحدها: أن الأنبياء المتقدمين بشّروا بنبوته، وأمروا أممهم بالإيمان به، (كما تقدم، ومن جحد نبوته فقد كذب الأنبياء قبله فيما أخبروا به، وخالفهم فيما أوصوا به من الإيمان به)[1] فالتصديق به لازم من لوازم التصديق بهم، وإذا انتفى اللازم انتفى ملزومه قطعاً، وبيان الملازمة ما تقدم من الوجوه الكثيرة التي تفيد بمجموعها القطع على أنه ﷺ قد ذكر في الكتب الإلهية على ألسن الأنبياء. وإذا ثبتت الملازمة فانتفاء اللازم موجب لانتفاء ملزومه.

الوجه الثاني: أن دعوة محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه هي دعوة جميع المرسلين قبله من أولهم إلى آخرهم.

فالمكذب بدعوته مكذب بدعوة إخوانه كلهم، فإن جميع الرسل جاؤوا بما جاء به، فإذا كذبه المكذب فقد زعم ما جاء به باطلاً، وفي ذلك (تكذيب)[2] كل رسول أرسله الله، وكل كتاب أنزله، ولا يمكن أن يعتقد أن ما جاء به صدق، وأنه كاذب (مفتر)[3] على الله، وهذا في غاية الوضوح، وهذا بمنزلة شهود شهدوا بالحق فصدقهم

(١) سقطت من الأصل.
(٢) سقطت من الأصل.
(٣) في الأصل: مفتن.

الخصم، وقال: هؤلاء (كلهم)[1] شهود عدول صادقون ثم (شهد آخر)[2] على شهادتهم سواء، فقال الخصم هذه الشهادة باطلة وكذب لا أصل لها، فذلك تكذيب بشهادة جميع الشهود قطعاً ولا ينجيه من تكذيبهم اعترافه بصحة شهادتهم، وأنها شهادة حق وأن الشاهد بها كاذب فيما شهد به.

وكما أنه لو لم يظهر محمد ﷺ لبطلت نبوات الأنبياء قبله، فكذلك إن لم يصدق لم يكن تصديق نبي من الأنبياء قبله.

الوجه الثالث: أن الآيات والبراهين التي دلّت على صحة نبوته وصدقه أضعاف أضعاف آيات من قبله من الرسل، فليس لنبي من الأنبياء آية توجب الإيمان به إلاّ ولمحمد ﷺ (آيات)[3] مثلها، أو ما هو في الدلالة مثلها، وإن لم يكن من جنسها.

فآيات نبوة محمد ﷺ أعظم وأكبر وأبهر وأدل والعلم بنقلها قطعي لقرب العهد وكثرة النقلة، (واختلاف أمصارهم وأعصارهم، واستحالة تواطئهم على الكذب، فالعلم بآيات نبوته كالعلم)[4] (بنفس)[5] وجوده، وظهوره وبلده بحيث لا يمكن المكابرة في ذلك، (والمكابر)[6] فيه في غاية الوقاحة والبهت، كالمكابرة في وجود ما شاهد الناس، ولم يشاهده هو من البلاد والأقاليم والجبال والأنهار.

فإن جاز القدح (في ذلك كله)[7]، ففي وجود موسى وعيسى وآيات نبوتهما أجوز وأجوز، وإن امتنع القدح فيهما وفي آيات نبوتهما، فامتناعه في محمد ﷺ وآيات نبوته أشد. ولذلك لما علم بعض علماء أهل الكتاب أن الإيمان بموسى لا (يتم)[8] مع التكذيب بمحمد أبداً، كفر بالجميع وقال «ما أنزل الله على بشر من شيء» كما قال

---

(١) سقطت من ج.
(٢) في ج، ص: إن آخر شهد.
(٣) ليست في ب، ج، ص.
(٤) سقطت من الأصل.
(٥) في الأصل: بتعيين نفس.
(٦) في الأصل والمكابرة.
(٧) سقطت من الأصل.
(٨) في الأصل: يمكن.

تعالى: ﴿وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء، قلْ من أنزلَ الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدى للناس (تجعلونه قراطيس تبدونها وتُخفون كثيراً)[١]، وعُلِّمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم قل: اللَّهُ ثم ذَرْهم في خَوضِهم يلعبون﴾[٢].

قال سعيد بن جبير: جاء رجل من اليهود ويقال له (مالك بن الصيف)[٣] يخاصم النبي ﷺ، فقال له النبي ﷺ: أنشدك بالذي أنزل التوراة على موسى، أما تجد في التوراة أن الله يبغض الحبر السمين؟ وكان حبراً سميناً، فغضب عدو الله وقال (والله)[٤] ما أنزل الله على بشر من شيء. فقال له أصحابه (الذين معه: ويحك)[٥] ولا موسى؟ فقال: ما أنزل الله على بشر من شيء، فأنزل الله تعالى: ﴿وما قدروا الله حق قدره (إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء، قل من)[٦] أنزل (الكتاب)[٧]﴾... الآيات، وهذا قول عكرمة[٨].

قال محمد بن كعب[٩] جاء ناس من يهود إلى النبي ﷺ وهو محتب[١٠] فقالوا:

(١) في جميع النسخ: (يجعلونه قراطيس يبدونها ويخفون كثيراً) بالياء لا بالتاء وهي قراءة ابن كثير وأبي عمرو بن العلاء وهي التي رجحها ابن جرير الطبري: ١١/٥٢٥، ويكون الكلام إخباراً عن اليهود بلفظ الغيبة.

(٢) سورة الأنعام: الآية ٩١.

(٣) في ب، ج: مالك وفي ص: مالك بن الضيف بالضاد والصواب بالصاد كما هو عند الطبري، وكان من قريظة، وهو من أحبار اليهود (تفسير الطبري: ١١/٥٢٤).

(٤) سقطت من ج.

(٥) سقطت من الأصل.

(٦) ليست في ب، ج، ص.

(٧) في الأصل: التوراة.

(٨) تفسير الطبري: ١١/٥٢١ ـ ٥٢٢ (تحقيق محمود شاكر).

(٩) هو محمد بن كعب بن مالك الأنصاري، ذكر ابن الأثير أن له صحبة (انظر: أسد الغابة: ٤/٣٢٩).

(١٠) محتب: بالحاء من الاحتباء وهو أن يضم الإنسان رجليه إلى بطنه بثوب يجمعهما به مع ظهره ويشده عليها، وقد يكون الاحتباء باليدين عوض الثوب، (النهاية: ١/٣٣٥)، وإذا كانت (مجتب) بالجيم فهي من التجبية وأصلها أن يقوم الإنسان قيام الراكع وقيل هي أن يضع يديه على ركبتيه وهو قائم، وقيل: هو السجود (النهاية: ١/٢٣٨).

يا أبا القاسم، ألا تأتينا بكتاب من السماء، كما جاء به موسى ألواحاً يحملها من عند الله عز وجل، فأنزل الله عز وجل ﴿يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء * فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا: أرنا الله جهرة...﴾ الآية(١).

فَجثى رجل من اليهود على ركبتيه فقال: (ما أنزل الله على بشر من شيء)(٢) (وفي لفظ)(٣): ما أنزل الله عليك ولا على موسى ولا على عيسى ولا على أحد شيئاً، ما أنزل الله على بشر من شيء، فحلّ رسول الله ﷺ حبوته وجعل يقول: ولا على أحد(٤)؟.

وذهب جماعة منهم مجاهد إلى أن الآية نزلت في مشركي قريش، فهم الذين جحدوا أصل الرسالة، وكذبوا بالرسول، وأما أهل الكتاب فلم يجحدوا نبوة موسى وعيسى، وهذا اختيار ابن جرير، قال: وهو أولى الأقاويل (بالصواب)(٥)، لأن ذلك في سياق الخبر عنهم، فهو أشبه من أن يكون خبراً عن اليهود، ولم يجر لهم ذكر يكون هذا به متصلاً (مع ما)(٦) في الخبر عمّن أخبر الله عنه من هذه الآية من إنكاره أن يكون الله أنزل على بشر شيئاً من الكتب، وليس ذلك ما يدين به اليهود، بل المعروف من دين اليهود الإقرار بصحف إبراهيم وموسى وزبور داود. والخبر من (أول)(٧) السورة إلى هذا الموضع خبر عن المشركين من عبدة الأوثان، وقوله تعالى: ﴿وما قدروا الله حق قدره﴾ موصول به غير مفصول عنه(٨).

قلت: ويقوي قوله إن السورة مكية، فهي خبر عن زنادقة العرب المنكرين لأصل النبوة، ولكن بقي أن يقال: فكيف يحسن الرد عليهم بما لا يقرون به من إنزال الكتاب الذي جاء به موسى؟ وكيف يقال لهم: ﴿يجعلونه قراطيس يبدونها ويخفون كثيراً﴾ ولا سيما على قراءة من قرأ بتاء الخطاب؟.

---

(١) سورة النساء: الآية ١٥٣.

(٢) سقطت من ب، ج، ص ولم ترد كذلك عند الطبري.

(٣) في ب، ج، ص: وقال، وهكذا عند الطبري.

(٤) تفسير الطبري: ١١/٥٢٢ ـ ٥٢٣ (تحقيق محمود شاكر).

(٥) في ج: بالصواب عنهم.

(٦) في ب: معه.

(٧) سقطت من ص.

(٨) تفسير الطبري: ١١/٥٢٤ ـ ٥٢٥ (الطبعة المحققة).

وهل ذلك صالح لغير اليهود؟ فإنهم كانوا يخفون من الكتاب ما لا يوافق أهواءهم وأغراضهم، ويبدون منه ما سواه، (كما فعل ابن صوريا عند إحضار التوراة في مجلس رسول الله ﷺ للاستشهاد بنص التوراة في حكم الرجم، ووضع يده عليها، وقرأ ما قبلها وما بعدها، وإظهار (ابن سلام)[1] زيفه).

ولما كانوا كذلك[2] (احتج)[3] عليهم بما يقرون به من كتاب موسى، ثم وبّخهم بأنهم خانوا الله ورسوله، فأخفوا بعضه وأظهروا بعضه.

وهذا استطراد من ذكر جحدهم النبوة بالكلية وذلك إخفاء لها، وكتمان إلى (جحد)[4] ما أقروا به من كتابهم بإخفائه وكتمانه، فتلك سجيّة لهم معروفة لا تنكر، إذ من أخفى بعض كتابه الذي يقرّ بأنه من عند الله، كيف لا يجحد أصل النبوة؟ ثم احتج عليهم بأنهم قد علموا بالوحي ما لم يكونوا يعلمونه هم (ولا آباؤهم)[5]، ولولا الوحي الذي أنزله (الله)[6] على أنبيائه ورسله لم يصلوا إليه، ثم أمر رسوله ﷺ أن يجيب عن هذا السؤال وهو قوله: «من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى»؟.

فقال: قل الله، أي الله الذي أنزله، أي إن كفروا به وجحدوه فصدّق به أنت وأقرّ به وذرهم في خوضهم يلعبون.

وجواب هذا السؤال أن يقال ــ (والله أعلم)[7] ــ: إن الله سبحانه وتعالى احتج عليهم بما يقرّ به (الكتابيّون)[8]، وهم أولو العلم دون الأمم التي لا كتاب لها، أي إن جحدتم أصل النبوة، وأن يكون الله أنزل على بشر (شيئاً)[9]، فهذا كتاب موسى يقرّ به أهل الكتاب، وهم أعلم منكم فاسألوهم عنه.

---

(١) ابن سلام: هو عبد الله بن سلام.

(٢) سقطت من ب، ج، ص.

(٣) في ب، ج، ص: فاحتج.

(٤) في ب، ج: جحد بعض.

(٥) في ج: وآباؤهم.

(٦) سقطت من ص.

(٧) في الأصل فقط.

(٨) في ب: أهل الكتاب، وفي ج، ص: أهل الكتابين.

(٩) في الأصل: من شيء.

ونظائر هذا في القرآن كثيرة، ليستشهد سبحانه بأهل الكتاب على منكري النبوات والتوحيد. والمعنى أنكم إن أنكرتم أن يكون الله أنزل إلى بشر شيئاً فمن أنزل كتاب موسى؟ فإن لم تعلموا ذلك فاسألوا أهل الكتاب.

وأما قوله تعالى: ﴿يجعلونه قراطيس يبدونها ويخفون كثيراً﴾ فمن قرأها بالياء فهو إخبار عن اليهود بلفظ الغيبة، ومن قرأها (بالتاء)[1] للخطاب فهو خطاب لهذا الجنس (الذين)[2] فعلوا ذلك، أي تجعلونه يا من أنزل عليه كذلك، وهذا من أعلام نبوته ﷺ أن يخبر أهل الكتاب بما اعتمدوه (في كتابهم)[3]، وأنهم جعلوه قراطيس، وأبدوا بعضه وأخفوا كثيراً منه، (وهذا لا يعلم)[4] من غير (جهتهم)[5] إلا بوحي من الله تعالى.

ولا يلزم أن يكون قوله: «يجعلونه قراطيس» خطاباً لمن حكى عنهم أنهم قالوا: ما أنزل الله على بشر من شيء، بل هذا استطراد من الشيء إلى نظيره وشبهه (ولازمه)[6].

وله نظائر في القرآن كثيرة كقوله تعالى: ﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين، ثم جعلناه نطفة في قرار مكين، ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة...﴾[7] إلى آخر الآية.

فاستطرد من الشخص المخلوق من الطين وهو آدم عليه السلام إلى النوع المخلوق من النطفة وهم أولاده، وأوقع الضمير على الجميع بلفظ واحد، ومثله قوله تعالى: ﴿هو الذي خلقكم من نفس واحدة، وجعل منها زوجها ليسكن إليها فلما تغشاها حملت حملاً خفيفاً، فمرت به، فلما أثقلت دعَوا الله ربهما لئن آتيتَنا صالحاً لنكونن من الشاكرين، فلما آتاهما صالحاً، جعلا له شركاء فيما آتاهما، فتعالى الله عما يشركون﴾[8] إلى آخر

---

(١) في ص: بلفظ التاء.

(٢) في ج، ص: الذي.

(٣) سقطت من ج.

(٤) سقطت من الأصل.

(٥) في الأصل: حجبتهم.

(٦) في ج: ولزومه.

(٧) سورة المؤمنون: الآيات ١٢ ـ ١٤.

(٨) سورة الأعراف: الآيتان ١٨٩، ١٩٠.

الآيـات، ويشبه هـذا قـولـه: ﴿ولئن سـألتهم من خلق السمـوات والأرضَ ليَقـولُنّ خلقهن العزيز (العليم)[1] * الذي جعل لكم الأرض مهْداً وجعل لكم فيها سبلاً لعلكم تهتدون * (والذي)[2] نزَّل من السماء ماء بقَدَر فأنشرنا[3] به بلدة ميتاً كذلك تخرجون * والذي خلق الأزواج كلها. . .﴾[4] إلى آخر الآيات.

وعلى التقدير، فهؤلاء ولو لم يتم لهم إنكار نبوة النبي ﷺ ومكابرتهم إلا بهذا الجحد والتكـذيب العـام، ورأوا أنهم إن أقـروا ببعض النبـوات وجحـدوا نبـوتـه (ظهـر تنـاقضهم وتفـريقهم بين المتماثلين، وأنـه لا يمكنهم الإيمان بنبـي وجحـد نبوة)[5] من نبـوته أظهـر وآيتها أكبر وأعظم ممن أقروا به.

وأخبـر سبحانـه أن من جحد أن يكـون قد أرسـل رسله، وأنزل كتبـه لم يقـدره حق قـدره، وأنه (نسبـه)[6] إلى ما لا يليق بـه، بل يتعـالى ويتنزه عنـه، فـإن في ذلـك إنكـاراً لربوبيته وإلهيته وملكه وحكمه ورحمته، والظن السيء به أنه خلق خلقه عبثاً بـاطلاً، وأنـه خلاهم سدى مهملاً، وهذا ينافي كمالـه المقدس، وهـو متعال عن كـل ما ينـافي كمالـه، فمن أنكر كلامـه وتكليمه وإرسـاله الـرسل إلى خلقـه فما قـدره حق قدره، ولا عـرفه حق معـرفته، ولا عـظمه حق عـظمته، كمـا أن من عبد معـه إلهـاً غيـره لم يقـدره حق قـدره، (معطل)[7] جاحد لصفات كماله ونعوت جلاله، وإرسال رسله وإنزال كتبه، ولا عظمه حق عظمته.

[إنكار نبوة محمد إنكار لربوبية الله تعالى]

ولذلك كان جحد نبـوة خاتم (الأنبيـاء والرسـل)[8] وتكذيبـه إنكاراً للرب تعـالى في

---

(١) في الأصل: الحكيم.

(٢) في الأصل: والله الذي.

(٣) أنشرنا: أحيينـا، وهنا عـدول عن المغايبـة إلى الإخبـار لعلم المخـاطب بـالمـراد (تفسيـر النسفي: ١١٤/٤).

(٤) سورة الزخرف: الآيات ٩ ــ ١٢.

(٥) سقطت من ص.

(٦) سقطت من ص وفي ج: يشبه.

(٧) في ب، ج: فلم يقدره حق قدره معطل.

(٨) في ب، ج، ص: خاتم أنبيائه ورسله.

(الحقيقة)[1] وجحوداً له، فلا يمكن الإقرار بربوبيته وإلهيته وملكه، بل ولا بوجوده، مع تكذيب محمد بن عبد الله ﷺ، وقد أشرنا إلى ذلك في المناظرة التي تقدمت، فلا يجامع الكفر برسول الله ﷺ الإقرار بالرب تعالى وصفاته أصلاً، كما لا يجامع (الكفر)[2] بالمعاد واليوم (الآخر)[3] الإقرار بوجود الصانع أصلاً، وقد ذكر سبحانه وتعالى ذلك في موضعين (في كتابه)[4] في سورة الرعد في قوله تعالى: ﴿وإن تعجب فعجب قولهم أإذا كنا تراباً أإنّا لفي خلق جديد أولئك الذين كفروا بربهم﴾[5].

والثاني في سورة الكهف في قوله تعالى: ﴿ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما أظن أن تبيد هذه أبداً * وما أظن الساعة قائمة * ولئن رددت إلى ربي لأجدَنّ خيراً منها منقلباً * قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلاً * لكنا هو الله ربي ولا أشرك بربي أحداً﴾[6].

فالرسول صلوات الله وسلامه عليه إنما جاء بتعريف الرب تعالى بأسمائه وصفاته وأفعاله، (والتعريف)[7] بحقوقه على عباده فمن أنكر (رسالته)[8] فقد أنكر الرب الذي دعا إليه وحقوقه التي أمر بها، بل نقول لا يمكن الاعتراف بالحقائق على ما هي عليه مع تكذيب رسوله ﷺ.

[ضلال المذاهب التي أنكرت النبوات]

[الفلاسفة]:

وهذا ظاهر جداً لمن تأمل مقالات أهل الأرض وأديانهم، فإن الفلاسفة لم يمكنهم

---

(١) في ج: حقيقته.

(٢) في الأصل: جحد، وسقطت في ب، ج.

(٣) سقطت من ب.

(٤) سقطت من ب، ج.

(٥) سورة الرعد: الآية ٥، وموضع الاستشهاد في الآية أن الله تعالى اعتبر منكري البعث والمعاد كافرين بالله، لأنهم أنكروا جزءاً مما جاء به الرسل عليهم السلام.

(٦) سورة الكهف: الآيات ٣٥ ــ ٣٨، وموضع الشاهد اعتبار منكر الساعة والمعاد كافراً بربه الذي خلقه.

(٧) في الأصل: والعريف.

(٨) في ص: رسالاته.

الاعتراف بالملائكة والجن (والمبدأ) والمعاد وتفاصيلهما، وتفاصيل صفات الرب تعالى وأفعاله مع إنكار النبوات، بل والحقائق المشاهدة التي لا يمكن إنكارها، لم يثبتوها على ما هي عليه، ولا أثبتوا حقيقة واحدة على ما هي عليه البتّة وهذا ثمرة إنكارهم النبوات.

فسلبهم الله إدراك الحقائق التي زعموا أن عقولهم كافية في إدراكها، فلم يدركوا منها شيئاً على ما هو عليه، حتى ولا الماء ولا الهواء ولا الشمس ولا غيرها، فمن تأمل مذاهبهم فيها علم أنهم لم (يدركوها)[1]، وإن عرفوا من ذلك بعض ما خفي على غيرهم.

[المجوس والوثنيون]:

وأما المجوس فأضلّ وأضلّ، وأما عباد الأصنام فلا عرفوا الخالق ولا عرفوا حقيقة المخلوقات، ولا ميّزوا بين الشياطين والملائكة، ولا بين الأرواح الطيبة والخبيثة، وبين أحسن الحسن وأقبح القبيح، ولا عرفوا كمال النفس (وما)[2] تسعد به، ونقصها وما تشقى به.

[النصارى]:

وأما النصارى فقد عرفت ما الذي أدركوه من معبودهم وما وصفوه به، وما الذي قالوه في نبيهم، وكيف لم يدركوا حقيقته البتة، ووصفوا الله بما هو من أعظم العيوب والنقائص، ووصفوا عبده ورسوله بما ليس له بوجه من الوجوه، ولا عرفوا الله ولا رسوله، والمعاد الذي أقروا به لم يدركوا حقيقته، ولم يؤمنوا بما جاءت به الرسل من حقيقة، إذ لا أكل عندهم في الجنّة ولا شرب ولا زوجة هناك ولا حور عين يلذ بهن الرجال كلذاتهم في الدنيا، ولا عرفوا حقيقة أنفسهم وما (تسعد به وتشقى)[3]، ومن لم يعرف ذلك فهو أجدر أن لا يعرف حقيقة شيء كما ينبغي البتة.

فلا لأنفسهم عرفوا ولا لفاطرها وباريها، ولا لمن جعله الله (سبباً)[4] في فلاحها وسعادتها، ولا للموجودات وأنها جميعها فقيرة مربوبة مصنوعة ناطقها آدميها وجنّها

---

(١) في ج، ب: يذكروها.

(٢) في الأصل: ولا ما.

(٣) في الأصل: وما يسعد به وما يشقى به (بالياء).

(٤) في الأصل: سبيلاً.

وملكها، وكل من في السموات والأرض عبده وملكه وهو مخلوق مصنوع مربوب فقير من كل وجه ومن لم يعرف هذا لم (يعرف)[1] شيئاً.

[اليهود]:

وأما اليهود (لعنهم الله)[2] فقد حكى الله لك عن جهل أسلافهم (وعبادتهم للعجل)[3] وضلالهم ما يدل على ما وراءه من ظلمات الجهل التي بعضها فوق بعض، ويكفي ذلك عبادتهم العجل الذي صنعته أيديهم من ذهب. (ومن غباوتهم)[4] (وبلادتهم)[5] أن جعلوه على صورة (أبله)[6] الحيوان، وأقله فطانة الذي يضرب به المثل في قلة الفهم، فانظر إلى هذه الجهالة والغباوة المجاوزة للحد كيف عبدوا مع الله إلهاً آخر، وقد شاهدوا من أدلة التوحيد وعظمة الرب وجلاله ما لم يشاهده سواهم.

وإذ[7] قد عزموا على اتخاذ إله دون الله فاتخذوه ونبيهم حي بين أظهرهم، لم ينظروا موته، وإذ قد فعلوا (فلم يتخذوه من الملائكة المقربين، ولا من الأحياء الناطقين، بل اتخذوه من الجمادات، وإذ قد فعلوا)[8] فلم (يجعلوه)[9] من الجواهر العلوية كالشمس والقمر والنجوم، بل هو من الجواهر الأرضية، وإذ قد فعلوا، فلم يتخذوه من الجواهر التي خلقت فوق الأرض عالية عليها كالجبال ونحوها، بل من جواهر لا تكون إلّا تحت الأرض، والصخور والأحجار (عالية)[10] عليها، وإذ قد فعلوا فلم يتخذوه من (جوهر يستغني عن الصنعة)[11] وإدخالها النار وتقليبه وجوهاً مختلفة، وضربه بالحديد وسبكه، بل من جوهر يحتاج إلى نيل الأيدي له بضروب مختلفة وإدخاله النار

---

(١) في الأصل: يكن.

(٢) ليست في ب، ج، ص.

(٣) في ب، ص: وعبادتهم وفي ج: عداوتهم.

(٤) في ج: وعبادتهم.

(٥) ليست في ب، ج، ص.

(٦) في الأصل: أبلد.

(٧) معطوفة على فانظر، ويكون المعنى: وانظر إذ.

(٨) سقطت من الأصل.

(٩) في ب، ج، ص: يتخذوه.

(١٠) في ج، ص: غالبة.

(١١) في الأصل: الجواهر التي تستغني عن الصيغة.

(وإحراقه)[1] واستخـراج خبثه، وإذ قـد فعلوا، فلم (يصوّغوه)[2] على تمثال ملك كـريم، ولا نبـي مـرسل، ولا على تمثـال جوهـر علوي لا تنالـه الأيـدي، بـل على تمثـال حيـوان أرضي، وإذ قد فعلوا فلم يصوغوه على مثال أشرف الحيوانات وأقواها وأشد امتنـاعاً[3] من الضيم كالأسد والفيل ونحوهما، بل صاغوه على تمثال أبلد الحيوانات وأقبله للضيم والذل بحيث تحرث عليه الأرض، ويسقى عليه بالواقي والدواليب، ولا له قوة يمتنع بها من كبيـر ولا صغير[4]، فأي معرفة لهؤلاء بمعبودهم ونبيهم وبحقائق الموجودات.

وحقيق بمن (سأل)[5] نبيه أن يجعـل له إلهـاً (فيعبد «الأصنـام»[6] إلهاً)[7] مجعـولاً بعدما شاهد تلك الآيـات الباهـرات أن لا يعرف حقيقـة الإله ولا أسمـاءه وصفاتـه ونعوتـه ودينه، ولا يعرف حقيقة المخلوق وحاجته وفقره، ولـو عرف هؤلاء معبـودهم (ورسولـه)[8] لما قالوا لنبيهم: ﴿لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة﴾[9] ولا قـالوا لـه ﴿اذهب أنت وربك فقاتلا﴾[10].

ولا قتلوا نفساً وطرحوا المقتول على أبواب البراء من قتله ونبيهم حيّ بين أظهرهم، وخبر السماءوالوحي يأتيه صباحـاً ومساءً[11]، فكأنهم جوزوا (أن)[12] يخفى هذا على الله (كما يخفى على)[13] الناس.

---

(1) سقطت من الأصل.

(2) في الأصل: يصنعوه.

(3) سقطت من الأصل.

(4) وهـو العجل، والحـديث كله بهذا الأسلوب التعجبي التهكمي عن اليهـود الذين اتخـذوا من حليهم عجلاً، واتخذوه إلهاً يعبد من دون الله.

(5) في ج: أرسل.

(6) في ص فقط.

(7) سقطت من الأصل.

(8) في ص: ورسولهم.

(9) سورة البقرة: الآية ٥٥.

(10) سورة المائدة: الآية ٢٤.

(11) يشيـر بهذا إلى قـوله تعـالى عن بني إسرائيـل ﴿وإذ قتلتم نفسـاً فـادارأتم فيهـا والله مخـرج مـا كنتم تكتمون﴾ [البقرة: ٧٢].

(12) في الأصل على أن.

(13) سقطت من ج، وفي ب: كما يخفي على الله.

ولو عرفوا معبودهم لما قالوا في بعض مخاطباتهم له: «يا أبانا انتبه من رقدتك لا تنم».

ولو عرفوه لما سارعوا إلى محاربة أنبيائهم وقتلهم وحبسهم ونفيهم، ولما تحايلوا على تحليل محارمه وإسقاط فرائضه بأنواع الحيل.

ولقد شهدت التوراة بعدم فطانتهم وأنهم من الأغبياء(١).

ولو عرفوه لما حجروا عليه بعقولهم الفاسدة أن (يأمر)(٢) بالشيء في وقت لمصلحة ثم (يزيل)(٣) الأمر به في وقت آخر لحصول المصلحة، ويبدل بما هو خير منه وينهى عنه، ثم (يبيحه)(٤) في وقت آخر لاختلاف الأوقات والأحوال في المصالح والمفاسد(٥)، كما هو شاهد في أحكامه القدرية الكونية التي لا يتم نظام العالم ولا مصلحته إلّا بتبدلها واختلافها بحسب الأحوال والأوقات والأماكن، فلو اعتمد طبيب أن لا يغير الأدوية والأغذية بحسب اختلاف الأزمان والأماكن والأحوال لأهلك الحرث والنسل وعدّ من الجهّال، فكيف يحجر على طبيب القلوب والأديان أن تتبدل أحكامه بحسب اختلاف المصالح، وهل ذلك إلّا قدح في حكمته ورحمته وقدرته وملكه التام وتدبيره بخلقه؟!

ومن جهلهم بمعبودهم ورسوله وأمره، أنهم أمروا أن يدخلوا باب المدينة التي فتح الله عليهم سجداً، ويقولوا حطّة(٦) فيدخلوا متواضعين لله سائلين منه أن يحط عنهم خطاياهم، فدخلوا يزحفون على أستائهم بدل السجود له ويقولون (حنطاً سقماً)(٧) أي حنطة سمراء. فذلك سجودهم (وخضوعهم)(٨)، وهذا استغفارهم (واستقالتهم)(٩) من

---

(١) انظر: التثنية: ٣٢/٢٨ (إنهم أمة عديمة الرأي ولا بصيرة فيهم).

(٢) في الأصل أن يأمروا.

(٣) سقطت من ج.

(٤) في ب، ج: ينجيه.

(٥) يشير بهذا إلى إنكار اليهود للنسخ.

(٦) يشير إلى قوله تعالى: ﴿وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم رغداً وادخلوا الباب سجداً وقولوا حطّة نغفر لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين﴾ [البقرة: ٥٨].
والقرية هي بيت المقدس كما رجح ابن كثير رحمه الله: ١/٩٨.

(٧) باللغة العبرية.

(٨) في ص: وخشوعهم.

(٩) في ج: واستغاثتهم.

ذنوبهم. ومن جهلهم وغباوتهم أن الله سبحانه وتعالى أراهم من الآيات آيات قدرته وعظيم سلطانه وصدق رسوله ما لا مزيد عليه، ثم أنزل عليهم بعد ذلك كتابه وعهد إليهم فيه عهده وأمرهم أن يأخذوه بقوة، فيعبدونه بما فيه، كما خلصهم من عبودية فرعون والقبط، فأبوا أن يقبلوا ذلك، وامتنعوا منه، فنتق الجبل[1] العظيم فوق رؤوسهم على قدرهم. وقيل لهم: إن لم تقبلوا طَبَقْتُهُ عليكم فقبلوه من تحت الجبل.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: رفع الله الجبل فوق رؤوسهم وبعث ناراً من قبل وجوههم وأتاهم البحر من تحتهم، ونودوا إن لم تقبلوا أرضختكم بهذا، وأحرقتكم بهذا، ولفرقتكم بهذا، فقبلوا وقالوا سمعنا (وأطعنا)[2]، ولولا الجبل ما أطعناك، ولما آمنوا بعد ذلك قالوا: سمعنا وعصينا[3]، ومن جهلهم أنهم شاهدوا الآيات، ورأوا العجائب التي يؤمن على بعضها البشر، ثم قالوا بعد ذلك: ﴿لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة﴾[4].

وكان الله سبحانه وتعالى قد أمر كليمه موسى عليه الصلاة والسلام أن يختار من خيارهم سبعين رجلًا لميقاته، (فاختارهم)[5] موسى وذهب بهم إلى الجبل[6]، فلما دنا موسى من الجبل وقع عليه عمود الغمام حتى تغشى الجبل، وقال للقوم: ادنوا، ودنا القوم حتى إذا دخلوا في الحجاب، وقعوا سجداً، فسمعوا الرب سبحانه وتعالى وهو يكلم موسى، ويأمره وينهاه، ويعهد إليه، فلما انكشف الغمام، قالوا: لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة[7].

ومن جهلهم أن هارون عليه السلام لما مات ودفنه موسى قالت بنو إسرائيل لموسى: أنت قتلته، حسدته على خلقه ولينه من محبة بني إسرائيل له، قال: فاختاروا

---

(١) نتق الجبل: وهي من قوله تعالى: ﴿وإذ نتقنا الجبل فوقهم﴾ [الأعراف: ١٧١] بمعنى قلعناه ورفعناه فوقهم (النسفي: ٢/٨٤).

(٢) في ج: وعصينا وهو خطأ.

(٣) سورة البقرة: الآية ٩٤، والرواية ذكرها السيوطي في الدر المنثور.

(٤) سورة البقرة: الآية ٥٥.

(٥) في ب، ج: واختار.

(٦) يشير إلى قوله تعالى: ﴿واختار موسى قومه سبعين رجلًا لميقاتنا﴾ [الأعراف: ١٥٥].

(٧) انظر: تفسير ابن كثير: ١/١١٦.

سبعين رجلاً (من بني إسرائيل)[1] فوقفوا على قبر هارون، فقال موسى: يا هارون، أقتلت أم مت؟ فقال: بل مت وما قتلني أحد.

فحسبك من جهالة أمة (وجفائهم)[2] أنهم اتهموا نبيهم ونسبوه إلى قتل أخيه، فقال موسى: ما قتلته فلم يصدقوه حتى أسمعهم كلامه (وبرأه أخوه)[3] مما رموه به.

ومن جهلهم أن الله سبحانه وتعالى شبههم في حملهم التوراة وعدم الفقه فيها والعمل بها بالحمار يحمل أسفاراً[4]، وفي هذا التشبيه من النداء على جهالتهم وجوه متعددة منها:

أن الحمار من أبلد الحيوانات التي يضرب بها المثل في البلادة. (ومنها: أنه لو حمل غير الأسفار من طعام أو علق أو ماء لكان له به شعور ما)[5]، ومنها: أنهم (حين حملوها حيث حملوها تكليفاً وقهراً، لا أنهم)[6] حملوها طوعاً واختياراً، بل كانوا كالمكلفين لما حملوا لم يرفعوا به رأساً.

ومنها: أنهم حيث حملوها تكليفاً وقهراً لم يرضوا بها، ولم يحملوها رضاءً واختياراً، وقد علموا أنهم لا بد لهم (من حملها)[7]، وأنهم إن حملوها اختياراً كانت لهم العاقبة في الدنيا والآخرة، ومنها: أنها مشتملة على مصالح معاشهم ومعادهم وسعادتهم في الدنيا والآخرة، وإعراضهم عن التزام ما فيه سعادتهم وفلاحهم إلى ضده من غاية الجهل والغباوة، وعدم الفطانة، ومن جهلهم وقلة معرفتهم أنهم طلبوا عوض المن والسلوى[8]

---

(١) زيادة في الأصل.

(٢) في ب: وشقائهم.

(٣) في ب، ص: وبراءة أخيه.

(٤) وذلك في قوله تعالى: ﴿مثل الذين حُمِّلوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا﴾ [الجمعة: ٥].

(٥) سقطت من ص، وزاد في ج: بخلاف الأسفار.

(٦) سقطت من ج، وفي ب، ص: حملوها لأنهم.

(٧) في ب، ج، ص: ومنها.

(٨) كان ذلك من نعم الله عليهم كما في قوله تعالى: ﴿وأنزلنا عليكم المنّ والسلوى كلوا من طيبات ما رزقناكم﴾ [البقرة: ٥٧]، والمن: وإن اختلفت في وصفه عبارات المفسرين فهو طعام أو شراب لذيذ كان ينزل عليهم من السماء كل يوم وهم في التيه (ابن كثير: ١/ ٩٥).

اللذين هما من أطيب الأطعمة وأنفقها وأوفقها للغذاء الصالح، البقل والقثاء والفوم والعدس والبصل[1]، ومن رضي باستبدال هذه الأغذية عوضاً عن المن والسلوى لم يستكثر عليه أن يستبدل الكفر بالإيمان، والضلال بالهدى، والغضب بالرضى، والعقوبة بالرحمة، وهذا حال من لم يعرف ربه ولا كتابه ولا رسوله ولا نفسه.

وأما نقضهم ميثاقهم وتبديلهم أحكام التوراة وتحريفهم الكلم عن مواضعه وأكلهم الربا، وقد نهوا عنه، وأكلهم الرشا، واعتداؤهم في السبت، حتى مسخوا قردة (وخنازير)[2]، وقتلهم الأنبياء بغير حق وتكذيبهم عيسى ابن مريم رسول الله، ورميهم له ولأمه بالعظائم، وحرصهم على قتله، وتفردهم دون الأمم بالخبث والبهت، وشدة مكالبتهم على الدنيا وحرصهم عليها، وقسوة قلوبهم وحسدهم، وكثرة (سحرهم)[3] فإليه النهاية.

وهذا وأضعافه من الجهل وفساد العقل قليل على من كذب رسل الله، وباء بمعاداته ومعاداة ملائكته وأنبيائه وأهل ولايته.

فأي شيء عرف من لم يعرف الله ورسله، وأي حقيقة أدرك من فاتته هذه الحقيقة، وأي علم أو عمل حصل لمن فاته العلم بالله والعمل بمرضاته ومعرفة الطريق الموصلة إليه وما له بعد الوصول إليه؟

فأهل الأرض كلهم في ظلمات الجهل والبغي إلّا من أشرق (عليه)[4] نور النبوة، كما في المسند وغيره من حديث عبد الله بن (عمرو)[5] عن النبي ﷺ قال: «إن الله خلق خلقه في ظلمة وألقى عليهم من نوره فمن أصابه من ذلك النور اهتدى، ومن أخطأه

= والسلوى: ما يشبه طائر السماني، كان يبعث الله عليهم الجنوب فتحشر عليهم السلوى، وهي السماني فيذبح الرجل منها ما يكفيه (النسفي: ١/٤٩).

(١) كما في قوله تعالى: ﴿وإذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها قال أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير...﴾ [البقرة: ٦١].

(٢) سقطت من ب، ج، ص.

(٣) في ص: سخرهم.

(٤) في الأصل: على نفسه.

(٥) في ص: عمر.

ضل»[1] فكذلك أقول: جفّ العلم على علم الله، ولذلك بعث الله رسله ليخرجوا الناس من الظلمات إلى النور، فمن أجابهم خرج إلى الفضاء والنور، ومن لم يجبهم بقي في الضيق والظلمة التي خلق فيها، وهي ظلمة الطبع وظلمة الجهل وظلمة الهدى وظلمة الغفلة عن نفسه وكمالها وما تسعد به في معاشها ومعادها.

فهذه كلها ظلمات، خلق فيها العبد فبعث الله رسله لإخراجه منها إلى (نور)[2] العلم والمعرفة والإيمان والهدى الذي لا سعادة للنفس بدونه البتة. فمن أخطأه هذا النور أخطأه حظه وكماله وسعادته، وصار يتقلب في ظلمات بعضها فوق بعض، فمدخله ظلمة ومخرجه ظلمة وقوله ظلمة وعمله ظلمة (وقصده)[3] ظلمة، وهو متخبط في ظلمات طبعه وهواه وجهله، (ووجهه مظلم)[4] وقلبه مظلم، لأنه مبقىً على الظلمة الأصلية، ولا يناسبه من الأقوال والأعمال والإرادات والعقائد إلاّ ظلماتها، فلو أشرق له شيء من نور النبوة لكان بمنزلة إشراق الشمس على (بصائر)[5] الخفاش[6].

بصائر غشاها النهار بضوئه ولاءمها قطع من الليل مظلم

يكاد نور النبوة يلمع (تلك الأبصار)[7] (ويخطفها)[8] لشدته وضعفها، فتهرب إلى الظلمات لموافقتها لها وملاءمتها إياها.

والمؤمن عمله نور وقوله نور، ومدخله نور ومخرجه نور وقصده نور، فهو يتقلب في النور في جميع أحواله، قال الله تعالى: ﴿اللهُ نورُ السمواتِ والأرضِ، مَثَلُ نورِهِ كَمِشكاةٍ فيها مصباح، المصباحُ في زجاجةٍ الزجاجةُ كأنها كوكبٌ دُرّي، يوقدُ من شجرةٍ مباركةٍ

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده: ٢/ ١٧٦ ـ ١٩٧، وأخرجه الترمذي في كتاب الإيمان: ص ١٨.
(٢) سقطت من ص والأصل.
(٣) في الأصل: وقضاؤه.
(٤) سقطت من ج.
(٥) في الأصل: بصر.
(٦) الخفاش: بضم الخاء وتشديد الفاء، طائر صغير الحجم لا يطير إلاّ ليلاً أو في ظلام الكهوف.
(٧) في ب، ج، ص: ذلك البصائر.
(٨) في ب، ج، ص: ويحفظها.

زيتونةٍ لا شرقيةٍ ولا غربيةٍ ، يكادُ زيتُها يضيءُ ولو لم تمسَسْهُ نار ، نورٌ على نور ، يهدي اللهُ لنورهِ من يشاء ، ويضربُ اللهُ الأمثالَ للناسِ واللهُ بكلِّ شيءٍ عليمٌ﴾[1].

ثم ذكر حال الكفار وأعمالهم (وتقلبهم)[2] في الظلمات فقال: ﴿والذين كفرُوا أعمالُهُمْ كَسَرابٍ بِقِيعةٍ يحسَبُهُ الظمآنُ ماءً حتى إذا جاءَهُ لم يجدْهُ شيئاً ، ووجدَ اللهَ عنده فوفَّاهُ حسابَهُ واللهُ سريعُ الحساب ، أوكظلماتٍ في بحرٍ لُجِّيٍّ يغشاه موجٌ من فوقِهِ موجٌ من (فوقِهِ)[3] سحابٌ ظلماتٌ بعضُها فوقَ بعضٍ إذا أخرجَ يدَهُ لم يَكَدْ يراها ، ومَنْ لم يجعلِ اللهُ له نوراً ، فما لهُ مِنْ نورٍ﴾[4].

والله أعلم
والحمد لله أولاً وآخراً، باطناً وظاهراً
وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين والمرسلين
وعلى آله وأصحابه أجمعين وسلم تسليماً كثيراً
إلى يوم الدين والحمد لله رب العالمين

***

(١) سورة النور: الآية ٣٥.
(٢) في الأصل: وتقلباتهم.
(٣) سقطت من الأصل سهواً.
(٤) سورة النور: الآيتان ٣٩، ٤٠.

خاتمة التحقيق

بعد هذه الرحلة الطويلة الشيّقة مع إمامنا العلامة ابن قيم الجوزية، ومع كتابه القيم «هداية الحيارى» لا بدّ لي أن أقف لأسجل أهم النتائج والفوائد التي توصلت إليها:

أولاً: لقد أوقفني هذا البحث على أحد الأئمة الأعلام الذين كان لهم باع طويل في التأليف والبحث بمختلف العلوم الإسلامية، وبأسلوب شيّق مرغوب فيه عند القدامى والمحدثين.

ثانياً: ظهر من خلال الدراسة التي قدّمتها مدى التقدم العلمي في القرن الثامن الهجري في مصر والشام، وقد برز ذلك في كثرة المدارس وانتشارها، وظهور أعظم المصادر والموسوعات في شتى العلوم الإسلامية واللغوية والتاريخية، فكان عصراً متميزاً في إنتاجه للرجال وإنتاجه للكتب والمؤلفات.

ثالثاً: كان ابن القيم رحمه الله يعيش مع أحداث عصره، على وعي كامل بما يحيط به، يتجاوب مع مطالب الأمة واحتياجاتها، يدافع عما يعتقد أنّه حق، وتدعمه أدلة الكتاب والسنّة.

ويظهر ذلك بتنوع مؤلفاته التي عالجت في ثناياها المشكلات التي كانت تعيشها الأمة، فنجده يتحدث عن بعض العادات الاجتماعية المخالفة للإسلام، كالمحلل في النكاح وغيره، ويتحدث عن بعض مظاهر الشرك التي كان البعض يمارسونها مثل شدّ الرحال إلى قبور الأنبياء والأولياء، والاستعانة بغير الله وبعض شطحات المتصوفة، ويجيب في كتبه الفقهية عن المسائل المطروحة، ويقاوم الفرق الضالة المنحرفة، فيكتب عن الجهمية والمعطلة من الرافضة والجبرية. ويردّ على بعض الشبهات التي كان يطرحها اليهود والنصارى، وما كان منها رائجاً عند الناس من مخلفات الغزو الصليبي.

رابعاً: كتاب هداية الحيارى، كتاب قيّم جداً، تميّز بخصائص لا تجدها مجتمعة في غيره مطلقاً. وحوى بأسلوبه المقنع ردوداً شافية على شبهات كثيرة يثيرها اليهود والنصارى.

خامساً: وجدت أن ابن القيم لم يكن يؤمن بأسلوب العنف والشتم في الرد على خصمه، وإنّما كان يؤمن بمبدأ دفع الشبهة بالحجّة والبرهان وبالجدال لا بالجلاد ـ كما أشار في مقدمته للكتاب ـ وكان يسلك في طريقته بالرد منهج «من فمك أدينك».

فقد شاهدت مئات النصوص التي استشهد بها ابن القيم من أسفار العهدين القديم والجديد مع علمه أن التحريف قد أصابها، ولكّنه يرفعها حجّة في وجه المؤمنين بها المعتقدين صحتها.

سادساً: أهمية هذا الكتاب تكمن في ملائمته لعصره، وفي سعته وتنوع موضوعاته، وأسلوب التشويق في قراءته، فهو يحدثك عن عقيدة أهل الكتاب بخالقهم وتحريفاتهم لكتبهم، كما يحدثك عن دلائل نبوة محمد ﷺ في كتبهم وفي غيرها، مستعملاً الدليل النقلي تارة، والدليل العقلي تارة أخرى، ويحدثك عن أصحابه رضوان الله عليهم، عن فضلهم وعلمهم وجهادهم، كما يحدثك عن قضايا دقيقة عميقة في معتقدات أهل الكتاب.

جزى الله إمامنا خير الجزاء، ووفقنا لإحياء تراثه وإبراز علمه ومؤلفاته.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم
وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

القسم الثاني
تحقيق الكتاب

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

❑ ❑ ❑